

العلاقات بين  
 الأنبياء الأئمة السلامية  
 وأسبانيا النصرانية  
 في عصر بني أمية  
 وملوك الطوائف

تأليف  
 الدكتور وجب محمد عبد العليم  
 معهد البحوث والدراسات الأفريقية  
 جامعة القاهرة

مكتبة  
 دار الكتب الإسلامية  
 دار الكتب المصرية دار الكتب اللبنانية  
 القاهرة بيروت

## هَذَا الْكِتَابُ

يُصَدِّرُ بِمُنَاسِبَةِ حُلُولِ الْقَرْنِ الْخَامِسِ عَشَرَ  
لِهَجْرَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

# محمد بن عبد الله

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

نَسْأَلُ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْ  
يَجْعَلَ لَهُ خَيْرًا وَرَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ آمِينَ

دار الكتب الإسلامية • دار الكتاب المصري • دار الكتاب اللبناني  
القاهرة بيروت

'Abd al-Halīm, Rajab Muhammad

العلاقات بين  
الأندلس والإسلامية  
واسبانيا النصرانية  
في عصر بني أمية  
وملوك الطوائف

تأليف  
الدكتور رجب محمد عبد الحليم  
معهد البحوث والدراسات الأفريقية  
جامعة القاهرة

الناشرون  
دار الكتب الإسلامية  
دار الكتاب المصري دار الكتاب اللبناني  
القاهرة بيروت



جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للنشر ،

**دار الكتاب المصري**

القاهرة - ج.م.ع

٣٣ شارع قصر النيل - ص.ب ١٥٦  
ت ٧٤٤١٦٨ / ٧٥٤٣٠١ - برقية (كتا مصر)

TELEX: 21581

ATT:134 K.T.MCAIRO

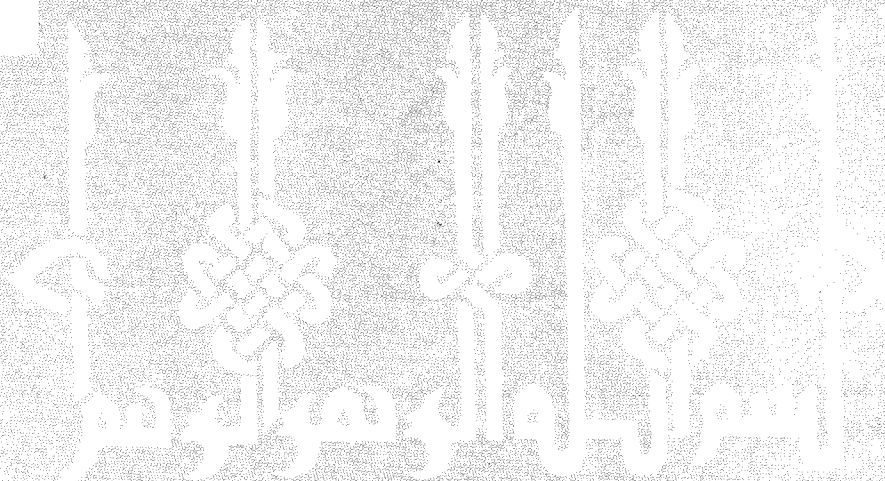
**دار الكتاب اللبناني**

بيروت - لبنان

ص.ب ٣١٧٦ - برقية (كتا لبنان)  
تلفون ٣٤٩٠٥٥ - ٣٤٩٣٧٠

TELEX: K.T.L 22865 LE  
BEIRUT







# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

أصبحت دراسة العلاقات بمعناها الواسع ، سياسية كانت أم اقتصادية أم ثقافية ، بين دولة وأخرى ، لها أهمية كبرى في معرفة قوة الشعوب والأمم ، وفي مدى ازدهار أو البوار الذي تتصف به دولة أو أخرى ، كما أنها دليل على صلاح أداة الحكم أو فسادها ، ومؤشر يضع يدنا على سلامة الخط السياسي ووحدة الجبهة الداخلية أو انقسامها . وعلى الباحث في هذا الميدان أن يغوص في أعماق المجتمعات وفيما يشكل حياتها من نظم سياسية واقتصادية وغيرها ، بل ربما يدرس البيئة الطبيعية والجغرافية ، كي يتعرف على طبيعة العلاقات بين الأمم والشعوب ويصل إلى العلل التي تؤدي إلى الغلبة والانتصار أو إلى الهزيمة والدمار ويضع يده على الأسباب التي تؤدي إلى انتصار حضارة أو انحسار أخرى ، ولماذا كان هناك سلم أو صراع في فترة معينة ، ولا يكتفى في ذلك كله بالسرد التاريخي للأحداث والوقائع ، والا ضاع جهده هباء منثورا .

ومن هنا تنبع أهمية دراسة العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأشبانيا النصرانية ، فهي تضع يدنا على مفاتيح القوة والضعف في هاتين الدولتين وهي في ذلك كالمرآة ، نرى فيها مجتمعات شبه الجزيرة على حقيقتها ومدى ما كان فيها من وحدة وتفرق ، وفضائل ونقائص ، وعدالة أو ظلم وغنى أو فقر ورفق الحياة أو انحطاطها ، لأن ذلك كله ينعكس على علاقات دول شبه الجزيرة الأيبيرية مع بعضها البعض ، سواء في الميدان السياسي أم في ميدان الحضارة ، لاسيما وأن هذه العلاقات مرت بثلاثة عصور



مختلفة متميزة : عصر الامارة الأموية ، وعصر الخلافة الأموية ، وعصر ممالك الطوائف . وكل عصر من هذه العصور ، له نظمه السياسية ومظاهره الحضارية التي تميزه عن غيره من العصور .

ودرستنا للعلاقة بين الممالك الإسلامية والنصرانية في اسبانيا في هذه العصور ، ما هي الا محاولة للوقوف على مظاهر الاحتكاك ونتائجه بين هذه الممالك ، سواء كان هذا الاحتكاك سياسيا أم عسكريا أم حضاريا . وتاريخ الاسلام ، في هذه البلاد يظهره ذلك الاحتكاك الذي نشب بينه وبين النصرانية ، والذي نسميه عادة بالعلاقات ، منذ ظهرت دعوة الاسلام وحتى العصر الحديث . ومن هنا تبرز أهمية دراسة العلاقات بين الاسلام والنصرانية على أرض شبه الجزيرة . اذ كانت تلك الأرض ميدانا رحبا ، تصارعت فيه العقيدتان وجها لوجه مدة أربعة قرون متصلة ، تبادلتا فيها النصر والهزيمة ، حتى كتب الفوز في نهايتها للمسلمين بانتصارهم فيوقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

وليس معنى ذلك أن الصراع قد توقف وانما استمر عدة قرون أخرى كتب في نهايتها النصر للنصرانية ، وتم اخراج المسلمين من الأندلس ، ولكننا نقصر حديثنا الآن على فترة الصراع الأولى التي استمرت حتى اقتربت نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، خاصة وأنه لم يحن أحد حتى الآن بابرار العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الأسبان أو قام بدراساتها في تلك الفترة ، وذلك لغموض كثير من جوانبها السياسية ولصعوبة الخوض في دراسة تأثيراتها الحضارية المتبادلة بين الجانبين ، اذ أن القوى السياسية وخاصة النصرانية ، لم تتشكل كلها في وقت واحد ، ولم تأخذ شكلها النهائي الا بعد عصور عديدة ، وكانت دائما في تطور مستمر . ففي عصر الولاة ، كانت هناك دولة نصرانية واحدة في الشمال الأسباني هي دولة جليقية وإستريس ، وفي عصر الامارة الأموية ، كانت هناك دولتان نصرانيتان ، هما دولة جليقية السابقة ودولة نبرة ( نافار ) . وفي عصر الخلافة صارت ثلاثا ، هي جليقية التي تسمت باسم ليون ، ونبرة وقشتالة ، وفي عصر ممالك

الطوائف صارت أربعاً ، هي الدول السابقة مضافاً إليها دولة جديدة هي دولة أرغونة . هذا بخلاف إمارة برشلونة التي كانت تتبع ملوك الفرنجة في فرنسا .

وبالمثل ، كانت القوى السياسية في الأندلس الإسلامية تتشكل وتتمايز من عصر لآخر ، فهي في عصر الولاة ، غيرها في عصر بنى أمية ، غيرها في عصر ملوك الطوائف . فكل عصر له سماته الواضحة ، سواء في أنظمة الحكم ، أو في أسلوب الحياة كما أثرنا من قبل . ومع هذا فقد عكفنا على البحث والدراسة لإبراز العلاقة السياسية بين مسلمي الأندلس ونصارى الأسبان ، منذ أن وطئ المسلمون أرض شبه الجزيرة وحتى نهاية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، فأزلنا عنها غموضها ، وجمعنا شتاتها ، وحللنا دوافعها وعرفنا نتائجها ، بعد أن عرضنا لمظاهرها السياسية والعسكرية والحضارية .

وقد اعتنى بعض المؤرخين القدامى بالحديث عن الجانب السياسي والعسكري من تلك العلاقات ، وغفل معظمهم عن أن الحياة هناك لم تكن كلها حرباً متصلة ، ولم تكن الأيام كلها معارك بين شعبين اختلطاً أشد اختلاطاً ، ولم تكن العلاقات بينهما تقتصر على مجرد خروج الجيوش سواء من هذا الجانب أو ذاك ، للاغارة على الجانب الآخر ، بل كانت هناك مظاهر ودلائل لقيام علاقات سلمية بين الطرفين ، لكنها لم تبرز على السطح ولم تعط حقها من الأهمية والبحث ، بسبب تركيز المؤرخين القدامى على العلاقات الحربية ، وعدم الالتفات إلى غيرها من العلاقات السلمية أو الحضارية ، والتي تتمثل في التأثيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية بين شعبين كانا في الأصل شعباً واحداً ، وبين دولتين تسكنان على أرض واحدة هي أرض أسبانيا .

ذلك أن دوام التداخل بين شعوب شبه الجزيرة حقيقة لا يمكن إنكارها ، فالأسباني المسلم لم يكن شخصاً أجنبياً أو مختلفاً عن الأسباني المسيحي ، فقد غدا له صهراً ونسباً ، أو جارا تتصل حياته بحياته

ان سلما أو حربا . وكانت الإمارات أو الممالك النصرانية في الشمال ، تضم أعدادا من المسلمين منذ وقت مبكر ، وكانت الممالك الإسلامية في الأندلس تضم أيضا بين رعاياها نسبة عالية جدا من المسيحيين . هذا بالإضافة الى أن الحدود بين الممالك الإسلامية والممالك النصرانية في شبه الجزيرة ، لم تكن حدودا ثابتة أو جامدة أو مغلقة ، لأنها لم تكن حدودا طبيعية وقد تبادل المسلمون والنصارى حكم كثير من المدن والاقاليم ، خاصة تلك التي تقع بين الطرفين والتي تسمى بالثغور ، وأدى ذلك الى احتكاك متصل ومستمر بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية .

هذا الاحتكاك بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا سواء كان أثناء الحروب أم أثناء فترات السلم ، وما أكثرها وأطولها ، كان له تأثيره على الطرفين في مجال الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وكانت الأندلس أشد تأثرا ، لأنها كانت صاحبة الحضارة الأقوى ، ومن هنا كان لها تأثيرها الشديد على الممالك النصرانية في الشمال الإسباني . وعن هذا الطريق امتدت تلك الحضارة الى جنوب فرنسا وإلى كثير من أنحاء أوروبا . ومن هنا كان لدراسة العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية أهمية كبرى من تلك الزاوية .

وتبدأ العلاقات السياسية والحضارية بين الدولتين بعد تمام الفتح بفترة وجيزة ، ذلك أن المسلمين كانوا قد تركوا الركن الشمالى الغربى من شبه الجزيرة دون فتح ، استصغارا لشأنه ، ونظرا لبرودته الشديدة ، ولطبيعته الصخرية القاحلة . وفي هذه المنطقة ظهر نبيل قبلى يدعى بلاى . استطاع هذا النبيل أن يستثير أهل اقليمه المسمى اثستريس Asturias الواقع شمالى جليقية ، ويقيم هناك أول مملكة نصرانية ، هى مملكة جليقية وأثستريس ، منذ بداية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى .

ولم تعد إسبانيا منذ ذلك التاريخ قطرا اسلاميا خالصا ، وانقسمت الى دولة مسيحية في أقصى الشمال ، ودولة اسلامية في باقى شبه الجزيرة ، وسوف تسير كل منهما في طريقها ، وسوف يستمر الصراع بينهما أثناء فترة الحكم الأموى ، وفي فترة حكم ملوك الطوائف . وكانت



الغلبة في هذا الصراع للمسلمين أيام الأمويين ، ولنصارى الشمال أيام ملوك الطوائف ، ثم عادت الغلبة مرة ثانية للمسلمين في نهاية عصر الطوائف على يد المرابطين ، عقب موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م

وقد قسمنا هذا البحث الى مقدمة تاريخية وأربعة أبواب . تحدثنا في المقدمة عن أحوال الأندلس الإسلامية في عصر الولاة ( ٩٥ — ١٣٨ هـ ) وعن العوامل التي أدت الى قيام المقاومة النصرانية ، ممثلة في مملكة جليقية واشتريس ، والى انتهازها فرصة الصراع القبلى في الأندلس الإسلامية ، فقامت بالتوسع جنوبا وطردت المسلمين الموجودين في اطراف جليقية ، وحازت ما يقرب من ربع شبه الجزيرة ، وأصبحت حجر الزاوية للمقاومة النصرانية التي نمت وازدادت فيما يلى ذلك من عصور .

وتحدثنا في الباب الاول ، عن العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر أمراء بنى أمية ( ١٣٨ — ٣١٦ هـ ) ووضحنا سمات هذا العصر ، وبيننا عوامل القوة والضعف التي شكلت العلاقات بين الدولتين في تلك الفترة ، سواء كانت تلك العوامل تتعلق بنظم الحكم أم بظروف طبيعية وجغرافية وبشرية ، أم بأسباب دينية أو اجتماعية أو اقتصادية . ثم تناولنا تلك العلاقات ، ووضحنا طبيعتها وأهدافها ، وما ثار من معارك وصراع ، وما كان من سلام ومصالحة بين هذين الشعبين اللذين يعيشان على أرض واحدة .

وكانت النتيجة أن أمراء بنى أمية استطاعوا أن يصدوا هجوماً نصارى الأسبان ، وأن يوقفوا توسعهم ، وأن يردوهم على أعقابهم كلما حاولوا العدوان ، واستمرت الحدود ثابتة بينهما ، ولم يخسر مسلمو الأندلس شيئاً ذا بال الا في أواخر عصر الامارة ، حيث ضعفت تلك البلاد ، لما أصابها من تشتت وتمزق وحروب أهلية .

وفعلنا نفس الشيء في « الباب الثانى » ، وتحدثنا فيه عن العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر الخلافة ، وكانت القوى السياسية قد أخذت شكلها النهائى في ذلك العصر ، وأصبح

الشمال النصرانى يضم الاقسام السياسية التى عاشت بعد ذلك واستمرت حتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . كما ظهرت الخلافة الأموية فى الأندلس الإسلامية منذ عام ٣١٦ هـ ، واستمرت أكثر من قرن ، ونقلت تلك البلاد الى عصر جديد تسوده الوحدة والقوة طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ولذلك سادت وانتشرت على ممالك اسبانيا النصرانية المشتقة المتناحرة ، ثم هوت الخلافة الأموية بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وأنقلب ميزان القوة لصالح نصارى الشمال .

ومع ذلك فان عصر الخلافة يختلف تماما عما سبقه من عصور فى شكله السياسى وفى مظاهره الحضارية ، وفى علاقاته السياسية والعسكرية وكانت الغلبة فى معظمه للخلافة الأموية سواء فى الميدان السياسى أو العسكرى أم فى الميدان الحضارى ، وأصبح عبد الرحمن الناصر سيدا لشبه الجزيرة كلها ، مسلميها ونصاراها ، شمالها وجنوبها وأنته وفود ممالك اسبانيا النصرانية خاضعة راکعة ، تطلب السلام وتمد يدها بالجزية وتبايع على الطاعة والاذعان .

وفى الباب الثالث ، تحدثنا عن العلاقات السياسية بين ممالك الطوائف وبين ممالك اسبانيا النصرانية ، ووضحنا سمات ذلك العصر ، وألقينا نظرة عامة على أحوال ممالك الطوائف ، وبيننا ما انتابها من ضعف سياسى واقتصادى ، وتناحر عسكرى وفساد اجتماعى ، وما كان لذلك من اثر على علاقاتها مع اسبانيا النصرانية . كما ألقينا نظرة عامة على أحوال نصارى الشمال الاسبانى ، وبيننا ما سادهم من وحدة داخلية تحت حكم أسرة آل شانجه الكبير ، وما نتج عن ذلك من ازدياد قوتهم وتفوقهم .

وقد بينا عوامل تلك القوة وذلك التفوق ، وختمنا بالحديث عن العلاقات السياسية بين الدولتين فى تلك الفترة ، ووضحنا ما اصطبغت به تلك العلاقات من صبغة صليبية ميزت هذا العصر عن غيره

من العصور السالفة ، وأدت الى انقلاب ميزان القوة السياسية والعسكرية لصالح أسبانيا النصرانية ، حتى أنها أصبحت تتحكم في مصر شبه الجزيرة ، وأصبح ملوك الطوائف مجرد ولاة يجبون لهم الضرائب ويدينون لهم بالطاعة .

وقد انحصر هذا المد الصليبي عقب فوز المسلمين على نصارى الأسبان في موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ / ١٠٨٦ م بفضل جهود المرابطين . لكننا لم نجعل موقعة الزلاقة ختاماً للحديث عن العلاقات بين أسبانيا النصرانية وممالك الطوائف ، لأن تلك الممالك لم تسقط كلها في يد المرابطين دفعة واحدة ، أو في وقت واحد ، اذ احتفظ بعضها باستقلالها ، وكانت لها علاقاتها مع أسبانيا النصرانية حتى نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، مما اقتضى منا مواصلة الحديث عن تلك العلاقات واستيفائها حتى سقوط تلك الممالك اما في يد أسبانيا النصرانية أو في يد المرابطين .

وفي الباب الرابع والآخر ، تحدثنا عن أهم التأثيرات الحضارية بين الممالك الاسلامية والنصرانية في الأندلس ، في عصر بنى أمية وملوك الطوائف . وفي هذا الحديث تقصينا العوامل التى جعلت هذه التأثيرات بين هذين الشعبين المتلاصقين ممكنة ، وأبرزنا الدوافع والأسباب التى هيأت الفرصة لحدوثها وتفاعلها . ولابد لهذه التأثيرات سواء كانت متبادلة أم من جانب واحد ، من قنوات تسلكها لى تصل الى الطرف الآخر فنعكسنا على البحث ، وأبرزنا تلك القنوات أو السبل التى سلكتها التيارات الحضارية بين الجانبين ، وتحدثنا عن مظاهرها سواء في ميدان الحياة الاجتماعية أم الثقافية أم الاقتصادية .

ورأينا أن الحضارة الاسلامية في الأندلس ، كان لها السبق والتفوق بحكم أنها حضارة الدولة الغالبة ، والغالب يتبعه المغلوب بحكم العادة ، كما أنها كانت حضارة متفوقة راقية ، صقلها الاسلام ، وهذبها المسلمون ، ونثروا عليها من زهور علومهم ، وأطايب فنهم ، وفاكهة



أديهم ، حتى صارت تلك الحضارة هي النبراس الذى أضاء ظلمات  
إسبانيا النصرانية وغرب أوروبا فى تلك الفترة ، وهى النهر المتدفق  
الذى نهلت منه أوروبا فى بناء نهضتها الحديثة .

وبعد ، أرجو أن أكون قد وفقنى الله فيما ذهبت اليه فى هذا  
البحث ، ولا أدمى الكمال فالكمال لله وحده ، وما أكون قد أصبته من  
توفيق بفضل الله وبتوجيه أستاذى الجليل الدكتور أحمد السيد دراج ،  
أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة القاهرة ، فله منى ولن قدموا لى يد  
المساعدة كل شكر وتقدير والله الموفق وهو المستعان .

رجب محمد عبد الحليم

## بحث في أهم المصادر والمراجع

قبل أن نستعرض في الحديث عن العلاقات بين الممالك الإسلامية والممالك النصرانية في إسبانيا في عصرى بنى أمية وملوك الطوائف ، لابد أن نقول كلمة عن المصادر والمراجع التى أفادتنا فى هذه الدراسة ، لأنها تبين مدى الجهد الذى بذلناه فى جمع شتات هذا الموضوع الذى تتكرر أحداثه الآن بصورة أو بأخرى بين الاسلام والنصرانية أو بين الاسلام والشيعية فى بقاع كثيرة من عالم اليوم .

وفى هذه الدراسة كان اعتمادنا على عدد كبير من المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة . وتتوزع هذه المصادر بحيث تشمل كتب التاريخ والأدب والجغرافيا والطبقات والحسبة ، وكتباً تقتصر الحديث على دولة معينة أو فترة زمنية محددة ، أو على فن من الفنون أو مهنة من المهن .

أما كتب التاريخ فعديدة . وكان اعتمادنا على ما كان منها معاصراً للأحداث أو قريباً منها ، مثال ذلك نص عبد الملك بن حبيب ( ت ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ) ، الذى نشره الدكتور محمود على مكى بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بهدريد ، وهو من أقدم ما ألفه العرب فى تاريخ الأندلس . وكان اعتمادنا عليه وعلى كتاب الإمامة والسياسة ، المنسوب لابن قتيبة ( ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م ) فى الحديث عن عصر الولاة الذى تضمنته المقدمة التاريخية للبحث .

ومن أشهر المؤرخين الذين عاشوا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، اثنان ، هما الرازى ( ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ) ، وابن القوطية ( ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ) . أما الرازى ، فكان له كتاب فى أخبار ملوك الأندلس وغزواتهم ، وكتاب فى أخبار عمر بن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى والتجيبين وبنى الطويل . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يبق منها الا ما اقتبس منه من اثنى بعده من المؤرخين والكتاب ،

أمثال ابن حيان والعزري وابن الكردبوس وابن عذارى وابن الأبار وغيرهم . وتعد كتاباته من أدق الكتابات عن أمراء بنى أمية وخلفائهم .

أما ابن القوطية ، فله كتاب ( تاريخ افتتاح الأندلس ) وهو يسرد أخبار الأندلس منذ الفتح حتى بداية القرن الرابع الهجرى . ويمتاز هذا الكتاب بمعلوماته القيمة عن العلاقات بين العرب وبين أهل البلاد وعن أوضاعهم الاقتصادية ، وعن علاقة بنى أمية بأمراء الثغور ونصارى الشمال .

ومن أشهر المؤرخين الذين عاشوا في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ابن حيان ، والعزري وابن بلقين . ويعتبر ابن حيان ( ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م ) شيخ المؤرخين الأندلسيين وعمدتهم ، نظرا لدقة كتاباته وموضوعيته الشديدة . وقد ضاع تاريخه المسمى المقتبس في أخبار الأندلس في الفترة الأخيرة من عصر إمارة . ولحسن الحظ فقد نقل عنه بعض المؤرخين وحفظوا لنا بعضا من هذه الثروة التاريخية النادرة ، مثل ابن بسام وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون والمقرئ وغيرهم .

ويعتبر كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر العزري ( ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ) الذى حققه الدكتور عبد العزيز الأهوانى ونشره فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، من أجود الكتب وأحسنها فى الحديث عن الثغور الإسلامية ، وعن الأسرار التى استقلت بها وعلاقتها بقرطبة وبنصارى الشمال الأسباني ، لاسيما وأنه اعتمد فى ذلك على أحمد بن موسى الرازى ( ت ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ) وعلى ابنه عيسى ( ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ) ، وأورد لنا عددا كبيرا من غزوات المنصور ابن أبى عامر ، وساعدنا بذلك فى القضاء على الشك الذى ساور البعض فى حقيقة وعدد هذه الغزوات التى زادت عن الخمسين .

أما مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين آخر ملوك بنى زيرى أصحاب غرناطة ، والتى تعرف باسم « كتاب التبيان عن الحادثة الكائنة بغرناطة » ، فهو وثيقة نادرة من أحد ملوك عصر الطوائف ، ومن شاهد عيان



على أحداث عصره ، لاسيما وأنه شارك في هذه الأحداث وكان أحد أطرافها ، فحكى لنا قصة مملكة غرناطة ، وعلاقاتها مع نصارى الشمال الأسباني ، وذلك في مجال الدفاع عن نفسه وعن علاقاته مع هؤلاء النصارى . ويلاحظ القارىء حيرته الشديدة بين الفونسو السادس ملك قشتالة وليون وبين يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين وأمير المسلمين، وتردده في الولاء لهذا أو ذاك . ثم يقرر أخيرا التعاون مع الفونسو ، ويتصل به ويدفع له الجزية . وقد أفدنا منه كثيرا في هذه المجالات .

ويأتى بعد هؤلاء ، مؤرخون لا يقلون أهمية أو قدرا ، وإن كانوا متأخرين عن سبقهم ، مثل ابن الكردبوس ، وابن عذارى وابن الخطيب وابن خلدون . وابن الكردبوس عاش في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجريين ، فلم يبعد كثيرا عن أحداث عصر ملوك الطوائف ، وله كتاب هام يسمى الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، نشره الدكتور أحمد مختار العبادى بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمطرد . وهو من الكتب النادرة التى لا يستغنى عنها من يكتب فى تاريخ خلفاء بنى أمية وملوك الطوائف ، رغم احتوائه على بعض الأخطاء التاريخية واللغوية . وقد صحح لنا هذا الكتاب معلوماتنا عن عصر المنصور بن أبى عامر فيما يتعلق بعلاقاته بأسبانيا النصرانية وعرفنا لأول مرة أنه لم يكن انسانا مدمرا مخربا فى حروبه كما كان معروفا عنه من قبل .

ويعد كتاب ابن عذارى المراكشى الذى عاش فى القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، المسمى « البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب » الأساس الذى بنى عليه من أتى بعده من المؤرخين ، ونقلوا عنه نقلا حرفيا دون أن يكلفوا أنفسهم مجرد الإشارة إليه . وهو أهم ما لدينا من المصادر عن تاريخ المسلمين بالأندلس منذ الفتح الإسلامى حتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، ويعد أشمل تاريخ لحوادث الأندلس السياسية والاجتماعية والحروب التى دارت بين العرب والفرنج ونصارى الأسبان ، وبين العرب بعضهم وبعض ، ولذلك كان اعتمادى عليه كبيرا فى جميع أبواب البحث ، وبصفة خاصة على جزئه الثانى والثالث والرابع ، لاسيما وأنه يضم مجموعة قيمة من النصوص التى لا تقدر قيمتها

أوردها ابن عذارى منسوبة الى أصحابها في الغالب ، ويبدو أنه في أثناء نقله عنهم ، وقع في بعض الأخطاء التاريخية أشرنا اليها في ثنايا البحث . لكن ذلك لا يقلل من قيمة هذا السفر الذي لا بد أن يعتمد عليه أى باحث في تاريخ الأندلس والمغرب .

أما لسان الدين بن الخطيب ( ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م ) ، فله كتب عديدة ذكرتها في قائمة المصادر ، أهمها الجزء الثانى من كتابه المسمى « أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام » ، و « الاحاطة في أخبار غرناطة » ، و « الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية » . أما كتاب أعمال الاعلام ( الجزء الثانى ) ، فهو مفيد جدا في تاريخ الأندلس وعلاقاته بنصارى الشمال الأسباني ، وهو ينقل عن ابن عذارى ، لكنه يخصص جزءا لأخبار ملوك قشتالة ، نقله عن أحد علمائها الذي كان سفيرا لملك قشتالة الى السلطان المريني أبى فارس بن عبد العزيز ، لكنه يحوى كثيرا من الأخطاء عند ذكره لتواريخ تولية ملوك أسبانيا النصرانية أو وفاتهم . وكتابه الثانى « الاحاطة في أخبار غرناطة » مفيد في الحديث عن هذه المملكة وعن علاقاتها بغيرها من دول شبه الجزيرة ، أما كتابه المسمى « الحلل الموشية » ، فهو عظيم الفائدة ، لأنه احتوى على عدد كبير من الرسائل المتبادلة بين ملوك الطوائف ، خاصة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية ، وبين الفتنش ( الفونسو ) السادس ملك قشتالة وليون ، وأيضا بينه وبين يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين . ولذلك كان اعتمادنا عليه كبيرا في توضيح العلاقة بين ملوك الطوائف في أخريات أيامهم وبين ملوك أسبانيا النصرانية .

وقد اعتمدنا على ما كتبه ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م ) في الجزء الرابع والسادس من كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » في الحديث عن علاقة خلفاء بنى أمية بملوك أسبانيا النصرانية ، وإن كنت قد لاحظت كثيرا من الأخطاء في ذكر التواريخ والاسماء . وقد اعتمد ابن خلدون في كثير من الأحيان على الرازى وابن حيان ، مما يزيد من أهمية كتابته . واعتمدت أيضا على مقدمته ، وخاصة في الحديث عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية .

وهناك مخطوطات اعتمدنا عليها في بعض نواحي البحث ، وهي مصادر متأخرة تاريخيا . لكن بعضها أفادنا واعطانا أفكارا جديدة بالنسبة لبعض أمراء بني أمية . وهي بوجه عام قليلة الأهمية بالنسبة للمصادر المطبوعة التي أشرنا إليها حتى الآن ، وهي تستقى مادتها من هذه المصادر في الغالب . ومن أهم هذه المخطوطات ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، لابن فضل الله العمري ( ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م ) ، ونهاية الأرب في فنون الأدب للنويري ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م ) ، وعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، للعيني ( ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٠ م ) ، ومرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، لابن الجوزي ، ( ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٧ م ) ، والجمان في أخبار الزمان ، لمحمد الشطبي المغربي ، وناصر الدين على القوم الكافرين للحجري الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري .

كما اعتمدنا أيضا على بعض كتب المشاركة من المؤرخين مثل ابن الأثير وأبو الفداء وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ) ، يعد أحسن مؤلف ظهر في المشرق عن الأندلس ، وهو ينثر تاريخها في دقة أثناء حديثه عن تاريخ الدولة الإسلامية ، باعتبار أن الأندلس جزء من هذه الدولة . وقد اتبع ابن الأثير نظام الحوليات أي سرد الأحداث حسب السنين وكذلك فعل أبو الفدا ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م ) في تاريخه .

وهناك كتب تاريخية هامة مجهولة المؤلف ، من أهمها كتاب أخبار مجموعة في فتح الأندلس . ويبدو أنه كتب في عهد حكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر ( ت ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ) . وقد أبدى هذا الكتاب أهمية خاصة لحركة المقاومة النصرانية ، وللحركات المناهضة لحركة المقاومة النصرانية ، وللحركات المناهضة لحكام قرطبة ، مما أفادنا كثيرا في الحديث عن هذه النواحي . وهناك كتاب مغاخر البربر الذي نشره ليفي بروفنسال ، وكتاب شرح حال الكنيسة ، وكتاب الطبيخ في المغرب والأندلس وهي كتب أفادتنا في الحديث عن القوى الداخلية ، وفي موقف الكنيسة المسيحية من الحكم الإسلامي ، وفي التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاجتماعية .

أما الكتب الأدبية التي اعتمدنا عليها في هذا البحث فهي كثيرة أيضا ومن أشهرها حسب ترتيبها الزمني ، كتب ابن عبد ربه وابن حزم وابن شهيد وابن بسام والمقرئ . وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه ( ت ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م ) مشهور ذائع الصيت ، وقد أورد المؤلف صفحات قليلة عن تاريخ أمراء بني أمية وخلفائهم ، وقد استفدت منه في معرفة أسماء غزوات عبد الرحمن الناصر ضد أسبانيا النصرانية ، وتواريخها ونتائجها أوردتها خلال أرجوزات شعرية ، لا تنفي بالغرض في المجال التاريخي .

أما كتب ابن حزم ( ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٦ م ) ، فهي كثيرة ومتنوعة وهامة جدا ، لأنه عاصر فترة الخلافة الأموية الأخيرة ، وعاصر عصر ممالك الطوائف ، فهو شاهد عيان على أحداث عصره ، كما أنه يمتاز بأنه من أشهر كتاب الأندلس وأغزرهم علما وأبعدهم صيتا ، وذلك بسبب المناظرات والمساجلات العلمية التي دارت بينه وبين علماء وفقهاء عصره ومن أهم كتبه التي اعتمدنا عليها ، كتاب « طوق الحمامة في الألفة والألاف » و « رسائل ابن حزم » و « نقط العروس في تواريخ الخلفاء » و « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، « والرد على ابن النغيلة اليهودي » و « جمهرة أنساب العرب » وقد استفدنا منها كثيرا في التعرف على أحوال البلاد في الفترة التي عاشها ، وخاصة أحداث الفتنة البربرية ، وفي علاقة البلاد بممالك أسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف ، وتشوب كتابته رنة حزن شديد على ما أصاب بلاده من دمار ، وما لحق بها من مهانة قومية بسبب الاستعانة بملوك الأسبان في الصراعات الداخلية في الأندلس .

ولجأ زميله ابن شهيد ( ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م ) الى أسلوب الرمز في كتابه « رسالة التوايع والزوايع » ، وجعلها على لسان الجن ، وتعرض فيها لأحداث الأندلس ، وما ألم بها من محن . وقد استفدنا منها كثيرا في تفسير الأحداث التي أدت الى انهيار بني أمية ، وإلى السيطرة النصرانية على البلاد . وكتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » ، لابن بسام الشنتري ( ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٦ م ) من أهم الكتب الأدبية التي وردت فيها صفحات عديدة عن أحداث الأندلس بأسلوب أدبي ، قلل من قيمتها

التاريخية ، لكنه اعتمد فيها على شيخ المؤرخين الأندلسيين وهو ابن حيان ، فأخذ من كتابه بالنص أو بالتلخيص ، وأنبأنا بذلك في تواضع وصراحة خليقين بالاعجاب . ولذلك استفدنا كثيرا من كتابه هذا واستقيننا منه معلومات غاية في الأهمية خاصة بعصر الخلافة وملوك الطوائف والعلاقة مع نصارى الشمال والدعوة الى الوحدة وترك الاستعانة بهؤلاء النصارى لم نجد لها في مصدر آخر .

أما كتاب المتري ( ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م ) المسمى « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، فرغم أنه مصدر متأخر تاريخيا ، فإنه صاحبه وهو بعيد عن وطنه ، إلا أنه موسوعة أدبية تاريخية كبرى ، جمع كثيرا ونقل كثيرا عن كتب ضاعت أصولها مثل كتاب الرازي وابن حيان وغيرهم . ولذلك فهو كتاب جليل الفائدة لكل من يعنى بتاريخ الأندلس . وكان اعتمادنا عليه كثيرا في أبواب الكتاب المختلفة ، وخاصة بالنسبة لما نقله عن الرازي وابن حيان .

ومن أشهر كتب الطبقات والتراجم التى اعتمدنا عليها في هذا البحث ، كتاب الخشنى وابن الفرضى وصاعد الطليطلى والحميرى وابن بشكوال وابن الأبار وابن سعيد وابن شاكر الكتبى وابن خلكان . وكتب الطبقات لها أهمية كبرى في الحديث عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، وربما وجدنا فيها اشارات تاريخية لنعثر عليها في أهم الكتب التاريخية . لذلك فهى مصدر لاغنى عنه للباحث في تاريخ الأندلس خاصة وانها تعطى تراجم لرجال السياسة بجانب رجال الأدب والفقه والعلم وغيرهم ، مما يجعلها عظمة الفائدة .

والأربع الأول من مؤلفى كتب الطبقات الذين اشرنا اليهم معاصرون للأحداث في عصر خلفاء بني أمية وعصر ملوك الطوائف ، لذلك فإن كتابتهم هامة جدا لهذا السبب . ألف أولهم وهو الخشنى ( ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م ) ، كتابا هاما في تاريخ قضاة قرطبة ، أورد فيه أخبارا طيبة افادتنا كثيرا في التعرف على التيارات والتأثيرات الحضارية في مجال

الأدب والحياة الاجتماعية ، يليه ابن الفرضي ( ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م )  
الذي ألف كتابا في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، أورد فيه  
أخبارا هامة عن الفتنة البربرية وسقوط دولة بنى عامر .

أما صاعد الطليطلى ( ت ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م ) ، فقد ألف كتابا  
عن طبقات الأمم ، أفادنا في الحديث عن الأجناس والعناصر التي  
تسكن شبه الجزيرة ، وألف الحميري ( ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م ) الذي  
كان معاصرا أيضا للووك الطوائف كتابا يسمى « جذوة المقتبس في ذكر  
ولاة الأندلس » حكى في أوله تاريخ أمراء وخلفاء بنى أمية نقلا عن  
استاذة ابن حزم . ثم نقل عنه فيما بعد الضبي ( ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م )  
في كتابه « بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس » ، كما نقل عنه  
أيضا عبد الواحد المراكشي ( ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م ) في كتابه « المعجب  
في تلخيص أخبار المغرب » ، فيما حكاه كل منهما عن تاريخ بنى أمية في  
الأندلس .

ورغم أن ابن بشكوال ( ت ٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م ) وابن الأبار ( ت ٦٥٨ هـ /  
١٢٦١ م ) ، وابن سعيد ( ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م ) متأخرون زمنيا عن  
مؤلفي كتب الطبقات السابقين ، إلا أنهم أغزر مادة وأكثر فائدة ، فابن  
الأبار مثلا ، لم ينهج في كتابه « الحلة السراء » ، على طريقة الآخرين  
في ذكر التراجم حسب الحروف الأبجدية ، ولكنه جعلها حسب القرون ،  
مبتدئا بالقرن الأول الهجري ومنتهيا بالقرن السابع الهجري ، مما يسهل  
مهمة الباحث ، كما أنه ينقل فيما رواه من أخبار تاريخية عن ابن حبان  
الذي أشرنا الى قيمته التاريخية ، وأورد ابن سعيد في كتابه « المغرب  
في حلى المغرب » معلومات جغرافية واقتصادية هامة أفادتنا كثيرا في الحديث  
عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية .

ومن كتب الطبقات المشرقية كتاب « وفيات الأعيان » لابن خلكان  
( ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٤ م ) وكتاب « فوات الوفيات » لابن شاكر الكتبي  
( ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٠ م ) وهو ذيل على كتاب ابن خلكان ، وقد وردت

فيها تراجم لمشاهير الأدباء والفقهاء والسياسيين الأندلسيين ، منها ما ذكره ابن خلكان عن معركة الزلاقة بتفصيل لا نجده عند غيره من المؤرخين .

وكانت كتب الجغرافيا والرحلات ذات فائدة كبرى في التعرف على الحياة الطبيعية والبيئة الجغرافية ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية لدول شبه الجزيرة ، مما ساعدنا على التعرف على التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية خاصة وأن معظم مؤلفي الجغرافيا والرحلات الذين اعتمدنا عليهم اما أندلسيون أو زاروا الأندلس ، ورصدوا في كتبهم ما راوه بأنفسهم رأى العين ، أو نقلوا عن رأى وعاصر الأحداث .

ومن أشهر هذه الكتب حسب ترتيبها الزمني ، « كتاب المسالك والممالك » لابن حوقل الذي زار الأندلس في عصر عبد الرحمن الناصر ، وأورد لنا أخبارا في غاية الأهمية عن قوة الدولة الاقتصادية والسياسية . وكذلك هناك كتاب نصوص عن الأندلس ، للعذري ( ت ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ) وهو كتاب تاريخي جغرافي سبقت الإشارة اليه ، وكتاب « تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس » لابن غالب الذي عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وهو من نفس طراز كتاب العذري ، وكتاب « معجم البلدان » لياقوت ( ت ٦٢ هـ / ١٢/٣٠ م ) ، وكتاب « صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس » ، وهو مأخوذ عن كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الإدريسي ( ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥٣ م ) .

وهناك كتاب « بسط الأرض في الطول والعرض » لابن سعيد المغربي ( ت ٦٣٢ هـ / ١٢٧٥ م ) ، وكتاب « تقويم البلدان » لأبى الفدا ( ت ٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م ) ، وكتاب « وصف أفريقيا والمغرب والأندلس » ، وهو مأخوذ من كتاب « مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » لابن فضل الله العمري ( ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م ) ، وكتاب « صفة جزيرة الأندلس » ،

المأخوذ من كتاب « الروض المعطار في خبر الأقطار » لمحمد بن عبد الله الحميرى المتوفى في أواخر القرن التاسع الهجرى .

وهناك أيضا كتب الحسبة ، ومن أشهرها كتاب « ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة والمحتسب » ، لابن عبدون الذى عاش في أواخر القرن الخامس الهجرى ، مما يجعل لكتابه أهمية كبرى . وقد استفدنا منه كثيرا في التعرف على الحياة الاجتماعية وما شابها من تأثيرات نصرانية ، وفيه اشارات عديدة تدل على مظاهر الضعف التى كانت تنتاب البلاد في عصره . وهناك كتاب آخر في الحسبة للسقطى ، نشره ليفى بروفنسال . لكنه لا يصل الى أهمية كتاب ابن عبدون لأنه يقصر الحديث على المهن وقوانينها ، ولا يتمتع صاحبه بملكة النقد والتعليق على أحداث الحياة كما فعل ابن عبدون .

أما المراجع العربية الحديثة التى استفدنا منها فكبيرة . من أهمها كتب الدكتور حسين مؤنس ، وخاصة كتابه « فجر الأندلس » و « بلاى وميلاد أشتريس » . وقد أفادا كثيرا في مقدمة البحث . وكذلك كانت الاستفادة عظيمة مما كتبه الأستاذ / محمد عبد الله عنان عن الأندلس في كتبه العديدة الجليلة القدر العظيمة النفع ، والتى ضمنها تاريخا لممالك اسبانيا النصرانية اعتمد فيه على كتب اسبانية وانجليزية ألمانية ، وان كانت هناك بعض الأخطاء التاريخية التى أشرنا اليها في ثنايا البحث ، وكذلك استفدنا كثيرا مما كتبه شكيب أرسلان في كتابه « الحلل السندسية » ، عن جغرافية الأندلس وتاريخها ، خاصة وأنه ترجم كثيرا عن المستشرقين وزار الأندلس بنفسه ، ووصف ما شاهد ، فكانت كتابته دقيقة عظيمة الفائدة .

وهناك مراجع عربية حديثة مترجمة عن بعض المستشرقين الذين وقفوا حياتهم على دراسة تاريخ الأندلس ، مثل دوزى المستشرق الهولندى ، وليفى بروفنسال المستشرق الفرنسى ، ويوسف أشباخ المستشرق الألمانى . وقد ترجم كامل كيلانى كتاب دوزى عن ملوك الطوائف ، وترجم الدكتور



حسن حبشى الجزء الأول من كتاب عن تاريخ مسلمى اسبانيا . كما ترجم الدكتور السيد عبد العزيز سالم كتاب ليفى بروفنسال عن الاسلام فى المغرب والأندلس ، وترجم الدكتور محمد عبد الهادى شعيرة كتابه عن ادب الأندلس وتاريخها ، وترجم الأستاذ / محمد عبد الله عنان كتاب اشباح عن تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين . وقد أفدت من هذه الكتب فى الحديث عن ممالك أسبانيا النصرانية رغم ما شابها أحيانا من نظرة تعصبية لنصارى الشمال .

وهناك كتابان عظيماء الفائدة جليلا القدر ، كما كتاب الفن الاسلامى فى اسبانيا والبرتغال للأستاذ مانويل جوميث مورينو ، ترجمة الدكتور لطفى عبد البديع عن الأسبانية ، وقد أفادنا كثيرا فى الحديث عن التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية فى مجال الصناعات والفنون والعمارة . أما الكتاب الثانى فهو كتاب تاريخ الفكر الأندلسى لمؤلفه آنخل جونزالث بالنثيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس عن الأسبانية ، وهو موسوعة ضخمة فى تاريخ الآداب والعلوم والفنون الأندلسية ، أفادنا كثيرا فى معرفة التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأسبان ومسلمى الأندلس .

أما المراجع الأجنبية التى قرأناها فى لغتها الأصلية ، فهى كثيرة وعديدة سواء بالانجليزية أم بالفرنسية أم بالأسبانية . وكان اعتمادنا عليها كبيرا فى الحديث عن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية ، وعن علاقاتها بممالك الأندلس الاسلامية ، رغم ما يشوب بعضها من نظرة غير موضوعية فى تناول الأحداث ، ومن العطف الشديد على نصارى الأندلس أثناء الحديث عن متاوماتهم لحكم المسلمين ، وفى اعطاء كثير من التفاصيل عن تلك المقاومة ، والتركيز على الخلافات والصراعات التى نشبت بين القوى السياسية التى كانت تتصارع على أرض الأندلس منذ بداية الفتح وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى .

ومن الغريب أن بعض هؤلاء الكتاب مثل دوزى يمشى وراء هذه  
الخلافت حتى يصل بها الى أرض شبه الجزيرة العربية وسوريا والعراق ،  
ويتتبع تفاصيلها هناك ثم يعود معها الى الأندلس ، ويذكر الصراعات  
القبلية بين مضر ويمن ، وبين العرب والبربر ، وبين البربر البتر والبرانس ،  
وخصص لذلك الجزء الأول من كتابه المسمى  
Histoire des Musulmans d'Espagne

والذى ترجم الى الانجليزية تحت عنوان :  
A history of the moslems in Spain.

وكان دوزى يريد أن يفسر تاريخ الاسلام على اساس هذه الصراعات  
القبلية ، وربما أراد أن يوحى للقارئ بأن تاريخ الاسلام ، ما هو الا تاريخ  
للصراع القبلى بين العناصر والقبائل المختلفة . ورغم ذلك فان كتاب  
دوزى هذا يعتبر مرجعا هاما بل المرجع الأول لدارسى تلك الفترة  
من تاريخ الأندلس بشقيها السياسى والحضارى .

أما كتاب النقوش العربية فى أسبانيا المسمى Insclipcions Arabes  
D'Espagne لمؤلفه الأستاذ ليفى بروفنسال ، وكذلك كتاب النميات  
أو النقود المسمى Numismatica للمؤلف الأسبانى Codera ، وكتاب  
ملوك الطوائف ، المبني على ذكر النقود والمسمى Los Reyes de Taifas  
لمؤلفه الأسبانى Prieto y Vives ، كانت افادتنا منها كبيرة فى تصحيح  
الأسماء والتواريخ التى وردت فى بعض كتب التاريخ .

وهناك بعض المؤلفات التاريخية الأخرى التى لا تقل أهمية ، وخاصة  
فى اعطائنا الرواية النصرانية للعلاقات والأحداث التى وقعت بين الأندلس  
الاسلامية واسبانيا النصرانية . مثال ذلك كتاب Hole المسمى  
Spain : under the Moslims ويورد هذا المؤلف الانجليزى فى مقدمة  
كتابه ما يفيد بأنه اعتمد على ما كتبه الأوربيون فى فرنسا وهولندا واسبانيا  
فى تأليف كتابه . وعلى ذلك فهو كتاب مفيد جدا لا سيما وأنه يتناول  
التاريخ والحضارة فى دقة واختصار غير مغل .

أما كتاب Spain : the root and the flower لمؤلفه الإنجليزي

المسمى فهو كتاب في غاية الأهمية ، إذ أنه ليس سردا تاريخيا للأحداث السياسية والحربية ، ولكنه تاريخ لحضارة اسبانيا وشعبها منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث ، كما هو واضح من عنوان الكتاب . ويقول المؤلف أنه لم يهتم بالتاريخ السياسي قدر اهتمامه بالفن والفن وراءه . الأحاسيس والعوامل المحركة للأحداث . وقد زار أسبانيا عام ١٩٢٨ م ، ثم تردد عليها عدة مرات ، وحصل منها على درجة الدكتوراه في الفلسفة والآداب من جامعة مدريد . وهناك تعرف شخصا على زعماء الفكر الأسباني ، مما يعطى لكتابته عن الحضارة الأسبانية أهمية كبرى .

ومن المهم أن نعرف أنه تحدث في كتابه هذا عن طبيعة الأرض وأثرها على الشعب ، وعلى مجرى الأحداث التاريخية ، وعن الممالك المسيحية وصراعها مع العرب ، وطبيعة هذا الصراع ونتائج الحضارية ، وأفرد لذلك فصلا خاصا ، أفادنا كثيرا في نواحي البحث المختلفة . وقد استقى المؤلف مادة كتابه من أربعة وستين مصدرا من أمهات الكتب الأوروبية ، معظمها مؤلف باللغة الإنجليزية والقليل بالأسبانية ، مما يعطينا الرواية الأوروبية بالنسبة للحضارة العربية ومدى تأثيرها على أسبانيا في العصور الوسطى .

وهناك كتاب A History of Spain للأستاذ Chapman

وقد اعتمدنا عليه كثيرا في الحديث عن أحوال ممالك أسبانيا النصرانية وعلاقاتها بعضها ببعض ، وبمسلمى الأندلس . وكذلك هناك كتاب Murphy المسمى The history of the Mohamedan Empire in Spain وهو ينقسم إلى قسمين ، الأول يتحدث عن التاريخ السياسي والحربي للعرب في أسبانيا ، والثاني يتحدث عن نظمهم المدنية ، وأدبهم وعلومهم وصناعاتهم وتجاراتهم ، فهو كتاب هام لأنه يتناول التاريخ والحضارة . وقد اعتمدنا عليه في بعض نواحي البحث . ويلاحظ أنه ينقل الروايات العربية ويترجمها بنصها في كثير من الأحيان .

وهناك كثير من المقالات التي ظهرت بالاسبانية في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمadrid ، عن العمارة والفنون والنقود ، وبعض الوثائق التي ظهرت اخيرا عن الصكوك ووثائق البيع والشراء التي عثر عليها علماء الاسبان في مكتبات المدن الاسبانية مثل وشقة وسرقسطة وطليلة وغيرها ، في القرون الأخيرة . وهي تلتقى ضوءا جديدا على كثير من التأثيرات الحضارية المتبادلة بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية . وقد أثرت الى بعضها في قائمة المصادر والمراجع الموجودة في نهاية البحث .

من هذا العرض السريع نستطيع أن نتعرف على أهم المصادر والمراجع العربية والأوربية ، وأهمية كل منها بالنسبة لموضوع البحث ولأبوابه المختلفة . وهناك ثبت في نهاية البحث عرض بالتفصيل لأسماء تلك المصادر والمراجع ولغيرها مما لم نذكره في هذه العجالة ، فليرجع اليه من يريد المزيد .

## تمهيد تاريخي

تعتبر الفترة الواقعة بين فتح الأندلس ( رجب ٩٢ هـ / مايو ٧١١ م ) وبين قيام حكم بنى أمية ( ذو الحجة ١٣٨ هـ / مايو ٧٥٦ م ) ، من أهم فترات التاريخ الاسلامي في الأندلس ، وذلك لما صاحبها من أحداث أثرت في مجرى هذا التاريخ حتى نهايته ، وأدت الى أن ينفقد المسلمون ربع ما فتحوه من شبه الجزيرة ، والى أن تقوم هناك في أقصى الشمال في أشتريس وجليقية نواة لمملكة نصرانية ، أخذت على عاتقها استرداد ما فتحه المسلمون من البلاد وأعادتة الى حظيرة النصرانية من جديد ، وتمكنت من دحر قوات المسلمين في بعض المواقع الحربية وأعلنت بدء تلك الحركة التي تسمى في التاريخ الأسباني بحركة الاسترداد Reconquista .

فما الذي حدث حتى أدى الى هذه النتيجة ، وخاصة انه لم يكن قد مر على الفتح أعوام طوال ؟ لابد أن هناك من العوامل والأحداث ما أدى الى ذلك . والغريب أن تلك العوامل في جوهرها هي نفس العوامل التي أدت الى سقوط دولة القوط ، وعلى ذلك لم يتعلم المسلمون الدرس من أعدائهم ، وتركوا أنفسهم نهبا للصراعات القبلية والعنصرية المقيتة ، فكاد أمرهم يتلاشى من البلاد ، لولا الجهود التي بذلها عبد الرحمن الداخل في تثبيت أركان الدولة والتصدي لحركة المقاومة انصرائية التي كانت قد نبت واشتد عودها .

أما أولى العوامل التي أدت الى فشل المسلمين في مجال علاقاتهم مع نصارى شمال أسبانيا على ذلك النحو ، فهو أنهم لم يستكملوا فتح شبه الجزيرة ، وتركوا بعض المناطق الوعرة في أقصى الشمال ، فلم يصل حكمهم الى جبال قرقشونه في أقصى الشرق ، وجبال بنبلونة ومنطقة أشتريس

وجلبقية في الشمال والشمال الغربي ، رغم ما قيل من أن موسى بن نصير اخترق جبال البرنات ( البرانس ) وغزا أربونة وغيرها من مدن سبتمانية في جنوبي فرنسا<sup>(١)</sup> .

ووجه الخطأ في ذلك أن بعض القوط الذين فروا أمام جيوش الفتح تحصنوا في تلك المناطق ، وبدعوا في لم شتاتهم استعدادا لفتح صفحة النضال مع مسلمي الأندلس . ساعدهم على ذلك سياسة الخلافة الأموية التي أسرع في استدعاء موسى بن نصير ، ولم يكن قد أتم الفتح بعد . ولو قدر لهذا الفاتح العظيم البقاء في الأندلس بعض الوقت لربما اتخذت الأحداث مساراً آخر ، ولربما تمكن من إخضاع شبه الجزيرة كلها .

ولكن يبدو أن الخلافة الأموية خافت من استبداد موسى وأبنائه بهذه الأقطار النائية ، أو ربما خافت من التفرير بالمسلمين إزاء طموح موسى الذي بدا أنه كان يريد مواصلة الغزو حتى يصل الى بلاد الشام عن طريق أوربا<sup>(٢)</sup> .

ولهذا تم استدعاؤه بسرعة عام ٩٥ هـ / ٧١٤ م وقام الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك — على ما في ذلك من خلاف بين المؤرخين — بتدبير مؤامرة قتل فيها عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٩٧ هـ / ٧١٦ م وظلت البلاد بدون وال لمدة شهور ، حتى اختار الجند أيوب بن حبيب اللخمي ، ثم عزله سليمان وولى على الأندلس الحر بن عبد الله الثقفي ،

---

(١) أبين القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٧ ، ٨ ، ابن عذاري ، البيان المغرب .

ج ٢ ، ص ١٨ ، الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٣٤ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

Livermore, A history of spain, p 66,

Murphy, The history of the Mohamedan Empire in Spain, p. 1

(٢) أبين قتيبة ، الإمامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١ ، الغساني ، مرحلة الوزير

في افتتاحك الأسير ، ص ١١٥ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ٤٥ .

وجعلها ولاية تابعة لأفريقية ، وأتى بعده عمر بن عبد العزيز وعزل هذا الوالى ، وأرسل لها السمع بن مالك الخولانى ، وجعلها ولاية تابعة للخلافة مباشرة . وقد أدى هذا التردد من جانب الخلافة الى اضطراب الأحوال الادارية بالأندلس والى كثرة عدد الولاة ، مما هيا الفرصة لنصارى الشمال لى يبدعوا ضد مسلمى الأندلس (٣) .

اضف الى ذلك ما بذله المسلمون من جهد عظيم فى محاولاتهم غزو جنوب فرنسا ، وانصرافهم بذلك عن القضاء على الخطر المحدق بهم فى شمال سبانيا النصرانية ولو صرف المسلمون جهودهم تلك فى القضاء على نصارى الشمال لكان ذلك أفضل بكثير ، لكنهم شتتوا جهودهم ، وخلقوا لأنفسهم عدوا جديدا ، وجعلوا الفرنجة ونصارى الشمال الأسبانى فى خندق واحد ، وصاروا بذلك قلبا واحدا على المسلمين . وباتت المسلمين نجحوا فى غزواتهم لجنوب فرنسا ، لكنهم منوا هناك بهزيمة ساحقة فى موقعة تور بواتيه التى يسيها المسلمون بلاط الشهداء ، لكثرة من استشهد فيها من المسلمين عام ١١٤ هـ ( ٧٣٣ ) ، وقام نصارى شمال سبانيا بمطاردة فلول الجيش الاسلامى المنهزمة وارتفعت روحهم المعنوية بعد أن رأوا أن جيوش المسلمين يمكن أن تهزم (٤) .

وشهدت هذه الفترة أيضا حدثين على جانب كبير من الأهمية . ورغم أنهما حدثا بعيدا عن بلاد الأندلس ، الا أنه كان لهما تأثير كبير فى تاريخ هذه البلاد . أولاها هو سقوط الدولة المرونجية فى فرنسا عام ٧٥١ م ، وتولى بيت Pepen القصير حكم البلاد ثم قيامه بمد نفوذه وسلطانه جهة الجنوب الغربى ، الأمر الذى كان له انعكاسه على نصارى الشمال الأسبانى .

---

(٣) الرازى برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢ ، مجهول ، اخبار مجموعة ص ٢٢ ، ٢٣ ، الحميرى جفوة المقتبس ، ١٦١ ، ٢٦٢ ، ابن قتبية ، الامامة ، ج ٢ ، ص ٩٥ - ٩٧ ، النويرى ، نهاية الارب ، مخطوط ، ج ٢٢ ورقة ١ ، ٢٢ .

(٤) رينو ، تاريخ غزوات العرب فى فرنسا ، ص ١٠٣ .

أما الحدث الثانى فهو قيام الصراع فى المشرق بين بنى أمية وبنى العباس ، ذلك الصراع الذى انتهى بسقوط دولة الأمويين عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وعلى هذا لم يكن هناك أمام بنى أمية من الوقت والجهد ما يعطونه للعمل على استقرار الأحوال فى بلاد الأندلس ، اذ انشغلوا بخطر بنى العباس ، واستغل ولاة الأندلس الفرصة وأطلقوا لأنفسهم العنان فى الصراع على السلطان حتى مكوا نصارى الشمال من خوض حرب ناجحة ضدهم . كما حاولت الخلافة العباسية الناشئة أن تزيد النار اشتعالا ، فأرسل أبو جعفر المنصور الى عامر بن وهب بولاية الأندلس ، فقام هذا الرجل ينادى بشعار العباسيين فى سرقسطة ورفع الرايات السوداء ، ولم ينته خطره الا بعد أن قتله يوسف الفهرى حاكم الأندلس وأخبر ولاتها<sup>(٥)</sup> .

على أن أخطر ما تعرض له المسلمون فى الأندلس فى تلك الفترة وكانت له آثار ضارة على مستقبل الصراع بينهم وبين نصارى الشمال الأسباني هو قيام الصراع بين العرب والبربر ، ثم بين المضربة والبيئية . ولم يكن الصراع بين العرب والبربر بسبب ما قيل من استئثار العرب بالمناطق الخصبة ، بل بسبب سوء معاملتهم للبربر واعتبارهم شعبا محكوما لا ينبغى له أن يأخذ أى نصيب فى الحكم أو فى إدارة البلاد . ولذلك رفع مونوسة البربرى هو وقومه من البربر علم الثورة ضد العرب فى جليقية وماردة وقورية وتقدم للهجوم على قرطبة . لكن العرب هزموه هزيمة ساحقة عند وادى سليط قرب طليطلة عام ١٢٤هـ / ٧٤١م<sup>(٦)</sup> .

كانت الحرب بين العرب والبربر حرب افناء ، وكان لها نتائج

خطيرة على مستقبل البلاد . فقد خلقت فى نفوس العرب والبربر من الكراهية ما لم تمحه الأيام ، وددت كل أمل فى الامتزاج التام بينهما ، كما

(٥) أبى حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ١١٧ .

(٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢ ، ٤٣ ، دوى ، تاريخ مسلمي

اسبانيا ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ١٥٩ ، لين بول ، قصة للعرب فى اسبانيا ، ص ٤٧ .



أصاب الأندلس في مقتل . إذ خلا الشمال النصراني من العرب والبربر ، وانفسح المجال أمام نصارى الشمال وزادت آمالهم في استعادة البلاد من جديد . وليس بخاف على أحد أن الأندلس إنما أوتى من الشمال والغرب حيث هاجر البربر الذين كانوا يعيشون هناك<sup>(٧)</sup> .

وكان للصراع بين القيسية واليمنية أثر خطير ، إذ أنه استمر طوال فترة عصر الولاة تقريبا ، وابتداء منذ عام ١١١ هـ / ٧٣٠ م عندما أرسل أبو عبدة القيسي حاكم أفريقية بقريبه الهيثم القيسي واليا على الأندلس . فأنحاز هذا الوالي إلى القيسية ، واضطهد اليمنية وسجن زعماءهم وأطاح برعوس بعضهم ، مما كان له أثره في تيام الفتنة بينهما وخاصة بعد أن انتهوا من أمر البربر عام ١٢٤ هـ / ٧٤٢ م . فتقابل القيسيون واليمنيون في موقعتين لا تقل الواحدة منهما عن الجمل أو صفين وهما موقعة أقوة برطورة في شوال عام ١٢٤ هـ ( أغسطس ٧٤٢ م ) وموقعة شقندة عام ١٣٠ هـ ( ٧٤٨ م ) وفيهما انتصر القيسيون وصارت لهم قيادة الأندلس منذ ذلك الحين<sup>(٨)</sup> .

المهم في ذلك كله أن العرب انشغلوا بالصراع القبلي المقيت حتى توقف الجهاد ضد نصارى الشمال في أسبانيا ، وضد الفرنجة فيما وراء البرنات بل تمكن بلاى ملك جليقية من هزيمتهم في موقعة كوفادونجا عام ١٢٣ هـ ( ٧٥٠ م ) كما سيأتى في حينه وأخرجهم من جليقية كلها وافقت الناس حتى تنصر كل مذبذب في دينه ، وتقهقر المسلمون إلى استورقة وتحالفت المجاعة التي شملت الأندلس في ذلك الحين مع نصارى الشمال فأخلى المسلمون المنطقة الشمالية الغربية كلها ونزلوا حتى تورية

---

(٧) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ .

(٨) الرازي برواية ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢ ، ٥٣ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١١ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ١٢٤ ، ١٣٥ .

وماردة عام ١٣٦ هـ ( ٧٥٣ م ) ، وبذلك خسر المسلمون ربع ما فتحوه من شبه الجزيرة<sup>(٩)</sup> .

تلك هى أهم العوامل التى اعطت الفرصة لى تنشأ أول مملكة نصرانية فى شمال اسبانيا وهى مملكة جليقية واشتريس . لكن كيف قامت هذه الدولة ، وما هى علاقاتها بمسلمى الأندلس فى تلك الفترة التى نتحدث عنها والتى تسمى بعصر الولاة ؟ .

من الثابت ان فلول القوط الذين فروا أمام الزحف الاسلامى تجمعت فى أقصى الشمال فى أستوريا Asturias التى تسميها المراجع العربية اشتريس أو اشثوريس وعند منطقة هناك تسمى الصخرة أو صخرة بلاى وتسميها المراجع النصرانية Picos de Uropa احتفى بلاى وأصحابه من هجمات المسلمين . ولما سمعوا نبأ وفاة لذريق Roderic انتخبوا بلاى خليفة له . وقام بلاى واتخذ من مدينة كاتجاس دى أونيس Cangas de عاصمة له . ويعتبر هذا الامير أو الملك هو أول من اقام أول إمارة نصرانية تقوم ضد المسلمين وتثور ضدهم<sup>(١٠)</sup> .

ويخلط كثير من المؤرخين خلطا شديدا فى بدء ثورة بلاى ، فبعضهم يجعله فى ولاية غنيسة بن سحيم الكلبى الذى تولى أمر الأندلس بين عامى ١٠٣ هـ ، ١٠٧ هـ ، وآخرون يجعلونه فى ولاية عقبة بن الحجاج السلولى الذى حكم من سنة ١١٧ هـ الى ١٢٣ هـ ، وهناك أيضا أيضا من يجعل ثورة بلاى فى أيام ولاية يوسف الفهرى ( ١٢٩ — ١٣٨ هـ )<sup>(١١)</sup> .

(٩) مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ٦٢ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤ ، مؤنس ، بلاى وميلاد اشتريس ، ص ٥ .

Chapman, A history of spain, p 53

(١١) الرازى ، برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٥٢٢ ، مؤنس ، المرجع نفسه ص ١١ .

ويمدنا المقرئ بفقرة هامة تحدد لنا بدء قيام حركة بلای هذا فيقول :  
 « قال غير واحد من المؤرخين ، أول من جمع كل النصارى بالأندلس بعد  
 غلبة العرب لهم علج يقال له بلای من أهل أشتوريس من أهل جليقية  
 كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن  
 الثقفي ، ثانی امراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من فتحها  
 وهی سنة ٩٨ هـ ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن  
 فطردوه وملکوا البلاد وبقي الملك فيهم الى الآن » (١٢) .

ونستخلص من هذه الفترة الحقائق الآتية :

أولا — ان أول من ثار ضد المسلمين في الشمال النصراني كله هو  
 بلای ، وربما لم يكن بلای هذا من القوط ، وإنما من أهل البلاد من أهل  
 اشتريس أو جليقية أى من سلالة الأيبيريين الرومان الذين حكمهم القوط  
 حتى قدوم العرب . وسواء كان بلای قوطيا أم من أهل البلاد الأصليين  
 فهو كان ابنا ( لفافيللا ) دوق كنجيرية أو بنسا لبرمود وأخو لذريق .  
 وكان قد اختلف مع عمه لذريق قبيل دخول العرب البلاد وذهب الى  
 اشتريس وأقام نفسه أمرا عليها حسب ما تدعيه الروايات النصرانية (١٣) .

ثانياً — كان بلای رهينة في قرطبة لضمان طاعة أهل بلده اشتريس  
 وجليقية ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن موسى بن نصير « خرج  
 من طليطلة غازيا يفتح المدائن حتى دانت له الأندلس ، وجاء وجوه أهل  
 جليقية يطلبون الصلح ، فصالحهم وفتح بلاد الشكنس وأوغل في بلادهم  
 حتى أتوا قوما كالبهائم . . » (١٤) ، اذن صالحه أهل جليقية على أن يكون  
 أميرهم بلای نفسه رهينة عنده في قرطبة .

(١٢) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٢١ .

(١٣) لمعرفة أصل بلای تفصيلا ، انظر د. حسين مؤنس ، بلای وميلاد أشتريس ،  
 ص ٦ - ٩ .

(١٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

ثالثا — استمر بلاى حبيس قرطبة حتى فر أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، وهو ثانى امراء العرب بالأندلس بعد اغتيال أول امرائها منهم وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير عام ٩٧ هـ ( ٧١٦ م ) ، وقد ظل الحر حاكما للأندلس حتى عام ١٠٠ هـ ٧١٩ عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز السمع بن مالك الخولانى واليا عليها من قبله (١٥) .

رابعا — هرب بلاى الى اشتريس عام ٩٨ هـ ( ٧١٧ م ) والفته حوله أهل تلك المنطقة من النصارى وأعلنوا الثورة ضد نائب الحر بن عبد الرحمن الثقفى ، الذى لا تذكر لنا المراجع العربية أو النصرانية اسمه ، وطردوه من البلاد ، وأعلنوا بلاى أميرا أو ملكا عليهم منذ ذلك الوقت .

والواقع ان انصراف الحر الثقفى الى الجهاد فى بلاد الغال كان من الأسباب التى سهلت على المسيحيين اللاجئين الى جبال اشتريس ( أستوريا ) الاجتماع على العصيان وزرع نواة المقاومة ووضع أسس أول دولة مسيحية فى إسبانيا حلت محل دولة القوط التى قضى عليها العرب . ويضاف الى ذلك سبب آخر دفع مسيحيى تلك المنطقة دفعا الى الثورة ، هذا السبب هو سخط الناس على إدارة الحر وتبرمهم من عسفه وظلمه ، وكان هؤلاء حديثو عهد بالخضوع للعرب ، فنقل عليهم ذلك وغلت نفوسهم بالثورة ، واستغل بلاى هذا الفليان وأعلن الثورة والتمرد والعصيان (١٦) .

من هذه الحقائق نرى أن ثورة بلاى أو دولة اشتريس انما ولدت عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م ، ولم يكد يهضى على الفتح ست سنوات ، لكن يبدو أن بلاى ظل متوقعا فى بلدة كانجاس دى أونيس بأشتريس ، وأخذ يجمع الأنصار من القوط الهاريين من المسلمين ، ومن الأيبيريين الرومان المقيمين فى تلك الناحية ، وأخذ يحرضهم على الثوب على العرب

(١٥) ابن حيان برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

(١٦) رينار ، تاريخ نزوات العرب ، ص ٧٢ ، ٤٨ ، ٤٩ .

المقيمين هناك ، ويعيب عليهم طول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهضهم وحملهم على الوثوب على المسلمين . ظهر هذا واضحا أيام عنبسة بن سحيم الكلبى والى الأندلس ( ١٠٣ - ١٠٧ هـ / ٧٢٢ - ٧٣٦ م ) . ولم يكن هدف بلاى فى ذلك الوقت هو استرداد الأندلس بل « دفع المسلمين عما بقى بأيديهم من أرضهم وحماية حريمهم ، وقد كانوا لا يطعمون فى ذلك » (١٧) .

اذن لم يقم بلاى بثورته أمام عنبسة بن سحيم الكلبى ، بل قام بدعو الى الاحتفاظ بما بقى لهم من مناطق فى أشتريس وجليقية وكنتبرية ، تلك المناطق القاحلة القارصة البرد الجذباء التى لم يالفها العرب أو البربر من قبل . وليس هناك من شك أيضا فى أن مقتل السمع بن مالك الخولانى والى السابق على عنبسة بن سحيم ، فى أرض الغال ( فرنسا ) عام ١٠٢ / ٧٢١ م ، قد شجع نصارى الشمال على ذلك (١٨) .

ولم تذكر لنا المراجع أن عنبسة بن سحيم الكلبى قام بغزو نصارى الشمال ، بل انه وجه همهته للانتقام لمقتل السمع بالايفال فى غزو الفرنجة حتى استشهد عام ١٠٧ هـ / ٧٢٦ م ، لكن المسلمين كانوا قد انتبهوا لحركة بلاى فقام عامل المسلمين فى نواحي أشتريس القائد البربرى (مونوسة) بمحاولة التصدى لتلك الحركة ، ووقعت بينه وبين بلاى مناوشات ، وظل مونوسة يحاربه ويطارده حتى الجاه الى التحصن بالصخرة التى عرفت باسمه ( صخرة بلاى ) فى عدد قليل جدا من انصاره (١٩) .

---

(١٧) الرازى برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٢ ، ابن حبان برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧ .

(١٨) رينو . المرجع نفسه ، ص ٧٢ .

(١٩) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، ص ٥٢٢ ، ج ١ ، ص ١٠٩ ، د . حسين مؤنس ، بلاى وميلاد أشتريس ، ص ١٩ .

Murphy, The history of the Mohamdan Empire in Spain, p 79

لكن سوء الحظ لازم المسلمين فقام صراع بين مونوسة وبين عبد الرحمن الغافقي ( ١١٣ — ١١٤ هـ / ٧٣٢ / — ٧٣٢ م ) واستطاع عبد الرحمن والي الأندلس في تلك الفترة أن يقضي على مونوسة وأن يقتله على يد قائده البربري ( ابن زيان ) سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م . ولم يلبث عبد الرحمن نفسه أن وقع صريحا إبان اشتباكه مع الفرنجة في معركة بلاط الشهداء عام ١١٤ هـ / ٧٣٢ م . وبذلك خلا الجو أمام بلاي ، فتشجع وخرج من الصخرة وأخذ في التوسع حتى استولى على جيخون Gijon التي كان مونوسة يقيم فيها ، ويبسط سلطانه على اقليمى اشتريس وكتبريه واتسع ملكه حتى شمل جزءا من جليقية (٢٠) .

فلما تولى أهر الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي ( ١١٧ — ١٢٣ هـ / ٧٣٥ — ٧٤١ م ) وكان قائدا عظيما من طراز عبد الرحمن الغافقي ، جعل همه هو الانتقام لإكراهة بلاط الشهداء باستئناف الجهاد في غالة ثم القيام برد عادية نصارى الشمال والقضاء على دولتهم الناشئة في اشتريس وجليقية . وباليته ركر جيده كله في هذه الناحية ، لكنه اتخذ من مدينة ايونة وراء البرنات قاعدة لغزو فرنسا ، وتوغل هناك حتى عاد نهر الزون رباطا للمسلمين الذين هددوا بذلك قلب فرنسا . لكن شارل مارتل هزم المسلمين ، عند اربونة هزيمة شديدة عام ١١٩ هـ / ٧٣٧ م (٢١) .

وفي عام ١٢٠ هـ / ٧٣٨ م زحف شارل يساعد أخوه شلدبرانـد وحليفه لوتبراند ملك اللبارد على مواقع المسلمين ، واضطر عقبة أن يخلي بروفانس والارتداد الى ما وراء جبال البرنات حيث اصطدم بعصانات قوية من البشكنس والقوط الذين حرضهم الفرنج على التصدى له آنفا .

(٢٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٨ ، حسين مؤنس ، المرجع نفسه ،

ص ٢٠ .

(٢١) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٢١ ، ابن بشكوال برواية المقرئ ، نفع الطيب

ج ٢ ، ص ٥٨ .

عودته ، وبذلك فقد المسلمون فتوحاتهم في جنوب فرنسا ، ولم يبق لهم  
الا مدينة أربونة ، وضاع جهدهم في هذا الصراع الذي كان وبالا عليهم<sup>(٢٢)</sup> .

حول غلبة السلولى جهده في نفس الوقت الى اثتريس وجلبية ،  
لكنه ايضا في هذا الميدان لم يحقق نجاحا تاما ، فقد قام قائده غلقة بن  
عبد الرحمن اللخمى بالاشتباك مع بلاى ورجالها ، وتقدم حتى افتتح  
جلبية كلها وما وراءها بحيث لم يبق هناك الا الصخرة التى احتوى بها  
بلاى وقلة من جنده ، وظل غلقة محاصرا لها حتى كاذ هؤلاء يموتون  
جوعا ولم يبق لهم الا ثلاثين رجلا وعشر نساء ، ولما اعيى المسلمين  
امرهم تركوهم وعادوا الى أستورقة في جلبية : وهنا تدعى بعض الروايات  
تنصراية نصرا حققه بلاى عند مغارة دونجا بالصخرة ، وتقول ان جيش  
غلقة قد هزم . لكن تلك الموقعة لم يحن اوانها بعد ، اذ انها تمت عام  
١٣٣ هـ / ٧٥٠ م<sup>(٢٣)</sup> .

كاذ امر تلك الدولة ان ينتهى في عهد غلبة السلولى ، لكن هذا القائد  
العظيم لم يستمر في ولاية الأندلس ، اذ ثار عليه عبد الملك بن قطن الفهرى  
عام ١٢٣ هـ وتولى الحكم بدلا منه . وبذلك تنفس بلاى الصعداء خاصة  
وان الوالى الجديد انغمس حتى اذنيه في ضراع مزير مع البربر ثم القيسية  
بقيادة بلج بن بشر ، واستمر هذا الصراع بعد عبد الملك ، كما سبق  
ان اشرنا ، حتى قامت الفتنة بين أبى الخطار حسام بن ضرار الكلبي  
وثوابة العالمى ، وبين الصميل ويوسف الفهرى عام ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م ،  
هنا فقط أصبح الجو مهيا تماما لكي يحقق نصارى الشمال نصرا ولال  
مرة بعد الفتح على مسلمى الأندلس في موقعة كونا دونجا<sup>(٢٤)</sup> .

---

(٢٢) ابن خلدون المعبر ، ج ٤ ، ص ١١٩ . محمد هنان ، دولة الاسلام في الأندلس ،  
للمصر الاول ، ص ١١٣ - ١١٥ .

(٢٣) ابن عذارى البيضا المغرب ، ج ٢ ، ص ٤١ ، مجهول ، أخبار مجموعة ،  
ص ٢٨ ، د . حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢٤) للرازي برواية المقرئ ، فتح للطيب ، ج ٢ ، ص ٥٨ .

ويخلط المؤرخون المسلمون والنصارى في الزمن الذي تمت فيه هذه المعركة خلطاً شديداً ، بل ويخلطون بين الثورة التي قام بها بلاى وبين تلك الموقعة ويجعلونها شيئاً واحداً . وقد تتبعنا حركة بلاى منذ منذ عام ٩٨ هـ / ٧١٧ م ورأينا أنه اتبع سياسة الدفاع عما تبقى لديه من أرض في اشتريس وجليقية مما تركه المسلمون استصغاراً لشأنه . ولم يتركه المسلمون هادئ البال بل رموه بقواتهم أيام عنبسة وأيام عقيبة السلولى حتى الجأوه الى الصخرة ، والان أتى دور الهجوم . اذن لا مجال للخلط بين قيام ثورة او دولة ، وبين موقعة حربية كسبتها تلك الدولة ، وكانت عاملاً كبيراً من عوامل تثبيت أوتادها وفتحت الباب أمامها لتتوسع وبدء حركة الاسترداد التي قام بها نصارى الشمال ، وصارت علماً على تاريخهم في العصور الوسطى<sup>(٢٥)</sup> .

وقد اعتبر بعض المؤرخين أن النصر في هذه المعركة التي ضخم الأسباب قيمتها ، هو البداية الحقيقية لقيام دولة اشتريس . وعلى أية حال فاننا نميل — حسب منطق الاحداث وحسب رواية صاحب اخبار مجموعة في فتح الاندلس وهى رواية هامة — الى أن معركة كونا دونجا Cova d'onga حدثت عام ١٣٣ هـ ( ٧٥٠ — ٧٥١ م ) اذ أن خلافة بنى أمية في المشرق قد انتهت ، والقوات الاسلامية في الاندلس قد تضعفت بفعل الصراع القبلى العنيف ، اى أن الوضع العام في الداخل والخارج يهيبء لتلك المعركة ويكتل لها النصر ضد المسلمين . ولولا المجاعة التي شملت النصارى والمسلمين في شبه الجزيرة على السواء لأصبح مصير المسلمين في كفة الميزان<sup>(٢٦)</sup> .

ورغم الأهمية العظيمة التي اعطاها الاسبان لهذه المعركة إلا أنها لم تخرج عن كونها مناوشات حدثت بين المسلمين وبلاى في احدى مناطق

(٢٥) Crow, Spain : The root and the flower, pp. 48, 49

في تاريخ هذه المعركة وما قيل فيها من آراء ، انظر ، حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ٥ ، ١٩ .

(٢٦) مجهول ، اخبار مجموعة ، ص ٦١ ، ٦٢ .



الشمال لم تحدد مكانها المصادر الاسلامية ، وتسميها المراجع النصرانية بكوفا دونجا ، وكانت نتيجتها هزيمة المسلمين ، وترتب على ذلك أن قام بلاى واخرج المسلمين من جليقية كلها ، وعاد من أسلم من أهلها الى النصرانية من جديد ، وتقهر المسلمون الى أستورقة ، ولم يعودوا الى مهاجمة هذه النواحي مرة أخرى الا في أيام المنصور بن أبى عامر في النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى . ولذلك فان هذه الواقعة تعتبر الميلاد الحقيقى لدوة أشتريس وتعتبر بدءا حاسما لحركة المقاومة النصرانية في شبه الجزيرة التى تعرف عادة بحركة الاسترداد La Reconquista ، وهى على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الأسباني<sup>(٢٧)</sup> .

وعلى هذا الأساس نشأ وضع جديد سيكون محورا من أهم محاور التاريخ الاندلسى كله ، وهو ان اسبانيا لن تكون منذ ذلك التاريخ قطرا اسلاميا خالصا ، وانما ستكون قسمة بين الدولة الاسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلا من هاتين الدولتين ستسير في طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ويطول حتى ينتهى أخيرا وبعد ثمانية قرون بالقضاء على الدولة الاسلامية وعودة اسبانيا نصرانية كما كانت . من هنا تتضح لنا أهمية شخصية بلاى في التاريخ الاسلامى عامة ، فهو الذى وضع أساس الدولة الأسبانية النصرانية التى ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية ، وهو أول من حقق نصرا على المسلمين جعلهم يتراجعون لأول مرة عن أرض اففتحوها واستقروا فيها لمدة تقرب من أربعين عاما<sup>(٢٨)</sup> .

والخطر في الامر أن تراجع المسلمين لم يقف عند حدود أشتريس كما رأينا ، بل أنه زاد في عهد الملك الفونسو الاول Alfonso 1 ١٣٥٦ —

(٢٧) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

(٢٨) د . حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ٢٤ ، ٢٧ .

١٤٢ هـ / ٧٥٢ - ٧٦٠ م ) ، وهو ما تسميه الرواية الاسلامية عادة بأذفونش أو الفونش ، وقد حكم بعد وفاة بلاى بعامين ، ولم يكن من بيت بلاى بين انما كان ابنا لبطرة دوق كنبرية وكان الفونسو قد تزوج بنتا لبلاى تسمى اومنسندا Ermensinda وارتقى العرش بعد موت ( فافلة ) Fafila ابن بلاى بعامين ، مما يفهم منه أن فافلة بن بلاى مضى صغيرا دون أن يخلف عقبة ، والفونش هذا هو جد بنى الفونش الذين اتصل حكمهم بعد ذلك واستطاعوا أن يستردوا بلادهم (٣٩) .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن الفونش الاول كان رعيما واسع النشاط على المهمة واسع الاطماع ، تولى الامارة في وقت ابتعد فيه خطر المسلمين عن حدود امارته أو مملكته ، بسبب ما وقعوا فيه من صراع ونزاع انتهره الفونش واستغله لحسن استغلال ، واستفاد أيضا من تلك المجاعة التي عمت شبه الجزيرة أجسن فائدة ، حتى أنه استطاع أن « يخرج المسلمين عن أستورقة وغيرها وانضم الناس الى ما وراء الدرب الآ (٢٠) والى قورية وماردة في عام ١٣٦ هـ ( ٧٥٣ ) واشتد الجوع وهاجر أهل الأندلس الى طنجة واصيلا من ريف البربر ، فخف سكان الأندلس وكاد يغلب عليهم العدو الا أن الجوع شملهم » (٣٩) .

(٣٩) الرازي بولاية المقرى ، نعم الطيب ج ٢ ، ص ٥٢٢ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٣٠) الدروب هي الطرق التي كان المسلمون يستكونها في طريقهم من سهول الجنوب والوسط الى النواحي الساحلية العامرة في أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية تحيما بين الهضاب والجبال ، وأهمها دربان : درب شرقى من طليطلة الى وادى للحجارة الى حوض ابرة ، ثم يسير بمحازاته مارا بقلهرة ونخرة حتى بمبلونة Pampelona ومن ثم يفضى الى لابة Alava والتللاع Castillia واشتريس ويسير الى ماردة ودرب غربى يبيدا من الجرف ويسير الى ماردة وقورية ثم طليطلة ومنها الى سلمنقة وسمورة فطليقية .  
انظر ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٣٤٥ .  
(٣١) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٦٢ .

والعبارة السابقة واضحة الدلالة ، وهى تبين الى أى مدى كانت هجرة البربر والعرب من الشمال النصرانى بسبب المقاومة المسيحية وبسبب المجاعة التى كانت قد حلت بالبلاد منذ عام ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م ، وكنتيجة لما سبق أن اشرنا اليه من صراع المسلمين مع بعضهم البعض .

استطاع المسلمون الثبات عند قورية وماردة ، بعد أن خلفوا وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمرة Zamora ولدسما Ledesma فى الغرب ، وفى الجهة الشرقية فقد اخلوا سلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسميانتاس Simancas وشقوبية Segovia وابلة Avila واوكة Oca وأوسمة Osma على وادى

ابرة ، وكانت كلها مراكز هامة أتعب المسلمون أنفسهم فى فتحها وأضاعوها فى غمرة الصراع القبلى والعنصرى المقيت ، وأصبحت حدود الاندلس الاسلامى الشمالية قبيل مجيء عبد الرحمن الداخل تبدأ من الغرب عند مدينة قويمرة على نهر منديق Mondego ، ثم تمتد الى قورية فطليبرة فطليطة فوادى الحجارة فمتطيلة فبهلونة فى أقصى الشمال الشرقى . أى أن الاندلس الاسلامى فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل قدوم عبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٨ م (٣٢) .

وليس معنى ذلك أن مملكة مشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت هذه المناطق الهامة لان الواقع أن الفونس الاول لم يستول بالفعل إلا على النواحي المحيطة بأشتريس ، أى ناحية ليبانا وبردوليلى Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون ، وأما الباقي وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوض المنهو والتاجة فكانت فى ذلك الحين أرض فضاء قاحلة بين أسبانيا الاسلامية ودولة أشتريس النصرانية . ولم يفعل بها الفونش الاول أكثر من أنه زاد فى تخريبها حتى يجعلها منطقة فاصلة بينه وبين قوات المسلمين . ورغم ذلك لم تكن الحدود بين الطرفين

(٣٢) شكيب أرسلان ، المرجع نفسه ج ٢ ، ص ٥٧ ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٢٤٩ ، ٢٥٠ .

حدودا ثابتة ، اذ كانت في حالة صعود وهبوط حسب انتصار أحد الطرفين أو هزيمته من الطرف الآخر<sup>(٣٣)</sup> .

يؤكد ذلك ما تذكره المراجع العربية من ان المسلمين أحسوا بخطر قيام هذه الدولة وتوسعها على هذا النحو الذي بات يهدد الثغور الاسلامية في الشمال والغرب ، خاصة وأن شعب اباسك والذي تذكره المصادر العربية عادة باسم البشكنس ، كان قد تشجع بما قام به بلاى والفونش الاول وأعلن الثورة هو الآخر . وكان البشكنس يسكنون كما سبق أن أشرنا شرق أشتريس وحول خليج بسكاية ، وربما اشتملت اراضيهم على نبرة ( نافار ) وامتدت حتى نهر الجارون في سبتمانيا بجنوب فرنسا<sup>(٣٤)</sup> .

وازاء ازدياد الأخطار المحدقة بالمسلمين في الشمال الغربى ( جليقية وأشتريس ) ، وفى الشمال خلف جبال ابرنات عند منطقة البشكنس ، أرسل يوسف الفهرى حملتين الى هاتين المنطقتين . أما حملته ضد جليقية فيبدو أنها لم تحقق شيئا ، اذ أن المصادر لا ذت بالصمت ولم تذكر لنا عنها شيئا ، لكنها أفادتنا عن الحملة الموجهة ضد البشكنس ، فقد ذكرت لنا أنها منيت بالفشل الذريع حيث قتل قائد الحملة عندما تقابل مع البشكنس فى وادى شرنبة أو وادى الرملة Guadarrama وقتل عامة جنده ، وعادت فلولهم الى سرقسطة<sup>(٣٥)</sup> .

(٣٣) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٥٠ ، ٣٥١ .

Crow, Spain : theroot and the flower, p. 79

(٣٤)

Dozy, op. cit, p. 177

مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٦ .

(٣٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، مجهول ، أخبار مجموعة ،

ص ٧٦ ووادى شرنبة أو وادى الرملة الذى ذكر فى المتن هو سلسلة جبال متوسطة الارتفاع تتفرع من سلسلة الجبال الوسطى El Sistema Central فى وسط شبه الجزيرة ، تمر

فى مديريات مدريد وأبلة وشقوبية ، وتتصل من ناحية الشرق بسلسلة الجبال الايبيرية ، ونقطة لتقاطعها بسلسلة الجبال الوسطى مرتفع سومو سييرا Somosierra ويصل وادى الرمل

وقد لعب التآمر والخيانة دورا كبيرا في هزيمة المسلمين في وادي شرنبة عام ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م اذ ان الصراع على السلطة والصراع القبلى كانا وراء هذه الهزيمة ، فقد اراد يوسف الفهرى ان يقضى على بعض منافسيه من اشراف العرب « فأرسلهم في ضعف ولما علم بقتل ابن شهاب قائد الحملة سره ذلك » (٣٦) .

الى هذا الحد وصلت الكراهية والاحتقاد والتنافس على السلطان في اواخر عصر الولاة ، لذلك لم يكن عجبا ان ينتصر الباسك وان يقوم الفوننش الأول بالاستيلاء على كثير من المدن والمعاقل الهامة التى لن يطاها المسلمون بعد ذلك الا في عهد المنصور بن أبى عامر . ولم يكن عجبا ايضا ان يقول احد المؤرخين ان الناس شتموا بيوسف الفهرى عندهما وصل رسول من قرطبة يخبره بأن فتى من قریش — يقصد عبد الرحمن الداخل — قد نزل بساحل المنكب بالاندلس وأن الناس اجتمعوا اليه (٣٧) .

ولم تكن شتمات الناس بيوسف الا لما فعله بالقرشيين من قواد حملة وادي شرنبة ( أو وادي الرملة ) . ومن ثم انفضوا عنه وتركوه في قلة يواجه مصيره المحتوم ، وكأنها ارادت المقادير أن تتدارك المسلمين في هذا القطر الواسع برجل عظيم مثل عبد الرحمن الداخل يعيد اليهم ما فقدوه في اواخر عصر الولاة ، أو يمنع على الاقل خطر النصارى على الدولة الاسلامية الناشئة .

الى قرب من مدريد عند مرتفع ثابا ثرادا Nevecerrada ويقع من هذه الجبال نهر يسمى وادي الرمل Rio de Guadarrama ايضا يتجه الى الجنوب مارا بضاحية الاسكوريال ويصب في نهر تاجه شرقى طليطلة . وهذا النهر — كما يدل عليه اسمه — جاف معظم العام تقريبا الا في اوقات المطر الغزير . وعلى مقربة من هذا النهر وقع اللقاء بين المسلمين والبشكتس عام ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م .  
Diccionario Geografico de Espana, X, P. 434. انظر ،

(٣٦) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٧ .

(٣٧) ابن الابار ، الحلة السيرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٦٥ ، ٦٠ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ٧٧ .



# الباب الأول

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية  
وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

**الفصل الأول:** الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس  
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية •

**الفصل الثاني:** مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية  
وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية •





# الفصل الأول

## الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس

### الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

تشكل العلاقات بين أي دولتين وفقا لظروف معينة ، وحسب عوامل خاصة ، تلون تلك العلاقات وتدفعها في اتجاه معين ، قد يكون اتجاها نحو سلام ، وصداقة ، وحسن جوار ، وتعايش مثمر لصالح الطرفين وقد تدفعها في اتجاه مناقض لهذا كله فتقوم الحروب ، وينشب الصراع السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والحربي ، وينتج عن ذلك دمار قد يكون متساويا عند الجانبين وقد يكون شديدا على احدها ، قليلا عند الآخر .

لكن المؤكد أن العلاقات بشقيها السلمي والحربي ، الودي والعدائي ، سوف تؤثر في كل منهما ، وسوف تنقل كثيرا أو قليلا من المؤثرات الحضارية من طرف الى آخر .

وعلى هذا فحديثنا عن العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية ، لابد أن ينحو هذا المنحى ، ويتجه هذا الاتجاه ، فياخذ منذ البداية تبيان الظروف والعوامل والأحوال التي أثرت في العلاقات بين هاتين الدولتين ، والتي طبيعتهما بطابع معين في فترة معينة ، أو في عصر معين . وسوف نلاحظ أن هناك ظروفًا ، أو عوامل أدت الى طبع العلاقات بينهما في عصر الإمارة الأموية بطابع قد لا تجده في عصر الخلافة مثلا ، أو في عصر ملوك الطوائف أيضا . ويمكن أن نعبر عن ذلك أيضا بأن هناك عوامل وظروفا أدت الى رجحان كفة أحد الجانبين في عصر ما وظروفا أخرى أدت الى اخفاقه وتعثره وضعفه في عصر آخر .

وعلى ذلك لابد أن نأخذ في الحديث عن تلك الظروف والعوامل داخل كل من الدولتين على حدة ، حتى يمكننا تفسير طبيعة العلاقات بينهما في الفترة التي حددناها للبحث وهي عصر بني أمية وملوك الطوائف .

## أولا : ظروف الأندلس الاسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها بإسبانيا النصرانية في عصر إمارة بنى أمية

وفي هذا الصدد لابد أن نتحدث عن أربع نقاط ، فنبين أولا : سمات هذا العصر فيها يختص بعلاقة أمراء بنى أمية بإسبانيا النصرانية ، ثم نوضح عوامل القوة ، وعوامل الضعف ، التي أثرت في علاقتهم بتلك الدولة ، ثم نختم بالحديث عن موقف النصارى من أهل الذمة داخل الأندلس الاسلامية واثار هذا الموقف ، في تطور العلاقات الأندلسية الأسبانية .

### الموقف في تطور العلاقات الأندلسية الأسبانية :

#### ١ - سمات عصر أمراء بنى أمية :

راينا فيما سبق من حديث كيف أن المقاومة النصرانية الأسبانية النشيطة ظهرت للوجود في أواخر عصر الولاة ، وكيف انها استولت على بعض المناطق الاسلامية الهامة في الشمال . وقد أسعفت المتادير بلاد الأندلس المتناحرة بقدم عبد الرحمن الداخل اليها عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦م ، وبوفاة عدوها النشط الفونش الأول ملك جليقية وأشتريس بعد ذلك بقليل في عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩م .

وبقدم عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان المعروف بالداخل ، بدأ عصر جديد في تاريخ الأندلس يسمى : عصر الامارة وامتد هذا العصر حتى بداية القرن الرابع الهجرى ، عندما تولى عبد الرحمن الناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢م وشمل بضع سنوات في حكم هذا الأمير ، حتى أعلن قيام الخلافة في عام ٣١٦ هـ / ٩٢٨م ، فدخلت البلاد في عصر جديد هو عصر الخلافة .

وقد درج المؤرخون المحدثون على تقسيم عصر الامارة الى عصرين : عصر القوة : ويبدأ بعبد الرحمن الداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦م وينتهى بوفاة عبد الرحمن الثانى عام ٢٣٨ هـ / ٨٢٢م .

وعصر الضعف : ويبدأ منذ ذلك التاريخ وينتهى بتولى الأمير عبد الرحمن المعروف بالناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢م .

التاريخ وينتهي بتولى الأمير عبد الرحمن المعروف بالناصر حكم البلاد عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م .

لكننا لا نستطيع أن نأخذ بهذا التقسيم في مجال الحديث عن العلاقات السياسية بين مسلمي الأندلس وأشبانيا النصرانية في عصر الإمارة .

ذلك أن جميع أمراء بني أمية لم يتوانوا عن القيام بواجبهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية ، كما كانوا يقومون بالهجوم على أراضي أشبانيا النصرانية وبرشلونة الفرنجية حتى أجبروها على طلب السلام والصلح عدة مرات ، ولم يتخلف أي أمير من أمراء بني أمية حتى في فترات الضعف — وهي فترات الانشغال بالفتن الداخلية — عن القيام بهذا الواجب المقدس .

وما يؤكد ذلك أيضا أن العصر الذي يعتبره المؤرخون المحدثون عصر قوة ، ضاعت أثناءه مدن وثغور إسلامية هامة في الشمال الشرقي من البلاد ، مثل مدينة أريونة عام ١٤٢ هـ / ٧٥٩ م ومدينة جرندة عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، وثغر برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م . كما ضاعت مدن هامة في الشمال الغربي أيضا مثل مدينة لك وبرتغال ، وسمورة وقشتالة وشقوبية عام ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م ، وضياح هذه المدن يعتبر علامة ضعف وليس علامة قوة ، وقد حدث هذا في عصر القوة ، ولم يكن إلا بسبب الأحوال الداخلية التي كانت تسود بلاد الأندلس في تلك الأثناء<sup>(١)</sup> .

واتسم عصر الإمارة فيما يتعلق بعلاقة مسلمي الأندلس بأشبانيا النصرانية ، بسمات واضحة ، منها : ذلك التصدي لقوة مملكة جليقية الناشئة ووقف توسعها ، وحصرها في المناطق الشمالية التي استولت عليها أثناء عصر الولاة ، لكن انشغال أمراء بني أمية بالقضاء على الفتن الداخلية وبالصراع على الحكم . أدى إلى فرض السلام على الجانبين لفترات طويلة في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل وخلفائه على خلاف ما يظن البعض ،

(١) ابن خلدون، العبر، ج ٤ ، ص ١٢٢ ، التلغشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .

Murphy, Mohamedan Empire in Spain, p. 84

كما أدى أيضا الى ازدياد نشاط الفرنجة ، وسقوط ثغر برشلونة في أيديهم ، وصار خنجرا في ظهر المقاومة الاسلامية التي كان يقوم بها حكام قرطبة حيناً ، وحكام سرقسطة حيناً آخر<sup>(٢)</sup> .

وقد أدى عدم التفرغ تماما لمقارعة نصارى الشمال الأسباني الى ظهور ممالك جديدة مثل مملكة نبرة ( نافار ) ، الى جانب مملكة جليقية وإشتريس ، التي قامت في عصر الولاة والتي تحدثنا عنها من قبل . وبتوسع رقعة المقاومة النصرانية على هذا النحو ، أصبحت شبه الجزيرة الايبيرية مقسمة بين الدولة الأسبانية النصرانية في الشمال وبين الدولة الاسلامية في بقية أنحاء شبه الجزيرة ، وبدأ الصراع بينهما ، ولن تستطيع أى منهما القضاء على الأخرى تماما الا بعد صراع طويل مرير ، استمر ما يقرب من الثمانية قرون .

ولم يكن السلام الذي أشرنا اليه يعود الى انشغال أمراء بنى أمية في هذا العصر بتوطيد الحكم والقضاء على الفتن الداخلية فقط ، بل يعود بالدرجة الأولى الى أن معظم أمراء بنى أمية كانوا أقوياء ، وكان في استطاعتهم السيطرة على مقاليد الأمور في أنحاء البلاد ، مما أجبر نصارى الشمال على احترامهم ، والحرص على مسالمتهم بقدر الامكان ، بل وارسال الوفود لعقد معاهدات السلام ، والصلح مع حكام قرطبة ، الذين كانوا قد نجحوا في القضاء على الصراع على كرسى الامارة ، ونجحوا أيضا في القضاء على الفتن الداخلية التي كان يقوم بها العرب والبربر ، وتفرغوا لممالك الشمال النصراني منذ بداية القرن الثالث الهجرى .

ومن سمات هذا العصر أيضا : أن الحرب كانت سجالا بين الفريقين في احيان كثيرة ، وتبادل الفريقان النصر والهزيمة ، ونشطت الحرب بينهما بصفة خاصة في اواخر عصر الامارة ، حيث كانت الأندلس قد تفتتت الى اقاليم أو دويلات صغيرة متناحرة ، فيما يشبه عصر ملوك الطوائف الذي ظهر بشكل سافر فيما بعد في القرن الخامس الهجرى ، وصار نفوذ

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ج ١٣ قسم ٧ ورقة ١٩٨ ، ٢٣٥ ( مخطوط ) .

أمراء بنى أمية لا يتعدى مدينة قرطبة في بعض الأحيان ، وانتهز نصارى الشمال الأسباني الفرصة واستولوا على بعض المراكز الإسلامية الهامة ، وتقدم الفونش الثالث ( ٢٥١ - ٢٩٥ هـ / ٨٦٦ هـ - ٩١٠ م ) ملك ليون ( جليقية ) في أراضي المسلمين .

ومن سمات عصر الإمارة البارزة أن حركات التمرد الداخلية شملت هذا العصر كله ولم تقتصر على فترة معينة أو حاكم معين ، ولم يخل منها عهد أى أمير من أمراء بنى أمية ، لكنه في النصف الأول من عصر الإمارة ، كانت تقوم الفتن بين أمراء بنى أمية ، لكنه في النصف الأول من عصر الإمارة ، كانت تقوم الفتن بين أمراء البيت الأموي بعضهم البعض بسبب الصراع على كرسى الإمارة ، وبلغ من عمق هذا الصراع أن بعضهم استعان بالفرنجة ضد البعض الآخر . أما في النصف الثانى من عصر الإمارة ، فقد كانت حركات التمرد ذات طبيعة عنصرية ، أو شعوبية ، فقد قام المولدون الأسبان<sup>(٣)</sup> ، يؤازرهم النصارى من أهل الذمة<sup>(٤)</sup> ويدعمهم نصارى الشمال الأسباني والفرنجة بالثورة ضد العرب ، وضد حكم بنى أمية ، يتمثل ذلك في ثورة ابن مروان الجليقى في ماردة وبطليموس في غربى الأندلس ، وثورة ابن حفصون في رية في الجنوب ، وتمرد بنى قسى في سرقسطة في الشمال الشرقى .

ولم يتوان أمراء بنى أمية في القضاء على هذه الثورات ، لكنها شغلتهم كثيرا عن التصدى لأسبانيا النصرانية التى لو اتحدت ممالكها لنالت الكثير من المسلمين ، لكن الصراع كان قد نشب بين مملكة نبرة الناشئة وبين جارتها جليقية ( ليون ) ، التى كانت تحاول دائما أن تفرض سلطانها على الشمال الأسباني . وأعطى الصراع الداخلى بين نصارى الأسبان الفرصة لأمراء بنى أمية ، لكى يقضوا على الفتن الداخلية .

---

(٣) المولدون الأسبان هم أبناء الأسبانيات اللاتى تزوجن من عرب أو بربر ونشأ إبنائهم على الاسلام ، وكون بعضهم أسرا حاكمة وخاصة في شمال بلاد الأندلس .

(٤) النصارى من أصل اللخمة ، هم النصارى الذين يعيشون بين مسلمى الأندلس وأصبحوا في فئتهم ، فعلى المسلمين حمايتهم وتوفير الأمان لهم .

ونتج عن ذلك : تفوق الأندلس الاسلامية ، وازدياد قوتها عن جارائها  
من ممالك اسبانيا النصرانية .

## ٢- عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا النصرانية :

وكانت عوامل القوة التي كملت التفوق في معظم عصر الامارة على  
اسبانيا النصرانية كثيرة ، اهمها : توحيد الجبهة الداخلية تحت قيادة  
امراء بنى امية .

وكانت البلاد في اواخر عصر الامارة نهبا للفوضى ، وسفك الدماء بين  
الولاة المتنازعين على كرسي الحكم ، وكانت البلاد ميدانا للصراع المقيت  
بين اليمنية والقيسية ، وبينهما وبين البربر ، كما سبق القول ، فأتى  
عبد الرحمن الداخل وضرب تلك العناصر، واستعان ببعضها ضد البعض الآخر  
كما استعان في تنفيذ سياسته تلك ، بالموالي والعبيد والبربر والمحاربين  
من شمال افريقية ، وأقام حكما مطلقا ، كان السلطان فيه للسيف وحده ،  
وأتبع في ذلك جميع وسائل البطش والعنف<sup>(٥)</sup> .

ويبدو أن الداخل كان مضطرا الى ذلك ، فقد كان اعتماده على  
اليمنية في بادئ الأمر ، لكنهم لم يلبثوا أن ثاروا عليه بسبب مقتل زعيمهم  
أبي الصباح اليجصبي . وادى ذلك الى عدم اطمئنانه الى العرب قاطبة،  
وعرف أن قلوبهم لا يمكن أن تصفو له ، «فانحرف عنهم الى اتخاذ الممالك»  
من الموالي والعبيد الذين اشتراهم واستكثر منهم ، حتى أنه كون منهم  
جيشا قوامه أربعون ألف مقاتل ، تمكن به من السيطرة على أهل الأندلس  
من العرب وغيرهم ، كما تمكن به من فرض السلام على جيرانه من نصارى  
الأسبان في الشمال ، واستقامت له الأمور وتوطد حكمه في تلك البلاد<sup>(٦)</sup> .

---

(٥) ابن سنيذ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٦٠ ، لين بول ، قصة العرب في  
اسبانيا ص ٦٠ .

(٦) ابن حيان برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

وقد تعرض عبد الرحمن الداخل في أواخر عهده الى مؤامرة كبرى اشترك الفهريون ( مضر ) والكلييون ( يمن ) ، والتمس هؤلاء الثوار المساعدة من شارلمان ، امبراطور الفرنجة ، لكنهم لم ينفذوا الخطة التي كانوا قد اتفقوا عليها معه ، وكانت النتيجة أن اتهم بعضهم بعضا بالخيانة ، مما سهل على عبد الرحمن الداخل فرصة القضاء عليهم ، بعد أن عاد شارلمان خائبا ، حيث امتنعت عليه مدينة سرقسطة ، ومنعه أهلها من دخولها ، وتعرض اثناء عودته لهجوم قبائل البشكنس ( الباسك ) ، وفقد عددا كبيرا من جنده قتلى ، كان من أشهرهم قائدده المحبوب ، رولان في عام ١٦١ هـ / ٧٧٧ م (٧) .

وقد بقيت ذبول هذه الحركة أيضا في أيام الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ( ١٧٢ — ١٨٠ م ) والأمير الحكم بن هشام ( ١٨٠ — ٢٠٦ هـ ) واستقل أحد الثوار العرب بمدينة سرقسطة ، واستقل ناثر آخر بمدينة برشلونة . وساعدهم على ذلك ظهور الانشقاق في البيت الأموي ، اذ قام الصراع بين أبناء عبد الرحمن الداخل على كرسى الإمارة ، واستمر هذا الصراع في عهد هشام وابنه الحكم ، واستعان بعضهم بشرلمان مرة ثانية . ف جاء الى الأندلس من جديد ، وساعده أحد الثوار العرب في الاستيلاء على برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وضاعت تلك المدينة الهامة التي كانت تحمي الثغر الأعلى ( سرقسطة ) الى الأبد (٨) .

وقد تمكن حكام قرطبة من القضاء أخيرا ، على تلك الفتن ، وعلى هؤلاء الثوار العرب ، الذين أضاعوا ثغر برشلونة الهام ، وتأكد لديهم أن هؤلاء العرب لا يمكن الاعتماد عليهم ، فتوسعوا في استخدام للصقالبة

(٧) المصنف ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٠ ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .  
Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 204-206.

(٨) الرازي برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ٩٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، العيني ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ورقة ١٩٨ ، ص ٢٣٥ .

والموالي منذ عهد الحكم ، واستمر خلفاؤه يسيرون على منواله ، فركن العرب الى الهدوء طوال حكم ابنه عبد الرحمن الثاني ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ) وطوال عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني ( ٢٣٨ - ٢٧٢ هـ ) ، ولم ترفع الارستقراطية العربية رأسها الا في أواخر عهد الأمير محمد ، وقاموا بثوراتهم واستقلوا بما كان تحت يدهم من مدن وأقاليم ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر وتضى عليهم .

وكان لثورات البربر أيضا : أثرها في الجبهة الداخلية ، وعلى العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال الأسباني ، فقد قام أحدهم ويدعى شقيا بن عبد الواحد الكناسي ، وادعى انه فاطمي ، وقام يدعو للشيعا ، واستولى على شنت برية ( قرب طليطلة ) وامتد نفوذه الى المناطق التي تقع بين ماردة وقورية غربا ، الى ثغر وادي الحجرة وكونكة شرقا ، واستمرت ثورته من عام ١٥١ هـ حتى عام ١٦٠ هـ ( ٧٦٨ - ٧٧٧ م ) ، ولم تنته تلك الثورة الا بعد أن اغتاله أحد أصحابه عام ١٦٠ هـ (١) .

وقد شغلت تلك الثورة عبد الرحمن الداخل عن التصدي لنصارى الشمال ، الذين كانوا يحتضنون كل شائر على بنى أمية ، فقد فتحوا أبوابهم لأحد ثوار البربر في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ، ورحب به الفونش ( الفونسو ) الثاني ملك جليقية وأشتريس ، ولما حاول هذا الشائر العودة الى بلاده ، خاف الفونش من أن ينقلب ضده ويصالح أمير قرطبة فقتله عام ٢٢٥ هـ (١) .

ورغم هذا التشجيع الذي لقيه الثوار ، سواء كانوا من العرب ، أو من البربر من نصارى الشمال ، فقد نجح أمراء بنى أمية في القضاء على حركاتهم

(١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٧٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٣ ، ١٣ ، ١٨ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢١ .  
(١٠) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٣ ، ١١٨ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ .



التي ظهرت في الصدر الأول من عصر الإمارة . ولما ظهر نشاطهم مرة أخرى في أواخر ذلك العصر ، استطاع الأمير محمد ( ٢٣٨ — ٢٧٣ هـ ) أن يوجههم لمهاجمة نصارى بهبلونة بعد أن أقروا له بالطاعة والولاء . وبذلك : تمكن بنو أمية من توحيد الجبهة الداخلية ، وتفرغو للجهاد ضد نصارى الشمال الأسباني ، ورد اعتداءاتهم على الثغور الإسلامية حتى اضطروهم الى طلب الصلح في أحيان كثيرة (١١) .

٢ — وكان الأسلوب الذي اتبعه أمراء بنو أمية في الحكم ، من عوامل قوتهم ، وكان له أثره في استقرار الأمور في الداخل ، وفي التصدي لنصارى الأسبان في الشمال . وكان هذا الأسلوب يركز على ذلك التوازن الذي أوجده الأمويون بين القوات الخاصة التي أنشئوها ، من الموالى والصقالبة والبربر ، ومن قوات القبائل العربية المنتشرة في الكور ، أو الولايات التي تعرف بالكور المجندة . وهى ولايات ينزلها « جنـد » من قبائل معينة ، كان أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى وزعهم عليها ، منذ عام ١٣٥ هـ / ٧٤٣ م في عصر الولاة (١٢) .

وكان لقوة شخصية أمراء بنو أمية أثره في نجاح سياستهم في السيطرة على القوات الخاصة وعلى أجناد القبائل ، وتوجيهها لتحقيق مصلحة الدولة ، فاستطاعوا بذلك أن يقضوا على الثوار في كل ناحية ، واستطاعوا أن ينازلوا نصارى الشمال الأسباني ، وأن يلحقوا بهم الهزائم ويجبروهم على طلب الأمان والسلام .

لكن أمراء بنو أمية الأواخر اشتطوا في شراء الصقالبة والاعتماد عليهم ، فاختل التوازن وحاول هؤلاء الصقالبة السيطرة على مقاليد الأمور في بعض الأحيان ، ونزعت القبائل العربية الى الاستقلال عن قرطبة ،

---

(١١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٧ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٩٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣٤ .

(١٢) ابن حزم برواية ابن حبان ، المتنبس ، ج ٣ ، ص ٤١ ، الحميرى ، صفة جريزة الأنطلس ، ص ٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .

فانفرط عقد البلاد وصارت أشبه ما تكون بدول الطوائف في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي .

كما كان حب أمراء بنى أمية للعدالة وانقيادهم للحق حتى ولو كان على أنفسهم أو أقرب الناس اليهم من الصفات البارزة التي اتصفوا بها ، وكانت مصدرا قويا من مصادر قوتهم ، فقد اطمأن الخاص والعام الى حكمهم ، وتفرغ الناس للعمل في شئونهم الزراعية والصناعية والتجارية ، فزادت ثرواتهم ونمت ملكياتهم وترقت حياتهم ، وأدت تلك السياسة الرشيدة الى نتيجة واضحة في عهد عبد الرحمن الثاني ، فقد اقتترنت أيامه بالهدوء وخلت من الثورات فتفرغ الى بناء الدولة واتخذ دارا للسكة بقرطبة ، وزادت هيبة الدولة وفخامتها ، وازدهرت الحياة في سائر مناحيها . وازداد العمران وكثير بناء المدن والقرى وشق الترع وبناء القناطر(١٣) .

٣ - وكان لتركيز السلطة في بيت الأمير الحاكم فقط وانتقال الحكم الى ابنه دون بقية أفراد الأسرة الأموية ، أثر كبير في استقرار الأمور وفي قوة قرطبة وقدرتها على مقارعة الخطوب سواء في الداخل أم في الخارج . فلم يحدث أن تولي أخوة الأمير الحاكم عرش الإمارة من بعده الا في حالة واحدة ، هي انتقال الحكم بعد وفاة الأمير المنذر الى أخيه الأمير عبد الله عام ٢٧٥ هـ . عدا ذلك كان الحكم ينتقل بالوراثة من الأمير الى ابنه من بعده . حدث هذا طوال عصر الإمارة ، وصار قاعدة سار عليها الأمويون حتى في عصر الخلافة حتى عام ٤٠٠ هـ .

وكان الأمويون في الأندلس أحوج الى الوحدة وتركيز السلطة على هذا الشكل أكثر من غيرهم من الأسر الحاكمة في الأقطار الإسلامية

---

(١٣) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٣ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٤٦ ، ٥١ ، ١٤٤ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٥ ، ابن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ج ١ ، ص ١٤٦ .

الأخرى ، بسبب طبيعة البلاد وتباين الأجناس والعناصر التي تقطنها ، وبسبب ملاصقتها لعدو لا ينى ولا يمل من التطلع الى استرداد أرضه من مسلمى الأندلس مرة أخرى . وكان أمويو الأندلس في ذلك على خلاف أجدادهم من أموي الشام حيث كان الاخوة يتولون منصب الخلافة ، مثال ذلك : بنو عبد الملك بن مروان الاربعة ، الوليد ، وسليمان ، ويزيد وهشام . وكان أمويو الأندلس على خلاف العباسيين في بغداد أيضا في هذه الناحية ، فقد تولى الخلافة بنو الرشيد الثلاثة : الأمين والمأمون والمعتمد ، وبنو المتوكل الثلاثة : المتنصر ، المعتز ، والمعتمد<sup>(١٤)</sup> .

٤ - سومن عوامل قوة أمراء بنى أمية أيضا : سياستهم الناجحة في الاستعانة بالمولدين في حكم الثغور واصطناعهم وتوجيه نشاطهم في رد هجمات نصارى الشمال الأسباني ، وضربهم بالعرب اذا ما حاولوا التمرد والعصيان ، أو اذا ما تحالفوا مع نصارى الشمال ضد قرطبة ، وأول من نفذ هذه السياسة هو الأمير الحكم ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ ) عندما استعان بعمرس الأول ابن يوسف ، وهو من المولدين في القضاء على ثورة بنى جلده من المولدين في طليطلة عام ١٩١ هـ / ٨٠٧ م . وكان بنو عمرس يعيشون في مدينة تطيلة بالثغر الأعلى ( سرقطسة ) وتعرضوا بذلك لهجمات النافاريين عام ١٨٧ هـ / ٨٠٣ م الذين تمكنوا من أسر ولده يوسف ، فقاتلهم عمرس حتى خلص ابنه من أسرهم ، كما ساهم أيضا في صد خطر الفرنجة على ثغر طرطوشة الذي يقع في شرقي الأندلس على ساحل البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م<sup>(١٥)</sup> .

وكان الثغر الأعلى الأندلسي ( سرقطسة ) تحيط به الممالك النصرانية من الشمال والشرق والغرب ، وهو اقليم غنى بموارده الزراعية والتجارية ، وكانت أغلبية سكانه من المولدين والنصارى من أهل الذم ، مثل أسرة بنى قسى وبنى عمرس وبنى الطويل ( شبروط ) وهى أسر

(١٤) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٦٢ ، ابن بيسام ، الخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ .

(١٥) السامرائي ، الثغر الأعلى الأندلسي ص ٣٤٤ .

من المولدين الأسبان . ولم يتبع هؤلاء المولدون سياسة التعصب أو الشعوبية التي كانت ملحوظة عند مولدى الجنوب الأندلسى ، وانما كانت تحكمهم مصالحتهم الخاصة . وكان بعدهم عن قرطبة وقربهم من أسبانيا النصرانية كيف اوضاعهم السياسية ويؤثر فيها تأثيرا قويا<sup>(١٦)</sup> .

فكانت العلاقة بين مولدى الشمال وبين حكومة قرطبة ، تتأرجح بين الطاعة والعصيان ، وكان هؤلاء المولدون يحاربون نصارى الشمال الأسبانى أحيانا ويتحالفون معهم أحيانا أخرى . ولم تكن حروبهم هذه حبا فى بنى أمية أو كراهية لنصارى الشمال ، وانما كان ذلك لتحقيق مصالحهم الذاتية ، وحماية لنفوذهم وابقاء لسلطانهم على تلك المناطق من بلاد الأندلس . ولذلك : كانوا يتعرضون كثيرا لهجوم جيوش الامارة الأموية لاجبارهم على العودة الى الطاعة . ورغم ذلك فقد أدوا خدمات جليلة للامارة فى حفظ تلك المناطق النائية من الوقوع فى قبضة أسبانيا النصرانية ، وفى بناء الكثير من الحصون لحمايتها ، وفى رد هجمات نصارى الشمال عن الثغور الاسلامية<sup>(١٧)</sup> .

وعندما حاولت تلك الأسرات من المولدين أن تنفصل عن قرطبة وتعلو عليها التمرد ، والعصيان فى أواخر عصر الامارة ، قام أمراء بنى أمية بضربهم ببعض الأسرات ذات الأصل العربى ، مثل بنى تجيب الذين مكن لهم الأمير محمد ( ٢٣٨ — ٢٧٣ هـ ) وبنى لهم قلعة أيوب ، وأسكنهم بها .

ولما عاد بنو قسى الى التمرد فى عهد ابنه الأمير عبد الله عام ٢٧٦ هـ ، استعان هذا الأمير ببنى تجيب هؤلاء ، وتمكنوا من الاستيلاء على بركة سطة وزاحموا بنى قسى ، وفرضوا نفوذهم على منطقة الثغر الأعلى منذ ذلك التاريخ<sup>(١٨)</sup> .

---

Livernors, A history of Spain, P. 78

(١٦)

(١٧) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٦ ، ٢٠ ، العزرى ، المصدر نفسه ، ٣٦ ، ٣٧ .

(١٨) ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، العزرى ، المصدر نفسه ،

ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٦٣ .

وقد مكنت عوامل القوة التي ذكرناها حتى الآن ، أمراء بنى أمية من اتباع سياسة نشطة وناجحة في علاقاتها بنصارى الشمال الأسباني ، وبنصارى برشلونة من الفرنجة ، وأصبحت بلاد الأندلس مرهوبة الجانب بفضل سياسة أمرائها وقوة شخصيتهم ، حتى هابهم خلفاء بنى العباس الأقوياء ، وقال أحدهم : « الحمد لله الذى جعل بيننا وبينهم بحرا » وهابهم نصارى الشمال الأسباني ، وهرعوا الى قرطبة مرارا يطلبون السلام ويمدون يد المودة .

### ٣ - عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

لكنه كانت هناك أيضا : عوامل ضعف أثرت في العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا النصرانية في فترات معينة طوال عصر الامارة . ويمكن ان نلاحظ تلك العوامل بين ثنايا سياسات الامراء الأمويين أنفسهم ، ومنها مايمكن أن يعود الى تلك الفرقة العنصرية والدينية وللبيئة الطبيعية والبعثرة الجغرافية التي كان لها أثرها في انقسام البلاد الى اقاليم منفصلة تفصل بينها حواجز طبيعية ، تساعد على التمرد وتؤيد الانفصال عن السلطة المركزية في قرطبة ، كما كان لوجود نصارى الشمال الاسباني وقربهم واتصالهم بالشفور الاسلامية ، ما ساعد على التمرد وحرص عليه ، وادى الى ضعف الحكومة الاسلامية في قرطبة .

١ - وقد سبق ان ذكرنا ان أمراء بنى أمية الأوائل قد اقاموا حكمهم بحد السيف ، وانهم اقاموا حكما مطلقا ، واتبعوا جميع وسائل البطش والعنف حتى مع أقرب الناس اليهم ، حفاظا على سلطانهم وتدعيما لحكمهم وارهابا لأعدائهم ، سواء في الداخل أم في الخارج ، واستعانوا في ذلك بالموالى والصقالبه .

ورغم نجاح تلك السياسة في تحقيق وحدة الجبهة الداخلية ، وفي رد كيد نصارى الشمال الأسباني وردعهم ، الا أنه كان لها خطرهما من ناحيتين : اولاهما : أنه سوف يبرز خطر الاستعانة بهذه العناصر الأجنبية في فترات الضعف في أواخر عصر الامارة ، بعد ان

أصبحت تلك العناصر هي القوة الضاربة للدولة ، وصارت تتحكم في توجيه سياستها ، بعد أن تراخت يد الأمراء الأواخر في القبض على زمامها .

وثنايهما : أن تلك السياسة لم يalfها العرب ، ولم يتمودوا عليها . وإذا كان الأسبان الأندلسيون قد راققتهم سياسة الحكم المطلق التي سار عليها أمراء بنى أمية ، لأنهم استطابوا ذلك والفوه منذ العهدين القوطي والروماني ، إلا أن العرب بالتأكيد لم يالفوا ذلك ولم يعتادوه ، وكان يناسبهم العيش في أقاليمهم واقطاعاتهم داخل ما يشبه الجمهوريات المنفصلة ، ولم يكن يربط بينهم إلا شعورهم بالخطر المشترك الزاحف اليهم من نصارى الشمال الأسباني ، فكانوا ينفرون إليه جميعا بدا واحدة وقلبا واحدا . وكان هذا النمط من الحكومة هو ما يناسبهم وينسجم مع ما جبلوا عليه من حب للحرية والاستقلال والأنفة (١٩) .

ويعزو البعض كثرة الثوار في دولة بنى أمية الى طبيعة العرب والبربر ، وما طبعوا عليه من « علو الهمم وشموخ الأنوف ، وقلة الاحتمال لتقل الطاعة ، اذ كان ما يحصل بالأندلس من العرب والبربر يجعل بعضهم يأنف من الادعاء لبعض » ، ويجعل البعض الآخر من المؤرخين ذلك قاعدة عامة ويقول : « ان العرب متنافسون في الرياسة وقتل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه ، أو كبير عشيرته ، الا في الأقل ، وعلى كره من أجل الحياء ، فيتعدد الحكام منهم والأمراء ، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام ، فيفسد العمران وينتقص » (٢٠) .

(19) Dozy, op. cit, p. 211.

(١٩)

أنيس زكريا النصولي ، الدولة الاموية في قرطبة ، ص ١٠٣ .

(٢٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ج ٢ ، ٣٦ ، ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢

ص ٤٥٥ .

ولذلك ليس عجبا أن يكثر المتوردون والعصاة من أشراف العرب والبربر ، حتى أن بعضهم كان يلجأ الى الخارج طلبا للنعون ضد سلطان بنى أمية ، وكان البعض الآخر يعمد الى التآمر . وكان تأمر افراد البيت الأموي ضد بعضهم البعض من الظواهر البارزة منذ بداية الدولة الأموية وحتى نهايتها ، وكان هذا مشجعا للتآمر فى الداخل ، ولنصارى الشمال الأسباني ، وادى ذلك فى النهاية الى ضياع أجزاء عزيزة من الأندلس الإسلامية والى خضوعها للسيطرة النصرانية (٢١) .

وكانت بداية الانحلال وضعف الأمراء وظهور الفساد وانتشار الظلم منذ أواخر عهد عبد الرحمن الثانى ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ) . وتميز عهده بسيطرة زوجته طروب وفتاه نصر الخصمى ومغنيه زرياب . وتميز عهد ابنه الأمير محمد ( ٢٣٨ - ٢٧٢ هـ ) بسيطرة وزيره هاشم بن عبد العزيز . وكان هذا الوزير رجلا حقودا مغرورا لا يعمل الا لمصلحته الخاصة ، ساء السياسة مع الجند حتى أنهم أسلموه ذات مرة الى الأعداء ، ونشج عن سوء سياسة ذلك الوزير أن كثر الاضطراب فى الدولة ، حتى انها صارت دويلات منفصلة عند موت الأمير محمد عام ٢٧٢ هـ (٢٢) .

أضف الى ذلك : ما حدث من صراع خفى بين الوزراء وبين مساعدى الأمير من اهل الزمة مثل ربيع القومس الذى ظهر نفوذه فى عهد الحكم الرضى ، وقومس بن أنطونيان الذى ارتفع شأنه فى عهد الأمير محمد ، وما صاحب ذلك من تأمر الوزير هاشم بن عبد العزيز عليه . وصار التآمر ظاهرة بارزة فى ذلك العصر بين رجال القصر والحظايا وأمهات الأولاد ، واقترن ذلك بانتشار الظلم والبغى على الرعية ، وساعد على ذلك ما آل اليه حال بعض القضاة والفقهاء الذين أخذوا

---

(٢١) ابن حزم برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٧٢ ، ٧٣ ، للخشنى ، قضاء قرطبة ، ص ٢٩ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٩٢ ، ١٠٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤

(٢٢) للخشنى ، قضاء قرطبة ، ص ٩٠ ، ٩١ ، ١١٠ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ج ١ ، ص ٢٢٨

يتنافسون على تولى مناصب القضاء ، ومد بعضهم يده لقبول الرشوة ، فاختل ميزان العدالة وضعفت سلطة الدولة وازدادت آمال أسبانيا النصرانية في استرداد الأندلس من المسلمين ، وازداد الخطر الخارجى ، وكثر الاضطراب الداخلى ، وتطلع الناس الى منتقذ لهم من هذه الحال السيئة التى المت بهم فى أواخر عصر الامارة ، ولم يكن هذا المنتقذ الا عبد الرحمن الناصر (٣٣) .

٢ — وكانت كثرة عناصر السكان وتناثرها من عوامل الضعف التى اثرت فى تفكك الجبهة الداخلية فى أواخر عصر الامارة وادت الى سوء موقفها الخارجى تجاه أسبانيا النصرانية .

فقد كان يعيش على أرض الأندلس العرب بقبائلهم من يمن ، ومضر ، والبربر بقبائلهم المتنوعة أيضا ، الى جانب أهل البلاد الأصليين سواء كانوا من طبقة المولدين الذين اعتنقوا الاسلام ونشأوا عليه ، أو من طبقة النصارى المعاهدين الذين احتفظوا بدينهم وتقاليدهم ، لكنهم استعربوا لسانا وحياة ، وسموا لذلك بالمستعربين فيما بعد (٢٤) .

وكما لم يستطع القوط والوندال أن ينصهروا فى جسم الأمة الأيبيرية كذلك لم يستطع العرب ولا البربر أن ينصهروا معا أو مع أهل البلاد الأصليين فى عصر الامارة . وكان هذا من العوامل التى أدت الى ذلك الصراع العنيف فى عصر الولاة ( ٩٢ — ١٣٨ هـ ) بين عنصرى العرب والبربر ، أما فى عصر الامارة ( ١٣٨ — ٣١٦ هـ ) فقد بدأ هذا الصراع خافت الصوت أثناء الصدر الأول من عصر الامارة ، نظرا لقوة الأمراء وحسن سياستهم كما سبق القول ، لكن الصراع بين عناصر السكان جميعا لم يلبث أن ازداد وانفجر منذ أواخر عهد عبد الرحمن

---

(٣٣) ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٤١ الخشنى ، المصدر

نفسه ، ص ١٠٥ ، ١١٠ — ١٢٣ ، ١٥٥ ، الحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٣٢٩ .

(٢٤) أحمد أمين ، ظهير الاسلام ، ج ٣ ، ص ٢٠ .



الثانى ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ) ، عندما ضعف الأمراء واصبحوا عرضة لتحكم الوزراء والعناصر الأجنبية من الصقالبة والحظايا من زوجات أمراء بنى أمية<sup>(٢٥)</sup> .

وقد تميزت تلك الفترة الأخيرة من عصر الامارة بثورات المولدين الذين كانوا يشكلون غالبية السكان فى الريف والمدن . وقد تمتع هؤلاء المولدين بالأمن والطمانينة حتى قرب نهاية عصر عبد الرحمن الثانى ، واستعان الأمراء بهم فى الادارة والجيش ، وفى حكم الثغور الاسلامية وفى التصدى لنصارى الشمال كما سبق القول . وكانت هذه الطبقة من السكان تنجح الى السلم والطاعة طالما كان الأمراء اقوياء ، ولما ضعف أمراء بنى أمية الأواخر ، كشف المولدون عن مكنون صدورهم وأعلنوا العداء لحكام قرطبة وللعرب عامة ، واستغلهم بعض الثوار أمال ابن حفصون وابن مروان الجليقى وبنى قسى وهم أصلا من المولدين فى تحقيق أهدافهم واستقلالهم عن حكومة قرطبة<sup>(٢٦)</sup> .

وكان هؤلاء المولدون يغمرهم شعور بالكراهية للسكان والأمراء من العرب ، بسبب سوء معاملتهم لهم ، وبسبب تلك الضريبة التى كانوا يدفعونها لهم منذ أن كانوا عجماء أى نصارى ، ولما اصبحوا مسلمين لم يكن من العدالة بقاء تلك الضريبة ، لكن العرب اصروا على دفعها لهم فقامت الفتن بينهما فى سرقسطة فى الشمال وفى اقليم رية فى الجنوب ، وفى كثير من المدن الأخرى مثل طليطلة وأشبيلية وبطليوس وماردة وباجة ومرسية ، فقلل الخراج واضطرب الأمن<sup>(٢٧)</sup> .

---

(٢٥) والمثال على هؤلاء الخطايا هى طروب ، خطية عبد الرحمن الأوسط التى كان لها نفوذ كبير فى البلاط الأموى ، وكانت تعمل فى سبيل وصول ابنها محمد الى العرش وتتنافس مع زوجاته الأخريات وتتآمر مع حراس القصر وبطانة عبد الرحمن الأوسط لتحقيق هذه الغاية .

(٢٦) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٧) ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن سعيد ، المصدر

نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٣ ، حسين مؤنس ، الحلة السيرة لابن الأبار ، ج ١ ، ص ١٥١ وعن لفظة بين العرب والمولدين ، وثورة المولدين ضد امرائتى أمية ، أنظر ، ابن حيان ، المقتبس ،

وكان السبب المباشر هو مقتل أحد الزعماء العرب على يد بعض المولدين في اقليم البيرة ، فانتشرت الفتنة انتشار النار في الهشيم ، واثارت الأحقاد القومية بين العنصرين العربى والأسباني خاصة بعد أن جنح أمراء بنى أمية الأواخر الى اصطناع بعض الأمراء العرب ضد المولدين ، وانتهاز نصارى الشمال الأسباني الفرصة وأخذوا يحرضون هؤلاء المولدين ومن ينضم اليهم من النصارى من أهل الذمة ويمدونهم بالمساعدة حتى يقوضوا حكم بنى أمية وتعود البلاد الى النصرانية مرة أخرى(٢٨) .

٣ - وقد ساعد على ذلك ما تختص به بلاد الأندلس من عوامل طبيعية وبيئة جغرافية . ذلك أن هذه البلاد عبارة عن شبه جزيرة يقسمها من الوسط جبل الشارات ، ويتميز الجنوب عن الشمال ، فكل منهما طابعه المناخى ، فالجنوب له مناخ الشمال الإفريقى أو حوض البحر المتوسط ، والشمال له مناخ أوربا ببردها وصقيعها . وقد اثر ذلك التنوع فى المناخ فى أمزجة الناس وطباعهم حتى أنك لتجد الأسباني الشمالى يتصف بالخشونة والقسوة والعصبية بخلاف الأسباني الجنوبى الذى يتصف بالهدو والمسالمة . وكان هذا من العوامل التى زادت من التناقض بين سكان الأندلس ، وبينهم وبين سكان اسبانيا النصرانية ، وساعد على استمرار هؤلاء الأسبان فى مقاومتهم لمسلمى الأندلس عدة قرون(٢٩) .

ج ٣ ، ص ٦١ - ٦٤ ، ٦٩ - ٨٥ ، ابن الأبار ، الحلة السيرة ج ١ ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٤ - ١٥٧ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٤٤ - ١٥٧ ، ١٧١ - ١٧٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٤٧ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ،

Dozy, op. cit, pp. 355 - 366, 318 - 382

(٢٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٢ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٥١ ، حتى تاريخ العرب ( المطول ) ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ .

(٢٩) للحميرى ، المصدر نفسه ، ص ١٣٣ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٤ ، محمد كرد على ، غابر الأندلس وحاضرها ، ص ١٦٠ .

Crow, Spain, the root and the flower, p. 6

كذلك كان لطبيعة الأرض حتمية معينة لا تظهر الا في اوقات الضعف السياسى ، ذلك أنها تتكون من وديان طويلة توازى الأنهار الكثيرة التى تمتد من الشرق الى الغرب أو العكس ، وتفصل هذه الوديان بعضها عن البعض الآخر سلاسل جبلية تسير فى نفس الاتجاه وتقطع الجزيرة بالعرض ، وقد أدى ذلك الى انقسام البلاد الى أقاليم تتميز بشخصيتها جغرافيا ومناخيا وثقافيا واقتصاديا ونفسيا ، حتى أنك لو سألت أسبانيا عن وطنه ، لرد على الفور Soy hijo de Galicia أو لقال لك Soy hijo de Granada ومعناه أننى ابن لغاليسيا ( جليقية ) أو ابن لغرناطة ، أو أشتورية أو ليون أو نافار أو بلنسية أو الأندلس وهكذا (٣٠) .

وهذه البيئة الطبيعية والجغرافية ساعدت على إثارة النعرة الاقليمية ، والحركات الانفصالية قديما وحديثا ، وادت الى تنوع غريب فى العادات ، والتقاليد ، ورغم أن الاسلام قد طبع البلاد بطابع جديد وأذاب عوامل التميز والخلاف الا أنه قد بقى منها ما يكفى لجعلها اتونا لحرب أهلية عند أول اشارة . وكان الثوار والمارقون ضد قرطبة يعلنون عصيانهم لها ، وهم آمنون مطمئنون خلف حصونهم ، وجبالهم الشاهقة أو أنهارهم الكثيرة المتعددة الفروع والمصادر ، مما كان يشكل عقبة أو عائقا أمام جيوش الامارة اذا ما حاولت أن تقضى على ثورتهم أو تمردهم (٣١) .

أما جبل للشارات الذى ورد فى هذه الفترة ، فهو سلسلة جبال تسمى ومها جاء لفظ « شارة » وجمعها « شارات » ، وتمتد من مدينة سالم الى قلمرية فى البرتغال وكانت لفظه للشارات تطلق أيضا على كورة أو اقليم يسمى اقليم للشارات ، من أعماله مدن طابيرة وطيطة ومجريط وأقليش ووادي الحجاره ، ووبذة . أنظر ، القلقشندي ، صبح الأعيى ، ج ٥ ، ص ٢١٣ ، شكيب أرسلان ، لطل السندسية ، ج ٢ ، ص ٣٤ ، محمد الفاسى ، الاعلام الجغرافية الأندلسية ، ص ٣٤ ، دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٣٩ .

Crow, op. cit, p 2

(٣٠)

(٣١) ابن غالب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

Crow, op. cit, p. 3

ص ٢٤ ،

Chapman, A history of Spain, p. 5

٤ - فاذا أضيف الى هذه العوامل التي تحدثنا عنها حتى الآن ، قرب الأندلس أو ،تصالها بالممالك النصرانية في الشمال الأسباني لأدركنا على الفور صعوبة الموقف أمام أى حاكم في قرطبة . وكان على هؤلاء الحكام أن يضعوا في اعتبارهم دائما أن شبه الجزيرة لم يعد ملكا خاصا بهم ، وأن أى ثائر يمكنه أن يلقي العون والمساعدة من ملوك نصارى الشمال الأسباني . ولذلك اتبع أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فيما بعد أسلوب اللين ، والمداراة ، مع الثوار ، وخاصة : في الثغور الإسلامية في الشمال ، واتبعوا معهم أيضا أسلوب الاصطناع ، فكانوا يصطنعون قوما ليضربوا بهم آخرين كما سبق القول(٣٢) .

وكان ملوك أسبانيا النصرانية يعملون دائما على خلق المشاكل والفتن والأزمات لحكومة قرطبة ، وذلك بمساعدتهم لثوار المولدين وغيرهم . وكانت مساعدتهم لمولدى طليطلة الذين كانوا دائمي التمرد ضد قرطبة واضحة ومستمرة ، وفي إحدى ثورات مولدى طليطلة أرسل اليهم أردونيو ابن الفونسو الثانى ، ملك جليقية واشترى جيشا بقيادة أخيه غثون Gatón فأوقعت بهم قوات الأمير محمد عام ٢٣٨ هـ وقتلت ثمانية آلاف(٣٣) .

كذلك استعان ابن مروان الجليقى الثائر في ماردة وبطليوس في عهد الأمير محمد ( ٢٣٨ — ٢٧٢ هـ ) بالفونسو الثالث بن أردونيو الأول ملك جليقية واشترى ، واستطاع أن يهزم جيشا للأمير محمد كان تحت قيادة ابنه المنذر ووزيره هاشم بن عبد العزيز عام ٢٦٢ هـ ، وتمكن الجليقى من أسر هذا الوزير وإرساله لملك جليقية . ولما أرسل الأمير محمد جيشا لتأديب ذلك الثائر والقضاء عليه عام ٢٦٣ هـ فر الى الفونسو وأقام في كنفه في جليقية ثماني سنوات ، ولذلك سمي : بالجليقى ،

(٣٢) ابن حيان ، المختبس ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ٣٦ .

(٣٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ — ١٤٤ ، ١٦٦ — ١٦٩ ،

Livermore, op. cit, p. 77

ثم عاد الى ماردة وبطليوس عام ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م ، ولما لم يتمكن الأمير محمد من هزيمته اضطر الى الاعتراف باستقلاله بتلك النواحي منذ ذلك التاريخ<sup>(٣٤)</sup> .

كذلك استعان بنو قسي المولدون وحكام الثغر الأعلى بملوك نبرة بعد أن ساءت العلاقات بينهم وبين أمراء بنى أمية في أواخر عصر الإمارة . فقد هاجم موسى بن موسى القسوى أرياض مدينة تطيلة وطرسونة وبرجة عام ٢٣٥ هـ بمساعدة ملك نبرة ( نافر ) بعد أن تم التحالف بينهما ، وتكررت هذه المساعدة وذلك التحالف بين بنى قسي وبين ملوك نبرة ، وخاصة عندما استعان أمراء بنى أمية الأواخر بأسرة بنى تجيب العربية في قمع شوكة هؤلاء المولدين<sup>(٣٥)</sup> .

واستعان بنو عمروس المولدون أيضا بملوك نبرة عندما ساءت العلاقات بينهم وبين الأمير محمد عام ٢٥٦ هـ . ولما أسرت قوات الأمير محمد بعض أفراد أسرة بنى عمروس وأعدمتهم في سرقسطة ، استنجد عمروس الثانى بفرسية بن وثقة ملك نبرة لكى يساعده ضد قوات الأمير محمد ، وكى يسترد مدينة وثقة ، مركز حكمه وسلطانه ، والتي كانت قد ضاعت منه ، واستولى عليها بنو قسي ، الذين قاموا هم الآخرون بمحاربة ملك نبرة ومصاهرته ، حتى يضمنوا سيطرتهم على المدينة<sup>(٣٦)</sup> .

وان دلّ هذا على شيء فأنما يدلّ على أن الاتصال والملاصقة بين الثغور الاسلامية وبين ممالك اسبانيا النصرانية كان عامل ضعف واستنزاف لقوة حكومة قرطبة على مدى التاريخ . وسوف يتضح

---

(٣٤) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٥ ، ١٦ ، ٢١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .

Livermore, op. cit, p. 77

(٣٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن حيان ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠ .

(٣٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

تماما أثر عوامل القوة والضعف التى أشرنا إليها حتى الآن عندما نتحدث عن العلاقات بين مسلمى الأندلس وأسبانيا النصرانية بعد قليل .

#### ٤ - المقاومة النصرانية فى الأندلس الإسلامية وارتباطها بنصارى الشمال :

وتعتبر هذه المقاومة من العوامل التى أضعفت حكومة قرطبة فى عهد الإمارة الأخير وشغاتها إلى حد كبير عن التصدى لنصارى الشمال . وتتمثل المقاومة النصرانية داخل الأندلس الإسلامية فى حركات الاستشهاد التى قام بها بعض المسيحيين فى قرطبة وعدد من المدن الأخرى ، ودفنوا بسببها حياتهم ، اعتقادا منهم بأن ذلك يعد نصرة للدين واستشهادا فى سبيل العقيدة ، وأنهم سوف ينالون ملكوت السموات ، وهو ما يمثل الجانب السلبي من المقاومة ضد الحكم الإسلامى . أما الجانب الإيجابى : فيمثله معاونتهم للمولدين فى ثوراتهم ضد أمراء بنى أمية وضد العرب والمسلمين بصفة عامة ، ومساندتهم لنصارى الشمال الأسباني بخلق المشاكل والصعوبات أمام حكومة قرطبة ، حتى يتمكن هؤلاء النصارى من استعادة البلاد شيئا فشيئا .

لكن ما هى الدوافع التى دفعت نصارى أهل الذمة (٣٧) إلى السير فى هذا الاتجاه ؟ وهل هى نفس الدوافع التى دفعت عناصر العرب والبربر والمولدين ، والتى أشرنا إليها من قبل ؟ وماذا كان وضع هؤلاء النصارى بعد الفتح الإسلامى للبلاد ، وهل كان الفتح نعمة أم نقمة بالنسبة لهم ؟ وإذا كان نعمة بشهادة معظم المؤرخين فلماذا فعلوا ذلك ؟

---

(٣٧) كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعا اسم العجم أو عجم الأندلس وربما أطلق اسم الروم ، وأن كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال ، فلما تمكن سلطان المسلمين ، أصبحوا يسمون عجم الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان منهم له عهد ، سموا بالمعاهدين ، وربما قالوا المعاهدة من النصارى ، أو النصارى المعاهدين . وقد أطلق بعض المؤرخين الحديثين عليهم لفظ المستعربين وهى تسمية خاطئة ، لأن هذا اللفظ لم يرد فى الكتابات إلا فى القرن الثانى عشر الميلادى ، ظهر فى الكتابات اللاتينية أولا ، ثم انتقل إلى كتاب الأسبان أنفسهم . انظر ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٢٤ ، ٤٣٧ .

## أولاً : سياسة بنى أمية تجاه النصارى المعاهدين وعوامل تمردهم :

بداية نقول : أن الفتح حسن أحوال الناس الاقتصادية ، وأنه أحدث ثورة اجتماعية .

وأما في الناحية الدينية : فتسامح العرب اعترف به كتاب النصارى أنفسهم . فلم يفرض المسلمون على نصارى أهل الذمة إلا الجزية والخراج . والخراج هو ضريبة الأراضي التي كانت تتفاوت حسب قدرة إنتاج الأرض ، وقد فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً .

أما الجزية : فلم تكن مفروضة على جميع المسيحيين بل أعفى منها النساء والأطفال والرهبان والمقعدون والمرضى ، والعبيد ، وفي توجيه سياستها ، بعد أن تراخت يد الأمراء الأواخر في القبض وكانت تتراوح بين ٤٨ درهم ، ١٢ درهم (٣٨) .

هذا وقد ظفر المسيحيون وغيرهم من المولدين بحق لم يكن لهم أيام ملوك القوط ، إذ أنهم احتفظوا بالجزء الأعظم من ثرواتهم وعقاراتهم وأصبح لهم الحق في توريثها أو نقلها لغيرهم ، مما هيا لهم جوا من الحرية لم يحلموا به من قبل ، ومن ثم فقد ازداد الانتاج خاصة بعد أن قام الفاتحون الجدد بقمع عناصر الشر والفوضى والقضاء على طبقة النبلاء ، وتحرير العبيد وأقنان الأرض من سيطرتهم ، وتنظيم إدارة البلاد ، ولذلك نشطت الزراعة والصناعة والتجارة ، وهبت ريح من الرخاء والدعة على مجتمع أضناه العسف والفاقة مدى عصور (٣٩) .

ومن الناحية الاجتماعية ، كان الفتح ثورة اجتماعية ، فقد خلص الأهالي من عسف طبقة النبلاء ورجال الكليروس الذين كانوا يحوزون غالبية الأرض ، على شكل ضياع واسعة أو اقطاعات كبيرة يعمل فيها

---

Dozy, op. cit, p. 234, 235

(٣٨)

لبي بول ، قصة العوب في اسبانيا ، ص ٣٩ ، حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٠٧ .  
(٣٩) القرى ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ملحق كتاب نوزي المسمى ص ٣ - ٦  
Recherches sur L'Histoire et la Litterature de L'Espagne

الرقيق وعبيد الأرض الذين كانوا يعاملون معاملة السوائم . ليس هذا فقط فقد أعطاهم الفتح نصيبا من الانتاج ، وأعظم من هذا أعطاهم حق العتق من العبودية ، ولم يكن على العبد الا أن ينطق بالشهادتين حتى يصير حرا ، رأسه برأس النبيل الذي كان يسومه سوء العذاب من قبل (٤٠) .

لذلك : كان الاقبال على الاسلام عظيما بين هذه الطبقات الفقيرة بالذات ، ومع هذا فقد سمح الاسلام بوجود الديانات الأخرى ، واحتفظ النصراني بتنظيماتهم الاجتماعية وبقانونهم الخاص وبحق المحاكمة أمام قضاة من بنى جنسهم ، ولم يرتدوا الملابس التي تميزهم عن غيرهم من طبقات الشعب ، واتخذوا الأسماء العربية بجانب الأسماء اللاتينية ، وتعلموا العربية ونبغ بعضهم فيها ، وبلغ استعراهم درجة أخذوا معها يختنون أولادهم ويطبقون نظام الحريم في بيوتهم ، بل أنه لم يمض على الفتح أكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجموا صلواتهم الى العربية حتى يفهمها النصراني ، لأن هؤلاء زهدوا في اللاتينية وأقبلوا على تعلم العربية بشغف واهتمام (٤١) .

وقد ترك العرب للجماعات النصرانية أيضا نظامها المدني الذي كان موجودا أيام القوط ، وكان عليهم أن يختاروا من يقوم بجمع ضرائبهم ومن يمثلهم أمام الحكومة الإسلامية ويدير شئونهم في المدن والأرياف ، وهو ما كان يعرف بالقوميس Comes (٤٢) ، واكتفى العرب

---

(٤٠) Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 236, 237

(٤١) حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٤٦ ، محمد كرد علي ، المرجع نفسه ، ج ١ ،

Livermore, op. cit, p. 74

ص ١٧٧ ،

(٤٢) قوميس كلمة لاتينية ، وهي Comes ، والقوميس في الأصل مرافق الملك

ونديمه ، ثم صارت هذه التسمية في أيام القوط بأسبانيا والإفرنج بغرب أوروبا خاصة بولاة الكور ، ومنها اشتق اللفظ الأسباني Conde واللفظ الفرنسي Comet ، وفي بعض للتواريخ الإسلامية يوجد لفظ «قمط» عوضا عن «قوميس» ، وجمع «قمط» ، «قمطاط» ، وجمع قوميس «قوامس» وكانت للوظيفة أو المنصب يسمى القمامة ، انظر ، ابن القوطية ، افتتاح الاندلس ، ص ٢٩ ، ليفي بروفنسال ، جبهة أنساب العرب لابن خزم ، ص ٤٦٧ .



باختيار القومس الأعلى وهو الملقب بقومس الأندلس ، وكان أول من عين في هذا المنصب هو أرطباس بن غيطشة . وبذلك وجد في الأندلس من أول الأمر نظامان اداريان جنبا الى جنب ، واحد :: للمسلمين وآخر للنصارى كما صار النصارى يتمتعون بحق اختيار مساوئتهم وهو ما لم يعرفوه أيام القوط<sup>(٤٣)</sup> .

ولم يترك المسلمون للمسيحيين في الأندلس نظامهم المدني والادارى فقط ، بل انهم استعملوهم أيضا في الجهاز الادارى للدولة الاسلامية نفسها ، ووصل بعضهم الى أسى المناصب وأخطر المراكز ، حتى ادى ذلك في بعض الأحيان الى فتن وثورات ومشاكل واجهت امراء بنى أمية واقضت مضاجعهم . فقد وثق الأمير الحكم ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ ) في أهل الذمة ، حتى انه عين منهم ومن عنصر الصقل ونصارى الشمال حرسه الخاص ، بل كان وصيفه المفضل أسبانيا مسيحيا ، وهو الذى قام بكشف المؤامرة التى تعرض لها الأمير الحكم عام ١٨٩ هـ<sup>(٤٤)</sup> .

كما جعل قائد حرسه أو قائد الغلمان الخاصة ( ربيعا القومس ) ، وكان هذا النصارى محبوبا من الأمير الحكم حتى انه فوضه في فرض الضرائب على المسلمين وأهل الذمة ، فكرهه الجميع ، وادى ذلك فيما ادى ، الى قيام الفقهاء وأهل الرىض بقرطبة بثورتهم المشهورة ضد الأمير الحكم عام ٢٠٢ هـ ، لذلك ما أن تولى عبد الرحمن الأوسط الحكم حتى أمر بصلب هذا القومس<sup>(٤٥)</sup> .

(٤٣) ابن القوطية ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٤٧ ، ٤٦١ .

Dozy, op. cit, pp. 245

(٤٤)

(٤٥) يجمل البعض صلب هذا القومس على يد عبد الرحمن الأوسط ( انظر ، ابن حزم ، جبهة انساب العرب ، ص ٨٨ ) ، بينما يجعله آخرون في عهد أبيه الأمير الحكم ، ( انظر ، ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ١٤١ ) وتابعة على ذلك الأستاذ محمد عبد الله عنان ( انظر ، دولة الاسلام في الأندلس ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٢٤٥ ) . والحقيقة أن صلب هذا القومس تم على يد الأمير عبد الرحمن الذى تولى السلطة قبيل وفاة والده الحكم ، لذلك : تم هذا الأمر وكان الحكم ما يزال حيا ، ( انظر ابن فضة الله العمري ، مسالك الأبصار ، ج ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٣١٥ ) .

ورغم اشتداد حركة الاستشهاد المسيحي في عهد عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ هـ - ٢٣٨ هـ ) ، إلا أنه لم يتخل عن سياسته في التسامح واستخدام أهل الذمة والثقة بهم . بل تعدى الأمر إلى أنه عزل أحد القضاة بسبب شهادة شيخ أعجمي اللسان من نصارى أهل الذمة . وتابع ابنه الأمير محمد ( ٢٣٨ - ٢٧٢ هـ ) سياسة والده وأقر القومس جومس Gomez ابن أنطونيان في منصبه في القماسة ، كما استخدمه كاتباً أثيراً لديه ، حتى أنه كان المدير الفعلي للوزارة مدة طويلة أثناء المرض الطويل للوزير عبد الله بن أمية . ولما مات هذا الوزير سمع الأمير محمد يقول : « لو كان جومث من أهل ديارتنا لكنت قد عينته وزيراً بكل سرور » ، عندئذ أعلن جومث إسلامه وحصل على اسمى منزلة في بلاط الأمير محمد<sup>(٤٦)</sup> .

لم يبال الأمير محمد باعتراض الفقهاء وسخطهم من تلك السياسة ، ولم يبال أيضاً بما كان ينعت به المشاركة بنى أمية من استخدامهم للنصارى في بلاطهم ، وتوليتهم أسمى المناصب ، وفاتهم أن البلاد بها أقلية نصرانية كبيرة لها وزنها وشأنها وخطرهما ، وكان على الحاكم أن يتعاون مع أهل البلاد بصفة عامة ، خاصة وأن العرب كانوا أقلية ، وأنهم أخذوا في الذوبان في هذا المجتمع نتيجة للزواج والاختلاط وانقطاع الهجرات العربية إلى الأندلس بعد استقلال بنى أمية بها ومعاداتهم لبنى العباس .

لكن تلك السياسة جلبت بعض المشاكل في الداخل لبنى أمية ، وقد سبقنا الإشارة إلى ما سببه ربيع القومس للأمير الحكم . وقد تسبب أيضاً قومس بن أنطونيان ( جومث بن انتنيان حسب الرواية العربية ) في إيجاد بعض المشاكل للأمير محمد ، إذ قام الصراع بين هذا النصراني وبين الوزير هشام بن عبد العزيز بعد أن « ظهر فضل أدب قومس ، وتولى الكتابة ، واضطلع بالائتقال ، وخاطب ونبه ، وعارض في الأمور ،

ولم يرض أن يكون تابعا لغيره ، ولا مستحذيا لسواه . وقد خاف قومس من بطش الوزير واعتكف في منزله ، ولما مات حاول الوزير مصادرة أمواله لصالح بيت المال بحجة أنه ارتد ومات على النصرانية ، لكن القاضى أنصفه بعد مماته ، وأيده الأمير محمد في حكمه ، ولم يستطع الوزير أن ينال منه أو من ورثته<sup>(٤٧)</sup> .

استخدم أمراء بنى أمية أيضا : نصارى أهل الذمة في الجيش ، وأشركوهم في الغزو بلا عطاء كمتطوعين ، وكان النصارى يطمعون في غنائم الحرب واسلابها حتى لو كانت ضد مواطنيهم من نصارى الشمال . كما كان الأمراء يؤلفون منهم قوات احتياطية يستعينون بها اذا خرجت جيوشهم للغزو<sup>(٤٨)</sup> .

كذلك كان مذهب مالك وهو المذهب المنتشر في تلك الأنحاء متسامحا جدا في نصوصه تجاه أهل الذمة ، فقد ورد في المدونة الكبرى لابن سحنون المستقاة من فقه مالك نصوصا كثيرة في هذا المعنى ، اذ كان للنصارى حق الشفعة ، وكان المرتدون لا يحكم عليهم دائما بالموت ، وكان يعاقب المسلم اذا كسر آنية الخمر لزمى دون الرجوع للحاكم<sup>(٤٩)</sup> .

اذا كانت تلك هى سياسة بنى أمية تجاه النصارى من أهل الذمة ، واذا كانت هذه هى ثمار الفتح وقطوفه الدانية ، فما الذى جعل هؤلاء الناس يقومون في النصف الثانى من عصر الامارة بما قاموا به ؟ هل كان هناك تعصب اسلامى ضدهم ؟ هل اكرههم العرب على الاسلام ؟ هل تعرضوا لكنائسهم أو أديرتهم ؟ هل منعوهم من اقامة شعائر دينهم ؟ الواقع يقول : بغير ذلك ، ولو كان العرب متعصبين لما سمحوا لأنفسهم

(٤٧) الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ١١١ - ١١٣ .

(٤٨) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، ص ١٠٩ - ١١١ ، مانويل جوميث مورينو ، الفن الاسلامى في اسبانيا ، ص ٧ د . حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٦٠٢ .

(٤٩) سحنون : المدونة الكبرى ، ج ٤ ، ص ٢٣٦ ، ابن عبدون ، المصدر نفسه ، ص ٩٥ .  
ترتوتون ، أهل الذمة في الاسلام ، ص ٢٥٦ .

باستخدام أهل الذمة في مناصب الدولة العالية ، سواء في الجيش أم في الإدارة ، ولما ائتمنوهم على أرواحهم ، إذ كان أمراء بنى أمية كما أسلفنا القول يجعلون المسيحيين من بين حراسهم ، ولو كان المسلمون متعصبين لما كانت هناك تلك الأقلية النصرانية الكبيرة العدد والتي ازداد غناها و ثرائها يوما بعد يوم ، نتيجة لحكم المسلمين الذي اتسم تجاههم بالعدالة والسماحة والانصاف .

لم يكره المسلمون أحدا من الأسبان على الدخول في الاسلام ، بل تركوا لهم حرية البقاء على دينهم مع دفع الجزية أو الدخول في الاسلام ، وكان الأسبانى يعلن اسلامه وهو يعلم تماما أن المرتد عقوبته الموت ، لذلك كان اسلامه عن اقتناع ورضى دون اكراه أو تهديد . لذلك : اعترف الأسبان مولدون ، ونصارى ، بأنهم يؤثرون حكم العرب على من عداهم من الافرنج أو القوط (٥٠) .

وقد بلغ تسامح العرب حدا جعلهم يبيحون لدعاة النصرانية أن ينشروا دينهم ، بل بلغت الحال ببعض المتحمسين منهم أن كانوا يقفون على أبواب بعض المساجد لاقتناع المسلمين بالدخول في دينهم . وسمح المسلمون لهم أيضا بعقد مؤتمراتهم الدينية ، كمؤتمر اشبيلية النصرانى الذى عقد في سنة ١٦٦ هـ / ٧٨٢ م ، ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقد في عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، كما سمحوا لهم أيضا : ببناء الكنائس والأديرة . وتعبد بيع النصارى الكثيرة التى بنوها أيام الحكم العربى من الأدلة على السماحة الدينية لمسلمى الأندلس (٥١) .

ورغم ذلك يحمل الأستاذ دوزى على سياسة العرب الاسلامية في الأندلس ، ويرجع اسلام أهالى البلاد الى ان المسيحية لم تكن

Dozy, op. cit, p. 235

(٥٠)

Chapman, op. cit, p. 40

(٥١) غويستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٦ ، محمد كرد على ، غابر الأندلس وحاضرها ، ص ٤٢ .

متمكنة في قلوبهم ، وإن المسيحية لم تكن عميقة الجذور في البلاد ، وأنها كانت ما تزال تتنازع البقاء والوجود مع الوثنية هناك ، ولذلك أسلم الأتقان والعبيد . أما اسلام النبلاء — في نظره — فلكى يهربوا من ضريبة الرأس ، أى : الجزية ، أو ليحافظوا على ممتلكاتهم عندما ينقض العرب عهودهم أو لأنهم اعتقدوا باخلاص في تعاليم الاسلام(٥٢) .

ويواصل دوزى هجومه قائلا ان الكنيسة لم تكن حرة في عقد مؤتمراتها أو في تعيين أساقفتها ، وأن أمراء بنى أمية كانوا يفرضون أعوانهم من الأساقفة على الكنائس ، وأن بعضا من هذه الكنائس قد اختفى أو تحول الى مساجد ... الخ(٥٣) .

ومهما كانت دوافع الناس الى اعتناق الاسلام ، الا أنهم أخلصوا في اسلامهم وتعصبوا له أكثر من العرب أنفسهم . ولم يفرض المسلمون الأساقفة على الكنائس ، بل تركوا هذا للمسيحيين أنفسهم ، والدليل على هذا ان العرب كانوا قد أقاموا حليفهم أبه ( عباس ) مطرانا للبلاد ، لكن الأهالى لم يرضوا به وأقاموا مطرانا آخر يسمى أوربانو Urbano فلم يعترض المسلمون وأقروهم على ذلك(٥٤) .

أما اتخاذ الكنائس مساجد ، فان ذلك لم يتم قهرا أو اقتدارا ، بل دفعت الدولة التعويض الكافي لى تبنى كنيسة بدل التى أخذت ، فعمل ذلك عبد الرحمن الداخل ، واعترف به دوزى نفسه . كما سمح المسلمون باقامة الكراسى الكنسية فى المدن الجديدة مثل بظليوس وغيرها رغم قربها من قورية وماردة ، وكان فى كل منها كرسي كنسى . ولم يكن اختفاء الكراسى الكنسية الا نتيجة للتعديلات الادارية التى استدعاها وضع الدولة الجديدة ، والتى أدت الى خمول بعض المدن وهجرة

---

Dozy, op. cit, pp. 237 - 238

(٥٢)

Dozy, op. cit, pp. 238 - 239

(٥٣)

(٥٤) د. حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٥٠٦ .

الناس منها الى غيرها ، فلم تعد تستحق أن يقوم فيها كرسي كئسي ، وكان يحدث نفس الشيء اذا انتقلت مدينة من كورة الى أخرى (٥٥) .

من هنا يتضح لنا تماما أن سياسة العرب الدينية كانت تقوم أساسا على مبدأ التسامح والحرية الدينية ، وعلى احترام مشاعر النصارى . فما الذى جعل هؤلاء يقومون بتلك الحركات الانتحارية ؟ التى تسمى بحركات الاستشهاد الذى جعلهم أيضا يقدمون العون والمساعدة لأولئك المتمردين من المولدين ، ويساهمون بشكل غير مباشر مع نصارى الشمال الأسبانى فى كفاحهم ضد الحكومة الاسلامية فى قرطبة ؟

انه لغريب حقا أن يمتد لهب الفتنة الى نصارى أهل الذمة فى قرطبة ثم يمتد الى كثير من المدن والنواحي ، لا سيما وأن هؤلاء النصارى لم يعانون من اضطهاد دينى أو ظلم اجتماعى أو حيف اقتصادى . صحيح أن أعدادهم كانت كبيرة فى القرى والمدن رغم الأشواط البعيدة التى قطعتها الحركة الاسلامية فى عصر الولاة وعصر امارة بنى أمية ، الا أن قوة نصارى أهل الذمة كانت تكمن فى مقدرتهم الاقتصادية ، إذ أنهم جنّوا ثروة كبيرة باشتغالهم فى الزراعة والصناعة وبالأعمال التجارية ، وكان العرب يأنفون من الاشتغال فى تلك الأعمال ، كما انشغلوا بالصراخ فيما بينهم وبين البربر والمولدين فى عصر الامارة الأولى ، فتركوا تلك الميادين للنصارى يصولون فيها ويجولون .

اذن لم تكن ثورة هؤلاء النصارى لزيادة ثروة أو مضاعفة جاه ، إنما كانت لتحقيق مطالب أخرى ولعوامل يمكن توضيحها : وأولى هذه العوامل عامل نفسى يتعلق بتدفق الحركة الاسلامية وانتشار حركة الاستعراب انتشارا أفزع التعصبين من القسيس والرهبان ، إذ رأوا أن أعداد المسيحيين تتناقص باستمرار حتى صاروا اقلية فى وطن كانوا يعتبرون أنفسهم هم أصحابه الحقيقيون ، وغاظهم فى نفس الوقت

---

(٥٥) د. حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، حتى ، المرجع نفسه ،

Dozy, op. cit, p. 239

ارتفاع شأن مواطنيهم ، من الأسبان الذين اعتنقوا الاسلام فامتلات نفوسهم بالحق ، والكراهية ضد الاسلام (٥٦) .

لقد اندفع شباب النصارى فى حركة الاستعراب اندفاعا أفقد المتعصبين النصارى صوابهم ، حتى جأر أحدهم بالشكوى من أن شباب المسيحيين صاروا يلتهمون الشعر العربى ومؤلفات العرب من فلسفة وأدب ، ليس بهدف تفنيدها بل لتصحيح أسلوبها العربى ، وأنهم هجروا كل ما هو مكتوب باللاتينية حتى الكتاب المقدس ، لقد نسى المسيحيون لسانهم حتى أن الواحد منهم كان لا يجد من يكتب له خطابا بلغة لاتينية صحيحة ، لكنهم يعبرون عن أنفسهم باللغة العربية الفصحى ، حتى أنهم يقتبسون الشعر العربى لتوضيح مراميهم فى الكتابة أكثر من العرب أنفسهم (٥٧) .

وكان الاستعراب يسبق عادة التحول الى الاسلام ، لذلك قام هذا الفريق المتعصب من النصارى بأعماله الانتحارية حتى يدفع البقية الباقية الى الصمود والمقاومة أمام ذلك التيار الاسلامى الجارف ، فكانوا يحرضون بعض الرهبان والقسس على سب الاسلام وضاحبه علنا فى الشوارع وفى المساجد وامام القضاة الذين كانوا يحاولون علاج هؤلاء المرضى ، ويؤجلون الحكم باعدامهم لاعطائهم فرصة للتعتقل والتروى ، لكنهم كانوا يعودون الى اصرارهم وعنفهم ، فكان القضاة يضطرون للحكم باعدامهم .

وهكذا كانوا يظنون أنهم نالوا الشهادة تماما كشهداء عصر دقلديانوس (٥٨) .

(٥٦) د. حسن محمود ، تاريخ الغرب الاسلامى ، ص ٨٨ .

ج ٢ ، ص ٦١٤ .

Livermore, op. cit, p. 77

Dozy, op. cit, p. 268

(٥٧)

Dozy, op. cit, p. 291

(٥٨)

أما العامل الثاني : الذى دفع بعض النصارى الى ذلك التعصب الدينى ، فعامل يتعلق بالدولة الاسلامية نفسها ويعود الى ظروفها السياسية والدينية والاجتماعية . فقد بدت على الدولة مظاهر الضعف ابتداء من عصر عبد الرحمن الثانى ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ) حتى بداية عصر عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) . وكان الأمراء قبل ذلك يقبضون على مقاليد الحكم بيد من حديد ، ويسيطرون على الدولة من أدها الى أدها سيطرة تامة . ولما ضعفت حكومة قرطبة تجددت أطباع الرعايا المسيحيين فى الاستقلال وتخلوا أن فى مقدورهم أن يخرجوا عن طاعة الأمير ، وحرصهم على ذلك زعماءهم الدينيون المتعصبون<sup>(٥٩)</sup> .

وكان فى مكونات الشخصية العربية ما يساعد هؤلاء فى تخيلاتهم العريضة ويدفعهم الى الكراهية . فقد كان المسلمين المستنبرون والطبقة الأرستقراطية العربية مهذبين جدا ويحسنون معاملة المسيحيين ولا يسيئون اليهم ويحترمون مشاعرهم ، أما العامة أو الدهماء فلم يكونوا على هذا المستوى من الخلق والفهم السليم للدين ، فكانوا أحيانا يهزاون ببعض المسيحيين ويعاملونهم معاملة سيئة . يدفعهم الى ذلك بعض فقهاء قرطبة الذين كانوا يطمحون الى المشاركة فى الحكم عن طريق السيطرة على العامة ، وتحريكها ضد الأمراء ، اذا ما وسع هؤلاء من دائرة استعانتهم بالنصارى فى شئون الحكم والادارة . وقد أسلفنا القول عما حدث بسبب استخدام ربيع القومس وجومث بن انطونيان<sup>(٦٠)</sup> .

ويبدو أن هذا التسامح العظيم الذى اشتهر به بنو أمية تجاه رعاياهم من النصارى قد أثار بعض الفقهاء المتشددىن ، كما أثار بعض القسس المتعصبين أيضا ، وهذا ليس بغريب . إذ أن الفقهاء ورجال البلاد كانوا يخشون مزاحمة النصارى لهم لا سيما وقد أكثر أمراء بنى

(٥٩) على محمد حمودة ، تاريخ الأندلس ص ١٦٠ .



أمية منهم في القصر والبلاط والادارة والجيش ، أما النصارى فقد اثارهم ذلك التسامح الذي كان يغرى المسيحيين على الدخول في الاسلام ، ويدفعهم بقوة الى البعد عن الكنيسة وتعاليمها<sup>(٦١)</sup> .

هذا ما يتعلق بالدولة الاسلامية وحكومتها في قرطبة .

وهناك ما يتعلق بالكنيسة ورجالها ايضا . وكان هؤلاء هم السبب المباشر في اثاره الفتنة بتعصبهم الزائد ضد حكامهم المسلمين ، الذين جعلوا من مدينتهم — قرطبة — سكنا لهم ومركزا لعاصمة اسلامية زاهرة ، تحدث الناس عنها في الشرق والغرب . وقد ازداد تعصب هؤلاء القوم حتى رموا اخوانهم من النصارى المعتدلين بالخيانة والعمالة .

وقوى من ادعائهم هذا ، اخلاص هؤلاء النصارى لمناصبهم التي كانوا يشغلونها وادانتهم لأعمال العنف التي يقوم بها أولئك النفر من المتعصبين<sup>(٦٢)</sup>

أضف الى ذلك تحامل هؤلاء المتعصبين وبغضهم للنبي العربي وتعاليمه ، تلك التعاليم التي كانوا يعتمدون في معرفتها على طائفة من الخرافات والأباطيل المستوردة من ببلونة عاصمة مملكة نيرة المسيحية<sup>(٦٣)</sup> . وكانوا هم أول من يعرفون كذبها ، فقد كانوا يعيشون بين المسلمين ، وكان من السهل عليهم معرفة الحقيقة ، لكنهم رفضوا ذلك وتعمدوا نشر الخرافات المضحكة عن نبي الاسلام .

ليس هذا فقط ، بل انهم كانوا يطوعون نصوص ديانتهم لتحقيق مآربهم ويعملون على اذاعة تلك النصوص التي تحض على الموت . مثال ذلك : « لا تخافوا من هؤلاء الذين يذبحون الأجساد ، لأنهم لا يستطيعون ذبح الأرواح ، ولا تخافوا الا الله وحده » ، « ان هؤلاء الذين سيدخلون

(٦١) بالنشيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٣ ، ٤ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٤٤ ،

٤٤٥ ، مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٥ .

Chapman, op. cit, p. 47, Dozy, op. cit, p. 238 (٦٢)

Dozy, op. cit, p. 269 (٦٣)

جنة المسيح هم الذين قدموا انفسهم طواعية كشهداء . وقد ادخلوا في روع البعض ان هذا الكلام يمثل الحقيقة والصدق وان ما يقدمونه اليهم أيضا عن نبي الاسلام من أباطيل هو أيضا لا يبعد عن الحقيقة ، لدرجة ان أحد الرهبان بعد أن سب الاسلام خاطب القاضي قائلا : « قدمنى للموت ، اننى أسلم نفسى له ، ألم يقتل المسيح ، مبارك من ضحى أو تعذب من أجل الحقيقة والصدق ؟ ولأجلهم كانت مملكة السماء » (٦٤) .

وبلغ من استخفاف هؤلاء النصارى المتعصبين بعقول ذويهم أنهم اتفقوا أنهم اذا قدموا للموت ، فسوف يرفعون الى السماء كمثلي عيسى ، وأن المسلمين لن يقتلوا الا شبيها لهم يلبس أحد الأجساد . ويحكى لنا الخشنى قصة من هذا النوع عندما تقدم أحد النصارى الى القاضي ( أسلم بن عبد العزيز ) طالباً تقديمه للموت ، قائلاً له عندما سأله القاضي عن السبب : « اتتوهم أنك اذا قتلتنى انى أنا المقتول ؟ فقال له القاضي : ومن المقتول اذن ؟ فقال له النصرانى : شبيهى يلقى على جسد من الأجساد مقتله ، وأما أنا فأرفع من تلك الساعة الى السماء . فلم يجد القاضي حيلة فى اقناعه بعدم صحة ذلك الا ان أمر أعوانه بتجريد الرجل من ثيابه والهاب ظهره بالسياط ، فأخذ الرجل يصيح ، حينئذ قال له القاضي : « فى ظهر من تقع هذه السياط ؟ فقال الرجل : فى ظهري . قال له القاضي : وكذلك السيف ، والله لا يقع الا فى عنقك ، فلا تتوهم غير ذلك » (٦٥) .

واذا عرفنا ان أسلم بن عبد العزيز تولى القضاء عام ٣٠٠ هـ حتى عام ٣٠٩ هـ لتأكد لدينا أن تلك الحركة الانتحارية التى قام بها نصارى قرطبة كانت لها ذبول حتى بداية عهد عبد الرحمن الناصر ، وأنه رغم الشدة التى عالجها بها الأمير محمد ( ٢٣٨ — ٢٧٣ هـ ) من طرد للموظفين

المسيحيين من قصره ، ومن تدمير لبعض الكنائس الا أن تلك الحركة استمرت حتى بعد حكم ابنه المنذر ، وعبد الله ، وأنه لم تتممها الا شدة الناصر وحزمه (٦٦) .

ويبدو أن حركات الاستشهاد أو الانتحار المسيحي كانت معروفة أيضا في غير الاندلس ، فقد حدث عام ٢٨٤ هـ في بغداد أن شهد الناس على نصراني بأنه سب نبي الاسلام ، وطلبوا من القاضي أن يقيم عليه الحد . وكان غضب الناس شديدا لدرجة أنهم هاجموا قصر الخليفة المعتضد العباسي ، فردهم الخليفة الى القاضي ثانية فكادوا يقتلونه من كثرة الزحام حتى أنه أغلق بينه وبينهم بابا (٦٧)

وكان طبيعيا أن تقع مثل هذه الحوادث في قرطبة عاصمة أمراء بني أمية ، فالمتعصبون موجودون في كل مكان وفي كل عصر . وكان في امكان ثوار النصاري أن يتحولوا الى جنود وجيوش في المدن والأقاليم البعيدة عن قرطبة ، مركز السيطرة الاسلامية ويدها القوية ، وكان يمكنهم أن يشتبكوا في حرب عصابات أو وجهها لوجه مع جيوش قرطبة وحتى الموت . أما في قرطبة وهي عاصمة الدولة ، فلم يكن للنصارى الا أن يختاروا طريقا آخر غير ذلك الطريق وهو أن يصبحوا شهداء (٦٨) .

وهناك عامل هام وأخير ساعدهم بل حرضهم على اختيار هذا الطريق ، ذلك هو تحريض نصارى الشمال الأسباني . ويبدو أن هؤلاء النصاري انتهزوا فرصة الضعف التي كانت تعيشها حكومة قرطبة في ذلك الوقت ، وراوا أن يثيروا نصارى قرطبة حتى يتمكنوا من التهام الثغور الاسلامية شمالي طليطلة وبطليوس . والروايات النصرانية لاتشير الى هذا التحريض المتعمد الا عرضا ، بينما تصمت عنه الروايات العربية ولاتشير اليه أدنى إشارة .

Dozy, op. cit, p. 299

(٦٦)

(٦٧) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، ج ٥ قسم ٢ ، ص ١٧٠ .

Dozy, op. cit, p. 272

(٦٨)

ثانياً — مظاهر حركة التمرد النصرانية داخل الأندلس الإسلامية :

بدأت هذه الفتنة بعد زيارة قام بها القس يولوجيوس Eulogius الى بملونة عاصمة مملكة نبرة ( نافار ) عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨م ومن بملونة احضر معه عددا من الكتب المليئة بالباطيل ضد الاسلام ، كما احضر معه عددا من كتب الأدب الرومانى من أعمال فرجيل Virgil وهوراس Horace وجوفينال Juxenal ، وجد فيها ذلك القس معادلة معقولة راجحة للأدب العربى الذى كان القرطبيون المسيحيون يفتنون به . وفى طريق عودته عرج على طليطلة وقضى فيها عدة أيام تمكن فيها من إثارة اهل طليطلة ضد حكومة قرطبة التى تسىء الى المسيحيين وتضطهدهم على حد زعمه (٧٠) .

ونلاحظ أن ثورات طليطلة لم تبدأ الا بعد عودته الى قرطبة واشعال نار الفتنة فيها بين عامى ٢٣٦ ، ٢٣٨ هـ / ٨٥٠ — ٨٥٢ م وحدث حركة الاستشهاد الجماعى فى تلك المدة . وعندئذ بدأت الثورة فى طليطلة وتمكن النصراني من القبض على عاملها ، ثم خرج اليهم الأمير محمد عام ٢٤٠هـ / ٨٥٤م وأوقع بهم فى وادى سليط ، رغم المعاونة التى تلقتها طليطلة من اردونيو الاول ملك ليون (٧١) .

عاد الأمير محمد الى قرطبة مكللاً بالنصر حيث ووجه بأعمال الاستشهاد تزداد وتعنف ، وقام يولوجيوس وصديقه الفارو Alzaro باصدار نشرات يدافعون فيها عن أعمال الاستشهاد ويحرضون فيها جماهير المسيحيين ، بينما صممت طليطلة على تعيينه مطرانا لها بعد وفاة

(٦٩) لمعرفة دور القس يولوجيوس فى إثارة الفتنة باستقامته ، انظر ،

Dozy, op. cit, pp. 273 - 274, 285 - 293, 206 - 307

كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ ، ملحق رقم ٦ من البحث .

Dozy, op. cit, pp. 269, 270, 293. 300

(٧٠)

Dozy, op. cit, pp. 33 - 301

(٧١)

مطرانها Wistremir ورفضت اختيار أى مطران آخر بعد أن  
رفض الأمير محمد ذهاب يولوجيوس اليها<sup>(٧٢)</sup> .

ورغم الهزيمة الساحقة التى منى بها نصارى طليطلة والملك أردونيو  
الأول ملك ليون إلا أن الثورة تجددت واستمرت فى طليطلة ، مما دعا  
الأمير محمد الى إرسال جيوشه اليها فى أعوام ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ هـ  
( ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ م ) ، ولم تنته ثورة هذه المدينة الا بعد موت أو  
استشهاد يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، ذلك الاستشهاد الذى أحدث  
ضجة كبرى ليس فى قرطبة فقط ولكن فى جميع أنحاء اسبانيا . وقام  
مؤرخو الشمال بتسجيل ذلك الحادث بفخر عظيم . وبعد ذلك بأربع  
وعشرين عاما أصر الملك الفونسو ملك ليون عند عقده معاهدة السلام  
بينه وبين الأمير محمد على تسليم جثمان أو رفات القديس يولوجيوس  
والقديسة لوكريتيا Leocritia

فالأمر واضح اذن : يولوجيوس يذهب الى ببلونة عاصمة مملكة  
نبرة عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م ثم يمر بطليطلة ويحرض أهلها على الثورة .  
ثم يعود الى قرطبة ويشعل الفتنة فيها عام ٢٣٦ هـ / ٨٥٠ م ، ويدفع  
ببعض الفتيات — بعضهن كن مسلمات أصلا وفتنهن ذلك القس — والرجال  
شبانا وكهولا الى ساحة الاعداء . عندئذ تقوم طليطلة بثورتها بدءا من عام

Dozy, op. cit, p. 302

(٧٢)

Dozy, op. cit, p. 307 ، ليفى بروفنسال ، دائرة المعارف

(٧٣)

الاسلامية ، المجلد الثانى ، ص ٦٨٦ ليوكريتيا Leocritia فتاة قرطبية شابة مولودة  
من أبوين مسلمين ، لكنها اعتنقت المسيحية سرا ، وفشل والدها فى اعادتها الى حظيرة الاسلام  
واخذ فى عقابها ، فهربت وختبأت عند يولوجيوس وأخته Anulo . لكن الشرطة عرفت  
بمكانها وقبضت عليها وعلى يولوجيوس الذى اعترف أمام القاضى بتلقينها مبادئ المسيحية  
وطلب اعدامه ، وتم ذلك فى عام ٢٤٥ هـ / ١١ مارس ٨٥٤ م وبعد ذلك بأربعة ايام واجهت  
ليوكريتيا نفس المصير واعتبرتاهما للكنيسة من القديسين ، وطالب برفاتهما ملك ليون بعد  
ذلك بعشرين عاما أثناء مفاوضات الصلح بينه وبين الأمير محمد . انظر

Dozy, op. cit, p. 304 - 306

٢٣٩ هـ / ٨٥٣ م ، يشجعها في ذلك ويساندها بالجيوش ملك ليون النصراني ولا تهدأ ثورة النصارى سواء في قرطبة أو في طليطلة إلا بموت يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

هذا ولم يأت التحريض فقط من نصارى الشمال الاسبانى في مملكة نبرة أو مملكة ليون التى كانت تسمى بمملكة جليقية واشتريس من قبل ، بل قام نصارى الفرنجة والبابوية بدورهم في هذا الشأن . وكان المسيحيون في أوروبا بصفة عامة يشجعون هذه الحركة ويباركونها ويرون فيها الشر الذى قد يحيل جو الأندلس الى نار تحرق والمؤرخون يشيرون الى وفود الرهبان الذين قدموا من فرنسا وغيرها من ممالك الشمال الاسبانى ، اما للاستشهاد أو لجمع عظام شهداء قرطبة من النصارى ، لتعرض في باريس وغيرها من عواصم أوروبا لاستثارة الحبة في النفوس (٧٤) .

ويشير البعض بصفة خاصة الى قدوم هذين الراهبين الفرنسيين ادلارد Odilard وأزوارد Usuard عام ٢٤٤ هـ / ٨٥٨ م اى : قبل استشهاد زعيم الفتنة في قرطبة يولوجيوس في عام واحد . وصل هذان الراهبان الى بلنسية لأخذ رفات القديس فنسنت Vincent ولما سمعا بأعمال الاستشهاد في قرطبة ، ذهبا اليها ، وبقيتا هناك شهرين ثم عادا الى فرنسا ومعهما رسالة مختومة بخاتم مطران قرطبة Saul ومعنونة باسم الملك شارل الجسور ، الذى أرسل رسوله منسيو Manclo الى قرطبة ليحصل على رفات بعض القديسين الشهداء (٧٥) .

وبذلك استطاعت تلك الأصابع الأجنبية أن تشعل الحريق وأن تفلح في انبعاث الفتنة في أواخر حكم الأمير عبد الرحمن الاوسط منذ عام ٢٣٦ هـ — ٨٥٠ م واستمرت لمدة عشر سنوات حتى عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م في عهد ابنه الأمير محمد . وواجهت حكومة قرطبة هذه الفتنة الدينية في أول الامر

(٧٤) د- حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ ، ليفى بروفنسال ، المرجع نفسه ،

المجلد الثانى ، ص ٦٨٥ .

Dozy, op. cit, pp. 302 - 204

(٧٥)

بالحكمة . فدعا الأمير عبد الرحمن الى عقد مؤتمر كنسى لعلاج تلك المشكلة التى اخرجت الدولة كثيرا ، واستطاع هذا المؤتمر او هذا المجمع ان يصدر قرارا بمنع المسيحيين من الاستمرار فى هذه الفتنة ، والقبض على المحرضين (٧٦) .

لكن ذلك لم يفلح فى وقف الفتنة الا بعد ان قبض على زعيم المحرضين وهو يولوجيوس ، بعد ان ثبت انه يحرض الفتيات على التنصر وعلى تقديم أنفسهن للموت وايوائهن بعد فرارهن من ذويهن (٧٧) ووجد يولوجيوس نفسه مضطرا لتقديم نفسه للموت بالطعن فى الاسلام وسب نبيه ، حتى يلحق برفاقه الذين كان قد حرضهم من قبل . وتم ذلك واعدم يولوجيوس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م . (٧٨)

وكانت حكومة قرطبة فى عهد الأمير محمد قد تخلت عن سياسة التسامح ونفذت القانون حيال هؤلاء النفر من المتعصبين وأعدمتهم ، وكان هذا هو الهدف الذى يهدف اليه زعماء النصارى فى قرطبة . فبلا شك اثار هذا

(٧٦) وبروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

Dozy, op. cit, p. 289

(٧٧) من امثال الفتيات اللاتي حرضهن يولوجيوس وكن مسلمات ، ليوكريتيا وقد سبق مجلة شابة ، انحطرت من اب مسلم وام مسيحية لكن اباهما تولى وهى صغيرة السن فلقتنها ذكرا ( انظر حاشية رقم ١٠٠ ) ، وفلورا Flora . وكانت فلورا فتاة قرطبية امها المسيحية ، ورفض اخوها المسلم ذلك ، فهربت والتقت بها يولوجيوس لأول مرة ووقع حبها فى قلبه ، واخفاها عنده حتى ذهبت الى القاضى الذى تآثر بشبابها وادخلها السجن فربما اذهب بتهورها . لكن يولوجيوس زارها وقوى من عزميتها رغم حبه لها . لكن تعصبه الاعمى وحده فى بث الكراهية والحقد واثارة الناس ، وتمهيد الطريق امام نصارى الشمال ، كل ذلك اعطى بصيرته ، لدرجة انه اعتبر يوم اعدام فلورا عام ٢٣٧ هـ ( ٢٤ نوفمبر ٨٥١ م ) يوم النصر عنده . هكذا بلغ تعصبه وحده على مسلمى الأندلس .

Dozy, op. cit, pp. 274 - 276, 291 - 293

Dozy, op. cit, pp 304 - 306

(٧٨) انظر

Livornore, op. cit, p. 77

الاعدام موجة من السخط واثار الأحقاد وزاد من الكراهية المتأججة في نفوس المسيحيين ضد الاسلام هناك . وكما رأينا فقد ثارت طليطلة على الفور ولدة سنوات متتالية ولم تهدأ الا بعد مقتل يولوجيوس<sup>(٧٩)</sup>

في الواقع كانت طليطلة بمسيحييها ومولديها تعيش سلسلة متصلة من الثورات ضد حكومة قرطبة منذ الفتح وحتى عصر عبد الرحمن الناصر، ونالت استقلالاً داخلياً نظير دفع مبلغ معين من المال . لكنها لم تلبث بعد الناصر وبعد انهيار الخلافة الأموية أن ساهمت في عصر ملوك الطوائف بما كان فيه من فتن وانقسامات وصراعات على السلطان ، حتى فتحت أبوابها لألفونش ( الفونسو ) السادس وكانت أول مملكة تسقط في يد نصارى الشمال .

أما مسيحيو قرطبة نفسها فلم يستكينوا طويلاً ، إذ انهم انتهزوا فرصة تولى الأمير عبد الله الحكم ( ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م ) وقاموا بالثورة بالاشتراك مع ابن حفصون - وكان ثائراً في جنوبي الاندلس - ومحالفه ضد أمراء بني أمية . وفي هذه المرة لم تكن أعمال الاستشهاد هي الوسيلة الوحيدة لظهور تعصبهم الديني وكراهيتهم للمسلمين ، بل انهم حملوا السلاح بقيادة رئيسهم الكونت سرفاندو الذي يسميه ابن حيان شريند بن حجاج القومس ، وخرجوا الى حصن بلى ( بلاي Play ) قرب طليطلة ، وأمدهم ابن حفصون بالجنود ، وصاروا يغيرون على نواحي قرطبة يحرقون القرى ويدمرون الزروع ، وأصبحت العاصمة مهددة بالخطر<sup>(٨٠)</sup> .

استطاع اذن مسيحيو قرطبة وقوات ابن حفصون الذي ارتد الى النصرانية بعد ذلك ببضع سنوات ( عام ٢٨٥ هـ ) ان يهددوا عرش بني أمية ، لكن الأمير محمد استطاع أن يستولى على هذا الحصن أخيراً ،

Hole, Spain Under the moslems, p. 50

Dozy, op. cit, pp. 300 - 302

(٧٩)

(٨٠) ابن حيان المقتبس ، ج ٣ ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ليفي بروفنسال ، المرجع نفسه ص ٦٨٧ .



ويقول دوزي انه احضر اسرى الحصن امامه واعلن ان جميع من يقومون بتسجيل اسمائهم كمسلمين لن يعدموا بشرط ان يقسموا انهم كانوا مسلمين . اما المسيحيون فلهم الموت الا اذا اعتنقوا الاسلام ، لكنهم جميعا وكان عددهم يقرب من الألف اختاروا الموت بدل ان يتخلوا عن عقيدتهم . واحد فقط هو الذى انتقذ نفسه ، أما الباقون فقد واجهوا الموت فى بطولية (٨١)

ولم تخل ثورة من ثورات المولدين التى ازدحم بها هذا العصر من اشتراك وتدعيم نصارى أهل الذمة ، وجميع الثورات التى قام بها المولدون فى بطليوس وماردة وبشتر وربة وجيان وسرقسطة وغيرها كان للنصارى دور بارز فيها خصوصا بعد أن تنصر اكبر الثوار ، وأعظمهم وهو ابن حفصون . ليس هذا فقط بل أننا نسمع أن كثيرا من مولدى الشمال ومن أسرة بنى قسى زعيمة المولدين هناك ، ارتدوا الى النصرانية(٨٢)

ويبدو أن حركات النصارى ضد حكومة قرطبة كانت سابقة لفتنة الاسهاد بكثير ، اذ نرى ثورات لمسيحيى مدينة ماردة عام ٢١٤ هـ / ٨٢٩م حيث تحالف هؤلاء مع لويس ملك الفرنجة وقتلوا عامل المدينة ، ولم يخلدوا للهدوء الا بعد أن سير اليهم الامير عبد الرحمن الاوسط جيشا كان هو على رأسه ، وضيق عليهم الحصار حتى استسلموا وسكنت الفتنة (٨٣) .

كذلك قام مسيحيو مدينة البيرة بزحف على قرطبة مطالبين برد المغارم التى كان ربيع القومس عامل الذمة قد اقتضاها منهم . وكانوا يظنون انها يمكن أن ترد اليهم بعد أن قام الأمير عبد الرحمن الأوسط بصلبه فى بداية حكمه . فاقبلوا حينئذ الى قرطبة وانضم اليهم مسيحيوها ، وساروا جميعا

---

Dozy, op. cit, p. 365

(٨١)

(٨٢) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ .

(٨٣) محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب فى الأندلس ، ص ٨٩ .

Chapman, op. cit, p. 44

الى القصر ، فارسل اليهم الأمير قوة من الفتيان لتهديتهم ، فاعتدوا عليها ، فبعث اليهم الجند الذين التحموا معهم في معركة فتكت بهم ، وقتل منهم الكثير ، وانهزم جند البرة ومن معهم ، من اهل قرطبة وفروا على وجوههم<sup>(٨٤)</sup>

ولاشك ان هذه الانتفاضات الداخلية وحركات التمرد والثورة التي قام بها العرب والبربر والمولدون ونصارى اهل الذمة أضعفت حكومة قرطبة ، وأتاحت الفرصة لنصارى الشمال الأسباني لاسترداد بعض اراضي اسبانيا التي كان العرب قد استولى عليها ، وأخذت بذلك الحدود الاسلامية تتراجع الى الجنوب ، وصار امر الاسلام مهددا بالزوال ، ولم ينتقذ البلاد من الضياع الا حكم عبد الرحمن الناصر في بداية القرن الرابع الهجري .

وقد كانت هذه الانتفاضات الداخلية وحركات التمرد والثورة التي قام بها العرب والبربر والمولدون ونصارى اهل الذمة أضعفت حكومة قرطبة ، وأتاحت الفرصة لنصارى الشمال الأسباني لاسترداد بعض اراضي اسبانيا التي كان العرب قد استولى عليها ، وأخذت بذلك الحدود الاسلامية تتراجع الى الجنوب ، وصار امر الاسلام مهددا بالزوال ، ولم ينتقذ البلاد من الضياع الا حكم عبد الرحمن الناصر في بداية القرن الرابع الهجري .

وقد كانت هذه الانتفاضات الداخلية وحركات التمرد والثورة التي قام بها العرب والبربر والمولدون ونصارى اهل الذمة أضعفت حكومة قرطبة ، وأتاحت الفرصة لنصارى الشمال الأسباني لاسترداد بعض اراضي اسبانيا التي كان العرب قد استولى عليها ، وأخذت بذلك الحدود الاسلامية تتراجع الى الجنوب ، وصار امر الاسلام مهددا بالزوال ، ولم ينتقذ البلاد من الضياع الا حكم عبد الرحمن الناصر في بداية القرن الرابع الهجري .

(٨٤)

الناصر ، ص ١٤١ ، ج ٦ ، ص ١٤١

الناصر ، ص ١٤١ ، ج ٦ ، ص ١٤١

الناصر ، ص ١٤١ ، ج ٦ ، ص ١٤١

(٨٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٤١

## ثانياً - ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة في علاقتها

### بالأندلس الإسلامية في عصر الإمارة الأموية

ان العوامل التي تحكم الصراع بين مسلمي الأندلس الإسلامية وشمال اسبانيا النصراني تنبع من داخل كل منهما ، فاذا أردنا أن نعرف لماذا هزم أولئك وانتصر هؤلاء ، أو بمعنى آخر ، اذا أردنا أن نتعرف على طبيعة العلاقة بين الطرفين ، سواء في السلم أم في الحرب ، لابد لنا أن نضع دينا على عوامل القوة وعوامل الضعف داخل كيان كل منهما .

وكما درسنا في الفصل السابق أحوال بلاد الأندلس في عصر الإمارة وعرفنا مواطن القوة التي ميّنتها من أن تقف على قدميها بعد أن هب نصارى الشمال وتوغلوا داخل أراضيها ، منتهزين فرصة الصراع القبلي الطاحن في عصر الولاة ، ودرسنا كذلك مواطن الضعف التي سهلت لنصارى الشمال الأسباني من أن يكتسبوا أرضا جديدة ، وأن يتبادلوا الهزائم والانتصارات مع أمراء بنى أمية ، كذلك فانه علينا الآن أن نقوم بنفس المهمة وننفذ الى أعماق تلك الامارات والممالك النصرانية التي نشأت في الشمال ، ونرى ما فيها من عوامل قوة مكنتها من التقدم ، ومن عوامل ضعف استغلها المسلمون ، وتمكنوا من وقف هؤلاء النصاري ورد عادياتهم .

والشمال الأسباني النصراني لم يكن كله يشكل دولة واحدة أو كيانا واحدا ، بل كان هناك في عصر إمارة بنى أمية ثلاثة تجمعات نصرانية رئيسية : أولاها : تلك المملكة التي تسمى مملكة جليقية واشتريس . وقد نشأت على يد ( بلاي ) عام ٩٨ هـ / ٧١٨ م في الركن الشمالى الغربى من شبه جزيرة ايبيريا . وهى أول مملكة نصرانية تقوم بعد انتهاء الفتح العربى للبلاد ، وكان لها شرف حمل السلاح وبدء المقاومة ضد حكومة قرطبة ولم يكد يمضى على بداية الفتح ست سنوات (٨٥) .

---

(٨٥) أنظر ، لتماميد للتاريخى ، ص

اتخذ بلاى من مدينة كانجاس دى اونيس Cangas de Onis

على الساحل الشمالى عاصمة له ، وهزم المسلمين فى موقعة كونا دونجا ، وكانت اول هزيمة لهم على يد نصارى الأسبان . وقد اضطروا بسبب ذلك وبسبب الصراع القبلى الذى دار بين العرب والبربر الى النزوح الى الجنوب وتركوا مناطق شاسعة جنوبى جليقية أصبحت حائلا بين الجلالقة وبين المسلمين . وأمنت بذلك مملكة جليقية على نفسها من غزو مفاجىء ، قد يأتيا يوما ما من الجنوب ، بل انها هى نفسها قامت بغزو ما يجاورها من شعور المسلمين وبدأت معارف بعد ذلك بحركة الاسترداد (٨٦) .

وقد سبق الحديث عن الصراع الذى دار بين مسلمى الاندلس وبين بلاى ومن بعده الفونش ( الفونسو ) زوج ابنته ، والذى كان يحكم ككتبرية التى تقع الى الشرق من أشتريس ( أشتورية ) . وبذلك توحدت الامارتان ، ككتبرية وأشتريس ، فى مملكة واحدة تمتد من بلاد البشكس شرقا الى شاطىء المحيط الأطلنطى غربا ، ومن خليج بسكاية شمالا الى نهر دويرة جنوبا . وسميت باسم مملكة جليقية لانها قامت على حدود الولاية الرومانية القديمة التى كانت تسمى بهذا الاسم ، وظل هذا الاسم علما عليها حتى أواخر عصر امارة بنى أمية عندما نقل الملك غريسيه ابن الفونس الثالث ، العاصمة الى ليون عام ٢٩٤هـ / ٩١٠ م ، وسميت المملكة من وقتئذ مملكة ليون (٨٧) .

هذا عن التجمع النصرانى الأول . أما عن التجمع النصرانى الثانى : فيعرف بمملكة نبرة ( نافار Navarra ) وهى : فى غربى جبال البرنات وإلى الشرق من جبال ككتبرية Cantabria على أبواب غالة (فرنسا) وهى بذلك مملكة فاصلة بين امارة برشلونة التى تقع على ساحل البحر المتوسط فى الشرق ، وبين مملكة جليقية وأشتريس التى سمت بعد ذلك

(٨٦) انظر ، للتعميد للتاريخى ، ص ٢١ ، ٢٢ .

Livermore, op. cit, pp. 69, 70

(٨٧)

باسم مملكة ليون ، ثم باسم مملكة ليون وقشتالة في القرن الخامس الهجري /  
الحادي عشر الميلادي (٨٨) .

كان يسكن جبال نبرة شعب شديد المراس يسمى الباسك  
نسبة الى منطقة بسكايه Biscaya . وكان العرب يسمونه  
البشكنس أو البشكونس ، وربما اطلقوا هذا الاسم على البلاد التي تقع  
وراء البرنات الى جهة فرنسا ، لأن أصل الأهل واحد سواء في السفح  
الجنوبي أو في السفح الشمالي من البرنات . وهم أمة مستقلة بنفسها  
لهم لغتهم الخاصة حتى الآن ، وهم من أشد أمم الأرض استمساكا بقوميتهم  
واحترافا بعباداتهم وتقاليدهم ، وهم يسببون حتى الان كثيرا من الأزمات  
السياسية لحكومة أسبانيا (٨٩) .

كانت قاعدتهم مدينة بملونة Pamplona الحصينة التي حكمها  
المسلمون ردحا من الزمن ثم فقدوها في أواخر القرن الثاني الهجري /  
الثامن الميلادي أمام غزوات الفرنجة لاسبانيا الشمالية . وكانت هذه البلاد  
ميدانا للجيوث الاسلامية والفرنجة عند عبور كل منهما للآخرى . وقد  
حاولت كل منهما غزوها ، لكن الباسك كانوا لايتوانون دائما عن الزود  
عن استقلالهم ، وقد قام أمراء جليقية بمحاولة غزوها غير مرة وضمها الى  
المملكة النصرانية ، لكنها استقلت بنفسها قرب نهاية القرن الثاني الهجري  
عندما ظهر أحد زعماء الباسك المسمى أزوار عام ١٨٠ هـ / ٧٩٩ م  
وجعل نفسه اميرا على تلك البلاد (٩٠)

---

(٨٨) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٣٤ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية

ج ١ ، ص ٣٢١ .

(٨٩) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٥٦ ، القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ص ٢٣٤ .

رينو ، تاريخ غزوات فرنسا ، ص ١١٧ ، أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢١ .

Chapman, op. cit, p.55

Chapman, op. cit, pp. 55- 56

(٩٠) عنان ، المرجع نفسه ع ١ ، ص ٦٧ .

أما التجمع النصراني الثالث ، فهو إمارة قطلونية Catalonia

( برشلونة ) وهى بلاد قائمة بذاتها من قديم الدهر ، وكثيرا ما كانت أمة مستقلة بنفسها عن سائر أسبانيا ، ولم تتحد مع أرغونة وقشتالة الا بعد طرد المسلمين من الأندلس . وأهلها أمة يقال لها : القطلان أو الكتالان لسانهم غير لسان الاسبان وهم أقرب في لغتهم الى لغة بروغانس التى هى لغة جنوب فرنسا والتى تبعد عن اللاتينية بقدر ما تقرب منها اللغة الأسبانية . وشعب القطلان على وجه العموم لا يحب الشعب القشتالى<sup>(٩١)</sup>

وتمتد هذه الامارة من جبال البرنات فى الشمال الى بلنسية فى الجنوب ومن منطقة الثغر الأعلى ( سرقسطة ) فى الغرب الى البحر المتوسط فى الشرق وكان لقطلونية على هذا البحر ساحل يمتد مسافة ٤٠٠ كم. من رأس سربيرة Cerbira فى الشمال الى مصب نهر سينيا Cenia فى الجنوب<sup>(٩٢)</sup> .

وقد افتتح العرب قطلونية عندما دخلوا أسبانيا ، لكنهم لم يبقوا هناك طويلا ، اذ استطاع شرلمان أن يفزو تلك المنطقة ويستولى على جيرونة عام ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م ، ثم على برشلونة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، ويؤسس هناك إمارة سموها « المارك الأسبانى » ، Spanish Mark أو « الثغر القوطى » أو « إمارة برشلونة » أو « الأطراف الأسبانية لمملكة الفرنجة » ، واتخذوا من برشلونة عاصمة لها . ويعتد استيلاء الفرنج على برشلونة أصبحت طرطوشة التى تقع قرب التقاء نهر ابرة بالبحر المتوسط هى آخر المدن الاسلامية على ساحل ذلك البحر<sup>(٩٣)</sup> .

وقد حكم هذه الامارة أولا عدد من الكونتات التابعين للملك الفرنجة ، لكن خضوع قطلونيا لهؤلاء الملوك لم يستمر طويلا أثناء القرن الثالث

(٩١) أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ص ٩٩ .

(٩٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

(٩٣) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ٣٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٢٢ ،

خليل السامرائى ، علاقات المرابطين ، ص ٥٢ . Chapman, op. cit, p. 56

الهجرى / التاسع الميلادى . اذ يعتقد أن وفريدو Wilfraro كونت  
برشلونة هو أول من أعلن استقلاله عام ٣٦٠ هـ / ٨٧٤ م ، وأصبحت  
هذه الإمارة شوكة في ظهر الثغر الأعلى الأندلسى (٩٤)

هذه لحظة سريعة عن مراكز تجمع نصارى الشمال الأسباني ،  
فما هي حقيقة العلاقات بينها وانعكاسات ذلك على حركة الصراع ضد  
قرطبة ؟ وما هي الأوضاع الداخلية لكل مملكة من هذه الممالك النصرانية ؟  
وهل مكنت تلك الأوضاع نصارى الشمال من استئناف حركة المقاومة التي  
كان قد بداها الفونش الأول ملك جليقية وأشتريس في نهاية عصر الولاة  
في الأندلس ؟

وللاجابة على هذه التساؤلات سوف نتناول بالبحث نقاطا أربع :  
أولها ، الأسر الحاكمة في كل إمارة أو دولة ، وما قام بين أفراد هذه  
الأسر من صراعات على الحكم ، وعلاقة هذه الأسر بالقوى الاجتماعية  
الأخرى مثل النبلاء ورجال الكنيسة والعامّة ، وأثر ذلك كله في قوة  
الدولة أو ضعفها ، وانعكاسه على العلاقة مع دولة الإسلام في الأندلس  
وثانيها ، البيئة الطبيعية والبشرية لكل مملكة أو إمارة ، وهل هي عامل قوة  
أو ضعف ، وأثر ذلك على العلاقات مع أمراء بنى أمية في قرطبة ، وثالثها  
العامل الدينى ، ومدى أثره في الصراع مع العرب ، ومدى استقلال  
الممالك النصرانية له في هذا المجال . ورابعها ، علاقة الممالك النصرانية  
في الشمال الأسباني كل منها بالأخرى وأثر ذلك في الصراع مع العرب .

#### ١ - النظام السياسى في ممالك الشمال النصرانية وأثره في العلاقات مع مسلمى الأندلس :

كانت مملكة جليقية وأشتريس هي أول دولة قامت في الشمال الأسباني  
وكان لها السبق لسلسلة ملوكها ، كما أنها واكبت الدولة الإسلامية  
منذ بداية قيامها تقريبا ، ولم يقم بجانبها مملكة ذات شأن إلا مملكة نبرة

التي ظهرت في وقت متأخر ، ولم يكن لها دور على المسرح السياسي الا في النصف الثاني من عصر اماره بنى امية . أما قلطونية : فكانت دوقية او اماره تابعة للفرنجة ولم يكن لها شأن كبير في تاريخ اسبانيا في تلك الفترة .

وعلى أية حال فان نظم الحكم في الممالك النصرانية الأسبانية في عصر الامارة كانت مماثلة للنظم التي كانت قائمة في أواخر عهد القوط . وكان الملك وراثيا في جليقية وأشتريس فقط ، ولكن في باقي الإمارات مثل نبرة ، كان الملك ينتخب بواسطة النبلاء أو الاشراف . لكنهم كانوا ينتخبون من كان بولده أحق الناس بالعرش اجتنابا للحرب الاهلية (٩٥) .

وكان الملك مطلق السلطان ، يقبض على زمام السلطة التشريعية والتنفيذية ، ولا يقيد النبلاء سلطته الا بالثورة ضده ، والا بأن يحاولوا جعل ارتقاء العرش بالانتخاب . ولذلك كان النبلاء دائما في حالة شد وجذب مع الملك لنفس الاغراض التي صارعوه من أجلها أيام دولة القوط (٩٦) .

ولا عجب في هذا فدولة جليقية ما هي الا استمرار لدولة القوط الزائلة ، وما الفونش وسلالته الا من نبلاء القوط الذين كانوا يقيمون في شمال البلاد وقت فتح العرب لها ، ولذلك استمرت سنن المملكة القوطية ، واستمر الجلالة يسمون أنفسهم قوطا ويدعون النسبة الى القوط ، وتنهج حكومتهم منهج السياسة القوطية (٩٧) .

واذا كانت اسبانيا القوطية قد فقدت استقلالها ومكنت العرب من فتحها بسبب ذلك النزاع الذي حدث بين البيت المالك وبين النبلاء من

---

(٩٥) يوسف أشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٢ .

Grow, Spain, the root and the flower, p. 94 (٩٦)

Chapman, op. cit, 45

محمد عبد الله غان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ١٠٨ .

(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .



القوط ، فان دولة جليقية وأشتريس قد تعرضت لنفس الشيء ، لكن النبلاء في هذه المرة لم يساعدوا العرب ضد مليكهم كما حدث في الماضي ، وانما كانوا يساعدون من يرغبونه في الجلوس على العرش وكان ذلك في بعض الاحيان لاعتبارات تعود الى ما تعود القوط أو الجالقة من عدم الازعان للملك اذا كان طفلا أو كان مغتصبا للعرش . لذلك كانت مساندة النبلاء تقرر في أحيان كثيرة من يضع التاج على رأسه وكان الملوك رغم ذلك في حاجة لاسترضاء اشرافهم بسبب الحروب الدائمة مع العرب ، فكانوا يغدقون عليهم المنح والعطايا والاقطاعات والمزايا التي جعلتهم مطلقى التصرف في املاكهم ، حتى أنهم كانوا لا يرون كبير فارق بينهم وبين الملك ، لدرجة أنهم لم يسمحوا لأنفسهم أن يعاملوه بالتعظيم والتبجيل الذي كان يعامل به أهالى أوروبا ملوكهم العظام<sup>(٩٨)</sup> .

ارتفعت شوكة الأشراف اذن ، ولجأ الملوك الى التماس المحالفة أو المساعدة من المدن النامية ومن رجال الكنيسة الاغنياء ، وكانوا يريدون بذلك خلق توازن سياسى بين سلطتهم وبين ازدياد نفوذ طبقة الأشراف أو النبلاء ، ومن ثم أغدقوا المزايا والعطايا على أهالى المدن فعظمت شوكتها وكثرت ثروتها ، كما أغدقوا العطايا على رجال الكنيسة بفرض الضرائب الباهظة على عامة الناس ، وتحصيلها لحساب الكنيسة ورجالها ولبناء الأديرة والكنائس ، حتى ضاق الناس ذرعا في بعض الاحيان وأعلنوا الثورة ضد ملوكهم<sup>(٩٩)</sup> .

من هنا يمكننا القول بأن سلطة الملك كانت نظريا مطلقة ، وخاصة فيما يتعلق بأراضيه والمناطق المحررة من الأندلس الاسلامية . اما فيها يختص بأراضى النبلاء والكنيسة كانت هناك قيود وحدود لسلطاته نحوها . فقد تمتع النبلاء بحقوق اقتصادية وبحقوق السيادة على

(٩٨) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبا ، ص ١٤٨ .

Crow, op. cit, p. 94

(٩٩) روبرتسون ، اتحاف الملوك الألبا ، ص ١٥٠ .

Crow, op. cit., p. 94

ممتلكاتهم ، كما كونوا قوات عسكرية وحارب كل منهم الآخر بل وحاربوا الملك في بعض الاحيان ، كما كانوا يجمعون الضرائب لأنفسهم . واحتل رجال الأكروس موقعا مشابها لهؤلاء النبلاء ، وحازت الكنيسة عقارات ضخمة من عطايا الأفراد وهبات الملوك (١٠٠)

وكان من نتيجة ذلك أن السلطة الملكية كانت تنهار اذا ما تحداها أولئك النبلاء ، وكانت تقوم الحرب الاهلية ، وربما انحاز الملك المعزول الى أحد اقاليم الدولة القاصية ، واستمر يمارس سلطته هناك ، وربما استعان على الملك الجديد الذي يعتبره غريبا له ، بالتصالح مع المسلمين أو مع الممالك النصرانية الاخرى القريبة منه . وقد حدث هذا عدة مرات في تاريخ جليقية ، وكان من نتيجته أن تمكنت قوات أمراء بني أمية أن تدخل جليقية والبة والقلاع وسائر مدن المملكة النصرانية غازية ، تستولى على المدن وتخرّب الحصون وتعود محملة بالفنائم والأسلاب .

أمام هذه الاوضاع كان يمكن للملك أن يلجأ الى قوة ثالثة يمكنه بها موازنة قوة الأشراف أو رجال الكنيسة ، الا وهم عامة الشعب ، تلك الأكثرية الفقيرة التي كانت ترزخ تحت نير الأشراف أو رجال الكنيسة على السواء . لكن هذه الأكثرية استطاعت أن تشق طريقها الى الحرية والقوة حينما اشتدت معركة الحياة والموت بين الاسلام والنصرانية في اسبانيا واضطرت المملكة النصرانية أن تلجأ الى الأكثرية للذود عن حدودها وحياتها ، وانقلب الرقيق القديم جندا وفرسانا يثورون ضد سادتهم ويرغمونهم على احترامهم ومصانعتهم (١٠١)

وربما كان هذا عامل قوة يحتسب للأسبان في معركتهم ضد الاسلام فالملوك لم يكونوا مطلقي السلطة ، كانت هناك قوى أخرى من اشراف وكنيسة ومدن عامة لا بد من أخذها في الاعتبار ولا بد من الاستفادة منها

Chapman, op. cit., p. 60.

(١٠٠)

(١٠١) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الاول ، القسم الاول ،

ص ٢١٧ .

في عمل توازن يمكن هؤلاء الملوك من قيادة الصراع ضد مسلمى الاندلس  
بمهارة واقتدار في أحيان كثيرة في عصر أمراء بنى أمية .

لم يكن هناك مثل ذلك الصراع القبلى الذى مزق الاندلس سواء في  
عصر الولاة أم في عصر الإمارة ، لم يكن هناك صراع بين مولدين وعرب  
ولم يكن هناك صراع بين مسلمين ومسيحيين داخل المملكة الواحدة كما  
حدث في الاندلس الاسلامية ، وانما كانت المملكة قلبا واحدا على عدوهم  
المشترك من المسلمين ، وكان هذا سرا من أسرار نجاح نصارى الشمال  
في معركتهم الطويلة ضد قرطبة الاسلامية .

لكن كان هناك ما أضعف الملكية في جليقية الى حد ما ، الا وهو ذلك  
الصراع على العرش بين أفراد الاسرة الملكية ، وهو ما شاركهم فيه  
الأسرة الأموية ، وكما حدث في قرطبة من انشقاق بعض أمراء بنى أمية  
وانسحابهم الى أحد الاقاليم البعيدة عن قرطبة وعلان تمردهم  
ضد السلطة المركزية ، بل واستعانتهم بالفرنجة أحيانا وبنصارى  
الشمال في أحيان أخرى ، فقد حدث مثل ذلك أيضا في جليقية ونبرة ،  
يبدو ذلك واضحا من تاريخ هاتين المملكتين في هذه الفترة (١٠٢) .

(١٠٢) عن تاريخ مملكتي جليقية ونبرة ، وعن الصراع على العرش فيهما ، انظر :

- ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٧٩ ، للقلشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .  
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،  
ص ١٣ ، ١٨ .

العيني ، عقد الجمان ، ج ١٢ ، قسم ٢ ، ورقة ٢٩٦ .

حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٥١ .

محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٨ - ٢١٥ ، ج ٢ ، ص ٦٠ - ٦٨ .

رينسو ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا ، ص ١٤٥ - ١٤٧ .

Llivermore, op. cit., pp. 79, 82, 83.

Chapman, op. cit., pp. 57, 65.

## ٢ — الطبيعة الجغرافية والبشرية واثرها في الاوضاع الداخلية :

هذا عن النظام السباسي في ممالك الشمال النصرانية ، أما عن الطبيعة الجغرافية والبشرية ، فكما يقولون ان الارض تدافع عن اهلها ، وهذا حق فيما يتعلق بشمال اسبانيا ، فهناك مناطق لم يدخلها المسلمون قط ومناطق أخرى دخلوها لكنهم لم يستطيعوا العيش فيها طويلا ، بل أن جنود موسى بن نصير عندما اقتحم بهم مفاوز جليقية واشتريس «استوحشوا من هذه المناطق» وطلبوا منه الا يغامر بهم في هذه الأرض القاحلة .

وقد حاول قواد المسلمين في عصر الولاة التوغل في هذه المناطق مرارا، لكنهم كانوا يعودون من حيث أتوا ، ويكتفون بما حصلوا عليه من غنائم وأسلاب . وفي إحدى المرات كادوا يقضون على حركة المقاومة النصرانية الناشئة التي نظمتها بلاى في جبال أشتريس في أقصى شمال اسبانيا ، الا أن حصن الصخرة التي تسمى كوفادونجا منعهم عنه ، وظل يقاومهم حتى لم يبق معهم الا عدد قليل من الرجال والنساء الذين كانوا لامطعم لهم الا من عسل في ثغوب الصخر كما تقول الرواية العربية (١٠٣) .

كان الشماليون يعيشون على السهول الممتدة بطول خليج يسكاي وحتى المحيط الاطلسي غربا ، وكانت هناك سلاسل من الجبال تمتد بطول هذه السهول وهي سلاسل جبال أشتريس وجبال كنتبرية ، وتمتد هذه السلاسل فيما يعرف بجبال البرنات أو البرانس أو البرينيه Pyreness وينبع من هذه الجبال عدد من الأنهار لها فروع لاهصر لها ، فكانت هناك أنهار المنيو أو المندجو Mendgo ودوبره ( الدورو Douro للذان يصبان في البحر المحيط أو المحيط الاطلسي حسب التعبير الحديث

---

(١٠٣) أنظر : التمهيد للتاريخ ، ص

وهناك نهر أبره Ebro الذى ينبع من جبال البرنات ونهر نبره ويصب  
فى بحر الروم أو البحر المتوسط .

وبين المندجوه ودوبره هضاب قفرة واسعة أصبحت حاجزا طبيعيا  
بين مسيحيى الشمال ومسلمى الجنوب . ولم يستطع المسيحيون فى عصر  
الامارة تعبير هذه المناطق بسبب عدم وجود من يزرعها وعدم توافر  
الأموال اللازمة لذلك ، فكان يكتفى ملوك الشمال بتخريب هذه المناطق  
وأخذ من بها من المسيحيين معهم ويعودون الى الشمال . ولم يستطع  
الفونش الثالث وهو أعظم أمراء النصارى وملوكهم فى هذه الفترة الا أن  
يحتل الأقاليم الواقعة على حدود مملكته ، وكانت تشمل لييانا Liebana  
وقشتالة القديمة المعروفة حينئذ ببردوليا Berdulia وساحل جليقية  
Galicia ، وربما مدينة ليون (١٠٤) .

لذلك كانت الانهار والهضاب والجبال الوعرة ملجأ آمنا لنصارى  
الشمال ، ساعدتهم كثيرا ضد العرب وضد الفرنجة ، وقصة شارلمان  
مع الباسك ( البشكنس ) معروفة ويكفى أن مؤخرة جيشه قد دمرت ووقع  
قريبه رولان صريعا ، ولم يكن ذلك الا لوعورة الجبال وضيق المسالك  
أو المعابر التى كانت تسمح بمرور الجيوش بين بلاد الفرنجة وشمال  
اسبانيا فى صعوبة بالغة ، وقد رأينا ما فعلته صخرة كوفادونجا  
بجيش علقمة ، وكيف أنه لم يستطع القضاء على بلاى وارند حيث لاقى  
جيوش النصارى التى كبדתه خسائر فادحة كما تقول الرواية النصرانية (١٠٥)

---

Doay, A history of the Moslems in Spain, P. 412 (١٠٤)

(١٠٥) انظر التمهيد التاريخى ، ص ٢٤ ، ص ٢ ، ارسلان ، الحلل الهندسية ،  
ج ١ ، ص ٣٢٢ .

Chapman, pp. cit., p. 43.

(١٠٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٤ .

Crow, op. cit., p. 94

ولما كان التنوع أو الاختلاف هو القاعدة الى حد ما ، فقد اتبع الشمال الغربى التقليد القوطى فى الحياة ، بينما شمال الوسط والشمال الشرقى ( نبرة وقطلونية ) احتفظوا بكثير من المؤسسات القوطية ، لكنهم دخلوا فى اتصالات صريحة مع شعب الفرنجة الذى جعلهم متميزين فى النواحي الحضارية (١٠٧) .

ولذلك لم يستمر اتحاد النافاريين والجلالقة طويلا فى عهد اماره بنى أمية ، بل ثار الاولون واستقلوا بأنفسهم وكونوا لهم مملكة مستقلة ظهر كيانها واضحا فى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . بل ان تنوع الأقاليم داخل الدولة الواحدة كان له خطره ، ولذلك كان أمراء جليقية من أسرة الفونش الأول يعلنون الثورة ضد الملك ، ثم يعتصمون بأحد أقاليم الدولة القاصية وينأون عنه منها . حدث هذا وانقسمت الدولة مرارا الى اماره خنثرية والى اماره جليقية وان ظل الحكم الملكى مستمرا (١٠٨) .

ولكن لم يحدث هذا بقصد القضاء على الأسرة المالكة أو بقصد انفصال جزء من الدولة وقيام مملكة جديدة فيه ، لكنه كان صراعا على الحكم بين أفراد الأسرة الواحدة ، بعكس ما كان موجودا فى الأندلس ، حيث ظهرت الحركات الانفصالية فى النصف الأخير من عصر الامارة ، وصار أمراء بنى أمية لا يسيطرون الا على قرطبة وحدها فى بعض الأحيان (١٠٩) .

Chapman, op. cit., p. 59.

(١٠٧)

(١٠٨) القلتشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ع ١ ،

ق ١ ، ص ٢١٧ ،

(١٠٩) عن الحركات الانفصالية فى الفترة الأخيرة من عصر الامارة الاموية ، انظر ،

ابن حيان المقتبس ، ج ٣ ، ص ٣٢ - ١٢٩ .

المعزى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، ١٢ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٦٢ - ٦٦ .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٤٤ - ١٥٧ ، ١٧١ - ١٧٨ .

Dozy, op. cit., pp. 355-356, 374-375, 381-382.

وكان هذا التنوع عاملاً من عوامل الضعف إلى حد ما . وأقول  
 التي حد ما ، بسبب وجود التجانس الجنسي والوحدة الدينية بين  
 نصارى الشمال ، فلم تكن هناك مشكلة أقليات ولم يكن هناك صراع  
 بين دين وآخر كما حدث في الجنوب وجعل من الطبيعة الجغرافية سلاحاً  
 من أسلحة الثوار والمتمردين . وقد قلل من خطورة عامل التنوع الجغرافي  
 هذا ، البعد المكاني لأقاليم الشمال عن قرطبة عاصمة الدول الإسلامية .  
 فقرطبة كما نعرف بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية في الغرب وعن  
 البشكنس في الشمال ، ولذلك لم تخضع هذه المناطق لهم أبداً ،  
 ولم يدم سلطانهم على بعضها إلا لفترات قليلة جداً ، لأنها « بلاد  
 لا يطيب سكناها لغير أهلها » (١١٠) . ولم يستغلوا هذا التنوع الجغرافي  
 في ضرب هذه الأقاليم والممالك بعضها ببعض الآخر .

انعكست هذه البيئة الطبيعية القاسية على أخلاق السكان وعاداتهم  
 وعلى وضعهم الاجتماعي وحياتهم الاقتصادية . وكما يصفهم المؤرخون  
 كانوا قساة جفاة ، غلبت عليهم الخشونة والقسوة والتعصب حتى أنهم لو  
 تغلبوا على مدينة كانوا يضعون السيف في رقاب جميع سكانها ، ولا يمكن  
 أن نتوقع من هؤلاء القوم الذين يصفهم دوزي بالبرابرة ويصفهم أبو الفدا  
 بأنهم « قوم كالبهائم » ، والحميري بأنهم « أهل غدر ودناءة أخلاق » ،  
 لا يمكن أن نتوقع منهم ذلك التسامح الديني الذي اتبعه المسلمون تجاه  
 المسيحيين (١١١) .

وقد جعلتهم خشونة الحياة وقسوة الطبيعة شجعاناً لا يهابون  
 الموت ، « فهم أسد في حصونهم عقبان على خيولهم » ، فيهم بأس وشدة ،  
 لا يرون الفرار عند اللقاء ، بل يرون الموت دونه ، أن رأوا فرصة  
 انتهزوها وأن رأوا غلبة فإعمال تذهب في الجبال ، لا يرون الهزيمة عاراً ،

(١١٠) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣١ ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٨ .

(١١١) أبو الفدا ، تاريخه ، ج ١ ، ص ٩٨ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١١  
 للحميري ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ . Dozy, op. cit., pp. 414, 415.

ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بأنهم كانوا كاللصوص وقطاع الطرق ، لا يفكرون الا في مغنم الحرب وأسلابها وأن هدفهم من غزو المدن والقرى هو نهبها وليس استعادتها ، فالاستعادة لا تتم الا اذا توافر عندهم قدر من الشعور القومي يدفعهم الى ذلك . وهذا الشعور لم يكن محسوسا لديهم بدرجة كافية وخاصة في فترة بداية حركة المقاومة النصرانية حيث كان النصارى يغرون وينهبون ثم يعودون الى معاقلهم في الجبال<sup>(١١٢)</sup> .

وكان فقر بيئتهم أيضا من الدوافع الرئيسية التي دفعت بهم للمغامرة ضد جيوش المسلمين القوية القادرة ، وخاصة في الصدر الأول من عصر الامارة ، وهي فترة القوة . انظر الى أحد المؤرخين أو الجغرافيين العرب المشهورين حينما يقول عن مبلونة عاصمة نبرة انها « بين جبال شامخة ، وشعاب غامضة ، قليلة الخيرات ، أهلها فقراء ، جاعة لصوص ، وأكثرهم متكلمون بالباشقية — أى لغة الباسك — لا يفهمون ، وخیلهم أصلب الدواب حافرا لخشونة بلادهم »<sup>(١١٣)</sup>

وصف دقيق لطبيعة المكان واثره في السكان وحتى في الحيوان ، لكن فقر هؤلاء الناس لم يكن نتيجة لفقر البيئة الطبيعية أو قلة مواردها فقط ، بل كان أيضا نتيجة لاستمرار خواص المجتمع القديم الذي كان موجودا أيام القوط : أقلية غنية قوية تستأثر بنعم الحياة من ثروة وجاه ، وأكثرية مستعبدة ترزح تحت جور العرش واستغلال الأشراف والسادة ، وقاسى الناس من الضرائب الباهظة التي اتبع الملوك والأشراف ورجال الكنيسة أسوأ الطرق في جمعها . ولكن كما أثرنا من قبل ، فان الحروب مع المسلمين حسنت أحوال هؤلاء الناس وحولتهم من مستعبدين

---

(١١٢) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(١١٣) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٥٦ .



الى جنود احرار ، يلجأ اليهم الأشراف والملوك للدفاع عن أراضيهم ومهاجمة المسلمين ان عن لهم الأمر<sup>(١١٤)</sup> .

ومع فقر هذا المجتمع فقد كان يتمتع بالوحدة الجنسية الى حد بعيد ، أقصد أن شمال أسبانيا النصراني كان متجانس السكان ، لا تشغله مشكلة أقليات ، ولا تعدد أديان . وكان ملوك الشمال ومنذ البداية يحرصون على ذلك أشد الحرص ، فكانت هناك هجرات متبادلة بين المسلمين والنصارى في مناطق الحدود ، النصارى يرحلون الى الشمال ، والمسلمون يعودون الى الجنوب . وكانت هجرة النصارى الى الشمال هامة حتى أشار اليها كثير من المؤرخين الأوربيين ، بل ان أحدهم جعل اهم ما قام به الملك الفونش الأول ( ١٢٢ - ١٤٠ هـ / ٧٣٩ - ٧٥٧ م ) والفونش الثاني ( ١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م ) - من ملوك جليقية - هو استعادتهم لكثير من المسيحيين المستعمرين من المناطق التي غزاها المسلمون ، لأن هؤلاء المسيحيين ساعدوا في ازدياد سكان الشمال وتعميره<sup>(١١٥)</sup> .

ولم تكن هجرة المسلمين الى الجنوب منذ عصر الولاة الا بسبب طبيعة الشمال القاسية التي لم يتعودوا عليها في بلادهم الأصلية ، وبسبب الصراع المرير بين العرب والبربر الذي رأيناه في عصر الولاة وأدى الى هجرة الطرفين من الشمال الغربى لأسبانيا ، يضاف الى ذلك ما أثرنا اليه من قسوة النصارى وسيطرة حب الانتقام عليهم اذا ما استولوا على مدينة من المدن .

---

(١١٤) عثان ، دولة الاسلام في الأندلس ، ج ١ ، ص ٢١٧

Chapman, op. cit., p. 63

Dozy, op. cit., p. 412.

Chapman, op. cit., p. 55.

Livermore, op. cit., p. 70.

(١١٥)

ورغم هذا التجانس السكاني الذي نعم به الشمال النصراني الا انه يشتم رائحة بقاء المشكلة القديمة ، وهى عدم الانصهار التام بين القوط وبين السكان الأصليين من الايبيريين الرومان . ويذكر بعض المؤرخين أن الجلالة غير القوط ويفصلون بينهما قائلين أن « العرب استولوا على الأندلس وملكوها من يد القوط والجلالة . وأن الباسك أيضا عنصر مميز يختلف في أصله عن الأسبان ، أو أنهم — أى الباسك — كانوا ايبيريين أفحاح ، وأما سائر الأسبان فهم ايبيريون أمشاج ، أى أنهم اختلطوا بغيرهم من العناصر والأجناس التى طرات على أسبانيا قبل الفتح العربى لها بزمان طويل . ورغم ذلك فقد صهرت المعارك المستمرة مع المسلمين عناصر السكان في الشمال الأسباني ، وجعلتهم ينسبون ما بينهم من فروق جنسية أو اجتماعية ازاء مكافحة العدو المشترك» (١١٦) .

لم يستعن ملوك الجلالة بعنصر جديد على شعبيهم ، أو لم يستخدموا عنصر غريبا في جيوشهم كما فعل أمراء بنى أمية وخلفاؤهم من بعدهم . وكما رأينا استعان أمراء بنى أمية بالصقالبة وبالموالي والنصارى من الأسبان ، وبالبربر ، وسما هؤلاء ووصلوا الى أعلى المناصب ، لكنهم لم يكونوا مخلصين للعرش الا عندما يكون قويا ، أما في حالة الضعف فكان كل واحد من هؤلاء يعمل لمصلحته الخاصة ، ولو سنحت له فرصة ينال من ورائها نفعا ، كان ينتهزها ولو أدى الأمر الى مقتل مليكه أو سيده .

خذ على سبيل المثال نصرا الخصي الصقلبي خادم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، الذى اشترك مع طروب ، تلك الجارية الصقلبية وحظبة ذلك الأمير في مؤامرة للإطاحة به ، حتى تضمن عرش البلاد لابنها دون بقية اخوته من الزوجات الأخريات . والاستعانة بهذا الشتات من العناصر والأجناس كانت نقطة ضعف في جسم الأمة الاسلامية في الأندلس ، بينما

(١١٦) ابن خلدون ، تاريخه ، المجلد الثاني ، القسم الثالث ، ص ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، أرسلان ،

الرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٥

Livermore, op. cit., p. 81.

كان تجانس السكان في الشمال وعدم استخدام ملوكهم لعناصر اجنبية في جيوشهم أو بلاطهم عنصر قوة يحسب لهم<sup>(١١٧)</sup> .

### ٣ - العامل الدينى واثره :

هناك أيضا العامل الدينى وكيف استغله ملوك الجلالة بالذات في اثاره الصراع ضد امراء بنى أمية ومن أتى من بعدهم . وكما هو معروف كانت الكنيسة قد اعلنت مبدأ الفصل بين السلطة الزمنية والسلطة الدينية اثر غزوات البرابرة لأوربا حتى تحمى نفسها وتحتفظ بحريتها من هؤلاء ، ثم تسرب نفوذ الكنيسة الى السلطة الزمنية عندما انضم القسس والاساقفة الى السلك المدنى أو أشركوا المدنيين في مجامعهم الدينية ، مثل مجمع طليطلة الدينى<sup>(١١٨)</sup> .

وبذلك صار للكنيسة دورها في حكومة ملوك الشمال النصرانى ، ولذلك أغدق عليها هؤلاء الملوك حتى يضمنوها الى جانبهم في الصراع ضد بعضهم البعض أو ضد مسلمى الأندلس ، وكما اشرنا فقد أجبرهم هذا الاغداق على فرض كثير من الضرائب على أصحاب الضياع حتى أنهم ثاروا ضد ملوكهم لهذا السبب . وكانت الكنيسة نفسها تميل الى ذلك وتتحد مع الملوك وتؤيد سلطتهم المطلقة رغبة في مقاسمتهم السلطة الزمنية ، وان كان هذا ضد حرية الرعايا<sup>(١١٩)</sup> .

لم يكن هناك صراع اذن بين ملوك الجلالة وبين رجال الكنيسة ، فاذا اضيف الى ذلك قوة ميل الأسبان للتشدد في الايمان والتعصب لكل ما يؤمنون به بعد أن تأصلت الكاثوليكية في ربوع البلاد ، لأدركنا على الفور

---

(١١٧) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٤١ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، الحميرى ، المصحر نفسه ، ص ٣٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٣٩ .

(١١٨) كيزو ، التحفة الآفنية ، ص ١٨٦ .

(١١٩) كيزو ، للتحفة الأدبية ، ص ٧٢ .

مدى قوة ذلك الحدث الدينى الكبير الذى سوف يستغله ملوك اسبانيا استغلالا مفيدا جدا فى شحن عزائم رجالهم واثارة شعبيهم ضد مسلمى الأندلس (١٢٠) .

ذلك أن راهبا فى قاصية جليقية الغربية زعم انه شاهد فى احدى البقاع نورا سماويا يكشف عن مثنوى رفات القديس ياقب (يعقوب) الرسول ، وحمل هذا النبأ الى الملك ألفونس الثانى (١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩٢ — ٨٤٢ م) الذى أمر على الفور ببناء كنيسة فوق هذا المكان .

وذاعت الأسطورة فى جميع الأنحاء ، وصدقها الناس دون تردد ، وبدأت جماعات الحجاج ليس فقط من اسبانيا ولكن من جميع أنحاء العالم النصرانى ، تقد لزيرة هذا المكان المقدس الذى أصبح له أهمية تلى أهمية اورشليم وروما (١٢١) .

وسرعان ما نمت مدينة فى هذا المكان وسميت باسم سنتياجودى كومبوستيلا Santiago de Compostela ، وأصبحت تلك المدينة مؤثرا دينيا وسياسيا وصناعيا وتجاريا فى الشمال الغربى المسيحى ، وكان ملوك اسبانيا من الذكاء بحيث استفلوا هذا الكشف المثير لذلك القبر ، والهبوا حماس النصرارى فى معاركهم ضد المسلمين مما أعطى لهذه المعارك صفة الحرب الصليبية منذ وقت مبكر . يتمثل ذلك فيما ادعاه الملك ردمير ابن الملك ألفونس الثانى (٢٢٦ — ٢٣٤ هـ / ٨٤٢ — ٨٥٠ م) انه فى احدى المعارك رأى القديس ياقب فى نومه ليلة المعركة ووعدته بالنصر (١٢٢) .

---

(١٢٠) مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٩ .

(١٢١) غنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٦ .

Chapman, op. cit., p. 55

(١٢٢) غنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٦١ .

Chapman, op. cit., p. 55

وإذا كان المسلمون يعلنون الجهاد باسم الاسلام ويجعلون للصراع مع المسيحيين طابعاً دينياً فلماذا لا يفعل المسيحيون ذلك . وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل عندما نتكلم عن طبيعة الحرب بين المسلمين والمسيحيين في بداية الفصل الثالث من هذا الباب ، وما يهمنا الآن هو أن نقول أن ملوك أسبانيا استغلوا العامل الدينى أحسن استغلال لضرب المسلمين وللتخلص من خطر انقسام كانت قد بدت ظواهره في الأفق عندما حاول مطران طليطلة Elipandus وصديقه Felix أسقف Urgel أن يعيدوا الى الأذهان في عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م مذهباً لاهوتياً قديماً يقول بأن المسيح كان رجلاً امتلأ بالروح المقدسة وهكذا تبناه الله واختاره . وهو مما يناقض العقيدة الكاثوليكية التي تؤمن بعقيدة الثالوث المقدس وأن المسيح هو الله (١٢٣) .

ورغم أن طليطلة كانت في هذا الوقت تحت حكم المسلمين ، إلا أن مطرانها هذا كان له من التأثير بحيث كان المسيحيون سواء في الأندلس الإسلامية أم في أسبانيا النصرانية يعتبرونه المهيمن على شئون الكنيسة ، ولما تسربت أقواله وآراؤه تلك الى أشتريس ، تحطمت الوحدة الدينية الأسبانية ، وكانت هناك حاجة الى من يلم شمل الكنيسة من جديد ، فكانت أسطورة هذا القبر المقدس الذي نادى به أحد الرهبان وصدقه الملك الفونس الثانى لغرض في نفس يعقوب (١٢٤) .

٤ — أما عن علاقة أمارات الشمال الأسباني ببعضها وأثر ذلك في صراعها ضد مسلمى الأندلس ، فقد سبقنا الإشارة مراراً الى تلك العلاقة التي كانت تربط ملوك الجلالقة بأمرأ نبرة ، وخاصة بعد أن استقل هؤلاء وأنشأوا مملكة نبرة المستقلة في النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وأشرنا الى ثورات أمرأ نبرة

Livermore, op. cit., pp. 79, 80.

(١٢٣)

Livermore, op. cit., pp. 79, 80.

(١٢٤)

ضد ملوك الجلالقة ، ثم أطاع هؤلاء في أراضى نبرة مما اجبر أهلها الى الاستعانة ببنى قسى المولدين المسلمين .

وقد استعان المسلمون ومسيحيو الشمال الأسباني بملوك الفرنجة على حد سواء . أما المسلمون فبسبب الصراع على السلطة في قرطبة ، وأما النصارى فبسبب طلب المساعدة في صراعمهم ضد مسلمى الأندلس . وكان ملوك الفرنجة يرغبون أيضا في فرض سيطرتهم على الأراضى الأسبانية المتاخمة لحدودهم حتى يأمنوا على أنفسهم داخل بلادهم ، بعد أن اذاتهم العرب الويل أيام عصر الولاة وتوغلوا داخل غالة ( فرنسا ) حتى نهر اللوار على مسافة قريبة من باريس . ولذلك كان ملوك الفرنجة يرحبون دائما بأى طلب للمساعدة ، يقدم لهم سواء من الجانب الاسلامى أم المسيحي(١٢٥) .

وقد حالف الملك الفونش الثانى (١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م) الامبراطور شارلمان وابنه لويس التقي ، كما حالف البشكنس أيضا ، وذلك لتعزيز هجومه ضد الحكم ( ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢١ م ) وابنه من بعده الأمير عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢١ - ٨٥٢ م ) وكان من نتيجة التواجد الفرنسى أن سقطت برشلونة في يد الفرنجة عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، وقامت إمارة قطلونية أو المارك الأسباني التى كان يحكمها أمراء من قبل ملوك الفرنجة مباشرة . كما استطاع هؤلاء الملوك بث نفوذهم في تلك الامارة الصغيرة التى قامت على سفوح جبال البرينات مثل إمارة سوبراب Sobrarbe وسردونيا

(١٢٥) عن الصراع بين مسلمى الأندلس على السلطة واستعانتهم بالفرنجة ، انظر ، الرازى برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٢ - ٩٤ ، ١٠٣ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٢٠ ، ٢٤ .

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ،

Dozy, op. cit., pp. 204-206.

المعنى ، عقد الجمان ، ج ٢ ورقة ٢٩٨ ، ٢٣٥ ،

Serdonia التي يسمى العرب أهلها باسم السرطانيين ومثل إمارة  
ارغونة وغيرها(١٢٦) .

وكان هذا الوجود الفرنسي مفيدا لنصارى الشمال الأسباني ،  
فقد أصبحت إمارة قطالونية بموقعها خلف الثغر الأعلى الأندلسي من  
جهة الشرق مثل الشوكة في ظهره ، كما أصبح الوجود الفرنسي في  
الشمال ملاذا يحتوى به نصارى هذه المنطقة اذا ما حلت بهم الهزيمة أو  
طاردتهم قوات المسلمين . لكن هذا لا يمنع من القول بأن كل وحدة  
في شمالى أسبانيا كانت تعمل لحسابها الخاص . ولذلك لا نندهش اذا  
راينا المسيحيين يحاربون المسلمين وايضا يحاربون المسيحيين  
الآخرين(١٢٧) .

خذ مثالا على ذلك ، نبرة النصرانية وتحالفها مع بنى قسى المسلمين  
ضد ملوك الجلائقة النصارى ، وخذ حملة شرلمان على الثغر الأعلى  
الأندلسي عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م . وسواء أنت تلك الحملة باستدعاء  
من المسلمين أم من المسيحيين ، الا أن المسلمين تخلوا عن مساعدتها ،  
بل وقاتلوا ولم يسمحوا لها بدخول سرقسطة . كما أن المسيحيين  
من شعب الباسك أغاروا على مؤخرة جيش شرلمان أثناء انسحابه  
عبر ممرات جبال البرنات الغربية قرب نبرة والبشكنس ، وكبدوه خسائر  
فادحة ، وقتلوا رولان الذى نشأت بسببه أنشودة رولان المشهورة(١٢٨) .

وكان هذا عاملا من عوامل الضعف أفاد منه المسلمون وخاصة في  
العصور التالية ، ولو لم يقم ملوك أقياء في جليقية من أمثال الفونش

(١٢٦) ابن عذارى ، المصحر نفسه ، ج ٢ ص ٩٢ - ٩٤ ، ١٠٣ .

Chopman, op. ct., pp. 55,65.

Chapman, op. pp. 56.

(١٢٧)

(١٢٨) أرسلان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٣٢٢ ، ٤٣٠ .

لبن بول ، قصة العرب في أسبانيا ص ٣٠ ، ٣١ .

الأول والثاني والثالث المعاصرين لمعظم أمراء بنى أمية ، واستطاعوا أن يلموا شمل النصارى بالقوة ويدفعوا العرب عن بلادهم ، لما قامت لهم قائمة ، ولو لم ينضو نصارى الشمال تحت لواء هؤلاء الملوك الذين لم ينافزهم أحد بصفة جدية حيث كانت مملكة نبرة في طور النشأة ، لكان الخطر على النصرانية نفسها عظيماً (١٢٩) .

هذه لحظة سريعة عن أحوال نصارى الشمال الأسباني وما كان فيها من عوامل قوة ، كملت لهم الدفاع عما تبقى لهم من بلادهم ثم الهجوم على المسلمين واستعادة بعض أراضيهم حتى وصلت هجماتهم في عهد الفونس الثالث خلف نهر التاجة ، وأصبحت المنطقة الواقعة بين نهر دويرة والمندجو جزءاً من ممتلكاتهم . وهناك أيضاً عوامل ضعف استغلها المسلمون واستطاعوا أن يوقفوا هذا الزحف النصراني ويردوه على أعقابهم ، ويستعيدوا جزءاً مما فقدوه في عصر الولاة ، ويتبادلوا الهزائم والانتصارات مع نصارى الشمال .

لكن نصارى الشمال استطاعوا في الفترة الأخيرة من عصر الإمارة الأموية أن يفرضوا أنفسهم ، وأن تصل هجماتهم حتى مدينة ماردة على وادي يانة في الجنوب الغربي من الأندلس ، وأن يثيروا الاضطرابات في طليطلة وماردة وقرطبة ذاتها ، حتى بات أمر الإسلام في كفة الميزان ، ولم ينقذ تلك البلاد إلا زعيم مقتدر هو عبد الرحمن الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م ) .

والآن بعد أن القينا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس في عصر إمارة بنى أمية ، وعلى أحوال بلاد الشمال الأسباني وعرفنا عوامل النصر والهزيمة عند كل من الطرفين المتصارعين على أرض شبه الجزيرة أصبح الآن حديثنا عن الصراع نفسه واجبا . لكن ما هي طبيعة هذا الصراع ؟ وهل كان صراعاً عسكرياً مستمراً ، أم تخللته فترات من السلام والهدوء تبادلاً بينها السفارات والبعثات ؟ هذا هو ما سوف نتحدث عنه في الفصل الثالث من هذا الباب .

(١٢٩) محمد كرد علي ، المرجع نفسه ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .



## الفصل الثاني

### مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

منذ أن وطئت أقدام عبد الرحمن الداخل أرض الأندلس وحتى قيام خلافة عبد الرحمن الناصر ( ١٣٨ - ٣١٦ هـ / ٧٥٥ - ٩٢٨ م ) قام صراع طويل بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال الأسباني لم يتوقف الا لفترات قليلة . وما كان له أن يتوقف اذا عرفنا دواعي هذا الصراع وأهدافه . ولو وضعنا يدينا على أسباب هذا الصراع ودواعيه لعرفنا بكل بساطة طبيعته أو دلوله ومفهومه السليم .

## أ - طبيعة الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الأسباني وأسبابه :

بادئ ذي بدء ، نقول أن مسلمى الأندلس لم يكن هدفهم من هذا الصراع الذى قاموا به ضد نصارى الشمال الأسباني إبادة هؤلاء النصارى أو تحطيم دولهم وإزالتها من الوجود . وذلك لسبب بسيط هو أن معظم الحملات التى قاموا بها لم تكن إلا رد فعل لاعتداءات النصارى على الثغور الإسلامية أو مناطق الحدود المجاورة لهم . صحيح أن حملات المسلمين اتخذت شكلا تقليديا وزمينا ثابتا ، وهو إرسال صائفة كل سنة تقريبا ، وربها كانت هناك شاتية ، لكن لم يكن ذلك إلا دفعا لخطر النصارى أو إرهابا لهم ، وتأمينا للحدود الإسلامية التى لم تكن حدودا ثابتة على الدوام . وهذا النوع من الحرب يسمى الآن فى المصطلح الحديث بالحرب الوقائية .

فالمسلمون إذن كانوا يريدون التعايش مع جيرانهم ولم يهدفوا الى القضاء عليهم . وهناك من العوامل التى أثرتنا اليها فى تحليلنا لأحوال الدولة فى عصر الإمارة ما يؤكد هذا الاتجاه ، إذ كان الأمويون مشغولين فى تثبيت أمرهم والقضاء على الفتن وحركات التمرد الداخلية التى لم يخل منها عصر أى أمير من أمراء بنى أمية ، زد على ذلك هذا الانقسام أو الانشقاق الخطير فى كيان المجتمع نفسه وانقسامه الى بربر وعرب ومولدين ونصارى وأواخر عصر الإمارة ، وقيام كل فئة من هذه الفئات أو كل قوم من هؤلاء الأقوام بتثبيت سلطانه وإعلان استقلاله ، ومحاربته للسلطة المركزية فى قرطبة بهدف القضاء عليها .

وإذا كان أمر هذا التعايش مع نصارى الشمال صحيحا ، فما هو هدف « الجهاد » الذى كان يعلنه أمراء بنى أمية ويصطفونه بالصيغة الدينية ؟ المعروف أن الجهاد فى سبيل الله يستهدف أمرين ،

اولاها نشر الاسلام في ارض لم يدخلها الاسلام ، وثانيهما هو الدفاع عن ارض دخلها الاسلام . وفيما يبدو كان الهدف الثاني هو الذي كان يشغل بال امراء بنى امية وخلفائهم ، اما نشر الاسلام ، فانهم داخل الأندلس نفسها ، لم يجبروا أحدا على اعتناقه ، ولم تكن هناك فرصة لقيام هجمات اسلامية ضد نصارى الشمال بهدف نشر الاسلام فيما بينهم ، خاصة بعد ان تحطمت محاولاتهم وراء جبال البرنات ولم يجنوا من وراء ذلك الا اعطاء الفرنجة الفرصة ليتدخلوا لمصلحة النصارى في الصراع الدائر بينهم وبين المسلمين .

كانت حركة الفتوحات بقصد نشر الاسلام قد توقفت في عصر الامارة وقنع المسلمون بما وضعوا عليه أيديهم من بلاد ، وأخذوا في تنظيم شؤونهم وترتيب اوضاعهم حتى ينعموا بثمرات الفتح ويستريحوا من هذا العناء الطويل والجهد العظيم الذي بذلوه منذ الفتح . ولم يكن الاستمرار في حركة الفتح ممكنا لدولة مثل الأندلس بالذات ، وهى دولة منقطعة عن غيرها من دول العالم الاسلامى الذى كان يعادىها ويقف لها بالمرصاد . اذ كان العباسيون والأغلبة والأدارسة والفاطميون يقفون موقف العداء من بنى امية في الأندلس ، وهذا أمر معروف وليس بخاف على احد<sup>(١)</sup> .

على هذا الأساس يمكن ان نقول ونحن مطمئنون تماما ان هدف مسلمى الأندلس من حملاتهم المتتابة في عصر الامارة وحتى الخلافة، هو توفير الحماية والأمن للمواطنين الذين يعيشون في مناطق الثغور الاسلامية . كان هذا هو الهدف الرئيسى من حملات المسلمين ، وما عدا ذلك فهى أهداف ثانوية تدعم الهدف الأساسى ولا ترقى الى مستواه .

وهناك مثلا من يقول ان من الأهداف ، زرع هيبة المسلمين في نفوس أعدائهم واذلال هؤلاء الأعداء واجبارهم على الاستسلام حتى يقدموا

(١) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٧٠١ .

فروض الطاعة والولاء والجزية ، وهدم حصونهم المقامة على الحدود الإسلامية ، أو الاستيلاء عليها واسكانها بالمسلمين ، وتخریب أراضى العدو والتوغل فيها ، واجباره على تنفيذ شروط الصلح المعقودة اذا حاول الاخلال بها ، وتلبية نداء ملوك النصارى الموالين لقرطبة فى حالة خلعهم من عروشهم<sup>(٢)</sup> .

كل هذا صحيح ، لكنه يدخل ضمن الهدف الأساسى ، وهو توفير الأمن والأمان لمسلمى الأندلس . ولتحقيق ذلك قام أمراء بنو أمية بحملات ضد نصارى الشمال ، لا بقصد إبادتهم ، فلم يعد ذلك ممكنا بعد أن قامت دولة جليقية ودولة نبرة ، ومن ورائهما الفرنجة يمدونهما وقت الحاجة ، كما كانوا يمدون أيضا إمارة قطلونيا ، تلك الشوكة التى نزعها الفرنجة فى ظهر الثغر الأعلى الأندلسى . فكان هدف الحملات الإسلامية هو التأديب أو الإرهاب وإجبار هؤلاء الناس على التعايش فهم جميعا يعيشون على أرض أسبانيا .

وكان نصارى الشمال يستجيبون أحيانا ، وتتعدد مظاهر هذا التعايش من مصاهرات تتم بين ملوك الأسبان وبين ملوك الأندلس وأمراء وجنوده وغيرهم ، ومن تبادل للبعثات والمتاجر ، وأرسال الطلاب المسيحيين لتلقى العلم فى قرطبة الى غير ذلك مما سوف نتعرض له فى الباب الرابع . وعلى هذا الأساس لم يكن هناك تعصب دينى من مسلمى الأندلس ، ولم يكن هذا الطابع ملحوظا حينما كان التفوق فى جانب أسبانيا المسلمة أيام الدولة الأموية ، وكان قاصرا على جماعات الفقهاء من ناحية وعلى القساوسة والأخبار من ناحية أخرى<sup>(٣)</sup> .

كان هناك فقط حث على الجهاد وتقوية للروح المعنوية عند المسلمين . واتخذ ذلك مظاهر شتى ، لكنها جميعا لم تكن تعصبا

(٢) هشام أبو رميلة ، نظم الحكم فى الأندلس ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣) عفان ، نهاية الأندلس ، العصر الرابع ، ص ٥٥ .

بقصد القضاء على النصرانية كدين ، كلا ، فان ديننا يعترف بجميع الأديان والرسل والأنبياء بل ويوصينا بأهل الكتاب . وكان من مظاهر الحث على الجهاد ، الخطب الدينية وصيحات خاصة يقولها المجاهدون أثناء القتال ، والتحدث عن قوة ضربات السيوف الإسلامية لالقاء الرعب في قلوب الأعداء<sup>(٤)</sup> .

وكان هناك من القضاء والفقهاء من يشتركون في الجهاد والغزو بل ويعتقد لهم اللواء على جند إحدى الكور ، كما حدث مع القاضي الفرّج بن كنانة والقائد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، حيث عقد لهذا القائد على جند شذنة لقتال جليقية . وكان هناك أيضا من يأتى الى الأندلس من بلاد المشرق الإسلامى والشمال الأمريقى من العلماء ممن يتطوعون للجهاد ، باعتبار أن الأندلس كانت ثغرا إسلاميا<sup>(٥)</sup> .

ومن الأمور الجديرة بالذكر أن بعضا من علماء الأندلس استباحوا لأنفسهم وضع « أحاديث » ونسبوها للرسول ، فيها حض الناس على الجهاد والغزو والرباط ، وقد أشار الى ذلك الضبى وأورد محمد الشطيبي المغربى حوالى خمسة عشر حديثا فى هذا المعنى منها أن « الإسلام سوف يبقى فى الأندلس حتى تقوم الساعة » ، وأن « رباط يوم وليلة فى الأندلس خير من اثنتى عشرة حجة بعد الفريضة » ، « وفى آخر الزمان يغشاهم عدوهم فيقتلهم على فراشهم وتسبى زرايعهم وتخرب

---

(٤) أحمد مختار العبادى ، صور لحياة الحرب والجهاد فى المغرب والأندلس ،

ص ٩٠ - ٩٢ .

(٥) النباضى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٥٤ .

الضبى ، بغية التلمس ، ص ١٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ .

ابن الزبير ، صلته للصلة ، ص ١٧٠ ، ابن خلدون ، مقدماته ، ج ٢ ، ص ٧٠١ .

مساجدهم » ، الى آخر هذه الاحاديث التى قيلت لتشجيع اهل الاندلس على الصمود والثبات أمام غزوات النصارى (٦) .

وكان هناك مجال تفوق فيه العرب وهو الشعر ، فكان الشعراء يصحبون الجنود ويصفون المعارك ويبثون الحمية فى قلوبهم ، ويعودون يرددونها فى الطرقات والميادين والشوارع مما يثير اعجاب الناس أما اذا دعا داعى القتال وهرع الناس للالتحاق بالjند ، امتنع هؤلاء الذين يمشون فى الاسواق ينشدون الازجال والاشعار عن الانشاد ، الا اذا كانت تثير فى الناس الحمية ، وتزرع فيهم حب القتال . (٧) .

وبلغ من تشجيع الدولة والعلماء للجهاد أن الامام مالك ومذهبه كما هو معروف هو السائد فى المغرب والاندلس ، أفتى بأن يكون الجهاد والغزو كمارة لحد القتل اذا امتنع أهل القتيل عن القصاص أو اخذ الدية من القتال ، فما عليه الا أن يتوجه للجهاد فيغزو فيقتل . كما أن الدولة قامت من جانبيها وفرضت ضريبة تسمى « الطبل العام » وأخرى تسمى « ضريبة الحشد » لاعانة بيت المال على الصرف على تلك الغزوات المتلاحقة ضد نصارى الشمال ، كما كانت تخصص العشور لنفقات الجند ، وكانت تخزن فى خزائن واسعة لوقت الحاجة (٨) .

هذه مجرد أمثلة لحب الناس للجهاد الذى كان هدفه هو الدفاع عن اخوانهم من مسلمى الثغور ، وكانت الدولة بصفة عامة تريد التعايش مع نصارى الشمال . فهل قبل هؤلاء بهذا التعايش الذى طلبه المسلمون ؟

---

(٦) للضبى ، بغية المتلمس ، ص ١٤ .

محمد الشطيبي المغربى ، للجمان فى أخبار الزمان ، ورقة ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٧) ابن عيود ، ثلاث رسائل أندلسية فى الحسية ، ص ١١٣ .

بالنفثيا ، تاريخ الفكر الأندلس ، ص ٣٧ .

(٨) العزرى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١٢٥ ، النباهى ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ .

ابن حية ، المطرب من اشعار أهل المغرب ، ص ١٣٦ .

المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، ٢١٤ .

الجواب ، لا . لم يقبل نصارى الشمال بالتعايش جنبا الى جنب مع مسلمى الأندلس . كيف ذلك وهم يعتبرونه شعبا أجنبيا يعتنق ديننا يخالف عقيدة الكاثوليكية التى يؤمنون بها ويتعصبون لها . فماذا كان هدفهم إذن ؟

منذ أن قامت دول الشمال النصرانى فى اسبانيا ، وجد معها منذ قيامها الحافز على قتال المسلمين . فقد قامت أولا للدفاع عما تبقى لها من أرض شبه الجزيرة ، وتطور الدفاع الى الهجوم المتد فى النصف الاخير من عمر الامارة ، وصار هجوما طاغيا بعد سقوط الخلافة الاموية فى قرطبة . وكان هدف الهجوم هو الارض ، هو استعادة أرض شبه الجزيرة التى سيطر عليها المسلمون منذ أيام طارق بن زياد وموسى بن نصير

واتبع نصارى الشمال أساليب مختلفة لتحقيق هذا الغرض . اتبعوا أسلوب الحرب السافرة وجهلا لوجه ، وتحريض المولدين ، وإثارة الفتنة بين النصارى والمسلمين ، واستعداد الفرنجة على المسلمين ، وحرب العصابات وحرب الاستنزاف والانهك . وكانت معظم حروب النصارى من هذا النوع الأخير ، يضربون ضربة هنا ، وأخرى هناك ، فيقوم الأمير الاموى وينفق آلاف الدنانير ويجند آلاف الجنود ، ويقود جيشه بنفسه أو بواسطة أحد أولاده أو أخوته أو أحد قواده ويسير آلاف الأميال ، حتى إذا وصل الى منطقة الثغور يجد النصارى قد هاجموا أحد الحصون ودمروه ونهبوا ما فيه ومأحوله من قرى ، ثم لاذوا بالفرار

ولاشك أن هذا كان يكلف خزانة الامارة الاموية كثيرا من الاموال ويجهد مواردها أشد الجهد ، لكنها كانت مضطرة ازاء هذا السيل من الهجمات التى كان يقوم بها نصارى الشمال على ما يجاورهم من ثغور المسلمين . وكان حاكم قرطبة مسئولا عن توفير الحماية لهؤلاء ، ولو توانى لقام عليه الفقهاء والعامة واتهموه بالتفريط فى حفظ ديار الاسلام وهو اتهم دينى خطير لايتحملة أى حاكم فى ذلك الوقت . وتحكى

لنا المصادر أن أحد حكام قرطبة من بنى أمية قام باحدى غزواته انقاذا  
لامرأة مسلمة أسرها النصارى واستغاثت به واتهمته بالتوانى عن انقاذها  
من أيديهم (٩) .

وكان هذا ما يهدف اليه نصارى الشمال ، وهو اجهاد مسلمى  
الأندلس وخلق المشاكل أمامهم سواء داخل الأندلس نفسها أم على حدودها  
حتى يحين الوقت المناسب لتوجيه ضربات عاتية تقتلعهم من الأرض ..  
أرض الأسبان . حدث هذا عدة مرات فى عصر الإمارة ، وخاصة فى  
عهد الفونش الثانى والثالث حينما كانت حكومة قرطبة مشغولة  
بالتقضاء على المتمردين عليها من العرب والمولدين ونصارى أهل الذمة .

كان هذا هو هدف الأسبان من حربهم ضد مسلمى الأندلس ، وهذا  
هو أسلوبهم . فماذا يقول المؤرخون عن هذه الحرب ؟ هناك من  
يقول بأن حروب الأسبان هذه كانت حربا دينية تستهدف نصره الكنيسة  
وهزيمة الاسلام ، ومن يقول بأنها كانت حربا قومية تستهدف  
استرداد الوطن السليب ، ومن يقول بأنها جمعت بين الدين والقومية ،  
ومن يقول بأنها كانت حربا لاستهداف الا الحصول على أرض الكنيسة  
والنجاج وليس هدفها الاسترداد أو تحرير البلاد .

أما القول بأنها كانت حربا دينية أو مقدسة أو صليبية فأمر يحتاج  
الى وقفة . ذلك لأن المسلمين لم يعتدوا على مقدسات النصارى فى  
الأندلس حتى يدعو هؤلاء الى حرب صليبية كما دعا اليها نصارى الغرب  
فيمما بعد بهدف انقاذ بيت المقدس أو قدس الاقداس من يد  
هؤلاء المسلمين المتعصبين الذين اعتدوا — بزعمهم — على حرية الأماكن  
المقدسة فى أورشليم ومنعوا زيارتها وقتلوا حماها ... فثانت ياقب  
( القديس يعقوب ) ، وهو المزار المقدس عند الأسبان كان فى يدهم وتحت  
سيطرتهم ، وحتى عندما استطاع المسلمون فى عهد المنصور بن أبى عامر

(٩) القزى ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .



الوصول اليه عام ٢٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، ثم يمسوا هذا المزار بأذى ، نعم ، دمروا المدينة وهدموا الكنيسة ، لكنهم حافظوا على قبر هذا القديس المزعوم بل وعينوا هناك من يحرسه (١٠) .

وحتى قصة القديس يعقوب نفسها لم تظهر منذ أن بدأت حرب الاسترداد في بداية عصر الامارة الاموية . ولم تأت هذه القصة الى الوجود الا في عهد ملك جليقية ( ليون ) الفونش الثاني ( ١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٧٩١ — ٨٤٢ م ) ، وبالتحديد في عام ١٩٧ هـ / ٨١٣ م ، أى في أواخر القرن الثاني الهجرى ، وبعد أن كان قد مر على قيام الحكم الاسلامى في الاندلس ما يزيد على قرن من الزمان . هي قصة اخترعها الرهبان مع الفونس الثاني لكى يثيروا النصارى ويدفعوهم للاستماتة في القتال ضد المسلمين (١١) واخترعوها ليعالجوا هذا الصدع الذى هدد المذهب الكاثوليكي بسبب ما ذهب اليه أسقف طليطلة من مذهب يخالفه ويناقضه أشد المناقضة ، واخترعوها أيضا لكى تستطيع العقيدة الكاثوليكية — بفضل الطقوس الجديدة للقديس يعقوب — الوقوف أمام عقيدة الاسلام الواضحة ، سواء في فكرة الالهية أم في سائر ما احتوت عليه من مفاهيم اخلاقية أو عبادات ومعاملات . ووجد الاسبان في قصة القديس يعقوب الملاذ الذى يلجأون اليه للخروج من هذا المأزق الذى وضعتهم فيه شريعة الاسلام الغراء (١٢) .

هذا ولم يقدم الينا التاريخ أحداثا مؤكدة نشأت بسبب هذه الطقوس الخاصة بقصة القديس يعقوب ، لكن الخطر ليس في القصة ذاتها ، ولكن في تصديق الناس لها واعتقادهم فيها ، ذلك الاعتقاد الذى أصبح اعتقادا حريبا لدرجة أنه حرك الرجال لكى يقوموا بأعمال لايمكن تصديقها . ويبدو أن القول بأن الاساطير تحرك الانسان

Crow, op. cit, p. 85

(١٠)

(١١) انظر ، الفصل الثانى ، الباب الاول ، ص

Crow, op. cit, p. 83

(١٢)

في التاريخ بقوة أكثر من الأحداث الواقعية هو قول صحيح الى حد كبير وخاصة في مثل ذلك الزمن ومثل هذا الصراع الذي نتحدث عنه<sup>(١٣)</sup>.

والأسطورة تقول بأن القديس يعقوب العظيم بن زبدي ( أو زبدي Zebedeo — أحد الحواريين الاثنى عشر — أتى الى أسبانيا لينشر المسيحية ، وظل هناك لمدة ست سنوات ثم عاد الى اورشليم حيث صلبه الملك هيرود Herud واستطاع تلاميذه المخلصون أن يخفوا جسده وأن يضعوه في سفينة وصلت به الى أسبانيا ، ونزلوا به هناك في الميناء الروماني القديم Ira Flavia على ساحل جليقية ، ثم ذهبوا به الى موقع مدينة شنت ياقب ( سنتياجو ) الحالي حيث دفنوه هناك . وكان القبر مكانا يحج اليه الناس لعدة سنوات ، لكن عندما ازداد الاضطهاد الروماني للمسيحيين الاسبان ، أهملت تلك البقعة ونسيها الناس مدة ستة قرون .<sup>(١٤)</sup>

ويستطرد صاحب الرواية قائلا أنه في عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م ادعى راهب كان يعيش في تلك المنطقة بأنه رأى نجما يسطع فوق شجرة بلوط عدة ليال متتالية ، وبذهابه الى هناك مع أسقف المنطقة ، وجد مقبرة بها رفات ثلاثة أشخاص ، أحدهم مقطوع الرأس ، فافترضا أن هذا هو قبر القديس يعقوب ، وأخبرا الملك الفونس الثاني ( ١٧٥ — ٢٢٧ هـ / ٩٧١ — ٨٤٢ م الذي ذهب الى هناك مع رجال بلاطه وأمر ببناء كنيسة على الموقع . وعرف البابا ليو الثاني Leo بالحادث وقام باعلانه في رسالة له الى العالم أجمع ، وكان ذلك الامر كان مجهولا من البابوية ولم تعرف من قبل أن أحد الحواريين العظام يرقد جدته في أرض أسبانيا<sup>(١٥)</sup> .

Crow, op. cit, p. 83

(١٣)

Crow, op. cit, p. 83

(١٤)

Crow, op. cit, p. 83

(١٥)

ويشكك صاحب هذه الرواية في معرفة أى من هذه الهياكل العظمية الثلاثة هو للقديس يعقوب ، لان عظامها كانت مختلطة وموضوعة معا في صندوق واحد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد انكر تلك القصة برمتها مؤرخوا الكنيسة الرومان وعلى رأسهم يوسابيوس القيصرى الذى عاش في العصور الاولى لانتشار المسيحية (٢٦٤ - ٣٤٥ م) والذى يعتبر حجة في تاريخ الكنيسة ، كما أنه من أقدم المؤرخين وأسبقهم في هذا الموضوع واليه يرجع المؤرخون قديما وحديثا .

فقد استعرض ذلك المؤرخ تاريخ القديس يعقوب حتى لحظة استشهاده بأرض فلسطين في اورشليم ثم قال « ولما استشهد دفنوه في الحال بجانب الهيكل ، ولا يزال قبره بجوار الهيكل » (١٦) ويقول مؤرخ مسيحي آخر بأنه من المرجح ان يعقوب لم يفارق اورشليم بل بقى فيها حتى نال الشهادة على يد هيرودس أجريباس عام ٤٤ م ، ولذلك يشك في صحة ماتدعيه الكنيسة الاسبانية من أنه بشر عندهم بالمسيحية (١٧) . كان هذا في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي ، في حين تقول الاسطورة بأنه نقل الى اسبانيا في بداية القرن الثالث الميلادي . فهي تقول بأنه نقل الى هناك وظل ستة قرون منسيا ، ثم اكتشف قبره عام ٨١٣ م أى أنه نقل في بداية القرن الثالث الميلادي (١٨) .

على أية حال فقد استغل ملوك الشمال الاسباني تلك الاسطورة استغلالا سياسيا ، وأعلن ردمير ( راميرو ) الأول ابن الفونش الثانى ( ٢٢٧ - ٢٣٥ هـ / ٨٤٢ - ٨٥٠ م ) أنه رأى اثناء الليل القديس يعقوب ووعدته بالانصر في معركة ضد المسلمين ، وأنه كان يمتطى جوادا أبيض ويحمل علما أبيض وصليبا أحمر ، وأعلن له القديس يعقوب أن

---

(١٦) يوسابيوس القيصرى ، تاريخ الكنيسة ، ص ٩٦ - ٩٩ .

(١٧) عيسى أسعد ، الطرفة للنقية ، ص ١٣ .

(١٨) يوسابيوس القيصرى ، تاريخ الكنيسة ، ص ٩٦ - ٩٩ .

الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية في أسبانيا مسئوليته الشخصية ، وأنه  
حضر ليقود الإسبان في ميدان المعركة ويذهب الخيال بالملك حتى  
يقول أن القديس بين له كيف ينظم قواته (١٩) .

إذا ع ردمر الاول تلك الرؤيا على جنوده وكانوا منهزمين في اليوم  
السابق ، فاندفعوا وألقوا بأنفسهم على المسلمين مهللين بأعلى صوته  
Eantiago Cierra Espana” أي أن القديس يعقوب هو حامى  
اسبانيا ، وهاجوا المسلمين في قوة ، ففر هؤلاء تاركين الميدان غاصا  
بحث قتلاهم (٢٠) .

حدثت هذه المعركة كما تدعى الرواية النصرانية عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م  
وتسميها معركة Clavigo ، وفيها تم النصر للملك ردمر  
الاول بفضل القديس يعقوب . لكن لم يشر الى تلك المعركة مصدر عربى  
واحد من مصادرنا القديمة ، فهي تحدثنا عن معارك بين عبد  
الرحمن الاوسط وبين موسى بن موسى بن قسى في تطيلة بأرض الشمر  
الاعلى ( سرقسطة ) عام ٢٢٨ م ، وتقول أن عامله على أشبونة  
أرسل له بظهور سفن المجوس ( أى النورمان الشماليين ) ثم يتحدث  
عن غزوة لعبد الرحمن الاوسط في جليقية عام ٢٣١ هـ ٨٤٥ م ، وأنه حاصر  
مدينة ليون ، وأنه أحرقها ، ولم يتمكن من هدم سورها بسبب عظم  
سمكه ، فتركه وعاد (٢١) .

اذن كانت الاندلس كلها — شمالها وجنوبها — مشغولة في هذا  
الوقت عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م بدفع خطر النورمان الذين كانوا يغيرون

Crow, op. cit, p. 84 (١٩)

Crow, op. cit, p. 84 (٢٠)

(٢١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٠ ، ١٣٢ ، ابن خلدون ، العبر ،

ج ٤ ، ص ١٢٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٩ .

المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ .

على أراضي النصارى والمسلمين . وكان رد مير مشغولا بالقضاء على حركة الأشراف الذين ظلوا في ثورة ضده منذ وفاة والده عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٢ م حتى عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م .<sup>(٢٢)</sup> وعلى هذا الأساس فانتنا نميل الى عدم تصديق المصادر النصرانية التي حدثت بتلك الواقعة عام ٢٣٠ هـ / ٨٤٤م وأظهرت بما قام به القديس يعقوب حتى تم النصر فيها للمسيحيين .

ومنذ ذلك الوقت اعتبر المسيحيون أن القديس يعقوب هو نصير إسبانيا ، وأنه هو الحامي الخاص للجنود المسيحيين ، وأنه قاتل المسلمين Santiago Matamores . وأعطى اعتقاد المسيحيين في هذا القديس العقيدة الكاثوليكية الإسبانية وحدة متينة في العصور الوسطى بعد أن كانت قد تعرضت للانشقاق<sup>(٢٣)</sup> .

فنصارى الشمال اخترعوا الاسطورة عام ١٩٨ هـ / ٨١٣ م واخترعوا ذلك النصر المزعوم الذي تم بسبب تلك الاسطورة ، لتحقيق الاهداف التي تحدثنا عنها من قبل . وربما كان أفضل من ذلك في تحقيق تلك الأهداف ادعاء نصارى الشمال بأن النصارى من أهل الذمة المقيمين بالاندلس الاسلامية يعانون اضطهادا دينيا ، وأن كنائسهم تهدم ويمنعون من ضرب النواقيس ، ويعاملون معاملة سيئة ، وأنه صار من الواجب انقاذهم ، ولا يتم ذلك الا باستعادة الارض التي كانوا يعتبرونها أرضا مفتتصة ، قال نصارى الشمال بتلك الادعاءات فعلا وشجعتهم البابوية وملوك الفرنجة على ذلك ، ومن هنا جاءت الصفة الدينية التي خلعها البعض على حروب الاسترداد<sup>(٢٤)</sup> .

---

(٢٢) محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٦٠ ، ٦١ .

Crow, op. cit, p. 84

(٢٣)

(٢٤) انظر ، الفصل الثاني من الباب الأول ، ص

وقد أسرف بعضهم في القول حتى قال بأن « جميع الحروب التي نشبت في اسبانيا لم تشتمل جذوتها الا باسم الدين » ، وأن المسيحيين بدأوا حريهم المقدسة تقريبا منذ بداية الغزو الاسلامي وحتى سقوط غرناطة عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م ، وأنه لم يكن رائدهم في جهادهم الطويل لخراج المسلمين من شبه الجزيرة سوى عواطف دينية يشوبها تعصب عميق لم تألفه الجماعات الاسلامية<sup>(٢٥)</sup> .

وصبغة الحروب الصليبية التي خلعها هؤلاء وغيرهم على حروب الاسترداد يجبها خلاف ما ذكرنا في نقض أسطورة القديس يعقوب وما تبعها من أساطير — أمر في غاية الأهمية ، وهو أن الحرب الصليبية لا يعلنها الا البابا فهو الرئيس الأعلى للمسيحية ، في حين أن اسبانيا النصرانية لم تعترف بسلطة البابوية واشرافها على الكنيسة الاسبانية الا عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، في حين أن أولئك المؤرخين اطلقوا صفة الحرب الصليبية على حروب الاسترداد منذ بدايتها في النصف الاول من القرن الثاني الهجرى / الثامن الميلادي<sup>(٢٦)</sup> .

وهذا بالطبع غير صحيح ، وربما ينطبق هذا الوصف على تلك الحروب في عصورها الاخيرة بدءا من القرن الخامس الهجرى حينما صار الصراع بين مسلمي اسبانيا ونصارها صراع حياة أو موت ، وخاصة بعد أن تدفق على شبه الجزيرة المرابطون والموحدون الذين اثاروا الحماس الديني في هذه المنطقة ، في الوقت الذي اثارت فيه البابوية في روما الحماس الديني المسيحي في اوروبا ، وقامت بأولى حملاتها الصليبية في المشرق في أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى<sup>(٢٧)</sup> .

(٢٥) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٦٠٥ ،

محمد على كرد ، غابر الأندلس وحاضرها ص ١٩٦

محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب في اسبانيا ص ٢٢

Chapman, op. cit, p. 53

(٢٦) محمد المروسي المطوى ، الحروب الصليبية في الشرق والغرب ، ص ١٣٩ .

Crow, op. cit, p. 88

(٢٧)

هذا مجمل القول في أن حروب الاسترداد كانت حربا صليبية ، أما كونها كانت حربا قومية ، فانها لم تكن كذلك على الاقل حتى بداية حكم آل شانجه الكبير لكل اسبانيا النصرانية بدءا من عام ٤٢٦ هـ . والدليل على ذلك أن نصارى الشمال لم يطلقوا اسم « اسبانيا » على شبه الجزيرة كلها ولم يطلقوه على بلادهم التى تقع فى شمالى «اسبانيا» فكانوا لا يعرفون سوى أنهم يعيشون على أرض نبرة أو اثتريس أو قشتالة أو ليون أو أرغنة . أما لفظ اسبانيا فكان يطلقونه على الجزء الجنوبى الذى يقع جنوب جبل الشارات . فهذا الجبل كان يقسم شبه الجزيرة الى منطقتين : قشتالة فى الشمال واسبانيا فى الجنوب . أما لفظ الأندلس فكانوا يجهلونه جهلا تاما(٢٨) .

وقد سبق أن أشرنا الى أن الناس كانوا متعصبين لاقاليهم فهذا قشتالى وذلك ليونى والآخر يفخر بأنه من الباسك وهكذا لدرجة أنهم أحيانا كانوا يدخلون فى حروب ضد بعضهم البعض متحالفين مع المسلمين فلو كانت تجمعهم قومية اسبانية لما حدث هذا ، لانه لم يكن هناك فعلا الهام قومى أو شعور بوطن اسبانى يدفعهم لقتال المسلمين ، ولم يكن هناك الا حرب النبلاء ورجال الاكليروس من أجل استعادة اراضيهم وضياعهم وحرب الملك من أجل استعادة سلطته الملكية على شبه الجزيرة(٢٩) .

لم تكن فكرة القومية ذاتها قد ظهرت فى ذلك الوقت ، وكان يحرك الناس شعورهم باسترداد مافقده وشعورهم ببهجة الغزو والفتح وما يأتى بعده من مغنم وأسلاب . ولقد تطرف البعض حتى قال بأن الاسبان لم يكن تصدهم بتلك الاغارات القصيرة العديدة الا مجرد السلب والنهب

---

(٢٨) الادريسي ، صفة المغرب ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ،

ص ١٢٩ ، ١٣١ ، الطقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢١٣ .

ابن خلدون ، مقدمته ، ج ١ ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث ، ص ٣٧ .

Crow, op. cit, p. 79

Chapman, op. cit, p. 54 (٢٩)

Hdle, Spain under the moslems, p. 23

والانتقام ، وليس فتح بلادهم أو استعادتها . وربما بدا هذا القول صحيحا في العصور الاولى من حركة الاسترداد وخاصة في عصر الامارة الأموية (٣٠) .

ونحن لا ننكر وجود العامل الدينى أو القومى فى حروب الاسترداد ، لكن تلك العوامل لم تظهر منذ بداية تلك الحروب وانما بدأت تعلن عن نفسها بمرور الوقت ، وظهرت بشكل بين فى القرن الخامس الهجرى عندما مدت البابوية ومن ورائها أوروبا يدها لنصارى الاسبان فى كفاحهم ضد مسلمى الاندلس .

هذا عن اهداف الصراع الذى اندلع بين نصارى الشمال الاسبانى وبين مسلمى الاندلس فى عصر أمراء بنى أمية ، وعن طبيعته ودواعيه عند كلا الجانبين فماذا عن الصراع نفسه ؟

---

(٣٠) روبرتسون ، اتحاد الملوك الالبيا ، ص ١٣٨ .



## ب - الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الأسباني :

كان الصراع بينهما في غالبه صراعا عسكريا ، بين الشمال النصراني وبين الجنوب المسلم ، ولنا ملاحظات نبديها قبل الحديث عن أدوار هذا الصراع الطويل .

**أما الملاحظة الأولى ، فهي أن هذا الصدام العسكى اختلف شدة وضعفنا حسب الاحوال الداخلية لكل من الجانبين والتي سبق الحديث عنها في الفصلين الأول والثاني من هذا الباب .** فعندما تكون هناك مشاكل داخلية في الشمال ، كان الجنوب ينتهز الفرصة ويشدد هجومه والعكس صحيح . وبذلك تبادل الفريقان النصر والهزيمة ، ولم ينل أحدهما من الآخر بما يقضى عليه ويزيله من الوجود .

**الملاحظة الثانية :** هي أن معظم الحملات التي قام بها مسلمو الأندلس في عصر الإمارة كانت تتجه أول ماتجه الى المنطقة الوسطى من الشمال النصراني وهي التي تسمى البية والقلاع ( قشتالة ) ، وعندها يقرر القائد اما الاتجاه الى الشرق أى الى الثغر الأعلى ( سرقسطة ) للقضاء على المتمردين من بنى قسى وغيرهم من مولدى الأندلس الذين أعلنوا العصيان والتمرد بعد عام ٢٢٧ هـ وتحالفوا مع أمراء نبرة ، واما الاتجاه شمالا الى اهل نبرة لعقابهم على ذلك ، أو الاتجاه غربا لمهاجمة مملكة جليقية وأشتريس .

**الملاحظة الثالثة :** هي أن أمراء بنى أمية ادراكا منهم لخطورة الوضع في مناطق الثغور أو الحدود مع الشمال النصراني ، قاموا بتنظيم ارسال الحملات التي كانت تسمى الصوائف والثوائى ، وحفلت عهود معظم افراد بنى أمية بارساء هذه الغزوات الى نصارى الشمال اما دفاعا أو هجوما أو ردا على هجوم قد تم أو مرتقبا حدوثه .

**الملاحظة الرابعة :** هي ان الامارة في عصر الضعف ، وخاصة بعد وفاة الأمير محمد عام ٢٧٣ هـ / ٨٨٦ م وانقسام البلاد على النحو الذي اشرنا اليه في الفصل الأول من هذا الباب ، تركت مهمة مقاومة نصارى الشمال لأمراء الثغور من بنى قسى المولدين وبنى تجيب العرب ، بل انها قامت بعقد اتفاق سلام مع الفونس الثالث عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، وتفرغت لقتال ابن حفصون في الجنوب .

**الملاحظة الخامسة :** هي ان الأوضاع الداخلية كانت تفرض على طرفي الصراع أحيانا عقد معاهدات الصلح وإقرار السلام . حدث هذا في عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، والأمير عبد الرحمن الأوسط ، والأمير عبد الله بن الأوسط . لكن لا تلبث دوافع الصراع أن تتحرك عند أحد الطرفين ، فينقض العهد فتتشب الحرب من جديد ، وغالبا كان النصارى هم الناقضون للعهد .

**اما الملاحظة الأخيرة :** فهي ان محصلة هذا الصراع كانت لمصلحة نصارى الشمال الأسباني . فقد أصبحت دولتهم تشمل كل ما يقع خلف نهر دوبره ، ونصف المنطقة التي تقع بين نهر أبره وجبال البرنات . ولو رسمنا خطا وهما للحدود بين الجانبين ، فانه سيكون على شكل نصف دائرة تبدأ من مصب نهر دويرة في غرب الأندلس ويمشى خط الحدود مع النهر شرقا حتى شمال مدينة سالم ، ثم يصعد شمالا ويمر جنوب مدينة قلهرة التي تقع جنوب منطقة البية والقلاع ، ثم يصعد شمالا ويخترق نهر أبره ويمر جنوب مدينة جاقة ثم يأخذ في الهبوط التدريجي مرورا بشمال مدن وشقة ولاردة حتى يستقر أخيرا عند نقطة على ساحل البحر المتوسط في منتصف المسافة بين برشلونة التي يسيطر عليها الفرنجة وبين طرطوشة آخر الثغور الاسلامية في هذه الناحية .

بعد هذه الملاحظات السريعة يمكننا أن نتحدث عن العلاقة بين أمراء بنى أمية وبين الممالك النصرانية في الشمال الأسباني كل على حدة.

## ١ - علاقة أمراء بني أمية بمملكة جليقية ( ليون ) :

بدأ عصر الإمارة في الأندلس بحكم عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل عام ١٣٨ هـ / ٧٥٦ م واستمر هذا الأمير يحكم مدة أربعة وثلاثين عاما ، وعاصر بذلك عهود أربعة من ملوك الجلائقة وهم فرويلا الذي بدأ حكمه عام ١٣٩ هـ / ٧٥٧ م ثم أوريليوس ( ١٥١ - ١٥٧ هـ ) وشيلون ( ١٥٧ - ١٦٦ هـ ) ومورقاط الذي انتهى حكمه عام ١٧٢ هـ / ٧٨٩ م ، وهى نفس السنة التى انتهى فيها حكم عبد الرحمن الداخل (٣١) .

ولم يكن الحكم مستقرا سواء في الأندلس أو في مملكة جليقية طوال هذه الفترة ، وذلك بسبب الفتن الداخلية وحركات التمرد والطمع في السلطة ، وادى ذلك الى استتباب السلام على الحدود بين جليقية والأندلس ، ولم يحدث ما يعكر صفو هذا السلام الا في الفترة من عام ١٤٦ هـ / ٧٦٤ م الى عام ١٥٠ هـ / م ثم في عام ١٦٤ هـ . وكان هذا مدعاة لقول بعض المؤرخين المحدثين بوجود اتفاقية هدنة مدتها خمس سنوات عقدت عام ١٤١ هـ / ٧٥٩ م بين « الأمير الأكرم المعظم عبد الرحمن الأول وبين البطارقة والرهبان وأهل قشتالة » ثم قولهم أيضا بوجود اتفاق بايقاف الأعمال العدوانية من الجانبين في المدة ١٤٨ - ١٧٣ هـ / ٧٦٨ - ٧٨٩ م ، لأن المصادر اللاتينية والعربية لم تتحدث عن اشتباك بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة ، وأخذ بعض الباحثين والمحدثين بالحديث عن شروط تلك الاتفاقات واستنتاج المترتبة عليها الى غير ذلك (٣٢) .

أما القول بوجود هدنة مدتها خمس سنوات في بداية حكم عبد الرحمن الداخل فقول يعوزه الدليل ، ولم تشر اليه المصادر

---

(٣١) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ،

ج ١ ، ص ٢١٤ ، ٢١٥ ،

(٣٢) حسن محمود ، تاريخ الغرب الاسلامي ، ص ٨١ ، السامرائي ، الثغر الأعلى ،

ص ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٧ .

النصرانية ولا العربية ، وكل ما هناك هو أن هذه الفترة كانت مملوءة بالفتن ، سواء في الأندلس حيث كان الداخل يواجه هرب عبد الرحمن الفهري وثورته في طليطلة وماردة ثم مقتله عام ١٤٢ هـ وثورة أبنائه من بعده ، ثم أن عبد الرحمن الداخل كان يعاني من سقوط أربونة في يد الفرنجة عام ١٤١ هـ / ٧٥٩ م وما تبع ذلك من نتائج (٣٣) .

أما جليقية فكان الحاكم هو فرويلا (١٣٩ - ١٥٠ هـ / ٧٥٧ - ٧٦٧ م) وكان هو الآخر يعاني من انتقاص الأشراف عليه حتى أن أخاه دبر مؤامرة ضده فقتله ، ولم يتركه الأشراف إلا بعد أن سقط فرويلا نفسه قتيلا ، لكنه قبل ذلك ببضع سنوات كان قد انتهز فرصة الثورة التي أعلنها العلاء بن مغيث اليحصبي ودعوته للعباسيين عام ١٤٦ هـ وقام بالاستيلاء على مدينة لك وبرتقال وسمورة وقشتالة وشقوبية وأخرج المسلمين منها وصارت تابعة للجلالة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر مرة ثانية (٣٤) .

وكان هذا هو اللقاء الأول بين الداخل ونصارى الشمال وكان من نتيجة ضياع هذه المعاقل الهامة واستيلاء النصارى عليها ، وقد حاول الداخل استرجاعها فأرسل حملة بقيادة مولاة بدر عام ١٥٠ هـ إلى البية التي تقع شرقي منطقة ليون ، فأذعن له وأدت إليه الجزية . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى شيء أكثر من هذا ، وظل الطرفان في سلام حتى عام ١٦٤ هـ (٣٥) .

---

(٣٣) ابن عذارى ، المصور نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ٨٥ السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين .

(٣٤) ابن خلدون ، المعبر ج ٤ ، ص ١٢٢ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٤ .  
المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، Murphy, op. cit, p. 84

(٣٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٠ ، ٨١ .

لكن المراجع النصرانية تشير الى نبا موقعة كبيرة وقعت بين المسلمين والنصارى في بونتومو من أعمال جليقية ، وتقول لنا أن عبد الرحمن الداخل ارسل في عام ١٥٥ هـ / ٧٧٣ م جيشا كبيرا الى الشمال بقيادة حاجبه عامر او تمام بن علقمة على ما يظهر ، فلقيه النصارى بقيادة فرويلا في بونتومو ، ونشبت بين الفريقين معركة هائلة هزم فيها المسلمون وقتل منهم عدد عظيم تقدره الرواية النصرانية بأربعة وخمسين ألفا ، واسر قائدهم . أورد هذه الرواية الأستاذ محمد عبد الله عنان واكتفى في نفيها بأن الرواية الاسلامية لم تشر الى موقعة بهذه الخطورة نشبت بين المسلمين والنصارى<sup>(٣٦)</sup> .

لقد نسي الأستاذ عنان أن الملك فرويلا نفسه كان قد مات ومُر على موته حوالي خمس سنوات . كما أن ظروف جليقية نفسها لم تك تسمح بهذا النصر العظيم الذي ادعاه مؤرخو النصارى ، فقد كانت الفترة مشتعلة في المملكة وكانت منقسمة منذ عام ١٥٠ هـ / ٧٥٧ م الى امارتين بين أوريليوس وشيلون ، ولم تعد اليها وحدتها الا عام ١٥٦ هـ / ٧٦٧ م وكانت ظروف الداخل نفسها لا تمكنه من القيام بأي نشاط حربي في تلك الفترة بسبب ذلك التمرد الذي قام به ذلك الدعي الفاطمي البربري شقيا بن عبد الواحد منذ عام ١٥١ الى عام ١٦١ هـ<sup>(٣٧)</sup> .

استمر السلام اذن بين الأندلس ونصارى الشمال من عام ١٥٠ هـ حتى أواخر عهد ملك جليقية المسمى شيلون (١٥٦-١٦٦ هـ / ٧٧٣-٧٨٣ م) حيث تم توقيع معاهدة الصلح بين الجانبين ، ربما في عام ١٦٥ هـ / ٧٨٢ م . وقد أجبرت الأوضاع الداخلية الطرفين على توقيع تلك المعاهدة ، فقد كانت هناك ثورات محلية في جليقية ضد شيلون ، وكان هناك هجوم شارلمان على سرقسطة عام ١٦١ هـ / ٧٧٨ م بسبب تمرد

(٣٦) محمد عبد الله عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، ج ١ ، ص ٢١٣ .

(٣٧) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ٧٨ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٢ ،

انظر الفصل الثاني ، الباب الأول .

حكام برشلونة وسرقسطه واستدعائهم له ، ثم استمراهم في التمرد والعصيان ضد عبد الرحمن الداخل بعد فشل حملة ثرلمان ، مما اجبر الداخل على أن يزحف بنفسه على سرقسطة عام ١٦٤ هـ / ٧٨١ م . فارتدع هؤلاء وصالحوه ، فسار الداخل الى ببلونة عاصمة نبرة ودخل قلهرة وبلاد البشكنس ، ثم عاد الى قرطبة محملا بالغنائم والأسلاب (٣٨) .

كان هذا هو اللقاء الثاني بين الداخل وبين نصارى الشمال ، ولم يكن هناك اتفاق سلام واستمر واحدا وعشرين عاما كما قال البعض ، بل أن الأوضاع الداخلية هي التي اجبرت الطرفين على العيش في سلام ، ولم يكن هناك اتفاق سلام الا في عام ١٦٥ هـ / ٧٨٦ م فقط قرب نهاية عهد الملك شيلون الذي أخافته حملة الداخل على ببلونة في العام السابق ، وبعد ذلك انقسمت مملكة الجلائقة مرة أخرى بعد موت شيلون وفي بداية عهد خليفته مورقاط ( ١٦٦ - ١٧٢ هـ / ٧٨٣ - ٧٨٩ م ) الذي حكم جليقية بينما الفونس المطالب بالعرش تركز في الجزء الشرقي من الدولة في نبرة وحكم هناك واستعان بالفرنجة ، فاستعان مورقاط ضده بالمسلمين الذين يمتون اليه بصلة القرابة ، اذ كانت أمه جارية عربية (٣٩) .

وفي الوقت نفسه كان الداخل يواجه عودة حسين الأنصاري حاكم سرقسطة الى التمرد ، وكان الداخل قد أبرم معاهدة السلام مع نصارى الشمال ، فسار اليه وقتله عام ١٦٧ هـ / ٧٨٣ م ، وقضى الداخل بقية مدة حكمه في مصارعة أبناء يوسف الفهري الذين كانوا قد اعلنوا الثورة ضده في قسطلونة وطليلة عام ١٦٨ ، ١٦٩ ، وظل يحاربهم حتى قتلهم عام ١٩٧٠ هـ ، وتوفي الداخل نفسه بعد ذلك في عام ١٧٢ هـ ( ٧٨٨ م ) (٤٠) .

(٣٨) العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص ١١ ، مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١١٤ ،

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ ، Dozy, op, cit, pp. 204 - 206

(٣٩) أنظر ، للفصل الثاني ، من الباب الأول ، ص

(٤٠) العذري ، نصوص عن الأندلس ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ،

ص ١٢٤ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ .

تولى الإمارة بعد الداخل ابنه هشام ( ١٧٢ - ١٨٠ هـ / ٧٨٨ - ٧٩٦ م )  
كما تولى الملك في جليقية الملك برمند ( ١٧٢ - ١٧٥ هـ / ٧٨٩ - ٧٩١ م )  
ومن بعده الفونش الثانى ( ١٧٥ - ٢٢٧ هـ / ٧٩١ - ٨٤٢ م ) ولم تكن  
أحوال الدولتين في عهد هشام وبرمند تسمح باستئناف الصراع . ذلك  
أن هشام كان يواجه تمرد أخويه عبد الله وسليمان ، ذلك التمرد الذى  
انتهى عام ١٧٥ هـ . كما انتهى في نفس العام تمرد حكام سرقسطة بعد  
قتل عاملها مطروح بن سليمان بن يقظان ، بعد أن أرسل هشام حملة  
اليه بقيادة قائده أبى عثمان عبيد الله بن عثمان<sup>(٤١)</sup> .

وكان هناك انقسام في البيت المالكي في جليقية ، إذ استقل برمند  
بالجزء الغربى من المملكة بتأييد الأشراف ، واستقل الفونش بالجزء  
الشرقى ، لكنها تصالحا بعد أن اتضحت نية الأمير هشام في غزو الشمال  
النصرانى ، ولم يلبث برمند ( برمودو ) أن مات وتولى الفونش العرش  
مكانه وعادت الوحدة الى المملكة مرة أخرى .

وبعد أن استتبت الأحوال للأمير هشام تفرغ لقتال أعداء البلاد  
من النصرانى والفرنج لا سيما وأنه قد مضى ما يقرب من عشر سنوات  
لم يحدث أى لقاء بين الجانبين منذ حملة الداخل عام ١٦٥ هـ على  
الشمال النصرانى ، حتى سرت الأقوال بأن المسلمين لا يقدرون الا على  
قتال بعضهم البعض ، وأفتى بعض الفقهاء بأنه لا يجب دفع الخراج  
لأمراء لا يعرفون الا قتال مواطنيهم من المسلمين فقط . لذلك وضع الأمير  
هشام نصب عينيه أن يزيل هذا الاتهام الخطير باستئناف الجهاد ليس  
في الشمال النصرانى وحده ، ولكن في أرض الغال أيضا<sup>(٤٢)</sup> .

وقد تكتلت ضده قوى الشمال النصرانية من جلالقة ونافارين ، لذلك  
كان الأمير هشام يرسل جيوشين في وقت واحد ، أحدهما لقتال النافارين

(٤١) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ١١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤ .

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

(٤٢) رينزو ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا ، ص ١٢٦ .

والثاني لقتال الجلائقة . وكان يحدث ان يلتقى الجيشان بعد ان يفرغ أحدهما من معاركه ، وتعود الجيوش رافعة أعلام النصر الى قرطبة .

حدث هذا في أول معركة بين جيوش هشام ونصارى الشمال ، فقد أرسل في عام ١٧٥ هـ / ٧٩١ م جيشا بقيادة أبى عثمان عبيد الله بن عثمان قضى على الثورة في سرقسطة كما ذكرنا ثم زحف على البة والقلاع ، وتمكن من هزيمة أهل نبرة وقتل منهم تسعة آلاف .

وفي نفس العام أرسل هشام جيشا آخر بقيادة يوسف بن بخت الفارسي عن طريق الثغر الأوسط الى جليقية والتقى بالملك برمند على نهر بوربيا Burbia فهزمه جيش يوسف وقتل من جند برمند عشرة آلاف . وعلى أثر ذلك تنازل برمند عن العرش لألفونش الثاني ولجأ الى الاعتزال بأحد الأديرة كما كان شأنه قبل تولى العرش<sup>(٤٣)</sup> .

بدأ الصراع بعد ذلك بين هشام وبين الفونش الثاني عقب تولى هذا الملك عرش جليقية وأشتريس . وكان اللقاء الأول بينهما عام ١٧٦ هـ حيث أرسل هشام جيشا بقيادة عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث وصل الى منطقة البة والقلاع وائخض في العدو وعاد الى قرطبة غانما . ثم كان الزحف الكبير الى بلاد الفرنجة عام ١٧٧ هـ / ٧٩٣ م ، وكان بقيادة القائد السابق الذى استطاع ان يعبر جبال اليرنات من ناحية قطلونية وأن يخرب جيرندة وأن يهدم سورها ، ثم يزحف على أريونة قاعدة الثغر الاسلامى القديم في سبتمانية في أرض الفرنجة . وكان الفرنجة قد استردوها عام ١٤١ هـ / ٧٥٨ م<sup>(٤٤)</sup> .

(٤٣) للرازي برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص ٢١ .

(٤٤) ابن الأثير الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٨ ، المقري ، نفع الطيب ، ج ١ ص ١٥٨ .



وتخلط الروايات العربية القديمة والحديثة في استسلام مدينة أربونة لجيش عبد الملك بن عبد الواحد من عدمه ، فبعضها يقول أن هذا القائد استطاع أن يفتحها وكان الفتح عظيما حتى بلغ خمس السبى خمسة وأربعين الفا من الذهب العين ، كما أن ذلك القائد بلغ من تحكمه أن اشترط على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب من سور أربونة حتى قرطبة للمساهمة في بناء مسجد هناك<sup>(٤٥)</sup> .

لكن الأستاذ عنان يورد رواية نصرانية تنكر استيلاء المسلمين على أربونة ، ويقول آخرون بأنهم لم يستولوا حتى على جرندة ، ويبدو أن هذا هو الرأي الصحيح ، لأن الروايات العربية لا تتطعن بفتحها إلا عند اثنين هما المقرئ وابن فضل الله العمري ، وهما من الرواة المتأخرين ، أما الرواة الأقرب للأحداث فلا يقولون إلا أن المسلمين غنموا وبلغ السبى كذا ، وحطموا الأسوار إلى آخر تلك العبارات التي يوردها دليلا على قوة جيش المسلمين<sup>(٤٦)</sup> .

ومما يؤيد الشك في الاستيلاء على أربونة قول ابن فضل الله العمري نفسه أن المسلمين اشترطوا على المعاهدين من أهل جليقية نقل عدد من أحمال التراب إلى قرطبة اذلالا لهم . وهذا شرط فيها يبدو غير صحيح فأين أهل جليقية الذين يعيشون في قاصية الأندلس في الشمال الغربي ، من أربونة التي تبعد عنها آلاف الأميال وتقع في إقليم سبتمانيا شمالي جبال البرنات بمسافة كبيرة .

ربما كان هذا الشرط على أهل أربونة أو بالأصح على الأسرى من أهل أربونة الذين أذلهم المسلمون بأن جعلوهم ينقلون هذا العدد من

---

(٤٥) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ، ج ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٣١١ ، القرى نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٤٦) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٤٨ ، عنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

أحمال التراب الى قرطبة ، فهذا هو المعقول ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن المسلمين غنموا كثيرا من السبى الذى بلغ خمس قيمته خمسة وأربعين ألفا من الذهب العين . وبديهي أن هذا السبى هو الذى قام بحمل هذا التراب الى قرطبة . وعاد المسلمون من هناك بعد الاستيلاء على تلك الغنائم الوفيرة ، ولو بقى المسلمون فى أربونة وجرندة عقب هذه الفزوة لما تمكن شلمان من الاستيلاء على برشلونة بعد ذلك بعدة سنوات فى عام ١٨٥ هـ بمنتهى السهولة<sup>(٤٧)</sup> .

وقد عاد الأمير هشام الى اتباع أسلوب ارسال جيشين فى وقت واحد ، ففى عام ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م سير جيشا بقيادة عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث الى البلة والقلاع ، فأدى مهمته بنجاح وعاد الجيش محملا بالغنائم والأسلاب . أما الجيش الثانى فكان بقيادة أخيه عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، وكانت وجهته جليقية ، ونجح هذا القائد فى هزيمة الملك الفونش وخرب دار مملكته ( أوفيدو ) التى كان قد انتقل إليها والتى يسميها المسلمون ( أبيط ) ، لكن الجيش ضل الطريق أثناء العودة « فنالتهم مشقة شديدة ومات منهم بشر كثير ونفقت دوابهم وتلفت آلانهم ثم سلموا وعادوا »<sup>(٤٨)</sup> .

ويبدو أن كميننا للنصارى تعرض لهذا الجيش عند عودته ، ونال النصارى منه بعض الشيء ، وعاد الجيش بعد أن فقد بعض رجاله ، وكان لذلك رد فعل عند المسلمين . فلم يأت عام ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م حتى قام عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث بهجوم عنيف ضد جليقية ودخل أسترقة ، فاستنجد الفونش الثانى بأمرأى نبرة وغيرهم من سكان تلك النواحي وتقهر الى مكان بين الصخرة وجليقية فى أقصى الشمال على ساحل خليج بسكاية ، فأمر عبد الكريم أحد قواده وهو فرج بن كنانة باقتفاء أثره فى أربعة آلاف فارس<sup>(٤٩)</sup> .

(٤٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٥ .

(٤٨) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

(٤٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

نجح هذا القائد في القضاء على فرقة مسيحية مكونة من ثلاثة آلاف فارس ، وأسر قائدها المسمى غدشارة ، وتقدم عبد الكريم وطارد الفونش من حصن الى حصن ، وأخرج وراءه فرج بن كنانة هذه المرة في عشرة آلاف فارس ، فهزم الفونش الذي أسلم جميع معاداته ونذائره وفر هاربا . وبذلك حقق الأمير هشام نصرا كبيرا على الفونش، لكن العمر لم يطل بهشام ، اذ انه توفي في العام التالي « ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م » (٥٠) .

كان الأمير هشام تقيا ورعا ، خيرا فاضلا ، محبا للجهاد ، محصنا لشغوره وفيما لجنده ، حتى انه كان يلحق أبناء الشهداء منهم في الديوان ويجعل لهم رزقا ، وبلغ من قوة الدولة في عهده ، أنه لم يكن هناك أسير مسلم واحد في بلاد النصرى ، وبالغ الناس في ذكر مناقبه حتى قالوا بأنه كان يشبه في سيرته عمر بن عبد العزيز رحمهم الله جميعا (٥١) .

تولى الحكم بعد وفاة هشام ابنه الأمير الحكم الأول المعروف بالربضى (١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٢ م) وكان معاصرا للملك الفونش الثاني ملك جليقية وأشتريس . وقد عنف الصراع بين هذين الرجلين ، حتى اضطر الفونش أن يتحالف مع البشكنس وفرنج أكتيانيا لمواجهة الارادة الصلبة التى أبداهها الأمير الحكم تجاه القضاء على أعدائه في الداخل والخارج .

وفي حين كانت الامور مستتبّة لألفونش في الشمال النصرانى ، كانت الثورات متلاحقة في الأندلس ضد الأمير الحكم . فقد واجه ثورة عميه عبد الله وسليمان وقضى عليهما عام ١٨٦ هـ ، ثم مؤامرة قامت ضده عام ١٨٩ هـ وقضى عليها أيضا ، ثم ثورة البربر في ماردة لمدة سبع سنوات

---

(٥٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن الخطيب ، أعمال

الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٢ .

(٥١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٣٥٨ ، مجهول ، أخبار مجموعة ،

ص ١٢٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٣ .

من ١٩٠ الى ١٩٧ هـ وقضى عليها . ثم أخيرا ثورة أهل الريف في قرطبة عام ٢٠٣ هـ . كل ذلك أشرنا اليه في حديثنا عن أحوال الأندلس (٥٢) .

وما يعيننا الآن هو أن الفرنج قد انتهزوا فرصة ثورة عمى (الحكم) وتحالفوا مع الفونس الثاني ليضمنوا ولاء البشكنس ومعاونتهم ، ثم زحف لويس أمير اكتيانيا وابن الامبراطور شارلمان على برشلونة عام ١١٨٥هـ / ٨٠١ م واستولى عليها بعد حصار دام سبعة أشهر ، واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة للثغر القوطى الذى نما فيها بعد وغدا إمارة نصرانية قوية هى إمارة قطلونية ، وخسر الاسلام بذلك أمنع ثغوره فى قاصية اسبانيا ، وارتدت حدود الأندلس الى الثغر الأعلى بعد أن كانت تجاوز جبال البرنات . (٥٣) .

ويشير بعض المؤرخين الى هزيمة لجيوش الأمير الحكم عقب سقوط برشلونة ، لكن الهزيمة كانت ليوسف بن عمروس عامل تطيلة من قبل والده عمروس بن يوسف زعيم أسرة بنى عمروس المولدين بالثغر والذين استعان بهم ( الحكم ) مرارا فى القضاء على ثورة العرب فى سرقسطة والمولدين فى طليطلة . وكان الفرنج قد وصلوا الى تطيلة واسروا يوسف ابن عمروس وسجنوه بصخرة قيس ، لكن والده أرسل أحد أقربائه على رأس جيش تمكن من انتقاذه بعد هزيمة الفرنج (٥٤) .

---

(٥٢) للرازى ، برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

(٥٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٥٣ ، أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٦ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٥ ، كارل بروكلمان ، المرجع نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(٥٤) المعزى ، نصوص عن الأندلس ، ص ٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ٨٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٦ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ .

وانتهز الفرنج فرصة انشغال الحكم في القضاء على مؤامرة ١٨٩ هـ،  
وثورة ماردة في نفس العام ، وأغار لويس التقي على الثغر الأعلى حتى  
وصل الى طرطوشة عام ١٩٣هـ/٨٠٨م فأرسل الحكم ابنه عبد الرحمن  
على رأس جيش كبير ، وصل الى الثغر وانضمت اليه قوات عمروس  
وعبدون ، عمال الثغر هناك ، وتمكنوا من دحر قوات لويس وانقاذ  
طرطوشة . (٥٥)

ومن ناحية أخرى فقد قام الفونش الثاني وعبر نهر دويره بقواته  
عام ١٩٣هـ/٨١٠م وغزا الاراضي الاسلامية ، وتوغل في سيره حتى قلمرية  
واشبونة في غرب الأندلس ، فرد عليه الامير الحكم في العام التالي (١٩٤هـ/  
٨٠٩م) وزحف عن طريق مدينة الفرج ( وادي الحجارة ) وهزم جيوش  
الفونش ، وأسر الكثير واستبدلهم بأسرى المسلمين . وقد عاد الحكم  
بجيشه لفك أسر امرأة كانت قد أسرها النصارى وقالت « وا غوثاه ياحكم،  
لقد ضيعتنا » مما دفع بالحكم لكي يقود الجيش بنفسه وينقذ تلك  
المرأة من الأسر ، ويعاقب هؤلاء النصارى على افسادهم في منطقة الثغور  
هناك . (٥٦)

وقد حاول الأمير الحكم أن يسترجع برشلونة ، فأرسل عمه  
عبد الله البلبنسى عام ١٩٩هـ/٨١٥م في جيش الى هناك ، ورغم أن عبد الله  
نجح في هزيمة حامية المدينة وقتل الكثير من جنودها ، إلا أنه لم يتمكن من  
دخولها وعاد الى قرطبة ، وشعر الفرنج كما شعر المسلمون بعقم هذه  
الحملة المخيبة ، وآثر الفريقان التفاهم والمهادنة ، وعقد السلم بذلك  
بين شارلمان والحكم واستمر معقودا حتى وفاة شارلمان بعد ذلك  
بأعوام قلائل في سنة ١٩٨هـ/٨١٤م . (٥٧)

(٥٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ .

(٥٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ابن الأثير ، الكامل ،

ج ٦ ، ص ٨٥ .

(٥٧) عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

لكه كان لحمة عبد الله البنسى رد فعل عند نصارى جليقية ، اذ احس الفونش بأن الصائفة المقبلة سوف تتجه الى اراضيه ، خاصة وأن ( الحكم ) كان قد انتهى من تمرد البربر في ماردة عام ١٩٧هـ / ٨١٢م ، « فكتاب الفونش جميع ملوك تلك النواحي مستنصرين بهم فاجتمعت اليه النصرانية من كل صوب » (٥٨)

وكان عبد الكريم بن مغيث قد وصل بقواته الى وادي نهر ارون بعد أن دمر في طريقه جميع ماوجده ، وأصبحت قوات الجانبين لايفصلها الا النهر ، وسعى كل طرف الى لقاء الآخر عبر النهر ، وتحاربوا حتى تكسرت السيوف ولجأوا للقذف بالحجارة ، الا أن كثرة الأمطار ونفاد المؤن عند قوات الفونش الثانى ، وضيق الحال بالمسلمين ، جعل توقف القتال أمرا لا مناص منه ، وعاد عبد الملك بجيشه الى قرطبة . (٥٩)

ولم يمض كثير حتى انشغل الأمير الحكم بثورة أصل الرضى فى قرطبة عام ٢٠٣هـ / ٨١٨م ، ثم توفى بعد ذلك بقليل ، وتولى ابنه عبد الرحمن الثانى المعروف بالأوسط حكم البلاد (٢٠٦-٢٣٨هـ / ٨٢٠-٨٥٢م) . وفى عهد هذا الأمير كانت امارة نبرة قد استقلت عن مملكة جليقية وأشتريس . وبدأت تظهر فيها الأسرة المالكة الجديدة ، كذلك ظهرت امارة قطلونية بعد استيلاء الفرنج على برشلونة فى عهد الحكم عام ١٨٥ هـ . ولذلك سوف نقصر حديثنا منذ الآن عن مملكة جليقية فقط . وبعدها نفصل القول عن علاقة نبرة بقرطبة وكذلك قطلونية .

كانت الامارة فى عهد عبد الرحمن الأوسط لاتزال قوية ، فقد واجه ثورات عديدة داخل الدولة ، قضى عليها ، وتفرغ للصراع مع جيرانه من

---

(٥٨) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢ .

(٥٩) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١١٧ ، ١١٨ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ٢٢٧ .

نصارى الشمال الأسباني . وقد افتتح عهده بالقيام بغزوة تعرف بغزاة البسة والقلاع عام ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م . وفيها قاد عبد الكريم بن عبد الواحد ابن مغيث جيش الأمير ، ووصل الى الثغر الأعلى ، ثم دخل جليقية من باب البسة Alava من فج يقال له فج جرنيق Guernica الواقع بين سيرا دى انثيا Sierra de Encia وجبال اتوريل Iturrieta واستولى عبد الكريم على كثير من ذخائر العدو ومؤنه ومعداته وخرب المدن والقرى التى مر بها ، مما أجبر أهل تلك الناحية على مصالحة المسلمين وعلى دفع الجزية واطلاق أسراهم . (٦٠)

وكان هذا مدعاة لأن يظن بعض المؤرخين المحدثين أن صلحا تم بين الفونش الثانى ملك جليقية ، وبين عبد الرحمن الأوسط فى ذلك الوقت عام ٢٠٨ هـ ، مدللين على ذلك بأن الاشتباك قد توقف بين الطرفين ولم يستأنف الا عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٨ م . والواقع أن الحرب استمرت بعد ذلك حتى عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م ولم يوقفها الا ظروف عبد الرحمن نفسه ، فقد ثارت ضده ماردة . (٢١٣-٢١٨ هـ) وطليلة (٢١٩-٢٢٢ هـ) . (٦١)

ولم يكن هذا الصلح بسبب اغارة الفونش على مدينة سالم ، او بسبب قيام المسلمين بتلك الغزوة عام ٢٠٨ هـ التى خربوا فيها مدينة ليون — كما قال البعض ، لأن تخريب المسلمين لتلك المدينة لم يكن الا فى غزوة عام ٢٣١ هـ / ٨٤٦ م ولم تكن اغارة الفونش الثانى على مدينة سالم الا عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م . وربما اتى هذا الصلح بعد عام ٢١١ هـ ، ذلك أن المسلمين قاموا بعدة حملات متعاقبة بعد عام ٢٠٨ هـ ، منها حملة عبد الله البلنسى عام ٢١٠ هـ / ٨٢٥ م ضد أشتريس ، وحملة العباس ابن عبد الله القرشى ضد جليقية فى نفس العام أيضا والتى توغلت حتى

(٦٠) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ .

ص ١٢٨ ، المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٦١) عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

بازو ، كذلك غزا البلنسى جليقية والقلاع أيضا عام ٢١١ هـ / ٨٢٦ م .  
وبعد ذلك لم نعد نسمع عن حملات متبادلة بين عبد الرحمن والفونش  
حتى عام ٢٢٣ هـ (٦٢)

في ذلك العام كان عبد الرحمن الأوسط قد فرغ من ثورة ماردة  
وطليطلة وتفرغ لاستئناف الصراع مع جليقية ، فأرسل حملات متتالية ،  
وأجدة بقيادة أخيه الوليد عام ٢٢٣ هـ / ٨٣٧ م دخلت جليقية من جهة الغرب ،  
وأخرى عام ٢٢٤ هـ / ٨٣٩ م بقيادة ابنه الحكم وعم أبيه عبد الله البلنسى  
وهزمت قوات الفونش ، مما جعله يغير على مدينة سالم . فسار إليه فرتون  
ابن موسى وهزمه وهدم الحصن الذي كان قد بناه أهل البية هناك (٦٣)

ورأى الأمير عبد الرحمن أن يقود الجيش بنفسه الى جليقية عام  
٢٢٥ هـ / ٨٤٠ م ، ففتح حصونها ، لكن غزاته طالت وتعب كثيرا ، مما أدى  
الى أن يعتقد البعض من المؤرخين المحدثين الى أن الأمير لم يلق في  
غزواته تلك نجاحا وأنها أثبتت عدم مقدرة الأمير من الناحية العسكرية ،  
وأنه لم يعد يكثر من الخروج للغزو بنفسه ، وأن خروج المسلمين الى  
بلاد جليقية أخذ يقل منذ ذلك الحين (٦٤) .

لم يخرج الأمير بنفسه فعلا في غزاة ضد جليقية بعد ذلك ، وإنما  
خرج بنفسه في غزوتين ضد نبرة في عامي ٢٢٨ هـ ، ٢٢٩ هـ . وكان الموقف  
في جليقية في ذلك الوقت لا يستدعي خروج المسلمين للغزو ، فقد توفي  
الفونش الثاني عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م وتولى بعده ردمير ( راميرو ) الأول بعد

---

(٦٢) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،  
ص ١٨ ، ج ٧ ، ص ٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، المقرئ ، نفع  
الطبيب ، ج ١ ، ص ١٦١ ، ١٦٢ ،  
Murphy, op. cit. pp. 91, 92.

(٦٣) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،  
ص ١٨٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٢ ، ص ١٢٩ ، المقرئ ، نفع الطبيب ، ج ١ ، ص ١٦١ .

(٦٤) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٠ .



ثورة قام بها الأشراف ضده ، ثم توالى ثوراتهم ضده أيضا فى عامى ٢٣٠هـ/٨٤٥م ، ٢٢٣ هـ — ٨٤٨ م / وتوفى هو نفسه عام ٢٣٥هـ—٨٥٠م . ولذلك كانت جليقية مشغولة بأحداثها الداخلية ، ولم يحدث منها ما يعكر الصفو ، وقد قلنا ان سياسة المسلمين كانت دفاعية فى المقام الأول<sup>(٦٥)</sup> .

ورغم ذلك فقد انتهز المسلمون فرصة الاضطراب الذى أصاب جليقية ، وأرسل الأمير عبد الرحمن ابنه محمدا فى عام ٢٣١ هـ ٨٤٦ م على رأس جيش وصل الى مدينة ليون وضربها بالمنجنيق ، وهرب أهلها الى الجبال ، وأحرق المسلمون ما فيها ، وأرادوا هدم سورها ، لكنهم لم يتمكنوا من ذلك لسمكه الكبير ، فعادوا الى قرطبة بعد أن أمعنوا فى الجلالة قتلا وسبيا ، وبعد ذلك بأربع سنوات أرسل عبد الرحمن ابنه المنذر على رأس حملة أخرى الى جليقية عن طريق البشة ، فغنم المسلمون وعادوا حيث سمعوا بوفاة الملك رديمير الأول ملك جليقية فى نفس العام .<sup>(٦٦)</sup>

توفى الأمير عبد الرحمن بعد ذلك بقليل وتولى ابنه الأمير محمد حكم البلاد ( ٢٢٨—٢٧٣هـ / ٨٥٣ — ٨٨٦ م ) ، وكان معاصرا له من ملوك جليقية أردون الاول ( ٢٣٥—٢٥١ هـ / ٨٥٠—٨٦٦ م ) والفونش الثالث ( ٢٥٢—٢٩٦هـ / ٨٦٦—٩١٠م ) . وقد بدأ الأمير محمد حكمه بإرسال حملتين عام ٢٣٩ هـ / ٨٥٣م ، أحدهما بقيادة أخيه الحكم بن عبد الرحمن لإصلاح قلعة رباح ، والثانية بقيادة موسى بن موسى بن قنسى عامل الثغر الأعلى الى ألبه والقلاع ، حيث أفلح فى فتح بعض الحصون . وكانت الثورة قد اندلعت فى طليطلة ، قام بها المتمردون من المولدين والنصارى واستعانوا فى ذلك بالملك أردون الأول ملك جليقية الذى بعث اليهم أخاه

(٦٥) المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٦٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١٨ .

فاتون عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، فقاد الأمير محمد الجيش بنفسه ، واستطاع ان يهزم الحلفاء في وادي سليط جنوبى طليطلة ، وقتل منهم عشرين الفا (٦٧)

وشغل الأمير محمد بعد ذلك بظهور النورمان الذين أغاروا على جليقية والأندلس عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، كما شغله أيضا ظهور قوة نبرة وتحالفها مع أمراء بنى قسى الذين عادوا الى التمرد وطلبوا من الأمير محمد الا تكون حملاته ضد جليقية عن طريق اراضيهم ، لما نالهم من النصب بسبب ذلك . (٦٨)

وتتابعت حملات الأمير محمد على جليقية في أعوام ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ هـ ، وهزم قوات أردون أكثر من مرة ، وعاقبه لمهاجمته الثغر الاعلى عام ٢٤٨ هـ وقضائه على قوات موسى بن موسى بن فرتون القسوى ، الذى مات بعد ذلك متأثرا بجراحه ، وأعلن ابنه ( لب ) خضوعه لأردون وتحالف معه ضد المسلمين ، واستطاع الأمير محمد رغم فتنة النصارى فى قرطبة أن يعاقب أردون وأن يطارد قواته حتى وادى نهر ابره ، وأن يهزمها هزيمة شديدة ، وأن يستولى على بعض حصونه مثل حصن جرنيق ، وأن يقتل فى احدى هذه الغزوات عشرين الفا من قوات أردون ، مما هدد من قوة النصارى وأضعف شوكتهم ، فركنوا الى الهدوء والسكينة (٦٩) .

توفى أردون عقب ذلك وتولى العرش ابنه الفونش الثالث ( ٢٥٢ — ٢٩٦ هـ / ٨٦٦ — ٩١٠ م ) . وقد واجه هذا الملك فى بداية حكمه ثورة اقاربه وأخوته ضده عدة مرات ، حتى تمكن أخيرا من القبض

---

(٦٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

(٦٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

(٦٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٧ — ١٤٩ ، ابن الأثير ج ٧ ، ص ٤٣ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٥ .

على اخوته وسمل عيونهم . وكان الأمير محمد مشغولا في نفس الوقت بقمع فتنة النصارى المعاهدين في قرطبة الذين قاموا بحركة الاستشهاد واتصلوا بالنصارى في طليطلة وماردة وغيرها لاعلان الثورة على بنى امية . ولذلك لا نسمع عن حملات عسكرية قامت بها الامارة الأموية لمدة خمسة عشر عاما<sup>(٧٠)</sup> .

وفي خلال هذه المدة كان الفونش الثالث يشجع الثورة الداخلية ضد قرطبة ، اذ كان يمد يد العون لعبد الرحمن بن مروان الجليقى الذى أعلن الثورة باسم المولدين في ماردة وتحالف مع الفونش الثالث . فأرسل اليه الأمير محمد جيشا بقيادة ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز ، تمكن الجليقى بمساعدة قوات الفونش من أسر هاشم وأرسله الى ليون . وبعد فك أسره ، أرسله الأمير محمد في حملة انتقامية الى ماردة ، لكن الجليقى هدهم بحرق بطليوس اذا تجاوزت قواتهم مدينة لبلة Liebla . فعاد هاشم من حيث أتى<sup>(٧١)</sup> .

وقد فكر الأمير محمد في القضاء على مملكة جليقية بإرسال حملة بحرية عام ٢٦٦ هـ / ٨٨٠ م بقيادة قائد الأسطول عبد الحميد بن مغيث ، وبعد أن صنع السفن وأرسلها حتى وصلت قرب جليقية من ناحية البحر المحيط ( المحيط الأطلسي ) هبت عليها عاصفة فحطمت معظمها ولم يعد منها الا القليل<sup>(٧٢)</sup> .

ورد الفونش الثالث على ذلك بأن قام في العام الثانى ( ٢٦٧ هـ / ٨٨١ م ) بغزو أراضى المسلمين ، وعبر نهر دويره والتجأه ، ووصل

---

(٧٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٢ - ١٤٥ ، ١٦٦ - ١٦٩ .

(٧١)

ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١١٠ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(٧٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ،

ص ١١٩ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣١ رقم ٤ .

في زحفه حتى أحواز ماردة ووادي آنة ، وهو مدى لم يبلغه أحد من أسلافه . وازاء ذلك أرسل الأمير محمد ابنه المنذر وقائده هاشم بن عبد العزيز في حملة الى الثغر الأعلى ثم الى جليقية فافتتح حصن روطه ، وحصونا كثيرة في منطقة البة والقلاع ، وتآهب الفونش الثالث للقائهم ، وجرت المفاوضات التي انتهت بالهدنة (٧٣) .

وقام الأمير محمد ببناء عدد من الحصون على طول الخط الممتد من سرقسطة حتى طليطلة ليمنع تقدم قوات النصارى من هذه الناحية ، فبنى حصن أشتريس لحماية مدينة سالم ، وحصون طلمنكة ومجريط وفراطة لحماية أهل طليطلة ، وحصون قنالش Canales ، ودلموش Olmos وقلعة الحلفاء Salatalifa على سفوح جبال وادي الرمل الجنوبية (٧٤) .

وكان نصارى جليقية أيضا قد بنوا أربع مدن حصينة بعد أن دفعوا حدودهم بعيدا حتى نهر الدويرة في النصف الثاني من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وهى مدن سمورة Zamora وسمينقة Simancas ، وسان أشتيان San Steven de Gormaz وأوسمة Osma . وقد شكلت هذه المدن حدا قويا ضد المسلمين ، ولذلك فكر الطرفان في السلام ، خاصة بعد أن اندلعت الثورات القبلية في الأندلس الاسلامية ، وتحالف بنو قسى المولدون مع الفونش الثالث (٧٥) .

لذلك أرسل الأمير محمد ابنه المنذر عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م مع جيش بقيادة هاشم بن عبد العزيز ، استولى على سرقسطة واخترق ألبه لمقاتلة الفونش ، لكن المفاوضات جرت وانتهت بعقد الهدنة ، وأرسل الفونش القس ( دولشديو ) سفيرا الى قرطبة لوضع قواعد الصلح مع أمير الأندلس ، ونجحت المفاوضات وعاد السفير الى أفيدو عاصمة

---

(٧٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ ، عنان ، المرجع نفسه ،

ع ١ ، ج ٣ ، ص ١٧ ، ٦٤ .

(٧٤) محمود على مكى ، مدريد العربية ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٧٥) الرازى برواية بن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٠٩ ،

ليون ( جليقية ) ، وتفرغ الفونش لعلاج مشاكل دولته الداخلية ، وكانت الأزمات والقتال السياسية والاجتماعية تتعاقب هناك لبواعث تتعلق بنظم المجتمع النصراني نفسه<sup>(٧٦)</sup> .

ويبدو أن السلام قد استتب بين أمراء بنى أمية بعد وفاة الأمير محمد وبين الفونش الثالث ، وذلك بسبب الأوضاع الداخلية في كل من البلدين ، الأندلس وجليقية . وكان أمراء بنى أمية في خطر داهم بسبب كثرة الثورات والفتن وخاصة ثورة عمر بن حفصون كبير الثوار وأخطرهم ، والذي كان يقود الثورة في الجنوب ، كما كان بنو قسى وبنو الطويل المولدون وبنو تجيب العرب قد استقلوا بالثغر الأعلى وتنازعوا فيما بينهم ، واستعان بعضهم على بعض بملوك نبرة وملوك جليقية . هذا بالإضافة الى الثورات الأخرى التي أشرنا إليها في الفصل الأول من هذا الباب<sup>(٧٧)</sup> .

لذلك فإن قرطبة لم ترسل حملات الى الشمال ، وقام قواد الثغور بتلك المهمة خير قيام . فقام محمد بن لب بن موسى القسوى في أول سنة من حكم الأمير المنذر ( ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م ) بمهاجمة البة والقلاع وفتح بعض حصونها . وبعد أن قتل محمد بن لب هذا أمام أسوار سرقسطة عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ، بسبب محاولته الاستيلاء عليها من يد بنى تجيب ، انتهب الفونش الثالث الفرصة وحشد نصارى جليقية والبلة والقلاع وبمبلونة ، وخرج للاغارة على الثغر الأعلى . لكن لب بن محمد بن لب الذي خلف أباه على تطيلة وطرسونة ، استطاع أن يدحر قوات الفونش عند طرسونة عام ٢٨٥ هـ / ٨٩٨ م ، وأن يقتل منها ستة آلاف ، وينقذ جميع السبى الذين كانوا موجودين بها<sup>(٧٨)</sup> .

---

(٧٦) غنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢ ، ١٨ ، كارل بروكلمان ، المرجع

نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٩ .

(٧٧) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ٩٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،

ج ٣ ، ص ١٥٧ - ١٥٩ ، ١٧٥ - ١٧٨ .

(٧٨) للرازي برواية ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، للعزري ، المصدر

نفسه ، ص ٣٧ .

وفي منطقة الثغر الأوسط استطاع الفونش الثالث أن يعيد بناء سمورة عام ٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م ، وأن يحصنها تحصينا قويا ويسكنها النصاري ، واتخذها قاعدة للاغارة منها على الأراضي الإسلامية المجاورة ، واشتد احساس تلك المنطقة بالخطر وقالوا « قد كان اذاهم — اذى النصارى — وطروقتهم أرضنا من ليون كالمتوالى عندنا فكيف يكون من سمورة ، وقد اقتربوا منا ودبروا كيدنا ، فأصابوا مقتلنا .. مع اشتغال أهل الثغر بالخلاف حتى انقطع الجهاد وكرت الجاهلية ، وصار أهل كل بلد من الثغور وما جاورها مضطرة الى مسالة المشركين وملاطفاتهم ، لما بينهم وبين جيرانهم من داء الفتنة » (٧٩) .

لذلك ما أن دعاهم أحد الثوار الى القيام بهجمة تلك المدينة ، حتى استجابوا له ، وخرج معه أهل طليطلة وطليرة ووادي الحجارة وشنترية ، وكان هذا الثائر يدعى أحمد بن معاوية ويعرف بالقط ، وهو من أشراف بنى أمية وكان يريد الدولة لنفسه ، لكنه ادعى الجهاد وأعلن أنه المهدي ، وعبأ البربر المجاورين لمدينة سمورة وهاجمها (عام ٢٨٨ هـ / ٩٠١ م ، واكتسح قوات الفونش ، لكن زعماء البربر خائوه وارتدوا منهزمين لخوفهم منه اذا تم له النصر واشتدت شوكته ، فكرر الفونش على أحمد بن معاوية المهدي وقتله وعلق رأسه على باب سمورة ، وصار هذا اليوم يعرف بيوم سمورة) (٨٠) .

واضح اذن أن تلك الاشتباكات كانت بين أمراء الثغر الأعلى وأحمد ابن معاوية القط وبين ألفونش الثالث ، وكانت قرطبة لا سلطان لها على هؤلاء الأمراء ، ولذلك نستطيع القول بأن اتفاق السلام ظل ساري المفعول بين قرطبة وبين الفونش حتى وفاة الأمير عبد الله عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وتولى عبد الرحمن الناصر الأمر من بعده . هنا تغير الموقف كما سنرى عند دراستنا في الباب الثاني .

(٧٩) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٣٤ .

(٨٠) ابن حيان المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٩ ، ابن حزم ، جمهرة أنساب

العرب ، ص ٨٨ .

### ٣ - علاقة أمراء بنى أمية بامارة قطلونية ( برشلونة ) :

ظهرت نبرة على المسرح السياسى منذ بداية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وكانت قبل ذلك تسير فى تلك ملوك جليقية أو أباطرة الفرنجة ، وما لبثت أن اشتركت مع جليقية فى الهجوم على منطقة الثغر الأعلى عام ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م ، فخرج اليهم الحاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، والتقى مع قوات بلشك الجلشقى<sup>(٨١)</sup> ، وقوات نصارى ليون ، واستمرت المعركة بين الطرفين ثلاثة عشر يوما ، اندحرت فيها قبائل البشكنس ، وقتل أحد زعمائهم المدعو شانجة فارس بمبلونة<sup>(٨٢)</sup> .

جنحت نبرة الى السلم فى بداية عهد الأمير عبد الرحمن الثانى بسبب قوة الامارة الأموية وقتئذ ونجاحها فى التصدى لملوك جليقية ، هذا فضلا عن تعرض نبرة نفسها لهجوم الجيش الفرنسى على مبلونة عاصمة نبرة عام ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م بقيادة أزنار Aznar — وهو من أصل ناغارى — وابلو الفرنسى ، فهرعت قوات موسى بن موسى بن فرتون بن قسى حاكم تطيلة ووشقة من مدن الثغر الأعلى ، وساعدت البشكنس فى صد هذا الهجوم ، والحقت القوات المشتركة هزيمة فادحة بالجيش الفرنسى عند باب الشزرى ( رونسفال ) وأسرت الفاندين<sup>(٨٣)</sup> .

وفى ضوء هذه المساعدة التى قدمتها قوات الثغر الأعلى ، أرسلت نبرة سفارة الى بلاط عبد الرحمن الثانى وأبرمت معاهدة بين الطرفين

---

(٨١) بلشك الجلشقى تسمية المراجع الأخرى فلاسكو Velasco ويبدو أنه أحد زعماء البشكنس قبل ظهور الأسرة المالكة فى نبرة بعد ذلك بقليل ، أنظر ، خليل السمراوى ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٦٧ .

(٨٢) المرجع السابق ، ص ١٦٧ .

(٨٣) رينزو ، المرجع نفسه ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، Livermore, op. cit., p. 82 .

تتضمن مساعدة المسلمين لنبرة في صد أي اعتداء خارجي ، وتساعد نبرة المسلمين حين يريدون عبور جبال البرنات الى فرنسا . وكان الكونت أزنار قد استطاع العودة الى نبرة بعد أن فك أسره بمساعدة الفرنجة ، واستمر في حكم نبرة حتى عام ٢٢١ هـ / ٨٣٦ م ، وجاء بعده أخوه شانجة وانتزع منه إمارة نبرة غرسية بن ونقة أحد زعماء الباسك الآخرين ، ومنه جاءت الأسرة المالكة التي حكمت نبرة بعد ذلك<sup>(٨٤)</sup> .

وبظهور هذه الأسرة تغيرت العلاقات بين نبرة وبين قرطبة ، وبدأ أمراء نبرة بهاجمة الأراضي الإسلامية معتمدين على مصاهراتهم التي أبرموها مع أسرة بنى قسى . وكان أنيجو أريسته Inigo Arista الذي تسميه المصادر الإسلامية « ونقة بن شانجة » قد تزوج أرملة موسى بن فرتون بن قسى حاكم تطيلة في الثغر الأعلى الأندلسي ، ثم توفي حوالي عام ٢٠٥ / ٨٢٠ م واشتهر أولاده الثلاثة غرسية بن ونقة<sup>(٨٥)</sup> ، وفرتون بن ونقة أخو موسى بن موسى لأمه ، وغرسية أنجين وتسميه المصادر الإسلامية ، « غرسية بن ونقة » . ويبدو أنه هو الذي تولى الأمر بعد وفاة أبيه ، ويظهر في الأحداث السياسية منذ عام ٢٢٧ هـ / ٨٤١ م<sup>(٨٦)</sup> .

في ضوء هذه العلاقات بين أسرة نبرة الحاكمة وبين بنى قسى ، بدأت الأسرة الأخيرة تثير المتاعب لحكومة قرطبة بعد أن ساعدتها في حروبها كثيرا ضد نصارى الشمال . وكان موسى بن موسى القسوى أول من أعلن الخلاف من أسرته ضد بنى أمية ، وكان ذلك عقب مشاحنة أو سوء فهم بينه وبين أحد قواد بنى أمية أثناء حملة لهم على سرطانية ( سردانية ) في شمال الثغر الأعلى ، فكان ذلك سبب تمرد موسى بن موسى وخاصة بعد أن عين عبد الرحمن الثانى عبد الله بن كليب على سرقسطة ، وقام في هذا العام بالاغارة على ممتلكات ينقة بن ونقة أخو موسى لأمه

(٨٤) خليل السامرائي ، أرجع نفسه ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٨ .

(٨٥) يبدو أن غرسية بن ونقة كان من زوجة أخرى لان ابن حيا يطلق عليه اند

« قرابة موسى » وليس أخوه . انظر ، بن حيان ، مجلة الأنطلس ص ٢٩٨ .

(٨٦) العزري ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .



عام ٢٢٦ هـ / ٨٤١ م . وظهر هذا الخلاف واضحا أثناء حملة للأمير عبد الرحمن الثاني على ببلونة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م بقيادة ابنه المطرف ، اذ تخلف موسى عن اللحاق بالمطرف ، فأرسل عبد الرحمن الثاني حارث بن بزيح وولاه سرقسطة وأمره بحرب موسى ، لكن موسى أسره وقضى على جيشه<sup>(٨٧)</sup> .

ازاء ذلك صمم عبد الرحمن الثاني على القضاء على موسى بن موسى ، فلجأ موسى الى التحالف مع نبرة ، فخرج عبد الرحمن الثاني عبد الرحمن الثاني على ببلونة عام ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م بقيادة ابنه المطرف ، بببلونة وأخذ فيهم القتل والسبي وعاد الى قرطبة ، ثم عاد في العام التالي لعقاب موسى بن موسى بتطيلة ، وبدأ عبد الرحمن بحصار تطيلة فأخضعها ، ثم زحف على بلاد البشكنس مرة أخرى ، ولقيه غرسية وحليفه موسى بن موسى في جموع كبيرة ، فهزموهم عبد الرحمن هزيمة شديدة ، وفر موسى وحليفه جريحين ، ودخل موسى بببلونة ، فاضطرت نبرة لطلب الأمان والصلح<sup>(٨٨)</sup> .

وكان عبد الرحمن الثاني أيضا في حاجة الى الصلح مع نبرة ، بعد أن أخبره وهب الله بن حزم عامل أشبونة على البحر المحيط بورود مراكب النورمان لمهاجمة البلاد . فعقد عبد الرحمن الأمان لينقة ابن ونقة أخو موسى لأمه ، وأقره على بلده ، على شرط أن يؤدي الجزية ومقدارها ٧٠٠ دينار كل عام ، كما عقد الأمان أيضا لكونت سردانية على شرط أن يرد هو وأمير نبرة ( ينقه ) جميع ما بقى عندهما من سبي المسلمين من وثيقة<sup>(٨٩)</sup> .

---

(٨٧) العنري ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ٣٠ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٦ .

(٨٨) العنري ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

١٣٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٥٣ ، Murphy, op. cit., p. 92.

(٨٩) لعنري ، المصدر نفسه ، ص ٣٠ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٠ .

وكما قلنا لم يكن القصد من غزوات أمراء بني أمية الا ايقاع العرب في قلوب نصارى الشمال حتى يلزموا السكنة والعيش في سلام مع جيرانهم المسلمين ، لذلك لم يكن لهذه الغزوات نتائج مستقرة . وكانت تعقد المعاهدات ثم لا تلبث الحرب أن تنشب من جديد حسب الأحوال الداخلية لكل من البلدين .

اذ لم يكد الأمير محمد ( ٢٢٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ م ) الذى تولى السلطة بعد أبيه الأمير عبد الرحمن الثانى يفرغ من القضاء على ثورة طليطلة عام ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ، وعلى فتنة النصارى المعاهدين فى قرطبة فى العام التالى ، وعلى خطر النورمان الذين هاجموا شبة الجزيرة عام ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م ، والتفوا مع سواحلها حتى وصلوا الى نهاية نهر ابرة ، ودخلوا نبرة واسروا ملكها غرسيه ثم أطلقوا سراجه نظير فدية كبيرة . لم يكد يفرغ الأمير محمد من كل تلك المشاكل حتى قام بعدة حملات متتابعة على نبرة ولم تكن قد افادت بعد من ضربة النورمان ، ففزا بمبلونة عام ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ، وخرّب حصونها ، وافتتح منها حصون فيروس وفالحسن والقشتل ، واسر مرتون بن غرسيه أمير نبرة ، وسجنه فى قرطبة لمدة عشرين عاما ثم أطلقه الى بلده ، وكان غرسية فى ذلك الوقت متحالفاً مع الملك أردون ملك جليقية ، بينما كان موسى بن موسى القسوى فى طاعة قرطبة<sup>(٩٠)</sup> .

لم تكن طاعة موسى لقرطبة الا طاعة اسمية ، اذ كان هو واولاده يسيطرون على الثغر الأعلى وكانت له علاقات مع ملك نبرة كما اثّرنا ، وكانت علاقاته مع أردون ملك ليون ، جاره من الغرب ، تتردد بين الخصومة والتحالف وفقاً للظروف . كما كانت علاقات نبرة بمملكة ليون يشوبها التوتر والخوف وعدم الثقة ، اذ كانت مملكة نبرة الصغيرة تخشى على نفسها من مطامع جارتها القوية فى ليون ، ولذلك حدث أن قام موسى بن موسى ببناء حصن يسمى حصن البلدة جنوبى لوجرونو ( Logrono )

(٩٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣١ .

أحد فروع نهر أبرة من الجنوب ، فتقدم أردون ملك ليون عام ٢٤٨ هـ / ٨٥٩ م وهدم هذا الحصن وتقابل مع قوات موسى وصهره غرسية في معركة حامية ، هزم فيها موسى وجرح ، وسقط صهره غرسية قتيلا ، ثم توفي موسى متأثرا بجراحه عام ٢٥١ هـ / ٨٦٢ م (٩١) .

وكانت هذه الهزيمة ضربة شديدة أصابت بني قسي في الشمال ، وأدت الى قيام ( لب بن موسى ) بمهادنة أردون ومخالفته على قتال المسلمين ، كما كانت ضربة قاسية لامارة نبرة ، اذ انها عاشت فترة ضياع لمدة حوالى عشر سنوات ، لم يظهر لها فيها أى نشاط سياسى او عسكرى .

سفلت حكومة قرطبة بعد ذلك بثورة اولاد موسى بن موسى القسوى واستيلائهم على الثغر الأعلى كله واستعانتهم بنصارى الشمال وخاصة نبرة ونصارى سرطانية . فكان على قوات الأمير محمد أن تقضى على قوات هؤلاء المتمردين ثم تواصل سيرها لقتال نصارى الشمال ، فكانت غزوة عام ٢٥٩ هـ حيث قام الأمير محمد بنفسه وحاصر بني موسى وأخضعهم ، ثم سار الى بلاد نبرة فخربها وأذل أهلها وعاد الى قرطبة . وتتابع حملات الأمير محمد على سرقسطة ومنها الى نبرة فى عامى ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م ، / ٢٦٤ هـ - ٨٧٨ م ، واستطاعت حكومة قرطبة أن تسترد مدينة سرقسطة بعد أن اشترتها بالمال من بني قسي عام ٢٧٠ هـ وأعطت لكبيرهم محمد ابن لب بن موسى ولاية أرنيط وطرسونة ، فاستقامت طاعته وقام بدور بارز فى مجاهدة نبرة بعد ذلك (٩٢) .

توفى الأمير محمد وتولى ابنه الأمير المنذر ( ٢٧٣ - ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م ) الحكم فى قرطبة ، لكن لا تذكر لنا المراجع شيئا

---

(٩١) غان ، المرجع نفسه ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ١٤ ،

Livermore, op. cit., p. 83.

(٩٢) العزرى ، المصدر نفسه ، ص ٣١ - ٣٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ١٥٢ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١١٤ .

عن جهاده ضده نبرة ، ولعل ذلك يعود الى قصر مدة حكمه ، والى انشغاله بحركة ابن حفصون حيث مات محاصرا له عند قلعة ببشتر في الجنوب .

اما الأمير عبد الله ( ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٣ م ) الذي تولى الحكم بعد اخيه الأمير المنذر ، كان أميرا على قرطبة فقط ، اذ لم يبق له الا الاسم فوق ظهر منبر قرطبة والقليل من غيرها ، كما قال بذلك ابن الخطيب . وكانت هناك محاولات أشرنا اليها عند حديثنا عن أحوال الأندلس في الفصل الأول من هذا الباب ، لتوحيد جهود مولدي الشمال والجنوب ضد اماره بنى أمية . وكانت رسل محمد بن لب قد وصلت الى جيان لمقابلة ابن حفصون للاتفاق على ذلك ، لكن محمد بن لب نفسه سقط في ذلك الوقت قتيلًا امام أسوار سرقسطة التي أراد أن وحصن مولة ، وقتل وسبى<sup>(٩٠)</sup> .

وكان التجيبون قد اغتصبوا السلطة في سرقسطة ، ولذلك اعطيت ولاية مدينة تطيلة وطرسونة الى ( لب ) بعد مقتل والده محمد بن لب على النحو الذي اشرنا اليه . وقام لب هذا بدور كبير في رد هجوم الفونش الثالث وجيوش نبرة المتحالفة معه عند وادي برجة<sup>(٩١)</sup> ، وهزمهم وقتل منهم الكثير ، وهاجم منطقة البة في عام ٢٩١ هـ / ٩٠٤ م وفتح حصن بايش ، وفر ألفونش هاربا بعد أن سمع بقرب قدومه . ثم صعد لب بن محمد نشاطه في ناحية بليارش شمال الثغر الأعلى في نفس العام ، وفتح هناك حصن لحرونفة وحصن ايلاس وحصن قشتيل شنت وحصن مولة ، وقتل وسبى<sup>(٩٢)</sup> .

---

(٩٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ج ٢ ، ص ٢٧ .

(٩٤) وادي برجة حصن يقع الى غربي مدينة طرسونة وهو غير مدينة Berga

التي تقع في شمال شرقي الثغر ، انظر الخريطة رقم ٤ .

(٩٥) المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢١٢ .

ويبدو أن هذه الانتصارات قد شجعت لب بن محمد على مواصلة النضال ضد نبرة التي دخلت في عهد ملك جديد هو شانجة غرسية الأول ( ٢٩٣ - ٣١٤ هـ / ٩٠٥ - ٩٢٦ م ) . فواصل لب بن محمد نشاطه وأخذ في بناء حصن هرين بالقرب من نبرة ، فجمع له ملك نبرة الجموع واستعان بالسرطانيين ونصبوا له الكماثن واستدروجه إليها حتى قتلوه عام ٢٩٤ هـ / ٩٠٧ م<sup>(٩٦)</sup> .

وقد ظن ملك نبرة أنه تخلص من مقاومة الثغر الأعلى بعد قضائه على لب بن محمد ، لكنه لم يعلم أن هناك من يستطيع رده على أعقابيه ، إذ أن محمد بن عبد الملك الطويل ، زعيم أسرة بنى الطويل المولدين أيضا مال الى التعاون مع أسرة بنى قسى ، وقام في العام التالي بغزو بريطانية ، ثم غزا منطقة بليارش في عامي ٢٩٦ - ٢٩٧ هـ ، وهدم حصونها وقتل وسبى أكثر حتى كان مبلغ الفىء ١٣ ألفا<sup>(٩٧)</sup> .

وفي عام ٢٩٨ هـ / ٩١١ م ظهر التعاون المشترك بين بنى قسى وبنى الطويل ضد نبرة ، إذ خرج محمد بن عبد الملك الطويل الى أرغونة في طريقه الى ببلونة حيث يلتقى هناك مع قوات عبد الله بن محمد بن لب الذى كان قد خلف أخاه لب بن محمد في حكم تطيلة عام ٢٩٤ هـ . ولما أحس ابن الطويل بتحرك قوات ملك نبرة تخاذل وعاد أدراجه . ولما بلغ عبد الله بن لب ذلك عاد هو الآخر من حيث أتى ، بعد أن كان قد حصن لوازة من حصون شانجة ملك نبرة . وبذلك لم يتمكن ابن الطويل وابن قسى من القيام بعمل ناجح ضد نبرة في تلك الغزوة ، لكنهما استمرا بعد ذلك في النضال ضد نبرة مؤيدين من حاكم قرطبة الجديد للأمير عبد الرحمن<sup>(٩٨)</sup> ، الذى تلقب فيما بعد بالخليفة عبد الرحمن الناصر .

---

(٩٦) العزرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ٢١٥ .

(٩٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، ٢١٩ .

(٩٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢١ .

### ٣ - علاقة أمراء بنى أمية بامارة قطلونية ( برشلونة ) :

بعد سقوط برشلونة في يد لويس التقي بن الامبراطور شارلمان عام ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ، قامت لمارة جديدة نصرانية في الشمال الشرقى لشبه الجزيرة وسميت هذه الامارة باسم قطلونية وعاصمتها برشلونة ، واصبحت مدخلا للنفوذ الفرنسى الى البلاد من ناحية الشرق ، كما كانت غسقونية مدخلا للنفوذ الفرنسى من ناحية خليج بسكايه عند اطراف جبال البرنات الغربية . وكانت هذه الامارة الصغيرة شوكة في ظهر الثغر الأعلى ، كما انها أصبحت عائقا للثورات الاسلاميه اذا ما حاولت التسلل الى جنوب بلاد الفرنجة . ولم تنس هذه الامارة الصغيرة دورها في مساندة نصارى الشمال الأسباني ضد المسلمين ، فأصبحت تغير بقواتها على اطراف الثغر الأعلى ، وتتصل بنصارى سرطانية بريطانية ، وتشجعهم على غزو اراضى المسلمين في تلك المنطقة<sup>(٩٩)</sup> .

وعبثا حاول الأمير الحكم الرضى أن يسترجع برشلونة وتبادل الهجمات عام ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م مع قوات الفرنجة ، وانتهى الأمر بعقد الصلح بين لويس بن شارلمان الذى كان قد خلف أباه على عرش فرنسا ( ١٩٩ - ٢٢٦ هـ / ٨١٤ - ٨٤٠ م ) ، وبين الحكم الرضى عام ٢٠١ هـ / ٨١٦ م ، ولم يدم هذا الصلح الا عواما قليلة . ذلك أن الفرنج في قطلونية أو الثغر القوطى كما يسميه البعض أغاروا بعد ذلك بحوالى عشر سناوات وفي عهد الأمير عبد الرحمن الثانى ، على اطراف الثغر الأعلى بقيادة أميرهم برنارد بن جيوم دوق تولوز ، بعد أن ثار ضده أيزون Aison - وهو أحد النبلاء المنحدرين من سلالة القوط - في اقليم برشلونة سنة سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م واستولى على عدد من المدن والحصون مثل أوسونة ، واستنجد بالأمير عبد الرحمن الثانى ضد الفرنجة<sup>(١٠٠)</sup> .

(٩٩) رينو ، المرجع نفسه ، ص ١٣٢ ، للفصل الثانى ، الباب الأول

(١٠٠) عنان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ٨٤ ، ٨٦ .

انتهزت قرطبة الفرصة ، وأرسل الأمير عبد الرحمن قريبه عبيد الله ابن عبد الله البلنسى على رأس جيش الى برشلونة عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، فاستمات حاكمها برنارد في الدفاع عنها ولم يمكن المسلمين من فتحها ، فاضطر عبيد الله الى رفع الحصار عنها ، واجتاح ولاية قطلونية حتى وصل الى جرنده في أقصى الشمال ، وأقام هناك شهرين ، ثم عاد الى قرطبة بعد أن فرق شمل النصارى في تلك الأنحاء . لكن لم ينتج عن حملته هذه فتوحات ثابتة ، ولم يعاود الأمير عبد الرحمن مهاجمة برشلونة الا سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٠ م بعد وفاة الملك لويس التقي بن شلمان بحوالى ٦ سنوات (١٠١) .

كان الصراع دائرا بين شارل الأصلع (٢٢٦-٢٦٤ هـ / ٨٤٠-٨٧٧ م) الذى تولى العرش بعد وفاة والده لويس التقي ، وبين ابن أخيه بيبين الثانى ملك أكستانية على عرش البلاد ، وطلب بيبين مساعدة المسلمين ، وأرسل كونت طولوزة ( تولوز ) المسمى غليوم الى قرطبة ، فأرسل الأمير عبد الرحمن جيشا بقيادة حاجبه عبد الكريم بن مغيث الى برشلونة تمكن من اخراج عمال شارل الأصلع من معظم مدن قطلونية ، وعين غليوم حاكما لبرشلونة ، واجتاز المسلمون جبال البرنات وحاصروا مدينة جرنده الواقعة على مدخل تلك الجبال وعاثوا في نواحيها ، ثم عادوا الى قرطبة (١٠٢) .

ويبدو أن شارل الأصلع تمكن من انزال الهزيمة بمعارضيه ، اذ أنه استطاع أن يقتل غليوم كونت برشلونة لمساعدته المسلمين وفتح أبواب برشلونة لهم ، فأرسل الأمير عبد الرحمن في أواخر سنى حكمه جيشا لمعاقبة أهل مدينة برشلونة لعدم وقوفهم بجانب غليوم ومنعه من القتل . ومع ذلك أخذت برشلونة تنهج خطا معاديا لحكومة قرطبة ، مما جعل الأمير

---

(١٠١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ،

ص ١٥٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .

(١٠٢) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٢ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٣٠ ،

رينو المرجع نفسه ، ص ١٥٦ ،

Murphy, op. cit., p. 93.

محمد الذي تولى الحكم في قرطبة بعد عبد الرحمن الثاني يكتب الى موسى بن موسى القسوى عامله على الثغر الأعلى بأن يحشد جيشه ويفزو برشلونة . فدخلها موسى عام ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م وحارب قلاعها ، وتجاوزها الى ما وراءها حتى افتتح حصن طراحة وهو آخر حصون برشلونة ، ثم عاد الى سرقسطة غانما منتصرا (١٠٣) .

ويبدو أن الفرنجة برشلونة عادوا للاغارة على اطراف الثغر الأعلى مما اجبر الأمير محمد أن يرسل جيشا آخر عام ٢٤٧ هـ / ٨٦١ م تمكن من دخول برشلونة ، فأرسل أهلها الى ملك الفرنجة يطلبون الغوث فأمدهم بجيش جرار ، وكذلك طلب المسلمون المدد من قرطبة فوصلهم ، واقتتل الطرفان وانهزم الفرنجة واستولى المسلمون على أرياض المدينة وعلى برجين من أبراجها وقتلوا كثيرا من الفرنجة وعادوا الى قرطبة غانمين (١٠٤) .

وازاء هذه الحملات المتكررة على برشلونة ، اضطر الملك شارل الأصلع ملك فرنسا أن يوقع الصلح مع الأمير محمد عام ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م ، والتزم شارل في هذا الصلح بالاعود الى مساعدة من يخرج عن الطاعة من نصارى اسبانيا ، وتنازل الأمير محمد عن برشلونة وغيرها من مدن قطلونية ، ولم يعد المسلمون يتصدون لمحاربة ملوك فرنسا منذ ذلك الوقت محاربة مستمرة أو منتظمة . ذلك أنهم كانوا يضطرون أحيانا للاغارة على هذه المنطقة ، وأحيانا يصلون الى جبال البرنات ، حتى أنه هاجر بعض الأساقفة من هناك خوفا على أنفسهم من هجمات المسلمين (١٠٥) .

---

(١٠٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٠ ، للزرايى ، قرة للنفوس ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٤ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٨ .

(١٠٤) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ٣٧ .

(١٠٥) الزرايى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .



وقد حدث ما توقعه المسلمون اذا أن اسماعيل بن موسى القسوى صاحب تطيلة كان قد شرع فى بناء مدينة لاردة أو زيادة تحصينها وذلك فى عام ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م ، فحاول صاحب برشلونة الفرنجى أن يمنعه من ذلك وتقدم على رأس جيشه لتحقيق هذا الهدف ، لكن اسماعيل هزمه وقتل أكثر رجاله ، ومعروف أن لاردة على مسافة قريبة من برشلونة فخاف كونت برشلونة من هجمات مسلمى لاردة اذا تم لهم تحصين مدينتهم (١٠٦) .

وكانت امارة بنى أمية تعاني أشد المعاناة فى تلك الفترة من حياتها بسبب الثورات الداخلية التى أشرنا إليها من قبل ، مما أطمع أمراء تلك الامارة الصغيرة فى بلاد المسلمين ، حتى أنهم تجرعوا وأرسلوا حملة بحرية من خمسة عشر سفينة حربية ، أغارت على ساحل المرية عام ٢٧٦ هـ وأحرقت كثيرا من السفن الاسلامية الراسية هناك ، فخرج أهل بجانة من رجال البحر وقاوموا الغزاة ، حتى تم الصلح على أن يقطع هؤلاء الغزاة والا يعودوا مرة أخرى (١٠٧) .

ويبدو أن قائد الأسطول الفرنجى كان ابنا لكونت برشلونة ، ذلك أن لب بن محمد القسوى صاحب الثغر الأعلى كان قد أغار بعد ذلك فى عام ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م على حصن أوردة من أحواز برشلونة ، والتقى هناك بكونت برشلونة عنقديد والد شنير فهزمه وقتله . وتولى شنير حكم برشلونة . وكان شنير هذا هو صاحب الحملة البحرية السالفة الذكر (١٠٨) .

---

(١٠٦) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٣٢ .

(١٠٧) الرازى برواية ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٨٨ ، ٨٩ .

(١٠٨) الرازى برواية ابن حيا ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٢٦ .

ظل شنير Sunier حاكما لبرشلونة حتى عام ٢٩٩ هـ / ٩١٢ م حينما أغار عليه محمد بن عبد الملك الطويل ، ولما وصل ابن الطويل الى وادى طراحة قرب برشلونة كان شنير قد سبقه وكمن له في صياصي الجبال ، لكن ابن الطويل تمكن من هزيمته وقتل كثيرا من رجاله ، ثم دارت الدائرة بعد ذلك على ابن الطويل حيث قتل في العام التالي خلال غزوة أخرى قام بها في قطلونية ، فخلفه أولاده في حكم أراضيه . وهكذا بقيت برشلونة وما يليها من قطلونية خارجة عن حكم المسلمين ، حتى في زمن عبد الرحمن الناصر برغم كثرة غزواته وعظم دولته كما سنرى فيما بعد(١٠٩) .

---

(١٠٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ ، شكيب أرسلان ، الحلل السندسية ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، غان ، دولة الاسلام في الأندلس ، ع ١ ، ج ٢ ، ص ٤٩ .

## الباب الثاني

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية  
وأسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين  
الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية  
في عصر خلفاء بني أمية .

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس  
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر خلفاء  
بني أمية .



# الفصل الأول

## الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية

### أولا - ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقتها بأسبانيا النصرانية

انتهى عصر الأمير عبد الله عام ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م ، وكانت الأندلس الإسلامية يطبق عليها ملوك جليقية ونبرة وبرشلونة من الشمال ، وابن حفصون من الجنوب ، وابن مروان الجليقي من الغرب ، وقام الثوار الآخرون من المولدين والعرب والبربر بالسيطرة على أجزائها الباقية ، حتى كان الأمير الأموي في بعض الأحيان لا نفوذ له إلا على قرطبة وحدها . ومع ذلك جاهد أمراء بني أمية الأواخر ما وسعهم الجهاد ، وصمدوا حتى تتاح لهم الفرصة لصد هذه الموجة العاتية من التمزق والسقوط والضياع ، وتوج كفاحهم بما قام به عبد الرحمن الناصر من إسم هذا الثغرات وإعادة الوحدة إلى البلاد مرة أخرى .

لقد أنقذ الناصر الأندلس من نفسها ، كما أنقذها من براثن السيطرة النصرانية من ملوك جليقية ونبرة ، ورفعها إلى مرتبة الدولة العظمى التي يخطب ودها الشرق والغرب ، وحقق لها السلام والازدهار والرفاهية في الداخل ، والانتصار والاحترام في الخارج . وكان الناصر منذ توليه الحكم يحارب معركتين في وقت واحد ، معركة مع نصارى الشمال الأسباني الذين راوا أن يجهضوا قوة هذا الأمير الشاب وينالوا منه قبل أن يستكمل قوته ، ويتخلص من مشاكله الداخلية ويستدير لهم ، ومعركة مع ثوار الأندلس الذين ورثهم من عهود من سبقه من الأمراء . وانتصر الأمير عبد الرحمن في المعركتين ، وأعلن قيام الخلافة الأموية في الأندلس في ذي الحجة عام ٣١٦ هـ . (١)

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

فقد أحس عبد الرحمن الناصر بالقوة ، وأراد أن يدعم مركزه السياسى أمام أعدائه فى الداخل والخارج ، وخاصة بعد أن ترمى إليه ما نال الخلافة العباسية بالمشرق من حجر الموالى واستبدادهم بالخلفاء وقيامهم بعزلهم وقتلهم ، كما لاحظ أيضا قيام الخلافة الفاطمية فى المغرب ، وتسرب دعوتها الى الأندلس ذاتها ، مما جعله يعلن قيام الخلافة الأموية فى قرطبة ، وأمر بالدعاء له على المنابر بأسم « الاملم الناصر لدين الله عبد الرحمن أمير المؤمنين » وضرب النقود بهذه الألقاب (٢) .

وكما فعلنا فى الباب السابق ، والقينا نظرة عامة على أحوال بلاد الأندلس والشمال الأسباني لنعرف عوامل القوة والضعف التى أثرت فى العلاقات بينهما ومكنت أولئك أو هؤلاء من احراز تقدم أو كسب انتصار ، علينا أن نفعل الآن نفس الشئ بالنسبة لهذا العصر ، عصر الخلافة الأموية ، لنعرف كيف تحولت الهزائم فى عصر الامارة الاخير الى انتصارات فى عصر الخلافة ، وكيف تحولت الأندلس ، من أندلس ابن حفصون وابن مروان الجليقي وبنى قسى وغيرهم ممن قطعوا أوصالها ، الى الأندلس الموحدة القوية ، الى أندلس عبد الرحمن الناصر .

## ١ - سمات عصر الخلافة :

وقد اتسم هذا العصر بسما ت معينة بالنسبة لعلاقات مسلمى الأندلس بممالك أسبانيا النصرانية . فقد كان العصر عصر قوة فى عهد عبد الرحمن الناصر ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ) . وقد استخدم الناصر قوة الدولة فى ارهاب ممالك أسبانيا النصرانية وفى اجبارها على الخضوع وطلب السلام ، لكنه لم يعمل على القضاء عليها أو تدميرها تدميرا تاما . فقد كان معتدلا فى استخدام قوته ، مدركا أنه لا يمكن القضاء على تلك الممالك التى نشأ بعضها منذ أن تواجد المسلمون أنفسهم على أرض تلك البلاد . ومن ثم فقد ساد السلام بين الأندلس وأسبانيا النصرانية طوال السنوات الأخيرة من حكمه وطوال عهد ابنه الحكم المستنصر .

---

(٢) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

وقد استمر عصر القوة في عهد الدولة العامرية (٣٦٦-٣٩٩ هـ) رغم ما انتاب الخلافة نفسها من ضعف بسبب استبداد المنصور محمد بن أبي عامر بثئون الحكم وحجره على الخليفة الطفل هشام المؤيد بن الحكم المستنصر (٣٦٦-٣٩٩ هـ) . لكن المنصور وابنه عبد الملك المظفر أسرفا في استخدام قوة الدولة ووجهها لتخظيم ممالك أسبانيا النصرانية ، ووصلت قوات المنصور الى أماكن لم تصل اليها جيوش اسلامية من قبل ، ودك عواصم ممالك نبرة وليون وبرشلونة ، وخرب كثيرا من بلدانهم ومدنهم وقراهم ، وصار سيد الجزيرة كلها بالسيف والقهر وسفك الدماء .

وقد تنفس نصارى الشمال الأسباني الصعداء عند سماعهم نبأ موته ، وانتهزوا فرصة سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، وقيام الصراع بين خلفاء بنى أمية الأواخر ، وتدخلوا فيما بينهم ، وأعانوا فريقا ضد فريق، اللبونية أو البرشلونية . واتسمت هذه الفترة بتلك الظاهرة ، حتى استقر الأمر لبنى حمود ، وأعلنوا قيام الخلافة العلوية في قرطبة عام ٤٠٧ هـ ، حتى صار الخليفة الأموي لا يصل الى كرسى الخلافة الا على أسنة الحراب فترك نصارى الأسبان مسلمى الأندلس يأكل بعضهم بعضا ، ويقتتل بنو حمود مع بنى أمية ، ويقتتل بنو أمية مع بعضهم البعض للوصول الى كرسى الخلافة ، حتى سقطت خلافة بنى أمية نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م وظهر عصر جديد يعرف بعصر ممالك الطوائف .

وعصر الخلافة الأموية كما رأينا بدأ قويا فيما يتعلق بالعلاقات مع أسبانيا النصرانية ، واستمر كذلك طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، ومع بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، تغيرت الاحوال بسقوط دولة بنى عامر ، وقيام الفتنة البربرية ، وبدء الصراع على كرسى الخلافة ، والتماس المساعدة من ممالك أسبانيا النصرانية التى رأت أن الفرصة مواتية لكى تأخذ بثأرها من أحفاد الناصر والمستنصر والمنصور ، ونشطت للقضاء عليهم ، وتقدمت حركة الاسترداد خطوات واسعة للأمام .

وقد كانت هناك عوامل معينة أدت الى موقف القوة في العلاقات مع نصارى الشمال طوال القرن الرابع الهجرى ، وعوامل أخرى أدت الى موقف الضعف في العلاقات مع هؤلاء النصارى بدءا من القرن الخامس الهجرى وحتى سقوط الخلافة عام ٤٢٢ هـ .

## ٢ - عوامل القوة واثرها في العلاقات مع أسبانيا النصرانية :

أما عوامل القوة ، فقد كان أهمها هو وحدة الجبهة الداخلية التي تحققت لأول مرة على يد عبد الرحمن الناصر بعد فترة من التفكك والانقسام أشرنا اليها في حديثنا عن أحوال الاندلس في أواخر عصر الإمارة . وكان الناصر قد ورث بلادا ممزقة الاوصال مفتتة القوى ، فالشعر الأعلى ( سرقسطة ) تقاسمه بنو تجيب العرب ، وبنو قسى وبنو الطويل من المولدين ، وماردة وبطليوس والغرب الأندلسى كله كان تحت سيطرة ابن مروان الجليقى ، وجنوب الأندلس كان في قبضة عمر بن حفصون . وكانت البغضاء بين عناصر السكان من عرب وبربر ومولدين وبين المسلمين والنصارى ، قد هزت كيان الدولة وزعزعت حكم بنى أمية حتى أوشك على الزوال (٣) .

وكانت هذه الأوضاع تتطلب قائدا حكيما موصوفا بالشجاعة والدهاء . وقد توافرت تلك الصفات في عبد الرحمن الناصر الذى اتبع تجاه أعدائه فى الداخل سياسة تتسم بالاعتدال والمداواة واللين حيناً ، وبالقوة والحزم والحسم حيناً آخر ، فكان يحاربهم ويحاصرهم ويجبرهم على التسليم ثم يعفو عنهم ، ويسكنهم بجواره فى قرطبة ويجزل لهم العطاء ، ويوفر لهم الحياة الكريمة ، حتى لا يفكروا فى التمرد والعصيان مرة أخرى . لم يكن يقتلهم أو يستل عيونهم أو يلقيهم فى غياهب السجون كما كان يفعل ملوك ليون ونبرة ، ولكنه كان رحيما حتى بأعدائه ، ولذلك أحبوه واحترموه ولم يفكروا فى نقض تعهداتهم معه ، ولو حدث ذلك لم يكن الا بتأثير أسبانيا النصرانية وأغرائها لهم بالعودة الى العصيان والتمرد .

(٣) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ .



وقد ساعد الناصر أيضا في توحيد الجبهة الداخلية ، ما اتبعه من سياسة حكيمة تجاه الشعب والجيش . فلم يتبع أسلوب الارهاب والاستبداد المطلق في حكمه للبلاد . صحيح انه حقق للدولة منتهى الأبهة والفخامة والقوة والسلطان ، وأصبحت مرهوبة الجانب شديدة البأس ، لكن ذلك لم يكن الا على أعدائها من نصارى الشمال الأسباني الذين بلغت رهبة الخلافة في نفوسهم أن ملوكهم كانوا يقبلون الأرض في مجلس الخليفة عندما كانوا يفدون عليه طلبا للسلام (٤) .

لما أفراد الشعب ، فلم يكونوا يحملون في قلوبهم الا شعورا بالحب والهيبة والتقدير نحو خلفائهم الذين حققوا لهم الرفاهية في الداخل ، والنصر على الأعداء في الخارج ، واتبعوا العدالة في حكمهم حتى أن بعض الفقهاء اشترط في نقدهم وتأييدهم ، لأنهم غالوا في إقامة العماير والقصور، وفي الاسراف في تزيينها ، فلم يقدم هؤلاء الخلفاء على إيذائهم أو عزلهم ، ليس خوفا منهم كما قال البعض ، ولكنها سنة أخذ بها بنو أمية أنفسهم، لعلمهم بأن هذه البلاد المتنوعة المشارب المتعددة العناصر السكانية ، لا تجمعها القوة فقط ، ولكن العدل واحترام الشرع والعمل بأقوال الأئمة والفقهاء واحترامهم هو الذى يحقق وحدتها ، وهو السبيل لقيادتها(٥) .

وقد أدت تلك السياسة الى امتزاج عناصر السكان تدريجيا ، ووجد ما يسمى بالشعب الأندلسي الذى أصبحت له خصائصه التى تميزه عن غيره من الشعوب الأخرى ، والذى وقر في قلبه حب بنى أمية ، وأصبحو في نظره هم الحكام الشرعيون ، وكل من حاول أن ينال منهم كان يضع هذه الحقيقة في الحساب . وحدث أن حاول المنصور بن أبى عامر — ذلك الزعيم القوى الذى فرض سلطانه على سكان شبه الجزيرة جميعا ،

---

(٤) المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٩٩ ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، أزهار الرياض ،

ج ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٤٦ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ،

ص ٩٩ أزهار الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، كامل كيلاني ، نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ،

ص ٢١٧ .

مسلمين ونصارى—أن يقصى بنى أمية عن كرسى الخلافة ، لكنه لم يستطع ذلك ، لأنه خشى غضبة الشعب وتأييد ملبنى أمية . وكان هذا هو السر فى أنه أوصى أولاده الا يمتهنوا الخليفة وأن يصونوا حقوقه فى الخلافة حتى لا يصطدموا بالشعب . ولما خالف تلك الوصية ابنه عبد الرحمن شنجول ، واجبر الخليفة هشام المؤيد على مبايعته بولاية عهده ، تفجرت الثورة ضده وأطاحت برأسه وبدولة بنى عامر معا (٦) ،

لم يكن بنو عامر اذن طغاة مستبدين كما وصفهم البعض مستبدلين على ذلك بقتل الناصر لابنه عبد الله الذى تأمر عليه عام ٣٣٩ هـ (٧) أو بموقفه من العرب الذين استتراب منهم ، واستعانت به بالعناصر الأجنبية من الصقالبة الذين وثق بهم وولاهم أهم الوظائف فى الجيش والحكومة . لكن فات هؤلاء جميعا أن يعرفوا طبيعة العصر وطبيعة الشعب ، ووضع الدولة الأندلسية التى كان يحيط بها الأعداء من شمالها وجنوبها ، وفاتهم أيضا ماذا كان يحدث للأندلس لو نجح عبدالله فى مؤامراته وقتل أباه ، ذلك الخليفة العظيم الذى راب الصدع وأعلى كلمة الاسلام ، حتى قال البعض أن هذا الماهل أولى به أن يكون من حكام هذا العصر بدلا من أن يكون من حكام العصور الوسطى (٨) .

وكان الناصر مضطرا للاستعانة بالعناصر الأجنبية فى الجيش لكى يوازن بهم العرب من ناحية وأهل الأندلس من ناحية أخرى ، حتى يضمن ولاء الجميع له ، وحتى لا يطفئ عنصر على الآخر ، ولم يخص أى حزب من

(٦) ابن الخطيب ، المصنوع نفسه ، ج ٢ ، ص ٨١ .

(٧) فكر ابن الأبار أن قتل عبد الله كان عام ٣٣٨ هـ ، بينما ذكر بن سعيد المغربى أنه كان عام ٣٣٩ هـ ، وهو التاريخ الذى أخذنا به ، لأن ابن سعيد ينقل عن إبراهيم بن القاسم القروى المعروف بالرفيق ، وهو من مؤرخى القرن الرابع الهجرى ، فهو معاصر لعبد الرحمن الناصر . انظر ، ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ص ١٨٦ ، ١٨٨ .

(٨) ابن سعيد ، المصنوع نفسه ، ج ١ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ابن الأبار ، المصنوع نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٨ ، النصولى ، الدولة الأموية فى قرطبة ، ص ١٢١ .

هذه الأحزاب بميزة ، أو رفعه دون غيره كما قال البعض لكنه شدد الضغط على العرب بسبب ماكانوا يثرونه من عصبية . والحقيقة أن العصبية كانت سر بلوى الاندلس ومصيبتها ، وكانت السبب في اشعال نار الفتنة بين عناصر السكان في عصر الامارة ، وقبله في عصر الولاة كما سبق القول<sup>(٩)</sup> .

لم يقض الناصر على نفوذ العرب في الجيش قضاء تاما ، وإنما اقام الى جانبهم عنصر الصقلية حتى يضمن نجاح السياسة التي اشرنا اليها ، ولم يقض الناصر على النظام القبلي في الجيش ، ولكنه اوجد نظام الجيش الدائم ، الذي كان يربط دائما في العاصمة ، والذي كان يتكون اساسا من الصقلية . أما في الولايات والثغور ، فهناك الجيوش القبلية التي تهب وقت الحاجة عند استنفار الخليفة لها ، تحت قيادة قوادها وتتجمع عند نقطة معينة ، وتنطلق جميعا للغزو أو لرد اعتداءات النصارى . وبذلك كان لدى الناصر الجيش الثابت الدائم الذي يأخذ عطاءه رواتب شهرية ، والجيش القبلي الذي عطاءه من ريع ما تحت يده من أرض ، ويهب فقط عند استدعاء الخليفة<sup>(١٠)</sup> .

وادی هذا النظام الذي اوجده الناصر الغرض منه تماما . اذ لم يستطع العرب اثاره المشاكل أمام الناصر ، ومشوا في ركابه مستفيدين مما يتيح لهم من المغامرات والاسلاب ، وما يحققه لهم من الانتصارات والفتوحات ، وظلوا مقيمين على الطاعة ، ينهضون للغزو عند أول اشارة . ولم يستطع الصقلية ان يقوموا بأى تحركات قد تثير الناصر أو تدفعه الى التخلص منهم أو استبدالهم بغيرهم ، بل أقاموا على الطاعة وأخلصوا الطوية ونالوا أرفع المناصب وأعلاها ، مما أثار عليهم حقد العرب ، وجعلهم يتخلون عن الناصر في واحدة من أكبر غزواته عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م ، وأسلموه للهزيمة ، لانه جعل قيادة الجيش في يد نجدة الصقلية . وكان هذا

(٩) ابن بول المرجع نفسه ، ص ٩٧ ، حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ١٣٦ .

(١٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١٣ .

مؤشرا يدل على الحقد الدفين بين هذين العنصرين ، ولولا قوة شخصية خلفاء القرن الرابع الهجرى ، لتحول هذا الحقد الى صراع دموى ، كما حدث فى بداية القرن الخامس الهجرى ابان الفتنة البربرية واطاح بالدولة وبالخلافة فى النهاية .

بهذه السياسة التى اتبعها الناصر فى معاملة اعدائه داخل الاندلس ونحو الشعب والجيش ، استطاع أن يوحد الجبهة الداخلية (١١) ، واصبح

---

(١١) اقتضى توحيد الجبهة الداخلية أن يقوم الناصر بالقضاء على جيوب المقاومة الداخلية والحركات الانفصالية التى شملت معظم انحاء الاندلس فى عصر الامارة .

وكان من أشهر هذه الحركات ثورة بنى حفصون ، وقد قضى عليها الناصر عام ٣١٥ هـ .  
انظر ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٣ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،  
٢٧١ - ٢٧٥ ، ٢٨٧ ، ٢٧٩ - ٢٩٢ ، ابن عبد ربه ، العقد للفريد ، ج ٢ ، ص ٣٦٩ ،  
٣٧٤ ، ٣٧٥ .

كما قضى الناصر على ثورة أهل طليطلة التى كانت قد استقلت بشؤونها وحاولت الثورة فى عهد الناصر بتشجيع ملوك ليون ، لكن الناصر قضى على ثورتها عام ٣٢٠ هـ . انظر ، بن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ - ٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ٦١ .

كما قضى الناصر على ثورة ابن مروان الجليقى بخرى الاندلس عام ٣١٨ هـ . وكان الجليقى قد استقل بمساعدة وبطليوس ، واستعان فى ذلك بملوك ليون . انظر ، ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ .

أما المتمردون من المولدين والعرب الذين استقلوا بالثغر الأعلى ( سرقسطة ) وتقاسموه فيما بينهم ، وتحالفوا مع ملوك نبرة وليون أحيانا ، ودانوا بالطاعة للامارة الأموية ثم للخلافة أحيانا أخرى ، فلم يتركهم الناصر الا بعد أن أخضعهم .

لاخضاع بنى قسى ، انظر ، ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٤ ، ٤٦٨ ،  
المعزى ، نصوص عن الاندلس ص ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،  
٦٦ - ٦٣ ولاخضاع بنى تجيب العرب ، انظر ، ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ ،  
ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ولاخضاع بنى الطويل ، انظر ، المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ ،  
المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ - ٥٢ .

في سعة من أن يتفرغ لجهاده ضد ممالك اسبانيا النصرانية الذين لم يتيحوا له فرصة لالتقاط أنفاسه ، وظل يصارعهم حتى صرعهم ، وأملى ارادته عليهم وأتوا اليه خاضعين مستسلمين ، يعلنون الطاعة والولاء ، وصار الناصر بذلك سيد شبه الجزيرة كلها ، شمالها وجنوبها ، مسلميها ونصارها وصارت الاندلس في عهده قبلة الانظار ، ومحط السفراء من جميع أنحاء العالم .

ومن عوامل قوة الأندلس في عهد الخلافة أيضا اخضاع مناطق الثغور للخلافة ، واستخدامها كتقواعد لضرب ممالك اسبانيا النصرانية حتى لا توجه الاسرات الحاكمة في تلك الثغور ، نشاطها ضد قرطبة كما حدث في عهد الامارة ، وحتى لا تكون سوطا في يد نصارى الشمال ، يلهبون به ظهر قرطبة متى أرادوا .

وكانت مناطق الثغور الاسلامية نقطة ضعف في كيان دولة الاندلس . ففي عصور الضعف ، كان حكام تلك الثغور يستقلون بها ، كما حدث في أواخر عصر الامارة ، وفي بداية عصر الخلافة ، وكما حدث عقب انهيار دولة بنى عامر في القرن الخامس الهجري فيما يسمى بممالك الطوائف . وفي عصور القوة كان حكام تلك الثغور يقفون بين حكام قرطبة وبين حكام ليون ونبرة وبرشلونة ، يستعينون بأحدهما ضد الآخر ، ويضربون هذا بذاك ، ويتحالفون مع طرف ضد الطرف الآخر ، حفاظا على مصالحهم كما سبق القول ، ومن هنا كانت سياسة الناصر الحكيمة في مجاهدتهم واخضاعهم بالقوة ، ثم مداراتهم واسترضائهم بتعيينهم حكاما على اقاليمهم بعد أن يعلنوا له الطاعة والخضوع .

وقد نجحت تلك السياسة ايما نجاح في تقليم أظفارهم ، ولجأ الناصر في بعض الاحيان الى أسلوب ضربهم ببعض ، وهو أسلوب اتبعه أجداده في عصر الامارة . وبذلك قضى الناصر على أسرة بنى قسى الذين كانوا يحكمون في تطيلة ، بضربهم ببني تجيب من العرب ، وساعده على ذلك ما تعرض له بنو قسى من هجمات ملك نبرة وملك ليون عام ٣١٠ هـ

على ممتلكاتهم ، وأسرههم لزعيم تلك الاسرة محمد بن عبد الله بن لب ، وقتله في سجن ببلونة (١٢) .

وكذلك فعل الناصر مع بنى الطويل الذين كانوا يحكمون في وشقة وبريشتر ، اذ ضربهم ببني تجيب أيضا ، وخاصة بعد مقتل زعيمهم محمد ابن عبد الملك الطويل عام ٣٠١ هـ / ٩١٣ م ، اثناء قتاله ضد جنود برشلونه من الفرنجة . وقام بنو تجيب بمحاولة السيطرة على أملاك بنى الطويل في لاردة وحصن منقث شون . وكذلك ضرب الناصر بنى الطويل ببني قسى أيضا ، فولى عمرو بن الطويل مدينة لاردة التي كانت في حوزة محمد بن لب القسوى ، فقام الصراع بين الاسرتين عام ٣٠٩ هـ وليس عام ٣١٩ هـ كما قال العذري ، لأن محمد بن لب كان قد مات عام ٣١٧ هـ ، وانهزم عمروس في ذلك الصراع ، واستولى محمد بن لب على لاردة عام ٣١٠ هـ وأسر عمروسا وأخاه موسى وأرسلها الى الناصر حيث صفح عنها ، والتزم عمروس بالطاعة ، فأعاده الناصر الى وشقة حاكما لها ، وظل بها حتى توفي عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م (١٣)

وبعد اخضاع الناصر لحكام الثغر الاعلى ، أصبحوا اداة في يده ، يغرب بهم ملوك أسبانيا النصرانية ، ويتخذ بلادهم قواعد ينطلق منها لغزو هؤلاء الملوك . فقد ساعده بنو قسى في غزوة مويش عام ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م ، وهزموا معها ملوك نبرة وليون وحلفاءهم من بنى الطويل . ولما تم اخضاع بنى الطويل اشتركوا مع الناصر في غزوة الخندق في عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ ضد ملك ليون ، واشترك بنو تجيب العرب مع جيش

---

(١٢) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ ، العذري المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

يجعل ابن عذاري ، المقتول هو عبد الله بن لب ، وهذا خطأ ، لأن عبد الله هذا مات مسموما عام ٣٠٣ هـ ، بينما العذري يجعل المقتول هو محمد بن عبد الله بن لب ، وهو الصحيح ، لأنه معاصر للاحداث . انظر ، المصدرين الآخرين ونفس الصفحات .

(١٣) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٦٦ - ٦٨ .

الناصر لقتال ببلونة عاصمة نبرة عام ٣١٢ هـ ، وكافأهم الناصر وولاهم  
حكما لمسرقسة وتطيلة بالاضافة الى قلعة ايوب ودروقة ، وصدوا  
هجومًا لجند نبرة عام ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م ، وقتل الكثير منهم<sup>(١٤)</sup> .

من هذا يتبين لنا أن عبد الرحمن الناصر صارع أمراء الثغر الأعلى  
من المولدين والعرب ، واتبع معهم ومع غيرهم من الثوار الآخرين في جنوبي  
الاندلس وغربها ، أسلوب القوة والحزم ، وأسلوب الإدارة والاصطناع  
والعنف والمصالحة ، فكان يزحف عليهم بجيوشه إذا ما أظهروا العصيان  
ثم يعفوا عنهم بعد أن يتقوا في يده ، فيخلصون له الود ، ويصبحون  
أداة يضرب بها أعداءه من ممالك أسبانيا النصرانية . وبذلك أمن  
الناصر الجبهة الداخلية ، وانطلق يغالب نصارى الشمال الاسباني  
ويصارعهم حتى صرعه ، وأقبلوا عليه خاضعين مستسلمين يطلبون الصفح  
ويلتمسون سلام الناصر ورضاه ، وحقق الناصر ما كان يصبو اليه من توفير  
الهدوء والامن والامان لسكان شبه الجزيرة كلها ، واتاحة الفرصة  
للجميع كي يعيشوا في سلام ، ويحققوا الرخاء والرفاهية لانفسهم  
وبلادهم .

ومن عوامل قوة الدولة الاندلسية في عصر الخلافة ، ما قلم به  
المنصور محمد بن أبى عامر من اصلاحات عسكرية ، كانت لها نتائجها  
الخطيرة على الصراع مع ممالك أسبانيا النصرانية ، وعلى كيان الدولة  
الاندلسية نفسها بعد زوال حكم بنى عامر عام ٣٩٩ هـ . وكان المنصور  
يهدف بتلك الاصلاحات الى احكام السيطرة على مقاليد الامور بعد أن  
حجر على الخليفة هشام المؤيد ، واستبد بشئون الدولة ولقب نفسه  
بالمالك الكريم<sup>(١٥)</sup>

(١٤) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٤٦٤ ، المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

٧١ - ٧٣ ،

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

(١٥) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ابن بسلام ،

ال ذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٠ .

وكان أهل الاندلس قد رأوا فيه « الشخص القوى الذى رآب الصدع ودافع عن البلاد ووفر لها الامن والسكينة » فوافقوا على كفالته لهشام المؤيد حتى يكبر . لكن المنصور لم يكن مستعدا للتنازل عن سلطانه . ولذلك بنى قواته على نظام جديد ، يكفل له احكام السيطرة عليها من جانب ، ويضمن له حسن استخدامها لارهاب أعدائه فى الداخل ولضرب أعداء البلاد فى شمال أسبانيا من جانب آخر (١٦)

ذلك أنه أحس بخطر صقالبة الخلفاء منذ البداية وأحس بالتنافس الموجود بينهم وبين العنصر العربى ، وعرف أن هذين العنصرين لن يفيداه كثيرا فى تنفيذ مشروعاته السياسية والحربية ، فالصقالبة عددهم قليل ، ولن يغفروا له قط حجره على ابن خليفته . كما أن العرب كانوا منقسمين على أنفسهم ، فاذا أيدى المزيرون تخلى عنه اليمينيون ، أما المسلمون من أهل البلاد ، فلم يكونوا مهتمين بغير أعمالهم فى الزراعة والتجارة . ولذلك عول المنصور على استخدام عنصر جديد ، ينفذ أوامره دون مناقشة (١٧)

كان هذا العنصر الجديد هم البربر الذين استقدمهم المنصور ثم ابنه من بعده عبد الملك المظفر من شمال افريقية ، وأغدقوا عليهم وبالفاء فى اكرامهم ، فأخلصوا لبني عامر ، ودافعوا عن دولتهم وحققوا لها كثيرا من الانتصارات على ممالك أسبانيا النصرانية لدرجة أن المنصور والمظفر لم تهزم لهما راية قط .

وبجانب استخدام البربر فى الجيش ، قضى المنصور على العصبيات فيه ووزع الأجناد من العرب والبربر والصقالبة على فرق الجيش بحيث كانت تحتوى كل فرقة على جند من هذه العناصر المتباينة ، ووزع جند القبيلة الواحدة على الفرق المختلفة حتى أصبح الجندى لايعرف القبيلة

---

(١٦) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٧٧ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٧ ، نيكل : مختارات من الشعر الأندلسى ، ص ٤٧ .

(١٧) ابن عذارى ، المصخر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، خالد الصوفانى ، عصر المنصور الأندلسى ، ص ٨٠ .



التي كان ينتسب اليها ويقاتل معها ، وأصبح ولاؤه للقائد غقط ، وليس لرئيس قبيلته كما كان الوضع أيام خلفاء وأمراء بنى أمية ، وبذلك صار جيشه أشبه بالجيش القومي الذي يدين بالطاعة لرئيسه الأعلى وهو المنصور بن أبى عامر (١٨) .

وكان هذا الإصلاح العسكى ذا اثر فعال فى تحقيق جميع اهداف المنصور بن أبى عامر ، سواء فى الداخل أم فى الخارج ، وقد ضمن له السيطرة على البلاد ، فحكمها بيد من حديد ، فكانت دولة استبدادية عسكرية من الطراز الاول ، حققت الهدوء فى الداخل والانتصارات التى تشبه الخيال فى الخارج ، سواء فى الشمال ضد ممالك أسبانيا النصرانية أم فى الجنوب ضد الفاطميين وغيرهم ممن كانوا يقاومون نفوذه فى شمالى افريقية ، ولولا هذا الجيش المنظم الذى كان لايعرف له قائدا سواه ، لما استطاع المنصور بن أبى عامر أن يصل الى اقصى جليقية ونبرة (نافار) وبرشلونة ، وأن يدك عواصم تلك المالك دكا لم يحدث فى أى عصر من العصور التى سبقتة .

كان المنصور قائدا عسكريا من الطراز الاول ، وكانت له مهمة لاتضارعها مهمة أخرى فى الجهاد . وربما خرج الى صلاة العيد فحدثت له نية فى الجهاد ، فلا يعود الى قصره ، بل يخرج توا الى معسكره ، ويأخذ فى الزحف شمالا ولاينتظر حتى تكتمل قواته ، بل يأمر قواده أن يوافوه تباعا عند مكان معين . وكان هذا سببا من أسباب كثرة غزواته ضد ممالك أسبانيا النصرانية ، حتى قيل أنها بلغت أكثر من خمسين غزوة . ذلك انه كان يخرج للغزو فى العام مرتين ، احدهما فى الصيف فيما يعرف بالصائفة ، والاخرى فى الشتاء فيما يعرف بالشاتية ، وربما خرج للغزو فى العام الواحد أكثر من ذلك (١٩) .

---

(١٨) الصغدى ، اللواقى بالوفيات ، ج ٣ ، ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، النصولى ، المرجع

نفسه ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، الرفاعى ، الحاجب المنصور ، ص ١١ .

(١٩) الضبى ، بغية النعمس ، ص ١٠٦ .

ولم تقتصر عوامل القوة على النواحي السياسية أو العسكرية ، بل كان ازدهار الحياة في الأندلس وبلوغها القمة بمقتايس ذلك العصر ، من عوامل القوة التي أثرت على العلاقات بين الأندلس الإسلامية وممالك إسبانيا النصرانية ، وخاصة في النواحي الحضارية . ذلك أن الناصر خصص ثلث ميزانية الدولة — على عظم الجباية في ذلك الوقت — للبناء والمشروعات العمرانية ، وكتب التاريخ تفيض بذكر ما أنفقه الناصر على بناء مدينة الزهراء التي استمر العمل بها منذ عام ٣٢٥ هـ حتى وفاة ابنه الحكم المستنصر عام ٣٦٦ هـ ، علما بأنه كان ينفق على عمارتها مبلغ ثلاثمائة ألف دينار كل عام من هذه الأعوام الطوال . كما قام المنصور ببناء مدينة أخرى تسمى الزاهرة لاتقل بهاء وشأنا عن زهراء الناصر<sup>(٢٠)</sup> وما ذلك الا مجرد امثلة نذكرها للدلالة على وفرة الدخل ومثانة الوضع الاقتصادي الذي كان القاعدة الصلبة التي بنى عليها حكام القرن الرابع الهجري مشاريعهم العمرانية والعسكرية . وبصفة عامة بلغت الأندلس في ذلك القرن ذروة الرخاء والازدهار ، وتقدمت فيها الزراعة والتجارة والصناعة ، وازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون حتى أصبحت قرطبة قبلة لطلاب العلم وتجار ممالك إسبانيا النصرانية الذين وفدوا اليها لشراء ما فاضت به حضارة الأندلس من تحف وروائع فنية وملابس قيمة ، كانت نساء الطبقة الأرستقراطية في الشمال الإسباني تلح في طلبها ، وتجدر سرورا لا حد له في اقتنائها . ولم يقتصر هذا الأمر على نصارى الشمال ، بل وصل تأثير الحضارة الأندلسية الى شتى أنحاء أوروبا ، حتى أنها وردت ضمن أشعار الراهبة السكسونية هيروسونيتا التي أشادت بها في قصائدها وأشعارها ، ووصفت قرطبة بأنها زينة الدنيا<sup>(٢١)</sup> .

ومن ثم وفدت على الأندلس سفارات عديدة من امبراطور القسطنطينية وامبراطور ألمانيا وملوك ليون ونبرة وبرشلونة تعقد المعاهدات وتوطد العلاقات الدبلوماسية والتجارية بينها وبين قرطبة . والجدير بالذكر

(٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١١٢ ، المقرئ ، ازهار الرياض ، ج ٢ ،

ص ٢٦٧ ، ٢٧٠ .

(٢١) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، المقرئ ، ازهار الرياض ، ج ٢ ،

ص ٢٧٢ ، غنان ، دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، ج ٢ ، ص ١٠٤ .

أن يرسل البابا يوحنا الثاني عشر ، وغدت على الناصر تطلب السلم والمودة بين الاسلام والانصرانية . ولم يرسل البابا سفارته تلك ، الا لاعتقاده بأن الناصر يمثل الزعامة الاسلامية في ذلك الوقت . فقد كانت الخلافة العباسية تسير في طريق الضعف ، والخلافة الفاطمية لم تبلغ بعد قوة ازدهارها وتقدمها السياسي والحضاري (٢٢) .

وما من شك في أن هذه الاحوال المستقرة وتلك السياسة الحكيمة التي اتبعها حكام قرطبة في القرن الرابع الهجري ، والتي وضحتها خلال دراستنا لعوامل القوة التي توفرت للاندلس في علاقاتها مع ممالك اسبانيا النصرانية ، والتي اثرتنا اليها حتى الآن ، كان لها آثارها على الصراع بين مسلمي الاندلس وبين نصاري الشمال الاسباني ، فانقلبت الهزائم التي منيت بها البلاد أواخر عصر الامارة الى انتصارات رائعة ، وتحول تقهقر المسلمين الى الجنوب ، الى تقدم صاعد لهم نحو الشمال حتى أصبحت جميع ممالك اسبانيا النصرانية مجرد امارات تابعة لحكام قرطبة .

ورغم هذه الصورة الجميلة المشرقة للاندلس في القرن الرابع الهجري الا أنه كان هناك مايشير الى حدوث انقلاب أو ثورة سوف تحدث بمجرد أن ينقضي عصر هؤلاء الحكام الأقوياء من بنى أمية وبنى عامر . فقد كان لسياستهم بعض الجوانب السلبية التي لم تظهر في عهدهم . نظرا لقوة شخصيتهم ولقدرتهم الفائقة على القيادة والسيطرة على مقاليد الامور . ولما انهارت دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، وقام الصراع بين خلفاء بنى أمية الاواخر على كرسى الخلافة أثناء مايعرف بالفتنة البربرية عام ٤٠٠ هـ ، ظهرت تلك الجوانب السلبية ، وقادت البلاد الى ذلك المصير المحزن الذي انتهت اليه في عصر ملوك الطوائف ، بعد أن تسببت في سقوط الخلافة نفسها .

---

(٢٢) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، المقري ، المصدر

نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٧ - ١١٤ .

### ٣ - عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك أسبانيا النصرانية :

وتلك الجوانب السلبية يمكن أن نقول عنها أنها كانت عوامل ضعف الملت بالأندلس الإسلامية وتمثلت فيما يعرف بالفتنة البربرية التي كانت - حقا - تشبه الزلزال - وقد وقف بعض المؤرخين طويلا عند حدوث ذلك الزلزال الذي اقتلع دولة بنى عامر ، وقضى في النهاية على الخلافة الأموية وخلع على الاندلس عصرا جديدا يعرف بعصر ممالك الطوائف .

وكان هذا الزلزال مرآة انعكس عليها كل سلبيات ونقائص الحكم الأموي والعماري في الاندلس ، وقاد البلاد الى طريق الضعف والانحلال والتمزق والانقسام والسقوط ، وأعطى الفرصة كاملة لحركة الاسترداد أن تقتفز خطوات وخطوات الى الامام ، وجعل مصر البلاد رهن مشيئة ملوك أسبانيا النصرانية الذين أصبحت لهم السيطرة الفعلية على شبه الجزيرة كلها بمسلميها ونصاراها ، وضاعت وحدة الجبهة الداخلية وضاع معها مئات من المعامل والحصون والمدن الثغرية التي أضاع خلفاء القرن الرابع الهجري عمرهم في بنائها والحفاظ عليها ، وانقسم الوطن الواحد الى أوطان متعددة ، وانقسم الشعب الواحد الى شعوب أو طوائف ، تناحرت فيما بينها والتهمت العون ضد بعضها من عدو بلادها ، وكانت فرصة لاتعوض لنصارى الشمال ، فاغتنموها على الفور ، وتدخلوا بين الفرق المتناحرة حتى أنهم وضعوا بعض أحفاد الناصر على كرسي الخلافة في قرطبة .

هكذا بين عشية وضحاها ، تحول الغالب الى مغلوب وتحولت الانتصارات الى هزائم ، والسيطرة الإسلامية والعزة القومية الى سيطرة نصرانية في عهد هذه الدمى من خلفاء بنى أمية الاواخر ، كل ذلك في بضع شهور من عام ٤٠٠ هـ وهى مأساة لانجد لها تفسيرا الا أن نقول أن اسبابها لم تبرز فجأة ، وانما كانت كامنة في جسد الامة الاندلسية قبل ذلك بزمان طويل . ومن أهم تلك الاسباب وقوع الصراع بين بنى أمية وتنازعهم على الخلافة .

وكان الناصر قد اتبع سياسة أسلافه من أمراء بنى أمية في تحقية  
العنصر العربى عن ميدان الزعامة والقيادة ، وجعل البارزين منهم مجرد  
عمال أو ولاة لأطراف الدولة وثغورها ، مثل بنو تجيب الذين ولاهم على  
الثغر الأعلى . وسار على نفس الخط أيضا في الاستعانة بالعناصر الاجنبية  
فى الجيش والادارة لسهولة السيطرة عليها وعدم تمردها ، وادى ذلك الى  
حرمان الدولة من ذوى الكفايات من العرب والبربر ، والى زرع الحقد  
والضغينة بينهم وبين الصقالبة الذين أصبحوا قوة يخشى بأسها . وكانت  
هزيمة الناصر الوحيدة عام ٣٢٧ هـ مؤثرا يدل على ذلك ابلغ الدلالة (٢٣)

وقد ظهر خطر الاستعانة بهذه العنصر الاجنبية أثناء فقرات الاضطراب  
وقد برز هذا واضحا أثناء الفتنة البربرية . فقد أخذ الصقالبة والبربر  
يتحكمون فى تولية الخلفاء وعزلهم ، وقاموا بالاعتداء عليهم وقتلهم وتشريدهم  
واستبدوا دونهم بالحكم والسلطان ، وتحالفوا مع ممالك اسبانيا  
النصرانية لتحقيق اهدافهم ، وساعدوا بذلك على قيام عصر ممالك  
الطوائف والقضاء على الخلافة الأموية (٢٤) .

كما وقع الأمويون فى خطأ آخر عندما قام الحكم المستنصر وولى  
ابنه الطفل هشام ولاية عهده ، ولما مات المستنصر تولى هشام الذى  
لقب بالمؤيد الخلافة وهو فى سن العاشرة ، مع انه كان فى بنى أمية  
الكثير من الشخصيات البارزة القادرة على قيادة البلاد فى حزم وكفاية  
لكن الحكم المستنصر نظر الى مصلحته الشخصية ، وارتكب هذا الخطأ  
السياسى مع انه كان يعيبه على العباسيين فى المشرق . وربما كانت نظرية  
توريث الحكم فى عقب الخليفة أو الامير الحاكم وحده دون غيره من  
أخوته أو بنى عموته أو أقاربه ، وهى النظرية التى سار عليها بنو  
أمية فى عصرى الامارة والخلافة هى المسئولة عن ذلك ، وربما استندوا

---

(٢٣) كليلىا سارنيللى ، مجاهد العامرى ، ص ٥ ، ١٥ ، انظر ، الفصل الثالث ،

الباب الثانى ، ص

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٩ ، ابن سعييد ، المصدر نفسه ،

ج ١ ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

في تلك النظرية الى تلك النبوة التي تقول « لايزال ملك بنى أمية في اقبال ودوام ، ما توارثه الأبناء عن الآباء . فاذا انتقل الى الاخوة وتوارثوه فيما بينهم ، فقد أدبر وتولى » (٢٥)

ورغم ما حققته تلك السياسة في استقرار اداة الحكم الا انه كان لها أيضا آثارها في زرع الضغينة والحقد في نفوس باقى أفراد البيت الأموى ، وقد تعرض الكثير من أمراء وخلفاء بنى أمية الى مؤامرات قام بها اخوتهم أو بنو عموماتهم بسبب الجلوس على العرش . وربما كان أخطرها ثورة بنى اسحاق الأمويين الذين انضموا الى ملك ليون وساعدوه على هزيمة الناصر في موقعة الخندق عام ٣٢٧ هـ ، كما أعطت هذه السياسة الفرصة لرجل مثل المنصور بن أبى عامر لان يستبد بالدولة ويحجر على الخليفة الطفل ، ويعمل في الأمويين سيف التشريد والقتل (٢٦)

أما الخطأ الثالث الذى ارتكبه خلفاء بنى أمية هو انه عندما سقطت دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ ، تهافتوا على السلطان وانقسموا فريقتين ، كل منهما يحاول هزيمة الآخر ويستعين في ذلك بنصارى الشمال الأسباني ليسامدوه على اعتلاء كرسى الخلافة ، نظير التنازل لهم عن كثير من المدن والحصون الاسلامية وفي غمرة هذا الصراع المقيت على الحكم تعرضت البلاد للخراب ، والقرى والمزارع للدمار ، وقتل العلماء ونهبت المساجد والدور والقصور ، وهدمت مدن بأكملها وأزيلت وكأنها لم تكن ، وأدى ذلك في النهاية الى سقوط الخلافة وزوال حكم بنى أمية وقيام عصر ممالك الطوائف (٢٧)

---

(٢٥) ابن حزم ، نقط للعروس ، ص ٦٢ ، ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ،

ص ٤٠ .

(٢٦) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، ابن

عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧ .

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ - ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٧ .

ومن عوامل الضعف التي ألت بالاندلس الإسلامية وأثرت في مستقبل البلاد وفي علاقتها بنصارى الشمال ، سياسة بنى عامر في إضعاف الخلافة والاستبداد بالدولة . وكانت سياسة المنصور بن أبى عامر تقوم حسبما أشرنا من قبل على مبدأ الاستبداد بحكم الاندلس واتساع جميع الوسائل والسبل لتحقيق تلك الغاية ، وقضى بذلك على جميع العناصر المناوئة له من الصقالية والعرب ، ومن القيادات السياسية والعسكرية مثل المصحفى الحاجب ، وغالب الناصرى ، فارس الأندلس وبطلها . كما قضى أيضا على من يخشى بأسه من بنى أمية . وكان يوصى ابنه حين حضرته الوفاة ، ألا يتوانى عن هذه الفئة ، وأن يأخذها بالشدّة والعنف ، مما أدى الى سقوط هيبة بنى أمية في نفوس الناس وإلى ضياع مجدهم ونسيان الناس لهم (٢٨) .

وكان لهذه السياسة من اضطهاد بنى أمية وتشريدهم والاستبداد بهم أثر شديد على من جاء بعد ذلك من خلفائهم ، إذ لم يحسنوا السياسة ونسوا أساليب آبائهم في الحكم واصطناع الانصار والاعوان . فقد تعصب سليمان المستعين للبربر ، واستعان المؤيد بالصقالية ، واستعان كلاهما بنصارى الشمال ، وبذلك تكرر انقسام الدولة الى حزبين متصارعين وهو الانقسام الذى ساعدت عليه سياسة بنى أمية في الاستعانة بالصقالية وسياسة العامريين في الاستعانة بعنصر البربر (٢٩) .

ومن الأخطاء الفادحة التي ارتكبتها بنو عامر وأدت الى وقوع الكارثة هو تطلعهم الى منصب الخلافة ذاته . وقد راودت هذه الفكرة المنصور بن أبى عامر ، لكن مستشاريه نصحوه بالعدول عنها لأنها سوف تثير

(٢٨) ابن حيان برواية بن بسام ، للخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، المقري ، نفع للطبيب ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ١٢٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٢٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٥ ، ١١٣ ، ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ٥٢١ .

بنى أمية وتشير الشعب ضده كما سبق القول . لكن ابنه عبد الرحمن شنجول أقدم على تلك الخطوة وأخذ البيعة لنفسه بولاية عهد هشام المؤيد . وكانت غلطة العمر ، إذ تولى عنه الجميع عندما قام محمد المهدي الأموي بالثورة ضده عام ٣٩٩ هـ . ذلك لأن هذا الأمر كان يعنى تحويل الخلافة من المضرية ( بنى أمية ) الى اليمنية ( بنى عامر ) (٣٢)

وهذا يدل على أن الصراع القبلي لم يكن قد انتهى بعد من الاندلس رغم ما قام به الناصر والمنصور من توجيه ضربات قاسية للعنصر العربي بالذات ، مما يدل على أن المجتمع القبلي القديم لم يكن قد اختفى تماما كما يقول دوزي ، وما قيام دول الطوائف الا تعبير عن هذا المجتمع الى حد كبير . فقد قامت تلك الدول ملتفة حول أسرات عربية أو بربرية هنا وهناك ، وعادت تلك الأسرات الى سياستها الاولى في الصراع القبلي ضد بعضها البعض ، بعد أن زالت القوة المسيطرة التي كانت تتمثل في بنى أمية ، مما أعطى الفرصة لنصارى الشمال الاسباني للتدخل في شئون الأندلس والسيطرة على ممالكها (٣٣) .

ومن عوامل الضعف أيضا انقسام جند الاندلس وصراهم على السلطان وقد وضع الأمويون والعامريون بذور هذا الانقسام عندما استعانوا بالموالي والصقالبة والبزير في الجيش والادارة . واصبحت هذه العناصر تترقب فرصة ضعف أو اضطراب حتى تعمل لمصلحتها الخاصة وتصبح لها السيادة على البلاد . وفيما يبدو لم تكن هذه العناصر مخلصه تماما للأمويين أو العامريين ، فكثيرا ما تأمر الصقالبة ضد بنى أمية في عصرى الامارة والخلافة ، كما تأمروا أيضا ضد بنى عامر وانتهزوا فرصة موت

---

(٣٠) ابن حيان برواية ابن بسام ، الزخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص ٦٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٦ ، ابن الخطيب : الاعمال ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٣١) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٦٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٠٥ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٩ .



المنصور بن أبى عامر وقال قائلهم « هل كتب علينا أن نبقى فى حجر آل أبى عامر الدهر الداهر ؟ » وكان واضحاً أن الفتى الصقلبى أسبق الجميع فى التخلّى عن عبد الرحمن شنجول بن أبى عامر عندما ثار ضده بنو أمية عام ٣٩٩ هـ (٣٢)

أما البربر فقد كانوا أسرع من غيرهم فى التخلّى عن عبد الرحمن شنجول ، وقال له زعيمهم محمد بن يعلى الزناتى « إياك أن تغتر ، فليس والله يقاتل عنك أحد من زناته ، والناس تبع لهم » . وادى ذلك الى أن ظفر به محمد المهدي الاموى وقتله وقضى على دولة بنى عامر . وكان تخلّى البربر عن العامريين بهذا الشكل من الأشياء الملفتة للنظر ، فالعامريون هم الذين استقدموا البربر من المغرب الاقصى أو شجعوهم على النزوح الى الاندلس ورفعوا من شأنهم حتى صاروا أكثر أجناد الاندلس وأظهرهم نعمة وأعلام منزلة ، وأصبحوا قوة رئيسية تعتمد عليها الدولة فى حروبها وبقائها ، فما الذى أغرى هؤلاء البربر بالتخلّى عن بنى عامر ؟ (٣٣)

يبدو أن البربر كانوا مثل الصقالبة غير مخلصين تماماً لبنى عامر ، فصنهاجة كانت من الد أعداء بنى أمية وبنى عامر معاً ، ولم تلجأ الى الأندلس الا بسبب الصراع بين زعمائها على أرض المغرب الاقصى . وكانت تضمر الحقد للمنصور بن أبى عامر ، لانه أخذهم بالشدة وطبق احكام الشرع على من يستحق العقوبة منهم . أما زناته فكان ولاؤها للعامريين لكن سياسة بنى عامر فى قتل بعض زعمائهم قللت من اخلاصهم لهم . هذا بالإضافة الى أن البربر جند مرتزقة ، وهذا النوع من الجند لا يدافعون عن وطن ينتمون اليه ، بل يدافعون — اذا دافعوا — عن حاكم يضمن

---

(٣٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ص ٦٧ ، ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٤ - ٢٦ ، ٦٨ .

(٣٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤١٧ ، ج ٣ ، ص ٦٨ - ٧١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ٩٨ .

لهم مصالحهم وأرزاقهم ، فاذا رأوا أن مصلحتهم مع شخص آخر انضموا إليه دون تردد (٣٤)

وهذا ما حدث فعلا ، فعندما رأوا عبد الرحمن شنجول يتخبط في سياسته ، ورأوا قيام أهل قرطبة مع المهدي ضده ، تحول ولاؤهم عنه وأسلموه الى حتفه خوفا على أموالهم وأهليهم الذين يعيشون في قرطبة وبذلك تم القضاء على دولة بنى عامر ، وانقسم جند الاندلس الى حزبين متصارعين على السلطان ، الاندلسيون وعلى رأسهم الصقالبة في جانب ، والبربر في جانب آخر ، وحاول كل فريق أن يصل الى السلطة مستترا وراء أحد الخلفاء من بنى أمية ، مما أوقع البلاد في أتون حرب أهلية جرت عليها الخراب والدمار (٣٥) .

من هذا يتضح لنا مبلغ ما ارتكبه بنو أمية وبنو عامر من خطأ ، عندما اعتدوا اعتمادا كلياً على تلك العناصر الأجنبية ، وأهملوا العنصر العربي وأهل البلاد الأصليين من المولدين وغيرهم . وكانت تلك العناصر الأجنبية تلتزم الهدوء والطاعة طالما كان الحاكم قويا ، وعند الضعف أو في فترات الاضطراب كانت تقوم بدورها المخرب وتستبد بالبلاد ، مما هيأ الفرصة للاستعانة بملوك إسبانيا النصرانية كي يتدخلوا في شئون الأندلس الداخلية ويبسطوا سلطانهم عليها .

وكان استغلال ملوك إسبانيا النصرانية للصراعات الداخلية في الأندلس من العوامل التي أضعفت الجبهة الداخلية في تلك البلاد الى حد كبير . وقد حدث ذلك منذ وقت مبكر عندما غضب الناصر على أقربائه من بنى اسحاق بن أمية ، وقام بقتل زعيمهم أحمد بن اسحاق بسبب تأمره عليه ،

---

(٣٤) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٣٦٤ ، كليليا سارنغلي ، المرجع نفسه ص ٢٩ ، ٣١ .

(٣٥) ابن بسلام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٢ ، ٦٢ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦٧ .

واتصاله بالفاطميين وتحريضه لبني تجيب على الثورة ضد الناصر . ولما تخلص الناصر من ذلك الثائر ، فر أخوه أمية بن اسحاق الى شنترين في غرب الاندلس ، ورفع لواء الثورة ضد الناصر ، وانتهاز ردمير ( راميرو ) الثانى ملك ليون الفرصة ، واتصل به واستقدمه وعينه وزيرا ، وأشركه في حربه ضد الناصر ، وأعطاه أمية معلومات ثمينة عن قوات الناصر قبل المعركة ، ودله على عورات المسلمين ، مما سهل له النصر على الناصر في موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م (٣٦)

ولم تكن ثورات طليطلة المتكررة ضد الخلافة الأموية الا بتشجيع من نصارى الشمال ، كما حاول كونت قشتالة أن يستغل العداء الذى نشب بين المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الله . ولما تأمر هذا الابن العاق على أبيه ، وانكشفت مؤامراته وخاف على حياته ، فر الى كونت قشتالة وفي عصر قوة الخلافة الاموية لجأ نصارى الشمال الاسبانى الى أسلوب آخر للفيل من قوة الجبهة الداخلية في الاندلس ، وذلك عن طريق المصاهرات التى عقدوها مع الاسرات الحاكمة في الثغور الاسلامية من المولدين من بنى قسى وبنى الطويل . وعلى سبيل المثال فقد صاهر فرتون الطويل صاحب وشقة من أعمال الثغر الاعلى ، شانجة بن غريسية ملك نيرة ، واشترك معه في غزوة مطونية عام ٣٠٦ هـ ضد جيش الناصر (٣٧) .

وطبيعى أن هذا الرجل وأمثاله كان يتمرد على قرطبة لعلمه أن هناك من يحميه ويمد له يد العون والمساعدة من أصهاره ملوك الشمال، وأن هناك من يستقبله لاجئا اليه من هؤلاء الملوك عند الضرورة . وقد تكرر

---

(٣٦) المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٥٠ ، ٥١ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٦ .  
Dozy, op. cit., pp. 426, 427.

(٣٧) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ ، الشمالى ، نتيجة للدمر ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .  
Dozy, op. cit., pp. 507-508 . المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥ ، ٦٨ ، ٦٩ .

هذا كثيرا حتى أن نهاية آخر أمراء بنى قسى حكام تطيلة في الثغر الاعلى ، كانت عند أصهاره من أمراء أسبانيا النصرانية . وكان الامير القسوى قد لجأ الى صهره النصرانى عقب اعتداءات بنى تجيب على املك أسرته ، لكن صهره هذا طمع فيما كان معه ومع أصحابه القسويين من أموال وسلاح وحلى ، ففدر بهم وقتلهم عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م . (٣٨)

وكان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية قويا وأكثر فعالية أثناء الفتنة البربرية في مطلع القرن الخامس الهجرى . فقد انتهزوا فرصة الصراع بين أمراء بنى أمية الأواخر على تولى منصب الخلافة وساعدوا فريقا ضد الآخر . واستعانة ملوك بنى أمية الأواخر بملوك أسبانيا النصرانية لا يدل الا على مدى ما وصلوا اليه من ضعف وهوان وفقدان للحمية الدينية والعزة القومية . وكان تدخل ملوك أسبانيا النصرانية على هذا النحو في شئون الأندلس الداخلية ، مما اضعف الجبهة الداخلية وجعل مسلمى الأندلس يضرب بعضهم بعضا وأدى الى تعميق الانفصال والأحقاد بينهم ، حتى اصبحوا لقمة سهلة يستطيع نصارى الشمال التهامها فى أى وقت يريدون . (٣٩)

ومن عوامل الضعف التى أثرت فى الجبهة الداخلية وكانت لها آثارها على العلاقة بين مسلمى الأندلس ونصازى الشمال الأسبانى ، طبيعة الأندلسيين أنفسهم وتباين أحوالهم الاجتماعية والاقتصادية . فقد كان هناك ما يشبه الصراع الطبقي بسبب التفاوت الحاد فى الدخول . فهناك طبقة أرستقراطية حاكمة مهيمنة ، لها الغنى والثروة والنفوذ ، تلتف حولها بعض الأسرات الثرية أمثال أسرة بنى عبدة وبنى شهيد وجهور وفطيس . وهناك طبقة متوسطة أغنت بفضل نشاطها فى الزراعة والتجارة والصناعة ، وهناك طبقة الحرفيين والعمال والعامة ، وكانت تعيش فى مستوى منخفض . فالعامل كان يكره صاحب العمل ، والطبقة الوسطى كانت تحسد طبقة

(٣٨) العنبرى المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ٧٨ ، ٩٤ - ٩٦ ، ابن بسام ، الفخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٥ ، ٣٠ ، ٣١ .

الأغنياء والجميع كانوا يكرهون القواد البرابرة والصقالبة . لكن هؤلاء جميعا كانوا لا يظهرون مشاعرهم ويعيشون في هدوء طالما كان الحاكم قويا ، فلما ضعف الحكام وتنازعوا على السلطة ، لم يكن أمام هذه الفئات الا الانضمام لأى ثورة تقوم حسبما يتفق مع مصالحها (٤٠) .

من هنا يمكن القول بأن القوى الاجتماعية التى استند اليها الأمويون والعامريون كانت غير متماسكة ، ومن ثم انهارت وانهار معها بنو أمية عند أول صدمة ، وكانت هذه الصدمة داخلية ، ولم تكن نتيجة غزو خارجي ، بل انها نبعت من تناقضات وتناقض وعيوب النظام الذى اتبعه بنو أمية وبنو عامر في حكم البلاد والتى اشرنا اليها ، تلك التناقضات التى كانت كامنة ولم تظهر الا عندما تراخت قبضة الحكام . فعبد الرحمن شنجلول لم يكن فى قدرة أبيه أو أخيه ، وهشام المؤيد استطاب الحياة الهادئة وعزف عن توجيه الأمور وتركها لبنى عامر ، لذا ظهرت عيوب النظام وأدت الى انهياره وقيام نظام دول الطوائف .

ومما جسم تلك العيوب الاجتماعية طبيعة الشعب الأندلسى وتكوينه العنصرى وطبيعة البلاد الجغرافية . فقد كان هذا الشعب يحتوى على عناصر مختلفة ، من عرب وبربر وصقالبة وأهل البلاد الاصليين سواء كانوا مسلمين أم نصارى . صحيح أن المصاهرة والمجاورة قربت بين تلك العناصر، الا أنه بقى من مظاهر التناقض ما يكفى لقيام الصراع فيما بينها اذا ما حانت الفرصة ، ساعدها على ذلك الطبيعة الجغرافية وتفتت البلاد الى أودية تحجز بينها جبال تزخر بالعديد من الحصون والقلاع ، تحمى الثوار وتساعدهم ضد الحكومة المركزية (٤١).

فإذا أضفنا الى ذلك طبيعة الناس أنفسهم ، لأصبح الأمر ، فقد وصف البعض عامة قرطبة بالذات بأنهم أكثر الناس فضولا واشدهم شغبا ،

(٤٠) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٤ ص ٤٠٧ .

Dozy, op. cit., pp. 534-535, 538.

(٤١) لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٤٧ .

حتى أنهم كانوا يقاتلون مع هذا ، ثم يقتتلون معه وربما في نفس اليوم ، معرضين أنفسهم للهلاك ، ولذلك وصفهم بعض المؤرخين بصغر الاحلام ونقص العقول . ويعمل المقرئ ذلك بأن أهل الاندلس يميلون الى مساندة كل شخص قوى أراد الوصول الى السلطان وانهم كانوا يجرون وراء كل ناعق ، وأن أهل المشرق أصوب رأيا منهم في مراعاة نظام الملك ، حتى لا يحدث الخلل الذي يؤدي الى اختلال الاوضاع وفساد الامور (٤٢) .

وقد أصاب المقرئ عين الحقيقة ، فيذكر المؤرخون المعاصرون لذلك الأحداث أن الناس عندما علموا بنبأ الثورة ضد بنى عامر « تهافتوا على المهدي — زعيم الثورة — تهافت الفرائش على النار ، ولم يتوقف عن بيعته احد ، ولم يتخلف عن أخذ ماله واستحلال نهبه والدخول في فتنته فقيه ولا عالم ولا عدل ولا امام ولا حاج ولا تاجر ، وقام هؤلاء جميعا لنصرته ، رغم أنهم ليسوا جندا ولا يحسنون الدفاع عن أنفسهم فضلا عن غيرهم ، ولما رأى المهدي تلك الجموع الزاخرة أثبت منهم خمسين الفا في ديوان العطاء، وحركهم للقضاء على ما بقى من بنى عامر وشيعتهم وترك لهم نهب مدينة الزاهرة ، بما فيها من مال ومتاع . (٤٣) .

ومما يلفت النظر في هذا ، هو موقف العلماء والفقهاء ، فهم الذين كانوا قد افتوا بطبيعة الحال بجواز ولاية عبد الرحمن شنجول العهد ، وحضروا البيعة وأيدوها ، وأذاعوا حديثا نسبوه ظلما الى الرسول عليه الصلاة والسلام ، قالوا فيه « لاتقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه » . وكان عبد الرحمن شنجول قحطانيا ، وعندما رأى

---

(٤٢) ابن حزم ، مداواة النفوس ، ص ١٩ ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ١٠٦ ، المقرئ ، نفح الطيب ج ٢ ، ص ٧٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ .

(٤٣) ابن حيان برواية ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٧٠ - ٢٧٢ ، الرقيق برواية ابن عذاري ، المصدر نفسه ج ٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٧٥ .

هؤلاء الفقهاء انهيار بنى عامر سرعان ما انتهزوا الفرصة وعلنوا تأييد النظام الجديد . اذن الهدف هو المصلحة الشخصية لا غير (٤٤)

وبذلك صارت الانتهازية والنفعية طابع كثير من الحكام والناس فمن يقتلونه اليوم يصيرون في خدمة ابنه غدا وامتلات حياتهم بقصص الغدر والغش والجبن والبخل والانحلال الخلقي ، كما تسلطت عليهم روح الأنانية والفردية حتى أن الواحد منهم كان يتخذ ازاء داره مسجدا وحماها خاصا به دون غيره من الناس . وقد لاحظ تلك الصفات السيئة قائد الجيش النصراني الذي ساعد سليمان المستعين في دخول قرطبة ، وهزيمة المهدي في ربيع الاول ٤٠٠ هـ ، وقال أنه كان يظن أن الدين والشجاعة والعقل عند أهل قرطبة ، فاذا هم خلوا من هذه الصفات (٤٥)

ومجتمع هذه صفاته لا يمكن أن يستمر في المقاومة ، فقد تفتت وحدته أثناء الفتنة البربرية أو الحرب الاهلية التي استمرت منذ مطلع القرن الخامس الهجري حتى سقطت الخلافة الأموية في عام ٤٢٢ هـ . وأتاحت تلك الفتنة الفرصة للملك اسبانيا النصرانية من أن يحققوا أهدافهم في السيطرة على الأندلس الاسلامية ، مما لون العلاقة بينهم وبين الخلفاء الأمويين الأواخر بلون جديد لم تألفه الأندلس من قبل ، وقلب موازين القوى لصالح النصراني ، بطريقة لم تحدث منذ أن دخل الاسلام تلك البلاد .

---

(٤٤) آبن حيان برأوية ابن الأبار ، المصدر نفسه ج ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦١ ، ٦٢ .

(٤٥) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٨٠ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٨ ، ١٩ ، ابن الخطيب ، معيار الاختيار ، ٢١ ، ٢٢ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الضبي ، المصدر نفسه ، ص ١٨٩ - ١٩١ ، المقرئ ، نفع للطيب ، ج ١ ، ص ١٠٤ ، ٢٦١ ، ج ٢ ، ص ٣٥٤ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

## ثانيا - ظروف اسبانيا النصرانية واحوالها المؤثرة في علاقتها

### بالأندلس الاسلامية في عصر الخلافة

تحدثنا في الباب الأول والقينا نظرة عامة على احوال بلاد الأندلس وشمالى اسبانيا النصرانى وعرفنا عوامل القوة والضعف في كل منهما ووصلنا الى انه هناك حكومة واحدة تسيطر على الأندلس حتى نهاية عصر عبد الرحمن الثانى ( الأوسط ) ، وفى الجانب الآخر كانت هناك أيضا دولة واحدة وهى مملكة جليقية واشترىس ( ليون ) .

وفى اواخر عصر الامارة الأموية تهاوت سلطة أمراء بنى أمية وانقسمت الأندلس الى امارات مستقلة فيما يشبه عصر ملوك الطوائف، وقام الصراع بين هذه الامارات بعضها البعض ، وبينها وبين حكومة قرطبة . كذلك انقسمت دولة جليقية واستقل عنها الباسك أو النافيون وكونوا دولة نبرة ( نافار ) ، كما ظهرت امارة قطلونية في الشمال الشرقى لأسبانيا ، وقام الصراع أيضا بين هذه الدويلات الصغيرة واستعان بعضها بالمسلمين ، واستعان البعض الآخر بالفرنجة في صراعهم ضد بعضهم البعض .

ولهذا التماثل في الأوضاع السياسية لكل من الأندلس الاسلامية وشمال اسبانيا النصرانى في عصر الامارة ، نستطيع أن نقول أنه كان هناك توازن سياسى وعسكرى طوال هذا العصر ، عدا النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، حيث اختل التوازن ومال ميزان القوة في جانب اسبانيا النصرانية ، وحقق نصارى الشمال تقدما في أرض المسلمين ووصلت حدودهم الى نهر دوبرة .

كل هذا رايناه في عصر الامارة ، أما في عصر الخلافة فقد مال الميزان السياسى والعسكرى طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، فى جانب الأندلس الاسلامية ، وذلك لعدة أسباب . أولها : أن الأندلس



كانت دولة واحدة ، وكان لا يسيطر على أراضيها الا حكومة خلفاء بنى امية .  
اما في الشمال النصراني ، فكانت هناك مملكتان ، هما مملكة ليون ومملكة نبرة  
وامارتان هما امارة قطلونية ( برشلونية ) وامارة قشتالة التي لم يكن لها  
وجود في العصر السابق .

وثانيها : أن الخلافة سيطرت على اشراف الناس ورؤسائهم ، وقضت  
على نفوذهم سواء كانوا من العرب أم من المولدين أم من البربر ، وجعلت  
من بقى منهم مجرد ولاة أو عمال ، لا تحفل كتب التاريخ بمجرد الاشارة  
اليهم وخاصة منذ عهد الحكم المستنصر ، ( ٣٥٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م )  
اما في الشمال النصراني فكان النبلاء والاشراف لا يزالون يقومون بدورهم  
المعتاد الذي كانوا يقومون به في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ،  
من مساعدة ملك أو أمير ضد آخر ، حتى يضمّنوا سيطرتهم ، ويطمّنوا على  
مصالحهم ونفوذهم تجاه ملوكهم .

وبذلك كانوا عاملا من عوامل الاضطراب السياسي وخاصة في مملكة  
ليون . وبلغ الأمر بأحدهم وهو كونت قشتالة فرنان جونزالث  
Fernan Gonzalez أن يقيم دولة أو امارة جديدة وهي امارة قشتالة ، وظل  
يصارع مملكة ليون ومملكة نبرة مرة أخرى طوال القرن الرابع الهجري ،  
حتى أجهدهم الصراع جميعا وخضعوا لسلطان الخلافة .

وثالثها : في الأندلس ، انتهت الحروب الأهلية بقضاء الخلفاء على  
الثوار ، بينما بدأت تلك الحروب بشدة وعنف في الشمال النصراني ، وما كانت  
تهدا الا لكي تعود أكثر اشتعالا من جديد ، اما بسبب العرش أو بسبب  
التنازع على الحدود بين دول الشمال ، أو الطمع في ضم امارة الى أخرى  
بالقوة ، أو انفصال امارة عن أخرى . وكانت المصاهرات عاملا قويا في  
تحقيق هذه الأطماع وفي تعقيد الموقف السياسي ، واضطراب العلاقات بين  
دول الشمال النصراني بعضها البعض .

ورابعها : انقطاع مساعدة ملوك الفرنجة لمسيحيي شمال اسبانيا بسبب ما ابرم بين امراء بنى امية الأواخر وبين ملوك فرنسا من معاهدات تنص على الا يتدخل أى منهما فى شئون الآخر ، والا يساعد الفرنجة نصارى الشمال نظير أن يتخلى المسلمون عن برشلونة ، وكذلك انقطع تحالف امراء الفجر الأعلى الأندلسى من بنى قسى وغيرهم من نبلاء المسلمين وأمرائهم مع نصارى الشمال ، بسبب قضاء الخلافة على نفوذهم . وبذلك فقد مسيحيو الشمال العون الخارجى سواء من المولدين أم من الفرنجة ، مما ساعد على ازدياد ضعفهم وازدياد قوة الخلافة (٤٦) .

كل هذه الأسباب أدت الى سيطرة الخلافة على شبه جزيرة ايبيريا كلها ، وصارت كلمة الخلفاء هى العليا ، سواء فى الأندلس أو فى دول الشمال النصرانية حتى أن كلمة من خليفة قرطبة كانت تعزل ملكا وتعين آخر ، وكان هناك وجود اسلامى فى شكل حاميات أندلسية داخل هذه الممالك لتحميها من بعضها البعض ولتراقبها فى نفس الوقت ولتضمن السيطرة عليها أولا وقبل كل شئ .

وفى الفصل السابق وضعنا ايدينا على عوامل القوة فى أندلس الخلفاء ، وعرفنا أسباب تفوقهم . وعلينا الآن أن نتعرف على احوال ممالك اسبانيا النصرانية فى هذا العصر أى فى عصر الخلافة الأموية . وسوف نتعرض الى الأسرات الحاكمة فى كل دولة أو امارة ، لننتعرف على مدى استقرارها فى الحكم ، وعلاقتها بالقوى الداخلية وبخاصة النبلاء او الطبقة الأرستقراطية وما ثار فيها من حروب اهلية ، وكذلك علاقاتها بجيرانها من دول الشمال الاسباني الأخرى ، وأثر هذا كله فى علاقات هذه الدول بخلفاء بنى امية ، باحثين عن عوامل الضعف والقوة التى أشرنا اليها فى بداية هذا الحديث .

---

(٤٦) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الأول ، ص

## ١ - أحوال مملكة ليون : -

كان حاكم ليون هو الفوننش الثالث في نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى . وكما رأينا استقادت المملكة النصرانية مما أصاب المسلمين فى الأندلس من الفتن والانقسامات ، ولسم يأت القرن الهجرى / العاشر الميلادى الا وكانت هذه الدولة تهدد وجود المملكة الاسلامية ذاته ، واستطاع الفوننش الثالث أن يصل بهجماتة الى نهر التاجه ، وأن يبنى مدينة سمورة أو يعيد بناءها ويسكنها بالنصارى لتصبح مركز تهديد لقلب المملكة الاسلامية (٤٧)

لكن هذا الملك القوى تعرض عام ٢٩٨هـ / ٩١٠م لثورة ابنائه وزوجته الملكة خمينا النافارية ، وأجبروه على التنازل عن العرش ، وايدهم فى ذلك كثير من النبلاء ، فاضطر لتقسيم مملكته بين ابنائه الثلاثة ، وتنازل عن الملك لابنه الأكبر غرسية ( ٢٩٧-٣٠١ هـ / ٩١٠-٩١٤م ) وأخذ ابنه الثانى أردون جليقية ( غاليسيا ) ، وأخذ الثالث فرويلا ولاية اشنريس ( أستوريا ) ، وقنع أبوهم الفوننش بمدينة سمورة . وما لبث أن توفى فى نفس العام ، ولم يمكث ابنه غرسية فى الملك طويلا ، اذ توفى بعده ببضع سنوات ، فتولى عرش ليون من بعده أخوه أردون الثانى ( ٣٠١-٣١٢هـ / ٩١٤ - ٩٢٤ م ) (٤٨) .

كان أردون الثانى مكا نشيطا ، اذ انه انتهر فرصة الاضطراب الذى كان لايزال يسود الأندلس فى بداية عهد الناصر ، وأغار على الثغور الاسلامية ، متحالفا مع نبرة عدة مرات ، وما لبث أن توفى وخلفه أخوه فرويلا الثانى ( ٣١٢-٣١٣ هـ / ٩٢٤-٩٢٥م ) الذى توفى بعد عام من توليه العرش بسبب مرضه . وبوفاته نشبت نيران الحرب الاهلية الاولى بين شانجة والفوننش ابنى أردون الثانى بسبب الصراع على العرش . وانتصر

---

(٤٧) Chapman, op. cit., p. 57 & Livermore- op. cit., p. 83.

(٤٨) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٤ .

Livermore, op. cit., p. 92

الفونش على أخيه وتوج ملكا على ليون باسم الفونش الرابع ( ٣١٣ - ٣٢٠هـ / ٩٢٥ - ٩٣٢م ) . ويرجع انتصار الفونش الرابع الى المساعدة التي أتته من صهره شانجه غرسية الاول ملك نبرة ، الذي كان قد زوج ابنته لألفونس الرابع . كما تلقى مساعدة من بعض اعضاء الاسرة المالكة الآخرين . (٤٩)

ومهما يكن من أمر ، فإن شانجه أخو الملك الجديد ، والذي كان ينازعه على العرش ، لم ييأس وجمع جيشا جديدا وقر الى اطراف جليقية الشمالية ، وهناك توج نفسه ملكا في سنتياجو دي كومبوستيلا Santiago de compostela ثم زحف على ليون وحاصرها واستولى عليها ، واقصى اخاه عن العرش، فعاد ملك نبرة الى مساعدة صهره الفونش الرابع الذي استطاع بعد سنتين أن يسترجع ليون (عام ٣١٦هـ / ٩٢٨م) لكن اخاه شانجه ظل محتفظا بولاية جليقية (٥٠)

وبذلك انقسمت مملكة ليون بين الاخوين شانجه والفونش الرابع لمدة أربع سنوات ، ولم ينته هذا الانقسام وما صحبه من حرب أهلية الا بوفاة شانجه عام ٣١٧هـ / ٩٢٩م . وكان هذا الصراع فرصة ذهبية استغلها عبد الرحمن الناصر في تحطيم الثوار المارقين عليه في الأندلس ، وفي القضاء على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى .

ولكن الحرب الأهلية عادت من جديد وبصورة اشد عنفا مما سبق . ذلك ان الفونش الرابع غلبه الحزن الشديد على فقد زوجته ، وتنازل عن العرش لأخيه ردمير (راميرو) الثاني (٣٢٠ - ٣٣٩هـ / ٩٣٢ - ٩٥١م) ودخل الدير واعتنق الرهبانية . لكنه عافها بعد قليل وترك الدير ونادى بنفسه ملكا في سيمنة واعتبر الرهبان هذا العمل علرا

(٤٩) ابن حيان برواية ابن خلدون ، الجبر ، ج ٤ ، ص ١٢٢ .

Dozy, op. cit., pp. 422-423, Livermore, op. cit., p. 92. (٥٠)

(٥١) عثان ، تاريخ العرب في اسبانيا ص ١٥٢ .

كبيراً وهددوه بعقاب الله إذا لم يعد إلى الدير من جديد ، فاستسلم لهم لأنه كان ضعيف الشخصية ، وعاد إلى الدير مرة أخرى . (٥٢)

ما لبث الفونش أن حن إلى العرش مرة أخرى ، وانتهاز فرصة غياب أخيه ردمير الثانى لذهابه إلى طليطلة ومساعدتها في ثورتها ضد عبد الرحمن الناصر ، واستولى على ليون . وما أن سمع ردمير بذلك ، حتى عاد على الفور ، وبدوره حاصر ليون ، واستولى عليها . لكى يضع حدا لمحاولات أخيه الفونش فقد قام بسمل عينيهِ ، هو وثلاثة من أبناء عمه فرويلا الثانى ، الذين كانوا قد ساعدوه في الثورة ضده . وبذلك خلص الحكم لردمير الثانى الذى كان ملكاً شجاعاً ، استطاع أن ينتصر على عبد الرحمن الناصر في موقعة الخندق الشهيرة عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . (٥٣)

لكن ردمير لم يستمتع بهذا النصر طويلاً ، لأن الحر بالاهلية نشبت من جديد ، ليس بسبب العرش هذه المرة ، ولكن بسبب حركة انفصالية قادها كونت قشتالة فرنان جونثالث في عام ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م . وكان أهل قشتالة يتحرقون شوقاً للاستقلال عن ليون ، وللانتقام لمقتل زعمائهم الذى قام به والد الملك ردمير الثانى من قبل . لكن هذا الملك انتصر أيضاً على قشتالة وأسر زعيمها فرنان جونثالث ، وعين لها حاكماً آخر . وما لبث أهل قشتالة أن قاموا بالثورة من جديد وزحفوا على ليون ، فاضطر ردمير إلى فك أسر زعيمهم ، وأن يصاهره توثيقاً للعلاقات والروابط بينهما . وقد أدت الاحداث إلى ضعف حكومة ليون ، إذ أن ردمير فقد معاونته أهم

---

(٥٢) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ص ١٤٢ ،

(٥٣) يقول ابن خلدون أن ردمير سمل عيون أخوته وليس أبناء عمه فرويلا الثانى . لكن الصحيح هو ما أشرنا إليه في المتن ، لأن الرواية النصرانية لم تشر إلى ذلك ، ولأن ردمير لم يكن له أخوة إلا شانجة ، وقد مات من قبل في عام ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م كما تقدم ، والأخ الثانى وهو للفونش الرابع الذى قام أخوه ردمير بسمل عينيهِ مع أبناء عمه الثلاثة . انظر ابن Dozy, op cit., p. 424.

خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ،

Livermore, op. cit., pp. 94-95

واشجع تابعيه ، ولذلك شددت الخلافة الاموية الضغط عليه ، ولم لبث  
ان مات في عام ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م<sup>(٥٤)</sup>

وما أن توفي ردمير الثانى حتى نشبت الحرب بالاهلية من جديد بسبب  
وراثة العرش . ذلك أن ردمير الثانى كان قد أنجب من زوجته الغاليسية  
( الجليقية ) ابنه أردون ، ومن زوجته النافارية أوراقة ، أخت غرسية  
ملك نبرة ، ولدا آخر هو شانجة .<sup>(٥٥)</sup>

ادعى أردون أحقيته في العرش باعتباره أكبر الأخوين<sup>(٥٦)</sup> ولكن  
شانجة نازعه معتمدا على مساعدة أخواله النافاريين ، وعلى القشتاليين  
الذين وعدهم بالاستقلال . وقام هؤلاء جميعا بالزحف على ليون ، لكن أردون  
هزمهم وتولى العرش ( ٣٣٩-٣٤٤ هـ / ٩٥٠-٩٥٦ م ) ، وفر شانجة  
الى جدته طوطة ( تيودا ) ملكة نبرة ، كما اضطر أردون أمام هجمات الناصر  
الشرسة أن يعقد معه معاهدة اعترف له فيها بالطاعة عام ٣٤٤ هـ /  
٩٥٥ م ، وما لبث أن مات في العام التالى .<sup>(٥٧)</sup>

ولما كان أردون الثالث قد ترك طفلا رضيعا ، فقد استطاع شانجة  
أن يلى العرش بعد وفاة أخيه أردون ، لكن النبلاء كرهوه لأنه كان طاغية  
مستبدا لا يهدف الا لتحطيم نفوذهم . ونقض الهدنة التى كان قد عقدها

---

(٥٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٥ - ٣٢٥ ، ابن الخطيب ، اعيان

Dozy, op. cit., pp. 435-436

الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ،

(٥٥) يخطئ ابن عذارى ويقول ان اسمه غرسية ، وهذا غير صحيح ، انظر ، ابن

عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٥٦) يقول دوزى انه لم يكن له حق في العرش لانه ابن غير شرعى ، انظر ،

Dozy, p. cit., p. 436

(٥٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، آبق كلدون ، العبد

ج ٤ ، ص ١٤٣ ،

Dozy, p. cit.- pp. 436, 437 & Livermore, op. cit., p. 95.

أخوه مع الناصر ، فهزمت قوات الخلافة ، وانتهر كونت قشتالة الطموح  
فرنان جوثالث الفرصة ، وتآمر مع النبلاء الآخرين وعزلوه عن العرش ،  
واقاموا ابن عمه أردون الرابع ( ٣٤٧-٣٤٨ هـ / ٩٥٨-٩٥٩ م ) ابن الفونس  
الرابع ، ملكا على ليون . وفر شانجه الى جدته طوطة في نبرة مرة أخرى<sup>(٥٨)</sup>

اتبع اردون الرابع سياسة سيئة في معاملة الرعية والنبلاء حتى  
انه سمي في اواخر أيامه باسم أردون الشرير ، وقد اختير للعرش لأنه  
لم يكن هناك في الاسرة المالكة من يمكن اختياره بدلا منه ، وقد دعم مركزه  
بمصاهرة كونت قشتالة بأن تزوج من ابنته أوراقة Urraca ، أرملة  
أردون الثالث ، التي أصبحت ملكة على ليون للمرة الثانية . لكن أردون  
الرابع لم يتمتع بالعرش طويلا ، اذ أن غريمه شانجه الذي لجأ الى جدته  
طوطة ملكة نبرة ، وفد هو وجدته هذه وابنها غرسية بن شانجه الاول  
ملك نبرة الى قرطبة لتقديم غروض الولاء والطاعة ، وليطلبوا مساعدة  
الخليفة الناصر الذي تمكن من اعادة شانجه الى عرشه نظير التخلي للخليفة  
عن بعض الحصون عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٩ م ، وهرب أردون الرابع الى  
أستريس .<sup>(٥٩)</sup>

وكانت هذه التطورات مدعاة لكي يعلن كونت قشتالة استقلاله  
عن ليون ، وأصبحت قشتالة منذ بداية النصف الثاني من القرن الرابع  
الهجري / العاشر الميلادي دولة مستقلة . وكان لذلك أثره في مملكة ليون ،  
اذ حاول حاكم جليقية الكونت جنزالفو Gonsalvo أن يقلده واثار  
الاضطرابات هناك ، وانضمت اليه لاميجو وفيزوى وقوامبرة . ونجح الملك  
شانجه في السيطرة على الثورة في المنطقة التي تقع شمال الدويرة ، لكن  
كونت جليقية طالب بمقابلته وأعطاه فاكهة مسمومة ، ما أن تذوقها شانجه

(٥٨) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ١٨٠ ، التلغشتدي ، صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٥ ،  
Dozy, op. cit., p. 440 & Livermore, op. cit., p. 36.

(٥٩) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ،  
Dozy, op. cit., p. 440, 444 & Livermore, op. cit., p. 96.

حتى احس بالموت وطلب العودة الى ليون حيث مات في اليوم الثالث من وصوله اليها عام ٣٥٦ هـ / ٩٦٦ م . (٦٠)

ترك شانجة على عرش ليون طفلا لم يتعد عمره الخمس سنوات، حكم باسم ردمير الثالث ( ٣٥٤-٣٧٠ هـ / ٩٦٦-٩٨٢ م ) تحت وصاية عمته البيرة Elivira راحية دير سان سلفادور في ليون . وأقبلت هذه المرأة مثل طوطة من قبل الى قرطبة لطلب السلام مع الحكم المستنصر . ويبدو ان الشروط كانت مجحفة بالنسبة للملك ليون ، مما اثار نبلاء ولاية جليقية ، وخاصة انهم لم يودوا الخضوع لامرأة وطفل ، فأعلنوا استقلالهم وانقسمت المملكة بين عدد من النبلاء الصغار ، وضاعت هيبتها (٦١)

ولما كبر ردمير الثالث حاول غزو الثغور الاسلامية في عهد المنصور ابن ابي عامر لكنه هزم عدة مرات ، فتمرد اهل ولاية جليقية وعزلوا ردمير عن العرش ، اذ اعتقدوا ان سوء الحظ ملازم له ، كما انه جرح كبرياءهم بادعائه سلطة اوتوقراطية فنشبت الثورة ضده ، وولى النبلاء ابن عمه برمند ( برمودو ) الثاني الذي كان مقيما عندهم في شنت يلقب « سنتياجو » ، ( ٣٧٠ - ٣٨٧ هـ / ٩٨٢ - ٩٩٩ م ) . (٦٢)

وقامت الحرب بين الملكين ، وزحف ردمير على برمند الثائر ، Portilla de Arenas وعلى الحدود بين ليون وجليقية ، نشبت المعركة وحالف الحظ قواد برمند الذي استطاع في عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م أن يستولي على مدينة ليون من الملك السابق ردمير ، وهرب الاخير الى مرتفعات استورقة

---

(٦٠) ابن الخطيب ، اعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، عان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ١٥٦ .

Dozy, op. cit., p. 453 & Livermore, op. cit., p. 96.

Dozy, op. cit., pp. 453, 454 & Livermore, op. cit., pp. 96,97. (٦١)

Dozy, op. cit.- p. 500. (٦٢)



Astorga وطلب المساعدة من المنصور ، واعترف به كسيد أعلى له ،  
لكه مات بعد ذلك بقليل في عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . (٦٣)

بعد وفاة ردمير حاولت أمه أن تحكم بواسطة مساعدة اسلامية ،  
لكن الحماية الاسلامية انسحبت وتركها دون تأييد أمام ازدياد قوة برمند  
الذي أدرك أنه إذا لم يحد حذو ردمير ، فاته سوف يجد صعوبة  
كبيرة في اجبار النبلاء المنافسين على احترامه والاعتراف بسلطانه ، ومن ثم  
مقد أعلن خضوعه للمنصور بن ابي عامر ، لكنه مالبث أن تمرد عليه  
ومات مهزوما عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وخلف طفلا صغيرا ارتقى العرش  
باسم الفونش الخامس ( ٣٨٩-٤١٦ هـ / ٩٩٩ - ١٠٢٨ م ) . وبسبب  
الموصاية على هذا الطفل ، قام النزاع بين شانجه غرسية كونت قشتالة  
وخال الفونش الطفل ، وبين منتدو جونثالث Menando Gonzalez  
والتي تسميه الرواية الاسلامية مسد بن عبد شلب أو منتد بن غندشلب (٦٤)

احتكم الرجلان المتنازعان على الوصاية الى عبد الملك المظفر بن  
المنصور بن ابي عامر والذي خلف اياه في حجابة الخليفة هشام المؤيد في  
الفترة ( ٣٩٢ - ٣٩٩ هـ ) ، فأوفد اليهما المظفر بعض نصارى قرطبة  
محكموا بالوصاية لمنتدو جونثالث الذي ظل يقوم بها حتى مصرعه عام  
٣٩٨ هـ / ١٠٠٨ م ، فباشر الفونش الخامس شئون الحكم بنفسه وطلب  
من النبلاء اعلان الطاعة له ، فاطاعوه واستتب له الامر ، وامتد به  
الأجل حتى سقطت دولة بنى عامر وهاوت الخلافة الاموية ، وتوحدت  
ممالك الشمال الأسباني ونشطت حركة الاسترداد نشاطا كبيرا . (٦٥)

Dozy, op. cit., p. 500

(٦٣)

(٦٤) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، القفشندي ، صبح الأعشى ج ٥ ،

ص ٢٦٦ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

Dozy, op. cit., p. 500 & Livermore, op. cit., pp. 97, 98,

(٦٥) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٢ ، ١٨١ ، القفشندي ، المصدر نفسه ،

ج ٥ ، ص ٢٦٦ .

Dozy, op. cit., p. 500 & Livermore, op. cit., pp. 97,98.

وفي هذا الحديث الذي سقناه حتى الآن عن مملكة ليون رأينا جميع الظواهر التي أوردناها في بداية حديثنا من قبل ، من صراع على العرش وعلى الأرض ، وتدخل النبلاء بين هذا وذاك من الملوك والأمراء ، والمصاهرات وأثرها في العلاقات بين مملكة ليون وغيرها من ممالك الشمال الإسباني ، وما أدى إليه كل ذلك من ضعف ووهن في جسم دولة ليون ، حتى أن معظم ملوكها لم يحكموا إلا بعد اذعانهم لخلفاء بني أمية ودفع الجزية لهم ، وتحكيمهم فيما نشب بينهم من خلاف ، مما جعل كلمة الخلاف هي العليا في شئون شبه الجزيرة . وسوف يتضح هذا كثيرا عند حديثنا عن العلاقات بين مملكة ليون ودولة الخلافة .

## ٢ - أحوال مملكة نبرة ( نافار ) :

بدأ عصر عبد الرحمن الناصر ، وكان في حكم نبرة الملك شانجة بن غرسية الاول ( ٢٩٢-٣١٣ هـ / ٩٠٥-٩٢٥ م ) ، وهو أول من أعلن أنه « ملك » من أمراء نبرة ، وبه تبدأ مملكة نبرة الحقيقية ، ومنه خرجت الأسرة الملكية التي حكمت تلك البلاد ، ثم ضمت إليها ليون وقشتالة في الثلث الاول من القرن الخامس الهجري/الخادي عشر الميلادي ، نتيجة للمصاهرات والحروب الاهلية .

وتتميز هذه المملكة باستقرار الحكم فيها ، وعدم قيام نبلاتها بالتمرد ضد ملوكها خلافا لما رايناه في مملكة ليون ، وهذا يرجع الى طبيعة نظام الحكم الذي كان يقوم على مبدأ الاختيار او الانتخاب . وكما ارتبطت الأسرة الملكية النافارية بعلاقات المصاهرة مع ملوك ليون وكونتات قشتالة ، فانها أيضا صاهرت أمراء بني قسي المسلمين حكام البشعر الأعلى الأندلسي ( سرقسطة ) منذ عصر الإمارة ، وساعدها ذلك على الوقوف أمام اطماع جيرانها من ملوك ليون وأمراء بني أمية .

وكانت مملكة نبرة غالبيتها تتحالف مع ملوك ليون اذا اشتد الخطر عليها من جانب قوات الخلافة ، لذلك فاننا نرى سلسلة من المحالفات بين الجانبين ، بدأت منذ بداية القرن الرابع الهجري / العاشر

الميلادى ضد المسلمين .. ولم يكن نشاط شانجة الأول قاصرا على مهاجمة مناطق الثغور الاسلامية ، فقد تدخل في الشؤون الداخلية لمملكة ليون عندما قام الصراع على العرش بين ابنى خليفه اردون الثانى بن الفونس الثالث ، وكان احدى الأخوين وهو الفونس الرابع زوجا لابنة شانجة ملك نبرة .. ورغم هزيمة الفونس الرابع في البداية الا ان جيوش نبرة ساعدته على الصمود امام أخيه الذى لم يلبث ان مات عام ٢١٧ هـ / ٩٢٩ م<sup>(٦٦)</sup> .

كان شانجة ملك نبرة قد مات اثناء الصراع بين هذين الأخوين الليوينيين وترك على العرش طفلا صغيرا يدعى غرسية شانجة Garcia Sanchez ( ٣١٤ - ٣٥٩ هـ / ٩٢٦ - ٩٦٩ م ) ، وقامت أمه الملكة طوطة بالوصاية عليه<sup>(٦٧)</sup> وتصرفت ككائب للملك . وقد حاربت هذه الملكة العنيدة الخلافة حوالى ٣٠ عاما ، تحالفت اثناءها مع ليون وزوجت ابنتها أوراقة من ملك ليون ردمير الثانى ، واشتركت معه في هزيمته للناصر في معركة الخندق عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٨ م<sup>(٦٨)</sup> .

وعن طريق المصاهرات مع ملوك ليون استطاعت برة التدخل اكثر من مرة في فرض الملوك الذين ينتسبون اليها بالمصاهرة ، ومساعدتهم في الجلوس على عرش ليون ، اذ انه بعد وفاة ردمير الثانى عام ٣٣٩ هـ / ٩٥١ م ، قامت الحرب الأهلية بين ولديه حيث كان أكبرهما وهو اردون من أم من جليقية ، والثانى شانجة من أوراقة النافارية ، ابنة الملكة طوطة . الا ان الابن الأكبر اردون هزم قوات أخيه

(٦٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٨٦ ، ابن خلدون ، المعر .

ج ٤ ، ص ١٤٢ .

Livormore, op. cit., p. 94.

(٦٧) يقول Livormore, أنها جدته وهذا خطأ والصحيح ما أثبتناه . ويقول ابن خلدون المعر ج ٤ ، ص ١٤٢ . أنها اخته ثم يعود الى تصحيح نفسه ويقول أنها أمه .

Livormore, op. cit., p. 95.

(٦٨)

وعقد الصلح مع الناصر ، وفر شانجة الى جدته طوطة في نبرة<sup>(٦٦)</sup> .

ولما عاد شانجة الى حكم ليون بعد وفاة أخيه اردون الثالث . عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٦ م نازعه العرش ابن عمه اردون الرابع ، وطرده من ليون بمساعدة القشتاليين فلبا شانجة الى جدته مرة أخرى . ولما كانت نبرة لاتستطيع مواجهة ليون وقشتالة بمفردها فقد بحثت طوطة عن حليف قوى ، ولم يكن امامها الا الخليفة عبد الرحمن الناصر . وكانت هذه الملكة تحكم مملكة نبرة باسم ابنها شانجة بن غرسيه الاول ، مع انه بلغ ن العمر ما يمكنه من أن يحكم بمفرده<sup>(٦٧)</sup> .

وقد كان حبها لحفيدها شانجه الليوني مسيطرا عليها بالدرجة انها نسيت أحقادها وعداءها للمسلمين الذي يزيد عمره عن ثلاثين عاما ، ووفدت على الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وتعاقدت معه على أن يعيد حفيدها الى عرشه في ليون . وتم ذلك عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٩ م بعد أن قامت قوات نبرة بمهاجمة قشتالة المتحالفة مع ملك ليون مقتصب العرش ، واستطاعت أن تأخذ أميرها الكونت فرنان جونثالث أسيرا ، وبعد أن تمت هزيمة اردون الرابع فر الى جبال اشتريس<sup>(٦٨)</sup> .

خلف شانجة الثاني ( ٣٥٩ - ٣٨٤ هـ / ٩٦٩ - ٩٩٤ م ) والده غرسيه بن شانجة الاول وصاهر المنصور بن أبى عامر ، لكنه مات وخلف ابنه يسمى غرسية ( ٣٨٤ - ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ - ١٠٠٠ م ) على عرش نبرة ، لكن يبدو أنه كان ضعيف الشخصية ، لان المراجع النصرانية تشير اليه وتسميه غرسية المرتجف أو المرتعش ، كما أنه هزم أمام قوات المنصور الذي دمر عاصمته وخرب مملكته<sup>(٦٩)</sup> .

Livermore, op. cit., p. 95.

(٦٩)

(٧٠)

(٧١) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ .

Dozy, op. cit.- p. 444. & Livermore, op. cit., p. 96.

(٧٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٣ ، ص ٦٢ - ٦٥ .

Dozy, op. cit., p. 497 & Livermore, op. cit., p. 98.

على أية حال فقد مات غرسية في سن مبكرة وترك ابنا صغيرا يسمى شانجة كان يعيش في بلاط قشتالة لأن أمه الملكة خيمنة Ximena كانت من أصل قشتالي ، وبذلك وضع تحت رعاية كونت قشتالة الثالث شانجة بن غرسية بن فرنان جونثالث مؤسس الإمارة القشتالية ، وزوجه كونت قشتالة هذا من ابنته الكبرى التي تسمى البيرة ، وتولى شانجة هذا عرش نبرة باسم شانجة الثالث ( ٣٩٠ - ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٣٩ م )

وبعد اعتلاء شانجة عرش نبرة بقليل دخلت البلاد النصرانية والإسلامية في أسبانيا في عصر جديد ، هو عصر ملوك الطوائف مما سنتحدث عنه في الباب الثالث . لكن ما يهمنا الآن هو أن نقول أن الأسرة المالكة في نبرة كما وضع من هذه الدراسة السريعة كانت فعلا متميزة عن الأسرة المالكة في ليون ، إذ لم يحدث فيها إطلاقا صراع على العرش ، ولهذا تفرغت تلك الملكة إما لجاهدة المسلمين أو لجاهدة ملوك ليون أو أمراء قشتالة . ولكن الصراع الذي دار بين هذه القوى أضعفها أمام هجمات الناصر والمنصور ولم تستطع نبرة أن تتبوا مكائنها إلا بعد أن انهارت الدولة العمارية والخلافة الأموية في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي .

### احوال إمارة قشتالة :

كانت قشتالة إحدى ولايات مملكته ليون الشرقية ، فهي بذلك تقع بينها وبين نبرة كما تطل على الثغور الإسلامية من ناحية الشمال الأوسط وتضم قشتالة مدينة برغش Burgos وأبله Avila وشقوبية Segovia وصورية Soria ، ولوكروني ، وسانت أندر Santander أو شنت أروم . وهي مدينة تواجه من الثغور الإسلامية قلعة أيوب ومدينة سالم والثغر الأوسط . وبسبب هذا الموقع كانت منطقة قشتالة معبرا لجنود الإمارة والخلافة عند مهاجمتها لمملكة ليون أو لمملكة نبرة .

وكانت منطقة قشتالة تسمى في الروايات الاسلامية بمنطقة البسة والقلاع ، وقد سميت بهذا الاسم نظرا لهذا العدد من القلاع Castles الذي أنشأه القشتاليون اتقاء لهجمات القوات الاسلامية ، ومنها جاء اسم المنطقة نفسها فسميت قشتالة Castilla ، وظهرت قشتالة نتيجة لتوسع مملكة ليون جنوبا وشرقا على عهد الملك الفونس الثالث ( ت ٢٩٦ / ٩١٠ م ) الذي وصل بحدود مملكته جنوبا الى نهر الدويرة مستردا زامورة وسيمينقاس في السنوات الاولى من القرن التاسع الميلادي . (٧٤)

وقد عمرت هذه المناطق بنبلاء وأساقفة من الشمال ، واتخذت شكلا محددا تحت قيادة أحد زعمائها القشتاليين الذي وارث السلطة لابائهم ، وهو الكونت فرنان جونثالت . وقد امتدت حدود قشتالة في عهده من حدود الباسك في الشمال الى الثغر الاسلامي عند وادي الرملة Guadarrama في الجنوب ، وعمرت بهؤلاء الأبطال المحاربين الجليلين الذين تركوا الأمان في بيوتهم وسكنوا هذه القلاع مغابرين بأنفسهم على أمل احراز المجد والنصر ضد المسلمين (٧٥)

ولدت قشتالة في خطر من حيث الزمان والمكان ، بسبب موقعها بين ليون ونبرة كان لا يمكن لقشتالة أن تستمر طويلا كامارة مستقلة ، فقد كانت مسرحا للصراع بين هاتين المملكتين ، وعرضة لهجماتهم ضد بعضهم البعض ، كما كانت عرضة لهجمات الجيوش الاسلامية في نفس الوقت . ولذلك أتبع أمراء قشتالة أسلوب المصاهرات وخاصة مع نبرة ، حتى تضمن حليفيا يشد أزرها في صراعها مع ليون في معركة نيل الاستقلال عنها . كما تسلمت قشتالة داخل الاسرة المالكة الليونية نفسها عن طريق المصاهرات ايضا وضمنت بذلك الحفاظ على هذا الاستقلال . وأدت هذه المصاهرات في النهاية الى اتحاد قشتالة وليون ونبرة ، وأصبحت هذه المنطقة كلها تسمى مملكة قشتالة .

Crow, op. cit., p. 81.

(٧٤)

Livermore, op. ict., p. 93.

Crow, op. cit., p. 81, Livermore, op. cit., p. 93.

(٧٥)

وقد تميز الحكم في امارة قشتالة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عنه في مملكة ليون . اذ ان الحكم في قشتالة كان وراثيا لا يتخلله صراع على الحكم كما حدث في ليون ، فلم يكن هناك نبلاء يتصارعون مع الأمير على السلطة . لأن تلك الفترة التي كانت تعيشها قشتالة كانت فترة تحقيق الاستقلال ، وفترة الصراع مع ليون ونبرة لثبیت هذا الاستقلال والدفاع عنه ، وفترة الصراع في نفس الوقت مع الخلافة الاسلامية الصاعدة وكان أميرها المؤسس غرنان جونزالث هو الذي كان يقودها في هذا الصراع الطويل المرير ، لذلك كان القشتاليون يعتبرونه بطلا قوميا ، لدرجة أنهم خلدوا اسمه في اشعارهم واساطيرهم . (٧٦)

وهكذا كان امراء قشتالة متفرغين تماما لتحقيق هدفهم أو ملهم في الاستقلال عن ليون ، وفي مجاهدة المسلمين في نفس الوقت . ساعدها على ذلك طبيعتها الجغرافية وما فيها من عدد هائل من القلاع والحصون ، وموقعها المتوسط الذي يجعلها تلجأ الى جارتها الشرقى أو الغربى اذا اعتدى عليها واحد منهما (٧٧) .

وكانت بداية الاحتكاك بين شعب قشتالة وبين ملوك ليون عندما وزع الملك الفونس الثالث المملكة بين اولاده الثلاثة في عام ٩١٠ (٢٩٦هـ) ، وقد تضايق أهل قشتالة من ملوك ليون الذين كانوا يعتبرونهم من سلالة القوط ، ولان هؤلاء الملوك كانوا يفرضون انفسهم كحكام على أساس الوراثة ، بينما الجنود الاحرار من أهل قشتالة والمرابطون دائما على الحدود كانوا يختارون عادة قضاتهم كحكام لهم وكانوا يحافظون على عاداتهم وحبهم للحرية . وقد حاول الفونس الثالث ان يكسر من شوكتهم وحبهم للاستقلال بتقسيم منطقة قشتالة بين عدد من القوامس أو الكونتات كما احتال ابنه اردون الثانى ( ٣٠١ - ٣١٢ هـ / ٩١٤ - ٩٢٤ م ) على

Crow, op. cit., p. 81

(٧٦)

Chapman, op. cit.- p. 57.

(٧٧)

عدد كبير من نبلاء قشتالة وزعمائها وقبض عليهم وأعدمهم فهدأت قشتالة حيناً لموت زعمائها ، لكنها كانت تتحين الفرصة للانتقام من ليون (٧٨)

وقد حانت هذه الفرصة ووجدت قشتالة بطلها المنتقم في شخص الكونت فرنان جونثالث  
Count Fernan Gonzalez  
الذى كانت حياته مصدراً لالهاب خيال شعراء القرون الوسطى . وقد انتهر هذا الكونت فرصة الحرب الأهلية التى نشبت فى ليون بين أبناء أردون الثانى على العرش ، وقام بتوحيد قشتالة فى عام ٣١٩ هـ / ٩٣١ م وجعل منها إمارة لها كيائها وحدودها (٧٩)

انتهت الحرب الأهلية الليونية بموت ابنى أردون أحدهما بعد الآخر . وبقي ردمير الابن الثالث الذى اعتلى العرش عام ٣١٩ هـ / ٩٣٢ م ووجد أمامه إمارة قشتالية لها أميرها وهو الكونت فرنان جونثالث . لم يقدر ردمير الثانى على تجاهل هذا الوضع واستفاد منه ، إذ استعان بالقشتاليين فى صد هجمات الناصر ، ثم فى الهجوم عليه وهزيمته فى موقعة الخندق عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . وفى نفس الوقت لم يفكر الكونت فى التمرد ضد ليون طالما أن جيوش الخلافة كانت تعيث فى بلاد النصارى وتنهب الأديرة وتحرقها . ولكن عقب موقعة الخندق ، رأى الكونت أنه لم يعد هناك ما يخشاه من المسلمين ، فأعلن تمرده ضد ملك ليون (٨٠)

قامت حرب الاستقلال بين ليون وقشتالة ، لكن ردمير الثانى ملك ليون انتصر وأسر عدوه فرنان جونثالث ، وسجنه فى ليون ، ومنح ولاية قشتالة لأحد رجاله ، ثم أرسل ابنه شانجه للإقامة هناك فى عاصمتها برغش

---

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 92. (٧٨)

(٧٩) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 92.

Dozy, op. cit., p. 432 & Livermore, op. cit., p. 95 (٨٠)

Chapman, op. cit., p. 57.



ورغم أنه أحسن معاملة القشتاليين إلا أنهم ظلوا مخلصين لأميرهم الماسور ولم تخمد في نفوسهم نيران الوطنية . ولما طال أسر زعيمهم ناروا وزحفت قواتهم على ليون ، فخشى ردمير عاقبة هذا الأمر ، وأطلق سراح فرنان جونثالث بشروط فادحة ، هي أن يقسم يمين الطاعة ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكه بأردون ابن ردمير . قبل الكونت ذلك مكرها ، وظل أهل قشتالة ناظمين على ليون ، ففقد ردمير بذلك مساعدة أمهر قواده وأشجع جنوده ، واضمحلت قواه العسكرية واضطر للالتزام بخطة الدفاع أمام هجمات المسلمين ، وهو المنتصر عليهم في موقعة الخندق المشهورة (٨١)

وكان للكونت فرنان أمير قشتالة دور خطير في الصراع الذي نشب بين ابني غريمه ردمير ملك ليون ، أردون وشانجه . ورغم أن أردون كان زوجا لابنة الكونت إلا أن الكونت كان لا يميل إلى مساعدته لأن المصاهرة كانت قهريّة كما تقدم ، كما أن أردون رفض مطالبه في أن يكون مركزه في قشتالة أمرا وراثيا ، وأن يعترف بوحدة قشتالة بحيث لا تجزأ مرة أخرى . ولذلك فضل الكونت مساعدة شانجه الذي وعده برد أملاكه إليه ، وكذلك الاعتراف باستقلال قشتالة . فحشد الكونت جنده وتقدم لمساعدة شانجه . إلا أن أردون هزم أعداءه وتولى حكم ليون ( ٣٣٩ — ٣٤٤ هـ / ٩٥٠ — ٩٥٦ م ) (٨٢)

وتدخل أمير قشتالة مرة أخرى في ليون عندما مات أردون الثالث ، وقام الصراع بين أخيه شانجه الأول وبين ابن عمه أردون الرابع ، ذلك أن أردون الرابع كان قد تزوج أرملة أردون الثالث ملك ليون السابق ، وهي كما تقدم ابنة أمير قشتالة الكونت فرنان جونثالث ، الذي انتهز فرصة الصراع بين أفراد الأسرة المالكة الليونية وحقق استقلال قشتالة بحيث لم يعد

Dozy, op. cit., pp. 435 & Livermore, op. cit., p. 95 (٨١)

Dozy, op. cit., p. 436 & Livermore, op. cit., p. 95 (٨٢)

ملك ليون أى سلطة عليها ، بل ان قشتالة كانت بقوتها ومصاهرتها هى  
التي تقرر من يحكم ليون (٨٣)

قرر أمير قشتالة التدخل على الفور فى أحداث ليون ، ووقف الى جانب  
زوج ابنته أردون الرابع وأرسل له جيشا قشتاليا ، ففر شانجه الى جده  
الملكة طوطة ملكة نبرة التى صحبتته ووفدت على الخليفة عبد الرحمن  
الناصر ، وعقدت معه معاهدة اعترفت له فيها بالطاعة ودفع الجزية  
على ان يساعد حفيدها شانجه على العودة الى عرشه . وقامت قوات  
نبرة بمهاجمة قشتالة ، وقامت القوات الاسلامية بمهاجمة ليون ففر أردون  
الرابع الى جبال أشتريس ، وأسر الكونت فرنان أمير قشتالة نفسه بواسطة  
النافاريين وحمل الى بنبلونة ، بينما اتخذ صهره المخلوع أردون الرابع  
طريقه الى قرطبة لطلب المساعدة(٨٤)

أطلق النفازيون سراح أمير قشتالة بعد ذلك بقليل ، لكنه لم يلبث  
ان مات وخلفه فى حكمها ، ابنه الأمير غرسية ( ٣٦٠ — ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ —  
٩٩٥ م ) والذى تسميه الروايات الاسلامية غرسية بن فرذلند او غرسية بن  
فرانه بن عبد شلب . ظل هذا الامير يعيش فى هدوء حتى قام الصراع بين  
القائد غالب والمنصور بن أبى عامر على السلطة فى عصر الخليفة هشام  
المؤيد الطفل ، وحاول غرسية التدخل فى جانب غالب ، لكنه منى  
بالهزيمة ثم اشترك بعد ذلك فى تحالف مع راميرو الثالث ملك ليون  
( ٣٥٦ — ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ — ٩٨٢ م ) ، لكنهم هزموا ، ومات غرسية أسيرا  
فى قرطبة على قول احدى الروايات النصرانية ، وان كانت الرواية  
الاسلامية لم تشر الى ذلك (٨٥)

---

(٨٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعمال ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ .

(٨٤) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ،  
Dozy- op. cit., p. 444, Livermore, op. cit., p. 96.

(٨٥) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ١٥٥ — ١٥٦ ،  
Livermore, op. cit., pp. 97, 98.

ترك غريسيه ابنه شانجة في حكم قشتالة ( ٣٨٥ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٥ - ١٠١٧ م ) . وقد احتفظ مع سميّه غريسيه شانجة ملك نبره ( ٣٨٤ - ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ - ١٠٠٠ م ) بعلاقات حميمة ، وقد فتح غريسيه القشتالي باب قصره لكي ينشأ فيه شانجة ابن صديقه غريسيه ملك نبرة ، لأن أمه كانت من أصل قشتالي ، ولأن والده ملك نبرة كان قد مات في سن مبكرة . وعمل غريسيه أمير قشتالة على ربط قشتالة بنبرة ، فزوج شانجة الذي صار فيما بعد ملكا على نبرة باسم شانجة الثالث ( ٣٩٠ - ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٣٩ م ) من ابنته الكبرى المسماة البيرة ، كما زوج ابنته الأخرى المسماة طريجة من ملك ليون برمند وكان من نتيجة هذه المصاهرات أن ارتبطت البلاد الثلاثة في وحدة واحدة في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بينما كانت الأندلس تعيش عصر التفرق والانقسام والصراع في عهد ملوك الطوائف (٨٦)

وهكذا نرى أن الأوضاع الداخلية في الدولة النصرانية في شمالي اسبانيا كانت تساعد خلفاء بنى أمية على القيام بدورهم في فرض السلام على جميع أجزاء شبه جزيرة أيبيريا . فقد شغلت مملكة ليون بالحروب الأهلية الداخلية المتتالية بسبب الصراع على العرش ، وقد أعاقها ذلك بالتاكيد عن القيام بدور نشط ضد خلفاء بنى أمية كما شغلت هذه الدولة من ناحية أخرى بالصراعات التي أثارها إمارة قشتالة في سبيل تحقيق استقلالها عنها ، وشغلت قشتالة وليون ونبرة بالصراع ضد بعضها البعض تأييدا لهذا الأمر أو ذاك من تربطه علاقة مصاهرة بأحد ملوك هذه الدولة أو تلك .

وكان من نتيجة ذلك أن قل التعاون بين ملوك وإمراء هذه الدول ، وكان التعاون لا يظهر إلا إذا أحست أحداها بخطر الفناء نتيجة لهجمة شرسة من هجمات المسلمين المتتالية ، وعندئذ تتحد وتتحالف

(٨٦) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ .

Livermore, op. cit., p. 98.

وما إن ينتهي الخطر حتى تعود تلك الدول الى محاربة بعضها البعض ، بل وتستعين بالخلافة للانتصار على خصومها وتحقيق أهدافها .

كانت الكراهية بينهم موجودة لدرجة أنه عندما غزا المنصور ليون امتلا القشتاليون سرورا ، وعندما عانت قشتالة بدورها من نفس المصير كان الليونيون شامتين . وكانت هاتان المملكتان تتيهان فرحا وسرورا عندما اكتسح المسلمون نبرة . وفي تلك الايام كان تعبير أو لفظ أسبانيا (Spain) Espana يستعمل فقط للإشارة الى ذلك الجزء من

شبه الجزيرة الذي أقام فيه المسلمون دولتهم وعندما كان نصارى الشمال يشرون الى وطنهم الخاص ، كانوا يقولون أسماء ممالكهم التي يعيشون فيها مثل ليون ، قشتالة ، نبرة ، اشتريس ... الخ ، وكانت هذه الروح الانفصالية هي التي هزمتهم أمام الأندلس الموحدة في عصر الخلافة في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى<sup>(٨٧)</sup> ، وسوف نرى أثر هذه الأوضاع الداخلية واثار عوامل القوة والضعف في كل من الأندلس وشمال أسبانيا واضحا في تطور العلاقات بينهما ، وذلك في حديثنا عن تلك العلاقات ومظاهرها وطبيعتها في الفصل الثانى من هذا الباب .

Crow, op. cit., p. 82.

(٨٧) Crow, op. cit., p. 82.

## الفصل الثاني

### مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

#### ١ - طبيعة العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال الأسباني

قلنا في حديثنا عن العلاقة بين أمراء بني أمية ونصارى الشمال الأسباني أن هؤلاء الأمراء لم يكن هدفهم من الصراع مع نصارى الشمال هو إبادتهم أو تحطيم دولتهم ، بل كان هدفهم هو التعايش السلمي معهم ، ولم يكن ذلك ممكنا إلا عن طريق سلسلة من الغزوات أو الحروب ، قد تكون رد فعل لهجمات نصرانية ، وهذا هو الاغلب الاعم أو قد تكون حريا بداها المسلمون للتخويف والارهاب ، أو درءا لخطر محتمل وهي ما تسمى بالحرب الوقائية في عصرنا الحديث .

هذا ماكان في عصر الامارة ، وكان لذلك دواعيه النابعة من الظروف والأوضاع الداخلية لطرفي الصراع ، لكن هذه الأوضاع تغيرت في عصر الخلافة وتطورت لصالح المسلمين ، ومال ميزان القوة السياسى والعسكرى الى جانبهم ، وحقق خلفاء بني أمية من أمثال الناصر والمستنصر وحجابهم من أمثال المنصور بن أبى عامر وابنه المظفر عبد الملك تفوقا ساحقا على دول الشمال النصرانى مجتمعة ، حتى أنها أتت راحة تطلب السلم والمودعة . فهل تغيرت أهداف الصراع عند خلفاء بني أمية عنها في عهد الامارة ؟ وماذا كانت أهدافه أيضا عند نصارى الشمال ؟ وما هي نتيجة هذا الصراع وطبيعته بالنسبة للطرفين ؟

لم يتغير هدف الصراع سواء عند نصارى الشمال ، أو عند مسلمي الأندلس ، فالأولون وضعوا نصب أعينهم استرداد بلادهم التى استولى

عليها المسلمون . والمسلمون كانوا يريدون ردع هؤلاء النصارى وكبح جماحهم وتحقيق هيبة الدولة الإسلامية ، وسحق أى محاولة نصرانية تنال من أراضيها . لم يكن فى ذهن خلفاء بنى أمية التوسع فى أراضى الشمال فذلك شيء لا يريدونه رغم أنه كانت لديهم القدرة عليه . فقد احتل الناصر بنبلونة مثلا ، وكان يستطيع الاستمرار فى ذلك والقضاء على مملكة نبرة ، ولكن عندما تقدم ملكها يطلب الصلح ، أخلى الناصر عاصمته وقبل محالفته ، وكذلك فعل مع إمارة قشتالة وكانت ناشئة إذ ذاك . وكان يستطيع القضاء عليها فى مهدها . ولكن نظرية الناصر كانت الاعتراف بحقوق الممالك الأخرى لتعترف هى بحق الخلافة الأموية على أراضيها .

وكان ما يهم خلفاء بنى أمية الاتوياء هو تحقيق الأمن والأمان للمواطنين ولذيار الإسلام ، هذا كان منتهى أملهم ، فهل تركهم مسيحيو الشمال يحققون هذا الهدف ؟ (١)

الواقع أنهم تصدوا للخلافة وهى ما تزال فى مهدها وحاولوا القضاء عليها ، وإثارة مشاعر المسلمين بأن الخليفة غير قادر على تحقيق الأمن للرعية وهو المسئول عنها دينيا وسياسيا ، حتى أنه فى إحدى الهجمات التى شنّها نصارى الشمال ونالوا فيها من المسلمين وقتلوا عددا كبيرا من زعماء الثغور هاجت الاندلس على الناصر ورموه بالتفريط فى تأمين حياة رعيته من المسلمين (٢) .

اذن أجبر الناصر وهو أول خلفاء بنى أمية على خوض المعارك مع شمال إسبانيا النصرانى إجبارا ، وسوف نرى أنه فى معظم حروبه لم يكن هو البادئ بالعدوان ، وإنما نصارى الشمال بتعصبهم المقيت كانوا وراء تلك المعارك التى استمرت حوالى أربعين عاما من خلافة الناصر البالغة خمسين عاما . ولم تكن حروب الناصر إلا رد فعل لهجمات

(١)

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

الشمال ، أو كانت بسبب نقضهم لما أبرموه معه من معاهدات . هذه هى طبيعة العلاقات بينهم وبين الناصر . واستمر ابنه الحكم المستنصر ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٨٦ م ) يسير على سياسة أبيه ، إلا اذا نقض هؤلاء النصارى عهدا كان لهم معه أو مع أبيه الناصر . واستمرت بذلك فترة السلام من أواخر حياة الناصر حتى وفاة الحكم المستنصر فيما يقرب من حوالى عشرين عاما .

ولما تولى ابنه هشام المؤيد الخلافة ( ٣٦٦ - ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ - ١٠٠٩ م ) كان لا يزال طفلا فاستحجب رجل الدولة القوى محمد بن أبى عامر الذى انتهب الفرصة وحجر على الخليفة واستبد بالسلطة ، وتغير هدف الصراع وطبيعة العلاقات مع نصارى الشمال . فقد كان هدف هذا الرجل ذى القبضة الحديدية والعزيمة الوثابة والرغبة المتوهجة فى الجهاد هو تحطيم دول الشمال النصرانية ، وتطهير اسبانيا كلها من النصارى ودولهم لو قدر على ذلك (٣)

قرر المنصور اذن أن يقضى على دول الشمال ، وأن يخضها جميعا لسلطة الخلافة وقد خالف فى ذلك خطة من تتدبه من خلفاء بني أمية أو أمرائهم ، اذ كان هؤلاء جميعا يحاربون للدفاع ورد الغزوات أما هو فكان يبدأ بالحرب دائما ، تصدوه فى ذلك روح قوية فى الجهاد حتى انه كان يتوق الى الموت فى ميدان المعركة ، وكان دائما يحمل معه اكلانه كلما خرج يفتزو الشمال ، فهو دائما مستعد للشهادة ، وفعل مات وهو عائد من إحدى غزواته ودفن فى مدينة سالم ، وهى أبعد ما تكون عن قرطبة ، فهى من ثغور المسلمين التى تطل على قشتالة ، وكأنه اراد أن يذكر النصارى بوجوده قريبا منهم حتى وهو ميت (٤)

(٣) - ابن خلدون ، تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ج ١ ، ص ١٠٠

(٣) د. حسين مؤنس ، صور من البطولة ، ص ١٦١ .

(٤) - ابن خلدون ، تاريخ المغرب ، ج ٢ ، ص ١٠٠ ، ج ١ ، ص ١٠٠

(٤) حتى ، تاريخ العرب ( المطول ) ج ٢ ، ص ٦٣٥ ، ج ١ ، ص ١٠٠

حطم المنصور كثيرا من بلاد الشمال ودمر عواصمهم الثلاث ، ليون ، ونبلونة وبرشلونة ، وانزل الخراب والدمار بزراعتهم وبيوتهم وكنائسهم وأديرتهم ، حتى أنه دمر في إحدى غزواته قدس أقداسهم ، وهى مدينة سانت ياقب ، ذلك المزار الدينى الكبير الذى يحيطونه بكل تقديس واجلال وأراد المنصور من وراء ذلك أن يقضى على الرمز الذى يلتقون حوله والذى جعلوه حامى حى المسيحية فى أسبانيا (٥)

وهكذا تغيرت طبيعة الممارك بين أسبانيا الاسلامية وأسبانيا النصرانية ، وبدأت الحرب تأخذ صفة الحرب الدينية ، فالنصارى يحرقون المساجد ويمثلون بجثث القتلى . والمسلمون يدمرون الكنائس ويقتلون القسس والرهبان ، ويشترك هؤلاء فى الممارك لاثارة الحماس الدينى فى نفوس بنى جلدتهم من النصارى ، ويقوم الفقهاء بنفس الشيء فى جيوش المسلمين . ويحاول النصارى سواء فى الأندلس أم فى الشمال فتنة الناس واغراءهم بالارتداد عن دين الاسلام ، ويقوم المسلمون بقتل من يعرفون عنه ذلك ، ويفند على الأندلس من يفند من المسلمين الراغبين فى الجهاد ، وكذلك يفند على شمال أسبانيا من يفند لمجاهدة الاسلام أو لجمع عظام الشهداء المسيحيين (٦)

حدث كل ذلك طوال القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وحدث ما هو أكثر منه ، فقد أخذت العوامل الدينية والقومية يظهر تأثيرها على العلاقات بين ممالك الشمال النصرانية ، ورأت هذه الدول أنه لابد من وحدة الكلمة حتى تستطيع مقاومة الخطر الإسلامى والقضاء عليه . اتحدت ليون ونبرة وقشتالة ، وأحيانا برشلونة ، فى كثير من الممارك ، وأحرزوا نصرا فى بعضها ، وأصابتهم الهزيمة فى معظمها ،

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ ،

(٦) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٩٤ ، ٤٦٨ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٧١ ، السلوى ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ،



لكنهم احسوا بفائدة الكفاح المشترك ضد العدو المشترك ، وكان هذا ارهاصا لما تم في القرن التالي حيث أصبحوا وحدة واحدة ، بينما تفرق شمل المسلمين ، وبذلك ظهرت بوادر الوحدة القومية الاسبانية منذ ذلك الحين ، وكانت أسبق من غيرها في دول أوروبا بسبب الحركة الفريدة التي تميزت بها اسبانيا ، وهى حركة الاسترداد (٧) .

هكذا تغيرت أهداف الصراع وتغيرت طبيعته في أوائل القرن الرابع الهجرى / المائى ، ولم يكن الا بتأثير المنصور بن أبى عامر الذى يعد من طراز المجاهدين الأوائل أمثال موسى بن نصير ، وعبد الرحمن الفافقى ، وكأنه أراد أن يحيى سنة الجهاد التي كانت قد فترت الى حد بعيد بعد انتهاء عصر الولاة . لكن الغريب أن المنصور رغم غزواته التي بلغت ما ينيف عن الخمسين لم يستطع ازالة هذه الدول من الوجود ، ولم يقوم بحركة استيطان اسلامية لهذه الدول . فهل كانت تنقصه الامكانيات ؟ أم أن الأوضاع الداخلية كانت لاتساعده على ذلك ؟ أم أن هناك من الأخطار الخارجية ماثل يده عن تحقيق هذا الهدف ؟

يجب أن نضع في الحسبان أن الوضع الداخلى كان في غير مصلحة بنى عامر على المستوى البعيد ، وكان المنصور يعرف ذلك حتى أنه تنبأ بخراب مدينته الزاهرة التي بناها وتجشم في بنائها الكثير ، وكان في وصاياه لأولاده ومواليه يحذرهم من بنى أمية ويقول لهم « لا تغرنكم بوارق بنى أمية فانى أعرف ذنبى اليهم » ، فهو إذن كان لديه الاحساس بما سوف تؤول اليه الأمور بعد وفاته . وصدق احساس الرجل ، اذ لم يمض على وفاته أكثر من سبع سنوات حتى زلزلت الأرض زلزالها و صلب ابنه عبد الرحمن وقضى على دولته ، وأزيلت مدينته الزاهرة من الوجود في عدة ساعات ، وقامت دولة أخرى على رأسها البربر الذين كان يقيم ملكه على سواعدهم (٨) .

(٧) عنان ، نهاية الأنطلس ، ص ٥٣ .

(٨) ابن بسام ، اللخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٥٨ .

اذا كان هناك انقسام في الجبهة الداخلية أيام بنى عامر لكنه  
كان انقساما مستترا كالثار تسرى تحت الرماد ، كان هناك حزب بنى  
أمية وحزب بنى عامر . ورغم أن السيطرة السياسية كانت للحزب الآخر  
إلا أن الحزبين كانا يتربص كل منهما بالآخر . لذلك كان اعتماد بنى عامر  
على البربر والمرتزقة في جيوشهم التي كانت تطيعهم طاعة عمياء والتي  
حققت بها تلك الانتصارات الرائعة . كانت شخصية المنصور طاغية ،  
وكان لا يمكن لحزب بنى أمية الذي أضناه التشريد والقتل والمصادرة  
على يد بنى عامر أن يرفع رأسه في عهد هذا الرجل القاهر . تركوا  
له الميدان يسرح ويمرح فيه بمفرده ، تركوه ينبج لهم بدل أن ينبج عليهم  
كما قال بذلك هشام المؤيد (٩)

بجانب ذلك يجب ألا ننسى أيضا أن الخطر الخارجي الذي كان يتمثل  
في دولة الفاطميين في شمال إفريقيا قد استنزف الكثير من جهود بنى أمية  
وبنى عامر ، ولو أمن الفاطميون الجبهة الجنوبية لبنى أمية لكان لصراعهم  
مع نصارى الشمال شأن آخر . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن  
الاندلس كانت ثغرا نائيا من ثغور المسلمين ، وباليته كانت لها صلة ببقية  
الأقطار الإسلامية في المشرق ، أنها استقلت بنفسها وأقامت على أرضها  
خلافة تنافس خلافة بنى العباس في المشرق ولفاطميين في المغرب .

فالاندلس كانت عضوا صغيرا بتر من جسد الأمة الإسلامية المترامية  
الأطراف ، وكان عليه أن ينزف دماء الحياة ، وأن يقف وحيدا في هذا  
المكان القصي يجاهد النصارى ويجالد الثائرين ، معتمدا على قواه  
الذاتية حتى نضب معين هذه القوى ، ونالها الإعياء ، فاسترخت  
واستسلمت بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ،  
حينما بدأت الخلافة الأموية تدخل مرحلة الضعف والسقوط . وتفجرت  
طبيعة العلاقات ومظاهرها مع نصارى الشمال ، ذلك أن خلفاء  
بنى أمية في تلك الفترة انقسموا على أنفسهم ودخلوا في صراع داخلى  
عنيف على الفوز بكرسى الخلافة ، واستعانوا في ذلك بنصارى الشمال

(٩) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٢٩٤ ، ١٩٥ .

لتحقيق هذا الهدف ودخلت قوات النصارى قرطبة تقهر فريقا لمصلحة الآخر وبذلك تغيرت أهداف الصراع وانقلبت الحال وصار الغالب مغلوبا ، وانعكست الاوضاع بالنسبة للعلاقات مع نصارى الشمال عما كان عليه في عصر قوة الخلفاء في القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى .

هذا عن طبيعة الصراع وأهدافه ودواعيه سواء في عصر قوة الخلافة أم في عصر ضعفها ، لكن هل كانت العلاقة بين الجانبين الاسلامى والمسيحى في شبه الجزيرة طوال عصر الخلافة حربا وصراعا عسكريا لا يخمد أواره ولا يستقر قراره ؟ وهل استبد المسلمون بنصارى الشمال واستخدموا قواهم العسكرية الفائقة في فرض الحرب عليهم وخاصة في عصر قوة الخلافة ؟

لم يفعل المسلمون ذلك ، لأنه كان يتنافى مع أهداف الصراع ومع طبيعة العلاقات ، ويمكننا أن نقسم عصر الخلافة الى أربع فترات ، فترة الصراع المتوازن وتبدأ من بداية عهد عبد الرحمن الناصر في عام ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وتنتهى بعام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وهو عام السلام الذى تم فيه عقد معاهدات السلام بين الناصر وجيرانه من نصارى الشمال والفترة الثانية ، وهى فترة السلام وتبدأ من هذا العام وتنتهى بوفاة الحكم المستنصر عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ، وفيها استخدم الناصر وابنه المستنصر الأساليب الدبلوماسية في معظم الأحيان ، لفض تحالف نصارى الشمال ، حتى أصبح هو السيد الفعلى لشبه الجزيرة كلها . والفترة الثالثة وهى فترة الصراع المتطرف الذى قاده المنصور بن أبى عامر في غف وثراسة ضد نصارى الشمال ، وحطم فيه دولهم وأذل كبرياءهم . وتأتى بعد ذلك فترة سقوط الخلافة بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، وفيها انقلب ميزان القوى لصالح نصارى الشمال وأصبحوا يتدخلون في تولية الخلفاء وعزلهم . وسوف نتناول علاقة خلفاء بنى أمية بنصارى الشمال في عصر قوة الخلافة وفي عصر ضعفها كل على حدة .

## ٢ - علاقات خلفاء بني أمية بنصاري الشمال الأسباني في عصر القوة

### ( ١ ) علاقات خلفاء بني أمية بمملكة ليون :

حكم ليون في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عشرة من الملوك عاصر الناصر منهم سبعة ، وقد سبقت دراسة أحوال كل من البلدين ، تلك الأحوال التي أثرت كثيرا على العلاقة بينهما ، ومكنت الناصر وخلفاءه من أن يقودوا حركة الصراع مع ملوك ليون باقتدار وكفاية وشجاعة منقطعة النظير ، جعلتهم سادة شبه الجزيرة كلها .

وتبدأ المرحلة الأولى في العلاقات بين ليون وقمرطية بهجوم شنه الملك أردون ( اردونيو ) الثاني بن الفونش ( الفونسو ) الثالث ( ٣٠١ - ٣١٢ هـ / ٩١٤ - ٩٢٤ م ) ، عام ٣٠٢ هـ / ٣١٤ م على ماردة واستولى على حصن الحنش ووضع السيف في رقاب مدافعيه ، وامتد الرعب الى أهل بطليوس الذين افتدوا أنفسهم بالمال ، وقدموا شكواهم الى الناصر . ورغم أن ماردة كانت من المناطق النائرة ضد الناصر إلا أنه أراد أن يكسب قلوب الثوار هناك ، فجرد ضد ملك ليون جيشا بقيادة أحمد بن محمد بن أبي عبدة عام ٣٠٤ هـ / ٩١٦ م ، وكانت هذه هي الحملة الأولى ضد ليون في عهد الناصر وكانت ردا على عدوان أردون وسوف يتكرر ذلك فيما سيأتي من حملات (١)

ولم يمض على اغارة أردون الثاني على ماردة كثير حتى فاجأ أهل الثفور بهجوم خاطف عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م ، أحرق فيه أرباض طلبيرة ( على نهر التاجة ) . فأمر الناصر قائده ابن أبي عبدة أن يخرج لاغاثة أهل هذه الناحية ، وحاصر قلعة شنت اشتبين أو قاشتر مورش حسب الرواية العربية وأشرف المسلمون على الظفر لولا أن أردون أقبل لانقاذها ، ففر البربر والجند المرتزقة وتركوا ابن أبي عبدة الذي صمم على الدفاع

(١٠) ابن عذاري ، المصنف نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ١٤١ .

حتى الموت هو وكثير من جنوده وضباطه . وانتهت المعركة باستشهاده  
وفر الباقون واعدوا سالمين حسب الرواية الاسلامية . اما الرواية  
النصرانية فتقول ان الهزيمة كانت ساحقة لدرجة ان المرتفعات والقلاع  
والسهول والغابات من الدويرة حتى اتينسة كانت مغطاة بجثث  
المسلمين (١١) .

ازدادت شجاعة اردون الثانى ملك ليون وتحالف مع ملك نبرة شانجة  
ابن غرسية ، وهاجم ناجرة وتطيلة بالثغر الاعلى ، فأرسل الناصر حاجبه  
بدرا عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م الى منطقة ليون للانتقام لمقتل ابن أبى عبدة  
وحدثت معركتان على مقربة من مكان يسمى مطونية والذي سميت الغزوة  
باسمه . كسب المسلمون احدى المعركتين حسب رواية دوزى بينما الرواية  
الاسلامية تقول ان النصر كان تاما ، وأن بدرا هزم ملكى ليون ونبرة ، وأنه  
أرسل الى الناصر الف رأس من قتلهم مع كتاب الفتح الذى قرىء على  
جميع منابر الأندلس (١٢) .

كان بنو تجيب وبنو طويل من أمراء الثغر الاعلى الاندلسى يتحالفون  
مع نصارى الشمال فى ذلك الوقت ويحاربون الى جانبهم ، ولذلك رأى  
الناصر أنه لابد من الخروج بنفسه لتأديبهم وللانتقام بنفسه لمقتل قائده  
ابن أبى عبدة ، خاصة وان ملك ليون قد أغار على حصن القلعة قرب  
مدينة الفرج ( وادى الحجاره ) فى المحرم ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م . فأسرع  
الناصر فى سيره حتى وصل الى طليطلة ومنها الى مدينة سالم ، وأظهر  
أنه يريد التوجه الى الثغر الأعلى ، لكنه مال ناحية البة والقلاع  
( قشتالة ) من مملكة ليون واستولى على قلعة أوسمة التى تسميها

---

(١١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ ،

(١٢) ابن عبد ربه ، المعتمد الفريد ، ج ٢ ، ص ٢٦٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .

الروايات العربية وخشمة ، وأحرقها ، ثم تقدم الى قلعة شنت أشتبين (قاشتورمش ) ، وهى التى كانت مسرحا لهزيمة المسلمين المروعة عام ٢٠٥ هـ ففرت حاميتها واستولى عليها الناصر وهدمها واجتاح مدينة قتلونية وخربها ، ثم ولى وجهه شطر الثغر الاعلى ونبرة (١٣) .

أسرع ملك ليون الى نجدة ملك نبرة والحق الملكان بعض الخسائر بالمسلمين أثناء مرورهم بين ممرات الجبال ومضائقها ، لكن الناصر استدرجهم الى سهول جنكيرة وسحق جيوشهم مجمعة وقتل أكثر من ألف مسيحي كانوا قد لجأوا الى قلعة مويش ، وهى القلعة التى أعطت اسمها لتلك المعركة . وبعد هذه الهزيمة القاسية لم يجرؤ ملك ليون على التعرض للثغور الاسلامية مرة أخرى ، وما لبث أن مات عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م (١٤)

قامت الحرب الأهلية فى ليون بسبب وراثة العرش بعد موت أردون الثانى حتى استقر الأمر للملك ردمير ( راميرو ) الثانى ( ٣١٩ — ٣٣٩ هـ / ٩٣١ — ٩٥١ م ) . وكان هذا الملك من أشجع ملوك ليون وأقدرهم وكان أكثرهم بغضا للمسلمين ، فقد استطاع أن يحرص طليطلة على الثورة ضد الناصر حتى يشغله عن غزو ليون ، فجرد الناصر عليها جيوشه عام ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م وحاصرها ، وعبثا حاول ردمير انتقاها لكن جيوش الناصر صدته وهزمته قبل الوصول اليها ، فعاد الى بلاده تاركا المدينة لمصرها المحتوم (١٥)

---

(١٣) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ،

(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ — ٣٦٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤١ ،

(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ — ٣١٢ ، ابن عبد ربه ، للعقد الفريد ، ج ٢ ، ص ٣٧٥

وكان ردمير أكثر حظا في العام التالي ( ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م ) ، اذ استطاع تابعه فرنان جونثالك كونت قشتالة أن يهزم قوات المسلمين التي كانت تهدد أوسمة . وأخذ الناصر ثأره في العام التالي ( ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م ) ، وكانت رغبته أن تشهد السهول المحيطة بأوسمة انتصار جيوشه كما شهدت هزيمتها ، وعبثا حاول اخراج ردمير من حصونها التي تحصن فيها ، فترك الناصر قوة لمحاصرته ، وتقدم نحو الشمال ووصل الى برغش ودمرها تدميرا رهيبا ، وقتل كل رهبان دير سان بيدرو دي كاردينيا البالغ عددهم مائتان ، وواجهت كثير من القلاع نفس المصير (١٦) .

لجأ ردمير الى أسلوبه في إثارة الشقاق بين المسلمين ، وحرص بنى هاشم التجيبين حكام سرقسطة وقلعة أيوب على شق عصا الطاعة على الناصر ، فقام هؤلاء باعلان تمردهم وتحالفوا مع ردمير ، وانضمت اليهم الملكة هوطة ( تيودا ) ملكة نبرة ، وبذلك اتحد الشمال كله ضد الناصر . واستطاع الناصر في عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٧ م أن يهزم بنى تجيب ويقضى على ثورتهم ، وأن يهزم أيضا جيوش نبرة ويخرب كثيرا من حصونهم ، فأعلنت الملكة طاعتها للناصر ودفعت له الجزية (١٧)

وبذلك أخضع الناصر الشمال الشرقي ولم يبق امامه الا خصمه العتيد ردمير الثانى ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقى ، فاعد لغزوه جيشا ضخما يبلغ عدده زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته الى فتاه نجدة الصقلي وهما تختلف الروايات الاسلامية فيما بينها بخصوص زمان المعركة ومكانها

(١٦) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ،

(١٧) العفرى ، نصوص الأندلس ، ص ٤٥ ، ابن عبد ربه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، المقرئ ،

نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٦٩ ،

فالمقري ينقل عن المسعودي بأنها كانت عند مدينة سمورة في شوال  
عام ٣٢٧ هـ ويتابعه في ذلك الحميري (١٨) .

أما بقية الروايات الإسلامية فتشير الى أنها كانت عند مدينة شانت  
مانكة أو شانت مانكش أو شانت ماكس ، وهي أسماء متشابهة لمدينة  
سلمنقة ( سيمانقاس ) التي تقع على نهر دويرة حيث حدثت  
المعركة هناك بين ١١ و ١٧ من شوال ٣٢٧ هـ ، وفيها هزم  
المسلمون بسبب خيانة الضباط العرب الذين أرادوا الانتقام من الناصر  
الذي أسند القيادة العليا لنجدة الصقلي ، فتقهقروا وارتدوا الى مكان  
يسمى الخندي جنوب سيمنقة ، حيث هزمهم النصاري هزيمة ساحقة ،  
قتل فيها أربعون أو خمسون ألفا من جند الناصر . ولما عاد  
الناصر الى قرطبة قبض على ثلاثمائة من الفرسان وصلبهم ونادى عليهم  
« هذا جزاء من غش الاسلام وكاد لأهله ، وأخل بمصاف الجهاد » (١٩)

ويبدو أن رواية المسعودي والحميري غير صحيحة ، لأن المسعودي  
وان كان معاصرا للمعركة الا أنه كان يعيش بعيدا عن مكانها ، فهو من مؤرخي  
المشرق ، وربما نقل عن لايعرف مكان المعركة الصحيح . أما الحميري  
فهو مصدر متأخر لانه عاش في القرن الثامن الهجري ، كما أن روايته  
يبدو عليها الاضطراب ، فهو يذكر مثلا أن جيش الناصر كان مائتي ألف  
ثم يعود وفي نفس الرواية ويقول أنه كان مائة ألف .

أما الروايات الأخرى التي أوردناها فهي صحيحة وتتفق في ذلك مع  
الروايات النصرانية المتعددة ، كما أنها صدرت من مؤرخين أندلسيين  
قريبى العهد بالأحداث ونقلوا عن شاهدوا . ويلفت النظر في رواية

---

(١٨) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، المقري ، نفح للطيب ، ج ١ ،  
ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(١٩) ابن حيان ، المتقبس ج ٣ ، ص ١٩ ، ٢٨ ، المقري ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ،  
ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .



ابن حيان أنها تذكر المعركة مرة باسم الخندق ومرة تقول انها « غزوة شنت مائش وهي الغزوة المعروفة بالخندق » ، ويقول ابن خلدون انها وقعتة الخندق القريبة من مدينة شنت مائش (سيمنقة) . وهو تحديد دقيق جدا لمكان المعركة (٢٠) .

وقد عرض الاستاذ محمد عبد الله عنان الرواية الاولى التي اثبتنا خطأها وقال عنها انها تقترب من الرواية النصرانية ، وهذا أيضا خطأ ولا يقترب منها الا الروايات التي أوردناها والتي تتفق معها في المكان والزمان الذي جعله في شوال عام ٣٢٧ هـ / يولية ٩٣٩ م . ولاغبرة في هذا ببعض الروايات الاسلامية المتأخرة التي جعلت المعركة في زمن غير زمانها بنحو عشر سنوات أو أكثر أو أقل (٢١) .

وربما اتى الخلط عند بعض الكتاب المسلمين بالنسبة لاسم المعركة وقالوا انها كانت عند سمورة ، بسبب ان تلك المدينة يحيط بها سبعة أسوار بين كل سور والآخر خندق ملء بالماء زيادة في تحصين المدينة ، ولما كانت معركة سيمينقة اشتهرت باسم معركة الخندق ، فقد ظن هؤلاء انه خندق مدينة سمورة . وهنا يقول الدكتور حسين مؤنس بأن المسلمين كانوا قد حفرُوا خندقاً تحت أسوار سيمينقة ، حتى يحصروا عنده قوات العدو الهاربة في حالة الهزيمة . لكننا لا ندري كيف وقع المسلمون في خندق حفره بأنفسهم ، وهل لم يدر بخلدون أنهم ربما وقعوا فيه اذا جرت عليهم الهزيمة؟ (٢٢) .

---

(٢٠) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ١٩ : ٢٨ ، ، ابن خلدون ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٠ .

(٢١) محمد عبد الله عنان ( تاريخ الاسلام في الأندلس ع ١ ، ج ٢ ، ص ٨٥ ، ٨٦ ) والقلشندى ( صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٦٤ ) يجلان المعركة في عام ٣٢٧ هـ ، ابن خلدون يجل المعركة في عام ٣٢٣ هـ ، انظر ، العبر ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٧ ، صاحب أخبار مجموعة يجل المعركة عام ٣٢٦ هـ ، انظر ، ص ١٥٦ .

(٢٢) د. حسين مؤنس ، الحلة السيرة لابن الأبار ، ج ١ ، حاشية ص ٢٧٢ .

يبدو أن هذا القول مغالى فيه ، فالصحيح هو أن الخندق كان اسما لمحلة قريبة من سيمنقة ربما كان فيها خندق سبق للمسلمين أو النصارى حفره من قبل وسميت البلدة باسمه ، وهو أمر محتمل لأن المنطقة ثغرية تقع على الحدود بين المسلمين والنصارى وهى معرضة للهجوم عليها فى أى وقت . وتحديد المكان بهذا الشكل هو ما اتفقت عليه الروايات الاسلامية المعتمدة وكذلك الروايات النصرانية ايضا .

ولا تختلف الروايتان الا فى نتيجة المعركة فبينما تذكر الرواية الاسلامية بأن المسلمين انسحبوا وعادوا الى قرطبة سالين بعد أن قتل منهم الكثير ، تقول الرواية النصرانية ان الهزيمة كانت ساحقة وان الخليقة هرب من سيوف المسيحيين وتكدست الطرق بالقتلى من المسلمين ، وكانت الهزيمة كارثة لدرجة أن الناصر قرر الا يغزو بنفسه بعد ذلك . ورأى المسيحيون فى نصرهم هذا نصرا لعقيدتهم المسيحية ، مما يشير الى ظهور الروح الصليبية بين جنود الممالك الشمالية منذ ذلك الحين<sup>(٢٣)</sup> .

ولم يكن غريبا أن يهزم الناصر هذه الهزيمة الساحقة ، فقد كانت الجبهة الداخلية الاسلامية مفككة فى ذلك الوقت ، فقد كانت ثورة التجبيين مشتعلة قبيل المعركة ، ولم يمر وقت طويل على اخمادها بالسيف والنار ، ورغم اشتراك محمد بن هاشم التجيبى مع الناصر فى المعركة ، الا انه فيما يبدو كان غير مخلص له ، فقد قتل الناصر ابن عمه صاحب قلعة أيوب قبل المعركة بعامين ، ونحن نعرف مدى عمق غريزة الثأر فى نفوس العرب<sup>(٢٤)</sup> .

ولم تكن ثورة بنى تجيب هى الثورة الوحيدة التى شغلت الناصر فى ذلك الوقت ، فقد كانت هناك ثورة أقربائه من بنى اسحاق المروانيين

(٢٣) ابن حيان ، المقتبس ، ج ٣ ، ص ٢٩ - ٢٨ .

(٢٤) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٥١ ، ٥٢ .

اثناء حصارهم لسرقسطة عام ٢٢٥ هـ ، وقام الناصر بقتل زعيمهم ، ففر اخوه أمية بن اسحاق وانضم الى الملك رديمير ملك ليون وقدم له معلومات ثمينة عن خطط الناصر وأساليبه في القتال ، وعن نقاط الضعف التي يمكن منها مهاجمة البلاد الإسلامية<sup>(٢٥)</sup> .

وهناك ما اشرنا اليه عند حديثنا عن الأحوال الداخلية في قرطبة عندما استعان الناصر بالصلقلية في الإدارة والجيش ، وأهل العرب وأبعدهم عن المناصب العليا ، فكان تواطؤهم عليه في هذه المعركة .  
ناذا أضفنا الى هذا كله ، ذلك التحالف الذي كان قد تم قبيل المعركة بين ملك ليون رديمير الثاني ، وبين ملكة نبرة الملكة طوطة التي نقضت عهدها مع الناصر ، وبين كونت قشتالة وجنوده الشجعان ، لأدركنا على الفور امكانية هزيمة الناصر في هذه المعركة التي لم يهزم في غيرها قط<sup>(٢٦)</sup> .

ولم تكن هذه الهزيمة بالغة الأثر في قوة الأندلس ، اذ سرعان ما أعاد الناصر تنظيم قواته ، وحالفه الحظ بقيام الحرب الأهلية بين ليون وقشتالة ، فانتهاز تلك الفرصة الثمينة وأرسل قواته لمهاجمة أراضي ليون في الأعوام التالية حتى وفاة رديمير عام ٣٣٩ هـ ، واستولى قواده على كثير من الحصون والأسرى والسبي ، وقام الناصر بإعادة بناء مدينة سالم وشحنها بالمعدا وتو الرجال في عام ٣٣٥ هـ لتكون مركزا للدفاع عما يليها من أراضي المسلمين ، واضطر رديمير المنتصر أن يأخذ موقف الدفاع وحتى وفاته<sup>(٢٧)</sup>

---

(٢٥) المغزى ، المصدر نفسه ص ٥٠ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ، ص ١٢٦ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

(٢٦) مجهول ، أخبار مجموعة ، ص ١٥٣ - ١٥٦ ، حتى ، تاريخ العرب ج ٣ ، ص ٦٢٣ ، Dozy, op. cit., p. 431

(٢٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٥ - ٣٢٥ ، Livermore, op. cit., p. 85.

انزلت ليون بعد ذلك في مهاوى الحرب الأهلية بسبب الصراع على العرش بين ولدي ردمير الثاني ، وانتهاز المسلمون الفرصة. وأغاروا على جليقية وطلبيرة في عامي ٣٤١ هـ ، ٣٤٣ هـ . وفي العام التالي أرسل الناصر عددا كبيرا من قواده البارزين على رأس جيش ضخم فهاجموا ولاية قشتالة ، وخربوا نواحيها وقتلوا ما يقرب من عشرة آلاف من أهلها ، وكانت الهزيمة فادحة حتى أن ملك ليون أردون الثالث أرسل يطلب الصلح والسلام من عبد الرحمن الناصر (٣٨) .

وكان الناصر يرغب هو الآخر في السلام حتى يتفرغ للجبهة الجنوبية حيث ازدادت قوة الفاطميين في ذلك الوقت ، وأيضا لكي يوسع الهوة بين أعضاء الأسرة المالكة الليونية التي كانت قد انقسمت على نفسها في ذلك الوقت ، وكان هناك صراع على العرش بين أردون الثالث وبين أخيه شانجه الذي تسانده نبرة ، فرأى الناصر أن يدعم أردون الثالث ، ومن ثم وافق الناصر على ما طلبه أردون وأرسل رسوله محمد بن حسين والطبيب اليهودي حسداي بن شبروط الى ليون عام ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، وانتهت المفاوضات بأن تنازل أردون عن حصون معينة للخليفة نظير السلام . وفي العام التالي طلب أردون الثالث من الخليفة ادخال كونت قشتالة في اتفاقية السلام ، فرحب الخليفة بذلك وأخذ يستعد بكل قوته لارسال حملة ضخمة الى المغرب لمواجهة الفاطميين في معركة حاسمة ، لكن موت أردون الثالث فجأة أوقف كل خطته . (٣٩)

فقد رفض شانجه الملك الجديد (٣٤٥-٣٥٥ هـ / ٩٥٦-٩٦٦م) تنفيذ المعاهدة التي كان أخوه أردون الثالث قد أبرمها مع الناصر في العام السابق ، بأن رفض تسليم الحصون المتفق عليها في تلك المعاهدة .

(٣٨) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ - ٣٣٠ ، لين بول ، قصة العرب

في اسبانيا ، ص ١١٠ .

(٣٩) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

Dozy, op. cit., pp. 437-439, Nurphy, op. cit., p. 101.

Livermore, op. cit., p. 95.

فاضطر الناصر لاستخدام قواته التي كان قد أعدها لأفريقية ضد مملكة ليون ، حيث سحق جيوشها في عام ٣٤٦هـ / ٩٥٧م ، وما لبث كونت قشتالة أن تغلب على شانجة وقام مع النبلاء الآخرين وعزلوه وأقاموا مكانه ابن عمه أردون الرابع الذي كان صهرا لكونت قشتالة ، وفسر شانجه الى بلاط جدته الملكة طوطه في نبرة (٣٠) .

قدمت الملكة طوطه مع حفيدها شانجة الى قرطبة عام ٣٤٧هـ / ٩٥٩م ومعها ابنها غرسية بن شانجه الاول ملك نبرة ، تطلب المساعدة من الخليفة الناصر لاعادة حفيدها الى عرش ليون ، ولعالمجته من السمنة المفرطة على يد اطباء قرطبة الماهرين ، وذلك نظير التخلي عن عشرة حصون . وافق الناصر وأرسل قوة اسلامية اعادت شانجة الى عرش مملكته ، وهرب أردون الرابع الى اشتريس ، وقامت نبرة بمهاجمة قشتالة واسرت حاكمها الكونت فرنان جونثالث صهر أردون . (٣١)

وبذلك أصبح الخليفة عبد الرحمن الناصر السيد الفعلي للمجتمع الأيبيري كله ، مسلميه ومسيحيه ، فالبلاد الخارجة عن طاعته أخضعها ، والممالك المسيحية حالف بعضها وكسب صداقتهم ، وأجبر الباقين على احترامه ، وجعلهم لا يلجأون اليه كعدو ، بل كصديق ، وتخطى صيته حدود شبه الجزيرة وترامى الى بلاد غالة ، بل وصل الى المانيا والقسطنطينية ، وتوافد الناس من كل انحاء أوروبا على قرطبة التي أصبحت ليست عاصمة للإسلام في الغرب الاسلامي كله فقط ، بل انما عاصمة للتمدن والحضارة في أوروبا كلها (٣٢)

---

(٣٠) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣١ ، القلشندي ، صبح الأعشى .

ج ٥ ، ص ٣٦٥ ،

Dozy, op. cit., p. 439, Livermore, op. cit., p. 96

(٣١) ابن عذار ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٨٠ ،

Dozy, op. cit., pp. 443,444

(٣٢) د. حسن محمود ، المرجع نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

توفي الناصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، وخلفه ابنه الحكم المستنصر ( ٣٥٠-٣٦٦ / ٩٦١-٩٧٦م ) الذي تابع سياسة أبيه ازاء نصارى الشمال ، فعمل على الوقوف امام سياستهم التوسعية ، واستعمل الاساليب الدبلوماسية والسيف معا . انتظر أولا حتى يعرف نوايا جيرانه . أما شانجة ملك ليون ، فقد قدم كثيرا من الاعتذارات لتأخير تسليم الحصون التى نصت عليها الاتفاقية بينه وبين الخليفة الراحل وقام غرسية ملك نبرة باطلاق كونت قشتالة من أسرهِ خلافا للاتفاقية ايضا ، وانضم هذا الكونت الى صهره أردون الرابع الملك المخلوع ، واخذوا يعيثان فى الاراضى الاسلامية . (٣٣)

اعد الخليفة الحكم حملة كبرى للقضاء على أردون وكونت قشتالة ، خلف أردون على مصره ، ووفسد الى قرطبة عام ٣٥١ هـ - ٩٦٢م ملتقيا بنفسه الى ( الحكم ) ضارعا اليه ان يعيده الى عرشه ، وأنه ليس مثل ابن عمه شانجة الذى خالف شروط الاتفاقية ، وأنه يضع نفسه وارضه وشعبه تحت أمر الخليفة . فآكرمه المستنصر ووعد به باعادته الى عرشه على شرط أن يتعهد بحفظ السلام بينه وبين الخلافة والا يخالف كونت قشتالة وأن يترك ابنه رهينة . وبمجرد أن وقع أردون الاتفاقية ، وضع المستنصر تحت أمرته جيشا على رأسه قائده غالب (٣٤) .

وبدا مركز شانجة ملك ليون حرجا للغاية ، وعرف النهاية المتوقعة . فجليقية رفضت أن تعترف به حتى الآن ، وبدا انها سوف تؤيد أردون لو عاد بقوة اسلامية . وحتى الامارات الاخرى التى تتبع شانجة نفسه كانت لا تحبه ، ومن المحتمل أن تعلن تمردا عليه حتى لا تعرض نفسها للغزو الاسلامى . ومن ثم فقد اتخذ شانجة قرارا .

(٣٣) السيد عبد العزيز سالم ، المرجع نفسه ، ص ٢٩٠ .

Dozy, op. cit., p. 448

(٣٤)

انظر للوصف للرائع لاستقبال أردون فى قرطبة ، المقرئ ، ازمار الرياض ج ٢ ، ص ٢٨٨ - ٢٩٢ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٤ .

Dozy, op. cit., pp. 449-452.

ذلك أنه أسرع على التو بالذهاب الى قرطبة وقابل الخليفة الحكم وتمهد بتنفيذ كل بنود الاتفاقية . فوجد ( الحكم ) انه حصل على كل ما يريدته والا فائدة من الوعود التي بذلها اردون الرابع اذا ما عاد الى العرش . وقد حلت المشكلة بأن مات اردون نفسه بعد ذلك بقليل (٣٥)

لكن موت اردون خلق موقفا جديدا ، فقد بدد مخاوف شانجه ، وجعله يطمئن على عرشه ، فقد مات منافسه . وقرر شانجه الاستعانة بحلفائه القدامى من أخواله ملوك نبرة ، ومن يليهم من كونتات قطلونية بوريل Borrell وميرون Miron ، وكذلك كونت قشتالة العدو اللدود للخلافة ، وأعلن عدم التزامه مرة أخرى بالاتفاقية ، فاضطر الحكم لقتالهم ، وبدأ أولا بقشتالة ، واستولى على قلعة شنت اشيتين عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م ، وأجبر حاكم قشتالة فرنان جونثالث على طلب السلام . واستطاع القائد غالب أن يهزم جيوش ليون ونبرة في موقعة اتينيسا Atienza وكذلك هزمهم قائد الثغر يحيى بن محمد التجيبى حاكم سرقسطة واستولى على مدينة فلهره الهامة ، وقام قائد وشقة واستولى على مطونية ، وعانت قوات الثغور في برشلونة . وغنم المسلمون في هذه الغزوات من الاموال والسلاح والدواب والاطعمة والسبي مالا يحصى ، وبهذا اجبر المستنصر اعداءه على طلب السلام (٣٦)

حالف الحظ الحكم المستنصر بوفاة شانجة ملك ليون عام ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م ، وخلفه ابنه الطفل رديم الثالث ( ٣٥٥ هـ - ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢ م ) ، وتولت عمته البيرة Elvira الوصاية عليه . وكان لتولى هذا الطفل الصغير عرش ليون اثر في انتشار الفوضى وانقسام الدولة الى امارات صغيرة ، واخذ كل امير من امرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفته ضد خصومه

(٣٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥١ .

Dozy, op. cit., p. 452.

(٣٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٩ ، ابن خلدون ، المعبر ،

ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، المقرئ ، النفع ، ج ١ ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ ،

Dozy, op. cit., p. 453, Murphy, op. cit., pp. 105,106.

فيما يشبه عصر ملوك الطوائف الذي ظهر في الأندلس بعد انهيار الخلافة، وتوالى السفارات المسيحية من جميع دول الشمال الإسباني على بلاط الحكم المستنصر ، تطلب السلام وتجدد معاهدات الصلح منذ عام ٣٥٥هـ / ٩٦٦م (٣٧)

امتد السلام حتى توفي الحكم المستنصر في عام ٣٦٦هـ / ٩٧٦م وكانت وفاته ايذانا ببداية مرحلة جديدة من الصراع غير المتكافئ بين نصارى الشمال وبين المنصور بن ابي عامر ، حاجب هشام المؤيد ( ٣٦٦-٣٩٩هـ / ٩٧٦-١٠٠٨م ) الذي خلف ابيه المستنصر في الخلافة . ولما كان هشام لا يزال طفلا فقد استبد ابن ابي عامر بالسلطة وحجر على الخليفة ، وقضى على كل معارضيه ، وصار هو الحاكم بأمرة ، ودخل مع نصارى الشمال في صراع رهيب ، اجبرهم فيه على طلب السلام وجعلهم مجرد حكام تابعين لسلطانه (٣٨)

ورغم ذلك لم يكن المنصور بن ابي عامر ذلك الرجل الجبار العنيد الذي حطم بلاد العدو وخربها ، وانما كانت تحدوه روح اصلاحية غلبت على نفسه في ذلك الوقت ، استمع الى حوار له مع حاجبه عندما شعر بدنو اجله حيث قال عن نفسه ، انه يستحق القتل والاحراق بالنار من المسلمين ، لانه عندما فتح بلاد الأسبان في الشمال عمرها بالأقوات من كل مكان ، ووفر لها المؤن ووصلها ببلاد المسلمين وحصنها غاية التحصين ، فاتصلت العمارة بين الأندلس الاسلامية وبين أسبانيا النصرانية ، ثم اخذ يندم على ذلك ويتمنى لو انه كان قد خرب من تلك البلاد مقدار مسيرة عشرة أيام وجعلها فيافي قفار حتى لا يصل النصارى الى بلاد المسلمين الا بهشقة كبيرة ، ومن ثم يمكن الدفاع وانقاذ البلاد من خطرهم (٣٩) .

(٣٧) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

Dozy, op. cit., p. 453, Livermore, op. cit., p. 97.

(٣٨) ابن سعيد ، المغرب في ظل المغرب ، ج ١ ، ص ٢١٠ .

(٣٩) ابن الكرد بوس ، الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ص ٦٤ ، ٦٥ .



وهذا بالطبع شيء جديد لا يعرفه أحد عن المنصور من قبل ، وإذا كان المنصور قد لجأ في كثير من حروبه الى التدمير ، فلم يكن ذلك يقارن بما كان يفعله نصارى الشمال عندما يتغلبون على مدينة أو قرية أو حصن ولم يكن التخريب والتقتيل الا أسلوبهم المفضل ، ولم يكن المنصور ليعاملهم الا بأسلوبهم ، حتى يتحقق السلام الذى لا يمكن أن يتحقق الا بالقوة . وسلك المنصور هذا السبيل في شدة وعنف ، وأكثر من الغزوات حتى بلغت ما يزيد عن الخمسين غزوة .

وقد قام الأستاذ خالد الصوفانى الأستاذ بكلية الآداب بدمشق بعمل دراسة على هذه الغزوات ولاحظ أنها تتفاوت من سنة أو من فترة الى أخرى خلال حكم المنصور وأورد الجدول الآتى للتدليل على صحة كلامه :

التاريخ	أرقام الغزوات	مجموع الغزوات
من سنة ٣٦٦ هـ - ٣٧١ هـ ( ٩٧٦ - ٩٨١ م )	من ٢ - ٤	٤ غزوات
من سنة ٣٧٩ - ٣٨٧ هـ ( ٩٨٩ - ٩٩٧ م )	من ٤٦ - ٤٨	٣ غزوات
من سنة ٣٨٧ هـ - ٣٩٢ هـ ( ٩٩٧ - ١٠٠٢ م )	من ٤٨ - ٥٢ أو أكثر	٤ غزوات
ثم		
من سنة ٣٧١ - ٣٧٩ هـ ( ٩٨١ - ٩٨٩ م )	من ٤ - ٤٥	٤١ غزوة

ويعلل الأستاذ خالد الصوفانى هذا التفاوت في عدد الغزوات من فترة الى أخرى ، بأنه ربما عمد المؤرخون الى ذكر المهم من الغزوات ، وأهملوا الغزوات الثانوية ، وربما حسب بعض المؤرخين الغزوات الصغيرة الجانبية التى كانت تنفرح أحيانا عن غزوة كبرى ضمن الغزوات الخمسين ، ثم يختم مقاله بأن ذلك من « باب التخمين » ، ولايزيد كونه عن فرضية ليس لها ما يدعمها أو يثبتها سوى جهلنا بعدد تلك الغزوات الأساسية (٤٠)

(٤٠) خالد للصوفانى ، عصر المنصور الأندلسى ، ص ١١٧ - ١١٩ .

ويبدو أن الأستاذ الصوفاني لم تتوافر لديه المصادر الكافية ، فأضنى نفسه في هذا البحث الذي قدمه عن التفاوت بين غزوات المنصور من فترة لأخرى أثناء حكمه . والواقع أنه ليس هناك تفاوت في عدد الغزوات ، وإنما كان المنصور يلزم نفسه بغزوتين كل عام . وكل ما هنالك أن الأستاذ الصوفاني لم تصل إليه أسماء الغزوات وتواريخها . وقد عثرنا على ثبت كامل بأسماء الغزوات بدءاً من عام ٣٦٦ هـ إلى ٣٧٦ هـ فقط ، فكان عددها خلال تلك السنوات العشر فقط أربعاً وعشرين غزوة<sup>(٤١)</sup> .

وفي الفترة الأولى التي أشار إليها الأستاذ الصوفاني من ٣٦٦ هـ إلى ٣٧١ هـ والتي جعل فيها ٤ غزوات فقط ، قام المنصور في هذه الفترة بالذات بأربع عشرة غزوة وليس بأربع فقط . ذلك أن المنصور كان يقوم أحياناً بأكثر من غزوتين في العام ، وفي عام ٣٧٠ هـ قام بأربع غزوات ، وفي عام ٣٧١ هـ قام بثلاث غزوات ، وفي عام ٣٧٣ هـ قام بأربع غزوات ، وهذا يفسر سر التفاوت في عدد الغزوات في بعض الفترات<sup>(٤٢)</sup> .

وفي هذا المقام نقول أن غزوات المنصور لم تكن موجهة كلها إلى نصارى الشمال ، إذ ربما يعتقد البعض ذلك ، وإنما يدخل فيها ما قام به المنصور من غزوات في الأندلس نفسها ضد بعض المتمردين ، ومن غزوات في شمال إفريقية ضد الفاطميين . ويحتمل أن يكون المؤرخون قد أسقطوا بعضاً من هذه الغزوات . ومما يؤيد ذلك أن العزري يذكر خمس غزوات للمنصور حتى عام ٣٦٨ هـ ، بينما يقول ابن حيان وهو معاصر للعزري أن المنصور خرج في غزوته الثامنة عام ٣٦٨ هـ لضبط شئون جنوب الجزيرة تجاه نشاط الفاطميين هناك<sup>(٤٣)</sup> .

(٤١) المعزري ، المصدر نفسه ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٧٨ .

(٤٢) المعزري ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، مجهول نقلاً عن ابن حيان ،

مفاخر البربر ص ٣٠ .

كما نلاحظ أيضا أن العذرى حينما يتحدث عن غزوات المنصور يقول عن بعضها أنها كانت شاتية مفردة أو صائفة مفردة . ويقول عن أخرى أنها كانت صائفة ذات ثلاث دخلات ، جمع فيها بين بهلونة وبسيط برشلونة ، وهذا يؤيد الفرض الذي قدمه الدكتور الصوفاني من أن الغزوة الواحدة ربما تفرع عنها غزوة أخرى ثانوية لم تذكرها كتب التاريخ ، ومن ثم أصبح الفرض يقينا لدينا ، وأصبحنا في غنى عن البحث مرة أخرى في عدد غزوات المنصور وتوقيتاتها . وحسبنا تقدم فقد قام المنصور بأربع وعشرين غزوة في العشر سنوات الأولى من حكمه ، وعلى ذلك فانه قام بغزواته الباقية وهي حوالى ست وعشرين في السنوات الباقية من حكمه ، وهي ستة عشر عاما على أساس غزوتين كل عام كحد أقصى حسبما أشار الى ذلك معظم المؤرخين ، فلا داعى اذن للتشكيك في عدد الغزوات بحجة التفاوت في حدوثها على النحو الذي أشار اليه الأستاذ الصوفاني (٤٤) .

وقد قام المنصور بأولى غزواته عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م ضد مملكة ليون بعد أن انتهز ملكها ردمير الثالث ( ٣٥٥ - ٣٧٢ هـ / ٩٦٦ - ٩٨٢ ) فرصة موت الحكم المستنصر ، وأغار على الثغر الجوفى أو الثغر الأوسط ، واستغاث هناك بالحاجب جعفر المصحفى الذى جبن عن اتخاذ القرار المناسب . حينئذ أعلن المنصور قيامه لمقارعة ردمير بعد أن زوده المسئولون في قرطبة بالجنود والمال والعتاد اللازم . وخرج الى الحدود وحاصر حصن الحامة في جليقية ، ثم عاد اليها مرة أخرى في الصائفة من نفس العام ، وافتتح حصن موله ، واستولى على سبى كثير ومغانم كثيرة ، وعاد الى قرطبة ، فبعد صيته واشتهر ذكره بين الخاصة والعامة ، وتضائل شأن المصحفى منذ ذلك الوقت (٤٥)

(٤٣) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٧٨ ، للحميدى ، جذوة المقتبس ، ص ٢٤ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٩ ، الضبى ، بغية الملتبس ، ص ١٠٦ ، ابن الأثير ، للكمال ، ج ٨ ، ص ٣٤٥ .

(٤٤) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ ، ابن بسام ، الخيرة ، ق ٤ ج ٤ ، ص ٤٤ ، ٤٥ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٤ - ٣٩٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، Dozy, op. lct., pp. 476 - 477. ج ٢ ، ص ٦١ .

وقام ابن أبي عامر بغزوتين في عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م ، افتتح في الأولى حصن أرنيق وخرب مدينة سلمنقة من أعمال مملكة ليون ، فكافأه الخليفة بأن رفع راتبه وقلده منصب ذي الوزارتين . وأراد ابن أبي عامر أن يثبت للجميع جدارته ، فقام في نفس العام بغزوته الثانية الى نبرة وبرشلونة ، وتوالت غزواته بعد ذلك حتى اصطدم بصره غالب الناصري قائد الثغر الأوسط ، والذي استعان بنصارى الشمال في صراعه ضد ابن أبي عامر ، وتقابل الطرفان عند أنقيسة قرب مدينة سالم ، وانتصر ابن أبي عامر عام ٣٧٠ هـ ، وقرر معاقبة ليون على مساعدتها لخصمه غالب (٤٦) .

تقدمت قوات المنصور بن أبي عامر ، وعلى مقدمتها عبد الله بن عبد العزيز الذي استطاع أن يحاصر سمورة ( زامورة Zamore ) في يولية عام ٩٨١ م / صفر ٣٧١ هـ . ورغم أن المسلمين لم يستطيعوا الاستيلاء على القلعة ، الا أنهم أخذوا ثأرهم تماما . فقد أحرقوا أرياف المدينة وقتلوا أربعة آلاف مسيحي ، وأخذوا مثل هذا العدد أسرى ، وفي إحدى جهاتها دمروا عددا كبيرا من القرى بما فيها من بيع وديارات وكنائس وعادوا الى قرطبة ظافرين (٤٧) .

وعلى الفور دخل ملك ليون ردمير الثالث الذي لم يبلغ العشرين بعد في تحالف مع غرسية فرناندوز كونت قشتالة ، ومع ملك نبرة شانجة بن غرسية المعروف بسانشو أباركا Sancho Abarka ، ولذلك يسمى العذرى هذه الغزوة بأنها غزوة الثلاث أمم ، وزحف الحلفاء الثلاثة على ابن أبي عامر الذي قابلهم عند روطة Rueda الى الجنوب من سيمينقة Simancas قرب أحد فروع نهر دويرة ، في صفر

---

(٤٥) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٤ - ٧٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٩٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٢ - ٦٥ .  
Dozy, op. cit., p. 497.

(٤٦) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٦ ، Dozy, op. cit., p. 497 ويلاحظ أن العذرى يجعل المعركة في شهر صفر عام ٣٧١ هـ ، بينما يجعلها ابن الأبار في المحرم . والأول صحيح لانه أقرب للأحداث .

من عام ٣٧٢ هـ / يونيه ٩٨٢ م . وانتصر ابن أبى عامر واستولى المسلمون على سيمنة واستورقة ، وعاد المنصور ومعه أحد عشر ألفا من الأسرى حيث احتقل به الخليفة وخلع عليه لقب المنصور (٤٨) .

وفى ربيع الأول من نفس العام ( ٣٧٢ هـ / سبتمبر ٩٨٢ م ) زحف المنصور على مدينة ليون نفسها واستطاع ردّهم أن يمنع تقدّمه . وعندما رأى المنصور تهتقر قواته ، أعلن غضبه وألقى بنفسه على الأرض من فوق منصته التى كان يجلس عليها . وأثار هذا المنظر حماس جنده ، فالتقوا بأنفسهم على الأعداء الذين أخذوا فى الهرب ، وطاردتهم المسلمون حتى أبواب مدينة ليون . لكن عاصفة ثلجية شديدة هبت فى ذلك الحين ومنعت المسلمين من الاستيلاء عليها ، وعادوا الى قرطبة ظافرين (٤٩) .

ازاء هذه الهزائم المتكررة ، ساءت الأحوال فى ليون وثار النبلاء وعزلوا ردّهم الثالث عن العرش ، وتوجوا ابن عمه برمند الثانى ( ٣٧٢ — ٣٨٩ هـ / ٩٨٢ — ٩٩٩ م ) على العرش ، ونشبت الحرب الأهلية بين الملكين ، ولم توقف الا بوفاة ردّهم فى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م ، وحاولت أمه أن تحكم بمساعدة من المنصور لكنه رفض ذلك ، وتقدم برمند نفسه تحت حماية المنصور الذى ساعده على مقاومة بعض النبلاء الذين لم يعترفوا بسلطته ، وعقد له المنصور على سمورة وليون ، وبذلك أصبح تابعا للمنصور وأصبحت ليون إمارة تابعة له أيضا (٥٠)

---

(٤٧) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ص ٦٧ ، Dozy, op. cit., 497.

(٤٨) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ،

Dozy, op. cit., p. 498.

(٤٩) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، للقطشندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ ،

ص ٢٦٥ ،

Dozy, op. cit., p. 500, Livermore, op. cit., p. 88

وانتهز المنصور فرصة الحرب الأهلية في ليون ، وقام بعدة حملات على سيمنقة ( شنت مانكش ) ، وعلى سلمنقة ، وعلى إحدى نواحي شقوبية التي تسمى ( شقرمنية ) ، وعلى زامور ( سمورة ) . وكان البربر من صنهاجة قد وصلوا الى الأندلس ووجههم المنصور للغزو في جليقية ، فذهبوا وخربوا كثيرا من النواحي ثم عادوا الى قرطبة ، ثم عادوا مع جيوش المنصور للاغارة على ليون من جديد ، وهزموا جيوشها وأصابوا من السبى ثلاثين ألفا . ويبدو أن هذا النشاط الحربى المكثف هو الذى دفع ملك ليون الجديد الى وضع نفسه تحت حماية المنصور كما تقدم (٥٠) .

لم يدم السلم طويلا بين ليون وقرطبة ، اذ سرعان ماتجددت الحرب بين الجانبين ، فيذكر العذرى أن المنصور قام بحملتين ضد ليون عام ٣٧٦ هـ ، صالح في احداها سمورة ، وهاجم في الأخرى قلنبرية Coimbra وهى التى تسمى عادة قلمرية . وفى نفس الوقت فقد عامل جنود الحامية الاسلامية في ليون أهلها على أنها مدينة محتلة ، واشتكى برمند الثانى من ذلك للمنصور . لكنه لم يهتم بشكواه ، فنقد صبر الملك وطرده الحامية الاسلامية واعتبر المنصور ذلك اعلانا بالحرب من جانب ملك ليون ، وأراد أن يعطيه درسا فى الطاعة ، فهاجم قلمرية عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م واستولى عليها ودمرها تدميرا شديدا لدرجة أنها ظلت مهجورة سبع سنوات (٥٢) .

وفى العام التالى ( ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م ) تقدم المنصور وعبر نهر دويره ( الدورو ) واستولت جنوده على استرقة ، ثم اقتحموا العاصمة ليون كاعصار ، حاملين معهم الموت والدمار . حطموا المدن والقلاع والأديرة والكنائس والبيع . وباختصار لم يبقوا على شيء ما . وكان ردمير الثالث قد قذف بنفسه الى سمورة فقد كان لايشك فى أن المسلمين سيبدؤونها

(٥٠) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٩ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ص ١٢ .

(٥١) العذرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ابن القزوى ، تاريخ علماء الأندلس ،

ج ٢ ، ص ١٤٩ .

Dozy, op. cit., p. 505

بالهجوم لأنها في طريقهم ، لكن المنصور مر بها وحطم ليون أولا ، واقتحمها قواته بعد مقاومة دامت أربعة أيام بسبب حصانتها ، وجرت مذبحة قتل فيها الكونت الجليقي جونزالفو جونثالث ، الذي كان يتولى الدفاع عن المدينة ، وانتهت المذبحة ليبدأ التدمير . باختصار لم يبق حجر على حجر في المدينة . ثم انسحب المنصور راجعا الى سمورة فهرب منها الملك وقام السكان بتسليم المدينة للمنصور الذي سلمها بدوره للذهب والسلب ، واعترف جميع كونتات مملكة ليون بالمنصور سيدا لهم<sup>(٥٣)</sup>

ظل السلام قائما على الجبهة الليونية الأندلسية حتى قام عبد الله بالتآمر على أبيه المنصور عام ٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، ولما اكتشفت المؤامرة فر عبد الله الى أمير قشتالة ، وفر زميله عبد الله بن عبد العزيز المرواني هاربا الى برمند الثالث ملك ليون . وفي هذا الوقت كانت سلطة الملك اسمية . اذ أن النبلاء كانوا قد استقلوا بمقاطعاتهم ، وأقام الملك في مدينة أستورقة Astorga بعد تخريب ليون في الغزوة الإسلامية السابقة ، وكان المنصور قد خرج على رأس قواته لمهاجمة قشتالة وليون حتى تسلم اليه المتآمرين ، وما أن شعر برمند باقتراب جيوش المنصور حتى انهيار وتخلّى عن المدينة وطلب السلام الذي حصل عليه نظير أن يسلم عبد الله المرواني ، وأن يدفع الجزية<sup>(٥٤)</sup> .

أما أشهر غزوات المنصور بن أبي عامر على الاطلاق ، فهي غزوة شنت ياقب عام ٣٨٧ — ٩٩٧م وكانت شنت ياقب بمثابة الكعبة عند المسلمين ، فبها يلحفون واليها يحجون من جميع أنحاء أسبانيا وأوروبا ، بل ومن قبط النوبة ومصر . وخرج المنصور اليها في غزوته الثامنة والأربعين ، ووصل الى ولاية جليقية حيث وفد اليه عدد كبير من القواميس ( الكونتات ) المتمسكين بطاعته . ويبدو أن

(٥٢) ابن الفرضي ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٠ ، الضبي ، المصدر نفسه ،

ص ٧٣ ، ٧٤ .

Dozy, op. cit., pp. 505, 506

(٥٣) ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢١٨ — ٢٢٠ ،

Dozy, op. cit., p. 509.

سبب الغزوة هو أن برمند انتهر فرصة تمرد زيرى بن عطية في بلاد المغرب وأعلن العصيان ، فأراد المنصور أن يعاقبه عقابا رهيبا بأن يدك تلك المدينة المقدسة وأن يصل الى أقصى مكان لم يصل اليه مسلم من قبل ، وأن يبرهن لأعدائه في أفريقيا أيضا أنه قادر على القتال في جبهتين في وقت واحد (٥٤) .

وفي يوم السبت لست بقين من جمادى الآخرة من عام ٣٨٧ هـ / ٣ يونية ٩٩٧ م أطلع المنصور من قرطبة سالكا طريق قورية وبيزو Vieseu ثم الى أوبورتو Oporto حيث وجد أسطولاً الذي كان قد أبحر من قصر أبى دانس على ساحل الأندلس الغربى ، وعبر المنصور المنطقة بين دويرة والمنهو Minho دون صعوبات ، لأنها كانت تخص الكونتات المواليين له . وقد اكتشف المنصور وجود بعض الجواسيس بين النصارى الذين قد وفدوا اليه من قبل كمرتزقة ، فأعدمهم وانطلق وعبر نهر المنهو وحطم بعض المدن التى لاقاها في طريقه ، حتى وصل الى مدينة شنت ياقب والتى يعرف اسمها بسنتياجودى كومبو ستيل Santiago de Compostela فوجدها خالية من السكان وأعمل المسلمون فيها يد الهدم وتركوها قاعا صنفصا ، لكنهم لم يمسوا قبر القديس يعقوب بسوء ، بل أن المنصور عين من يحرسه (٥٥) .

انسحب المنصور من مدينة شنت ياقب ( سنتياجو ) ومال في طريقه الى بعضى الأراضى التى تخص الملك برمند ، فعاث فيها حتى وصل الى حصن مليقة أو لا ميجو Lamego ، حيث خلع على الكونتات المواليين له ، وانسحب عائدا الى قرطبة ومعه عدد ضخم من المسيحيين يحملون على

---

(٥٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ ، المقرئ ، نفح الطيب ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ .

Dozy, op. cit., p. 516.

(٥٥) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٧ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤١ - ٤٤٣ ، Dozy, op. cit., pp. 517-519.



اكتسافهم بوابات سنتياجو وأجراس الكنيسة التي عملت مشاعل لاضاءة المسجد الجامع بقرطبة ، وقام المنصور واسكن المسلمين مدينة سمورة بعد ذلك بعامين ، وولى عليها أبا الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي وصار اهل جليقية جميعا في طاعته ، وكان حكامهم كالعمال لديه (٥٦) .

ولم يلبث أن مات برمند ملك ليون عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وترك طفلا صغيرا يسمى الفونش حيث قام الصراع بين النبلاء على الوصاية عليه ، وانتقل مركز الثقل السياسى الى قشتالة التى أصبح بلاطها أقوى بلاط فى شمال أسبانيا النصرانية فى ذلك الوقت . ولم يلبث أن مات المنصور أيضا عام ٣٩٢ هـ / ١٠٠٢ م فتنفس ملوك النصارى جميعا الصعداء لأنهم كانوا يكرهونه من أعماق قلوبهم لدرجة أن أحد كهنتهم كتب فى حولياته « مات المنصور ودفن فى الجحيم » (٥٧) .

تولى الحجابة بعد المنصور ابنه عبد الملك المظفر (٣٩٢ — ٣٩٩ هـ) واستغل كراهية كونت قشتالة لكونت جليقية الذى فاز بالوصاية على ملك ليون وعقد معه صلحا عام ٣٩٣ هـ ، وجرد عبد الملك حملة فى نفس العام على قلمرية المواجهة لأرض جليقية ، وبعد ذلك بعامين أعد حملة كبرى وقام بالهجوم على جليقية من أعمال مملكة ليون ، ومعه شانجة أمير قشتالة ، يدلله على نقط الضعف التى يمكنه أن ينفذ منها الى أمنع المعاقل ، فدلله على مدينة ليونة Luna لكنه لم يظفر بها لمنعتها الشديدة ، واستطاع قائده « واضح » أن يحتل مدينة سمورة وأن يحرق ما يحيط بها ، وعاد ومعه من السبى الفين عدا الأموال والفنائم . وعاد المظفر دون أن يظفر بكونت جليقية . (٥٨)

---

(٥٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٤٣ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ،

ص ١٨١ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ .

Dozy, op. cit., p. 520, Crow, op. cit., p. 64.

Murphy, op. cit., p 113.

Crow, op. cit., p. 63.

(٥٧)

(٥٨) ابن بسام ، للخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ابن عذارى ، المصدر

نفسه ، ج ٣ ، ص ١١٤ .

مات المظفر بعد ذلك ببضع سنوات ( ٤٩٩ هـ ) وتولى أخوه عبد الرحمن المأمون المعروف بشنجلول ، نسبة الى جده شانجه ملك نبره ولم يكن عبد الرحمن في مقدرة أخيه أو كهلاءه أبيه ، وارتكب غلطة العمر اذ أجبر هشام المؤيد على تعيينه وليا للعهد ، فآثار بذلك الأمويين والشعب جميعا ، ثم ذهب الى جليقية يغزوها ويوغل فيها ، ولم يقدم جيشها على لقائه وانما اعتصم كونت جليقية بالجبال ، ولم ينقذه من أيدي القوات الاسلامية الا نبا الثورة التي قامت في قرطبة ضد عبدالرحمن شنجلول وضد الخليفة هشام المؤيد معا . فعاد عبد الرحمن الى قرطبة حيث تم صلبه على أحد أبوابها في رجب من عام ٣٩٩ هـ . وبذلك انتهت دولة بني عامر ، وبدأ انهيار الخلافة الأموية (٥٩)

بهذا نرى أثر الأوضاع الداخلية في كل من الأندلس الاسلامية في عهد الخلافة ، وفي مملكة ليون النصرانية ، على الصراع الذي دار بينهما وما انتهى اليه ذلك الصراع من اضعاف لتلك المملكة وتدمير لمعظم مدنها حتى أن جل ملوكها طلبوا السلام والأمان من حكام قرطبة ، ولم يثبت للخلافة في عدائه الا مليكان هما أردون الثاني ( ٣٠١ — ٣١٢ هـ / ٩١٤ — ٩٥٤ م ) وردمير الثاني ( ٣١٩ — ٣٣٩ هـ / سبك — ٩٥١ م ) ، حيث استطاعا أن يحرزا بعض الانتصارات على الخلافة في مستهل قيامها . وقد تراجعت حدود ليون الى الورا ، واستولى المسلمون على سمورة وسلمنقة وأسكنوها بالمسلمين ، واحتلوا مدينة ليون نفسها عدة سنوات ، وبذلك كانت نتيجة الصراع في صف الخلافة (٦٠) .

#### ب — علاقة خلفاء بني أمية بمملكة نبرة ( نافار ) :

عاصر الناصر أول خلفاء بني أمية ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م ) ملكين من ملوك نبرة هما شانجه بن غرسية الأول ( ٢٩٠ —

(٥٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٦ ، ٩٧ ، ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار ج ١٥ ، قسم ٢ ورقة ٢٢٨ ، ٣٣٩ ، الضبي ، المصدر نفسه ، ص ١٩ .  
Dozy, op. cit., p. 544.

(٦٠) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٦٦ .

٣١٤ هـ / ٥٩٠ - ٩٢٦ م ) وابنه غريسيه بن شانجة ( ٣١٤ - ٣٥٩ هـ / ٩٢٦ - ٩٦٩ م ) . وكان أولهما من أقدر ملوك نبرة ، اذ استطاع بالمصاهرات التى نشأت بينه وبين أمراء الثغر الأعلى ( سرقسطة ) من المولدين من بنى قسى وغيرهم ، أن يضرب الخلافة بهؤلاء الأمراء ويحقق بعض الانتصارات ، ولو حاول هؤلاء الأمراء أن يتمردوا عليه كان فى إمكانه إخضاعهم لأن بلادهم تحت قدميه وقريبة من بلاده ، وكان فى قدرته الاغارة عليها فى أى وقت ، لأنها من المناطق البعيدة جدا عن مركز الخلافة ولذلك كانت معاناتها شديدة من هجمات ملوك نبرة .

استغل ملك نبرة انشغال الناصر فى ضرب قوى الثوار داخل الأندلس نفسها واغار على مدينة تطيلة عام ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م ، وقتل من أهلها ألف فارس ، وأسر أميرها عبد الله بن محمد بن لب القسوى فى أحد الكائن ، فتولى حكم تطيلة أخوه مطرف ، وافتدى عبد الله نفسه بالتنازل لملك نبرة عن حصن البراة بفالجش وقبروش ، وارتهن ابنته وولده فرتون ، لكنه مات بعد شهرين من اطلاق سراحه بتأثير السم الذى أطعمه له شانجة فى ببلونه أثناء أسره (١١) .

وقد اشترك ملك نبرة شانجة بن غرسية الأول مع ملك ليون اردون ابن الفونس الثالث عام ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م فى الهجوم على مدينة ناجرة Najera بالثغر الأعلى ، ثم انتقلا الى تطيلة ، ووصلا الى رافد كالش ووادى طرسونة جنوب نهر أبره ، ثم انفصل شانجة بقواته وعبر نهر أبره شمالا ، وقاتل حصن بلتيرة وحطم ريشه وأحرق مسجده الجامع ، مما أحفظ الناصر وجعله يرسل الحملة المعروفة بحملة مطونية Mitonia بقيادة حاجبه بدر بن أحمد عام ٣٠٦ هـ / ٩١٨ م ، وكتب الى أهل الثغور بضرورة الاشتراك فى هذه الحملة لأخذ

(١١) المعزى ، المصدر نفسه ، ص ٢٨ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ثأر قائده ابن أبى عبده الذى استشهد هو ورفاقه فى قشتالة فى العام السابق ، ولرد اعتداء نصارى نبره وليون على منطقة الثغر الأعلى<sup>(٦٢)</sup>

ولم يكن تطاول نصارى نبرة بهذا الشكل الا استغلالا للظروف الداخلية التى كانت تمر بها الاندلس فى ذلك الوقت ، كما تحالف معهم مولدو الثغر الأعلى من بنى الطويل ، وأعطوهم الفرصة لكى يستولوا على حصن منت شون عام ٣٠٧ هـ . ويبدو أن حملة بدر السابقة لم تشف غليله ، فقام بنفسه على رأس قواته عام ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م فى غزوة تعرف بغزوة موبش ، عن طريق مدينة الفرج ومدينة سالم ، ثم عطف على البة والقلال ( قشتالة ) ، ودمر المسلمون حصن أوسمه ( وخشمة ) وحصن شنت أشتين ( قاشتر مورش ) ومدينة قلونية ، ثم زحف الناصر بعد ذلك الى الثغر الأعلى لنجدة مدينة تطيلة من اعتداءات ملك نبرة ، وأرسل محمد بن لب القسوى على رأس فرقة من الفرسان ، فاستولى على حصن قلقرة ، ثم استولى الناصر على حصن قلهرة ، وفر شانجة معتصما بالجبال بعد أن هزم هزيمة ساحقة<sup>(٦٣)</sup> .

استنجد ملك نبرة بأردون ملك ليون الذى هب لنجده لكنهما هزما معا فى سهور جونكيرة Junquera ، وقضى المسلمون على مقاتلى حصن موبش ، وساروا الى حصن آخر اتخذ شانجة لمضايقة اهل بقيرة Vijuera واستولوا عليه ، وأخذ الناصر فى تفقد حصون المسلمين على حدود نبرة وزاد فى تحصينها ، وهدم حصون النصارى المجاورة لها فى مساحة تبلغ عشرة أميال مربعة ، وحاز المسلمون غنائم وأموالا لا يحصىها العد ، حتى أن القمح كان يعرض ستة أفقزة بدرهم ، فلا يوجد من يشتريه ، وتخلص المسلمون من الاطعمة بحرقها لكثرتها وعدم الحاجة اليها . وبذلك أعطى الناصر درسا قاسيا لملكة نبرة وعاد الى مدينة أنفيسا ، حيث خلع على

(٦٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٦٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

Dozy, op. cit., p. 420.

حماية الثغر ورجاله ، وعاد الى قرطبة بعد أن بلغت غزواته تسعين يوما(٦٦) .

ورغم هذه الضربة القاسية التي نزلت بالنافاريين في حملة عام ٢٠٨ هجرية / ٩٢٠ م الا انهم عادوا الى التحرش بحصون الثغر الاعلى المحاورة لهم . ففي عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م هاجم ملك نبرة حصن بقمرة ( فجيعة ) Viguera وأسر محمد بن عبد الله بن محمد بن لب القسوى ومطرف بن موسى بن ذى النون وابن عمه محمد بن محمد ، ويحيى بن أبى الفتح وكثيرا من وجوه العرب والمولدين والبربر ، وسجنهم في ببلونة ثم ذبحهم عن آخرهم ، وسقط حصن فجيعة في يده(٦٧) .

وكان قتله هؤلاء الزعماء وسقوط فجيعة مثيرا جدا لدرجة أنه فجر غضب اهل الاندلس جميعا ، ورموا عبد الرحمن الناصر بالتهاون في الدفاع عن حماة الثغور ، فصمم الناصر على الانتقام لهذه الكارثة ، وزحف بجيوشه على ببلونة عاصمة مملكة نبرة عام ٣١٢ هـ / ٩٢٤ م ، وهى الغزوة المعروفة بغزوة ببلونة ، ومر الناصر في طريقه بكورة تدمير وبلنسية ، وقضى على الثوار الموجودين هناك ، ثم دخل تطيلة ، وخرج اليه بنو نجيب وغيرهم من عمال الثغر في جنود وفيرة وعدة كاملة ، وقصدوا جميعا حصن قلعة Carcer فأخلاه شانجه وانتقل الناصر الى حصن ببطرة آله Peratla وحصن فالكجش Falces وقرقشال Carcaseilla على وادى أرغون وحطمها وأحرق أرياضها وسبى أهلها(٦٨) .

اخترق الناصر بعد ذلك فج المركوبر قاصدا العاصمة ببلونة واستولى في طريقه على قرية بشكونسة مسقط رأس شانجة وأسرته وأحرقها

(٦٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٩

Dozy, op. cit., p. 421.

(٦٥) المنزى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

Dozy, op. cit., p. 422.

عن ٢٧٦

(٦٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

Dozy, op. cit., p. 422.

واجتاز الناصر ممرات جبلية ضيقة ، حاول فيها شانجة التصدي للمسلمين ، لكنه أصيب بهزيمة قاسية ووصل المسلمون الى ببلونة فوجدوها خالية مقفلة ، قد فر عنها سكانها ، فأمر الناصر بهدم جميع مبانيها وتخريب كنيساتها . وتلقى شانجه عند ذاك مساعدة من قشتالة وهاجم الجيش الاسلامي أثناء عودته مرتين ، مرة عند شنت اثبتين والأخرى عند قلهرة . الا أن المسلمين هزمهم واستولوا على حصن قلهرة وهدموه ، ثم دخلوا الأراضي الاسلامية عند حصن بلتيرة ، وعاد الناصر بعد أن دمر ببلونة وسحق قواتها وأخضع حكامها(٦٧) .

لم يعمر ملك نبرة شانجة بن غرسية الأول طويلا بعد هذه الهزيمة القاسية ، اذ مات بعد عامين ، فتولى ابنه الطفل غرسية ( ٣١٤ — ٣٥٩ ٩٢٦ — ٩٦٩ م ) عرش نبرة تحت وصاية أمه الملكة تيودا Tueda التي تعرفها الروايات الاسلامية باسم طوطة ، واستتب السلام بين الجانبين لمدة عشر سنوات ، انشغل الناصر فيها بقمع المتمردين في الأندلس ، وانشغلت فيها ليون بحرب أهلية بسبب التنازع على العرش ، ولم يكن أمام الملكة طوطة الا أن تستكين حتى تحين الفرصة المناسبة للانتقام من عبد الرحمن الناصر(٦٨) .

وجاءت الفرصة عندما تمرد بنو تجيب على الخلافة ، وتحالفوا مع ملك ليون ومع الملكة طوطة ، واتحد الشمال كله مسلموه ومسيحيوه ضد الناصر منذ عام ٣٢٢ هـ . فزحف الناصر عليهم في العام التالي وقضى على تمرد بنو تجيب ، ثم زحف على ببلونة عام ٣٢٥ هـ لعقابها ، فحاصرها وخرّب مبانيها ودمر حصونها وسحق كل مقاومة للملكة طوطة ، فاضطرت الى تقديم ولائها للناصر الذي أقر ولدها غرسية ملكا على

(٦٧) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٧٢ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ٢٨٠ — ٢٨٣ ، ابن الفرضي ، المصدر نفسه ، ص ٣٥ ، Dozy, op. cit., p. 422, Murphy, op. cit., p. 96.

(٦٨) انظر ، الفصل الثاني من الباب الثاني ، ص

نبرة . وبذلك انهارت الجبهة الشمالية الشرقية المتحالفة ضد الناصر (٦٩)

وحانت فرصة أخرى انتهزتها تلك الملكة العنيدة عندما وقع الصدام بين عبد الرحمن الناصر وبين ردمير ملك ليون عام ٣٢٧ هـ / ٩٣٩ م . حينئذ قررت الملكة طوطة اغتنام الفرصة واشتركت بقواتها مع ملك ليون ناكثة لعهودها مع الناصر . وبذلك اتحدت قوى أسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى ، واستطاعت الايقاع بجيش الناصر عام ٣٢٧ هـ في واقعة الخندق المشهورة ، حيث منى الناصر فيها بهزيمة ساحقة جعلته يركز كل جهوده ضد مملكة ليون خلال السنوات العشر التالية . وظلت نبرة في حالة سلام مع الناصر حتى قامت الحرب الأهلية في ليون بسبب التنازع على العرش عام ٣٤٦ هـ / ٩٥٤ م (٧٠)

هنا تخرج الروايات الاسلامية عن صمتها الذي التزمته بالنسبة للملكة نبرة ، وذكرت نشاطها في اعادة حفيدها شائجة ملك ليون المخلوع وقررت أن تنزل عن كبريائها وتأتى مع ابنها ملك نبرة وحفيدها ملك ليون الى قرطبة عام ٣٤٧ هـ / ٩٥٨ م ، لتلتبس من عاھلها مساعدته في اعادة حفيدها شائجة الى عرشه ، ولتعتد لنفسها عهدا بالصلح والسلام مع الناصر . ذلك أن الخلافة كانت قد أرسلت في العام السابق القائد غالب الى نبرة ، حيث افتتح عددا من حصونها وخرب كثيرا من قراها ، وبذلك عادت نبرة للطاعة مرة أخرى (٧١)

بعد موت الناصر وجدت الملكة طوطة الفرصة سانحة لأن تشترك في التمرد الذي أعلنه حفيدها ملك ليون ضد الحكم المستنصر ، فزحف اليها القائد غالب واستطاع أن يدمر جيشها ويستولى على حصن قلهرة عام ٣٥٤ هـ . فعادت الملكة الى صوابها وعادت تطلب السلام من جديد ،

(٦٩) ابن عبد ربه ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، ابن خلدون ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٦٩ . Murphy, op. cit., p. 97.

(٧٠) أنظر ، الفصل الثاني من الباب الثاني ،

(٧١) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، المقرئ ، اللقح ، ج ١ ، ص ١٧٠ . Hole, Spain under the Moslems, pp. 90-39.

وأرسل ابنها غرسيه بن شانجة ملك نبرة بعثة من الاساقفة والقوامس يطلبون الصلح ويجددون معاهدة السلام ، وظل غرسيه على ولائه للمستنصر حتى مات وخلفه ابنه شانجه على عرش نبرة ( ٣٥٩ - ٣٨٤ هـ ٩٦٩ - ٩٩٤ م ) وظل هو الآخر محافظا على عهد أبيه مع الخلافة حتى مات المستنصر عام ٣٦٦ هـ (٧٢) .

تولى الخلافة بعد المستنصر ابنه الطفل هشام المؤيد ، وقام الصراع بين الحاجب المنصور بن أبي عامر وبين القائد غالب على السلطان ، وانتهاز نصارى الشمال في ليون الفرصة وأغاروا على الثغور فجرد اليهم المنصور حملة سماها غزوة الغابرة في شوال من عام ٣٦٧ هـ ، مايو ٩٧٨ م . وكانت هذه الغزوة موجهة لضرب ليون وببلونة وبرشلونة اذ تفرعت عنها حملات صغيرة لضرب كل جهة من هذه الجهات على حدة . ويبدو أن هذه الغزوة كانت السبب الذي دعا شانجه ملك نبرة لأن ينقض اتفائه مع الخليفة الراحل ، وينضم الى ملك ليون في مساعدته للقائد غالب غريم المنصور بن أبي عامر . لكن المنصور استطاع أن يهزمهم في ذى القعدة عام ٣٧٠ هـ عند أنتيسة قرب قلعة ايوب وأن يقتل ابن ملك نبرة . فاضطر هذا الملك لأن يرسل رسله للصلح مع المنصور وأرسل معهم احدي بناته لتكون زوجا له (٧٣) .

ورغم هذا النصر فقد صم المنصور على عقاب ليون ونبرة . أما ليون فقد حطم جيوشها وأحرق أرياض سمورة وخرّب عددا كبيرا من القرى بلغ ألف قرية في تلك الناحية ، فتحالف ملك ليون مع نبرة وقشتالة ضد المنصور عام ٣٧٢ هـ وزحفت جيوشهم للقائه ، فهزمهم جميعا عند روطنة جنوب غرب سيمنقه ، وعاد ملك نبرة الى بلاده يجسر

(٧٢) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .  
Livermore, op. cit., p. 97.

(٧٣) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٧٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،  
Livermore, op. cit., p. 98.



أذبال الخيبة والفشل ، وكان عليه أخيرا أن يأتي الى قرطبة ليقدم اعتذاره ويعلن طاعته لصهره المربع ، المنصور بن أبي عامر ، وقضى بقية عمره في سلام حتى توفي عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م (٧٤) .

لكن الأستاذ عنان يشير الى هزيمة للمنصور تمت على يد شانجة ملك نبرة عام ٣٧٦ هـ / ٩٨٧ م . ولم نجد في مصادرنا ما يشير الى ذلك ، بل ان هناك من يقول بأن المنصور غزا نبرة عام ٣٧٩ هـ في غزوة تسمى غزوة البياض . ويبدو أن الأستاذ عنان يشير الى حملة لم يذكر اسمها المؤرخون ، وانما أتوا بوصف لها ، ويقولون بأن المنصور غزا في بلاد الفرنج — وكان بعضهم يسمى الأسبان فرنجا وروما وأعاجم — وأخذ ينسف ويدمر ويخرب ويتوغل في بلادهم ، وعند عودته وجد الفرنج قد قطعوا عليه خط الرجعة وكننوا له عند مضيق بين جبلين لابد له من اجتيازه (٧٥) .

ولما رأى المنصور ذلك ، احتال عليهم وأظهر أنه ينوي الإقامة في هذا المكان ، ففاوضوه حتى يرحل عنهم ، وانتهت المفاوضات بأن يحملوا على دوابهم ما معه من الفنائم والسبي ، وأن يمدوه بالميرة حتى يصل الى بلاده ، وأن يطهروا له الطريق من جثث قتلاهم ، ففعلوا ذلك وعاد المنصور الى قرطبة . ويمكن أن يكون الأستاذ عنان قد اعتبر ذلك هزيمة للمنصور ، لكن المنصور لم يخسر شيئا بل عاد وافر الكرامة بما معه من سبي وغنائم (٧٦) .

تولى عرش نبرة بعد وفاة شانجة ابنه غرسيه ( ٣٨٤ — ٣٩٠ هـ / ٩٩٤ — ١٠٠٠ م ) ، ولم يكن هذا الملك في مقدرة أبيه ، فقد أطلقت عليه الرواية النصرانية لقب غرسيه المرتعد ، ولم يحاول هذا

Livermore, op. cit., p. 98.

(٧٤)

(٧٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٢١ ، آقري ، نفع الطبيب ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، محمد عبد الله عنان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ١٦٧ .

(٧٦) نفس المصادر وللصفحات في الحاشية السابقة .

الملك الضعيف أن يرفع صوته ضد المنصور وانها اكتفى بأن أقام معه ومع جيرانه من أمراء قشتالة علاقات الصداقة . ويكفى ما تشير اليه الرواية الاسلامية من رعبه وفزعهم عندما سمع بقدوم المنصور لانتقاذ امرأة أسيرة في إحدى كنائس نبرة ، لأن أسرها يعتبر اخلايا باتفاق السلام المعقود بين الطرفين ، ساعتها انهيار ملك نبرة واقسم بأغلظ الايمان أنه لا يعرف بوجود تلك المرأة المسلمة في البلاد ، وقام بهدم الكنيسة التي كانت تخدم فيها ، وأرسل للمنصور بذلك ، فاستحى المنصور وعاد الى قرطبة (٧٧) .

مات ذلك الملك الضعيف وخلف ابننا صغير السن يسمى شانجه على عرش نبرة . ولما كان شانجه طفلا لم يتجاوز الرابعة من عمره ، فقد رحل مع امه الملكة خمينا ذات الأصل القشتالى الى برغش عاصمة قشتالة ، حيث تربى هناك ، وزوجه الكونت شانجه غرسية ابنته الكبرى البيرة ، وتبوا شانجه عرش نبرة باسم شانجه الأول ( ٣٩٠ - ٤٢٩ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٣٩ م ) ولم يلبث أن مات المنصور بعد ذلك بعامين وخلفه في الحجابة ابنه عبد الملك المظفر الذى اتبع سياسة أبيه في القاء الرعب في قلوب نصارى الشمال ، حتى لايفكروا فى مهاجمة الثغور الاسلامية (٧٨) .

وتنفيذا لهذه السياسة قام المظفر بعدة حملات على برشلونة عام ٣٩٣ هـ ، وعلى جليقية عام ٣٩٥ هـ ، وجاء دور نبرة عام ٣٩٦ هـ ، فقد خرج اليها عبد الملك المظفر غازيا الى بمبلونة عاصمة نبرة فى شوال من هذا العام ، وعندما وصل الى ارض الملكة بدأ بالاغارة الى أرياض حصن أبينونش ، ففر أهله عنه وهدمه المظفر ورحل عنه الى حصن شنت بوانش وأحرق أرياضه أيضا ، لكنه لم يصل الى بمبلونة وعاد الى قرطبة (٧٩)

(٧٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ ، المقرئ ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٧٨) انظر ، للفصل الثانى من الباب الثانى ،

(٧٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٣ .

ويبدو أن المظفر لم يكن موفقا تماما في هذه الغزوة اذ أن العلامة قللت من قيمتها ، لأنه لم يصحبهم من ورائها سبى كثير كما عودهم المنصور من قبل ، وصاحوا « مات الجلاب .. مات الجلاب » يقصدون والده المنصور ويعلل ابن عذارى سبب الاخفاق في هذه الغزوة بظروف طبيعية تتعلق بسوء المناخ وما حدث من عواصف رعدية وثلجية . وقد سبق أن تسببت وعورة تلك المنطقة في تهديد المنصور بالهزيمة ، ولولا احتياله على النافارين كما وضعنا لانتهى الى نفس النتيجة التى انتهى اليها ابنه عبد الملك .

وقد شجع هذا الاخفاق أهل نبرة فوضعوا يدهم مع امر قشتالة الذى استطاع أن يوحد جهد أهل الشمال جميعا عام ٣٩٧ هـ ويدخل بهم في صراع ضد عبد الملك المظفر ، الذى استطاع أن ينتصر عليهم جميعا في غزوته التى قام بها في ذلك العام والتى تعرف بغزوة قلونبة ، وعاد منها ليخلع عليه الخليفة لقب المظفر سيف الدولة (٨٠) .

ولم يسفر هذا الصراع الطويل بين مملكة نبرة وبين أندلس القرن الرابع الهجرى الا عن تدمير شامل للعاصمة ببلونة ولكثير من المدن والحصون النافارية ، وسقوط عدد من الحصون في يد المسلمين مثل حصن قلهرة وغيره ، وصارت نبرة مملكة تابعة لقرطبة معظم سنى القرن الرابع الهجرى ، واذا كان هناك من يقول بقلّة النتائج ، الا أن ذلك لم يكن تقصيرا من حكام الأندلس ، وانما يبرره عمق المقاومة النصرانية التى كانت تتحطم وما تلبث أن تدب فيها الحياة من جديد وترفع لواء الكفاح ، ذلك اللواء الذى تسلمته قشتالة قرب سقوط دولة بنى عامر(٨١)

(٨٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤ - ١٦ .

(٨١) د. حسن محمود ، تاريخ الغرب الإسلامى ، ص ١٤٥ .

## ج - علاقات خلفاء بنى أمية بامارة قشتالة :

ظهرت قشتالة على مسرح الحياة السياسية فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى . وكانت قبل ذلك تـجاهـد لتحقيق استقلالها عن مملكة ليون حسبما تقدم عند الحديث عن الأوضاع الداخلية لقشتالة . وقرب نهاية عصر عبد الرحمن الناصر كانت قشتالة هى التى تقرر من يجلس على عرش ليون . وكانت قشتالة تؤيد أحد الطامعين من الأسرة المالكة الليونية ، بينما تؤيد نبرة أخاه أو ابن عمه ممن ارتبط معها غالبا برباط المصاهرة ، وتسعى الى قرطبة لطلب المساعدة كما حدث عندما تقدمت الملكة طوطة ملكة نبرة مع ابنها ومع حفيدها شانجة ملك ليون المخلوع على يد كونت قشتالة القوي(٨٢) .

هنا فقط يتردد اسم كونت قشتالة فرنان جونزالث Fernan Gonzalez فى الروايات الاسلامية ، ويقول أنه بعد أن انتصر أردون الثالث على أخيه شانجة وتولى عرش ليون عام ٣٣٩ هـ ، تزوج من ابنة كونت قشتالة وعقد صلحا مع الناصر عام ٣٤٤ هـ ، فطلب منه الكونت أن يتوسط لدى الخليفة الناصر ليعقد مع قشتالة صلحا مماثلا لصلحه ، ولكن موت أردون الثالث فجأة عام ٣٤٥ هـ قلب خطط الكونت ، اذ أن شانجة ارتقى عرش ليون ، ورفض تنفيذ اتفاق أخيه أردون الثالث مع الناصر ، فانهز كونت قشتالة أقوى القوامس فى المملكة الليونية وقام بانقلاب ضد شانجة ، ووضع ابن عمه أردون الرابع على العرش وزوجه ابنته أرملة أردون الثالث(٨٣) .

ووفدت الملكة طوطة ملكة نبرة مع حفيدها المخلوع شانجة الى قرطبة وأعانتة قوة اسلامية فى الرجوع الى عرشه عام ٣٤٩ هـ / ٩٥٩م

(٨٢) انظر الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

(٨٣) ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ، ١٨٠ ، القلقشندى ، المصدر نفسه ،

ج ٥ ، ص ٢٦٥ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١٧٠ ، انظر الفصل الثانى ، الباب الثانى ، ص

وقامت قوات نبرة بالهجوم على قشتالة حسب الخطة الموضوعة وأسرت أميرها فرنان جونثالث . ولما مات الناصر وتولى الحكم المستنصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م حاولت ممالك الثغور أن تحرر نفسها من أسار الخلافة ، فأطلقت نبرة سراح كونت قشتالة الذي أخذ يقوم بالهجوم على ما يجاوره من الثغور الإسلامية وتحالف مع ملك ليون ، لكن المستنصر وجه اليهم حملة عام ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م عاثت في قشتالة ، واستولت على قلعة شنت أستبين ، وأجبرت الكونت على طلب السلام (٨٤) .

لم يلبث أن مات كونت قشتالة فرنان جونثالث عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م وقام ابنه غرسية بحكم الإمارة ( ٣٥٩ - ٣٨٥ هـ / ٩٧٠ - ٩٩٥ م ) ، ولم تذكر عنه المصادر أى نشاط إلا بعد وفاة المستنصر عام ٣٦٦ هـ وقيام الصراع بين المنصور بن أبى عامر وبين القائد غالب . هنا تدخل الكونت الجديد وقاد قواته لمساعدة غالب عام ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م ، لكن المنصور هزمهم كما تقدم وقرر عقاب قشتالة . ولما أحس أميرها بذلك دخل فى حلف مع ملك ليون وملك نبرة . لكن المنصور هزمهم عند روضة جنوبى سيمينقة حسبما تقدم عام ٣٧٢ هـ ، وأجبر القشتاليين أن يخلوا آتينسة Atienza وسيولفيد Sepulveda فالتزم غرسية أمير قشتالة جانب الهدوء حتى وافته فرصة جديدة للنيل من المنصور بن أبى عامر (٨٥) .

فقد تأمر عبد الله على أبيه المنصور بن أبى عامر ، وانتهاز فرصة انشغال والده فى حصار مدينة شنت أستبين بقشتالة عام ٣٧٩ هـ ، وفر الى غريسية بن فرنان ( غرسية بن قرزلند ) صاحب ألبه ( قشتالة ) بعد انكشاف المؤامرة ، وحاول أمير قشتالة أن يستغل الموقف لصالحه ووعد عبد الله بالحماية من أبيه ، وحافظ على وعده لمدة عام ، لكن المنصور

(٨٤) آبن خلدون ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، انظر الفصل الثانى ، الباب الثانى ، ص

Livermore, op. cit., p. 88.

(٨٥)

انظر ، الفصل الثانى من الباب الثانى ، ص

جرد عليه الحملات وهزمه واستولى منه على حصن أوسمة ( وخشمة )  
وأسكنه بالمسلمين . عندئذ أعلن غرسيه قبوله لكل شروط المنصور وسلم  
إليه ابنه عبد الله ، حيث قام رجال المنصور بقتله عام ٣٨٠ هـ / ٩٩٠م<sup>(٨٦)</sup>

ولم يصفح المنصور لكونت قشتالة اعانته لعبد الله ، وأراد أن  
يجعله يشرب من نفس الكأس ، وقام بتحريض شائجه على التمرد ضد  
أبيه الكونت عام ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، فأعلن هذا الابن الصاق الثورة ضد  
أبيه ، وأعلن المنصور مساندته على الفور وحاصر حصون سان ستيفان  
( شنت أشتبين ) وكلونيا . ولم يحسم الموقف على الوجه الذي إرادته  
المنصور فعاد إلى قرطبة ، ولم يلبث أن أتاه الخبر من صاحب مدينة  
سالم أنه تمكن من أسر غرسية كونت قشتالة في كمين أعد له ، وأنه  
ساقه أسيرا إلى مدينة سالم حيث مات متأثرا بجراحه ، وأعطيت جثته  
لابنه عندما وفد على المنصور يطلب الصلح بعد ذلك<sup>(٨٧)</sup> .

مات غرسية وتولى ابنه شائجة إمارة قشتالة ( ٣٨٥ — ٤٠٧ هـ /  
٩٩٥ — ١٠١٧ م ) . وقد كان لشائجة هذا شأن عظيم فيما بعد ،  
وتلقب بلقب الامبراطور ، لكنه أمام المنصور كان مجرد حاكم يدفع الجزية  
في هذه الأثناء قام المنصور بأضخم وأشهر حملة ضد نصارى الشمال ،  
عندما هاجم مدينتهم المقدسة شانت ياقب ( سنتياجو ) في أقصى جليقية  
عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ودمرها تدميرا شديدا ، ويبدو أن هذا الاعتداء على  
المدينة المقدسة وعلى كنيسة القديس يعقوب قد أثار فيهم روح المقاومة  
على أشد ما تكون ، ونجحت قشتالة في انشاء جبهة موحدة ضد المنصور

---

(٨٦). ابن عذارى ، نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٢٤ .

Dozy, op. cit., p. 508.

(٨٧) الحديدي ، جفوة المقتبس ، ص ٢٧٧ ، ابن بسلام ، الخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ،

س ١٣ ، ٣٠ ، ٣١ ، الضبي ، المصدر نفسه ، ص ٣١٠ ، ٣١١ ، أبو الفدا ، تاريخه ،  
ج ١ ، ص ١٢٤ .  
Dozy, op. cit., p. 509.

تشمل جميع ملوك النصرانية من ببلونة في الشرق ، حتى استرقة في اقصى الغرب(٨٨) .

كانت القيادة العليا في يد أمير قشتالة ، ذلك أن ملك نبرة كان طفلا يعيش في بلاط قشتالة ، والفونش الخامس ملك ليون كان أيضا طفلا تحت وصاية أحد كونتات جليقية . ولذلك كانت قشتالة هي محور المقاومة ومركز الثقل في الصدام العسكى مع المسلمين منذ ذلك الحين وكان شانجة قائدا ممتازا الا أنه اختار للمعركة مكانا استراتيجيا هو جبل جريرة الذى يتوسط امارة قشتالة ويتمتع بحصانة طبيعية ، فهو شديد الانحدار من ناحية المسلمين ، ومتصل بسهول ونواح عامرة ، تسهل وصول الميرة من الخلف لجنود قشتالة وحلفائها . ولما وصل المنصور ورأى منعة هذا الجبل ، هاله الأمر وتشاور مع أصحابه ، فاختلفوا وعاجلهم شانجه بالهجوم ، وركز على المينة وأطاح بها ، ثم على الميرة وضربها ، وأيقن الجميع بأنها الهزيمة(٨٩) .

كان ابن أبى عامر ذاهل العقل حائر اللب ، لكن وطنيته كانت صادقة، اذ دفع بابنه عبد الملك الى المينة بعد أن قبله وهو يبكى ، لانه موثق باستشهاده ، ثم وجه ابنه الآخر عبد الرحمن ناحية الميرة ، وتغير سير المعركة بعد أن رفع المنصور مركز قيادته الى ربوة عالية يشرف منها على أرض المعركة ، ولما رأى الأعداء شخصه ظنوا أن مددا جديدا أتى المسلمين ، فانهارت قواهم واخذوا في الهرب نجاة بأنفسهم ، وطاردهم المسلمون قتلا وأسرا مسافة عشرة أميال ، واستولوا على جميع ما معهم من سلاح ومتاع ، وذلك في شعبان سنة ٣٩٠ هـ(٩٠) .

كان النصارى قد أقبلوا الى المعركة ومعهم الحبال قد أعدوها ليقربوا بها أسرى المسلمين ، لكن ثبات جأش المنصور وصبره وقوة

---

(٨٨) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩ ،  
Livermore, op. cit., p. 88.

(٨٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٩ ، ٧١ .

(٩٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١ - ٧٢ .

ايمانه ونفاذ بصيرته وشجاعة المخلصين من جنده ، قلبت الهزيمة نصرا مؤزرا ، ومع ذلك فان المنصور لم يواجه طوال حياته حربا اشد واقسى على نفسه من هذه الحرب التى كاد يصاب فيها بالهزيمة ، والتى اشتهد فى بدايتها حوالى الثمانمائة من فرسانه ومن رؤساء الجند ووجوه الناس . وقد امر المنصور عقب عودته الى قرطبة كاتب رسائله ان يكتب منشورا يتلى على كافة جنده الذين كانوا قد أخذوا فى الفرار والهرب فى بداية المعركة ، وكادوا يتسببون فى الهزيمة ، وفيه يلومهم ويؤنبهم ويهددهم باستبدالهم بغيرهم من المخلصين(٩١)

وكان المنصور عقب احراز النصر فى الموقعة السابقة التى تسمى بموقعة جريرة نسبة الى الجبل الذى حدثت عنده ، قد توغل فى أرض قشتالة وأخذ يدمر كل ما يجده حتى وصل الى سرقسطة ، ثم عاد الى قشتالة مرة أخرى وصعد منها الى ببلونة ، حيث فر الجند والسكان رهبة وفزعاً من المنصور . وأخذ المنصور يواصل هجماته بعد ذلك على شانجة زعيم الشمال وأمير قشتالة حتى أذعن للطاعة واستأذن المنصور فى القدوم بنفسه الى قرطبة ، وسر المنصور لمجيئه سرورا شديدا ، وأعد له استقبالا عظيما أخذ بعقل شانجة ، وأظهر له قوة الاسلام حتى خفق قلبه ذعرا ورهبة الى أن وصل الى مجلس المنصور ، فقبل الأرض بين يديه ، وعاتبه المنصور وصفح عنه وخلع عليه (٩٢) .

ويبدو ان المنصور قد أدرك بثاقب فكره وبعد نظره مدى خطورة هذا الزعيم النصرانى شانجة أمير قشتالة ، فقام بأخر غزواته ضده فى صفر من عام ٣٩٢هـ / ١٠٠٢ م ، وهى الغزوة التى تعرف بغزاة قنالش والدير ، لأن المنصور وصل فيها الى قنالش فى مقاطعة ريوجة Rioja على مقربة من ناجرة فى أرض قشتالة ، أما الدير فالمرجح أنه دير القديس أليان

(٩١) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٧٢ ، ٨٤ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه

ج ٢ ، ص ٦٩ - ٧٤ .

(٩٢) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ .



Emillan ، وقد لازمه المرض في تلك الغزاة ، واشتدت عليه العلة ، ومات في طريق العودة ، ودفن في مدينة سالم (٣٩٢هـ / أغسطس ١٠٠٢م) (٩٣) وما أن مات المتصور حتى اشتدت آمال نصارى الشمال في غلبة المسلمين ، وانتظر عبد الملك حتى تستب له الأمور في قرطبة ، وأرسل فتاه « واضحا » صاحب مدينة سالم الى شانجة أمير قشتالة وعقد الصلح معه عام ٣٩٣ هـ . وفي العام التالي احتكم اليه ملوك النصرانية بشأن النزاع على الوصاية على الفونش الخامس ملك ليون الذي كان لا يزال طفلا . ويبدو أن حكم عبد الملك باسناد الوصاية الى كونت جليقية قد أغضب كونت قشتالة الذي كان يطمع في ذلك ، فنقض الصلح الذي كان قد أبرمه معه واضح الصقلبي وأعلن عداؤه لعبد الملك (٩٤) .

لم ينتظر عبد الملك طويلا حتى خرج الى قشتالة واوغل في أراضيها ، وخاف شانجة من الهزيمة ، ولم يواجه عبد الملك في ميدان القتال ، وأخلى له القلاع والحصون ، فعاد عبد الملك الى قرطبة ، واضطر شانجة أن يأتي وراءه طلبا للسلم وأخذ على نفسه العهود بأن يساعده في غزو قومه في جليقية . وفعل سار مع عبد الملك في العام التالي (٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) لغزو بنى غومس الذين أخذوا الوصاية على ملك ليون والتي كان يطمع فيها أمير قشتالة . وبعد انتهاء المعركة عاد كل منهما الى وطنه ، وأخذ شانجة يستعد سرا ليحارب عبد الملك (٩٥) .

وعندما أحس عبد الملك بتدبير شانجة بادره بالخروج غازيا في عام ٣٩٧ هـ / ١٠٠٧ م في الغزوة التي تعرف بغزوة قتلونية أو غزاة النصر حيث لقي فيها شانجة وجميع زعماء النصرانية في الشمال الأسباني ، وهزمهم

---

(٩٣) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٢٠١ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ٢ ، ص ٧١ ،

(٩٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٩٤ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ،

Dozy, op. cit., p. 522.

ج ٣ ، ص ١٠ .

(٩٥) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ابن عذاري ،

المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١١ .

هزيمة شنيعة عند حصن قلونية ، وأخذ الكثير من الغنائم والأسلاب والسبي ، وعاد الى قرطبة حيث خلع عليه الخليفة كل الوان التكريم ولقبه بلقب المظفر . ولم تكن هذه آخر حروبه مع قشتالة ، فقد اضطر الى غزوها مرة أخرى في العام التالي حيث هاجم حصن شنت مرتين على نهر دويرة ، وافتتحه وحرق أرياضه وقتل مدافعيه ، ووزع السبي على أهل الرباط والجند ، وقتل عائدا الى قرطبة (٩٦) .

قام عبد الملك المظفر بغزواته الأخيرة وهى المعروفة بغزاة « العلة » ضد قشتالة أيضا ، ولم يفصل لنا المؤرخون نتائج هذه الغزوة ، وإنما تحدثوا عن علة المظفر ومرضه وموته ، ويقولون أنه قصد شانجة صاحب قشتالة ، ولكن المرض لم يمكنه من اتمام الغزوة ، وأحس الجند بدنو أجله ، ففترق عنه أكثر المتطوعين ، وعاد به الجيش الى قرطبة حيث مات بها في صفر من عام ٣٩٩ هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م ، وتولى الحجابة بعده أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجل ، والذي انهدمت دولة بنى عامر على يديه في نفس العام .

#### د - علاقة خلفاء بنى أمية بامارة قطلونية ( برشلونة ) :

كانت امارة قطلونية تتبع دولة الفرنجة ، ولذلك لم تكن على خط واحد مع ممالك الشمال النصرانية في جهادها ضد مسلمى الأندلس . إذ أن أمراء بنى أمية الأواخر عقدوا مع أباطرة الفرنجة معاهدة تقضى بعدم مساعدتهم لنصارى الشمال ضد المسلمين مقابل اعتراف المسلمين بحكم الفرنجة في قطلونية . وكانت هذه المعاهدة حجر الزاوية في العلاقة بين قرطبة وبرشلونة عاصمة قطلونية (٩٧) .

ذلك أننا لم نسمع عن معارك حربية في عنف وضراوة المعارك التى رايناها بين دول أسبانيا النصرانية وبين مسلمى الأندلس ، سواء في عهد

(٩٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١ - ٢٣ .

(٩٧) أنظر الفصل الثالث من الباب الأول ، ص

الإمارة أو في عهد الخلافة . وكل ما هنالك هو أن أمراء الثغر الأعلى الأندلسي من المسلمين كانوا يغيرون أحيانا على برشلونة في بدء عهد الخلافة فقد أغار عبد الملك بن عبد الله الطويل صاحب وشقة وبريشتر من أعمال الثغر الأعلى ، على برشلونة عام ٣٠١هـ / ٩١٣ م ، واستشهد في قتاله مع فرنجة برشلونة<sup>(٩٨)</sup> ولم نسمع شيئا بعد ذلك حتى عام ٣٢٨ هـ .

ويبدون أن أهل برشلونة قد أطمعتهم هزيمة المسلمين عام ٣٢٧هـ / ٩٣٩ م في موقعة الخندق أمام جيوش ردمير الثاني ملك ليون ، فاعتدوا على الثغر الأعلى ، مما دفع الناصر إلى إرسال حملة بحرية صغيرة لضرب برشلونة من البحر . أفلتت هذه الحملة من ميناء المرية وعلى رأسها محمد ابن رماحس قائد البحرية ، ووصلت إلى ميناء طرطوشة حيث تم تدعيمها ببعض السفن الحربية ، ثم واصلت إبحارها حتى وصلت إلى ميناء برشلونة . وهناك وجدوا كونت برشلونة قد أعد بعثة للسفر إلى قرطبة لعقد الصلح مع الناصر ، ومن ثم انتفى الغرض من الحملة ، فعادت إلى قواعدها ، ووصلت الرسل إلى قرطبة حيث تم عقد الصلح<sup>(٩٩)</sup> .

كان أمراء أو كونتات برشلونة في هذا الوقت مستقلين عن دولة الفرنجة وكانت أسرة بوريل تقوم بشئون الحكم فيها ، وكانت تعرف مدى بعدها عن فرنسا ، وتعرف أيضا أنها قريبة من بلاد المسلمين ، وأن العصر كان عصر الخلافة القوية التي لا تألوا جهدا في إخضاع من يرفع رأسه بالعداء أو العصيان ضدها ، ولذلك حافظ أمراء برشلونة على معاهدة الصلح ونفذوها بكل دقة ، وعندما رأوا ملوك الأسبان يهرعون إلى قرطبة عام ٣٤٧هـ / ٩٥٨م بغرض تجديد صلح قديم أو عقد صلح جديد ، جاء كونت برشلونة إلى الناصر راغبا في تجديد الصلح . لكن الأستاذ Holo

(٩٨) ابن عذاري ، المصنوع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٤٨ ، انظر ، الفصل الثالث من الباب

الأول ، ص

(٩٩) العذري ، المصنوع نفسه ، ص ٨١ ، انظر ، الفصل الثالث من الباب

يقول ان الناصر عامل البعثة القطلانية بقسوة استثنائية على خلاف العادة ولا ندرى سببا لذلك ، وعادت البعثة بعد ان وقعت السلام وقبلت كل شروطه<sup>(١٠٠)</sup> .

وبموت الناصر عام ٣٥٠ هـ / ٩٦١م تغير الموقف ، اذ ان نصارى الشمال تلاكوا في تنفيذ معاهدات السلام التى كانوا قد عقدوها مع الخلافة . وقام ملك نبرة مخالفا شروط الصلح المعقودة معه وأطلق سراح كونت قشتالة فرنان جونثالث الذى كان قد أسره عند تنفيذ عملية اعادة شانجة الى عرش ليون عام ٣٤٩ هـ بمساعدة قوة اسلامية . وبادر هذا الكونت وتحالف مع كونت برشلونة بوريل الثانى ، وانضم اليه ملك نبرة أيضا ، ملك ليون المخلوع أردون الرابع . وظل شانجة ملك ليون بعيدا عن هذا التحالف محافظا على عهده مع الحكم المستنصر<sup>(١٠١)</sup> .

لكن أردون الرابع خاف على مصير عاقبة هذا التحالف ووفد على الخليفة الحكم ، ووفد في اثره شانجة ، فجدد الحكم الصلح مع شانجة ولم يأبه بما كان قد اتفق عليه مع أردون من قبل ، ووعى الأسبان الدرس جيدا وهرع ملوكهم مرة أخرى الى قرطبة يطلبون السلام وتجديد معاهدات الصلح، وكان من بينهم وفد أهل قطلونية الذين أرادوا أن يكفروا عن خطئهم فأحضروا للمستنصر هدية قيمة ، عشرون صبيا من الخصيان انصقالبية وعشرين قنطارا من صوف السمور ، وخمسة قناطير من القصدير وعشرة أذرع صقلبية ، ومائتا سيف أفرنجية . فقبل المستنصر هديتهم وجدد الصلح معهم على شرط أن يهدموا الحصون القريبة من بلاد المسلمين ، والا يتحالفوا عليه مع نصارى الشمال ، وأن يحذروه منهم اذا عرفوا نيتهم في الهجوم عليه<sup>(١٠٢)</sup> .

استمر السلام قائما بين فرنجة برشلونة وبين مسلمى الأندلس طوال عهد الحكم المستنصر حتى مات عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦م وتولى ابنه هشام

(١٠٠) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٤٣ ،

Hole, op. cit., p. 91.

(١٠١) غنان ، تاريخ العرب في اسبانيا ، ص ١٥٦ .

المؤيد الخلافة ، وكان لا يزال طفلا ، فطمعت الفرنجة ونصارى الشمال بصفة عامة في استئناف النضال ضد الأندلس ، ونقضوا معاهدات الصلح التى كانوا قد أبرموها مع المستنصر في بداية حكمه . وكان المسلمون كما ذكرنا يحترمون اتفاقهم مع إباطرة الفرنجة ولا يغيرون على برشلونة لأنهم إذا فعلوا فسوف تنهض القوات الفرنجية لقتالهم لأن برشلونة كانت إمارة تابعة لهم (١٠٣) .

لكن المنصور بن أبى عامر حاجب هشام المؤيد لم يأخذ بهذا المنطق ، وكان هدفه هو إخضاع كل من يعيش في شبه الجزيرة لسلطانه ، سواء كان مسلما أم مسيحيا ، من نصارى الشمال أم من فرجة قطلونية ، وكان المنصور يعرف مدى الفوضى السائدة في مملكة الفرنجة في ذلك الوقت بسبب النظام الاقطاعى وقيام النبلاء باستقلالهم في أقاليمهم . ومن هنا فإن أمراء قطلونية لن يجدهم أحد إذا طلبوا المساعدة (١٠٤) .

على أية حال فإن العذرى يمدنا دون غيره من سائر المؤرخين القدامى بغزوة مبكرة للمنصور بن أبى عامر في إقليم قطلونية ، تعود الى السنة الأولى من توليه الحجابة . اذ يذكر له غزوة تسمى بغزوة الغابرة قام بها في شوال عام ٣٦٧هـ / مايو ١٧٨م . ويبدو أن هذه الحملة كان هدفها الأساسى بمبلونة ، ثم تفرعت عنها حملة صغيرة الى برشلونة ، اذ يقول «انها صائفة ذات دخلات ، جمع بها بين بمبلونة وبسيط برشلونة . ، ولا يحدثنا عن نتائج هذه الغزوة ولا عن غيرها من الغزوات الأخرى في بلاد نبرة وليون ، اذ أنه كان يكتفى بذكر اسم الغزوة وتاريخها فقط ولا يذكر اسم الدولة التى تمت فيها ولا نتائجها ، ومن هنا جاءت الصعوبة في التعرف على الدولة التى وقعت فيها هذه الغزوة أو تلك . (١٠٥) .

(١٠٢) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ ، المقرئ ، نفع الطيب ،  
Hole, op. cit., p. 92.

ج ١ ، ص ١٧٩ .

(١٠٣) ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

Dozy, op. cit., pp. 500-501

Dozy, op. cit., pp. 500,501.

(١٠٤)

(١٠٥) المعزوى ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ .

وهكذا يذكر لنا العذري قيام المنصور بغزوة تسمى « شنت بلبق الثانية وبسيط برشلونة » في المحرم من عام ٣٧٤هـ / يونيه ٩٨٤ م . أما « شنت بلبق الأولى » فكانت قبل ذلك بخميس سنوات أى في المحرم عام ٣٦٩هـ / يولية ٩٧٩ م . وفي هذه الفترة كان المنصور مشغولا بصراعه مع غالب ثم مع نصارى الشمال الذين تحالفوا ضده وحاربوه عام ٣٧٢ هـ وانتصر عليهم في موقعة سيمينقة ، ودانت له ليون ونبرة بالطاعة ، ولم يبق لئامه الا برشلونة (١٠٦) .

ويبدو أن حملة شنت بلبق الثانية ( ٣٧٤ هـ ) كانت لجس نبض قوات الفرنجة في برشلونة ، إذ أنه لم ينته هذا العام حتى قام المنصور في ذي الحجة منه / مايو ٩٨٥م بحملة مدمرة على برشلونة . فقد أعد المنصور قوة ضخمة ومر باللبيرة وبسطة ومرسية ، ثم اتجه شمالا وسار بحذاء الساحل الشرقي حتى وصل برشلونة بعد شهرين تقريبا ( المحرم ٣٧٥ هـ ) ، وكانت هذه الغزوة الثالثة والعشرون للمنصور ، وكان يصحبه فيها حوالى أربعون من الشعراء لتسجيل انتصاراته (١٠٧) .

اقتحم المنصور اقليم قطلونية والتحم مع حاكمه بوريل الثانى في موقعة عرفت باسم وقعة بيفش ، وقعت في الطريق الى برشلونة ، ويبدو أن حاكم قطلونية كان قد تقدم بقواته لملاقاة المنصور ومنعه من التقدم داخل الاقليم . ويحكى بعض المؤرخين أن المنصور أمر جنده باتخاذ قرامد هندية يضعونها على سواعدهم ليحموا بها رؤسهم من سيوف الفرنج البتارة . وكانت النتيجة عدة هزائم متلاحقة لحاكم قطلونية ، وتقدم المنصور وزحف على برشلونة العاصمة التى كان الفرنج قد استولوا عليها منذ عهد الحكم بن هشام عام ١٨٥هـ / ٨٠١م ، وظلت في حوزتهم حتى ذلك العهد فاستولى عليها المنصور ( ٣٧٥ هـ ) ودمرها ثم أضرم فيها النيران ، وقتل

(١٠٦) العذري ، المصدر سلفه ، ص ٧٦ ، ٧٩ .

(١٠٧) العذري ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

Dozy, op. cit., p. 500, Livermore, op. cit., 88.

معظم السكان والجند ، وَاخَذَ الْبَاقِينَ أَسْرَى ، وَعَادَ إِلَى قَرْطَبَةَ مَحْمِلًا بِالْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ بَعْدَ أَنْ لَخَضَعَ هَذَا الْإِقْلِيمَ لِسُلْطَانِهِ (١٠٨) .

وَلَمْ تَسْتَمِرْ بَرِثْلُونَةُ طَوِيلًا فِي يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، إِذْ أَنْ الْفَرَنْجَةَ انْتَهَزُوا مَقْرَصَةَ انْشِغَالِ الْمَنْصُورِ فِي حِمْلَةٍ لَهُ عَلَى بَمْبُلُونَةَ عَامَ ٣٧٦ هـ ، وَسَارَ جَيْشُ الْفَرَنْجَةِ إِلَى بَرِثْلُونَةَ تَعَاوَنَهُ السُّفُنُ مِنَ الْبَحْرِ وَاسْتَوْلَى عَلَيْهَا . لِذَلِكَ فَانْ أَوَّلَ عَمَلٍ قَامَ بِهِ عَبْدُ الْمَلِكِ الْمُظْفَرُ بَعْدَ تَوْلِيهِ الْحِجَابَةَ عَامَ ٣٩٢ هـ ، هُوَ الاسْتِعْدَادُ لِحِمْلَةٍ كَانَتْ وَجْهَتُهَا قَطْلُونِيَّةٌ ، بَعْدَ أَنْ عَقَدَ الصِّلَحَ مَعَ شَانَجَةِ زَعِيمِ نَصَارَى الشَّمَالِ وَأَمِيرِ قَشْتَالَةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ فِي عَامِ ٣٩٣ هـ (١٠٩) .

اسْتَعَدَّ عَبْدُ الْمَلِكِ لِحِمْلَةٍ بِرِثْلُونَةَ اسْتِعْدَادًا هَائِلًا ، وَوَعَدَ عَلَيْهِ «الْمُتَطَوِّعُونَ وَالْمَجَاهِدُونَ مِنْ شَمَالِ افْرِيقِيَا وَمِنْ سَائِرِ أَنْحَاءِ الْأَنْدَلُسِ حَتَّى ضَاغَتْ بِهِمْ قَرْطَبَةُ وَأَرِيَاضُهَا ، وَوَزَعَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَيْهِمُ الْمَالَ وَالسِّلَاحَ . وَيُعْطِيَانَا ابْنُ عَدَارَى وَصْفًا رَائِعًا جَمِيلًا لَخُرُوجِهِ عَلَى رَأْسِ قَوَادِهِ وَوُزَرَائِهِ وَغُلَمَائِهِ مِنْ قَرْطَبَةَ إِلَى بَرِثْلُونَةَ . فَقَدْ اتَّخَذَ عَبْدُ الْمَلِكِ طَرِيقَ الثُّغُرِ الْأَوْسَطِ ثُمَّ الْأَعْلَى ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى بَرِثْلُونَةَ مُخَالَفًا بِذَلِكَ وَالِدَهُ الَّذِي اتَّخَذَ طَرِيقَ السَّاحْلِ الشَّرْقِيِّ ، وَعِنْدَمَا وَصَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى مَدِينَةِ سَالَمَ لَحِقَ بِهِ عِدَّةُ زُعَمَاءَ مِنْ نَصَارَى لِيُونِ وَقَشْتَالَةَ لِمُسَاعَدَتِهِ فِي حَرْبِهِ حَسَبَ الْإِتِّفَاقِ الْمُبْرَمِ بَيْنَهُمْ فِي أَوَّلِ هَذَا الْعَامِ ( ٣٩٣ هـ ) ( ١١٠ ) .

وَصَلَّتْ قَوَاتُ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى إِلَى سَرَقِشْطَةَ وَأَخْرَجَ عَبْدُ الْمَلِكِ قِتَاءَهُ « وَاضِحًا » الصَّقْلَبِيَّ فِي نَخْبَةٍ مِنْ جُنْدِهِ وَفَرَسَانَهُ لِمُقَارَعَةِ حِصْنِ مَدْنِيْشِ الْقَرِيبِ مِنْ حِصْنِ مَقْمَرٍ ، فَافْتَتَحَهُ « وَاضِحٌ » وَسَارَ الْجَمِيعُ إِلَى حِصْنِ

---

(١٠٨) ابْنُ الْكُرْدِ بِيوس ، الْإِكْتِفَاءُ فِي أَخْبَارِ الْخُلَفَاءِ ، ص ٦٢ ، ابْنُ الْفَرُغِيِّ ، الْمَنْصُورُ نَفْسُهُ ، ج ١ ، ص ٢٤٤ ، ابْنُ الْخَطِيبِ ، أَعْمَالُ الْأَعْلَامِ ، ج ٢ ، ص ٧٤ ، الْأَحَاظَةُ ، ج ٢ ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ابْنُ خَلْدُونِ ، الْعَبَرُ ، ج ٤ ، ص ١٨٥ ، Dozy, op. cit., p. 501

(١٠٩) عَنَانَ ، تَارِيخُ الْعَرَبِ فِي الْأَنْدَلُسِ ، ص ١٦٧ .  
(١١٠) ابْنُ عَدَارَى ، الْمَصْدَرُ نَفْسُهُ ، ج ٣ ، ص ٤ ، ٥ ، ابْنُ الْخَطِيبِ ، أَعْمَالُ

الْأَعْلَامِ ، ج ٣ ، ص ٨٧ .

مقتصر من أعمال برشلونة ، وضربوا عليه الحصار .. لكن أهل الحصن كانوا شجعانا فخرجوا الى المسلمين وقتلواهم . وكانت صولات وجولات بين الجانبين في كر وفر حتى حجز الليل بينهم . وعند الفجر استطاع المسلمون دخول الحصن بعد أن كانوا قد فتحو فيه ثغرة أثناء الليل ، وأخذوا من فيه سبيا ونهبوا أموالهم ، ولجأ بعض مدافعي الحصن الى مكان منيع ، فأحرق بهم المسلمون وقتلواهم عن آخرهم (١١١) .

وكان الحاجب عبد الملك قد أصدر أوامره أثناء القتال بالآل يحرق المسلمون منزلا ولا يهدمون بناء ، عكس ما فعله أبوه في حملته التي دمر فيها برشلونة وأحرقها عام ٣٧٥ هـ . ذلك أن عبد الملك كان يرمى الى استيطان هذا الحصن واسكانه بالمسلمين حتى تكون برشلونة تحت سيطرته . وبعد تمام الفتح أخذ في اصلاح الحصن ونادى في المسلمين « من أراد الاثبات في الديوان بدينارين في الشهرين على أن يستوطن هذا الحصن وله مع ذلك المنزل والمحراث » فرغب في ذلك عدد كبير من المسلمين واستقروا فيه منذ ذلك الحين (١١٢) .

ولم يخالف عبد الملك سنة أبيه في النسف والتخريب ، ويبدو أن اصلاح الحصن ذا الأهمية الكبرى في السيطرة على برشلونة كان شيئا استثنائيا حتى لا تضيق منه برشلونة كما ضاعت من يد أبيه من قبل . فقد جال عبد الملك وجنده في أنحاء اقليم قطلونية يخربون ويدمرون وينسفون حتى تركوه بلقعا خرابا وقفرا يبابا على حد تعبير ابن حيان وقد ورد في كتاب الفتح الذي أرسله عبد الملك الى قرطبة ، أن عدد الحصون التي افتتحها عنوة وقتل جنودها وسبى ذراريهم وغنم أموالهم ستة حصون ، وعدد الحصون التي أخلاها أهلها فغربها ودمرها خمسة وثمانين حصنا ، وبلغ عدد السبى الذي وفد به عبد الملك على قرطبة ٥٥٧٠ نفرا . وكان يوما مشهودا احتقلت به الدولة والخلافة وقام الشعراء

(١١١) ابن حيان برواية ابن عذري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٦ ، ٧ .

(١١٢) ابن حيان برواية ابن عذري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧ .



والأدباء ، وأنشدوا الأشعار ، وخلق الخليفة على عبد الملك وبالع في تكريمه (١١٣) .

كانت هذه الحملة درسا للفرجة ولغيرهم من نصارى الشمال اذ انهم حافظوا على عهودهم مع عبد الملك ، وأتى رسول برشلونة الى قرطبة يد يد الطاعة ويطلب السلام . وكالعادة استعد المظفر عبد الملك لاستقباله استقبالا رائعا ، وكان هذا آخر يوم من أيام العظمة والمجد في تاريخ بنى عامر ، اذ لم تمض بضعة سنوات حتى مات المظفر وخلفه أخوه عبد الرحمن الذى كانت نهاية الدولة على يديه عام ٣٩٩هـ . (١١٤) .

### ٣ - علاقات خلفاء بنى أمية بنصارى الشمال الأسباني في عصر ضعف الخلافة

وكما سبقتنا الإشارة عند الحديث عن أحوال الأندلس في عصر الخلافة في الفصل الأول من هذا الباب ، رأينا أن هناك عوامل ضعف المت بالبلاد وآتت أكلها بدءا من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فيما يعرف بالفتنة البربرية . وكان ذلك عقب سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩هـ ، ذلك السقوط الذى اختتم عصر القوة واسلم البلاد لحرب أهلية تلبت مولازين الصراع بين الأندلس ونصارى الشمال راسا على عقب ، وجعلت هؤلاء النصارى يتحكمون فى الخلافة والخلفاء الى حد كبير ، حتى أتى بنو حمود وانشقوا كرسى الخلافة من هذا الهوان . لكن الصراع استمر بين خلفاء بنى أمية الأواخر بعضهم البعض حتى تم القضاء عليهم وعلى الخلافة نهائيا عام ٤٢٢هـ .

وتفصيل ذلك أن المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر استطاع أن يقود الثورة ضد بنى عامر ويقضى على دولتهم ، وبويع

---

(١١٣) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧ ، ٨ ، أبق

الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(١١٤) ابن حيان برواية ابن بسام ، للخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٦٤ .

له بالخلافة في جمادى الآخرة عام ٣٩٩ هـ / يناير ١٠٠٩ م ، لكنه أساء السيرة وخاصة مع البربر الذين أعلن بغضه لهم وأعرى الناس بهم ، وفتح باب الفتنة على مصراعيه ، ففسر هؤلاء البربر الى الثغر والتقوا حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر وقدموه على انفسهم وبايعوه بالخلافة وتسمى بالمستعين بالله ، وذلك في شوال عام ٣٩٩ / مايو ١٠٠٩ م . وبذلك انقسمت الأندلس الى حزبين أو فريقين ، حزب البربر ويؤيد سليمان المستعين ، وحزب الأندلسيين ويدعو لمحمد المهدي<sup>(١١٥)</sup>

بدأت نذر الكارثة التي حاقت بالأندلس الاسلامية تلوح في الأفق منذ ذلك الحين ، فقد قرر كل فريق ان يستعين على خصمه بنصارى الشمال ، ومهدوا الطريق لهم لكي يشفوا غليلهم من أحفاد الناصر والمنصور ، وان يتعرفوا على مواطن الضعف ، وان ينفذوا سياستهم في ضرب كل فريق بالآخر ، وان يستولوا في النهاية على المعقل والحصون التي كان الناصر والمنصور قد قضيا حياتهما في بنائها وشحنها بالسلاح والرجال ، وجعلها درعا يزود عن البلاد ومنطلقا لهجماتهم ضد نصارى الشمال . كل ذلك حدث ولم يمض على آخر غزوة للمسلمين في أرض النصارى أكثر من عام واحد .

أدرك البربر منذ البداية أنهم قلة قليلة العدد بالنسبة للأندلسيين فاتصلوا بالكونت شانجة بن غرسية بن فرنان أمير قشتالة والذي كان يعد أقوى أمراء الشمال النصراني في ذلك الوقت ، وطلبوا منه محالفته ضد المهدي وضد حليفه واضح الصقلبي صاحب مدينة سالم الذي كان قد حرض أهالي الثغور على مقاطعة البربر اقتصاديا حتى اضطروا الى أكل حشائش الأرض<sup>(١١٦)</sup> .

(١١٥) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، الضبي ، المصدر نفسه .  
ص ٢٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٣ . وبديهي أن حزب الأندلسيين يتكون من باقى سكان الأندلس ، أى من العرب وموالى بنى عامر والمولدين والصقالبة .

(١١٦) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٨٦ ، ابن بسلام ، للخفيرة .

قد ١ ، ج ١ ، ص ٢٥٠ .

وكانت رسل المهدي وواضح الصقلبي تطالب في نفس الوقت محالفة شانجة ضد البربر ، على أن يعطياه ما أحب من مدن الثغر وحصونه ، وأرسلا اليه هدية قيمة ، فيها من التحف والطرائف ما لا يحصى . لكن شانجة تحالف مع البربر حتى يزيد من شقة الخلاف بين هذين الفريقين من المسلمين ، وأرسل لهم على الفور ألف عربة محملة بالذيق والعقاقير والأطعمة وغير ذلك من المؤن الضرورية حتى الحبال والأوتاد اللازمة لدوابهم ، فقوى البربر وانتعشت روحهم المعنوية (١١٧) .

وقام سليمان وجنوده من البربر تؤازرهم قوات شانجة أمير قشتالة وزحفوا حتى وصلوا مدينة سالم ، وهزموا واضح عند شرنبة ، في ذي الحجة عام ٣٩٩ هـ / يولية ١٠٠٩ م ، وحازوا ما كان في معسكره من مال وسلاح ، وزحفوا الى قرطبة وهزموا جند المهدي في موقعة قنتيش في ربيع الأول عام ٤٠٠ هـ / اكتوبر ١٠٠٩ م ، ووضع البربر والنصارى السيف في رقاب اهل قرطبة فأبادوا منهم ما بين عشرين الى ثلاثين ألف رجل ، كان من بينهم عدد كبير من العلماء وأئمة المساجد ، وهرب المهدي وواضح الى طليطلة ، وبويع سليمان المستعين خليفة في قرطبة (١١٨)

وهكذا يمكننا القول بأن دولة سليمان الأولى قد اقامها نصارى قشتالة ، أما الخليفة المهزوم فقد لجأ الى فرنجة برشلونة وأميرها رامون ( راييموند ) وأرمقندة صاحب أورجل ( أرقله ) (١١٨٩) لعله يجد عندهم ما يعينه على استرداد عرشه ، وكان رسوله اليهم حاجبه واضح الصقلبي الذي فاضهم على أساس أن يسلمهم مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط . ولما أخلاها من المسلمين ووضعوا يدهم عليها ، حولوا مسجدها الى كنيسة ، وشرطوا عليه أن يلتزم بدفع مائة دينار لقائد

- 
- (١١٧) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٦ .  
 (١١٨) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ٣١ .  
 ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٧ ، للضبي ، المصدر نفس ، ص ٢٠ ، المراكشي ، للمجب ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٣ .  
 (١١٩) أورجل Urgel إحدى كونتيات قطلونية .

الحملة النصرانية ، ودينارين لكل جندي من جنوده ، علاوة على ما يلزمهم من المؤن والأغذية ، ولهم أيضا ما يحوزونه من عسكر البربر من مال وسلاح وسبى ، الى غير ذلك من الشروط المهيبة التي قبلها واضح والمهدى (١٢٠) .

قام الفرنج في تسعة آلاف رجل وعلى رأسهم أرمقندة كونت (أورجل) مع واضح الصقلبي ووصلوا الى طليطلة حيث انضموا الى قوات المهدى ، وسار الجميع الى قرطبة وتقابلوا مع جيش سليمان المستعين عند موضع يسمى عقبة البقر ، على بعد بضعة عشر ميلا عن قرطبة في شوال عام ٤٠٠ هـ / مايو ١٠١٠ م . وكان النصر في البداية لسليمان والبربر ، حيث هجموا بعنف على الفرنج وقتلوا أميرهم أرمقند وكثير من جنده ، لكن سليمان ظن أن الهزيمة حاقت بالبربر عندما رأى الفرنج يخترقون صفوفهم ، وكان البربر قد أفسحوا لهم حتى يتقدموا فيحيطون بهم ويقضون عليهم . لم يفهم سليمان تلك الخطة ، وفر من ميدان المعركة واتجه الى شاطبة ، فعاد البربر الى الزهران وأخذوا أموالهم وأولادهم وذهبوا جنوبا الى وادي آرة ، من أحواز مربلة ناحية الجزيرة الخضراء (١٢١) .

دخل المهدى قرطبة وبويع له بالخلافة للمرة الثانية وأعطى الفرنج إعطياتهم وصمم على ملاحقة البربر والقضاء عليهم نهائيا ، والتقى هو وحلفاؤه من الفرنج بهم عند وادي آرة ، لكنهم هزمهم في ذى القعدة عام ٤٠٠ هـ / يونية ١٠١٠ م رغم كثرتهم وقلة عدد البربر . وقتل من الفرنج أكثر من ثلاثة آلاف وغرق منهم عدد كبير ، وغنم البربر ما وجدوه معهم من مال وسلاح ودواب ، وعاد المنهزمون الى قرطبة ، حيث رحل الفرنج على الفور وعادوا الى بلادهم . وكان حزن القرطبيين على رحيلهم

---

(١٢٠) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣١ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٤ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٤ .  
(١٢١) ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٤ - ٩٦ ، الضبي ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، المراكشي ، المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

عظيما حتى أنهم كانوا يتبادلون فيما بينهم عبارات العزاء أسفاً  
على رحيلهم وجزعا من سيطرة البربر عليهم بعد مفادرة حمااتهم من  
الفرنج (١٢٢) .

ولم يلبث أن قام واضح وقتل المهدي بعد أن أحس بتحرج مركزه  
وأظهر هشاما المؤيد وبايعه بالخلافة ، اعتقاداً منه بأن البربر سيعودون  
الى الطاعة ، ولكنهم تبادوا في مهاجمة قرطبة ، فلجأ واضح الى  
شانجة أمير قشتالة وعقد معه باسم هشام المؤيد اتفاقية في صفر  
عام ٤٠١ هـ / سبتمبر ١٠١٠ م ، يسلم له بمقتضاها جميع الحصون  
التي كان قد استولى عليها الحكم المستنصر والمنصور بن ابي عامر وابنه  
عبد الملك المظفر ، وكانت لا تقل عن مائتي حصن ، وكان من بينها سان  
استيفان وجورمث Gormez واسما Osmia وكرونيا  
دلكوندي Cruna del Conde (١٢٣) .

وكان شانجة أمير قشتالة قد رأى أن يحالف واضحاً وهشاماً  
المؤيد حتى يتمكن من استلام ما يريده من الحصون على الفور ، ذلك  
أنهما كانا حينئذ في السلطة ، وتدين لهما منطقة الثغور بالطاعة .  
أما البربر فكانوا وقتها ينمركزون في جنوب الأندلس . وقد فعل  
شانجة ذلك أيضاً حتى يمنع الأندلسيين من اللجوء الى فرجة برشلونة  
مرة أخرى ، وربما كان يعتقد أن الغلبة سوف تكون في النهاية للأندلسيين  
على اعتبار أنهم تمكنوا من هزيمة البربر وأخرجوهم من قرطبة ، بعد  
أن كان هؤلاء قد سيطروا عليها عقب انتصارهم في قنتيش . وكان  
شانجة يتبع أيضاً في ذلك سياسة ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، فمرة  
يتحالف مع البربر وأخرى مع الأندلسيين ، حتى يطيل أمد الصراع  
فيما بينهما ، فتضعف الجبهة الإسلامية في النهاية وتسقط صريعة  
تحت اقدام النصارى .

(١٢٢) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، المراكشي ، المصدر

نفسه ، ص ٤٢ .

(١٢٣) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٣ ، ابن الخطيب ، المصدر  
Dozy, op. cit., p. 557.

نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٧ ، ٢٤٢ .

وبعد أن تسلم شاتجة ما اراده من المدن والحصون ترك المسلمين يأكل بعضهم بعضا ولم يتقدم لنجدة هشام ، وخاصة بعد أن فتك بحاجبه واضح الذي حاول أن يخونه وينضم لأعدائه من البربر ، بعد أن رأى تصميمهم على مقاتلة أهل قرطبة الذين رفض فقهاؤها الصلح مع البربر ، واستهانوا بواضح وخرج الجند من تحت سيطرته مما ساعد على الفتك به . وانتهى الصراع بين هشام وسليمان بأن دخل سليمان قرطبة في شوال عام ٤٠٣ هـ / أبريل ١٠١٣ م ، واستمر في حكمها حتى قام عليه بنى حمود وقتلوه وأقاموا الخلافة الحمودية العلوية في قرطبة في المحرم عام ٤٠٧ هـ (١٢٤) .

وما لبث الصراع أن نشب من جديد بين بنى حمود وبين عبد الرحمن المرتضى الأموى الذى أقامه خيران الصقلبي صاحب المرية خليفة في شرق الأندلس ، وفي هذه المرة لجأ المرتضى الأموى الى فرنجة برشلونة لأنه رأى غدر نصارى قشتالة بهشام المؤيد وتخليهم عنه رغم العدد الهائل من الحصون التى كان قد سلمها لهم . فأتى رايمود Reymond كونت برشلونة بنفسه مع منذر بن يحيى التجيبى صاحب سرقسطة لمساعدة المرتضى فى صراعه ضد بنى حمود وحلفائهم من البربر (١٢٥) .

ولكن الأمر انتهى بغدر خيران بالمرتضى وتأمر عليه مع أعدائه ثم قتله ، وعاد رايمود الى بلاده دون أن يشترك فى المعركة ، ولم نعد نسمع بعد ذلك عن تدخل لفرنجة برشلونة او نصارى الشمال الأسباني فى شئون خلفاء بنى أمية الأواخر ، حتى انتهت خلافتهم نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، ونشب الصراع بعد ذلك بين نصارى الشمال الأسباني وبين ممالك الطوائف التى خلفت بنى أمية فى حكم الأندلس (١٢٦)

(١٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١٢ ، ١١٣ .

Dozy, op. cit., pp. 567 - 569. (١٢٥)

Dozy, op. cit., pp. 567 - 569. (١٢٦)

## الباب الثالث

العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية  
وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس  
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية  
وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف





# الفصل الأول

الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس  
الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

أولاً - ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقتها بأسبانيا  
النصرانية

١ - الفتنة البربرية وأثرها في قيام عصر ملوك الطوائف :

رأينا فيما سبق من حديث عن الفتنة البربرية أو الحرب الأهلية  
التي نشبت بين خلفاء بني أمية الأواخر ، أنها تسببت في انقسام  
أهل الأندلس الى حزبين متصارعين ، استعان كل منهما بأحد ملوك  
أسبانيا النصرانية ضد الآخر ، كي يعينه على تولي منصب الخلافة في  
قرطبة وانتهاز ملوك الأسبان الفرصة حتى ينالوا نصيبهم من الغنيمة  
وفعل نفس الشيء . أولئك القواد الطموحون من الصقالبة والبربر ،  
ورؤساء الأسرات العربية ، وكونوا لأنفسهم دولا انتشرت بطول البلاد  
وعرضها . وبذلك تجزا الوطن الواحد الى أوطان متعددة ، وأصبحت كل  
عشيرة أو كل طائفة من طوائف سكان الأندلس لها حكومتها ، ولها كيائها  
السياسي الخاص بها فيما يعرف بممالك الطوائف .

وسرعان ما أعلن أصحاب هذه الممالك عن حقهم في الحكم ، وانتحلوا  
الألقاب السلطانية ، واتخذوا الحجاب والوزراء ، وصاروا ملوكا .  
وساعدهم على ذلك خطان ارتكبهما بنو أمية أثناء الفتنة البربرية ،  
أثرتا الى أحدهما وهو استعانتهم بملوك أسبانيا النصرانية في الصراع  
على عرش الخلافة ، مما قضى على هيبة الخلافة ، ودلل على ضعف  
الحماس الديني والعزة القومية لدى هؤلاء الخلفاء الضعاف ، فاستهان  
بهم الناس وأصبحوا لا ينظرون اليهم كما كانوا ينظرون من قبل الى  
الناصر أو المستنصر . ومما زاد من هوانهم في نظر الناس ما اتصف

به معظم خلفاء بنى أمية الأواخر من استهتار بالفضائل والقيم الدينية والخلقية ، ومن سوء سياسة وتخطيط في شئون الحكم وإدارة البلاد<sup>(١)</sup> .

أما الخطأ الثانى الذى ارتكبه بنو أمية في فترة الفتنة فهو أنهم تركوا إقاليم الدولة وولاياتها تقع في أيدي عناصر الصقالية والبربر ، بل أن بعضهم قام بتوزيعها عليهم كما فعل سليمان المستعين ، ولم يلبث حكام الولايات هؤلاء ، أن استقلوا بها عقب مقتل سليمان المستعين على يد بنى حمود في أوائل عام ٤٠٧ هـ ، وقال قائلهم « أقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه » ، وأعلن آخرون استقلالهم عن كل سلطة وقالوا « أحق الناس بالملك من استقل به »<sup>(٢)</sup> .

وكان من نتيجة هذا الإصرار العنيد على التمسك بالحكم والسلطان أن انقسمت الدولة الإسلامية في الأندلس إلى دويلات عديدة ، بلغت في مجموعها ستا وعشرين دولة وضاعت جهود قرن كامل في توحيد تلك البلاد ، وعادت إلى ما كانت عليه قبل الناصر لكنها في هذه المرة لن تجد من يجمع شتاتها ويرأب صدعها وينقذها من حالة الضياع الذى تعرضت له عقب سقوط الخلافة الأموية . وتكرست هذه الحالة نتيجة للسياسة التى اتبعها ملوك الطوائف ، من استمرارهم في الصراع ضد بعضهم البعض ، واستعانتهم بملوك إسبانيا النصرانية ، حتى اضطروا لدفع الجزية لهم ، وانتهى الأمر بسقوط كثير من المعاقل والمدن الهامة في أيديهم مثل بريشتير عام ٤٥٦ هـ ، وطليطلة قاعدة الثغر الأوسط عام ٤٧٨ هـ<sup>(٣)</sup> .

(١) ابن حيان برواية ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٠ ، ٣٢ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، ٩٤ .

ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٨٥ .

الضبي ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٧٧ ، ١١٣ .

ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ .

ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ، ص ١٥١ .

(٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٤ - ١١٧ .

وسوف يتضح ذلك كله من دراستنا لسمات هذا العصر ، ولأحوال تلك الممالك الصغيرة ، وعلاقاتها بعضها ببعض الآخر ، وما حدث فيها من صراع داخلي على الحكم ، وما اتصف به ملوك هذه الممالك من فساد ، وما تفشى بين سكانها من عيوب خلقية واجتماعية واقتصادية .

## ب - سمات عصر ملوك الطوائف ومظاهر الضعف فيه :

ويمثل مجتمع الطوائف في تلك الدويلات والامارات التي بلغ عددها ستا وعشرين ، وكان لكل مدينة أو منطقة أميرها المستقل متخذا لقب الملك أو الأمير أو الوالى ، أو القاضى ، أو الحاجب ، تبعاً لحجم المدينة أو المنطقة التي يحكمها . وكان لا يمكن لهذا الوضع أن يستمر نظراً لما يجيش به الجميع من الأطماع ، ولاختفاء المثل الأعلى الذي أوجده الأميون وهو المحافظة على وحدة البلاد . وبدأ القوى يبطش بالضعيف الذى حاول بدوره أن يتحالف مع جارات أقوى ، ونتج عن هذا الصراع الدامى أن تكونت من هذه الدويلات ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها<sup>(٤)</sup> .

نفى جنوب الأندلس فى غرناطة ومالقة غلب الحزب الأمازيغى أو البربرى المتمثل فى بنى حمود وحلفائهم من صنهاجة وزناتة من حكام غرناطة وقرمونة وبعض المدن الأخرى . وفى الجنوب الغربى ، كان هناك بنو عباد العرب أمراء اشبيلية ، وكان هؤلاء يخوضون الحرب مع الحزب الأمازيغى بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر ، كما غلبوا بالحرب والخديعة على جميع الأمراء والولاة فى جنوب غربى الأندلس ، واضطر أمير قرطبة وبطليوس الى الانسواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين<sup>(٥)</sup> .

أما فى وسط أسبانيا المسلمة ( الأندلس ) فكان هناك بنو دى النون أمراء طليطلة الأتقياء الذين وقفوا لمحاولات بنى عباد فى فرض سيطرتهم

(٤) يوسف اشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ٣٠ ، ٣١ .

(٥) يوسف اشباح ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

على بلاد الأندلس ، وإن كان هذا على حساب استقلالهم فقد دفعوا الجزية للوك قشتالة ليساعدوهم ضد خصومهم من بنى عباد . وكان الفريق الرابع يحكم في شرق الأندلس متمثلا في بقايا العامريين وعبيدهم في بلنسية ومرسية ودانية والمرية ، وفي أسرة بنى تجيب وبنى هود العربية في سرقسطة وتطيلة ووشتة . وكان هؤلاء يخوضون الصراع مع بنى ذى النون البربر أمراء طليطلة ويستعينون أيضا بملوك شمال أسبانيا النصرانية<sup>(٦)</sup> .

ومن أولى السمات التي اتسم بها عصر ملوك الطوائف أن هذه التجمعات و الدويلات ، لم تسترشد سواء في علاقاتها ببعضها البعض ، أو في علاقاتها بشعوبها بسياسة اسلامية تقوم على رفع شأن الاسلام وتوسيع نفوذه ، ومحاربة المسيحيين في الشمال ، والتضحية بالأهداف الثانوية تجاه هذا الهدف السامي الذي عاش له أمراء وخلفاء بنو أمية . كما أن ملوك الطوائف لم يقيموا سياستهم على أساس التعايش السلمى بين بعضهم البعض ، والاحتفاظ بالأمر الواقع والمحافظة عليه ، كما قال بذلك البعض الذين عللوا هذه السياسة بضعف بعض الدويلات ، وأنه كان لهذه السياسة أنصار عديدون بين حكام المقاطعات الصغيرة والحصون المستقلة<sup>(٧)</sup> . ذلك أن التناول بين دول الطوائف من حيث القوة والضعف واشتداد الاثرة والأطماع الشخصية ، وحب الرياسة عند الجميع ، واشتداد الخطر النصراني المثل عليهم من الشمال ، كل ذلك جعل الدويلات القوية تبطش بالضعيفة وتجبرها على الانضواء تحت سلطانتها متحالفة أو مقهورة حسبما تقدم . ذلك أنه لم يكن هناك الا سياسة واحدة بنى عليها ملوك الطوائف سياستهم ، وهى سياسة التوسع على حساب القوى المجاورة بكل الوسائل الممكنة ، سواء كان ذلك عن طريق الحرب أو المؤامرات أو الشراء أو المعاهدات<sup>(٨)</sup> .

(٦) يوسف أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٣١ .

(٧) صلاح خالص ، ابن عمار الأندلسى ، ص ٧٤ .

(٨) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

المقرئ ، نفخ الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٣ ، ٦٠٥ .

وكان لطبيعة دول الطوائف أثر كبير في اتباع تلك السياسة ، فهي في الواقع لم تكن دولا بالمعنى المعروف ، وانما كانت اقرب منها الى وحدات الاقطاع ، والى عصبية الأسرة القوية ذات العصبية أو الجماعة القبلية في حالات الامارات البربرية ، ومن ثم فانه لم تكن بها حكومات منظمة بالمعنى الصحيح تكون مهمتها العمل لخير الشعوب التي تحكمها ، وانما كانت اسرات او زعامات تعمل قبل كل شيء لمصلحتها الخاصة ، ولرفعة شأنها ، وتنمية ثرواتها ، وتدعيم سلطاتها وبذخها ، ولا يهمها بعد ذلك ان يسعد الشعب او ان يعيش في شقاء ، ولا يهمها ان يسمو شأن الدين او يذل ، وانما يهمها مصلحتها فقط ، ولو انها رأت تلك المصلحة في اعتناق النصرانية لبادرت الى ذلك دون أدنى خوف أو خجل . اذن فهو عصر الاطماع والانانية والمصالح والمؤامرات ، عصر كانت فيه الجارية ترفع الى عرش الملكات ، ويهبط الملوك الى درك العوز والفاقة والتسول (٩) .

ولذلك لم يكن الصراع صراعا حزبيا او قائما على أساس جنسى ، كالصراع بين العرب والبربر او بين الأسبان المسلمين والبربر ، كما قال بذلك هنري بيريذ وناقشه فيه البعض . ولم يكن صراعا بين فريقين او حزبين كما قال بذلك ابن عذارى ، لأن الأحداث التاريخية لا تؤيد ذلك ، بل انها تقول بأن البربر حاربوا بعضهم بعضا وكان بربر زناتة لا يثقون في بربر صنهاجة ، ولذلك انضم بربر قرقوثة ورندة وتاكارنا الى بنى عباد العرب في احيان كثيرة ضد بربر صنهاجة في غرناطة . كما حارب العرب بعضهم بعضا كما حدث بين بنى عباد في أشبيلية وبين بنى جهور حكام قرطبة حيث حاربوهم حتى قضوا عليهم وضموا قرطبة الى أملاكهم (١٠) .

(٩) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

ابن حزم ، للد على ابن النفريلة اليهودى ، ص ١٧٧ .

عنان ، دول الطوائف ، ص ٤١٨ .

(١٠) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .

صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٠٦ .

ولما كان الصراع شخصيا فقد اتبع الجميع فيه مبدأ الغاية تبرر الوسيلة ، وكان الأخ يفدر بأخيه ويستعين في ذلك بالأمراء المجاورين وربما استعان بنصاري الشمال ، وتاريخ ملوك الطوائف حافل بذلك . وعلى سبيل المثال لم يتورع المعتضد بن عباد ملك اشبيلية من دعوة جيرانه من أمراء البربر وأولم لهم وليمة ، ثم دعاهم لدخول الحمام ، ولما دخلوه سد عليهم أبوابه ، وظلوا فيه حتى ماتوا ، بل أنه علق رعوس أعدائه الذين وصلت إليهم يده ، سواء بالحرب أم بالختل والفدر على أشجار حديقة قصره ، وسماها حديقة الموت ، وجعلها رمزا لقوته وبطشه ، وإنذارا بالموت لكل من تسول له نفسه من معارضيه بالخروج عن طاعته (١١) .

أما ابنه المعتمد فقد بلغ في ذلك شأوا بعيدا ، ويكفي ما فعله وزيره ابن عمار من الاستيلاء على مرسية بالتآمر مع نبلائها ، ثم الاستيلاء على قرطبة التي كان أهلها قد استدعوه ليحميهم من عدوان المأمون ملك طليطلة ، ثم لم يلبث أن استولى عليها بعد أن هزم المأمون وأنزل بني جهور من قصورهم ، وراحت كنمة آخر ملوكهم « نفص علينا كل شيء حتى الموت » دليلا وسمة لهذا العصر المضطرب (١٢) .

وهذا هو عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر حاكم بلنسية الذي نزل الى المرية ليضبط أمورها ، بعد قتل أميرها الفتى العامري زهير عام ٤٣٩ هـ أثناء صراعه مع بني زيري أمراء غرناطة ، فحسده مجاهد العامري صاحب دانية ، وخاف من اتساع مملكته التي أصبحت تضم بلنسية والمرية ، وأغار على بلنسية أثناء غياب عبد العزيز عنها ، ولما شعر الأخير بذلك استخلف صهره ووزيره معن بن صادق النجيبى على المرية ، وعاد الى مملكته في بلنسية ليدفع عنها خطر مجاهد العامري . لكن هذا

---

(١١) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٥٠ ، ٥١ .

دوزي ، ملوك الطوائف ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .

(١٢) المصدرين السابقين .

الصهر لم يلبث أن انتهر الفرصة واستولى على الحكم في المرية وأعلن استقلاله بها وخان الأمانة (١٣) .

والسمة الأخرى التي اتسم بها هذا العصر ، هو عدم وجود أساس شرعى معين لحكم هؤلاء الملوك والأمراء المتصارعين . فلم يكونوا من بيت امارة او خلافة وانما هم متقلبون ، ذهب كل منهم الى ناحية عقب انهيار بنى عامر وبنى أمية واستولى عليها وأقام ملكه فيها ، أو كان حاكما لتلك المنطقة قبل الفتنة فاستقل بها ، وكل منهم يدعى أنه حافظ لما تحت يده حتى يظهر الحاكم الشرعى فينزل له عنه طواعية ، وهم في ذلك كاذبون ، وحسبما تقدم كان يقول قائلهم « أحق بالملك من استقل به ، ولو نازعنى فيه كبار الصحابة والخلفاء الراشدون لضربت عنقهم » (١٤) .

ولكى يصبغوا على حكمهم صفة الشرعية ، فقد أقاموا لأنفسهم خلفاء ، واستتر بعضهم وراء خلفاء بنى أمية الأواخر الضعاف ، أو خلفاء بنى حمود الذين سباهم بعض ملوك الطوائف بأنهم أدعياء ولا حق لهم في الخلافة . ففى أثناء الفتنة البربرية ، هرب الموالى العامريون أمثال خيران وزهير ومجاهد ومبارك ومظفر الى شرق الأندلس ، واستولوا على بلنسية وشاطبة ودانية والمرية وغيرها . وقام أحدهم وهو مجاهد العامرى ، وأقام احد أفراد أسرة بنى أمية ويدعى عبد الله بن عبد الله بن الوليد المعروف بالمعيطى خليفة فى دانيه ، وبايعه وسماه أمير المؤمنين ، وأقلع معه غازيا الى سردينيا والجزائر الشرقية ففتحوها ، ثم لم يلبث أن غضب عليه مجاهد وخلعه ، ففر المعيطى الى أرض كتامة بالمغرب واستقر بها (١٥)

وقام غير مجاهد من الموالى العامريين بالدعوة الى خلفاء بنى حمود او بنى أمية ، مثال ذلك خيران الصقلبى الذى أدت مساعدته لبنى حمود

(١٣) أبى حيان برواية أبى بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ .

ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(١٤) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(١٥) ابن حزم ، الجمهرة ، ص ١٠٦ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ،

ص ١١٥ ، ١١٦ .

الى قيام خلافتهم في قرطبة عام ٤٠٧ هـ ، ولما خاف خيران على نفسه من بنى حمود فر الى شرق الأندلس وأقام المرتضى الأموي خليفة ، ثم غدر به وقتله وقام بعد ذلك بالدعوة لهشام المعتمد آخر خلفاء بنى أمية بعد أن ساعد اهل قرطبة في القضاء على حكم بنى حمود بها عام ٤١٧ هـ / ١٠٢٦ م (١٦) .

ولما سقطت الخلافة الأموية نهائيا عام ٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ م ، قام بنو عباد ملوك أشبيلية وأظهروا رجلا شبيها بهشام المؤيد ، ودعوا له بالخلافة عام ٤٢٥ هـ وبايعوه ، وأرسلوا الى الإمارات والممالك الأخرى بالدخول في دعوته وطاعته ، فاستجابت له وضربت النقود باسمه في جميع إمارات شرق الأندلس ، مثل دانية وطرطوشة وبلنسية وسرقسطة وتطيلة والمرية ولاردة وميورقة ، وهناك قطعة نقود ضربت باسمه في سرقسطة عام ٤٤٦ هـ في عهد الحاجب عماد الدولة أحمد ، كما اعترفت بخلافته بطليوس وتطليطة وقرمونة وما والاها من الأمراء الصغار مثل ابن نوح وابن خزون (١٧) .

ونلاحظ أنه قد اعترف بخلافة هذا الرجل الحصري المشبه بهشام عرب وبربر وصقالية ، وكان لكل منهم هدفه الذي يسعى اليه من وراء هذا الاعتراف ، فان عباد مثلا كان يريد أن يناهض خلافة بنى حمود في مالقة ويريد أن يستقطب أكبر عدد من ملوك الطوائف ضد بنى حمود وحلفائهم من بنى زيري ملوك غرناطة . وكان هذا أيضا هو نفس هدف بنى جهور أمراء قرطبة . وقد استغل البعض تلك الدعوة للاستيلاء على الحكم ، مثال ذلك ما فعله عبد الله بن حكيم ابن عم منذر بن يحيى صاحب سرقسطة ، حيث قام عبد الله هذا بقتل ابن عمه منذر عام ٤٣٠ هـ وأخرج رأسه فوق عصا ونادى عليه « هذا جزاء من عصى أمير المؤمنين هشاما ودافع حقه » وكان ( منذر ) قد رفض الاعتراف بإمامة هشام الحصري متأشيا في ذلك

(١٦) رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى حمود ، ص ٣٣ .

(١٧) ابن حزم ، نقط للعروس ، ص ٨٣ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ٣ ، ص ٢١٩ .



بوالده يحيى وبخاله اسماعيل بن ذى النون ملك طليطلة . وقد اعترف  
حفيد اسماعيل بامامته عام ٤٣٦ هـ (١٨) .

وقد أتى وقت على الأندلس وقد أصبح فيها أربعة خلفاء في وقت  
واحد ، كلهم يتسمى بامرة المؤمنين ويخطب لهم بها في زمن واحد ، وهم  
خلف الحصرى المشبه بهشام بأشبيلية ، ومحمد بن القاسم بن حمود في  
الجزيرة الخضراء ، ومحمد بن ادريس بن على بن حمود في مالقة ، وادريس  
ابن يحيى بن على بن حمود في بيشتر وسبتة . وان دل هذا على شيء  
فإنما يدل على مدى الابتذال الذى وصل اليه هذا المنصب الخطير . لكنها  
مصلحة الأمراء الشخصية التى فرضت هذه الأوضاع ، وما ان ينتفى  
الفرض منها حتى تزول بأدنى إشارة ممن أقاموها ، مثلما فعل المعتضد بن  
عباد عندما أعلن موت هشام المؤيد عام ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م وقطع الدعوة  
له بعد ان استتب له الأمر ومد سيطرته على جميع جيرانه ، وبعد أن  
زالت خلافة بنى حمود نبيل ذلك بعامين على يد بنى زيرى أمراء  
غرناطة (١٩) .

وقد لجأ ملوك الطوائف لتدعيم نفوذهم الى الاستعانة بقوة روحية  
أخرى ، تلك القوة التى تتمثل فى رجال الدين من الفقهاء والعلماء . وقد  
كان الفقهاء فى الواقع فى هذا العصر الذى ساد فيه الانحلال والفوضى  
الأخلاقية والاجتماعية والسياسية أكبر عَضُدٍ لأمراء الطوائف فى تبرير  
طغيانهم وظلمهم ، وتزكية تصرفاتهم وابتزازهم لأموال الرعية . وقد كانوا  
يأكلون على كل مائدة ، ويخدمون هذا أو ذاك من الأمراء والملوك ليحوزوا  
النفوذ والمال ، ويضعون فتاويهم الفتية فى خدنه السلاطين ، تأييدا  
لظلمهم وجورهم باسم الشرع حتى ضج منهم كتاب ذلك العصر ، منهم ابن  
حزم وابن حيان وغيرهم ممن وصفوهم فى كتاباتهم بأبشع الصفات (٢٠) .

---

(١٨) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٧٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩ .

(١٩) ابن حزم ، نقط العروس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٩ .

(٢٠) ابن حزم ، الرد على ابن النفريلة اليهودي ، ص ١٧٤ .

ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

فهذا ابن حزم يقول عنهم « لا يفرنكم الفساق والمتسبون الى الفقه واللابسون جلود الضأن على قلوب السباع ، الزينون لأهل الشر شرهم ، الناصرون لهم على فسقهم » وذاك ابن حيان يقول عنهم أيضا أنهم سكتوا عن ظلم الحكام « وأصبحوا بين أكل من حلوائهم وخابط في أهوائهم وبين مستشعر مخافتهم ، أخذ بالتقية في صدقهم » ، أما المقرئ فيتابعهم بقوله ان شر العلماء علماء السلاطين ويذكر ان علماء هذا العصر صاروا يسعون الى الحكام بعد ان كان الحكام هم الذين يسعون اليهم (٢١) .

لكن يبدو أن أسلوب ملوك الطوائف في الحياة وطريقتهم في الحكم لم تكن تعجب جميع رجال الدين ، فقد رأينا فريقا منهم من المخلصين لمبادئهم الدينية ، يفضلون العيش في عزلة عن الحكام حتى ولو ذاقوا طعم المسغبة ، واعتبروا أن العملة المتداولة في أيدي الناس انها نبعت من سحت ، ورفضوا تولى مناصب القضاء والمناصب الأخرى احتجاجا على الفوضى السياسية والدينية والأخلاقية التي كان يعيشها الحكام منذ الفتنة البربرية في مستهل القرن الخامس الهجري . وكان ابن حزم وأسرته من هؤلاء الذين « ذاقوا مرارة الحرمان وهجر الأوطان وترك الخلان » (٢٢) .

وقد عرض قسم من هؤلاء الفقهاء أنفسهم لغضب الحكام وانتقامهم ، كما حدث للفقير أبي الحسن الهوزني الذي قتله المعتضد بيديه عندما تجرأ فنبهه الى الخطر الذي يتهدد البلاد نتيجة خطأ سياسة ملوك الطوائف ، كذلك قام حفيده الفتح بن محمد بن عباد بقتل الفقيه عمر بن حبان بن خلف ابن حبان بالمدور ومثل بجثته عام ٤٧٤ هـ . وكان هذا من عوامل الضعف التي ألت بعصر ملوك الطوائف اذا قارناه بعصر خلفاء أو أمراء بني أمية

(٢١) المصادر السابقة ونفس الصفحات .

(٢٢) اللباني ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، الحميدى ، المصدر نفسه ،

ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٣٥ - ٤٣ ، ج ٢ ص ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٩١ .

ابن عبد البر ، القصد والأهم ، ص ٥ .

صلاح خالص ، المرجع نفسه ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

الذين كانوا يحترمون العلماء ولا يجرون على عزلهم حتى لو بالغوا في  
تقريعهم ونصحهم . وكان لعدم رضا هذا القسم من رجال الدين تأثيره  
المهم في انهيار نظام ملوك الطوائف وتداعى دويلاتهم وفي حمل العامة على  
التنكر لملوكهم وتأييد المرابطين الشديدي التعصب للدين (١٣) .

وبذلك انهارت الدعامة الروحية التي استند اليها ملوك الطوائف في  
حكمهم لرعاياهم ، فلم يكن الخلفاء الذين اقاموهم سوى دمي لم تنل احترام  
الناس وتقديرهم ، وكذلك أولئك الفقهاء الذين ظاهروهم وأيدوهم في  
سياساتهم ، لم يكونوا أيضا محل تقدير الناس أو رضاهم ، وظهور ذلك  
واضحا في الأمثلة العامة التي انتشرت بين أفراد الشعب انتقادا لمسلكتهم  
المشين ، مثال ذلك بعد وضعه في صيغة عربية سليمة « اتق الله العظيم  
ولا تشارك في صفقة مع فقيه » (١٤) .

ولما كان ملوك الطوائف يعرفون حقيقة سياستهم وأنها لا يمكن أن  
تنال رضا الناس مهما اقاموا من خلائف أو قربوا من فقهاء وعلماء . لذلك  
نراهم قد ركزوا اهتمامهم على اتخاذ قوة مادية عسكرية يستطيعون بها  
أن يحققوا اهدافهم وتتمثل تلك القوة في العبيد من جهة وفي الجنود  
المرتزقة من جهة أخرى . وكان الخلفاء يعتمدون اعتمادا كبيرا على أثر  
الدعوة للجهاد في نفوس الناس ، ولم يكن لملوك الطوائف أن يعلنوا الجهاد  
لأن جهادهم أصبح ضد اخوانهم المسلمين في الامارات المجاورة ، كما أنه  
لم تكن لهم الصفة الشرعية لإعلان تلك الدعوة رغم ما لجأوا إليه من إقامة  
خلافة هنا أو هناك ، ولذلك لجأوا الى استعمال الجند المرتزقة على نطاق  
واسع بغض النظر عن أصلهم أو دينهم . وعلى هذا تدفقت عليهم أعداد  
غفيرة من نصارى الشمال نظير أجور معينة ، ولم يشذ عن ذلك أى مملكة  
من ممالك الطوائف الرئيسية ، فكلها استعانت بهم كـأجورين أو حلفاء (١٥) .

(٢٣) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٣٨١ ، ٣٨٢ .

(٢٤) صلاح خالص ، المرجع نفسه ، ص ٦٤ .

(٢٥) ابن حيان ، برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ١٢٥ ،

١٦٠ ، ٢٦١ .

ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٩٧ ، ص ٢٧٢ .

ابن حيان برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٨ .

## ج - عوامل الضعف واثرها في علاقة ملوك الطوائف باسبانيا النصرانية :

تلك هي سمات عصر ملوك الطوائف وبعض مظاهر الضعف فيه .  
وهناك عوامل عديدة أدت الى ذلك وساعدت عليه ، منها صراع ملوك  
الطوائف ضد بعضهم البعض ، وصراع حكام كل مملكة على كرسى العرش  
بها ، وما صاحب ذلك من فساد هؤلاء الملوك وما أدى اليه من فساد طبقة  
الوزراء والموظفين ، وما نتج عن ذلك كله من انتشار العيوب الخلقية  
والاجتماعية والاقتصادية بين افراد الشعب الأندلسي نفسه في مختلف  
ممالكه واماراته العديدة المتناحرة . وكى تتضح الصورة تماما ويظهر اثر  
تلك العوامل العديدة على مستقبل الاسلام في بلاد الأندلس لا بد أن نتحدث  
عن كل منها في شيء من التفصيل .

### ١ - علاقة ملوك الطوائف بعضهم البعض الآخر وصراهم على السلطان :

خاض ملوك الطوائف حروبا مستمرة بعضهم ضد البعض بمساعدة  
الجند المرتزقة من نصارى الشمال أو من البربر ، وقد بذلت محاولات  
للصلح وجمع الثمل ، ولدينا عدة رسائل من الكاتب أبى عبد الله البزليانى  
الى صاحبى شاطبة والى غيرهما من أمراء شرق الأندلس ، يدعوها فيها  
الى التعاون مع المظفر أبى محمد الذى لا يبعد أن يكون هو عبد العزيز بن  
أبى عامر صاحب بلنسية ، لأنه يذكر انها تحالفا مع الموفق أبى الجيش  
وهو لقب مجاهد العامرى صاحب دانية ، وان كلا من الطرفين المتحاربين  
استعانوا بالنصارى . وكان مجاهد العامرى في صراع مع ابن أبى عامر  
بسبب السباق على ملك المرية بعد مقتل زهير العامرى حسبما تقدم (٣٦) .

والكاتب في هذه الرسائل التى احتفظ لنا ابن بسام ببعضها يعيب  
على هؤلاء الأمراء الاستعانة بالنصارى ويحذرهم من ذلك حتى لا يقف هؤلاء  
الأعداء على عورات المسلمين ولا يعرفون مواطن الضعف عندهم ، اذ لو  
عرفوا ذلك واستعانوا بملوك النصارى الآخرين سواء في اسبانيا أو في

(٣٦) ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ ، ٤٥٤ - ٤٥٩ .

للقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

غيرها واتوا لمحاربة المسلمين ، حينذ لا يمكن مقاومتهم ، ولا بد أن ينتهى الأمر بإخلاء الجزيرة من المسلمين . تنبأ كاتب القرن الخامس الهجرى بما حدث فعلا بعد عدة قرون ، ولم يكن هذا الا بسبب تلك الأحقاد والصراعات العقيمة على السلطة ، والاستعانة بنصارى الشمال ضد بعضهم البعض (٢٧) .

اما عن الصراعات والحروب التى اندلعت بين ملوك الطوائف فاننا نذكر منها ذلك الصراع الذى نشب بين بنى زيرى أمراء غرناطة وبين حكام المرية وخاصة خيران الصقلبى الذى اتى مع المرتضى وهزم عام ٤٠٩ هـ ، وزهير الذى حكم المرية بعد موت خيران عام ٤١٩ هـ . وكان زهير قد طمع فى ملك غرناطة ، لكن باديس بنى جبوس أمير غرناطة هزمه وقتله عام ٤٢٩ هـ ، واستولى على المرية معن بن صمادح غدرا من يد صهره المنصور عبد العزيز بن عامر . وقام الأمير عبد الله بن بلقين أمير غرناطة ببناء بعض الحصون لمحاصرة ابن صمادح ، ولما تبين له ضعفه ، هدم تلك الحصون وصالحه واستألفه ، لأن جارا ضعيفا خير من جار قوى لا يمكن العيش بجواره حسبما اعتقد أمير غرناطة (٢٨) .

وكان هناك صراع آخر بين بنى زيرى الصنهاجيين وحكام غرناطة وبين بنى عباد حكام أشبيلية ، وكان بنو عباد فى حرب مستمرة مع هؤلاء البربر من صنهاجة وقاموا بالإيقاع بين بربر زناتة فى قرمونة وبين صنهاجة وذلك حتى يصمدوا لتلك القوة الكبيرة التى شكلها بنو حمود وبنى زيرى فى جنوب الأندلس . واستطاع بنو عباد قتل خليفة بنى حمود يحيى المعتلى فى كمين عام ٤٢٧ هـ ، ولما حاول بنو عباد الاستيلاء على قرمونة وأشبونة واستجبه ، أرسل حكامها من لأبربر الى بنى حمود وبنى زيرى الذين أسرعوا لنجدتهم ، وتمكنوا من هزيمة جيوش بنى عباد وقتل قائده اسماعيل بن عباد عام ٤٣٠ هـ (٢٩) .

(٢٧) آبن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

(٢٨) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤ ، ٨٩ ، ٩٠ .

(٢٩) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٢٧٢ .

ابن الأثير ، الكامل ، ج ٩ ، ١٠٤ .

استمر الصراع بين الفريقين حتى استولى بنى زيرى على مالقة وقضوا على بنى حمود عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، ثم استطاع بنو عباد الاستيلاء منهم على جيان عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، فاضطر أمير غرناطة للاستعانة بقوات الفونش السادس ملك قشتالة . لكن المعتمد بن عباد أرسل وزيره أبا بكر بن عمار الى الفونش السادس وعقد معه حلفا ضد غرناطة نظير خمسين ألف دينار . وكان ابن ذى النون أمير طليطلة قد توسط لدى الفونش حتى يرضى بمحاربة غرناطة ، ويتمكن هو من الاستيلاء على قرطبة ، وقد أراد الفونش أن يصعد الخلاف ويكرس العداوة بين المسلمين فحالف غرناطة ، وترك ابن ذى النون يستولى على قرطبة عام ٤٦٢ هـ . وكانت قرطبة في الواقع تحت سيطرة بنى عباد (٣٠) .

ولما أسرع بنو عباد لانقاذ قرطبة من يد ابن ذى النون وكان كلاهما يستعين بالنصارى المرتزقة ، أدرك الأخير صعوبة بقائه على حصار قرطبة وعاد الى طليطلة ، وانتهاز بنو عباد الفرصة واستولوا على قرطبة من يد حلفائهم بنى جهور ، وان كان ابن عذارى يقول ان ذلك تم باتفاق أهلها مع بنى عباد ، بسبب سوء سيرة عبد الرحمن الذى كان أبوه أبو الوليد بن جهور قد تنازل له عن حكم المدينة . وتم القبض على بنى جهور ، أما شيخهم أبو الوليد فقد اختبأ في مقصورة هو وبناته ونساؤه فاقترحها عليه قوم من النصارى وجردوهم مما معهم ، وتم نفيهم الى جزيرة شلطيث . وهكذا انتهى ملك بنى جهور في قرطبة على يد بنى عباد عام ٤٦٧ هـ (٣١) .

وكانت علاقة أشبيلية بجيرانها من بنى الأفطس حكام بطليوس سيئة أيضا ، بسبب الصراع على مدينة لبلة التى تقع بينهما ، وقامت الحروب

(٣٠) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٦ ، ابن بسام ، المصدر نفسه ،

ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

(٣١) ابن حيان برواية ابن بسام ، الفخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٨ .

ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ - ٢٦١ .

ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

بسبب ذلك . واستعان بنو الأفتس بنى جلدتهم من البربر حكام قرمونة ، ولكن الهزيمة كانت من نصيبهم عام ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م وقتل أمير قرمونة كما قتل عبيد الله الخراز صاحب بابة وابن عم حاكم بطليوس ، ونجا ابن الأفتس نفسه بصعوبة بالغة ، وبلغ عدد قتلاه ما لا يقل عن ثلاثة آلاف ، وكانت الخسارة كبيرة لدرجة أن بطليوس بقيت مدة من الزمن خالية من سكانها الا من الشيوخ والأطفال والنساء (٣٢) .

وانتقم ابن الأفتس لنفسه من بنى عباد بطريقة غير شرعية ، لكنها تدل على روح العصر وعلى ماساده من صراع لا يحكمه أى مبدأ من مبادئ الأخلاق . ذلك أنه فى عام ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م سمح عبد الله بن الأفتس أمير بطليوس لجيش بنى عباد أن يمر عبر أراضيه لقتال مملكة ليون ، وأثناء عودته هاجمه ابن الأفتس بفتة ، وقتل من جنود أشبيلية عددا كبيرا ، وفر اسماعيل بن عباد ونجا من الموت بصعوبة ، ومنذ ذلك الحين تأصلت العداوة والبغضاء بين بنى عباد وبنى الأفتس (٣٣) .

وكان هناك صراع بين بنى ذى النون البربر حكام طليطلة ، وبين بنى هود الجذاميين العرب حكام سرقسطة ، ودانية ( بعد أن استولوا عليها من على ابن مجاهد العامرى ) وطرطوشة ( بعد أن مات صاحبها ليبيث ثم مقاتل الفتى العامرى ) . وكان الصراع بين بنى ذى النون وبنى هود بسبب تنافسهم على امتلاك مدينة وادى الحجارة ، ولما استولى عليها سليمان بن هود قامت قيامة المأمون بن ذى النون ، واستعان بنصارى الشمال ، ودعته الضرورة أيضا الى محالفة المعتضد بن عباد والدخول فى دعوته لخلف الحصرى المشبه بهشام عام ٤٣٦ هـ (٣٤) .

ازاء ذلك استعان ابن هود بملك آخر من نصارى الشمال ، واستطاع أن يعيث فى طليطلة وأعمالها ، وأن يدمر زرعها ، فأرسل اليه أهلهما يطلبون

(٣٢) ابن حيان بىرواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٠٣ .

دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٣٤) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٧ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ،

ص ٢٢٤ ، ٦٧٧ .

الصلح ، فتظاهر ابن هود بموافقتهم الى ما طلبوا ، ثم لم يلبث ان سار هو وحلفاؤه من النصارى ، واحتلوا مدينة سالم التابعة لبنى ذى النون ، وساعده على ذلك عبد الرحمن بن اسماعيل بن ذى النون الذى كان ينازع اخاه يحيى صاحب طليطلة فى حكمها . ودامت الفتنة بين ابن هود وابن ذى النون من عام ٤٣٥ هـ الى آخر عام ٤٣٨ هـ ولم تنته الا بوفاة سليمان بن هود . ولما زال خطر سرقسطة عن طليطلة ، بدأ امرها يستعد لمنازعة ابن الأنطس صاحب بطليوس وبنى جهور أصحاب قرطبة (٣٥) .

وما ان احس بنو جهور بذلك حتى عقدوا حلفا مع امراء بطليوس واشبيلية ضد بنى ذى النون امراء طليطلة ، وتحالف هؤلاء بدورهم مع بلنسية ومع قشتالة النصرانى ، واستطاعوا ان يوقعوا بقوات قرطبة ، لكن العباديين انتقذوها واستولوا عليها حسبما تقدم ، وعاد الطليطيون مهزومين عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م (٣٦) .

وقام الدور الثانى من الصراع بين بنى عباد فى عهد المعتمد بعد وفاة والده المعتضد عام ٤٦٢ هـ / ١٠٧٠ م وبين المأمون بن ذى النون ، وكانا اقوى ملكين فى الأندلس فى ذلك الوقت بعد ان حطمت الحروب الأهلية الدويلات الاسلامية الأخرى . ولما رأى المأمون ان اشبيلية مشغولة بحروبها مع بنى حمود وبنى زيرى ، وأن بنى الأفطس يقتتلون فيما بينهم على كرسى الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله المظفر ، وان بنى هود حكام سرقسطة يشتبكون مع جيرانهم النصارى فى حروب دموية مستمرة ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، وانقض على العامريين اصحاب تدمير ومرسية وانتزعها منهم ، وكان هؤلاء حلفاء لبنى عباد (٣٧) .

وما كاد المعتمد بن عباد يقف على فعلة المأمون حتى أرسل وزيره ابن عمار الى ريموند برنچار امير قطلونية ( برشلونة ) ، وحالفه على

(٣٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٣ .

(٣٦) يوسف اشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ٤٩ ، ٥١ .

(٣٧) يوسف اشباح ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .



مساعدته ضد طليطلة . وما ان وصل ريموند الى مرسية ، حتى وجد قوات طليطلة وبلنسية وقونقة ودانية ومريبطر وشاطبة وشنتمرية الشرق والسهلة ، تعاونها فرقة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ، فأدرك استحالة الهجوم ، لكن قوات طليطلة وحلفاءها أجبرته على دخول المعركة ، وهزمته هو وحلفاءه الأشبيليين هزيمة ساحقة ، واستولى المأمون على مرسية وأربولة وعدة مدن أخرى (٣٨) .

ولم يضيع المأمون وقته سدى ، اذ وجه بعد ذلك عدة جيوش تجاه سرقسطة وبطليوس وجيان حتى لا يترك لها فرصة التحالف مع أشبيلية ، وانقض جيشه على قرطبة بغتة ، فسقطت دون مقاومة ، ثم واصل جيش المأمون زحفه الى أشبيلية ذاتها واقتحمها عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، منتهزا فرصة غياب المعتمد في حربه لبنى زيرى في غرناطة . لكن المأمون أطل البقاء في أشبيلية حتى اختتم المعتمد حربه في الجنوب بنجاح ، وعاد الى عاصمته واستردها منتهزا فرصة وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٦ م (٣٩) .

استمر الصراع بين ملوك الطوائف حتى سقطت طليطلة في يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، فأتوا اليه مهئين ، يحملون الهدايا ويعلنون الطاعة ، وبلغ من سخرية القدر أن أحدهم كافأه الفونش على هديته بقرد ، فصار يفخر به على سائر زملائه من ملوك الطوائف . وكان سقوط طليطلة بهذا الشكل المخذى دليلا واضحا على فشل حكم ملوك الطوائف ونتيجة طبيعية لذلك الصراع الذى استمر بينهم ولم يهدأ لحظة واحدة (٤٠) .

## ٢ - الصراع الداخلى فى كل مملكة على الحكم :

ولم يكن ملوك الطوائف موفقين أيضا فى علاقاتهم مع شعوبهم أو فى سياستهم الداخلية . ويبدو أنهم كانوا يقبضون على السلطان بأيد مرتعشة ،

(٣٨) يوسف أشباج ، المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

(٣٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

يوسف أشباج ، المرجع نفسه ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

(٤٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٧ ، ٨٨ .

اذ لم تنج اسرة واحدة من الأسرات الحاكمة من الصراع الداخلى بين افرادها على كرسى الحكم ، ولذلك لم يكن هناك استقرار سياسى يمكنهم من العمل لخير شعوبهم . وقد كان هناك أمل فى أن يقوم بنو حمود بصفتهم أدارسة حسنيون من آل البيت ، أن يسدوا الفراغ السياسى الذى نجم عن تهاوى خلافة بنى أمية ، الا أن الصراع الداخلى بين افراد الأسرة الحمودية لم يمكنها من تحقيق هذا الهدف .

فمن البداية وعقب مقتل أول خلفاء بنى حمود تنازع ولداه يحيى وادريس مع عمهما على الخلافة ، وتبادلا حكم قرطبة عدة مرات ، وكان يحيى بن على بن حمود مؤيدا من البربر ، وعمه القاسم بن حمود مؤيدا من السودان . وتسبب هذا الصراع فى انفصال أشبيلية واستقلالها تحت حكم بنى عباد منذ عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، كما سقطت الخلافة الحمودية نفسها فى قرطبة ، وعادت الخلافة الأموية الهزيلة ثم اختفت ، وقام فيها حكم بنى جهور منذ عام ٤٣٢ هـ / ١٠٣٠ م . واستمر الصراع داخل الأسرة الحمودية مما اضعفها وجعلها تسقط فى أيدي حلفائها من بنى زيرى حكام غرناطة عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٨ م . وفى العام التالى قام المعتضد بن عباد باسقاط الفرع الحمودى فى الجزيرة الخضراء . وبذلك انتهت دولة بنى حمود نتيجة لانقسامهم على أنفسهم ولضعف خلفائهم الأواخر (٤١) .

ولم ينج بنو زيرى أمراء غرناطة من هذا المرض أيضا ، اذ ظهر الانقسام بين افراد الأسرة الزيرية عقب وفاة حبوس بن ماكسن الذى كان قد تولى حكم غرناطة عقب رحيل زاوى بن زيرى عنها فى عام ٤١٠ هـ . وكان حبوس قد قسم أعمال غرناطة على أقاربه وبنى عمومته من بربر صنهاجة ، حتى أصبح كل منهم سلطانا على ما يليه ، له اجناده وحكومته ، وكان حبوس يستشيرهم فى أموره ولا ينفرد بأمر دونهم . فلما توفى قام أحدهم وهو يدير بن حباسة وحاول الاستيلاء على مقاليد الحكم فى غرناطة من يد باديس الذى تولى الحكم بعد وفاة والده حبوس ، وعرف الوزير

---

(٤١) رجب محمد عبد الحليم ، دولة بنى حمود فى ملقة الأندلس ، ص ٨٤ ، ٨٥ ،

اليهودى ابن النغرالة بذلك ونصح باديس بأخذ المتآمرين بالحيلة ، حتى لا ينهار حكم بنى زيرى ، فقبل النصيحة وضرب المتآمرين بعضهم ببعض ، فخلص له الحكم (٤٢) .

ورغم ذلك كان باديس محتاطا لنفسه ولابنه بلقين فبنى له قصبة مألقة بعد أن استولى عليها من بنى حمود عام ٤٤٩ هـ ، بنيانا لم يقدر على مثله أحد في زمانه ، وخبا فيها أمواله وجميع ما ورثه ، وجعله ذخرا لابنه إذا ما ساءت الأحوال في غرناطة ، سواء بتآمر بنى عمومته أو بحاربة ملوك الطوائف . كما أخذ أقاربه بالشدة والعنف ، فإذا أحس من أحدهم بما يريبه ، حكم عليه بالنفى والمصادرة حتى لا يبقى لابنه بلقين من ينسأؤه بعد وفاته (٤٣) .

وقد أتت سياسة باديس بثمارها ، وحكم بلقين غرناطة بعيدا عن الصراع الأسرى ، وترك ولدين هما تميم وعبد الله ، وحكم الأول مألقة ، وتولى الثانى حكم غرناطة نفسها ، وكالعادة قام الصراع بين الأخوين ، وحاول تميم سلب مدينة المنكب من أخيه ، وقام عبد الله بحربه وحصاره ، لكنه لم يلبث أن عقد معه الصلح حتى لا تذهب به العداوة أن يفرط في مدينته ويسلبها لأعداء بنى زيرى ، كما فعل عمه ماكسن من قبل بجيان ، واكتفى عبد الله بتأديبه وأخلى له قلعة جطرون بدل المنكب ، لأن رعيته نصارى ، فهم على الحياد بينه وبين أخيه تميم . ورغم ذلك فقد قام تميم هذا بدور مخجل عند قدوم المرابطين ، إذ أنه شكاه أخاه اليهم وتسبب في إضعاف مركز بنى زيرى والقضاء عليهم فى النهاية (٤٤) .

ولم يكن بنو ذى النون أسعد حظا من بنى زيرى ، إذ أن يحيى المأمون بن إسماعيل بن ذى النون ( ٤٣٥ — ٤٦٧ هـ / ١٠٤٣ / ١٠٧٤ ) خرج عليه أخوه عبد الرحمن وعمه ( أرقم ) . أما أخوه فقد حاول الاستيلاء

(٤٢) ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٢٦ ، ٢٤ .

(٤٣) ابن بلقين ، المصدر نفسه ص ٣٦ ، ٤٣ .

(٤٤) ابن بلقين ، المصدر نفسه ص ٩٠ ، ٩٤ .

على السلطة من المأمون واتصل بأعداء البلاد من بنى هود حكام سرقسطة والثغر الأعلى ، ودلهم على عورات البلاد . أما عمه ( أرقم ) فقد كان أديبا لامعا ، فحسده ابن أخيه المأمون على ذلك وأظهر له البغض ، فخاف الأمير أرقم وفر الى الثغر الأعلى ، ثم شد رحاله الى فردناند ملك جليقية وحليف بنى هود ، الذين كانوا أعداء ابن أخيه المأمون بن ذى النون ، واتى معه لمعاينة طليطلة والانتقام منها لما فعله حليفها شنانجة ملك قشتالة بأراضى بنى هود ، ولينتقم أرقم لنفسه من ابن أخيه المأمون (٤٥) .

وكان المأمون غائبا عن طليطلة ومقيما بمدينة سالم حتى يمنع عنها هجوم بنى هود المتوقع ، وأدى الأمر الى شراء أهل طليطلة حريتهم وحياتهم من فرديناند ( فردلند حسب الرواية العربية ) بالأموال . واستطاع المأمون بعد ذلك أن يتخلص من عمه بالحيلة والخديعة ، إذ أنه دس الى فرديناند من أوعز اليه بأن أرقم ما هو الا جاسوس لابن أخيه المأمون ، فقتله ، وفرح بذلك المأمون وقال « الحمد لله : هذه نعمة من جهتين ، فقد عدو ، ووجوب ثار نطلب به » (٤٦) .

وكانت أسيرة بنى هود ملوك سرقسطة والثغر الأعلى مثالا آخر للصراع الأسرى المقيت . ولم تع هذه الأسيرة الدرس الذى نالت به حكم سرقسطة من يد بنى تجيب عام ٤٣٢ هـ / ١٠٣٩ م ، إذ أن صراعا نشب داخل الأسرة التجيبية عام ٤٣٠ هـ ، انتهى بقتل أميرها واستيلاء سليمان بن هود حاكم لاردة والملقب بالمستعين عليها . وارتكب سليمان المستعين خطأ سياسيا عندما قسم بلاده على أولاده الخمسة قبل موته . وما لبث الصراع أن نشب بين الاخوة بعد وفاة والدهم ، واستطاع أحدهم وهو أحمد عماد الدولة المقتدر ( ٤٤١ — ٤٧٤ هـ / ١٠٤٩ — ١٠٨١ م ) أن يستولى على أملاك اخوته عدا يوسف عماد الدولة المظفر صاحب لاردة (٤٧) .

(٤٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ،

ص ١٤ .

(٤٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨١ ، ابن سعيد المغرب ج ٢ ،

ص ١٤ .

(٤٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

أبو للفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٥ .

وقد تسبب أسلوب أحمد المقتدر في اغتصاب إملاك أخوته ، أن كرهه الناس ومالوا الى أخيه يوسف المظفر . فحالف المقتدر ملوك أسبانيا النصرانية ضد أخيه حتى أنه تواطأ في إحدى المرات على قافلة تحمل الميرة والطعام نجدة لأهل تطيلة ، الذين كانوا قد أصابهم الجهد والغلاء ، وراسلوا أميرهم يوسف المظفر يستنجدون به . وكان يوسف قد دفع الأموال لابن ردمير حتى تمر القافلة عبر أراضيه الى تطيلة ، لأنها لا يمكن أن تمر عبر أراضي أخيه المقتدر . لكن المقتدر بخسة ونذالة أرسل لابن ردمير من المال أضعاف ما أعطاه يوسف ، على أن يسمح له بمهاجمة القافلة ومن يحميها من جنود يوسف . وانتهى الأمر بكارثة . إذ ضاعت القافلة وأخذ النصارى أغلب رجالها وجنودها أسرى وفتكوا بالآخرين (٤٨) .

وأزاء ذلك أحس الناس بأنه لا فائدة من بقائهم على طاعة يوسف ، وراوا أنه لا أمان لهم الا بالاعتراف بطاعة أخيه المقتدر ، وانتهى الأمر بالقبض على يوسف وسجنه في قلعة روطة ، وظل بها سجينا حتى مات أخوه المقتدر وتولى الإمارة ابنه يوسف المؤتمن ( ٤٧٤ — ٤٧٨ هـ / ١٠٨١ — ١٠٨٥ م ) وتمكن يوسف المظفر من الفرار من سجنه ، ولجأ الى الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م واحتفى به وما لبث أن مات عنده بعد قليل ، وأتى الفونش بجيوشه الى سرقسطة زاعما أن المظفر كان قد تنازل له عن حقه المقتصب فيها كان يحكمه أثناء حياته ، لكن يوسف المؤتمن تمكن من هزيمة الفونش ، ونجا بامارته من هذا المازق الخطير (٤٩) .

احتدم الصراع بين يوسف المؤتمن وبين أخيه المنذر ، وكانا قد اقتسما المملكة ، ورغم هذا استمر المنذر ينافذ أخاه يوسف المؤتمن ، ثم ابن أخيه أحمد المستعين بن يوسف المؤتمن ( ٤٧٨ — ٥٠٣ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٩ م ) . وكان كل من الطرفين يستعين بملوك النصارى في صراعه ضد

(٤٨) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٤٩) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

د. حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ١٠١ ، ١٠٣ .

الطرف الآخر ، مما تسبب في ضعف حكم بنى هود لهذه المنطقة الهامة من الأندلس والتي كانت حاجزا بين المسلمين وما يليها من ممالك النصارى . وانتهاز الفونش السادس فرصة الصراع بين المستعين وعمه المنذر وحاصر سرقسطة ، وكادت تسقط في يده لولا مفاجأته بنزول المرابطين بلاد الأندلس عام ٤٧٩ هـ ، فبقيت أسرة بنى هود في الحكم مدة أخرى حتى سقطت في يد النصارى عام ٥١٢ هـ (٥٠) .

### ٣ - فساد ملوك الطوائف :

وفي غمرة هذا الصراع الدامى على الحكم داخل كل أسرة من الأسرات الملكية التى توزعت الأندلس فيما بينها ، وبين هذه الأسرات بعضها البعض ، ازداد فساد الحكام والأمراء والملوك ، وقاسى الشعب الأندلسى في ظل حكمهم كثيرا من ضرورب الاضطهاد والظلم ، فقد كان هؤلاء الحكام يعتبرون ممالكهم ضياعا خاصة يستغلونها كيفما يشاءون ويجعلون من شعوبهم عبيدا ليس عليهم الا الكد والكدح ودفع ما يطلب منهم من الضرائب الباهظة والغرامات الثقيلة ، حتى ساءت حال الرعية وبلغ الحال بالناس أن أكلوا البقل والحشائش ولبسوا الجلود والحصر ، وفر أكثرهم عن قراهم (٥١) .

وقد أدت هذه الحال الى أن قام الناس بيهتلون الى الله بالخلاص من هؤلاء الحكام الظلمة ، وسجلوا ذلك على لسان كتابهم المعاصرين أمثال ابن حزم وابن حيان . فهذا ابن حزم يرفع يديه الى السماء ويقول « اللهم انا نشكو اليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم ، وجمع أموال ربما كانت سببا في انقراض أعمارهم وعونا لأعدائنا عليهم عن حياطة ملتهم ... الخ » (٥٢) .

(٥٠) أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ١٥٥ .

القفشنذى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

د. حسين مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .

(٥١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٥٢) ابن حزم ، الرد على ابن النخيلة اليهودى ، ص ٤٥ .

وقد وصل انشغال الحكام بأمورهم الخاصة عن الكوارث التي كانت تصيب المسلمين على أيدي نصارى الشمال درجة تدل على أنهم لم يكونوا حكاما بالمعنى المعروف ، بل زعماء أو رؤساء جماعات اعتبروا الشعب والأرض غنيمة لا تستحق حتى مجرد العناية بها والذب عنها . فقد أغار فردناند ملك ليون على بطليوس ودمرها واستباح حريمها وفعل بها الأفاعيل ، وورد الخبر على المأمون صاحب طليطلة ، ولما دخل عليه وزيره ابن مثنى وجده شديد الاطراق والضيق ، فأخذ يفرج عنه معتقدا أن ذلك لما سمعه مما أصاب المسلمين في بطليوس ، لكن ابن مثنى ذهل عنهما التفت إليه المأمون وقال له « الا ترى هذا الصانع الحقير الذى يتولى بنيان قصرى أنه لا يمثل لأمرى وينغصص على لذتى ويستخف بامرتى » (٥٣) .

هكذا كان المأمون يهتم ببناء قصره ولا يهتم أن يذهب مسلمو بطليوس الى الجحيم . وقد أدى ذلك إلى أن يقول ابن حزم عن هؤلاء الحكام « ان كل مدبر مدينة أو حصن فى شيء من أئدلسنا هذه ، أولها عن آخرها ، محارب لله تعالى ورسوله ، وساع فى الأرض بفساد ، والذى ترونها عيانا من شتمهم الفارات على أموال المسلمين .. وضربهم المكوس والجزية على رقاب المسلمين ، وتسليطهم اليهود لتحصيلها ، كل ذلك بموافقة رجال من أهل الفقه والدين المنافقين الذين لا يهمهم الا مصلحتهم الشخصية ، ليدل دلالة مؤكدة على ضرورة التخلص من هؤلاء الحكام ، وقد اتت الفرصة عندهما قدم المرابطون فطالبت الرعية فى صراحة ووضوح بضرورة عزلهم حتى يتخلصوا من هذا الظلم الذى عاشوا فيه ثمانين عاما » (٥٤) .

وقد أدى هذا الظلم فى جمع الأموال من الرعية وتحصيلها بغير الطريق الشرعى ، الى قول المعاصرين « انه ليس فى الأئدلس فى ذلك الوقت درهم حلال ولا دينار طيب يمكن القطع بأنه حلال عدا ما يستخرج من وادى لاردة من ذهب » . وكان أسلوب الحكام فى جمع تلك الأموال من القسوة

(٥٣) ابن بسلام ، للخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٥٤) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص ١٧٣ ، ابن بلقين ، مفكراته ، ص ١٢٠ ، ٢١٠ .

ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٥٨ .

والعنف أن فر الناس وتركوا ديارهم وقراهم حسبما تقدم . هذا في الوقت الذي كان فيه ملوك نصارى الشمال الأسباني يوزعون ما تصل اليه أيديهم من أموال ، سواء من الجزية المفروضة على المسلمين أو غير ذلك على رجالهم ، فكانوا يدخلون الكنيسة ويقسمها سلطانهم على رجاله بالطاس ، ويأخذ مثلما يأخذون ، وربما يتنازل عن نصيبه لهم ، وبذلك كانوا يصطنعون الرجال ، بينما كان سلاطين الأندلس يخزنون الأموال ويضيعون الرجال ، فكان للنصارى بيوت رجال وللمسلمين بيوت أموال ، وبذلك انتصروا وقهروا المسلمين وأذلّوهم<sup>(٥٥)</sup> .

وكما كان التناقض بين ملوك الطوائف على الحدود وحيازة المدن والقلاع ، كان تنافسهم شديدا في بناء القصور ، والمتنزهات واتخاذ الألقاب ، فهذا نقش عثر عليه بمدينة قونكة سجل عليه ألقاب اسماعيل بن ذى النون ويصفه بأنه « حسام الدولة أبو أحمد اسماعيل بن المأمون ذى الجدين بن الظافر ذى الرئاستين » ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد تلقبوا بالألقاب الخلفاء حتى قال في ذلك بعض الشعراء : (٥٦)

مما يزهـدنى في أرض أندلس      تلقبب معتضد فيها ومعتمد  
الألقاب مملكة في غير موضعها      كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وفي الحقيقة لم تكن لهذه الألقاب قيمة ، وقد صرح بذلك المعاصرون وعابها عليهم ملوك الشمال ، لكنها كانت لازمة لاسدال مظهر العزة السلطانية والأبهة المملوكية على بلاط هؤلاء الحكام الذين غرقوا في النعيم حتى الثمالة ، ويكفينا وصف حياة عبيد خصيين من عبيد آل عامر كانا يديران ساقية في بلنسية ، ثم توليا إمارة بلنسية وشاطبة زمان الفتنة ، وبلغت جبايتهما لأول ولايتهما مائة وعشرين ألف دينار سنويا ، فاتخذوا

(٥٥) آبن حزم ، المصدر نفسه ، ص ١٧٥ ، الطوطى ، سراج الملوك ص ١٠٨ .

ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، مج ٣ ، ص ٨٦٤ .

(٥٦) المقري ، نفع الطيبر ، ج ١ ، ص ٦٩ .

Levi - Provencal, Inscriptions, pp. 190, 191.



اليسانيين الزاهرة ، والروض الناضرة واجريا بها الحياة المتدفقة وبنيا القصور ، وانغمسا في النعيم الى قمم رأسيهما ، وأخلدا الى الدعة ، وسارعا في انتهاب اللذة حتى أربيا على من تقدم وتأخر . وكان موكبها يوم خروجها الى المسجد للصلاة يوم الجمعة ، يفوق موكب مولاها المظفر عبد الملك بن ابي عامر (٥٧) .

وكان ملوك الطوائف لا يتركون شيئا يدعون به ملكهم ويظهر هيبتهم ، الا حرصوا عليه واغتموه ، من ذلك بذلهم العطاء الوافر للشعراء والأدباء واسرافهم في ذلك اسرافا لا مثيل له ، وعلى سبيل المثال فقد منح المعتمد ابن عباد الشاعر عبد الجليل بن وهبون الفين من الدنانير على بيتين اثنين من الشعر ، بينما منح المعتصم بن صمادح قرية بأكملها للشاعر ابي الفضل جعفر بن ابي عبد الله بن شرف البرجي ، عندما أتى اليه يشتكى من عامل تلك القرية وأنشده رائيته الشهيرة التي مطلعها :

قامت تجر ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

ولما بلغ منها قوله :

لم يبق للجور في أيامهم أثر الا الذي في عيون الغيد من جور

قال له المعتصم : « لقد أعطيتك هذه القرية نظير هذا البيت الواحد ، ووقع له بها وعزل عنها نظر كل وال » (٥٨) .

وكان كثير من ملوك الطوائف يقولون الشعر ويبرعون فيه . وقد شغلهم ذلك وشغلتهم حياتهم الخاصة عن سياسة ملكهم وإدارة حكمهم على النهج السليم ، حتى قال البعض من المستشرقين أن عبقرية مسلمي أسبانيا

(٥٧) ابن حيان بروايته ابن عذاري ، المصطلح نفسه ، ج ٣ ، ص ١٥٨ - ١٦١ .

ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٨٩ .

(٥٨) ابن بتمام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٩٧ ، ١١١ .

كانت من الطراز الأول ، لكن نبوغهم السياسى لم يبلغ الكمال . وماذا يفيد الشعر والأدب فى رد اعتداءات النصارى أو فى رد المظالم عن الرعية ؟ ويكفى ما قاله أحد البدو حينما سمع شعرا وعرف أنه للمعتد بن عباد فقال « أظن هذا الملك لم يكن له من الملك الا حظ يسير ، ونصيب حقير ، فمثل هذا الشعر لا يقوله من شغل بشىء دونه » (٥٩) .

أما المجون والخلاعة وشرب الخمر والاستغراق فى اللذات الجسدية والاكثار من الجوارى والنساء فكان قاسما مشتركا بين جميع ملوك الطوائف . فهذا هو المعتضد بن عباد ، يقولون عنه أنه « كان له كلف بالنساء وخلط فى اجناسهن فانتهى فى ذلك الى مدى لم يبلغه أحد نظرائه » ، وهذا ابنه المعتد يقولون انه خلع ثمانمائة امرأة من أمهات الأولاد وجوارى المتعة واماء الخدمة بالاضافة الى ولوعه بالخمر وانغماسه فى اللذات . أما بنو زيرى حكام غرناطة فكان الوزراء لا يرون وسيلة يشغلونهم بها حتى يستبدوا هم بالحكم والسلطان الا باغراقهم فى اللذات واشغالهم بالنساء اللائى كثرن وكون فرقا ، كل فرقة منهن كانت تطمح فى ولاية من تربيته من أبناء السلطان حتى يكون لها الحظوة والغلبة ، فكثر مؤامرات البلاط لهذا السبب (٦٠) .

وهذا هو يحيى المأمون ملك طليطلة الذى اشتغل بالخلاعة والمجون واكثر مهادة النصارى ومصانعتهم ، حتى يكون لديه متسع للهو واللعب واقتناص اموال الرعية . أما على بن مجاهد صاحب دانية فقد « طلب السلم وأغمد السيف وكانت همته فى خراج يجبيه ، ومتجر ينميه » وكان بعض خلفاء بنى حمود يسيرون أيضا على هذا النهج فلم يقع يحيى بن على بن حمود قتيلا عام ٤٢٧ هـ الا لأنه نزل ميدان المعركة مخمورا لم يفق بعد من سكره . ولم يكن كل هذا التهلك الا نتيجة لضعف الوازع الدينى

---

(٥٩) بالأنثى ، المرجع نفسه ، ص ١٠٦ ، لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٠ .

(٦٠) ابن الأبار ، الحلة السرا ، ج ٢ ، ص ٤٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٥٠ ، ٨٤ ، ٨٥ .

وضياع القيم الأخلاقية واستئثار أخلاق اللذة والمنفعة الشخصية بكل شيء (٦١) .

#### ٤ — فساد طبقة الوزراء والموظفين :

وقد انتشرت البلوى بين الموظفين والحكام الصغار الذين أخذوا بدورهم يقتلون ملوكهم وأمراءهم ، ويدلون بدلوهم في نهب الرعية وظلم الناس . وكانت هذه الطبقة من جامعى الضرائب ورجال الشرطة وغيرهم من الموظفين محل الشكوى ، وكثرت أوصافهم بأنهم « مرتشون أشرار ظالمون فجار لا إيمان لهم ولا دين ولا ورع ولا يقين » ، وأنه يجب على القاضى أن لا يتركهم يظلمون الناس ويجب أن يكونوا تحت سلطانه ورقابته ، وعليه أيضا أن يدبر أمور الرعية مع السلطان الذى لا يجب أن يعلق بابه ويكثر حجابيه ، الى آخر تلك الآمال التى كانت تداعب عقول الناس فى هذا العصر ، والتى لم تتحقق على الإطلاق (٦٢) .

ولم يكن هذا الانحلال والفساد قاصرا على صغار الموظفين بل انه كان ممثلا فى أعلى منصب بعد منصب الملك أو الأمير ، وهو منصب الوزير ، وقد حفل هذا العصر بطائفة من الوزراء الذين يمكن أن نسميهم بالوزراء المغامرين ، أشهرهم الشاعر ابن عمار وزير المعتمد بن عباد الأشبيلي . ويكاد يجمع معظم المؤرخين على أنه كانت له صلة خاصة بالملك الفونش السادس ملك قشتالة وليون ، وأنه كان فيما يبدو صنيعا من صنائعه وأداة من أدواته يحركه لتسهيل مشروعاته ضد ملوك الطوائف . وقد استعان به فى الإيقاع بغرناطة ، واعتمد عليه ابن عمار فى حركته الانفصالية ضد المعتمد بن عباد (٦٣) .

---

(٦١) العيني ، عقد الجمان ، ق ٤ ، ج ١٩ ورقة ٦٤٢ ، ٦٤٣ .

ابن بسام ، اللخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٠٦ .

ابن الكردبوس . الاكتفاء فى أخبار الخلفاء . ص ٧٧ .

رجب عبد الحليم ، دولة بن حمود ، ص ١١٣ .

(٦٢) ابن عبدون ، ثلاث رسائل أندلسية فى أدب الحسبة ، ص ٣ ، ٥ ، ص ٧ .

١٤ - ٣٠ .

(٦٣) صلاح خالص ، المعتمد بن عباد ، ص ١٣٥ .

كان ابن عمار لا يعمل الا لمصلحته الشخصية مقتديا في ذلك بحكام  
وساسة عصره ، وقد ظهر ذلك اثناء حملته على مرسية ، وبدل أن يخضعها  
لحساب مليكه المعتمد ، استولى عليها لنفسه ، وأخذ يقول الشعر في هجاء  
المعتمد وأسرته ، وجلس للناس كما يجلس الملوك ، وأظهر الاستخفاف  
بالناس ، ثم دخل طليطلة كرسول من قبل الفونش السادس ، وتأمر مع  
اشرافها في عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٣ م على الثورة ضد ملكها القادر بن  
ذى النون ، وحرصهم على أن يحكموا أنفسهم ويعطوا الجزية للفونش حتى  
يتقوا شره . ولما أحس القادر بذلك قبض على المتآمرين وفر بعضهم الى  
الفونش ، وفر ابن عمار وعاد الى سرقسطة (٦٤) .

ولم يتمكن من العودة الى مرسية ، لأن مساعده ابن رشيق الذى كان  
قد تركه في حكمها ، عامله بأسلوبه واغتصب حكم المدينة لنفسه ، واستولى  
على ثروة ابن عمار وطرده أسرته من المدينة . وبذلك فشل ابن عمار سواء  
في طليطلة أو في مرسية . فاتجه حينئذ لتقديم خدماته الى بنى هود حكام  
سرقسطة ، فآثروا فيها الفتنة أيضا ، وتمكن من اخماد ثورة في أحد الحصون  
التابعة لبنى هود ، ولما حاول تكرار ذلك في قلعة شقورة فشل وأسر  
صاحبها وسلمه للمعتمد بن عباد ، وباع له القلعة أيضا ، وكان نصيب ابن  
عمار المغامر الجريء القتل على يدى ابن عباد نفسه (٦٥) .

وهناك من أمثال ابن عمار ، وزير يهودى يسمى اسماعيل بن نغزالة  
اليهودى ، وكان وزيرا لبنى زيرى الصنهاجيين حكام غرناطة . ولم يحدث  
في دولة اسلامية أن صار أحد اليهود رئيسا للوزراء كما حدث في غرناطة ،  
ذلك لأن التقليد الاسلامى لا يقبل ذلك مطلقا . لكن المدينة كانت غاصة  
باليهود وكانوا كثرة حتى سميت بانها مدينة اليهود ، وكان هذا العنصر  
لا يشره الى الولاية ولا يطمع فى السلطان مثلما يفعل العرب أو البربر .  
زد على ذلك أن البربر أنفسهم لا يصلحون لتولى هذه المهمة فهم لا يفهمون  
الا فى الحرب وليسوا من أهل القلم أو من أهل الأدب ، كما أن العرب كانوا

(٦٤) ابن بلقين . مذكرات الأمير عبد الله ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(٦٥) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ ، ٨١ .

يأنفون من الخدمة تحت رئاسة أمير بربري . لذلك اتخذهُ بنو زيري وزيراً ومشيراً لهم (٦٦) .

وفي عهد هذا الوزير صارت لليهود صولة واشتد نفوذهم وكثرت أموالهم ، ولما أحس بقرب تغير نفس باديس بن حبوس ملك غرناطة عليه ، بادر بتدبير مؤامرة بالاشتراك مع ابن صمادح صاحب المرية على أن تكون للآخر غرناطة ، ويكون لليهود دولة بالمرية ، لكن بنو زيري عرفوا بالمؤامرة وقتلوا الوزير اليهودي وأجروا مذبحاً بشعة ضد بني جلدته عام ٤٥٩ هـ (٦٧)

وكانت سياسة المغامرة هذه ، والاستئثار بالسلطة والعمل للمصلحة الشخصية ، وراء النهايات المفجعة التي انتهت بها حياة معظم وزراء ذلك العصر ، مثال ذلك ابن الحديدى فى طليطلة وقتله على يد القادر ، وابن جحاف فى بلنسية وقتله للقادر ثم قتله هو نفسه على يد السيد القمبيطور ، وابن السقا مدبر حكم آل جهور فى قرطبة ثم قتله ودفنه فى مسجده الذى نهب وعطلت فيه الصلاة . وسماحة وزير الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة وصاحب المذكرات الرائعة التى سجل فيها أحداث عصره ، وقد شكّا هذا الوزير من قيام الأمير عبد الله بتسيير دفة الأمور بنفسه ، فنصحه أقرانه باشغال الأمير بالنساء ، وانتهى الأمر بعزل هذا الوزير ونفيه الى المرية (٦٨)

وهناك أيضاً ابن الريولة وزير على بن مجاهد صاحب دانية ، وقد تأمر هذا الوزير على أميره وسلم المدينة للمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، فكافأه ابن هود بأن عينه وزيراً له . ولما مات المقتدر ( ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م ) شعر ابنه يوسف المؤتمن بتأمر هذا الوزير مع الفونش السادس مقتدياً فى ذلك بابن عمار ، حتى يصير له ما صار لابن عمار من نفوذ وسلطان وأموال ، فعاجله المؤتمن بالقتل ، وهناك أيضاً الوزير الصقلبى نجاء وزير بنى حود

---

Dozy, op. cit. p. 608.

(٦٧) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

المقرى ، نفع للطيب ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

(٦٨) ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٩٩ .

ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١٣ .

الذى رام ان يقضى عليهم ويستولى على الدولة ، وكان مصيره القتل على يد  
البربر عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢ م (٦٩) .

#### هـ — انتشار العيوب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية بين أفراد الشعب :

واذا كانت هذه هى أخلاق الحكام والملوك والوزراء والموظفين فماذا  
نتوقع من جماهير الشعب المغلوبة على أمرها ؟ لا بد أنه ستسود فيها نفس  
الأخلاق والعيوب والرزائل ، والناس على دين ملوكهم كما يقولون ،  
فانتشرت الاباحية وشرب الخمر بين أفراد الشعب ، حتى كانت الخمريات  
هى أكثر فنون الشعر ذيوفا بين شعراء الأندلس ، وقد أفحش أحدهم في  
وصفها وذكرها حتى قطع الحاكم لسانه ، وكان كثير من الناس يقضون  
لياليهم أيقاظا يجتمعون على الكؤوس حتى الصباح لدرجة أن بعض من وفد  
على الأندلس من المشاركة اشتكى من عدم استطاعتهم النوم هناك . ورغم  
ما في هذا القول من مبالغة واضحة الا أنه يدل على سوء الحال (٧٠) .

اما الاباحية والرزائل الخلقية فقد انتشرت انتشارا رهيبا حتى أننا  
نرى ولادة القرطبية بنت المبتكى الأموى ، والتي عاشت عصر ملوك  
الطوائف ، وكانت أديبة لها باع طويل في الأدب والشعر ، وتقيم ندوة  
يجتمع فيها مشاهير الأدب والشعراء ، كتبت بالذهب على رداها : (٧١)

انا والله أصلح للمعالى      أمشى مشيتى وأتية فيها

وأمكن عاشقى من صحن خدى      وأعطى قبلتى من يشتهيها

وقد بلغت الاباحية والاستخفاف بالدين أو النزوع منه نهائيا ، أن  
عشق إبراهيم بن سيار النظام رأس المعتزلة في الأندلس فتى نصرانيا

---

(٦٩) ابن بلقين ، مفكراته ، ص ٧٧ ، ٧٨ ، رجب عبيد اللطيم ، المرجع نفسه ،  
ص ٩٤ ، ٩٥ .

(٧٠) ابن عبدون ، المصدر نفسه ، ص ٢٩ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج ١ ، ص ٣٦٩ .

اميليو غرسية غومس ، الشعر الأندلسي ، ص ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٢ .

(٧١) نيكيل ، مختارات من الشعر الأندلسي ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

ووضع له كتابا في تفضيل التثليث على التوحيد تقربا اليه . وهناك من مات من الشعراء لأنه لم ينل محبوبه من الفتيان . وكما يقول ابن خلدون « اذا تأذن الله بانقراض الملك من أمة ، حملهم على ارتكاب المذمومات وانتحال الرذائل وسلوك طريقها » ، وهذا ما حدث في الأندلس وأدى غيما أدى الى ضياعه (٧٢) .

كما انتشر الربا بين الناس الذين تحايّلوا على منع الزكاة ، وقاموا باحتكار السلع والمواد الغذائية حتى يثروا على حساب الغير كما أثرى غيرهم من الحكام ، وجرحهم هذا الى اتقان تزيف العملة حتى أن بعض الناس كان يشترط قبل البيع والشراء أن يكون التعامل بنقود طيبة غير مغشوشة ، مما يدل على انتشار هذا النوع من الجرائم الاقتصادية . أما الرشوة والسميرة واكل أموال اليتامى ، والتجسس والجبن والجهل والكذب وغش الأطعمة والأغذية ، وانتشار السرقات والصوصية وغير ذلك من الرذائل والعيوب الاجتماعية ، فقد انتشرت بين الناس انتشارا واسعا حتى قال بعض المعاصرين « ان تلك الحال لا يصلحها الانبى » (٧٣) .

وانعكس هذا كله في ميادين القتال بين مسلمى الأندلس ونصارى الشمال ورأينا النتيجة ، وهى أن زمام الموقف أصبح في يد قشتالة وليون ، وأن المسلمين أصبحوا مجرد سجناء فى شبه الجزيرة ولن يطلق سراهم

—————

(٧٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٢٠ ، ابن عجدون ، المصدر نفسه ، ص ٤٤٨ ، ٤٩٠ .

ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٨٢ ، السقطى ، آداب الحسبة ،

ص ٤٨ ، ٤٩ .

ابن خاقان ، مطمح الأنفس ، ص ٨٠ ، ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٤٤٦ .

(٧٣) ابن حزم ، مداواة النفوس ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

ابن عجدون ، المصدر نفسه ، ص ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٠ .

ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ .

ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ٢٥٨ ، السقطى ، المصدر نفسه ، ص ٣٦ ، ٣٧ .

الا بالموت أو بالفرار منها الى ارض أخرى . وما كان هذا كله الا نتيجة لتلك العوامل وتلك السمات التي اتسم بها عصر ملوك الطوائف ، وهى سمات لا تنطوى الا على ضعف واضطراب سياسى واجتماعى واقتصادى ، شمل الأندلس من أدناها الى أقصاها . وبذلك فشل ملوك الطوائف فى قيادة الصراع ضد نصارى الشمال ، وكانت نتيجة فشلهم هذا هو ضياع بريشتر وطليلة وغير ذلك من المدن والحصون الى الأبد ، وضياعهم هم أنفسهم بعد ذلك حينما قدم المرابطون عام ٤٧٩ هـ وراوا بأعينهم مدى التفسخ الذى أصاب هذا النظام فقضوا عليه غير آسفين انقاذا للبلاد والاسلام من الضياع .



## ثانياً — ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة

### في علاقتها بالأندلس الإسلامية في عصر ملوك الطوائف

شهد القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى انقلاباً فى ميزان القوى السياسى والعسكرى لصالح الممالك النصرانية فى شمال اسبانيا . وفى الفصل السابق وضحنا أحوال ممالك الطوائف فى الأندلس وبيننا عوامل الضعف التى جعلت تلك الممالك تدفع الجزية للملك الأسبان ، وتستعين بهم فى صراعها ضد بعضها البعض ، مما هيا الفرصة لكن تسيطر اسبانيا النصرانية على الأندلس الإسلامية حتى وصول المرابطين عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

ولا بد أن أحوال ممالك اسبانيا النصرانية كانت تسمح لها بذلك التفوق ، ولا بد أن هناك عوامل أتاحت لها تلك السيطرة . وأن من يلقي نظرة عابرة على خريطة اسبانيا النصرانية ، يظن أنها كانت ممالك منقسمة على نفسها ، وأن قشتالة وليون ونبرة وأرغونة كانت تتصارع فيما بينها طوال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى . لكن الواقع أن الوحدة كانت تجمعها طوال معظم ذلك القرن . فملك قشتالة كان ينجح فى الغالب فى ضم ليون الى مملكته — وربما يحدث العكس وتضم ليون مملكة قشتالة — ثم يسيطر سلطانه على نبرة وأرغونة . وبذلك أصبحت تلك الممالك الأربعة جبهة واحدة أمام ممالك الطوائف المتعددة المتطاحنة . وكانت هناك مملكة قطلونية ( برشلونة ) الفرنجية ، وكانت تتنافس أحيانا مع ملوك قشتالة لكنها كانت تسير فى نفس الخط فيما يتعلق بالعلاقة مع ممالك الطوائف ، فالكل كان هدفه ضرب المسلمين وإخراجهم من البلاد ، يتبين ذلك من دراستنا لأحوال ممالك اسبانيا النصرانية ولعوامل القوة والضعف التى أثرت فى علاقاتها بمسلمى الأندلس .

## (١) أحوال ممالك اسبانيا النصرانية :

### ١ — مملكة قشتالة وليون :

كانت مملكة قشتالة من قوى دول شمال اسبانيا النصرانية في نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى ، وكان يعيش في بلاطها في برغش شانجة ( سانشو ) ملك نبرة ( نافار ) ٣٩١ — ٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ — ١٠٣٥ م لأنه كان طفلا وكانت أمه من أصل قشتالى . ولما كبر ملك نبرة زوجه شانجة غرسيه أمير قشتالة من ابنته ( النيرة ) . وعن طريق تلك المصاهرة ورث شانجه ملك نبرة إمارة قشتالة بعد أن تم اغتيال آخر أمرائها غرسيه بن شانجه بن غرسيه عام ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م دون أن يترك وريثا للعرش ، وعين شانجه الكبير ملك نبرة ابنه فرديناند ( فرناندو ) حاكما لها وأسبغ عليه لقب ملك ، فكان أول ملوك قشتالة ( ٤١٩ — ٤٥٨ هـ / ١٠٢٨ — ١٠٦٥ م ) (١) .

وبذلك ولدت مملكة قشتالة ، تلك المملكة التى كان لها دور كبير في الصراع مع الأندلس الاسلامية ، لكنه لم يتهيا لها هذا الدور الا بسبب قوتها وكفاحها مع جاراتها من ممالك اسبانيا النصرانية طلبا لوحدة الجبهة النصرانية ضد مسلمى الأندلس . وكان أول عمل قام به فرديناند الأول ملك قشتالة هو ضم مملكة ليون بالقوة وتوحيد المملكتين في مملكة واحدة . وكان فرديناند قد تزوج من أخت برمند ( برمودو ) الثالث آخر ملوك ليون وجليقية ، لعله يصل الى عرشها عن طريق هذه المصاهرة كما حدث مع قشتالة ، الا أنه لم يصبر حتى يموت برمودو ، وقام على رأس قواته بمساعدة أبيه شانجه الكبير ملك نبرة ، وانتتحتها وأعلن نفسه ملكا عليها ، وفر برمند الثالث ينتظر فرصة يعود فيها الى عرشه (٢) .

(١) أشياخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١١ .

(٢) غنان ، دول الطوائف ، ص ٣٧٧ .

انظر الفصل الثانى من الباب الثانى ،

(٣) غنان ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

ولما توفي شانجه الكبير في عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، استطاع برمند الثالث أن يسترد جزءا من أملاكه ، وأن يقيم في بلاطه ، واثارت بينه وبين صهره فرديناند ملك قشتالة الحرب ، واستمرت مدى عامين . ثم تم اللقاء الحاسم بينهما في موقعة تامارون عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م ، وفيها لقي برمند مصرعه ، ونظرا لوفاته دون عقب ، فقد استولى فرديناند على مملكة ليون بحكم المصاهرة والوراثة ، وغدا ملكا في قشتالة وليون الموحدة ، وانتهى بمقتل برمند الثالث انتهاء نسل ملوك ليون وجليقية الذين استمروا يحكمون تلك المملكة منذ أن قامت في أوائل القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي (٤)

وبذلك تمت أول وحدة في التاريخ بين مملكة قشتالة ومملكة ليون التي كانت تشمل أيضا جليقية واشترس ، وصار الشمال الأسباني في منطقة الوسط والغرب تحت قيادة فرديناند . وكان هذا هو السر في تلك السياسة الناجحة التي قادها ذلك الملك ضد أعدائه من مسلمي الأندلس ، إذ أجبرهم على دفع الجزية ، واستولى على كثير من مدنها ، وتمكن بمساعدة القوى الصليبية الأخرى من إسقاط مدينة بريشتير التابعة لمملكة سرقسطة الإسلامية عام ٤٥٦ هـ ، مما سنعرض له بالتفصيل فيما بعد (٥) .

وقد أثار اتساع مملكة قشتالة على هذا النحو الحقد في نفس غرسيه ملك نبرة ، وحاول أن يغزو أخاه فرديناند ملك قشتالة وليون ، ولكنه هزم أيضا وقتل عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م ، وقام بنفس المحاولة أخوه راميرو ملك أرغونة ، لكنه هزم أيضا وقتل هو الآخر عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م وهكذا استطاع فرديناند أن يظفر في جميع الحروب التي خاضها ضد أخوته من ملوك نبرة وأرغونة ، وصار بذلك من أعظم ملوك أسبانيا النصرانية ، حتى أنه اتخذ لقب « القيصر » كي يظهر أنه أصبح سيدا لأسبانيا كلها ، وحتى يتمكن من معارضة دعوى القيصر هنري الثالث امبراطور

(٤) غنان ، المصدر نفسه ، ص ٣٧٨ .

Levermore, op. cit., 101.

(٥) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

Hole, op. cit., p. 25 ' Livermore, op. cit., p. 103

**الدولة الرومانية المقدسة في السيطرة على كل العالم المسيحي الغربي**  
ولذلك تدخل في لعبة اختيار بابا رومة ، فأيد البابا اسكندر الثاني ضد  
مناقبه هونوريوس الثاني الذي كان يؤيده امبراطور الدولة الرومانية  
المقدسة (٦) .

وبذلك لم تكف مملكة قشتالة وليون بمد نفوذها على جاراتها من  
ممالك أسبانيا النصرانية وممالك الطوائف الأندلسية ، ولكن نفوذها تخطى  
حدود شبه الجزيرة حتى وصل الى مدينة رومة ، وصارت بذلك أعظم قوة  
يحسب حسابها على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، ومن القوى المحدودة  
في أوربا الغربية . لكن فرديناند وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه  
شأنه الكبير من قبل ، وعمل قبيل وفاته على تقسيم مملكته المترامية  
الأطراف بين أولاده الثلاثة ، مما عرضها للضعف ولفترة من الحروب  
الأهلية (٧) .

فقد عقد فرديناند مجلس النبلاء والأساقفة عام ١٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م  
وفيه قرر بموافقتهم تقسيم المملكة على أن يختص أكبر أولاده شأنه بمملكة  
قشتالة وحق الجزية على مملكة سرقسطة ، ويختص أدفنش ( الفونش  
السادس فيما بعد ) بمملكة ليون وأشتريس وحق الجزية على مملكة  
طليطلة ، واختص أصغرهم غرشيّة باقليم جليقية والبرتغال في غرب ليون ،  
وحق الجزية على مملكتي اشبيلية وبطليوس ، وأعطى فرديناند حق الاشراف  
على الأديرة في سائر المملكة لابنتيه أوراكه والبيره ، وخصت أوراكه  
بمدينة سمورة الحصينة وخصت البيرة بمدينة تورنو (٨) .

وكانت قشتالة على هذا النحو أصغر في المساحة بكثير من مملكة  
ليون وأشتريس ، كما كان نصيب أوراكه والبيرة أقل بكثير مما كانا

---

(٦) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢١ - ٢٢ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٠ .  
Livermore, op. cit., p. 101.

(٧) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .

(٨) أشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .  
Livermore, op. cit., p. 103.

يستحقانه ، ومن شأن هذه القسمة الجائرة أن تفضي إلى الحرب الأهلية ، كما أن تلك القسمة فصلت مملكة ليون عن مملكة قشتالة ، وكان هذا خطأ سياسيا كبيرا من فريدناند . وقد استمر الوئام الظاهري بين الأخوة حتى مات أبوه في العام التالي ( ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ) وحتى ماتت أمهم الملكة سانشا بعد ذلك بعامين آخرين ، ثم بدأت الحرب الأهلية بين الأخوة على نحو مريع (٩) .

وكان شانجة ملك قشتالة يضطرم سخطا لأنه وهو أكبر أخوته ، لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، وكان يرى أن الولايات والممالك التي اختص بها أخوته كما لو كانت قد اغتصبت منه شخصيا ، وصمم على مهاجمة مملكة ليون وضمتها إلى قشتالة بالقوة حتى تعود الوحدة بين قشتالة وليون مرة أخرى . ونشبت بينه وبين أخيه الفونش ملك ليون حرب ضروس ، خرب توديان ليون وقشتالة ، واستمرت ثلاثة أعوام ، التحم الفريقان أثناءها في موقعتين دمويتين ، الأولى في بلانتادا Plantada في ليون ( رمضان ٤٦٠ هـ / ١٨ يولييه ١٠٦٨ م ) ، والثانية في جلبيارش أو جلبخيرة Golpejera الواقعة على نهر كاريون في قشتالة ( شوال ٤٦٣ هـ / ١٥ يولييه ١٠٧١ ) ، وتكبد شانجه خلالها خسائر فادحة وهزم القشتاليون في المعركة الأخيرة وفروا تاركين خيامهم ، وأغضى الفونش ملك ليون عن مطاردتهم حقنا للدماء (١٠) .

ترك الفونش ( الفونسو ) جنوده يحتفلون بالنصر دون اتخاذ الحيطة والحذر ، ففوجئوا بهجوم شانجة من جديد حسب نصيحة قائده السيد القمبيطور ، وأوقع بهم هزيمة ساحقة ، وتمكن من أسر الفونش نفسه ، فنزل لأخيه شانجه عن عرش ليون ، وذهب يقيم في ظلمات دير ساهاجون . وهناك استطاعت أخته أوراكة الماكرة أن تدبر أمر فراره

(٩) أنشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٢ ، ٢٤ .

(١٠) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ، أنشياخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

برفيسمال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

Livermore, op. cit., pp, 105 ' 106.

فلجأ الى ابن ذى النون صاحب مملكة طليطلة الاسلامية الذى استقبله بكل ترحاب وسرور ، واستضافه عنده حوالى ثمانية أشهر (١١) .

لم يقنع شانجه ملك قشتالة بما تم له من الاستيلاء على مملكة ليون ، بل أراد أن ينزع أخاه الصغير غرسيه عن ملك جليقية والبرتغال. منتهزا فرصة الصراع الذى كان ناشبا بينه وبين نبلاء جليقية بسبب طغيانه وسوء سيرة وزيره . وما كاد شانجه يظهر على حدود جليقية حتى بادر الجميع الى لقائه والانضمام اليه ، فقرر غرسيه وغادر المملكة سرا الى اشبيلية حيث لجأ الى ابن عباد فى أواخر عام ٤٦٤هـ / ١٠٧١ م . وهكذا تم لشانجه ملك قشتالة الاستيلاء على مملكتى أخويه الفونش وغرسيه وتوحدت قشتالة وتوليون وجليقية تحت لوائه (١٢) .

لم يبق خارجا عن سلطان شانجه سوى مدينتى سمورة وتورو اللتين تحكمهما اختاه أوراكه والبيرة . وكان شانجه يحقد على اختيه هاتين لعطفهما على أخيه الفونش ولأنه كان يخشى دسائسهما ومساعدتهما الخفية لاعادته الى عرشه ، فعول على الاستيلاء على المدينتين ، وتمكن من الاستيلاء على قلعة تورو ، لكنه سقط قتيلًا عند أسوار قلعة سمورة الحصينة على يد فارس طعنه بحربة وأرداه قتيلًا عام ٤٦٥هـ / ١٠٧٢ م ، ولم تكن هذه الجريمة بعيدة عن تدبير اخته أوراكه (١٣) .

ارتد جيش قشتالة عقب مقتل مليكه ، وبادرت أوراكه وأرسلت فى الحال الى أخيها الفونش المقيم فى طليطلة تنبئه بخلو العرش وتدعوه الى العودة بأسرع ما يمكن . وفى برغش اجتمع الأشراف وكبار رجال الدولة ، ووافقوا على تولى الفونش الحكم مكان أخيه ، على أن يقسم أنه برىء من دم أخيه ، وأنه لم يشترك بأى حال فى تدبير مقتله . فنزل

(١١) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٠ .

(١٢) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩١ ، ٣٩٢ .

(١٣) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٥ ، ٢٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٢ .

Livermore, op. cit., p. 106.

«الفونش عند رغبتهم ، وقام الفارس رديجوديث ( السيد القمبيطور )  
هائد الملك القتل ومستشاره بتحليفه اليمين بنفسه»<sup>(١٤)</sup> .

وهكذا عادت المملكة الآسيانية الكبرى الى تماسكها ووحدتها ، كما  
كانت في عهد أبيه فرديناند ، وخاصة بعد أن استطاع أن يأسر عن طريق  
«الفدر والخيانة اخاه الثالث غرسية ، الذي كان قد عاد الى ملكه  
في جليقية ، وزج به في حصن «لونا» في جمادى الثاني ٤٦٤ هـ / فبراير  
١٠٧٣ ، حيث قضى هناك بقية عمره حتى توفي عام ٤٨١ / ١٠٩٠»<sup>(١٥)</sup> .

وهكذا استطاع الفونش ( الفونسو السادس ) بالخيانة والجريمة  
والحرب أن يجمع الممالك الثلاث ، قشتالة وليون وجليقية تحت سلطانه ،  
واستطاع بعد أعوام قلائل أن يضم الى مملكته الشاسعة بعض أراضي  
مملكة نبرة الواقعة على نهر أبرة . ثم تفرغ بعد ذلك لاستئناف حركة  
الاسترداد وقتال المسلمين ، وتوج جهاد نصارى الأسبان في هذا  
الميدان باستيلائه على مملكة طليطلة أول صفر ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، رغم  
الصدقة والكرم الذي أبداه صاحبها القادر بن ذي النون لذلك الملك  
الفادر ، حينما لجأ اليه فرارا من بطش أخيه شاذجه كما سبق القول .  
وحقق الفونش بذلك حلم النصارى في استرداد عاصمتهم القديمة وأصبح  
نصف شبه الجزيرة في أيديهم ، وصار تفوق أسبانيا النصرانية السياسى  
والعسكرى على الأندلس الاسلامية أمرا ثابتا ومطردا منذ ذلك الحين ،  
واتخذ هذا الملك على التو لقب الامبراطور<sup>(١٦)</sup> .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٥١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ،  
ج ٢ ، ص ٣٣٠ .

اشباح ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، برفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .  
غان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٢ ، ٣٩٤ .

Livermore, op. cit., p. 106.

(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٥١ ، ٥٢ ، اشباح ، المرجع نفسه ،  
ص ٣٦ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٤ .

(١٦) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ،  
ج ٥ ، ص ٢٦٧ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٤ ، ص ١٨٢ .  
Livermore, op. cit., p. 106, Hole, op. cit., p. 25.

وهكذا نرى أن الأسرة النافارية القشتالية حكمت شمال أسبانيا كله ،  
وأدارت الصراع ضد المسلمين بنجاح بعد أن حققت وحدة الجبهة  
النصرانية ، ولم يكن ما قام بين أفراد تلك الأسرة من صراع على العرش  
مستمرا ، وإذا طبيعة عنصرية أو قبلية كما كان عند ملوك الطوائف ،  
فكأن يختفى بمجرد سيطرة أقوى المتصارعين ، وعادت الوحدة والقوة  
والرغبة في قتال المسلمين بأشد وأعنف ما تكون . وكانت مملكة قشتالة  
وليون المتحدة هي حجر الزاوية سواء في الدعوة إلى الوحدة أو في  
قتال المسلمين .

## ٢ - مملكة نبرة ( نافار ) :

كانت مملكة نبرة من أكبر الممالك النصرانية في شمال أسبانيا سعة ،  
إذ كانت تشمل فضلا عن الوطن الأصلي نبرة ، ولايات كنتبرية وسوبراب  
Sobrarbe وريا جورسة . وكان يحكمها في أوائل القرن  
الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، شانجة (سانشو) الثالث.  
الملقب بالكبير ( ٣٩١ - ٤٢٦ هـ / ١٠٠٠ - ١٠٣٥ م ) . وقد استطاع هذا  
الملك أن ييسط سلطانه على أسبانيا النصرانية كلها عدا إمارة برشلونة  
التي كانت تقع في أقصى الشمال الشرقي ، والتي يسيطر عليها آل برنجير  
التابعين اسميا للملك الفرنجة في فرنسا .

وكان شانجه الكبير قبيل وفاته عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م قد قسم  
المملكة بين أبنائه الأربعة . فخص أكبر أولاده غرسيه بالوطن الأصلي  
نبرة ، وخص فرديناند بشتالة وضم إليه ليون وجليقية بالقوة حسبما رأينا  
من قبل ، وخص ولده غير الشرعي راميرو برقعة ضيقة تمتد بحذاء  
نبرة من باب شيزروا جنوبا ، وتشمل أعلى حوض أبره ، وتسمى بمملكة  
أرغونة ، وهي مملكة تظهر للوجود لأول مرة وسيكون لها شأن عظيم  
فيما بعد ، وخص ولده الرابع كونزالو بمنطقة صغيرة أخرى في أواسط  
إقليم البرنات وهي ولاية سوبراب وباجورسة (١٧) .

(١٧) اشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٢ ، عناقذ ، المرجع نفسه ، ص ٢٧٨ .



وبهذه القسمة الجائرة بدأت سلسلة من الحروب الأهلية بين الإخوة الأربعة . وكان غرسيه ملك نبرة يضطرم حسداً وحقداً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بمملكة قشتالة وليون وجليقية الشاسعة ويطمح الى امتلاكها أو امتلاك جزء منها ، وغول في ذلك على الفتك والفدر بأخيه ليرقى عرش أسبانيا النصرانية كلها ويوحدها كما فعل أبوه شانجة الكبير من قبل ، وكانت الوحدة هي الضمان الوحيد لاستمرار ممالك أسبانيا النصرانية في الكفاح ضد مسلمي الأندلس ، خاصة وأن ممالك الطوائف كان الصراع قد بدأ فيما بينها ، وبدأت مظاهر انهيارها تبدو واضحة في الأفق ، وكانت فرصة تستحق أن يغامر ملك نبرة في سبيل توحيد ممالك الشمال الثلاثة نبرة وقشتالة وليون تحت سلطانه ، حتى يحقق حلم آباءه وأجداده في السيطرة على كل شبه الجزيرة .

وبدا شانجة ملك نبرة بمحاولة الفدر بأخيه فرديناند ملك قشتالة وليون ، وأوعز اليه أنه مريض وأنه على فراش الموت ويود رؤيته . لكن فرديناند اكتشف الحيلة وصمم على الانتقام من أخيه الذي نسي روابط الدم وحقوق الضيافة . ولم يفتن غرسيه الى أن أخاه قد وقف على مؤامره ، فلما دعاه فرديناند لزيارته بعد ذلك بأعوام قلائل ، ووصل غرسية الى أرض قشتالة ، تم اعتقاله وأسرته ، لكنه استطاع الفرار وعاد الى نبره ، وتحالف مع أخيه راميرو ملك أرغونة ، وزحف لمقاتلة فرديناند مرة أخرى ، ووصل داخل قشتالة الى اتاريوركا *Atapuerca* الذي يقع على مقربة من شرقي برغش عاصمة قشتالة ، حيث دارت رحى معركة انتهت بمقتل غرسية عام ١٠٤٦ هـ / ١٠٥٤ م (١٨) .

ونتيجة لهذه الهزيمة استولى فرديناند على بعض النواحي الواقعة على ضفة نهر أبرى اليمنى في منطقة ريوخة *Rioja* وبوريا *Bureba* لكنه أبقى على مملكة نبرة واعترف بابن أخيه شانجة بن غرسيه ملكا عليها باسم فيلارجه الرابع ( ١٠٤٦ - ١٠٦٨ هـ / ١٠٥٤ - ١٠٧٦ م ) . وأعلن

(١٨) أشبلاغ ، المجمع نفسه ، ط١٧ ، ١٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ط٢٨٠ .

Livremore, op. cit., p. 101.

الملك الجديد الطاعة لعمه الظاهر ، ثم لم يلبث أن عقد حلفاً مع عمه ردمير ( راميرو ) ملك أرغونة في عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، خوفاً على مملكته من أطماع عمه فرديناند ، وأن كان هذا الحلف موجهاً في الظاهر ضد مسلمي الأندلس ، واستطاع شانجه الرابع أن يستفيد من الصراع بين عميه ردمير وفرديناند في الإبقاء على مملكته ( نبرة ) ، رغم ما أبداه فرديناند من محاولة السيطرة على لقب «القيصر» للدلالة على سيادته على جميع أسبانيا النصرانية<sup>(١٩)</sup> .

ثم تعرض شانجة الرابع ملك نبرة مرة أخرى الى أطماع ابن عمه شانجة ، الذي خلف أباه فرديناند في حكم قشتالة عقب وفاته عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م . وكان ملك قشتالة الجديد يرى أن يأخذ مكانة والده ، وأن يصير إمبراطوراً لكل أسبانيا النصرانية حتى تتاح له فرصة المساهمة في الكفاح ضد ممالك الأندلس المتناحرة . ورأى هذا الملك أن يبدأ بابنى عميه شانجة الرابع ملك نبرة ، وشانجة الأول ملك أرغونة . فتحالف هذا الملكان ضده وهزمه في موقعة فيانا عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م ، واضطر ملك قشتالة أن يوجه أطماعه شطر مملكة ليون حسبما تقدم ، وبذلك نجت نبرة من أطماعه<sup>(٢٠)</sup> .

استمر شانجة الرابع ملكاً على نبرة اثنين وعشرين عاماً . وفي عهده توطد مركز الملكة بين جاراتها ، وأقر المقتدر بن هود ملكاً لسرقسطة وأن يدفع له الجزية في عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م ولم يمض على ذلك بضعة أعوام حتى قتل شانجه الرابع عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م في كمين غادر دبره له أخوه ريموند وأخته أرمزنده ، أسوة بما فعله الفونش السادس وأخته أوراكه بأخيها شانجه ملك قشتالة . وغضب الشعب لهذه الجريمة وقرر حرمان ذلك القاتل من تولى عرش نبرة ، واستدعى شانجه راميرز ملك أرغونة ليعتلى العرش بدلاً منه<sup>(٢١)</sup> .

(١٩) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٨ - ٢٢ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨١ .

(٢٠) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٩ .

(٢١) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٥ .

Livermore, op. cit., p. 156.

ونتيجة لذلك استغاث ريموند بالملك الفونش السادس ملك قشتالة وليون كي يعينه على تولى عرش نبرة . فسار الفونش الى نبرة من ناحيتها الغربية ، وسار اليها شانجة راميرز من ناحيتها الشرقية ، وتفاهم الملكان على اقتسامها وحرمان القاتل وكذلك ولدى القتل من تولى العرش . واستولى الفونش على القسم المحاذي لنهر ابره المشتل على ولايتي بربوبا وبسكوينا ، واستولى شانجة راميرز على الجزء الواقع في منطقة البرنات ، وفيه العاصمة نبلونة . وفر ريموند القاتل الى أمير سرقسطة حيث قضى هناك بقية عمره في غمرة النسيان<sup>(٢٢)</sup> .

وبذلك اختفت مملكة نبرة المستقلة الى حين بعد أن استطاعت أن تنفرد عن استقلالها ضد اطماع ليون وقشتالة عصورا باصرار وبسالة . ولم تؤد دورها في الصراع ضد ممالك الأندلس في تلك الفترة كما ينبغي بسبب المنافسة التي نشبت بينهما وبين مملكة قشتالة على تبوأ مركز القيادة والزعامة لكل انحاء اسبانيا النصرانية . وأدى اختفاؤهما في الوقت نفسه الى نمو مملكة أرغونة واتساع رقعتها اتساعا كبيرا ، مما مكها من أن تسقط مملكة سرقسطة الاسلامية ، وأن تلعب دورها العظيم في توحيد الجبهة النصرانية ، وقيادة الكفاح ضد مسلمي الأندلس<sup>(٢٣)</sup> .

### ٣ - مملكة أرغونة Aragon : (٢٤) :

ظهرت تلك المملكة لأول مرة كما أشرنا من قبل نتيجة لتقسيم المملكة الذي قام به شانجه الكبير على أولاده عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م وكانت تلك

(٢٢) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

(٢٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، عنان ، المرجع نفسه ،

ص ٤٠٦ .

(٢٤) كلمة Aragon عريبها للعرب على وجهين ، الأول ( أرجون ) ، والثاني ( أرغون أو أرغونة ) . وليس هناك مجال للخط بين أرغونة الدولة وبين مدينة أرجونة لمجرد التشابه اللفظي . فان أرجونة بلد ناحية جيان بالأندلس أي في النصف الجنوبي من اسبانيا . أما أرغونة فهي أقصى النصف الشمالي منها ، إذ تتصل حدودها الشمالية بجبال البرانس من غير فاصل . وأرغونة في الأصل اسم نهر ينحدر من تلك الجبال ويصب في نهر ابره ،

الملكة الصغيرة من نصيب ابنه غير الشرعى رديمير (راميرو) (٢٦٦) — ٤٥٦ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٦٣ م). وما لبث أن اتسعت مملكة أرغونة باتحادها مع مملكة أو إمارة سوبراب الصغيرة بعد اغتيال ملكها كونزالو في كمين دبره أحد أتباعه عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م، واختار أهلها ملك أرغونة ليخلفه في حكم المملكة. وبذلك صارت سوبراب وأرغونة مملكة واحدة، فزادت قوتها، ولم يعارض تلك الوحدة أحد من أخوة راميرو، إذ كانوا مشغولين بتنظيم شئون ممالكهم<sup>(٢٥)</sup>.

ولم يقنع رديمير ملك أرغونة بالاستيلاء على ولاية سوبراب، بل أخذ يطمح إلى الاستيلاء على مملكة نبرة نفسها وتحالف مع ابن هود ملك سرقسطة لكن يمدّه ببعض قواته، وزحف رديمير إلى نبرة واقتحم حدودها فجأة، ولكن قلعة تافالا اعترضت سيره المظفر، وانقض عليه أخوه غرسية بجيشه فجأة، فانهزم جيش أرغونة ولم يتمكن رديمير من الخلاص إلا بصعوبة، وفر ناجياً بنفسه، وأبىد معظم جيشه عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م على الأرجح<sup>(٢٦)</sup>.

ونتيجة لهذه المعركة الخاسرة فقد رديمير معظم مملكته، واضطر إلى أن يلجأ إلى شعب الجبال الوعوة في ريباجورسة وسوبراب، وقضى هناك بضعة أعوام في تنظيم شؤونه والنهوض من عثرته، وأنشأ جيشاً جديداً استطاع به أن يسترد كل أراضيه، وتحالف بعد ذلك في عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م مع أخيه وعدوه القديم غرسية ملك نبرة حينها

---

فسمى واديه الأعلى باسمه الذى سرى فيها بعد على الأراضى الفسيحة والولايات الكبيرة التى انضمت الى هذا الوادى، وتآلفت منها مملكة أرغونة وامكتبت من جبال البرانس شمالا الى جبال كوناكا Ucaña جنوباً، ثم الى بلنسية شرقاً، غير انها لم تلبث على مر الأجيال أن تجزأت الى ولايات ومقاطعات، نذكر منها مقاطعة وشقة ومقاطعة سرقسطة وغيرها. انظر، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، ص ٣٧.

(٢٥) أشباخ، المرجع نفسه، ص ١٣.

عنان، المرجع نفسه، ص ٣٧٨، ٣٧٩.

(٢٦) أشباخ، المرجع نفسه، ص ١٤.

عنان، المرجع نفسه، ص ٣٧٩.

ساعات العلاقات بين غرسية هذا وأخيه فريدناند ملك قشتالة وليون .  
وانضم للحليفين ابن هود ملك سرقسطة ، لكنهم هزموا قرب برغش ،  
وقتل غرسية ملك نبرة عام ٤٦٨هـ / ١٠٧٦ م (٣٧) .

لم ينس ردمير هزيمته أمام أخيه فريدناند ملك قشتالة ، وصمم على  
الانتقام منه ، وتحالف مع ابن أخيه الذي حل محل أبيه في حكم نبرة ،  
را لخورنه من ازدياد قوة فريدناند ، فقد عقد مؤتمرا في مدينة جاقا  
٤٥٣هـ / ١٠٦٠م ووضع نفسه تحت حماية بابا رومة ، ثم بدأ  
بحرش بأخيه وانتهاز فرصة غيابه لغزو اشبيلية ، وسار لمهاجمة حلفائه  
من المسلمين الذين كانوا يدفعون له الجزية . فأرسل فريدناند جيشا  
قشتاليا زحف على قلعة جرادوس التي كان يحاصرها الأرغونيين ، ونشبت  
بين الفريقين معركة على مقربة من تلك القلعة ، انتهت بهزيمة ردمير  
ومقتله عام ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م ، فتولى ابنه شانحة عرش أرغونة ( ٤٥٥ —  
٤٨٧هـ / ١٠٦٣ — ١٠٩٤م ) ، واستطاع بمؤازرة شعبه أن يحمي حدود  
مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء (٣٨) .

ونتيجة لتطور الصراع بين مملكة نبرة ومملكة قشتالة وليون حسبما  
تقدم ، استطاعت مملكة أرغونة أن تزيد من مساحتها وقوتها ، واستولت  
على أجزاء من نبرة حينما تم اقتسامها بينها وبين مملكة قشتالة ، فامتدت  
مساحة أرغونة وبدأت تلعب دورها التاريخي في تلك المنطقة ، وقدر لابن  
شانجه وهو الفونشش الأرغوني المعروف بالفونشش المحارب ، أن يتزوج  
من أوراخه ، به الفونشش السادس ملك قشتالة وليون ، وأن يرث تلك  
الممالك الواسعة بسبب هذه المصاهرة . وبذلك تمكن من أن يحكم سائر  
الممالك الأسبانية ويوحدها تحت لوائه ، ويفقد من أعظم ملوك أسبانيا  
النصرانية (٣٩) .

(٣٧) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ .

(٣٨) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٨ — ٢٠ .

(٣٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٧ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٦ .

لكن هذا الصراع الذى نشب بين مملكة أرغونة منذ نشأتها عام ٤٢٦هـ ١٠٣٥ م ، وبين مملكة نبرة ومملكة قشتالة وليون ، لا شك أنه لم يمكنها من أن تلعب دورا مؤثرا ضد ممالك الطوائف الأندلسية ، وهذا ما يفسر سر التحالف الذى تم أحيانا بين أرغونة وبين سرقسطة ، كما يفسر سر بقاء سرقسطة رغم سقوط معظم الممالك الإسلامية المحيطة بها فى يد نصارى قشتالة وليون .

ومع هذا لم تنس مملكة أرغونة دورها كقوة نصرانية ضد مسلمى الأندلس بوجه عام ، إذ أنها اشتركت مع قشتالة وليون وسائر الممالك النصرانية فى موقعة الزلاقة ضد مسلمى الأندلس والمرابطين معا عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦ م . وهذا معناه أن الصراع بين أفراد الأسرة النافارية القشتالية على السلطان فى مختلف ممالك إسبانيا النصرانية لم يكن عائقا للكفاح ضد مسلمى الأندلس كما اثرتنا من قبل ، إذ أن هذا الصراع كان لا يلبث أن ينتهى وتستقر الأمور ، وتعود الوحدة ، وتعود معها القوة والرغبة فى استئناف حركة الاسترداد من جديد .

هذا هو السر فى انتصار نصارى الشمال على مسلمى الأندلس وسقوط بريشتر فى أيديهم وفى أيدى القوى الصليبية الأخرى عام ٤٥٦هـ / ١٠٩٣م ثم سقوط طليطلة بعد ذلك فى أيديهم عام ٤٧٨هـ / ١٠٨٥ م . إذ أن نصارى الشمال كانت تسودهم وحدة الصف فى تلك الأثناء . وكان من حسن حظ الأندلس الإسلامية وقبوع الخلافات بين ملوك إسبانيا النصرانية بعض الوقت خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، عقب وفاة شانجة الكبير عام ٤٢٦هـ / ١٠٣٥م ، وفريدناند عام ٤٥٨هـ / ١٠٦٥م ، وقيام الصراع بين أولاد كل منهما على السلطان .

وقد أطل ذلك الصراع عمر ممالك الطوائف وأعطاهما الفرصة للأسف للتناحر فيما بينهما ، وليس للوحدة والتضامن كما كان يفعل ملوك إسبانيا النصرانية ، وبذلك لم يستفد ملوك الطوائف مما وقع بين ملوك إسبانيا النصرانية من نزاع . وكان ملوك الأسبان هؤلاء ، أذكى منهم بكثير إذ أنهم كانوا يتقاتلون فيما بينهم حتى ينتصر اقواهم ثم لا يبلثون جميعا أن

يسخروا قواهم لضرب المسلمين وتشتيت قواهم واستنزاف أموالهم والسيطرة  
على بلادهم .

#### ٤ — اماره برشلونه : ( قطلونية ) :

كان يحكم هذه الامارة آل بوريل في اوائل القرن الخامس الهجرى /  
الحادى عشر الميلادى . ويبدو انه كان هناك تنافس بين برشلونه وبين  
قشتالة وليون على السيادة والسيطرة على مسلمى الأندلس . اذ ان كلا  
منها كانت تساعد فريقا من المسلمين المتنازعين على الخلافة الأموية  
في ذلك الوقت ضد الآخر . ولم يمنع هذا التنافس من أن تكون اماره  
برشلونه ( قطلونية ) عوناً لأسبانيا النصرانية في صراعها ضد مسلمى  
الأندلس ، وخاصة في عهد أميرها الكونت برنجار رامور الأول ( ٤٠٩ —  
٤٢٧ هـ / ١٠١٨ — ١٠٣٥ م ) وابنه رامون برنجار ( ٤٢٧ — ٤٦٩ هـ / ١٠٣٥ —  
١٠٧٦ م ) (٣٠) .

وقد استطاع رامون ( ريموند ) أن يزيد من قوة امارته ، بأن ضم  
اليها ولاية أرقلة وولاية سرطانية ، ثم ولاية قرقشونه الواقعة في الناحية  
الأخرى من جبال البرنات ( البرانس ) عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧ م . وكان لضم  
هذا الجزء الهام من أراضى اقليم لانجدوك الفرنسى الى قطلونية نتيجة  
هامية ، وهى اعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية بعد أن انقطعت منذ  
استقلال قطلونية ، والتمهيد بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المغامرين  
الذين تحدوهم روح صليبية الى أسبانيا ، والالتحاق بالجيوش النصرانية  
هناك لمقاتلة المسلمين (٤٠) .

وقام رامون أيضا بعدة اصلاحات جعلت قطلونية مثالا يحتذى  
في شمال أسبانيا النصرانى ، اذ أنه عقد مجلسا من النبلاء في برشلونه عام

(٣٠) ابن خلدون ، العبر ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٧ ، أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ .

(٣١) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ و ٢٩ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٧ .

٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأصدر هذا المجلس أو البرلمان قانونا جديدا ينظم الحياة الداخلية ، يسمى « بعرف برشلونة » Usages de Barcelona .  
 يطبق الى جانب القانون القوطى . كما عقد مجلسا آخر اقر فيه عدة قرارات لصالح الكنيسة وصالح الفلاحين وحمايتهم من ظلم الأقوياء ، ولم يلبث رامون أن توفى وخلفه ولداه برنجار الثانى وريموند الثانى فى حكم الامارة معا ، وفقا لوصيته . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بينهما ، وانتهى الأمر بالاتفاق على أن يتسمى كل منهما بكونت برشلونة وأن يتناوبا الحكم كل شتة اشهر . لكنه فى عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م قتل ريموند الثانى غيلة ، وحكم أخوه برنجار الامارة منفردا ، بالأصالة عن نفسه ، وبصفته وصيا على ابن أخيه القاصر<sup>(٤١)</sup> .

وقد لعب امراء برشلونة فى ذلك الوقت الدور الذى لعبه معظم ماوك أسبانيا النصرانية فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض ، وفى مساعدتهم ضد أعدائهم من نصارى الشمال ، وذلك فى مجال المنافسة الذى كان قائما بين برشلونة وغيرها من ممالك أسبانيا النصرانية . ولكن برنجار أمير برشلونة ايمانا منه بمعركة النصارى الكبرى ضد المسلمين ، اشترك مع قوات الفونس السادس فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، الى جانب ملوك النصارى الآخرين فى أسبانيا ، لأن الجميع كانوا يؤمنون بأنهم يتاملون فى معركة صليبية عامة<sup>(٤٢)</sup> .

استمر الكونت برنجار الثانى أو ( برنجر ) فى حكم امارة برشلونة حتى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م ، ثم ترك الحكم لابن أخيه الفتى ريموند الثالث ( ٤٨٥ — ٥٢٥ هـ / ١٠٩٢ — ١١٣١ م ) وسافر حاجا الى المشرق . وحكم هذا الفتى تحت حماية الفونش السادس ملك قشتالة وليون ، وتزوج من ابنة السيد القمبيطور وكان يلقب بالبرشلونى وأبدى فى محاربة مسلمى الأندلس والمرابطين مهارة فائقة ، خلدت اسمه فى التاريخ<sup>(٤٣)</sup> .

(٢٢) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ . غنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٨ .

(٢٣) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٤٤ . غنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٨ .

(٢٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .



وهكذا يتبين لنا انه في الوقت الذي كانت الممالك الاسلامية في الأندلس غارقة حتى اذنيها في بحار الخلافات والأحقاد والحروب كانت الممالك النصرانية في الشمال الأسباني تتجاوز كل خلافاتها باستثناء بعض الحروب الأسرية بسبب النزاع على العرش ، ثم لا تلبث أن توحد قواها وتلم شعثها لتحقيق الهدف الأكبر ، وهو طرد المسلمين من شبه الجزيرة .

## ب - عوامل القوة والضعف :

يتضح لنا من هذا العرض السريع لأحوال ممالك اسبانيا النصرانية أن هناك عوامل قوة وعوامل ضعف أثرت كل منها في موقفها من ممالك الطوائف وعلى علاقاتها بهذه الممالك . وكانت عوامل الضعف هي ما أشرنا اليه من صراع ملوك اسبانيا النصرانية فيما بينهم على السلطان ، لكن مسلمي الأندلس لم يستفيدوا من هذا الصراع كما سبق القول بسبب التناحر فيما بينهم ، وضعفهم واستعانتهم بنصارى الشمال لمقاتلة بعضهم البعض . وبذلك ضاعت على المسلمين فرصة كان يمكن أن ينتهزوها ليوحدوا جبهتهم ويستردوا ما فقدوه ، لكنهم للأسف لم يفعلوا .

أما عوامل القوة في ممالك اسبانيا النصرانية فكانت أكثر فعالية وأبقى دواما واستمرارا من عوامل الضعف ، وهيأت لنصارى الشمال الفرصة لفرض سيطرتهم على شبه الجزيرة كلها ، حتى قدوم المرابطين عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م . وهذه العوامل تكمن في ازدياد قوة الملكية ، وضعف طبقة النبلاء ، ودور الكنيسة الأسبانية والبابوية في اذكاء الحروب الصليبية على أرض شبه الجزيرة .

### ١ - ازدياد قوة الملكية :

نبع ازدياد قوة الملكية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي من أن ممالك اسبانيا النصرانية أصبحت تحكمها أسرة واحدة هي أسرة شانجة الكبير ملك نبرة الذي توفي عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م ، بينما كانت

تلك الممالك في القرن الرابع تحكمها ثلاث أسر متفصلة ، واحدة في نبرة ،  
والثانية في قشتالة ، والثالثة في ليون ، بالإضافة الى برشلونة التي كان  
يحكمها آل برنجار من قبل ملوك فرنسا . وراينا ان هذه الأسرات كانت  
تعيش في حالة من الصراع والتناحر ، فكانت قشتالة تصارع جارتها نبرة  
وليون حتى تفوز باستقلالها عنهما ، مما مكن الخلافة الأموية طوال القرن  
الرابع الهجري / العاشر الميلادي من الضغط بعنف على ممالك الشمال  
النصرانية واجبارها على الاستسلام ودفع الجزية .

اما في هذا القرن ( الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ) فقد  
حكمت تلك الممالك ، أسرة واحدة من أصل نافاري قشتالي ، استطاعت  
ان توحد ممالك الشمال وتخضعها لسيطرتها وتقود الكفاح ضد دول الطوائف  
المتهاكمة بعنف وشراسة بالغة ، حتى أخضعتها وأجبرتها على دفع الجزية ،  
وانقلب ميزان القوة كما قلنا لصالح أسبانيا النصرانية . وكانت وحدة  
الجهة الصرانية مستمرة معظم ذلك القرن تحت حكم أشهر ملوك هذه  
الأسرة النافارية ، مثل شانجة الكبير ( ٣٩١-٤٢٦ هـ / ١٠٠٠-١٠٣٥ م )  
ملك نبرة ، الذي استطاع ان يوحد نبرة وقشتالة ، ويخضع ليون لسلطانه  
عن طريق المصاهرة . ومثل ابنه فرديناند ( ٤٢٦-٤٥٧ هـ / ١٠٣٤-١٠٦٥ م )  
الذي استطاع ان يوحد بين قشتالة وليون وجليقية ، وان يخضع نبرة  
وأرغونة لسلطانه بعد فترة من الحروب الأهلية . وقام الفونس بن فرديناند  
( ٤٥٧-٥٠٢ هـ / ١٠٦٥-١١٠٩ م ) بنفس العمل واعاد الوحدة الى  
المملكة كما سبق القول بعد فترة من الحروب الأهلية ايضا .

هذا في الوقت الذي كانت تحكم الأندلس الاسلامية ست وعشرون  
أسرة ، أبرزها أسرة بنى عباد في أشبيلية وبنى ذى النون في طليطلة ،  
وبنى هود في سرقسطة وبنى الأنطس في بطليوس ، وبنى حمود في مالقة ،  
وبنى زيرى في غرناطة . وكان أكثر تلك الأسر التي تعرضت لضغط مملكة  
أسبانيا النصرانية ، هي التي تحكم مناطق الثغور في بطليوس وطليلة  
وسرقسطة ، بحكم اشتراكها في الحدود مع نصارى الشمال . وكانت هذه  
الممالك الثلاث تتنافس للأسف فيما بينها ولا تتوانى عن القتال ضد بعضها  
البعض وتستعين في ذلك بنصارى الشمال ، حتى ضعفت وأصبحت تمد لهم  
يدا بالطاعة ، ويبدأ أخرى تحمل الجزية .

وليس معنى ذلك أن أسرة شانجة الكبير وأولاده وأحفاده الذين حكموا الممالك الأسبانية طوال ذلك القرن لم تقع بينهم خلافات أو حروب ، فقد شهد هذا العصر حروباً شديدة نشبت بينهم لا تقل في غفها عما كان موجوداً بين ملوك الطوائف ، واستخدمت فيها شتى الأساليب وأخط الوسائل ، من تأمر وخيال وغش وقتل ونفى واعتقال وحروب ، ويكفى أن ثلاثة من أولاد شانجة الكبير الأربعة سقطوا صرعى في حروبهم ضد بعضهم البعض ، بينما ابنه الرابع فرديناند الذي أعاد الوحدة إلى المملكة تنازع أولاده الثلاثة أيضاً بعد وفاته ، فقتل أحدهم وسجن الثاني حتى مات وهو يرسف في أغلاله .

وهذا دليل واضح على حدة الصراع بين أبناء الأسرة الواحدة ، وهم في ذلك لا يختلفون كثيراً عن ملوك الطوائف في صراعمهم وأحقادهم ، لكن صراعات هؤلاء النصارى كانت صراعات أسرية ، معظمها أن لم تكن كلها بسبب النزاع على العرش والسلطان ، لأن هذا الأخ أخذ مملكة أكبر من أخيه ، ولأن ذلك أكبر سناً من أخيه وكان يستحق أن تكون له معظم المملكة . فكانت تنشب الحرب بين الأخوة بسبب ذلك ، لكنها لا تلبث أن تنتهي بهزيمة أحد الطرفين واستسلامه لأخيه ودخوله في طاعته أو بقتله أو بنفيه . وعلى أى الحالات كانت السكينة تعود إلى البلاد ، وتعود معها الوحدة وتعود معها القوة والرغبة في استئناف حركة الاسترداد من جديد .

أما في دول الطوائف فكانت الحروب مستمرة فيما بينهم ولم يكن هناك من يعمل لتوحيد الصف الإسلامى ، وانطلقت دعوة خافطة من بنى حمود العلويين وبنى جهور لإعادة الوحدة بين هذا الشتات من دول الطوائف ، لكنها لم تؤد إلى نتيجة ، ولم يكلف أمراء المسلمين أنفسهم مشقة الاستماع لها ، وقال قائلهم « أحق الناس بالملك من استقل به » (٤٤) .

كان نصارى الشمال يحاربون بعضهم حتى يحققوا الوحدة لبلادهم ، ويقضوا على مظاهر الانفصال الذى كان يوقعهم فيه نظام وراثة العرش الذى كان يلزم الملك بتقسيم المملكة على أبنائه قبل وفاته ، تجنباً لأى نزاع

(٣٥) ابن بسام ، الفخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

قد يحدث فيها بينهم في المستقبل ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي في النزاع كما رأينا عند دراستنا لأحوال ممالك أسبانيا النصرانية . أما في دول الطوائف الإسلامية ، فكانوا يتقاتلون ليس لتحقيق الوحدة كهؤلاء النصارى ، ولكن بهدف التوسع على حساب الغير . كانت الأطماع والأحقاد والشهوات والتنافس والحسد تهاً نفوس الجميع ، وكل منهم كان لا يتمنى إلا أن يقضى على جاره ويفوز بملكه ، ويستعين في ذلك بنصارى الشمال .

ورغم حروبهم الكثيرة لم يصلوا الى أى نوع من أنواع الوحدة لأن عدد ممالكهم كان كبيراً ( ٢٦ مملكة ) . ولا يمكن للقوة المحدودة لكل منهم أن تغلب على هذا العدد الكبير من الممالك وتحقق الوحدة لهذا الشتات . فضلاً عن أن معظم تلك الممالك كانت وحدات اقتصادية لها حدود طبيعية وتقع وسط مناطق زراعية مستقلة ، ويمكنها أن تعتمد على نفسها وتعيش مدة قد تطول أو تقصر حسبما تتعرض له من تهديد جاراتها . وهذا بالطبع لم يكن موجوداً في الشمال الأسباني . صحيح أنه كان يتكون من أربع ممالك ، ليون وقشتالة ، ونبرة ، وأرغونة ، وبرشلونة ، إلا أن هذه الممالك كانت تحت سيطرة أسرة واحدة ، عدا إمارة برشلونة ، وكانت تقع بينهما الحروب أحياناً لكنها كانت تتحد في جبهة واحدة ضد مسلمي الأندلس ، كما أنها لم تكن مناطق جغرافية منفصلة ، ولم تكن وحدات اقتصادية يمكن أن تعيش بذاتها مثل دول الطوائف ، وإنما كانت عبارة عن أقاليم قاحلة فقيرة التربة قليلة المياه صعبة المناخ ، تجمع بينها حرفة الرعى ، ويندر فيها تنوع الغلات والمحاصيل ، ولذلك لم يكن في إمكان أى واحدة منها أن تعتمد على نفسها وأن تستقل بشؤونها طويلاً ، فكانت تميل الى الوحدة مع جاراتها بحكم ظروفها الطبيعية والاقتصادية . فإذا أضفنا تلك الحقيقة الى كون أن ممالك أسبانيا النصرانية كانت تحكمها أسرة واحدة أدركنا على الفور مدى القوة التي تمتعت بها الملكية الأسبانية في ذلك الوقت ، مما أتاح لها فرصة التفوق على ممالك الطوائف المتعددة المتناحرة (٤٥) .

أما الدعامة الثانية التي كان يستند عليها نظام الحكم في دول أسبانيا النصرانية بجانب الملكية فهي طبقة النبلاء ومدى خضوعهم للعرش أو تمردهم عليه . وقد رأينا في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي وفي ظل الأسرات الثلاث الحاكمة في نبرة وقشتالة وليون ، مدى النفوذ الواسع الذي تمتع به النبلاء في ذلك العصر ، ويكفي أن أحدهم وهو الكونت فرنان جونثالث ، أقام دولة قشتالة ، واستطاع أن يفرض شخصيته ونفوذه على جاريه ملكي نبرة وليون ، بل أنه كان بحق كما سماه ستانلي ليون بول « صانع الملوك » (٤٦) .

هذا في ظل الأسرات الثلاث . أما في ظل الأسرة الواحدة التي حكمت شمال أسبانيا النصرانية في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ، فقد أصبح الوضع مختلفا . كان النبلاء في السابق يستطيعون أن يضربوا الأمراء والملوك بعضهم ببعض ، ويستطيعون أن يقدموا خدماتهم لملك آخر إذا لم ينالوا ما يبتغون من ملكيهم ، وكثيرا ما تأمروا على ملوكهم وفرضوا من يرضونه للعرش . أما الآن وبعد أن أصبح حكم الشمال كله في يد أسرة واحدة فقد تم القضاء على نفوذهم إلى حد كبير .

ونظرا للسلطات الضخمة التي كانت في يد النبلاء ، فقد استعان ملوك الأسبان برجال الدين الأقوياء وبالمخلصين من الشعب وأصحاب الاقطاع ، واستطاعوا الحد من هذه السلطات إلى حد كبير ، كما قاموا بعدة اصلاحات مدنية وكنسية ، كان لها أثر كبير في اضعاف نفوذ هذه الطبقة . فقد ألغى الفونش ( الفونسو ) السادس « حق القوة » . وهو العرف الذي كان يسمح للقوى بأن يقتضى بنفسه ، وبالعنف ، ما يزعم أنه حق له ، وفرض على الدوقات والقوامس أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم دون تمييز أو محاباة ، وحقضى بذلك على نشاط بعض النبلاء الذين كانوا أحيانا يمارسون عمليات

(٣٧) لعين بول : قصة العرب في أسبانيا ص ٢١٥ .

للصوصية ، كسرقة التجار والمسافرين والعجاج تحت دعوى المتوسر والضرائب (٤٧) .

كما عقد ملوك الأسبان عدة مجالس Cortes تشبه المجالس النيابية الآن ، من الأشراف والأساقفة ، والزم الأشراف أم النبلاء بتحري العدالة وفقا لأحكام الشرائع القوطية ، وأن تطبق في مملكة ليون قوانين الفونسو المسماة « القوانين الطيبة » Buens.Fueros وفي مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو المسماة Bene.Factorias ، وأن يقضى على المجرمين والعصاة من النبلاء وغيرهم بفقد الشرف والمناصب وبالطرد من الكنيسة وبالنفى من البلاد (٤٨) .

وقد أدت تلك الإصلاحات والقوانين الى اضعاف شأن طبقة النبلاء ، ولم يعودوا مصدر خطر على الملوك كما كانوا في العصور السابقة . وزاد من ضعف هذه الطبقة ما حدث بينهم من انقسام وأحقاد . ذلك أن ظروف الصراع المستمر مع المسلمين ، وصراع الأخوة من ملوك أسبانيا النصرانية على العرش ، أجبرهم على الاستعانة بأولاد المزارعين وصفار الناس ، ورفعهم الى مرتبة « الفارس » فتحولوا الى نبلاء . وكان النبلاء القدامى الذين كانوا يرثون النبالة عن آبائهم وأجدادهم يحتقرون هؤلاء النبلاء الجدد ويعادونهم ، ويعملون على القضاء عليهم ، فضلا عما كان يوجد من عدااء بين نبلاء كل مملكة وأخرى . فعندما يرتفع شأن مملكة ، كان يرتفع شأن نبلائها ، وينخفض شأن نبلاء الممالك الأخرى . ومن هنا كانت ثور الأحقاد والعداوات . وكان الملوك يحاولون أن يقللوا من هذه الأحقاد ، حتى لا تكون عائقا في سبيل الوحدة وفي سبيل الكناح ضد مسلمي الأندلس (٤٩) .

(٣٨) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٣٥ ، عثان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٣ .  
Livermore, op. cit., pp. 61-63.

(٣٩) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٦ ، عثان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٤٠) د. حسين مؤنس ، السيد القهبيطور ، ص ٤١ ، ٤٢ .

وعلى سبيل المثال ، فقد حدثت عند اعتلاء الفونش السادس عرش قشتالة ، إن علا نجم طبقة الأشراف الليونيين ، لأن الفونش كان ملكاً على ليون قبل أن يحكم المملكة الموحدة ، وثار الأحقاد بينهم وبين أشراف قشتالة . فبذل هذا الملك محاولة لإقامة الصلح بين أشراف ليون وقشتالة ، بيان قام بتزويج فارسه السيد القمبيطور من نبيلة قشتالية حفيدة لألفونس الخامس ملك ليون الأسبق ، وابنة عم الملك الجالس على العرش (٥) .

وهكذا تعاونت العوامل التي أشرنا إليها حتى الآن على إضعاف نفوذ طبقة النبلاء ، مما مكن الأسرة الحاكمة في إسبانيا النصرانية من أن تسيطر عليهم إلى حد كبير ، وأن توجههم إلى خدمة القضية الكبرى ، وهي استرداد الأرض ، وكان ذلك عاملاً قوة يحتسب لأسبانيا النصرانية في تلك الفترة ، مكنتها من إدارة الصراع ضد مسلمي الأندلس بنجاح .

### ٣ - دور الكنيسة الأسبانية والبابوية في الصراع مع مسلمي الأندلس :

وكانت الهيئة الثالثة التي كان لها وزنها في حساب عوامل القوة في تاريخ الشمال النصراني في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي

(٤١) جيوفنسال ، المرجع نفسه ، ص ١٧٩ .

Rodrigo

والسيد القمبيطور ، اسمه الأصلي رديجوديث دي بيفار

Diazde Vivar ، وتسميه المصادر الإسلامية لخريق أو رزريق ، ويرجع تلقيبه بلقب كمبيطور

Campeador إلى فروسيته التي ظهرت في مباراة عنيفة مع فارس نافاري . وحاول

دويز أن يفسر هذا اللفظ بأنه البطل Champion ، لكن ابن عذاري يقول إن

القمبيطور معناه « صاحب الفحص » واستنتج من ذلك الدكتور حسين مؤنس أن لفظ Campeador

ماخوذ من Campus وهو الفحص ، ويقابل هذا اللفظ في اللاتينية Cmapidoctus

ومعناه قائد الغارات في بلاد الإغناء بينما يقول ( ترند ) أن القمبيطور معناه البطل باللغة

القشتالية ، وهو في هذا يتفق مع دويز . ويبدو أن هذا هو الرأي السليم لأن القمبيطور

لم يكن صاحب عصا أو منطقة اقتطاع بحكمها ، لأنه كان من النبلاء الأصغر ، ولم يكن الاقاربا

من فرسان الملك . ولما ظهر نبوغه وشجاعته جعله فارس الجيش . أما لفظ ( السد أو السيد )

فقد أتى من مناداة المسلمين له « يا سيدي » عندما كان يخدم في جيوشهم ، وانتقل هذا اللفظ

إلى اللغة الأسبانية El God انظر ، حسين مؤنس ، السيد القمبيطور ، ص ٤٤ .

هي الكنيسة الأسبانية ، وتطور موقف البابوية وازدياد تنسظها في شئون أسبانيا الدينية ، ومساعدتها لها في حربها ضد مسلمى الأندلس .

ومن المشكوك فيه أنه كانت توجد علاقة قوية بين أسبانيا النصرانية والكرسي الرسولي بعد سقوط أسبانيا في يد موسى بن نصير وحتى بداية القرن الخامس الهجري . إذ انشغلت البابوية في روما بصراعها على السلطة الزمنية مع ملوك أوربا ، وانشغل الأسبان في صراعهم ضد مسلمى الأندلس . لكن تغير ذلك كله في القرن الخامس الهجري ، إذ أن شناعة الكبير ملك نبرة وصاحب الكلمة على شمال أسبانيا كله ، أعاد فتح غربى شبه الجزيرة للتأثيرات الأوربية (٤١) .

فقد فتح أبواب مملكته للإصلاحات البندكتية ، وتدفق الآباء الكلونيون وافتتحوا كل المسالك المغلقة في ممالك قشتالة وليون وجليقية وأشتريس ، وملأوا جميع أديرة أسبانيا ، ووصلوا الى أسنى المناصب الكنسية ، حتى أن أحدهم وهو برنارد ، صار مطرانا لطليطلة ، ورئيسا للكنيسة المسيحية في أسبانيا كلها . ومن ثم فقد عمل هؤلاء الرهبان على توطيد السيادة البابوية في أسبانيا ، ودفعوا حركة الاسترداد خطوات كبيرة الى الأمام (٤٢) .

وقد استخدم ملوك أسبانيا النصرانية الكنيسة في تدعيم هيبتهم وإقرار نفوذهم على رعاياهم ، كذلك استخدموها في صراعهم ضد بعضهم البعض ، وفي صراعهم ضد المسلمين . فقد دعا فرديناند ملك قشتالة وليون في عام ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م الى عقد اجتماع كنسى في جوياتسا ، شهده الأساقفة والنبلاء وأقر هذا المجمع الكنسى العمل بدعوة القديس بندكت في جميع الكنائس والأديرة ، وحصول الكنيسة على بعض الامتيازات ، كما امر هذا المؤتمر سكان ليون وقشتالة بأن يلزموا الولاء والطاعة لفرديناند ، كما كان شأنهم من قبل مع الفونش الخامس وشانجة الكبير . وهكذا نرى أن الكنيسة كانت تعمل على توطيد هيئة السلطة الملكية على رعاياها ، وهذا

(٤٢) بترند ، أسبانيا والبرتغال ، ص ٧٦ . Livermore, op. cit., p. 105.

Chapman, op. cit., p. 66.

(٤٣)



ما تؤيده أيضا القرارات التي صدرت في اجتماع شانت ياقب في عام ٤٤٨ هـ / ١٠٥٦ م (٥٣) .

وقد لجأ ردمير ( راميرو ) الأول ملك أرغونة ( ٤٢٦ — ٤٥٥ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٦٣ م ) الى استخدام البابوية والكنيسة في صراعه ضد أخيه فرديناند ملك قشتالة وليون . فقد عقد مؤتمرا في جاقا عام ٤٥٢ هـ / ١٠٦٣ م ، تقرر فيه اعتبار جاقا مركزا أسقفيا ، وإرسال عشر إيرادات الدولة وعشر الجزية التي يحصل عليها من مسلمي سرقسطة وتطليطة الى رومة . والظاهر أن الذي حمل ردمير على التزامه بهذه الجزية لرومة هو تخوفه من أخيه فرديناند ، اذ تصبح أرغونة بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة العالمية ، وهي وسيلة لجأت إليها مملكة البرتغال فيما بعد لتحمي استقلالها من عدوان قشتالة (٥٤) .

وقد زار ردمير ملك أرغونة رومة عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، وأعلن نفسه فارس القديس ( بتر Peter ) ، ثم أرسل البابا إسكندر الثاني سفيره الى أرغونة ، ليعمل على وضع جميع الأديرة تحت سلطة البابا ، وأن تحل الطقوس الرومانية محل الطقوس الأسبانية أو القوطية أو المستعربية . ونظير ذلك حصل ردمير من البابا على الاذن بأن يستعمل في محاربة المسلمين دخل الكنائس الواقعة في مناطق كانت تابعة للمسلمين . وعاد البابا جريجورى السابع وأرسل سفيره الى أسبانيا عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، لكي يقرر حق البابا في تعيين الأساقفة ، وفرض الطقوس الرومانية في الصلاة . ورغم معارضة أهالي قشتالة لهذه الاجراءات ، إلا أن الفونش السادس أعلن قبولها نظير موافقة البابا على طلاقه من زوجته أجنيسيا وزواجه من الأميرة كونستانس الفرنسية الأصل (٥٥) .

(٤٤) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٥ ، ١٦ ، عتاق ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٧ .

(٤٥) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٨ ، ١٩ .

(٤٦) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ ، مؤنس ، نجر الأنطلس ، ص ٤٩٨ .

Livermore, op. cit., p. 106.

وبزواج الفونش السادس من الأميرة كونستانس عام ١٠٧٩ م ، نشطت الحركة الكلونية ، وازداد وفود الرهبان الفرنسيين على أسبانيا ازديادا كبيرا ، وأبدى دير ساهاجون في قشتالة ورهبانه البندكتيون غيرة وحامسا شديدا في تحقيق أهداف البابوية في القضاء على مسلمى الأندلس . ولما حدثت هزيمة الزلاقة في رجب ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م عقد الفونش السادس مجمع طليطلة الدينى في رمضان ٤٧٩ هـ / ديسمبر ١٠٨٦ م ، وانتخب فيه هؤلاء الرهبان رئيسهم برنارد مطرانا لطليلة ، وبحوثا أمر اعداد العدة لاستئناف الجهاد ضد المسلمين من جديد (٥٦) .

ومن المحقق ان الكونت هنرى والكونت ريموند البرجونيين ، قريبي الملكة كونستانس وصهرى الملك الفونش السادس ، كانا يوهض في أسبانيا ، واليهما والى نشاط المطران برنارد يرجع الفضل في وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين الى اسبانيا ، كما وفد اليها أيضا عدد كبير من فرسان جنوى فرنسا نتيجة لنداء البابا أوربان الثانى عام ١١٨٢ هـ / ١٠٨٩ م ، لمساندة الأسبان في حروبهم ضد مسلمى الأندلس . وكان هذا النشاط النصرانى امتدادا للحروب الصليبية التى كانت قد بدأت في تلك المنطقة منذ سقوط جزيرة سردينية في يد قوات البابا والقوى النصرانية الفرنجية والأسبانية عام ٤٠٦ هـ ، والتى استمرت طوال ذلك القرن وتمثلت في سقوط بريشتر عام ٤٥٦ هـ ، وطليلة عام ٤٧٨ هـ في يد القوى الصليبية (٥٧) .

وكانت ظروف الحرب المستمرة بين النصارى والمسلمين في اسبانيا ، قد حملت رجال الدين على أن ينزلوا هذا الميدان ، شأنهم في ذلك شأن الأشراف والكونتات ، وكانوا يدعون عند الحرب الى مرافقة الجيش ، ولم يكن أحد من أفراد الشعب ورجال الدين يحظى بالتقدير والاحترام الا اذا

(٤٧) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٤٨) أشباخ ، المرجع نفسه ، ص ١٣١ .

محمد العروسى المطوى ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، ص ١٤٠ .

أبدي شجاعة في محاربة أعداء البلاد والدين من المسلمين . لذلك جندت الكنيسة نفسها لخدمة هذا الهدف الذي كانت تحمى إليه البلطوية والملكية الأسبانية وجهاير الشعب الأسباني . ومن ثم يمكن اعتبار الكنيسة الأسبانية كنيسة لها وضعها الخاص ، فهي كنيسة محاربة ، تخدم في ميدان القتال كما تخدم في ميدان الدعوة إلى المسيحية (٥٨) .

ومن الأشياء التي خلعت الصفة الحربية على الكنيسة الأسبانية تلك الفرق من الفرسان التي كانت تابعة للأديرة والقلاع ، مثل فرسان سبتياجو ، وقلة رباح Calatraba و Alcántara . وكان واجب فرسان سبتياجو « شنت ياقب » في البداية ، هو الحفاظ على طريق الحج إلى مزار القديس يعقوب خالياً من قطاع الطرق والأشرار ، ثم أصبحوا ضمن الجيوش المحاربة ضد المسلمين (٥٩) .

ولم يكن هدف جميع المحاربين هو العمل على خدمة الدين أو رفع الراية المسيحية على أرض الإسلام في الأندلس ، فقد كان هدف المحاربين «العانيين» هو الاستحواز على الغنائم والتخلص من حالة الفقر التي كانوا يعيشونها في الشمال القاحل ، بالمقارنة إلى رغد العيش الذي كان يعيشه المسلمون في الأندلس . ودليلاً على ذلك هو النداء الذي وجهه القمبيطور عند استعداده للهجوم على بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، إلى أهالي أرغونة وقشتالة ونبرة ، يدعوهم للحضور والاشتراك في الغزو فيقول : « هؤلاء الذين يودون أن يقضوا على نقرهم ويصبحوا أغنياء ، فليأتوا معي للغزو ولتعمير تلك الأرض » (٦٠) .

وقد وردت هذه العبارة ضمن القصيدة التي قيلت في وصف حياته ، والتي تظهر أن الدين لم يكن وحده هو العامل الرئيسي في هذه المعارك

(٥٩) اشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٤٠٢ .

Crow, cit., p. 88.

Crow, cit., p. 88.

Crow, cit., p. 91.

(٥٠)

(٥١)

وهذه الانتصارات المسيحية ، وتبين لنا القصيدة فرحة المسيحيين الذين استولوا على بلنسية ، وتؤكد ما ذهبنا اليه فنقول « هؤلاء الذين أتوا على أقدامهم أصبحوا الآن يركبون الخيل ، وحازوا الذهب والفضة أكثر مما يستطيع أن يتخلله انسان ، لقد أصبح الجميع أغنياء .. » (٦١)

وهناك من المؤرخين من يشيرون الى انتشار الرذائل الخلقية بين أفراد الطبقة الأرستقراطية ، والى انحطاط الكنيسة في ذلك الوقت ، ويقولون بأن البطاركة كانوا يشتركون في المؤامرات ضد ملوكهم ، وأن الأساقفة كانوا يقضون أوقاتهم في العاصمة بدل أن يهتموا بإدارة أبرشياتهم ، وأن الكهنة لم يهتموا ببث الروح المسيحية بين الناس ، وأن الرهبان أهملوا قوانين الرهبنة وسننها ، وأنه لم تكن هناك الأقلية من رجال الكنيسة من رفعوا أصواتهم بضرورة الإصلاح (٦٢) .

ومن هنا كان ضغط البابوية وقرارات الجامع الكنسية التي أشرنا إليها ، وسياسة الإصلاح التي اتبعتها ملوك إسبانيا النصرانية وقيامهم بإظهار التقوى والورع في معاملتهم للناس ، وبنناء الكثير من الكنائس والأديرة ، واغداقتهم عليها الكثير من المنح والعطايا والهبات ، كما خصص هؤلاء الملوك قدرا كبيرا من الغنائم التي حصلوا عليها من حروبهم مع المسلمين للبر بالفقراء وتخفيف آلامهم . واهتموا أيضا بتحسين الطرق الكبرى وإنشاء القناطر على الأنهار ، وغير ذلك من الإصلاحات الاقتصادية ، مما حل كثيرا من المشاكل ، وأدى الى توفير الأمن والحياة المستمرة لجمهير الشعب (٦٣) .

من هذا كله نرى أن أحوال ممالك إسبانيا النصرانية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، كانت تساعد على قيادة الصراع ضد مسلمي الأندلس في ثبات ونجاح ، وتساعد على التقدم المطرد للقوى النصرانية.

---

Crow, op. cit., pp. 90,91.

(٥٢)

(٥٣) ابن عذارى ، البيان ج ٤ ، ص ٥١ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٠

عيسى أسعد ، الطريقة النقية ، من تاريخ الكنيسة المسيحية ، ص ٢٤٣ .

(٥٤) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٢٢ ، ١٣٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٧ .

داخل الأراضى الإسلامية ، فالملكية الأسبانية صارت موحدة وفي يد أسرة واحدة ، وطبقة النبلاء ضعف شأنها عن ذى قبل ، وأصبحت أداة في يد الملوك وعونا لهم على تحقيق سياستهم فى الداخل والخارج . أما الكنيسة فقد ازداد نفوذها وانفتحت أسبانيا على أوروبا التى دعمتها فى صراعها ضد مسلمى الأندلس ، وأعلنت البابوية الحرب الصليبية فى الأندلس قبل إعلانها فى المشرق حتى استرد الأسبان طليطلة عاصمتهم الأولى .

وبسقوط طليطلة فى يد نصارى الشمال عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، انتقل الصراع الى قلب الأندلس ، من نهر دويرة الى نهر تاجة ، وأصبحت ممالك الشمال النصرانية تحوز حوالى نصف شبه الجزيرة الأسبانية ، وتمكنت من فرض الجزية على أقوى ملوك الطوائف . وبذلك أصبحت شبه الجزيرة كلها إما تحت حكمهم المباشر ، أو تحت حكم تابعيهم من ملوك الطوائف ، ابتداء من النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، ولم ينقذ أسبانيا الإسلامية من هذا الوضع المهيمن الا قدوم المرابطين الذى أخر سقوط الإسلام هناك الى حين .



## الفصل الثاني

### مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس

#### الإسلامية وأشبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

رأينا في حديثنا عن الأحوال أو الأوضاع الداخلية في كل من الأندلس الإسلامية ، وأشبانيا النصرانية مدى ما كان في الأولى من ضعف وما كان في الثانية من قوة . ولم يكن ضعف الأولى ناتجا عن نقص في الأموال والأنفس والثمرات ، بل انها كانت غنية بكل ذلك ، وكانت تلمع في سماء الفن والأدب والثقافة ، لكن الضعف والوهن أتاها من انقسامها الى ممالك عديدة ، ومن تباغض زعمائها وصراعهم المقيت على السلطان ، ومن ترف حكامها وأشرافها وخلودهم لحياة الدعة والانغماس في النعيم لدرجة أنهم كانوا يجبنون عن مواجهة النصارى ، ولذلك استقدموا المرابطين الأتداء ، الذين لم تفسدهم بعد حضارة أو ترف (١) .

ولم تكن قوة أشبانيا النصرانية ناتجة عن ازدياد الأموال أو الجيوش ، ولكنها كانت ناتجة عن روح المقاومة الصلبة والحيوية والطاقة التي لم تكن أمام ضربات الناصر والمنصور . صحيح أنها استكانت في عصر الخلافة ، لكنها ما لبثت أن خرجت كالمارد من قمقمها عقب انهيار دولة بنى عامر مباشرة ، وفرضت نفسها على أروع ما تكون (٢) .

استطاعت أشبانيا النصرانية أن تستثمر عناصر الاضطراب والفوضى التي أملت بالأندلس في عصر دول الطوائف ، وأن تطيل أمد هذا الاضطراب ، وأن تضرب تلك الدول بعضها ببعض ، وأن تجعل من زعمائها مجرد تابعين يدفعون الجزية عن يد وهم صاغرون ، واستولت على الكثير من المدن والحصون حتى أنها في لحظة واحدة من لحظات الصراع بين خلفاء بنى أمية

(١) ابن الخطيب ، الحلال الموشية ، ص ٥٩ .  
Crwo, op.cit., p. 96.

الأواخر اثناء الفتنة البربرية عام ٤٠٣ هـ / ١٠١٤ م استولت على أزيد من مائتي حصن تسلمتها من يد هشام المؤيد ، نظير تأييده في صراعه ضد غريمه سليمان المستعين في الصراع على كرسى الخلافة في قرطبة ، واستمر التقهر الاسلامي حتى وصل ذروته بسقوط بريشتر وطمنكة عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م (٣) .

وكانت النذر ين صداها في اذن الشعب الأندلسي ، وكان لا يفتأ يحذر ملوكه وأمراءه مغبة الاستمرار في هذا الصراع المحزن على السلطة ، لكنهم لم يفيقوا الا على سقوط طليطلة ، أعظم قواعد الثغر الاسلامي عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . حينئذ واتتهم لحظة نبذوا فيها خلافاتهم واستعانوا بالقوة الاسلامية الناشئة ، وهم المرابطون ، وحققوا معا اضخم نصر في ذلك القرن على ملوك اسبانيا النصرانية في موقعة الزلاقة في العام التالي .

لكن ملوك الطوائف لم يحسنوا استغلال هذا النصر ، ولم يخفوا خلافاتهم وانقساماتهم عن يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين وأمير المسلمين ، فصمم على القضاء عليهم ، وعلى ضم الأندلس لدولته الشاسعة . أما اسبانيا النصرانية لم تلبث أن لمت شعنها عقب الزلاقة ، ونظمت جيوشها واستأنفت النضال من جديد ، وصمدت أمام جيوش الأندلسيين والمرابطين اثناء حصارهم لحصن لبيط ( أليدو ) في العام التالي لموقعة الزلاقة ، وأجبرتهم على فك الحصار والتقهر الى بلادهم . وعلى ذلك فان هزيمة التصاري في الزلاقة لم تزدهم الا تمسكا واتحادا ، بينما كشفت النقاب عن الخلل الكامن في جسد الشعب الأندلسي الذي زادت خلافاته وانقساماته عن ذي قبل .

وليس معنى ذلك أن اسبانيا النصرانية لم تعرف الخلاف الداخلي . لقد حدث ذلك كما رأينا في دراستنا لأحوالها الداخلية في الفصل السابق

---

(٣) ابن بلقين ، مختراته ، ص ١٠٦ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١١٧ ، المقري ، للنفع ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ ، بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٧١ .



أكثر من مرة ، وخاصة عقب وفاة الملك الحاكم ، وقيام أبنائه من بعده  
وصراعهم على السلطان وتصفيتهم لبعضهم ، حتى يخلص الملك لأقواهم ،  
حينئذ تعود الوحدة من جديد . وبذلك فإن ملوكهم كانوا يفرضون الوحدة  
بالقوة على اخوتهم من الملوك الآخرين ان لم يقروها بالمسألة واعلان  
الطاعة . وحتى مع تعدد ملوكهم فاتهم كانوا ينسبون خلافاتهم الداخلية  
إمام الشعور العام بالخطر ، أو اذا لحوا فرصة في أحد البلدان الاسلامية  
لعلهم يصيبون منها مغنما ، حينئذ كانوا يتكاتفون ويحاربون وينتصرون ،  
ويأخذ كل منهم نصيبه من الغنيمة ، وكانت الغنيمة أنهم حازوا حوالى نصف  
أرض شبه الجزيرة في القرن الخامس الهجرى (٤) .

وبذلك فإن أهداف الصراع وطبيعته قد تطورت كثيرا عما كان موجودا  
في عصر الخلافة . فقد أصبح نصارى الشمال في وضع جعلهم يصرحون  
علانية بطرد مسلمى الأندلس ويقولون لهم لا مقام لكم بيننا ، وأصبحت  
الحرب بين الطرفين حربا صليبية من الدرجة الأولى ، أما مسلمو الأندلس  
فلم يكن لهم هدف الا مجرد الدفاع عما في أيديهم ريثما تتحسن الأحوال ،  
وكانوا يرقبون تقدم النصارى وازدياد قوتهم في رعب وهلع ، وقصائد  
شعرهم تفيض حزنا وبكاء على ما أصاب المسلمين في هذا العصر من كوارث  
ودمار ، وأسر وقتل ونفى وتشريد ، وضياح للبلاد والعباد ، حتى قال  
قائلهم :

حثوا رواحكم يا أهل أندلس فما المقام فيها الا من الغلط

وحتى انتشرت روح الهزيمة والرضا بالأمر الواقع ، فألف مفكروهم  
في ذلك الكتب ، مثل كتاب «جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى»  
للوزير أبو يحيى بن عاصم (٥) .

لقد كان هذا العصر عصر التقهقر السياسى للإسلام في نواح كثيرة ،  
فقد سقطت صقلية عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م ، وانتزع الروم السيادة

(٤) المعزى ، نصوص عن الأندلس ، ص ١٢١ .

(٥) المعزى ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٦٠٥ .

البحرية من المسلمين ، حتى أن المعتد صاحب أثيبيلية أراد أن يستقدم  
أحد الشعراء المسلمين من صقلية وآخر من القيروان ، فلم يمكنه ذلك ،  
وكتب إليه الأول يقول :

البحر للروم لا يجري السفين به      إلا على غرر والبر للعرب  
وكتب الثانى يقول :

ما أنت نوح فتجنبنى سفينته      ولا المسيح أنا أمشى على الماء  
وانتهى ذلك القرن كما نعرف بنشوب الحرب الصليبية بين الغرب  
المسيحى والشرق الاسلامى (٦) .

كل ذلك وما درسناه فى الأحوال الداخلية لمسلمى اسبانيا ونصاراها ،  
سوف نراه ، ونرى نتائجه واضحة أثناء دراستنا للعلاقة بين دول الطوائف  
وبين الممالك النصرانية فى اسبانيا . وفى هذا المقام لا بد أن نشير الى أننا  
سوف ندرس تلك العلاقة بدءا من سقوط الخلافة الأموية عام ٤٢٢ هـ ،  
حتى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، ثم نتابع دراسة العلاقات  
بين دول الطوائف وبين اسبانيا النصرانية حتى سقوط هذه الدول فى يد  
المرابطين . ذلك أنها لم تسقط جميعا دفعة واحدة ، فقد استمر بعضها بعد  
العبور الثالث للمرابطين عام ٤٨٣ هـ وبعد قيامهم بتصفية معظم دول  
الطوائف والقضاء عليها فى ذلك الوقت (٧) .

## ١ - علاقات مملكة سرقسطة بالممالك النصرانية فى اسبانيا :

عندما انفرط عقد الخلافة الأموية فى بداية القرن الخامس الهجرى ،  
كان يحكم سرقسطة رجل من أنصار المنصور بن أبى عامر ، يسمى منذر بن

(٦) ابن خلكان ، وفیات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٨٣ ، ج ٣ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 567,569.

(٧)

يحيى بن مطرف التجيبى ، من سلالة الأسره التى استمرت فى حكم تلك الناحية مستقلة أو تابعة للخلافة منذ عام ٢٧٦ هـ . وقد سبق أن وضعها موقفه من مساندة المرتضى الأموى ثم تخليه عنه هو وحليفه رامون بوريل ملك برشلونة عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م . وقد توثقت عرى الصداقة بين المنذر وملوك النصارى المجاورين له ولا سيما رامون وشانجة الكبير ملك نبرة ، وبالحال المنذر فى التودد الى أمراء النصارى حتى أنه نظم فى قصره بسرقسطة حفلا لعقد مصاهرة بين ملكين من ملوك النصارى ، هما شانجة ملك نبرة ورامون بوريل ملك برشلونة ، حضره الفقهاء والقساوسة وأعيان الملتين (٨) .

ورغم ما أثارته هذه العلاقة من النقد الحاد ، إلا أنها فى النهاية وفرت السلام والهدوء لاقليم سرقسطة وكفت أطماع النصارى عنه ، ولم يدرك الناس أثر تلك السياسة إلا بعد وفاة المنذر عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، وخلفه ابنه يحيى المظفر ( ٤١٤ - ٤٢٠ هـ / ١٠٢٣ - ١٠٢٩ م ) فى حكم سرقسطة . ويبدو أن يحيى لم يحكم سياسة الصداقة التى كان يتبعها أبوه مع جيرانه أمراء برشلونة ، حيث أغار صاحبها الكونت رامون بوريل على بعض أطراف مملكته ، واضطر أن ينزل له عن بعض القلاع الحصون (٩) .

خلف المنذر أباه يحيى المظفر فى حكم سرقسطة ( ٤٢٠ - ٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ - ١٠٣٩ م ) وفى عهده بدأ سلطان المسلمين فى هذا الركن القضى يتزعزع ، وبدأت أطماع أمراء أرغونة وكونتات برشلونة تتجه نحو سرقسطة ونواحيها ، وكان هذا الاقليم يشمل من الحصون وكبار المدن عدا سرقسطة ، قلعة أيوب ودروقة وبريشتر ووشقة ومدينة سالم ولوجرونيو Logrono وصورية Soria وترويل Teruel وافرغة Frage ، وكان بذلك من أوسع أمارات الطوائف امتدادا وعمرانا . لكن الخلاف دب بين أفراد أسرة بنى تجيب على السلطان ، وادى ذلك الى القضاء عليهم وقيام

(٨) ابن بسلام ، الخزعة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٥٢ - ١٥٤ ، ابن عذارى ، البيان ،

ج ٣ ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٩) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٧ ، غان ، دول الطوائف ، ص ٢٦٨ .

بنى هود في حكم مملكة سرقسطة منذ عام ٤٣١ هـ ، حتى سقطت في يد  
النصارى عام ٥١٣ هـ (١٠) .

وباستيلاء سليمان المستعين بن محمد بن هود على سرقسطة ( ٤٣١ ) —  
٤٤٤ هـ / ١٠٣٩ - ١٠٤٩ م ) ( ١١ ) ، ثار نزاع بينه وبين يحيى بن اسماعيل  
ابن ذى النون ملك طليطلة منذ عام ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م ، واستعان كل  
منهما بملوك النصارى ضد الآخر . وكان مثار النزاع بينهما استيلاء بنى هود  
على وادى الحجارة برغبة أهلها عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م ، فهرع المأمون  
بقواته حيث هزم وتحصن في طلبيرة ، ثمفاوض فرديناند الأول ملك قشتالة ،  
وطلب العون منه نظير أن يؤدي له الجزية ويعترف له بالطاعة ، فاستجاب  
له فرديناند وأرسل قواته التى عاثت فى أرض بنى هود المجاورة لمملكته ،  
فاضطر ابن هود أن يسلك سبيل ابن ذى النون ، وأرسل الى فرديناند  
أموالا وتحفا كثيرة على أن يغير على أراضى طليطلة ( ١٢ ) .

وقام فرديناند بالمهمة خير قيام وخرب ضياع طليطلة وأريافها حتى جلا  
عنها الكثير من سكانها ولجأوا الى العاصمة ، واضطر أهلها الى طلب الصلح  
من سليمان المستعين بن هود ، لكنه مكر بهم وانتهاز الفرصة واستولى  
على مدينة سالم التى كانت تحت سيطرة بنى ذى النون ، وكانت الأسرة  
النونية منقسمة على نفسها مما سهل مهمة بنى هود الى حد كبير . لكن  
المأمون بن ذى النون لم يستسلم وتوجه الى غرسية ملك نبرة وأخو  
فرديناند ملك قشتالة ، وتحالف معه ضد بنى هود ، فأغار غرسية بقواته

---

(١٠) ابن عذارى ، للبيان ، ج ٣ ، ص ١٧٧ ، ٢٢٢ ، آبن الخطيب ، المصدر نفسه ،  
ج ٢ ، ص ١٧٠ .

(١١) تذكر المصادر العربية القديمة كلها أن سليمان المستعين مات عام ٤٣٨ هـ ، لكننا  
وجدنا درهما ضرب في سرقسطة عام ٤٤٠ هـ مدونا عليه اسم « الامام هشام أمير المؤمنين المؤيد  
الله ، والحاجب تاج الدولة سليمان » . ومعنى ذلك أن سليمان المستعين لم يميت عام ٤٣٨ هـ  
ج ٣ ، ص ٢٨٢ ) وتابعه غيره من المؤرخين ، ولكنهما قتال ابن عذارى ( للبيان المغرب  
ج ٢ ، ص ٤٤٠ هـ أو بعده بقليل . انظر .  
Codera, Numismatica, p. 167.

(١٢) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ - ٢٧٩ .

على راضى بنى هود المجاورة له فيما بين تطيلة ووشتة ، وافتتح قلعة قلهرة عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، فقام فرديناند بدوره بالاغارة على اراضى طليطلة وخربها (١٣) .

وهكذا ادى التناحر بين هذين الملكين المسلمين ، المستعين بن هود والمأمون بن ذى النون ، الى اعطاء الفرصة للملك النصارى الأسبان لكى يقوموا بتخريب اراضى الملكتين ونهب أموالهما واشعار المسلمين بالضعف ، حتى أنهم صاروا جبنا لدرجة أنهم كانوا يولون الادبار بمجرد رؤية جنود النصارى . ولما ازداد اضطراب الأحوال فى طليطلة ، سعى أهلها الى فرديناند ملك قشتالة لطلب الصلح ، على أن يؤدوا له ما يريد من الأموال ويرحل عنهم ، لكنه اشترط عليهم شروطا من العسير تنفيذا ، ورفض السلم معهم وقال لهم « اننا نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم ، فقد سكتتموها ما قضى لكم ، وقد نصرنا الله عليكم برداءتكم ، فارحلوا الى عدوتكم ( يقصد بلاد المغرب واغريقية ) ، واتركوا لنا بلادنا فلا خير لكم فى سكتاكم معنا بعد اليوم ، ولن نرجع عنكم أو يحكم الله بيننا وبينكم » (١٤) .

وهى عبارة على درجة كبيرة من الأهمية ، اذ ترينا سياسة النصارى وتبين لنا أهدافهم فى استرداد أراضيههم ، وأنهم كانوا يعتبرون المسلمين اجانب دخلاء مهما عمروا من السنين واقاموا من الدول والمنشآت . واستمر فرديناند وأخوه غرسية يعيثان فى اراضى الدولتين حتى مات سليمان المستعين عام ٤٤٠ هـ أو ٤٤١ هـ ، فتنفس المأمون بن ذى النون الصعداء ، وتوجه بعدوانته الى جاره الآخر ابن الأفطس صاحب بطليوس . وقام أولاد سليمان المستعين الخمسة بالصراع فيما بينهم على عرش سرقسطة وما يتبعها من اقاليم ومدن ، وانتهى الصراع بفوز أحمد المقتدر على باقى اخوته عدا يوسف المظفر حاكم لاردة (١٥) .

(١٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ - ٢٨٢ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ١٧٨ .

(١٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٨٢ .

(١٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ .

وقد انتقم أحمد المقتدر من أخيه يوسف المظفر انتقاماً غير أخلاقى حينما أرسل الأخير نجدة غذائية لمدينة طليطلة التابعة له عبر راضى شانجة ملك أرغونة — وليس شانجة ملك نبرة كما قال البعض — خوفاً من مرورها عبر أراضى أخيه فى سرقسطة ، ورغم ذلك فقد رشا المقتدر ملك أرغونة وأرسل له الكثير من الأموال حتى يمكنه من قافلة أخيه ، وانتهى الأمر بضياح القافلة وأسر رجالها وقتل جنودها على يد رجال المقتدر وملك أرغونة (١٦) .

ولما هاجم ردمير الأول ملك أرغونة أراضى مملكة سرقسطة عام ٤٥٥ هـ / ٦٠١٣ م استعان المقتدر بملك قشتالة فرديناند الأول وأقر له بالطاعة ، فبعث إليه ولده شانجة فى بعض قواته برفقة القائد ردرىجو دياز المسمى بالقبيطور ، ودارت رحى الحرب عند أسوار حصن جرادوس ، وانهزم ردمير الأول وقتل فى هذه المعركة ، وأثار مقتله الشعور الدينى ضد مسلمى النغر الأعلى ، وأدى ذلك بالإضافة الى صراع الأخوين اليهوديين الى ضياح مدينة بريشتر على يد النصارى عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م (١٧) .

يعد سقوط بريشتر أعظم كارثة أصابت المسلمين فى عهد المقتدر بن هود ، نظراً لما صاحبها من تدمير وسفك وقتل وانتهاك للحرمت علناً أمام الناس ، ولما كانت تحمله من طابع صليبي واضح . ويؤيد البحث الحديث الصفة الصليبية لتلك الحملة التى قام بها أهل غاليس ( غالة ) والأرمنانيون أو الروذمانون أو الأرمليش ، وكلها أسماء للنورمان الذين كان ملك فرنسا شارل البسيط سمح لهم بالاقامة فى الاقليم الذى عرف باسمهم فى فرنسا بعد ذلك باسم ( نورماندى ) Normandie . واشترك فى الحملة أيضاً غليوم دى منترى كبير قواد البابا اسكندر الثانى ، الذى بشر لها فى ايطاليا

(١٦) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٢ - ٢٢٤ .

السامرائى ، علاقات المراتبين ، ص ٨١ .

(١٧) الطروشى ، سراج الملوك ، ص ١٥٦ ، أنظر الفصل الثانى ، الباب الثالث .

وفرنسا واسبانيا ، بالإضافة الى قوات شانجة راميرز ملك ارغونة وابن الملك الذي قتله ابن هود عند جرادوس عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م (١٨) .

وقد اختلفت المراجع الحديثة حول شخصية قائد الحملة الذي ورد اسمه في المصادر الاسلامية باسم ( البيطين أو البيطين أو البيطش ) ، غالبعض يرى أنه كان النبيل الفرنسي Elbesde Roucy أو الكونت Robert Crespin أو الكونت بلدوين دى فلانديس Palduino de Flades الذي كان وصيا على فيليب الأول ملك فرنسا ، وربما حرف الكتاب المسلمون اسم بلدوين الى ( البيطين ) . على أية حال وصلت تلك الحملة الصليبية التي سبقت الحملة الصليبية الأولى على المشرق بحوالى نصف قرن ، في جمادى الأولى عام ٤٥٦ هـ / ابريل ١٠٦٤ م الى بريشتر وضربت حولها الحصار مدة اربعين يوما ، واستسلمت المدينة فى النهاية ودخلها النصارى وبعثوا فيها فسادا (١٩) .

وبلغ عدد القتلى والأسرى من أهل المدينة ما بين الخمسين والمائة ألف وهذا دليل على كبر حجم الكارثة ، وقد تخير قائد الحملة خمسة آلاف من أجمل فتيات بريشتر وأرسلهن هدية الى صاحب القسطنطينية والى بابا روما اعلانا وابتهاجا بفوزه على المسلمين . وظل الصليبيون فى بريشتر لمدة عام حتى نهض المقتدر بن هود يعاونه المعتضد بن عباد وأهل الثغور وإعادوا المدينة الى حوزة الاسلام من جديد ، وقتلوا كل الحامية الصليبية التى كان

---

(١٨) ابن حيان برواية المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤٠ .  
حسين مؤنس ، الحلة السراء لابن الأبار ، ج ٢ ص ٢٤٧ .  
العبادى ، الاكتفاء لابن الكردبوس ، ص ٧٠ .  
Livermore, op. cit., p. 111.  
دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ١٧٧ .

(١٩) ابن حيان برواية المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ - ٥٧٥ .

ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .  
ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٧٠ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٣٩ ، ٤١ .  
أما عن أحداث تلك الحملة ، أنظر المصادر المشار إليها أعلاه .

قد خلفها قائد الحملة عند مغادرته المدينة ، وتقدر بخمسة آلاف جندي .  
وفارس (٢٠) .

وتصور حادثة بريشتر مدى الضعف والخلل الذي أصاب الحياة الإسلامية في ذلك الوقت ، وخاصة فيما يتعلق بأمراء المسلمين وفقهائهم الذين يصفهم ابن حيان بأبشع الأوصاف ويتهممهم بالجهل والتقصير وتفضيل الأهواء الشخصية على المصلحة الإسلامية العليا . فلم يكن همهم حين سماعهم خبر الكارثة الا أن توقعوا قرب حلول الكارثة بينهم ، فأخذوا في حفر الخنادق وتعليق الأسوار وسد الأركان وتوثيق البنيان ، أما عامة الناس فقد اظهروا اللامبالاة والسلبية الشديدة ، ولم يساندوا ملوكهم وأمراءهم في درء هذا الخطر الزاحف عليهم من الشمال النصراني ، ولم يعرفوا أن هذه الكارثة سوف تتلوها كوارث أعظم منها وأخطر (٢١) .

وقد علا نجم المقتدر بن هود بعد استرداده بريشتر من أيدي الصليبيين في جمادى الأولى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، واستطاع أن يضيف الى مملكته أراضى جديدة انتزعها من جيرانه النصارى والمسلمين على السواء ، فاستولى على طرطوشة ودانية وجزء من كورة طركونة وأطراف من بمبلونة ، وطمع في بلنسية ، استعان بملك قشتالة الفونش السادس في الاستيلاء عليها ، وفرض على شعبه ضريبة لتحصيل الجزية ودفعها له ، وقد حاول أحد الفقهاء الصالحين الاعتراض على دفع الجزية للنصارى ، فما كان جزاؤه الا القتل على يد المقتدر بن هود نفسه (٢٢) .

ولما توفي فرديناند الأول ملك قشتالة عام ٤٥٧ هـ ، قامت الحرب الأهلية من جديد بين أولاده ، وكانت قشتالة وحقوق الجزية على سرقسطة

---

(٢٠) ابن حيان برواية المقرئ ، النفع ج ٢ ، ص ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ابن عذارى ، البيان ج ٢ ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢١) ابن حيان برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ابن بلقين ، مذكراته ،

ص ٧٧ ، ٧٨ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧١ ، مؤنس ، لشجر الأعلى ، ص ١٠١ .



من نصيب ولده الأكبر شانجة ، الذى بادر بإرسال قواته الى سرقسطة بقيادة السيد القمبيطور للحصول على الجزية المطلوبة ، فاضطر ابن هود ان يرسل اليه الكثير من الأموال ، والهدايا فرفع الحصار عن المدينة ، ولما خلع عرش قشتالة لألفونش السادس بعد قتله لأخيه شانجة عاد وطالب بالجزية التى كانت لأخيه ، وكان يطالب بها أيضا شانجة وميزر ملك أرغونة الذى كان يستعين به المقتدر فى محاربة أخيه يوسف المظفر صاحب لاردة ، وظل يحاربه حتى ظفر به وسجنه فى حصن ملتشون عام ٤٧٤ هـ ، ولم يلبث ان مات المقتدر فى نفس العام أو فى العام التالى (٢٣) .

انقسمت الامارة بوفاة المقتدر من جديد بين ولديه يوسف المؤمن الذى اختص بسرقسطة وأعمالها ، والمنذر عماد الدولة الذى اختص بشرقى الامارة (لاردة وطرطوشة ودانية) . وكان من جراء هذه القسمة ان قامت الحرب الأهلية بين الأخوين ، واستعان كل منهما بالنصارى ، فاستعان يوسف المؤمن بالسيد الطمبيطور الذى كان قد لجأ الى أبيه المقتدر من قبل بعد ان ساءت العلاقة بينه وبين الفونش السادس ملك قشتالة ، واستعان المنذر الذى كان من أعداء القمبيطور بشانجة راميريز ملك أرغونة ، وبراهون برنجير الثانى أمير برشلونة (٢٤) .

ووقعت أول معركة بين الأخوين عند قلعة المنار بالقرب من لاردة ، وهزم المنذر ، وأسر أمير برشلونة رامون بيرنجير عام ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م . وفى نفس الوقت كان عمهما يوسف المظفر سجين قلعة روطة قد غر ولجأ الى الفونش السادس وما لبث ان مات هناك ، وانتهاز الفونش السادس الفرصة وهاجم سرقسطة بحجة ان المظفر قد تنازل له عن حقه المقتصب من أراضي الامارة ، لكن حملته باءت بالفشل وقتل جميع جنودها وقائدها ، فصمم الفونش على الانتقام (٢٥) .

---

(٢٣) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ٢٢٣ ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ابن الخطيب ، المصدر

نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧١ ، السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢٤) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٢٣ .

أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ، ص

(٢٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ ، أنظر الفصل الأول من الباب الثالث ص

لم يلبث المنذر أن قام هو وحليفه ملك أرغونة وسارا في قواتهما لمحاربة القمبيطور والتقى الطرفان عند موربلا على مقربة من طرطوشة ، فانتصر القمبيطور واستولى على ما في معسكرهما من مال ومتاع وعلى كثير من الأسرى ، وعاد الى سرقسطة حيث استقبل استقبال الأبطال ، وعلا نجه واشتد نفوذه حتى كان المؤتمن لا يبرم أمرا من أعمال الحرب أو السياسة بدون مشاورته ، وغداً بذلك تحت حمايته مما دعا الناس الى تحميل المؤتمن مسؤولية بغي القمبيطور وفساده في نواحي شرق الأندلس (٢٦) .

لم يلبث أن مات المؤتمن عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م وخلفه ابنه أحمد المستعين ( ٤٧٨ — ٥٠٣ هـ / ١٠٨٥ — ١١٠٩ م ) في حكم سرقسطة وبقي الشق الآخر من المملكة بيد عمه المنذر الذي استأنف الصراع مع ابن أخيه ، وتحالف كل منهما مع النصاري ضد الآخر . لكن حدث أن سقطت طليطلة في نفس العام في يد الفونش السادس واختل ميزان القوى بين المسلمين والنصارى في شبه الجزيرة اختلالا خطيرا ، وبات واضحا أن أيام الاسلام في الأندلس معدودة ، ولم يلبث الفونش أن قام الى سرقسطة مصمما على الاستيلاء عليها مستغلا تطرفها وعزلتها عن باقي الممالك الاسلامية ، وحاول المستعين أن يرده بالمال ، لكنه أبى وأصر على أخذ المدينة ، ولم ينقذها منه الا انتشار الأتباء بنزول المرابطين ارض الأندلس ، فاضطر الفونش الى رفع الحصار عن سرقسطة وعاد الى قشتالة ليعبئ قواته استعدادا للمعركة الكبرى ضد المرابطين (٢٧) .

ثم كانت وقعة الزلاقة في رجب سنة ٤٧٩ هـ / أكتوبر ١٠٨٦ م ، وفيها هزم الفونش هزيمة ساحقة وضعف أمر قشتالة ، لكن المستعين واجه خطرا آخر لا يقل خطورة عن خطر نصارى قشتالة . فقد بدا شانجة راميرا ملك أرغونة بالاستيلاء على منتشون في سنة ٤٨١ هـ / ١٠٨٩ م ، واضطر المستعين عندئذ أن ينضوى تحت حماية الفونش السادس ملك قشتالة وأن

(٢٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

(٢٧) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٧ .

يدفع له الجزية التي كان قد أباحها من قبل . وكانت هذه المحالفة تهم الفونش ، لأنه كان ينظر الى توسع مملكة أرغونة بعين الحسد (٢٨) .

ذلك أن شانجة ملك أرغونة زحف الى مدينة واثقة ، وهي ثاني مدينة في مملكة سرتسطة وضرب حولها الحصار ، لكنه مات محاصرا لها عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م فمضى ابنه بدرو الأول ( ٤٨٧ - ٤٩٨ هـ / ١٠٩٤ - ١١٠٥ م ) يلح عليها بالحصار حتى استولى عليها في ذى الحجة ٤٨٩ هـ / نوفمبر ١٠٩٦ م بعد معركة حامية تسمى معركة الكوراز Alcoraz هزم فيها المستعين وحلفاءه القشتاليين ، وقتل من المسلمين حوالي اثني عشر ألفا ، وكان بين القتلى غرسية ردونيز قائد جند قشتالة ، واستسلمت المدينة ودخلها بدرو الأول في موكب المنتصر ، وفي الحال حول مسجدها الى كنيسة وجعلها عاصمة لمملكته أرغونة (٢٩) .

وفي تلك الأثناء كان السيد القمبيطور الذي كان يعمل لحسابه الخاص في تلك الفترة قد استولى على بلنسية عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، وانشغل بالحفاظ عليها أمام هجمات المرابطين وازدياد نفوذهم وقوتهم في الجزيرة ، كذلك كان الفونش السادس مشغولا هو الآخر بدفع خطر المرابطين عن مملكته ، ومن ثم أصبح من الواضح أنه لا يمكن للمستعين بن هود أن يطلب العون منهما ضد خطر ملك أرغونة ، فولى وجهه شطر المرابطين وأرسل لهم ابنه عبد الملك عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٣ م ومعه هدية فاخرة لطلب محالفتهم (٣٠) .

وكان هذا يتفق مع سياسة المرابطين الذين كانوا يرون ترك الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين ، لكونهم أدري بأحوالها وبأحوال

(٢٨) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٢٩) ابن الخطيب ، المسطر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

الطريفوشى ، سراج الملوک ، ص ١٥٢ ، المقرئ ، النفع ج ٩ ، ص ٢٠٦ .

(٣٠) بطرس البستاني ، معارك العرب في الأندلس ، ص ٥٣ ، ٥٤ ، غنان ، المرجع

نفسه ، ص ٢٨٨ .

العدو أكثر منهم ، ولتكون حاجزا بينهم وبين نصارى الشمال ، وخونا من أن يقوم بنو هود بتسليم المملكة الى أعداء الاسلام اذا ما هاجمهم المرابطون ، واستغل ابن هود هذا الموقف واطمان على بقاءه في الحكم بعد أن أخذ يهدد نصارى الشمال والمرابطين كلا منهما بالآخر (٣١) .

اطمان المستعين الى مخالفة المرابطين واخذ يستعد لمقارعة ملوك أرغونة ، وكان بدرو قد توفى وخلفه في الملك أخوه الفونسو المحارب عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م ، وكان ملكا مقداما شديد البأس ، ولم يكن قد بقي من قواعد مملكة سرقسطة الهامة في شمال نهر ابرة بعد سقوط وشقة سوى تطيلة ، فسار اليها الفونسو المحارب في قواته ، وزحف المستعين لنجدتها ووقعت بين الفريقين معركة شديدة عند بلدة تدعى بلتيرة ( فالتيرا ) ، هزم فيها المسلمون وقتل المستعين ، وذلك في رجب سنة ٥٠٣ هـ / يناير ١١١٠ م ولم تلبث المملكة كلها أن سقطت في يد النصارى بعد ذلك بعشر سنوات (٣٢) .

## ٢ - علاقة مملكة بلنسية بممالك اسبانيا النصرانية :

تمثل بلنسية نموذجا للفوضى السياسية التي كانت سمة من سمات هذا العصر ، اذ تعاقب على حكمها الفتيان العامريان ( مبارك ومظفر ) حتى عام ٤١١ هـ ثم استقل بها أحفاد المنصور بن أبى عامر حتى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ، ثم صارت تابعة لبنى ذى النون ويحكمها أحد أتباعهم ، ثم صار تحت حكمهم مباشرة بعد أن طرد القادر من طليطلة وملكه الفونش السادس على بلنسية عام ٤٧٨ هـ . ولم تلبث أن استقلت المدينة تحت حكم قاضيها ابن جحاف عام ٤٨٥ هـ بعد أن قتل القادر الذى كان في الواقع ظلا لسلطان ملك قشتالة أو لذلك القائد القشتالى المغامر المسمى القمبيطور . ولم يستمر حكم هذا القاضى طويلا فقد تمكن القمبيطور من الاستيلاء عليها

(٣١) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٥ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٧٣ ، الحلل الوشية ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٣٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٤ .

المقرى ، النفع ، ج ١ ، ص ٢٠٦ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٩١ .

بعد عامين ( ٤٨٧ هـ ) عندما لم تجد من يساعدها في الصمود أمام حصار استمر عشرين شهرا كاملا ، اكل الناس فيها لحوم الموتى من البشر . واستطاع الراباطون أن يستعيدوها بعد ذلك بثمانية اعوام ( ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ) .

وخلال هذه التقلبات السياسية التى مرت على تلك المدينة ، ظهرت الأطماع فى الرغبة فى السيطرة عليها سواء من جانب المسلمين ( بنى هود — بنو ذى النون ) أو من جانب المسيحيين ( ملوك أرغونة — قطلونية — قشتالة ) . وتاريخ تلك المدينة خير مثال يمكن أن نضربه للتعرف على حقيقة العلاقات السياسية التى كانت موجودة على أرض شبه الجزيرة فى ذلك الوقت .

وأول من استولى على بلنسية بعد قيام الفتنة البربرية فى بداية القرن الخامس الهجرى هم الفتيان العامريون ، فقد حكمها منهم مظفر ومبارك وانتهى حكمهما عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ، وتولى أمر بلنسية بعدهما الفتى لبيب العامرى صاحب طرطوشة بموافقة أهلها ، لكنه أساء السيرة وسخط عليه أهل بلنسية للصدقة التى عقدها مع ملك برشلونة رامون بوريل الثالث ، مما أعطى الفرصة لهذا الملك من التدخل فى شئون بلنسية بصورة واضحة . فقام أهل بلنسية وعقدوا البيعة لأحد أحناد المنصور بن أبى عامر ، وهو عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول ( ٤١١ — ٤٥٢ هـ / ١٠٢١ — ١٠٦١ م ) ( ٣٣ ) .

استقر عبد العزيز فى بلنسية وتلقب بالمنصور ، ووسع نفوذه واستولى على المرية بعد مقتل حاكمها زهير العامرى عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م ، وكذلك استولى على مرسية وأوريولة ، وبذلك صارت مملكة مجاهد العامرى فى دانية محصورة بين أطراف مملكة بلنسية الشمالية والجنوبية ، فخرج على

---

(٣٣) ابن عذرى ، المصطلح نفسه ، ج ٣ ، ص ١٦٣ ، ١٦٤ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

رأس قواته عام ٤٣٤ هـ / ١٠٤١ م لكنه منى بالهزيمة على يد قوات المنصور عبد العزيز الذي ساعدته قوات مرتزقة أمده بها ملك قشتالة فرديناند الأول ، ولم تتعرض بلنسية في عهد عبد العزيز لهجمات من نصارى الشمال ، ربما لصلّة القرابة التي تربطهم ، حيث أن جدته كانت من نصارى نبرة أو قشتالة (٣٤) .

وفي عهد ابنه وخلفه عبد الملك المظفر (٤٥٢ — ٤٥٧ هـ / ١٠٦١ — ١٠٦٥ م) تعرضت مملكة بلنسية لهجمة شرسة من فرديناند ملك قشتالة عام ٤٥٧ هـ . ويبدو أن تلك الهجمة كانت رد فعل لاسترداد بريشتر على يد المقتدر بن هود من يد الصليبيين بعد أن كانوا قد استولوا عليها في بداية عام ٤٥٦ هـ ، ونتيجة لسوء معاملة النصاري التي صحبت القضاء على آثار تلك الحملة الصليبية المدمرة التي تعرضت لها بريشتر .

وكان ابن هود قد رفض دفع الجزية لفرديناند ، فقام الأخير بهاجمة أراضى سرقسطة ، ثم أشرف على بلنسية وضرب حولها الحصار ، وأعمل الحيلة في القضاء على أهلها ، فتظاهر بالارتداد صوب الشمال الى قرية تسمى بطرنة ، فخرج سكان بلنسية مع ملكهم عبد الملك لمطاردتهم وهم يلبسون أفخم الثياب والزينة وكأنهم في يوم عيد ، وهنا خرج عليهم الكمين وأخذهم قتلا وأسرا ، ولم ينج منهم الا العدد القليل ، وفي ذلك يقول الشاعر (٣٥) :

لبسوا الحديد الى الوغى ولبستم حلال الحرير عليكم الوانا  
ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطونه ما كانا

بعد هذا النصر الذي حققه فرديناند عاد الى محاصرة المدينة من جديد ، فاستغاث عبد الملك المظفر بصهره المأمون صاحب طليطلة . ورغم

(٣٤) غنان ، دول الطوائف ، ص ١٩٧ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

(٣٥) ابن بسام برواية ابن عذارى ، ج ٣ ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

ابن بسام برواية أخرى ، المصدر نفسه ، ج ١ . ص ٨٥ ، ج ٢ ، ص ٥٧٤ .

أن المأمون كان يدفع الجزية لفرديناند إلا أنه هرع لانتقاذ المدينة أملا في استخلاصها منه لنفسه ، وقد ساعدته الظروف على ذلك ، إذ أن فرديناند لم يلبث أن أحس بدبيب المرض والموت يسرى في جسده فرفع الحصار وعاد الى بلاده حيث مات هناك بعد فترة قصيرة ، وانتهاز المأمون الفرصة ودخل بلنسية وعزل صهره عن حكمها وضمها الى مملكته طليطلة في ذي الحجة عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م (٣٦) .

ترك المأمون حكم بلنسية في يد أحد وزرائها وهو أبو بكر أحمد بن أبي عبد الله بن عبد العزيز ( ٤٥٧ — ٤٧٨ هـ / ١٠٦٥ — ١٠٨٥ م ) ، فأحسن ادارتها واستقل بها بعد وفاة المأمون عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ، لكنه واجه خطر أطماع بنى هود فيها ، ذلك أن المقتدر بن هود كان قد استولى على دانية في العام التالي ( ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ) من يد اقبال الدولة على بن مجاهد العامري ، وأصبحت بلنسية محصورة بين أطراف مملكته ، فتوجس أبو بكر بن عبد العزيز خفية من المقتدر بن هود ، فخطب الفونش السادس ملك قشتالة وانضوى تحت حمايته ، وتعهده له بأداء الجزية ، وفي الوقت نفسه كان المؤتمن بن المقتدر يتطلع الى امتلاك بلنسية لأهمية موقعها ووفرة خيراتها ، فخطب بدوره الفونش السادس ودفع اليه مائة ألف دينار لمعاونته في السيطرة عليها (٣٧) .

وبالفعل زحف ملك قشتالة الى بلنسية ، فخرج اليه ملكها أبو بكر وخطبه برقة ولباقة وأقنعه بالرجوع ، فأنصرف الفونش ووعدته بحمايته . ذلك أن الفونش كان معجبا بأبي بكر ويعده واحدا من رجالات الأندلس الثلاثة في نظره ، وهم أبو بكر بن عبد العزيز هذا ، وأبو بكر بن عمار وزير المعتمد بن عباد ، وششنانده أحد قواده البارزين . وفي نفس

---

(٣٦) أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ ، القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٣٧) القلقشندي ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

خليل السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١١٠ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٦٦ .

الوقت التمس أبو بكر حماية المؤتمن بن هود ، وقدم ابنته لتكون عروسا لابنه أحمد المستعين ، واحتفل بهذا الزواج احتفالا كبيرا وذلك في رمضان ٤٧٧ هـ / فبراير ١٠٨٥ م ، ولم يعيش أبو بكر طويلا اذ ما لبث أن توفي في صفر ٤٧٨ هـ / يونية ١٠٨٥ م ، وخلفه في حكم المملكة ابنه أبو عمر عثمان ( صفر ٤٧٨ — شوال ٤٧٨ هـ ) (٣٨) .

وفي هذه الأثناء حدثت أكبر كارثة حاقت بالمسلمين في ذلك العصر اذ سقطت طليطلة في يد الفونش السادس في صفر ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكان لسقوطها آثار خطيرة على مستقبل مملكة بلنسية . ذلك أن الفونش كان قد اتفق مع القادر بن ذي النون ملك طليطلة المعزول على اعطائه بلنسية ، أو مساعدته في استردادها بن يد ابن وزيرهم الذي كان بنو ذي النون قد ولوه اياها بعد القضاء على حكم العامريين بها عام ٤٥٦ هـ كما سبق القول . وانقسم شعب بلنسية على نفسه ، فكان البعض يرى الانضواء تحت حماية المستعين بن هود ، بينما الآخرون يرون أن لبنى ذي النون حقوقا في المدينة وهم أحق بها (٣٩) .

وتحقيقا لاتفاق الفونش مع القادر ، فقد قدم الأخير مع قوة قشتالية بقيادة البارفانيس الذي تسميه الرواية الاسلامية ( البرهانس ) ، وتمكن من دخول بلنسية في شوال ٤٧٨ هـ / فبراير ١٠٨٦ م ، وقامت دولة بنى ذي النون مرة أخرى في شرقى الأندلس بعد أن كانت قد انتهت في طليطلة ، وقامت على يد ملكها الشريد الخانع الضعيف — القادر بالله في مثل الظروف التي كانت قائمة عليها من قبل في أواخر أيامها بطليطلة — دولة ضعيفة تابعة ، تدين بوجودها لقشتالة ، وتعيش في ظل الحراب النصرانية . وما لبث القادر أن أبدى صولة الضعيف اذا تحكم ، ففرض على المدينة حكم طغيان شامل ، وصادر الأغنياء وفرض عليهم الغرامات ،

(٣٨) للقتشندى ، نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٦ .

(٣٩) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٧ .



وعاث النصارى فى المدينة ، وأصبحوا الحاكمين الحقيقيين لها ، وخاف الناس من القادر أن يسلمها لألفونش كما سلم من قبل طليطلة (٤٠) .

ولما رأى المنذر بن هود صاحب طرطوشة ودانية والجزء الشرقى من مملكة سرقسطة والذي كان يناوىء ابن أخيه أحمد المستعين اضطراب الأحوال فى بلنسية ، طمع فيها خاصة وأنها تشطر مملكته ، فسار إليها فى قواته ومعه سرية من المرتزقة القتلان وحاصرها . وفكر القادر فى التسليم ، لكنه أرسل الفونش ملك قشتالة يستغيث به ، كما أرسل بنفس الصريح إلى المستعين بن هود صاحب سرقسطة وخضم المنذر الذى أراد أن يحقق حلم أبيه المؤتمن فى السيطرة على بلنسية ، وأن يعوض الأموال التى كان قد دفعها أبوه إلى ملك قشتالة لتحقيق ذلك ، ويبادر بالاستجابة لصريح القادر ، وهرع إلى بلنسية فى أربعة آلاف فارس ، ومعه حليفه القمبيطور فى ثلاثة آلاف فارس عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م (٤١) .

ويقال أن المستعين قد اتفق مع القمبيطور على أن تكون الأسلاب كلها من نصيب القمبيطور ورجاله ، وأن تكون المدينة ذاتها من نصيب المستعين . وكانت هذه هى النية الحقيقية فى اسراع المستعين لنجدة بلنسية . ولما أشرف على بلنسية أدرك المنذر أنه لا فائدة من الانتظار ، وكان القادر يعرف نوايا هؤلاء الذين هرعوا لمساعدته ، فحاول أن يضربهم ببعضهم وتحالف مع القمبيطور سرا ، وأرسل إليه الأموال والهدايا ، فلما وصل القمبيطور والمستعين إلى بلنسية ، ظهرت حقيقة القمبيطور ، وانكشف غدره بمن آواه ، وبانت خلاله الأصلية التى أباحت له أن يبيع العدو والصديق معا ، وأن ينتهز الفرصة بأى ثمن ، فكان يوعز للقادر والمستعين أنه مساعد لكل منهما فى وقت واحد (٤٢) .

---

(٤٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، القلقشندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ .

ص ٢٥٤ .

Dozy, op. cit, p 693

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٤١) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٤٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .

وأراد القمبيطور الا يعرض نفسه لغضب الفونش السادس ملك قشتالة ، فأرسل اليه يخبره أنه فيما يعمل ويغنيه إنما هو تابع له ، وذهب بنفسه الى قشتالة وحصل من الفونش على وثيقة تبيح له امتلاك وتوريث ما يحصل عليه من أراضي المسلمين لأولاده من بعده . ولما أدرك المستعين مدى نفاق القمبيطور وغدره وانصرافه الى العمل لصالحه وصالح قشتالة ، قطع علاقته به واتجه الى محالفة برنجير كونت برشلونة ، وكان من الأد أعداء القمبيطور ، ودفع اليه أموالا طائلة وأرسله الى محاصرة بلنسية ، ولكن القادر صمد للحصار حتى عاد القمبيطور من قشتالة وتقابل مع قوات كونت برشلونة في معركة هزم فيها الكونت وأسر ، وأطلق القمبيطور سراحه لقاء فدية كبيرة ، وانتهى الأمر بينهما الى التفاهم وعاد الكونت بجيشه شمالا الى برشلونة (٤٣) .

استطاع القمبيطور بعد ذلك أن يفرض نفوذه وسيطرته على شرق الأندلس ، فدفع له الجزية أصحاب البونت والسهلة ومريبطر وشنتمرية الشرق علاوة على بلنسية التي تعهد صاحبها القادر أن يدفع له مائة ألف دينار سنويا نظير حمايته له . وقد أثار ازدياد نفوذ القمبيطور على هذا النحو أعداءه في قشتالة . فأثاروا الملك عليه ، وصوروا له تصرفات القمبيطور بصفة الغدر والخيانة ، وخاصة بعد أن كان القمبيطور قد تخلف عن مساعدته في حصار حصن لبيط ، فقبض على زوجته وأولاده وعزم على مهاجمة بلنسية في الوقت الذي كان فيه القمبيطور في سرقسطة لينظم الدفاع عنها . ازاء ازدياد خطر المرابطين ، ولعقد محادثات مع ملوك النصرى المجاورين مثل ملك أرغونة وملك نبرة (٤٤) .

وتحالف الفونش السادس مع جمهوريتى جنوة وبيزة على مهاجمة بلنسية بحرا ، على أن يهاجمها في نفس الوقت من البر ، وتقدم الفونش الى بلنسية لكن السفن الحليفة لم تصل في الوقت المناسب ، فرفع الفونش الحصار بعد أن أخذت المؤن في النفاد ، وبعد أن سمع أن القمبيطور قد أغار

(٤٣) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٤٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٠ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٩ .

على أراضى قشتالة انتقاما لما فعله الفونش بمنطقة نفوذه فى بلنسية ، فعاد الفونش إلى سياسة اللين وأصدر عفوه عن القمبيطور فى أوائل عام ٤٨٥ هـ ، ١٠٩٢ م وعاد إلى بلاده (٤٥) .

انتهز الحزب المعارض للقادر والقمبيطور ولننفوذ نصارى الأسبان بصفة عامة الفرصة ، وكان على رأس هذا الحزب قاضى المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن جحاف المعافى الذى تفاوض مع المرابطين على أن يجدوه بقوة تساعد على الوقوف فى وجه الأسبان والقادر بن ذى النون على أن يسلم لهم المدينة . ولما وصلت القوة المطلوبة ، قامت الثورة ضد القادر وتم قتله فى رمضان ٤٨٥ هـ / أكتوبر ١٠٩٢ م ، وآلت السلطة إلى جماعة الفقهاء والأشراف وعلى رأسها ابن جحاف (٤٦) .

ولما علم القمبيطور بهذه التطورات المزعجة أسرع بالسير إلى بلنسية ، وأعمل الحيلة حتى ينفرد بابن جحاف ، وفأوضه على أساس أن يطرد جند المرابطين من المدينة وأن يبقيه حاكما لها مكان القادر ، على أن يؤدى الجزية المتفق عليها من قبل وهى ألف دينار فى الأسبوع . ونجحت الخطة ، لكن القمبيطور سرعان ما نقض وعوده وأخذ يضايق المدينة ويطالب أهلها بالأموال ، وطالب ابن جحاف بتسليم ابنه رهينة . عندئذ رفض ابن جحاف وأرسل يستصرخ بالمرابطين والمستعين ملك سرقسطة والفونش السادس ملك قشتالة ، وصمد ابن جحاف لحصار القمبيطور عشرين شهرا حتى أكل الناس لحوم البشر ، وصاروا أشباحا كالموتى ، وارتفعت الأسعار بشكل لا يحتمل وانتهى الأمر باستسلام المدينة فى ٢٨ جمادى الأولى ٤٨٧ هـ / ١٥ يونية ١٠٩٤ (٤٧) (٤٨) .

وبذلك سقطت بلنسية فى يد القمبيطور وضاعت كما ضاعت طليطلة ، وكان لسقوطها دوى كبير فى أنحاء أسبانيا ، لا سيما بعد المذابح التى أجراها القمبيطور لزعمائها وخاصة لابن جحاف الذى أحرقه حيا ، عقابا له على

(٤٥) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٩ ، ١٠٠ ، عثان ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٠ .

(٤٦) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٣ ، ابن عذارى ، المغرب ، ج ٣ ، ص ٢٠٥ .

(٤٧) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ .

(٤٨) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٣ ، ابن عذارى ، المغرب ج ٣ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

صموده الطويل ، ولاستنجاده بالمرابطين ، ولاغتياله للقادر أحد اتباع القمبيطور ، ولاستيلائه على أمواله وانكار ذلك عند مطالبته بها . ولبت القمبيطور يقاوم المرابطين ويدفع تقدمهم على شرق الأندلس حتى مرض وقتل ابنه الوحيد في معركة لألفونش مع المرابطين الذين تمكنوا أيضا من هزيمة قواته عام ٤٩٠ هـ / ١٠٩٧ م ، فأله الخطب واشتد عليه المرض ومات غما وحزنا في رمضان ٤٩٢ هـ / يولية ١٠٩٩ م (٤٩) .

صمدت زوجته خمينا لهجمات المرابطين عامين آخرين ، وأخيرا استدعت الفونش السادس الذى جاء اليها في قواته ، ودخل بلنسية في جمادى الثانى ٤٩٥ هـ / مارس ١١٠٢ م ، ووجد الفونش أنه لا فائدة للمقام في هذه المدينة ، فخرج ومعه خمينا وجميع النصارى ومعهم أموالهم وأولادهم ورفات القمبيطور وأحرقوا المدينة ، ودخلها المرابطون وأعادوها الى حوزة الاسلام في شعبان ٤٩٥ هـ / مايو ١١٠٢ م وبذلك انتهى الصراع حول هذه الملكة (٥٠) .

## ٢ — علاقة مملكة دانية والجزائر الشرقية بالمالك النصرانية في اسبانيا :

بعد قيام البربرية وانتشار عقد الخلافة في أوائل القرن الخامس الهجرى ، تغلب مجاهد بن عبد الله العامرى مولى عبد الرحمن شنجول بن أبى عامر على دانية والجزائر الشرقية ( ميورقة ، منورقة ، يابسة ) والتى تعرف بجزائر البليار ، وأقام المعيطى خليفة عام ٤٠٥ هـ ، وغزا معه جزيرد سردينيا في ربية الأول عام ٤٠٦ هـ / أغسطس ١٠١٥ م ، وكان أول فتح اسلامى لهذه الجزيرة الكبيرة ، وأخذ مجاهد ينظم شئونها وبدأ في بناء مدينة كبيرة بها ونقل اليها أسرته ، ولما كانت تلك الجزيرة قريبة من سواحل ايطاليا ، أعلن البابا بندكتوس الثامن في الحال الحرب الصليبية ضد المسلمين ، وعقد حلفا مع جنوة وبيزة على محاربتهم وطردهم من الجزيرة (٥١) .

(٤٩) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، للضبى ، بغية المتوس ، ص ١٨٢ .

ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ، ص ٢٧٩ ، المقرئ ، النفع ج ٢ ، ص ٥٧٧ .

(٥٠) ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ٤١ ، ٤٢ ، عان ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٨ .

(٥١) للضبى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .

لبن الأثير الكامل ج ٩ ، ص ١٠٨ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٤ .

ولا تعطينا المصادر الإسلامية معلومات مفصلة عن دور نصارى الشمال الأسباني في هذه الحرب الصليبية ، ولكنها تكفى بالإشارة الى أن الروم والفرنجة ساروا اليها وأخرجوا المسلمين منها في نهاية عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م . ولعل المقصود بالروم هنا هم جنود البابا ومدن إيطاليا من الرومان ، أما الفرنج فلعهم فرنجة برشلونة ومما يقوى هذا الاعتقاد موقع برشلونة المواجه لجزيرة سردينيا ومهاجمة مجاهد العامري لها أى لبرشلونة فيما بعد (٥٢) .

على أية حال فقد فشل مشروع مجاهد في احتلال سردينيا نظرا لمقاومة أهل الجزيرة من الداخل ، وتمرد الجند المرتزقة النصارى في أسطوله ، وتوالى العواصف العنيفة التى كانت تقذف بسفن المسلمين ناحية الأسطول البابوى ، فيفتنمها هؤلاء ويفتكون بين فيها أو يأسرونهم . وانتهت المعركة بهروب مجاهد في قلة من جنده بعد أن استولى العدو على أهله وحرمة وابنه ( على ) وأمه النصرانية ( جود ) وذلك في عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م . وقد استطاع مجاهد أن يفتدى زوجته وبناته وابنه ( على ) فيما بعد ، ورفضت أمه وأختها العودة وفضلتا العيش في أرض نصرانية فأعرض عنهما (٥٣) .

وفي عام ٤٠٩ هـ / ١٠١٨ م هاجم مجاهد العامري منطقة قطلونية ويبدو أنه هزم أمام قوات قطلونية واضطر الى طلب الهدنة ودفن الجزيه ، ولو كان مجاهد قد سخر مجهوده كله لجهاد نصارى أسبانيا ولم يقيم بمشروعه الفاشل في سردينيا لكان ذلك مفيدا وذا جدوى ، ولكنه أثار البابوية أكبر زعامة مسيحية موجودة في ذلك الوقت بغزوه الطائش لسردينيا وبعض المدن الإيطالية . وقد قضى مجاهد بقية عمره حتى وفاته عام ٤٣٦ هـ / ١٠٤٥ م في علاقات طيبة مع كونت برشلونة ومع فرديناند ملك قشتالة على عكس علاقاته بغيرائه المسلمين في المرية ومرسية وبلنسية (٥٤) .

- 
- (٥٢) الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٤٥٨ ، ابن الأثير ، الكامل ج ٩ ، ص ١٠٨ .  
 (٥٣) الضبى ، المصدر نفسه ص ٤٥٨ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ج ٤ ، ص ١٦٤ .  
 (٥٤) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٤ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٢ .

تولى حكم مملكة دانية والجزائر الشرقية اقبال الدولة على بن مجاهد البامري ( ٤٣٦-٤٦٨ هـ / ١٠٤٤-١٠٧٥ م ) ، وتميز عصره بالعلاقة الحسنة مع ملوك النصارى والتسامح المطلق مع نصارى مملكته ، وربما كان ذلك راجعا الى نشأته بين نصارى سردينيا خلال أسرته الطويل ، واعتناقه دينهم قبل أن يعود الى الاسلام ودياره . وقد اطمأن ( على ) على موقع مملكته الحصين والنائي عن أطماع ملوك النصارى ، وعاش في سلام مع جيرانه ، لا يهتم الا بتنمية ثروته أو زيادة خراجه ، وصاهر ملوك الطوائف بتزويجهم من بناته الخمس الرائعات الجمال ، واللاتى كن في الواقع عيوننا له على أزواجهن (٥٥) .

ومما يدل على علاقته الطيبة بملوك النصارى الأسباب أنه وضع كنائس مملكته في دانيا والجزائر تحت رعاية أسقفية برشلونة ، على أن يتولى ( على ) تعيين رجال الدين الذين يعملون بهذه الكنائس ، وهناك وثيقة بالفاتيكان تفيد بذلك ، ووثيقة ثانية يسمح فيها (على) للنصارى المعاهدين في أعمال مملكته بأن يذكروا اسم أسقفهم في خطبهم ومواعظهم . وقد أورد الأستاذ عنان النص العربى لهذه الوثيقة جاء فيه « أشهده اقبال الدولة أيده الله على أنه أجاب غلبرت الأسقف ببرشلونة الى أن يكون مذكورا في خطب النصارى في بيعهم بجميع أعماله ، وهو مما انعقد بالخط الأعلى ، وذلك في شوال سنة تسع وأربعين وأربعمائة » ثم يلى ذلك أسماء الشهود (٥٦) .

وكان على بن مجاهد يهتم بشئون الجزائر الشرقية ويعتبرها أهم اقسام مملكته ، وكان حاكم الجزائر على عهد والده مجاهد ، هو غالب مولاة ( ٤٢٨ — ٤٣٦ هـ ) ، وكان غالب هذا جنديا وبحارا قديرا دائم الاغارة بسفنه على الشواطئ النصرانية القريبة سواء في قطلالونية أو على ساحل بروفانس . وحكم الجزائر من بعده صهر على بن مجاهد ، وهو سليمان.

(٥٥) ابن بسلام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٣ .

(٥٦) ٢ . عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٠٣ .

ابن مشكيان ( ٤٣٦ - ٤٤٢ هـ ) الذى غزا جزيرة سردينيا مرة ثانية عام ٤٤١ هـ / ١٠٥٠ م وفتحها ، الا أن البابا ( ليو ) التاسع وجه حملة صليبية اخرى اخرجت المسلمين منها نهائيا (٥٧) .

ثم حكم الجزائر بعده عبد الله المرتضى ( ٤٤٢ - ٤٨٦ هـ ) ، وفى عهده سقطت دانية فى يد احمد المقتدر بن هود صاحب سرقسطة عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، فاستقل عبد الله المرتضى بحكم الجزائر الشرقية . وقد كان عبد الله هذا تربطه بملك برشلونة رامون بيرنجر الأول ( ٤٢٧ - ٤٦٩ هـ ) وولديه من بعده ، برنجر ورامون ، علاقات ود وصداقة ، وترددت بينهما البعثات والسفارات ، وفى احداها تعرف رسول المرتضى على ( مبشر بن سليمان ) الذى كان نصارى برشلونة قد أسروه من احدى قلاع لاردة وعاش هناك وظهرت مواهبه (٥٨) .

قدر سفير المرتضى مواهب (مبشر) واستقدمه الى الجزائر الشرقية حيث تولى حكمها بعد وفاة المرتضى ، وأرسل الى دانية يطلب تسليم أهل على ابن مجاهد ، فبعثوهم اليه ، وأخذ يكرر غزواته على أرض قطلونية ، حتى جمع له كونت برشلونة جهوعه وأبحر اليه ونازله بميورقة عشرة أشهر استنجد أثناءها مبشر بعلى بن يوسف بن تاشفين فلم يصل الأسطول المربطى الا بعد فوات الأوان ، فقد استسلمت الجزيرة لكونت برشلونة ، لكن المرابطين تمكنوا من استعادتها أخيرا ، وبذلك انتهت دولة بنى مجاهد العامرى فى الجزائر الشرقية (٥٩) .

أما فى دانية فقد سبق القول بسقوطها فى يد بنى هود عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م ، وبذلك انتهى عهد بنى مجاهد العامريين على أرض اسبانيا . وقد حاول سراج الدين بن على بن مجاهد حاكم حصن شقورة استرداد

(٥٧) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٥ .

خليل السامرائى ، المرجع نفسه ، ص ٧٤ .

(٥٨) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

(٥٩) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢١٠ .

عرش أبيه المقتصب ، فسار الى برشلونه واستفاد يصاحبها رامون برنجر الأول ، فاستجاب له بعد شروط اشترطها عليه ، واهده بقوات تمكن بها سراج الدين من استرداد بعض الحصون ، لكن المقتدر بن هود تمكن من هزيمته والتخلص منه بأن دس له السم فمات سراج الدين علم ٤٦٩ هـ / ١٠٧٧ م (٦٠) .

#### ٤ — علاقة شنتمرية الشرق وبعض المدن الأخرى بالممالك النصرانية في اسبانيا :

سميت تلك المدينة بهذا الاسم تمييزا لها عن شنتمرية الغرب التي تقع على نهر تاجة وتتبع مملكة بطليوس . وكانت شنتمرية الشرق تسمى أيضا ( السهلة ) وهي تقع بين مملكتي سرتسطة وطليلة ، ونظرا لهذا الموقع فقد سار حاكمها عبد الملك بن هذيل بن رزين ( ٤٣٦ — ٤٩٦ هـ / ١٠٤٤ — ١١٠٣ م ) بعيدا عن المشاحنات والمنازعات التي حفل بها هذا العصر ، وعاش عيشة البذخ واللهو حتى أنه اشترى ذات مرة جارية بثلاثة آلاف دينار (٦١) .

بيد أنه لما سقطت طليطة في يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، اضطر عبد الملك أن يدفع له الجزية كسائر ملوك الطوائف وأن يذهب بنفسه مهتئا على انتصاره ، حاملا معه هدية جليلة القدر ، فكافأه الملك النصراني عليها بقرد كان عبد الملك يفخر به وبيته على سائر ملوك الطوائف ، لأنه الوحيد الذي نال هدية الفونش ، ولو أن هناك رواية تنسب هذه الحادثة الى ولده يحيى بن عبد الملك وأن كان هذا مستبعدا لأنه لم يحكم الا بعد سقوط طليطة بحوالى عشرين عاما (٦٢) .

وبعد هزيمة الفونش السادس في موقعة الزلاقة على يد المرابطين امتنع عبد الملك عن أداء الجزية ، لكن التقيطور كان يحمل الراية النصرانية

(٦٠) ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ .

(٦١) ارسلان ، الظل السندسية ، ج ٢ ، ص ١٠١ .

(٦٢) ابن عذاري ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣١٠ ، ٣١١ .



ويقوم ببث الرعب والفرع في شرقي الأندلس ، واضطر عبد الملك بن هزيل الى الخضوع له ، واتفق معه عام ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م على أن يتركه يعيش في سلام ، على أن يؤدي الجزية للملك الفونش كما كان الشأن قبل الزلافة ، وأن يدفع في الحال الى القمبيطور بصفته نائباً عن الملك مبلغ عشرة آلاف دينار . عندئذ غادر القمبيطور اراضى شنتمرية عائداً الى بلنسية (٦٣) .

ولما اشتدت وطأة القمبيطور على بلنسية والأحياء المجاورة لها ، شعر القائد أبو عيسى بن لبون صاحب حصن مريبطر أنه لا يستطيع الصمود لهذا الأرهاق ، وأنف من مفاوضة القمبيطور ووضع نفسه تحت حماية أبي مروان عبد الملك بن هزيل ، وسلمه الحصن وذهب الى شنتمرية للعيش فيها في أواخر عام ٤٨٦ هـ / نوفمبر ١٠٩٢ م . وسار عبد الملك الى القمبيطور ومفاوضه في عقد المودة والابقاء على الحصن في يديه ، على أن تكون سائر حصونه مفتوحة لجنود القمبيطور تزودهم بال مؤن ، ويبيعون ويشتررون منها ما يحتاجون اليه من لوازم الحياة (٦٤) .

لكن ابن هزيل لم يلبث أن طمع في الاستقلال عن القمبيطور وامتنع عن أداء الجزية له ، ومفاوض بدر ( بطره ) ملك أرغونة لكي يعاونه في تحقيق مشروعه ، وعرض عليه مبلغاً كبيراً من المال . فلما وقف القمبيطور على هذه التطورات انقض بقواته على أرض شنتمرية ( السهلة ) وعاث فيها ، ونسف الزرع وساق الماشية وسبى جموعاً كثيرة ، وبعث الجميع الى « جبالة » على مقربة من بلنسية حيث كان معسكره الرئيسي . عندئذ اضطر عبد الملك الى الخضوع له مرة أخرى ، اجتناباً لهذا السيل المدمر ، وصونا لأراضيه ورعيته ، وذلك عام ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م ، ولم يلبث أن توفي عبد الملك بعد ذلك بحوالى عشر سنوات وخلفه ابنه يحيى الملقب بحسام الدولة (٦٥) .

وكان يحيى هذا أميراً ضعيفاً مدمناً للشراب ، وكان يسعى الى مصانعة ملك قشتالة الفونش السادس ويلتمس عودته ويجتنب سطوته . والواقع أن

(٦٣) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٦٤) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ .

(٦٥) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٨ .

ملك بنى رزين كان يدنو حينئذ من نهايته بسرعة ، ذلك ان المرابطين كانوا قد اجتاحتوا يومئذ شرقى الأندلس كله ، وتوجوا سلطانهم فى تلك المنطقة بالاستيلاء على بلنسية فى عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م ، ورغم ان عبد الملك قد أعلن قبيل وفاته طاعته لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين الا أن هذا الاعتراف لم يكن كافيا لتحقيق خطة المرابطين فى القضاء على سائر ملوك الطوائف . ومن ثم فقد تابع المرابطون زحفهم نحو الشمال ، وفى اليوم الثامن من رجب عام ٤٩٧ هـ / ابريل ١١٠٤ م دخل المرابطون مدينة شنتيمرية ، وخلعوا أميرها يحيى بن عبد الملك بن رزين ، وانتهت بذلك دولة بنى رزين بعد ان عاشت زهاء ستين عاما ، ولم يبق بعدها من دول الطوائف العديدة سوى مملكة سرقسطة التى تحدثنا عنها من قبل (٦٦) .

وتقع جنوبى شنتيمرية امارة البونت ، واستمر عبد الله بن محمد ابن قاسم يحكمها لأكثر من أربعين عاما ، ولم تقع فى عهده حوادث ذات شأن الا حينما أصبحت هذه المنطقة فريسة لأطباع القمبيطور ومغامراته ، ففى عام ٤٨٥ هـ / ١٠٨٩ م زحف اليها بقواته وعاث فيها وخرب أراضيها ، واضطر صاحبها الى الدخول فى طاعته ودفع الجزية ومقدارها عشرة آلاف دينار أسوة بما فرض على جاره عبد الملك بن رزين صاحب شنتيمرية الشرق . ولما استولى المرابطون على بلنسية عام ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م استولوا بسرعة على القواعد والحصون المجاورة لها ومن ضمنها امارة البنت ، ويبدو ان ذلك تم فى العام التالى (٦٧) .

والى الجنوب من البونت تقع امارة مرسية القريبة من حصن لبيط ، وكانت هذه الامارة تحت حكم خيران الصقلبى العامرى منذ عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ضمن مملكته الواسعة التى كانت تشمل بالإضافة الى مرسية جيلن والمرية . ولما هلك عام ٤١٩ هـ صارت مملكته لأبى القاسم زهير الصقلبى العامرى ، ولما مات زهير عام ٤٢٩ هـ استقل بنو طاهر بملك مرسية على يد أبى عبد الرحمن بن طاهر ( ٤٥٥ - ٤٧١ هـ / ١٠٦٣ - ١٠٧٨ م ) وظلت تحت حكمهم حتى طمع فيها المعتد بن عباد ، فأرسل اليها حملة بقيادة

(٦٦) ابن عذارى ، البيان ، ج ٣ ، ص ٣١١ ، غان ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٦٧) غان ، المرجع نفسه ، ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

وزيره ابن عمار الذى انقلب على مليكه واستبد بحكم مرسية ، وفرض حكمها  
التابعه ابن رشيق عند ما نوى الذهاب الى سرقسطة ليقوم بغامرة أخرى  
هناك (٦٨) .

لكن ابن رشيق عامل ابن عمار بأسلوبه وأعلن استقلاله بالامارة ،  
ثم عاد وأعلن تبعيته للمعتمد بن عباد ، ولما جاء المرابطون لحصار حصن  
ليبس القريب من حدود امارته ، انتهز ابن رشيق الفرصة وتمرد على المعتمد  
وتقرب الى ابن تاشفين ، وفي نفس الوقت كان يتصل بالنصارى المحاصرين  
فى الحصن ويزودهم بالمؤن حتى يصمدوا للحصار ، لأنه كان يعتقد أن  
وجودهم امان له ضد خطر ابن عباد والمرابطين ، ولم يكتف ابن رشيق  
بهذا القدر من الخيانة ، بل انه دفع جباية بلده مرسية لأتفونش مصانعة  
وتقربا اليه (٦٩) .

حينئذ أفتى الفقهاء بتسليمه لابن عباد ، وكان هذا سببا فى تمرد رجاله  
المرسیين وعودتهم الى مرسية وقطعهم الميرة عن المسلمين المحاصرين  
لحصن لبس ، فوقع الغلاء واشتد الحال بهم حتى اضطروا أخيرا لرفع  
الحصار عن الحصن خصوصا عندما علموا بمجيء الفونش لانتقاذه . وقد  
خدم موقف ابن رشيق جنود قشتالة وأدى الى تقويتهم واستمرار صمودهم ،  
وكانت نتيجة ذلك حدوث أول فشل يصيب الجبهة الاسلامية بعد انتصار  
الزلاقة الشهير والذي لم يكن قد مضى عليه أكثر من عامين (٧٠) .

والى الجنوب من مرسية تقع اماره او مملكة المرية ، وكانت أيضا  
تحت حكم خيران الفتى العامرى بعد فراره من قرطبة عام ٤٠٧ هـ خوفا  
من على بن حمود ، وظل فى حكمها حتى وفاته عام ٤١٩ هـ ثم حكمها من  
بعده زهير الصقابى العامرى حتى مقتله عام ٤٢٩ هـ أثناء صراعه مع  
بنى زيرى حكام غرناطة ، فصارت مملكته للمنصور عبد العزيز حفيد  
المنصور بن أبى عامر ، فولى عليها قائده وصهره معن بن صمادح التجيبى  
عام ٤٣٣ هـ ، لكنه خان سيده وأعلن استقلاله وتسمى بذى الوزارتين ،

(٦٨) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧٩ ، أبو الفدا ، تاريخه ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

الفلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ .

(٦٩) ابن بلقين ، مذكراته ص ١١٠ - ١١٢ ، ابن عذارى ، البيان ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ،

١٤٣٠ ، ابن الخطيب ، الحلال الموشية ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٧٠) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١٤٢ .

وظل يحكم المرية حتى وفاته عام ٤٤٤ هـ وتولاها من بعده ابنه المعتصم أبو يحيى محمد بن معن بن صمادح ( ٤٤٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٥٢ — ١٠٩١ م ) (٣١) .

ورغم موقع المرية المتطرف في جنوب الأندلس إلا أنها لم تنج من هجمات قوات قشتالة وخاصة بعد سقوط طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وقد قام حصن لبيط الذى شحنه الفونش بالعتاد والرجال بدور خطير في اشارة الرعب والفرع في تلك المنطقة ( مرسية ، ولورقة والمرية ) فقد قام جنوده النصرارى بهجمات على المرية ، والمناطق المجاورة حتى ضاق الناس بهذا الحال ولم يعودوا يأمنون على انفسهم اذا ما حاولوا الانتقال من بلدة الى أخرى . وقد ذهب أحد شعراء مرسية البارزين وهو عبد الجليل ابن وهبون ضحية هجمة لاحدى فرق نصارى هذا الحصن اثناء انتقاله بين ولورقة والمرية عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م (٣٢) .

ويبدو أن المعتصم بن صمادح قد اتصل بنصارى الشمال يطلب محالفتهم قبل سقوط طليطلة ، وذلك اثناء صراعه مع بنى زيرى أصحاب غرناطة ، اذ يشير مؤرخ بنى زيرى وهو آخر امرائهم عبد الله بن بلقين الى أن المعتصم قد غدر بهم واستولى على وادى آتش من باديس صاحب غرناطة ، وداخل الافرنج ووعدهم بالمال الكثير اذا ساعدوه في صراعه مع بربر غرناطة ، فاضطر باديس الى ملاطفته والابقاء عليه ، حتى لا يفتح الباب لانتشار نفوذ نصارى الشمال في هذا الركن القصى من شبه الجزيرة (٣٣) .

لكن الفونش لم يتركه هادىء البال بعد سقوط طليطلة كما قلنا ، وبالإضافة الى نشاط حصن لبيط الذى أشرنا اليه فقد أرسل الفونش حملة صغيرة مكونة من ثمانين فارسا الى المرية ، فتصدى لها المعتصم على رأس أربعمائة فارس ، ورغم عدم التكافؤ بين القوتين إلا أن المعتصم عاد يجر اذيل الهزيمة ، فقد جبن فرسانه عن اللقاء وولوا العدو ظهورهم ، ومع

(٧١) ابن حبان ، برواية ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ١ ، ج ٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

الطشندى ، المصدر نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

(٧٢) ابن دحية ، المطرب ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، الضبى المصدر نفسه ، ص ٣٧٤ ، ٣٧٥ .

(٧٣) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

ذلك لم يكن المعتصم من المتحمسين لاستخدام المرابطين الذين لم يلبثوا أن استولوا على إمارته وخلعوه عنها عام ٤٨٤ هـ (٧٤) .

## ٥ - علاقة مملكة غرناطة بالممالك النصرانية في اسبانيا :

استولى بنو زيري الصنهاجيون على غرناطة بعد أن نجح سليمان المستعين في تولي عرش الخلافة للمرة الثانية عام ٤٠٣ هـ ، فقد وزع على قواده ولايات الأندلس ، واختص بنو زيري بغرناطة . ولم تزودنا المصادر الإسلامية أو النصرانية بمعلومات عن علاقة بنو زيري بالممالك النصرانية إلا ابتداء من عهد آخر ملوك أمرائها عبد الله بن بلقين ( ٤٦٥ - ٤٨٣ هـ / ١٠٧٣ - ١٠٩٠ م ) . ويبدو أن موقع غرناطة المتطرف في جنوبي الأندلس كان له دخل في ذلك ، فقد ركز نصارى الشمال هجماتهم على ما يجاورهم من الثغور الإسلامية .

وقد أدى تطور الصراع بين الأمير عبد الله وبين المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية ، إلى استنجد الأول بالفونش السادس ملك قشتالة ، ذلك أن المعتمد استولى على مدينة جيان أهم قواعد مملكة غرناطة الشمالية عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، ثم سار بعد ذلك في قوات كبيرة وبنى بعض الحصون على مقربة من غرناطة حتى يجبرها على الخضوع والاستسلام ، لكن الوزير سماجة حشد قوات صنهاجة وأبدى شجاعة فائقة في الدفاع عن المدينة ، فاضطر ابن عباد أن يعود بخفى حنين (٧٥) .

وإزاء تزايد أطماع المعتمد بن عباد في غرناطة ، قرر الأمير عبد الله بتوجيه من وزيره سماجة أن يعقد حلفا مع الفونش السادس ملك قشتالة على نمط معظم ملوك الطوائف ، يتعهد له فيه بتأدية جزية قدرها عشرون ألف دينار ، وبعد توقيع المعاهدة أمدد الفونش ببعض قواته ، وقام الأمير عبد الله عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م بالاغارة على أراضي أشبيلية المجاورة لمملكته ، واستطاع أن يسترد حصن قبرة في جنوب غربي جيان (٧٦) .

(٧٤) ابن الكردبوس ، الآكتفاء في أخبار الخلفاء ، ص ٨٩ .

خليل السامرائي ، المرجع نفسه ، ص ١٤٨ .

(٧٥) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٦٩ - ٧٦ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٢ .

(٧٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧٦ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

وفي العام التالي ( ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م ) سار الفونش السادس الى مملكة اشبيلية وغرناطة ومعه وزيره ( ششند ) مطالباً بالجزية ، فرفض ملك غرناطة دفعها ، لاستبعاد مهاجمة النصارى له لبعد بلاده وحصانيتها . وانتهاز المعتمد بن عباد ووزيره ابن عمار الفرصة ، وبعثا الى الفونش السادس وعقدا معه حلفا على أن يتعاون الطرفان في افتتاح غرناطة ، وأن تكون المدينة للمعتمد وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة ، وأن يؤدي المعتمد اليه فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار . هكذا بلغ التردى والنذالة بين ملوك الطوائف (٧٧) .

وقد باننت نتيجة هذا الحلف أو هذه المؤامرة على الفور ، اذ قامت قوات من النصارى وعمدت الى تخريب بسائط غرناطة ولا سيما اراضي مرجها المشهور . وساعدت الظروف غرناطة على الصمود عند ما تم توجيه ضربة قاسمة لابن عباد بسقوط قرطبة التي كانت في حوزته في يد المؤمنين بن ذي النون عام ٤٦٧ هـ ، وانتهاز غرناطة الفرصة واحتلت الحصن الذي بناه ابن عمار بمساعدة النصارى بالقرب من غرناطة (٧٨) .

ولكن ابن عمار وزير المعتمد بن عباد لم ييأس ، وحاول مرة اخرى تحريض الفونش السادس على غزو اراضي غرناطة وزين له سهولة السيطرة عليها . وعندئذ رأى عبد الله بن بلقين أمير غرناطة أن يتفاهم من جديد مع الملك النصراني الفونش السادس ملك قشتالة ، فسار اليه بنفسه ، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهد عبد الله بأن يؤدي جزية سنوية مقدارها عشرة آلاف مثقال من الذهب ، وأن يسلم له بعض الحصون الواقعة جنوب غربى جيان ، وهذه باعها الملك النصراني بدوره لابن عباد(٧٩) .

وقد قلنا في حديثنا عن الأحوال الداخلية لمملكة اشبيلية ان ابن عمار وزيره المعتمد كان وزيرا مغامرا ولا يعمل الا لمصلحته الخاصة ، وانه كان

(٧٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧١ ، ابن بسام ، اللخيرة ، ق ١ ،

ج ٢ ، ص ١٢٤ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١٨ .

(٧٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٦٩ - ٧١ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ .

(٧٩) ابن بلقين ، المصدر نفسه . ص ٦٩ - ٧١ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

على اتصال بملك قشتالة ويعمل لحسابه في أحيان كثيرة . ولذلك فبمجرد أن تمكن المعتمد من قتل ابن عمار عقب خيائته وتمرده عليه ، تم الصلح بين مملكة غرناطة ومملكة أشبيلية وسويت جميع الخلافات بينهما عام ٤٧٧ هـ / ١٠٨٤ م ، لكنهما لم يتخذا موقفا موحدًا ازاء تهديد نصارى الشمال بسبب ضعف الملكتين ، واقتصر الأمر على مجرد التشاور وتحذير كل منهما الأخرى إذا ما أحست باقتراب النصارى (٨٠) .

ولما كانت كارثة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م بسقوط طليطلة في يد الفونش السادس ملك قشتالة ، كان عبد الله بن بلقين من المحيذين لاستدعاء المرابطين ، وشارك في الحملة الأندلسية المرابطية المشتركة التي حققت النصر في موقعة الزلاقة في العام التالي على الفونش السادس وهزيمته هزيمة ساحقة . لكن الفونش استطاع أن يجمع شتات جنده وأن ينهض من عثرته ، وساعدته دول أوروبا والبابوية على التصدي من جديد للمسلمين ، ولم يمض عامان حتى منى المسلمون بالفشل أمام حصن لييط ، وهو حصن زرعه الفونش في قلب الدولة الإسلامية جنوبى الأندلس ، وقام الفونش وهدد سرقسطة ، فقام صاحبها ومن يليه من حكام شرقى الأندلس بدفع الجزية له من جديد (٨١) .

بعد عودة ابن تاشفين الى بلاده عقب فشله أمام لييط عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م ، امتد تهديد الفونش السادس الى جنوبى الأندلس وأرسل قائده ( البرهانس ) لقبض الجزية من غرناطة والمرية ، وكان نائباً له في هذه المنطقة ، فخاف ابن بلقين خصوصاً بعد أن هده البرهانس بالاستيلاء على وادى أش ، فأرضاه ابن بلقين ببعض الأموال ، وعاد البرهانس يطلب ارضاء الفونش ، ولما امتنع ابن بلقين بحجة ضيق ذات اليد ، تحرك الفونش على الفور وأرسل رسوله لطلب الجزية عن ثلاثة أعوام مضت ، منذ أن امتنع المسلمون عن دفعها بعد الزلاقة عام ٤٧٩ هـ (٨٢) .

اضطر ابن بلقين أن يدفع ثلاثين ألفاً من قطع الذهب من ماله الخاص حتى لا تشكوه الرعية لابن تاشفين ، وجدد مع الفونش معاهدة التحالف ، على ألا يتعرض له ولا يهدد بلاده بعد ذلك ، وأن يحميه من خطر المرابطين.

(٨٠) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ ، أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ص .

(٨١) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .

(٨٢) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٣-١٢٥ .

وأن يقوم بالدفاع عنه ضدهم . وحاول رسول الفونش أن يضرب غرناطة بأشبيلية وأن يحرضها على غزوها ، ولما لم تنجح محاولته عزم الفونش على مهاجمتها بنفسه اذا لم تدفع الجزية . ورغم تحذير ابن بلقين للمعتمد ابن عباد حتى يحتاط لنفسه ، إلا أنه أساء الظن واعتقد أنه اتفق مع الفونش على ذلك (٨٣) .

وكان ملوك الطوائف قد أحسوا بتغير نفس يوسف بن تاشفين لما لاحظته من تدهور أحوالهم وازدياد خلافاتهم ، وظلمهم لرعيته وعيشتهم عيشة الترف ، مع تقصيرهم في نفس الوقت عن الدفاع عن بلادهم . لذلك سوغوا لأنفسهم الاتصال بالفونش السادس سرا واتفقوا معه على مدافعة المرابطين عن الجزيرة ، وأن يصيروهم له طعمة اذا ما عادوا إليها مرة ثالثة ، على أن تركهم على مابأيديهم عمالا يجبون له من الرعية الأموال ويدفعون له الجزية . وما أن عبر ابن تاشفين البحر الى الأندلس في جوازه الثالث ، حتى قاموا باغرائه بالهجوم على غرناطة ومالقة والمرية ، وشغلوه بها عن التقدم للهجوم على النصارى ، حتى يدبروا فيما بينهم وبين النصارى خطة الفدر بقوات المرابطين (٨٤) .

وكان ابن تاشفين يدرك ذلك تماما ويعرف نواياهم ، وانصاع لما يريدون وهاجم تلك البلاد حتى يكشفهم لجمهور المسلمين ، ويقيم الحجة على غدرهم وخيانتهم بما يسوغ له القضاء عليهم جميعا . وحدد ابن تاشفين أهدافه بقوله « إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلائهم على أكثرها ، وغفلة ملوكهم واهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة ، وإنما همة أحدهم كأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه . ولئن عثت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة الى المسلمين ولأملأنها عليهم — يعنى الروم — خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برغد العيش . إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستقره ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته » (٨٥) .

وقد بين ابن تاشفين سر مصيبة الأندلس في هذه العبارة الموجزة ، كما بين طرق العلاج . وكان العلاج هو خلع جميع ملوك الطوائف وإعادة الوحدة

(٨٣) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٨ .

(٨٤) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

(٨٥) المراكشي ، المعجب ، ص ١٦٢ ، ١٦٣ .



السياسية والعسكرية الى البلاد من جديد ، حتى تستطيع الصمود أمام  
النصارى الذين نهضوا من جديد وفرضوا الجزية على مسلمى الأندلس ،  
وكان الزلافة لم تكن . وكانت النية متجهة الى غرناطة ، فوقع أميرها ابن  
بلقين فى حيرة كبيرة بعد أن عرف تصميم ابن تاشفين على خلع (٨٦) .

وقد دافع ابن بلقين عن نفسه فى كتابه « مذكرات الأمير عبد الله »  
وقال انه لم يتصل بالفونش لأنه لا يستطيع مقاومة المرابطين حتى تصله  
مساعدة الفونش ، وحتى على فرض وصول المساعدة ، فان الفونش يمكن  
أن يتركه دون قوة تحميه ، حينئذ سيكون لقمة سائغة للمرابطين الذين  
يحل لهم قتله بالكتاب والسنة ، حسب أقواله . ورغم هذا الدفاع فقد أجمع  
كثير من المؤرخين الموثوق بهم على خيائته وخداعه ، ويقولون انه أول من  
أعلن العصيان على ابن تاشفين بعد أن سجن أحد أتباعه الذى كان قد دعاه  
فى الحصن الذى كان يتولاه ابن تاشفين (٨٧) .

وتصرفات ابن بلقين نفسها دليل على نيته فى مقاومة المرابطين ، فقد  
أخذ يعمل لاختزان الأقوات ، وجدد الأسوار وأعلى الأبراج وشحنها بالرجال  
والسلاح ، وأودع أمواله وذخائره قصبة المنكب لمناعتها وحصانتها . ثم  
أرسل الى الفونش أموالا وهدايا نفيسة ، مستصرخا به ضد المرابطين ،  
مرتبيا تحت قدميه ، ففرح بذلك الفونش وقبل المال والهدايا وأقسم بأؤكد  
الايمان أنه لن يتركه يقع فريسة للمرابطين ، وأنه سيسعى اليه بنفسه  
ويدافع عن ملكه ، فقويت نفس ابن بلقين وزاد أمله فى بقاء ملكه . وفى ذلك  
يقول السمسارى أحد الشعراء : (٨٨)

صاحب غرناطة سفيه	وأعلم الناس بالأمور
صانع الفونش والنصارى	فانظر الى رأيه الدبير
وشاد بنيانه خلافا	لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاها	كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدرى	إذا أتت قدرة القدير

(٨٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ .

(٨٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ ، ابن عذارى ، المصدر نفسه ،

ج ٢ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٨٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ ، ابن الخطيب ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

ورغم هذه التدابير التي اتخذها أمير غرناطة إلا أنها لم تثبت أن سقطت في يد المرابطين عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م وانتهت بذلك دولة بني زيري في غرناطة (٨٩) .

## ٦ - علاقة مملكة بطليوس بالمالك النصرانية في إسبانيا :

كان يحكم هذه المملكة عقب انهيار الدولة العاصمية في بداية القرن الخامس الهجري أحد فتيان الحكم المستنصر ويسمى سابور ، وكان يدبر أمره وزير يسمى عبد الله بن محمد بن مسلمة المعروف بابن الأفضس ، ولما مات سابور قام ابن مسلمة بتدبير الأمر لولديه الصغرين . وفي تلك الأثناء تعرضت المملكة الى هجمات الفونس الخامس ملك ليون (٣٨٩ - ٤١٨ هـ / ٩٩٩ - ١٠٢٧ م) ، ففي عام ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م هاجم هذا الملك النصراني أراضي المسلمين المجاورة له في شمال بطليوس التي تعرف الآن بالبرتغال ، وافتتح بعض حصونها ، ثم حاصر مدينة بازو . فدافع عنها سكانها بشدة ، واستطاع أحد رماثها المسلمين أن يصب سهمه المسموم الى الملك النصراني فأصابه ومات متأثرا بجراحه (٩٠) .

أنتهز الوزير ابن مسلمة بن الأفضس الفرصة واستقل بالمملكة وخلع ابني سابور عن العرش ، وظل يحكمها حتى توفي عام ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م ، فخلفه في حكمها ابنه المظفر محمد (٤٣٧ - ٤٦١ هـ / ١٠٤٥ - ١٠٦٨ م) ، وهو صاحب التأليف الكبير المسمى « المظفرى » الذى يقع في نحو خمسين مجلدا . وقد تعرض المظفر الى هجمات جاريه ، من الشمال بنو ذى النون في طليطلة ، ومن الجنوب بنو عباد في أشبيلية ، لكن أخطر ما تعرض له المظفر هو ما قام به فرديناند الأول ملك قشتالة وليون من هجمات (٩١) .

وكان فرديناند ( فرناندو ) يرقب تطور الأحداث لدى جيرانه المسلمين باهتمام ويتحين فرص العمل ، وكانت أطراف مملكة بطليوس الشمالية الواقعة بين نهر التاجة ودويرة تشمل منطقة نائية مجردة من وسائل الدفاع القوية وتكاد تكون معتمدة في الدفاع على نفسها ، فاتجهت أنظار فرديناند اليها واخترقها

(٨٩) الضبى ، المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

(٩٠) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ .

(٩١) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٢ ، ١٨٤ .

يقواته عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ، واستولى أولا على مدينتي لايجو ( مليقة ) و ( بازو ) الواقعتين في شمال البرتغال الحالية ، واللّتين كان المسلمون قد عمروها منذ أيام المنصور بن أبى عامر . ولم يلق الغزاة دفعا يذكر ، ولم يعن ابن الأَظفُس بنجدتها ليقينه من عقم المحاولة . واسترق فرديناند سكان المدينتين الاسلاميتين واسكنهما بالنصارى (٩٢) .

ويبدو أن تلك الكارثة لم تذهب بشجاعة المظفر الذى رفض دفع الجزية لفرديناند ، مما جعله يرسل حملة قوية من ثلاثين ألف جندي منهم عشرة آلاف فارس ، وهى قوة كبيرة جدا بمقياس العصر ، واتجهت تلك الحملة الى شنترين أو شنتمرية الغرب وهى من أهم وأفضل مدائن ذلك الثغر . وكان المظفر قد علم سلفا بمقدم الحملة فسبقها الى هناك ونظم الدفاع عن المدينة حتى لا تسقط مثل بازو ولايجو من قبل . ولما وصلت قوات فرناند أسقط فى أيديهم ، واضطر قائدهم للتفاوض مع المظفر ، وانتهت المفاوضات بعقد الصلح على أن يدفع المظفر جزية مقدارها خمسة آلاف دينار كل عام (٩٣) .

على أن أعظم خطب نزل بالمسلمين وبمملكة بطليوس يومئذ ، هو ضياع مدينة قلهرية أعظم مدن البرتغال الشمالية عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكان قد افتتحها المنصور بن أبى عامر منذ ثمانين عاما فى سنة ٣٧٥ هـ . وكانت يومئذ تحت حكم مولى من موالى ابن الأَظفُس يسمى ( رانده ) . وكان رانده لديه من الفرسان حوالى خمسة آلاف . ولما وصل فرديناند الى المدينة وضرب حولها حصارا استمر ستة أشهر ، وتباطأ ابن الأَظفُس عن ارسال النجدة الى المدينة ، تفاوض حاكمها رانده سرا مع فرديناند على أن يسلمه المدينة ويؤمنه على نفسه وأهله (٩٤) .

وبموجب هذا الاتفاق غادر رانده وأهله المدينة ليلا واستمر أهلها فى الدفاع حتى نفذت أقواتهم فطلبوا التسليم والأمان ، فرفض فرديناند واقتحم المدينة عنوة ، فقتل الرجال وسبى النساء والذرية ، وعين مستشاره

---

(٩٢) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٨٥ .

(٩٣) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ .

(٩٤) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدوى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

شيشندو حاكما لها ومنحه لقب الكونت ، وعيد فرديناند بعد ذلك الى اخراج  
المسيكان المسلمين من سائر الاراضى الواقعة بين نهري دويرة ومنيو  
( منديجو ) ، تنفيذاً لخطته في اخلاء المسلمين من الاراضى المجاورة لمملكته  
شيشنا فشيئا (٩٥) .

وقد وقعت كارثة سقوط قلمرية في غربى الأندلس في نفس العام الذى  
سقطت فيه بريشتر في أقصى الشمال الشرقى للأندلس على يد حملة صليبية  
دعا لها بابا رومة حسبما فصلنا من قبل . ولم يتم سقوط قلمرية الا بعد  
أن قدم رهبان دير لورفان المؤنة والميرة المخزونة عندهم لجيش فرديناند  
الذى نفذت ممرته نظرا لطول الحصار حتى أنه فكر في فك الحصار عن  
المدينة . وهذا بالطبع يؤكد أن الحرب كانت تتسم بالصفة الدينية منذ ضياع  
سردينية من يد مجاهد العامرى عام ٤٠٦ هـ (٩٦) .

ازداد ضغط فرديناند على الثغور الغربية ، وضرب على أهلها الجزية  
حتى ضعفت ، لكن من الله عليها بفترة من الهدوء عقب وفاة فرديناند بعد  
ذلك بعامين في سنة ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م ، وقيام الحروب الأهلية بين أولاده  
حسبما فصلنا من قبل حول العرش ، والتي شغلته عن التفكير في العدوان  
على أراضى المسلمين . ولما خلاص عرش قشتالة وليون الى ولده ألفونس  
السادس اتجهت أطماعه ناحية مملكة طليطلة وأشبيلية حسبما نفصل  
فيها بعد (٩٧) .

ولم يلبث المظفر بن الأفطس أن توفى هو الآخر عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م  
وقام الصراع بين ولديه يحيى المنصور ( ٤٦١ — ٤٦٤ هـ / ١٠٦٨ —  
١٠٧٢ م ) وعمر المتوكل ( ٤٦٤ — ٤٨٤ هـ / ١٠٧٢ — ١٠٩١ م ) ، واستعان  
أولهما بالمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، واستعان الثانى بالمعتد بن  
عباد صاحب أشبيلية ، وخربت البلاد بسبب تلك الفتنة التى زادها ألفونس  
اشتعالا بضرب الأخوين كل بالآخر ، ولم تنته تلك الفتنة الا بموت يحيى ،  
فانفرد المتوكل بحكم المملكة التى تمتعت في عهده بفترة من السلام والأمن  
والرخاء (٩٨) .

(٩٥) ابن عذارى ، المصدر نفسه ، ج ٣ ، ص ٢٣٩ ، ابن الخطيب ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٦) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٩٧) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

(٩٨) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٤ .

وقد تدخل عم المتوكل في شئون مملكة طليطلة حيث حكمها حوالى عشرة أشهر من عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، عندما ثارت طليطلة على ملكها الضعيف القادر بن ذى النون عقب قتله لوزيرها المحبوب ابن الحديدى . غير أن القادر استعان بالفونش السادس ملك قشتالة الذى عاونه فى الرجوع الى عرشه ، وعاد المتوكل الى بطليوس بعد أن وضع يده على الكثير من أموال القادر ونخائره (٩٩) .

ويبدو أن الفونش أراد أن ينتقم من المتوكل لمساعدته أهل طليطلة على الثورة ضد القادر الذى كان يعتبره تابعا له ، فجرد حملة على مدينة قورية فى اطراف مملكة بطليوس الشمالية وحصنها المنيع على نهر تاجة ، واستولى عليها فى نفس العام ( ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ) وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمامه لكى يجتاح أراضى بطليوس بسهولة . وجرت بينه وبين المتوكل مصادمات كثيرة انتهت الى ضعف بلاده واستيلاء الفونش على بعضها . فشعر المتوكل بدنو الكارثة وكان أول من كتب الى المرابطين عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م يشكو اليهم سوء الأحوال (١٠٠) .

ولما قرب سقوط طليطلة فى يد الفونش السادس عام ٤٧٨ هـ ، لم يذهب المتوكل اليها محاولا انقاذها من يد النصارى بناء على طلب صاحبها القادر حسبما أشار البعض (١٠١) اذ تروى أوثق المصادر أن القادر تخلى عنها عندما عجز عن البقاء فى حكمها ازاء التهديد المستمر لها من قبل الفونش ، واتفق معه على تعويضه ببلنسية ، وحدث هذا فعلا كما فصلنا حين الحديث عن بلنسية . وكانت اغاثة المتوكل بن الأمطس لأهل طليطلة الذين أرسلوا له صريخ الاستغاثة ، فأرسل ولده الفضه والى ماردة فى جيش قوى محاولا رد النصارى عن مدينة طليطلة ، ولكنه لم يستطع مغالبة جيوشهم المتفوقة عليه فى العدد والعدة ، فارتدت جيوش بطليوس بعد أن خاضت بعض المعارك التى لم توفق فيها (١٠٢) .

---

(٩٩) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، ابن بسام ، الخزيرة ، ق ٤ ، ج ١ .

ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(١٠٠) ابن الخطيب ، الحل الموشية ، ص ٢٠ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ٩١ .

(١٠١) قال بذلك الأستاذ/محمد عبد الله عنان ( انظر ، دول الطوائف ، ص ٩٠ ) .

وتابعه على ذلك خليل ابراهيم الصامرائى ( انظر ، علاقات المرابطين ، ص ١١٦ ) .

(١٠٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ ، ٨٥ ، عنان ، المرجع نفسه ، ص ١١١ .

وبعد سقوط طليطلة في يد الفونش السادس ملك قشتالة عام ١٠٨٥ هـ شعر أنه أصبح قادرا على تحدى دول الطوائف جميعا وعلى القضاء عليها ، فأرسل الى المتوكل بن الألفس يطلب منه تسليم بعض قلاع حصونه ، وأن يؤدي له الجزية ، ويتوعده بشر العواقب اذا رفض . ولم يك ثمة شك في خطورة هذا التهديد بعد أن سقطت طليطلة حصن المسلمين الأول على نهر التاجا الذى عبره النصارى لأول مرة ، وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من القواعد الأخرى مثل اشبيلية وبطليوس وقرطبة (١٠٣) .

ولم يخضع المتوكل ابن الألفس لتهديد الفونش السادس ورد عليه برسالة قوية كلها اباء وشمم ، وندب قاضيه أبا الوليد الباجى ليطوف بحواضر الأندلس ويتصل بالرؤساء ويدعوهم الى لم الشعث وتوحيد الكلمة ومدافعة العدو . فقام بالمهمة لكنه لم يجد منهم اذنا صاغية ، وكان هم كل واحد منهم أن يرضى عنه ملك النصارى والا يفكر في خلعه وازالته . وازاء ذلك اتخذ المتوكل وزميلة المعتد بن عباد كان هو الآخر عرضة للامتهان والعدوان المتصل من جانب الفونش أخطر قرار سياسى في تاريخ البلاد في ذلك الوقت وهو استدعاء المرابطين . وقد انتهت الينا رسالة من هذا الأمير العالم الشجاع ابن الألفس كان قد أرسلها لأمر المسلمين يوسف بن تاشفين يصف له فيها محنة الأندلس ، وما هى عليه من تفرق وضعف ويستنفره فيها الى الجهاد (١٠٤) .

وقد نشبت المعركة الفاصلة بين الفونش السادس وبين الأندلسيين والمرابطين على أرض بطليوس في مكان قريب منها يعرف بالزلاقة ، وحقق المسلمون نصرا عظيما على قوات النصارى مجتمعة ، واختفى تهديد الفونش السادس للمتوكل وغيره من ملوك الطوائف الى حين ولما فشل المسلمون في حصار حصن لبيط بعد الزلاقة بعامين ( ٤٨١ هـ / ١٠٨٧ م ) شعر المرابطون بضرورة خلع ملوك الطوائف جميعا اذا ما أرادوا انقاذ البلاد من تهديد النصارى ، لأن هؤلاء الملوك هم الذين مكثوا بسياساتهم الخرقاء للنصارى من السيطرة والتحكم في مصر شبه الجزيرة (١٠٥) .

(١٠٣) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ .

(١٠٤) ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ص ٢١ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٩٠ - ٩٢ .

(١٠٥) السلاوى ، الاستبصار ، ج ١ ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وكما أصابت الحرة من قبل الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، فقد أصابت أيضا المتوكل بن الأمتس صاحب بطليوس ، وصار كما يقول زميله الأمير عبد الله ، يخلط في سياسته ، فطورا يخاطب أمير المسلمين ويظهر له الطاعة وتارة يرسل لأفونش يعرب له عن صداقته ويطلب مساعدته ضد المرابطين ، وكان قرب بلاده من النصارى يشجعه على ذلك . لكنه عندما رأى ما نزل بالأمير عبد الله عام ٤٨٣ هـ على يد المرابطين ، راسل الفونش وسلم له مدينة شنترين على أن يدافع معه ضد هذا الخطر الزاحف ، فانحرفت الرعية عنه وراسلوا المرابطين يطلبون منهم سرعة الحضور حتى لا يستولى النصارى على بطليوس نفسها (١٠٦) .

وصلت جيوش المرابطين الى بطليوس وقبضوا على المتوكل وأهله وعبيده ، وقتلوا ابنه صبورا أمام عينيه ثم قتلوه هو الآخر ، وبذلك تم القضاء على دولة بنى الأمتس في بطليوس وغربى الأندلس عام ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ، ولم يبق منهم الا ابن للمتوكل يسمى المنصور ، وكان هو الذى تصح أباه بالارتقاء فى أحضان الفونش وترك البلد واللجوء اليه ، أو الإخلاص لابن تاشفين الذى لا بد عازله عن ملكه (١٠٧) .

وكان المتوكل قد احتاط قبل قتله وأرسل ابنه المنصور بذخائره الى حصن شانجش القريب من قشتالة ، فتحصن فيه المنصور ، ولما رأى ما حل بأبيه وأخويه توجه بأهله الى الفونش ، وسلم له الحصن وأقام فى قشتالة ، وصار يدا من أيادى النصارى ، يساعدهم على مهاجمة بلاد المسلمين ، وقيل انه دخل فى دينهم حنقا لما جرى لأسرته على يد المرابطين (١٠٨) .

## ٧ — علاقة ملكة طليطلة بالممالك النصرانية فى أسبانيا :

كان يحكم ملكة طليطلة بنو ذى النون من البربر ، وكانت تلك الأسرة البربرية تحكم فى مدينة شنت بريّة Santaver من مقاطعة كونكة جنوبى

(١٠٦) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٢ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ، ص ١٨٧ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

(١٠٧) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨٦ .

(١٠٨) ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٧٤ .

طليطلة . وبعد سقوط الخلافة الأموية بخمس سنوات أرسل أهل طليطلة الى عبد الرحمن بن ذى النون حاكم بركة يعرضون عليه ولاية بلدهم ، فأرسل اليهم ابنه اسماعيل فتولى حكم طليطلة وملحقاتها ( ٤٢٧ — ٤٣٥ هـ / ١٠٣٥ — ١٠٤٣ م ) وتسمى بالظافر واعتمد على أحد أعيانها المسمى أبو بكر بن الحديدى ، وعاصر بداية الحروب الأهلية التى نشبت بين اولاد شانجة الكبير عقب وفاته عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥ م . وكان فرديناند ملك قشتالة يخوض الصراع ضد اخوته الثلاث الباقين ، حتى يفوز بحكم المملكة منفردا ، ولذلك لم تحدثنا المراجع والمصادر عن علاقة بين فرديناند وبين الظافر اسماعيل بن ذى النون (١٠٩) .

تولى حكم طليطلة بعد وفاة الظافر ابنه يحيى بن اسماعيل وتلقب بالمأمون ( ٤٣٥ — ٤٦٧ هـ / ١٠٤٣ — ١٠٧٤ م ) وكان من أشهر ملوك بنى ذى النون ، وفى عهده اتسعت المملكة وبلغ الترف والنعيم اقصاه . ويتمثل ذلك فى اعذار ( ختان ) المأمون لأولاده ، هذا الاعذار الذى بلغ مضرب الأمثال فى الاسراف وشدة الاحفال حتى سمي بالاعذار الذنوبى . أما عن علاقة المأمون بجيرانه المسلمين فقد سبق الحديث عن صدامه المستمر مع سليمان بن هود ملك سرقسطة ، ذلك الصراع الذى اشدت مدة ثلاث سنوات ( ٤٣٥ — ٤٣٨ هـ ) وأتى على الحرث والنسل وأجبر كلا منهم على الاستعانة بملوك قشتالة ونبرة وأمراء برشلونة ودفعوا لهم الجزية (١١٠) .

وفى تلك الأثناء كان فرديناند قد استطاع أن يعيد الوحدة الى المملكة الأسبانية النصرانية ووجه اهتمامه الى جيرانه المسلمين ، وكان يطمح الى اخضاعهم جميعا لا سيما ابن عباد وابن ذى النون ، وهما يومئذ أقوى ملوك الطوائف جميعهم وأعظمهم شأنًا . وكان عنده من الروح الحربية والحمية القومية والغيرة الدينية ما لم يكن عند هؤلاء الملوك (١١١) .

وقد أعد جيوشه عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م وهاجم أخيرا مملكة طليطلة فى أقاليمها الشمالية والشرقية ، ولا سيما مدينة سالام وطلنكة ووادى الحجارة وقلعة النهر ( الكالا دى هنارس ) ، وعاث فى نواحيها تخريبا

(١٠٩) أرسلان ، الحل السندسية ، ج ١ ، ص ٤٦١ .

(١١٠) أنظر ، الفصل الأول من الباب الثالث ، ص

الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص

(١١١) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ١٧٠ .



وسبيا ، فطلب أهل هذه المدن النجدة من المأمون ملك طليطلة ، فجمع بدوره  
مقادير كبيرة من الذهب والفضة والأقمشة الفاخرة ، وسار بنفسه الى  
معسكر الملك النصراني ، وقدم اليه الهدايا وأعلن اعترافه بطاعته وتعهده له  
بإداء الجزية (١١٢) .

وقد أثرت هذه التبعية لملك قشتالة عند ما قام المأمون بعد ذلك بثلاثة  
أعوام ، واستولى على مملكة بلنسية ( ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م ) من يد صهره  
عبد الملك بن عبد العزيز بن عامر الذي كان قد أساء معاملة أبنته ، ورفض  
مساعدته بالجند في حروبه ضد ملوك الطوائف الآخرين . وتشير بعض  
الروايات الى أن المأمون استعد سرا لغزو بلنسية ، واستعان بقوة من  
الجند النصارى أمده بها حليفه فرديناند الأول وصاحب السيادة عليه ، وأن  
القوات المتحالفة داهمت بلنسية فجأة وهزمت جيوشها وأهلها في معركة  
بطرنة وأسرت ملكها في ذى الحجة من ٤٥٧ هـ أكتوبر ١٠٦٥ م (١١٣) .

وهذا لا يناقض ما سبق أن اشرنا اليه من هجوم فرديناند على أطراف  
بلنسية بعد هجومه على سرقسطة عند امتناعها عن دفع الجزية ، واستدعاء  
ملك بلنسية لصهره المأمون لمساعدته في الدفاع عن مملكته . ذلك أن المأمون  
نفسه كان تحت حماية فرديناند وليس هناك ما يمنع من استعانه بفرقة  
قشتالية لتحقيق أطماعه في مملكة بلنسية . إذ كان الغدر والخيانة طابع  
العصر سواء عند مسلى الأندلس أم عند نصارى الشمال (١١٤) .

ولم يمض على وقعة بطرنة قليل حتى توفي فرديناند ملك قشتالة  
( ٤٥٨ هـ / ديسمبر ١٠٦٥ م ) ، واثارت بين أولاده الثلاثة شائجة ملك  
قشتالة والفونش ملك ليون وغرسية ملك جليقية ، حرب أهلية استمرت  
أعواما وانتهت مرحلتها الأولى في سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م بانتصار شائجة  
واغتصاب ملك أخويه ، وهرب الفونش ( الفونسو السادس فيما بعد ،  
وهو الذي استولى على طليطلة عام ٤٧٨ هـ ) الى طليطلة والتجأ عند ملكها  
المأمون بن ذى النون ، وهرب غرسية عند ملك أشبيلية وذلك عام ٤٦٣ هـ .  
وعاش الفونش في بلاط المأمون زهاء تسعة أشهر حتى قتل أخوه شائجة

(١١٢) نفس المصدرين السابقين .

(١١٣) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٢٨٢ - ٢٨٦ .

(١١٤) انظر ، الفصل الثالث من الباب الثالث ، ص

عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧٢ م فرجع الفونش الى بلاده مزودا بكثير من التحف والهدايا ، وبعد أن قطع للمأمون عهدا باحترام مملكته ودوام علاقات الصداقة بين الملكتين ، وأن يعاونه ضد خصومه من ملوك الطوائف (١١٥) .

وتحدثنا بعض الروايات بأن الفونش السادس ما كاد يعتلى عرش ليون وقشتالة حتى أراد أن يعرب عن عرفانه للمأمون بن ذي النون ، وذلك بأن يساعده في حربه ضد ابن عباد ، وأمهه ببعض قواته ، وسار معه الى قرطبة ، واستطاع المأمون بذلك أن يستولى عليها . ولكن الروايات الاسلامية توضح أن سيطرة المأمون على قرطبة كانت بتدبير مبعوثه ( حكم ابن عكاشة ) الذي اتصل بجندها ودبر مؤامرة تمكن فيها من قتل ابن المعتمد والاستيلاء على المدينة عام ٤٦٧ هـ / ١٠٧٥ م (١١٦) .

بهذا النصر الذي حققه المأمون ضد قرطبة والذي لا يحمل في طياته الا الغدر والسقوط السياسي ختم حياته ، فقد مات في نفس العام ( ٤٦٧ هـ ) وخلفه حفيده يحيى الملقب بالقادر والذي وصفته المصادر بضعف الارادة والخنوع والاستسلام ، لأنه « ربي في احجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك امره العبيد ، وحكم عليه كل خصي ومولود ، كل يدبر ملكه بارادته ، وينفرد بوزارته » فطمع في بلاده ملوك الطوائف الأقوياء ، فاستولى المعتمد بن عباد على قرطبة وسائر أعمالها ما بين طليطلة وغافق (١١٧) ، أما المقتدر بن هود صاحب سرقسطة ، فقد استعان بالملك شانجة راميرز ملك أرغونة ونيرة وأخذ منه شنتبرية وملينة (١١٨) الواقعتان شمال شرقي طليطلة (١١٩) .

وفي نفس الوقت فقد ثار أبو بكر بن عبد العزيز في بلنسية وأعلن استقلاله عن طليطلة ، وخلع طاعة القادر بن ذي النون ، وتحالف مع

(١١٥) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٣ .

(١١٦) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٣٩٤ ، دوزي ، ملوك الطوائف ، ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

(١١٧) طليطلة مدينة على نهر للتاجة غربي طليطلة ، أما غافق فهو حصن من أعمال قرطبة في شمالها على مسافة ١٠٤ كم ، انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١١٨) يوجد عدة أماكن في اسبانيا باسم ( ملينة ) ، ولكن المقصود هنا حصن في مقاطعة كونيكا Cuenca شمال شرقي طليطلة يعرف بملينة اراجون Momino dearagon

انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

(١١٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٠ .

المستعين بن هود صاحب سرقسطة الذى خطب منه ابنته أملا في أن يملك بها بلنسية ، وقام شانجة راميرز حليف المستعين بالآغارة على حصن كونكة<sup>(١٢٠)</sup> من أعمال طليطلة ، وكاد يسقط في يد شانجة لولا أن افتداه أهله منه بمال وفير ، وحاول القادر أن يرد هجمات أعدائه ، فأرسل حملة تحت قيادة بشير الفتى وأمره بمناجزة ابن هود وابن راميرز ، فانصرفا ، وعاد بشير دون قتال <sup>(١٢١)</sup> .

ومما أضعف من حكم القادر وأدى الى ثورة أهل طليطلة ضده ، وادى ذلك في النهاية الى سقوط طليطلة نفسها في يد النصارى ، قيام القادر باغتيال وزير جده الفقيه أبى بكر الحديدى عام ٤٦٨ هـ / ١٠٧٦ م . وقد أدى هذا العمل الآثم الى قيام الفتنة فى طليطلة وتحزب أهلها أحزابا ، وقام أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية حسبما أشرنا من قبل بخلع القادر ، ولما اشتدت الفتنة والثورة فى طليطلة استدعى القادر الفونش السادس ليعينه على قمعها فأرسل له يقول « ان كنت تريد الدفاع عن أتحائك ، وجه الى مالا ، والا سلمتك لأعدائك <sup>(١٢٢)</sup> » .

وكان هدف الفونش هو إضعاف الحكام والرعية من المسلمين اقتصاديا حتى يسلموا بلادهم ويخربوا بيوتهم بأيديهم ، وهذا ما حدث . فقد جمع القادر أهل المدينة ، رعية وأعيانا ، أهل بدو وحضر ، وهددهم بجعلهم هم وأبناءهم رهينة عند الفونش اذا لم يجمعوا له المال المطلوب . فلم يجد أهل طليطلة مناصا من الثورة عليه عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، ففر من المدينة ليلا وقصد حصن وبذة<sup>(١٢٣)</sup> ، فصدده صاحبه ، فلجأ القادر الى مدينة كونكة وأرسل الى الفونش وكتب اليه يستصرخه ويستعين به فى اعادته الى طليطلة . فأسرع اليه وانتقفا على محاصرة طليطلة حتى يخرج عنها المتوكل

- 
- (١٢٠) كونكة أو كونكة Cuenca حصن من أمنح حصون منطقة النهر الأدنى  
طليطلة ، شمالي السهلة حيث يحكم بنو روين . وهى اليوم قاعدة مديرية تحمل نفس الاسم .  
انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨١ .  
(١٢١) ابن الكردبوس المصدر نفسه ، ص ٨١ .  
(١٢٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٢ .  
(١٢٣) وبذة Huete مدينة على بعد ٥٠ كم غربي كونكة ، وكانت من الحصون الشمالية الشرقية لمملكة طليطلة ، ولها كان فرار القادر بأسرته مرة ثانية عام ٤٧٨ هـ .  
انظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

ابن الأقطس صاحب بطليوس والذي كان أهل طليطلة قد استدعوه لحكم المدينة بعد فرار القادر عنها (١٢٤) .

وكان اتفاق القادر مع الفونش على أن يعطيه جميع أموال المدينة بعد استعادتها ، لكن الفونش لم يكفه ذلك وحصل على حصون صورية وقورية ، وقام معه بحصار المدينة ، ولما لم يجد ابن الأقطس من يعينه على دفع الحصار فر هاربا ، فدخلها القادر تحت حماية الحراب القشتالية عام ٤٧٣ هـ / ١٠٨٠ م ، وقام القادر وجمع أموالا عظيمة أضافها إلى أمواله الخاصة وقدمها إلى الفونش ، ولما لم تف بما اتفق عليه ، أخذ منه حصن قتالش (١٢٥) رهنا ، وعاد إلى بلاده محملا بأموال المسلمين التي أخذها القادر غصبا وظلما ، مما أدى إلى كره الناس له ومحاولتهم قتله (١٢٦) .

حدث ذلك يوم عيد الأضحى عام ٤٧٤ هـ / ١٠٨٢ م ، فقد ثار الناس ضد القادر مرة أخرى بسبب استنزافه لأموالهم وإعطائها للفونش ، حتى أنه أعطاه نظير الحصن المرتين لديه مائة وخمسين ألف مثقال من الذهب وخمسمائة مد من الطعام ، ضيافة له كل ليلة طوال مدة بقاءه في هذا الحصن ، أخذها القادر من أموال رعيته ومؤنهم حتى ضعفوا ، ولم يكن أمامهم إلا أن يرحلوا إلى قصره من جديد ، فقابلهم الجنود بالسيوف فذهبوا إلى الفونش يلتمسون عنده السلوى ويشكون إليه القادر ، فأهانهم وطردهم ، فبئس الناس من البقاء في هذه المملكة ، وأخذوا في الهجرة إلى سرقسطة وغيرها من البلدان المجاورة (١٢٧) .

---

(١٢٤) ابن حيان برواية ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ١٧٨ - ١٨٠ .

ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

قتالش Canales تطلق على عدة أماكن في مختلف أنحاء إسبانيا ومعناها واضح ، وهو جمع قناة أو قنال ، ولعل المقصود هنا هو قرية قتالش التي تقع في شمال طليطلة في منطقة وادي الحجارة على الحدود القشتالية . ومن المعروف أن الأمير محمد ابن الأوسط قد بنى عدة حصون ومنها حصن قتالش في منطقة الثغر الأدنى لحماية المسلمين من جيранهم النصارى .

أنظر ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

(١٢٦) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ ، ابن بسام ، الخزيرة ، ق ٤ .

ج ١ ص ١٢٥ .

(١٢٧) ابن بلقين ، مفكراته ، ص ٧٧ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٣ .

٨٤ ، ابن بسام ، الخزيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ٤٢٦ .

ازداد الاضطراب في طليطلة وعت البأساء وازداد الطمع في امتلاك المدينة ، وصار ابن عباد يشن عليها هجماته من الغرب ، وابن هود يذيقها العذاب من الشرق ، فأيقن القادر انه لا طاقة له على الدفاع عن ملكه ولا سبيل أمامه الا تسليم طليطلة الى الفونش ، فكتب اليه وتخلّى له عنها وعما يتبعها من مدن وحصون ، على أن يعينه على أخذ بلنسية واقتطارها عوضا عنها . لكن الفونش لم يرض الا بأن يدخل البلاد وهو سيدها ، فأخذ في حصارها وضيق الخناق على أهلها ، فوفد اليه وفد من أشرافها ، وحاولوا مساومته واغراه بالأموال ، لكنه أبى الا أن يبتلع المدينة كلها ، ولما هددوه بأن هناك من ملوك الطوائف من يمخته القيام معهم ضده سخر منهم وأبرز لهم سفراء من ذكروهم من الملوك وكلهم خنوع واستسلام ، فسقط في أيدي وفد طليطلة وعادوا وقد أيقنوا بسقوطها (١١٨) .

وكان موقف ملوك الطوائف الآخرين لا يدل على أدنى احتمال بالمساعدة ، فالمعتمد بن عباد يدل أن يبذل عونه للقادر عقد حلفا مع الفونش السادس ، يتعهد فيه بأداء الجزية وبإطلاق يد الفونش في طليطلة ، على أن يساعده الأخير في نزاعه على سائر أعدائه من المسلمين . وملك سرقسطة المقتدر بن هود ، كان مشغولا بنضاله المستمر ضد هجمات ملوك أرغونة وأمرء برشلونة الذين استولوا منه على قلاع الحدود في ولبة وجرادوس وموزن . وكانت بلنسية قد عادت بعد وفاة أميرها أبي بكر الى ولائها لطليطلة ، ولكن شغلها أمير دانية ، أما بطليوس فقد شغلها المعتمد بن عباد بزحفه عليها ، فلم تستطع بطليوس مساعدة طليطلة مساعدة جدية ، إذ أن ابن الأقطس أرسل ولده الفضل على رأس بعض الجند ، لكنهم هزموا أمام تفوق قوات الفونش ، وعادوا الى بطليوس تاركين المدينة تنعى حظها المشئوم (١٢٩) .

ومما ساعد الفونش على اخضاع المدينة واقتحامها ، هو انشقاق أهلها الذين أضناهم الحصار الذي دام تسعة أشهر ، وبعد عودة وفدها بثلاثة أيام من مقابلتهم لألفونش دون اتفاق أو صلح معه ، عرضت المدينة التسليم بالشروط الآتية :

(١٢٨) ابن الكريوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ابن حيان برواية ابن الخطيب ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

ابن بسلام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

(١٢٩) أشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ٦٢ ، ٦٣ ، عناق ، المرجع نفسه ، ص ١١١ .

- ١ - تأمين المسلمين على انفسهم واموالهم وعقاراتهم .
- ٢ - من شاء منهم الهجرة هاجر ومن شاء منهم الاقامة اقام ، على أن يدفع الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص .
- ٣ - كل من يرجع بعد الهجرة الى المدينة ثانية ، فله عقاره دون ادنى معارضة .
- ٤ - يبقى المسجد الجامع في حوزة المسلمين .
- ٥ - يتعهد الفونش للقادر بأن يكون ملكا على بلنسية بدلا من طليطلة .

تم الاتفاق على هذه الشروط وتظاهر الفونش السادس بقبولها ، وفي المحرم من عام ٤٧٨ هـ / مايو ١٠٨٥ م دخل المدينة على رأس قوات قشتالة وليون ، وجنود من أرغونة ، ومتطوعين ومغامرين من فرنسا وغيرها كانوا قد أتوا للاشتراك في حملة تهم النصرانية كلها ، مما يؤكد الطابع الصليبي في استرداد طليطلة (١٣٠) .

وبعد دخوله المدينة تسمى بالامبراطور ذى الملتين ( الاسلام والنصرانية ) وأقسم ألا يدع أحدا من ملوك الطوائف إلا من أعلن خضوعه له ، وقال لرسول أحدهم - وهن ابن مشعل اليهودي ورسول المعتمد بن عباد - « كيف أترك قوما مجانيين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم ، المعتضد والمعتمد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والأمين والمأمون ، كل واحد منهم لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولا يرفع عن رعيته ضيها ولا حيفا ، قد أظهروا الفسوق والعصيان ، واعتكفوا على المفانى والعبدان؟! وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحدا ، وأن يدعها بين أيديهم سدى ؟ » (١٣١) .

لم يلبث الفونش الا قليلا حتى شن غاراته على جميع النواحي واستحوذ على جميع أعمال مملكة طليطلة من وادى الحجارة الى طليطلة ، ثمانين حصنا سوى القرى والمدن العامرة . عند ذلك تهافت عليه رسل ملوك الطوائف مهنتين ومباركين وواضعين أنفسهم واموالهم في خدمته ،

(١٣٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، دوزي ، ملوك الطوائف ص ٢٧١ .

(١٣١) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ .

وانهم ليسوا الا جباة لأمواله وتابعين لسلطانه ، وبلغ من تهافتهم وتخاذلهم واستسلامهم وضعف حميتهم أن أهدى أحدهم الى الفونش هدية قيمة فاعطاه بدلها قردا ، فصار يفخر بذلك على جميع ملوك الطوائف ، ويعتقد أنه حاز قبول الفونش ورضاه (١٣٢) .

أما القادر بن ذى النون ، فقد وصفه المؤرخون بما يستحقه من أبشع الصفات . فهذا أحدهم يقول : « وخرج ابن ذى النون خائبا مما تمناه ، شرقا بعقبى ما جناه » والأرض تضج من مقامه ، وتستأذن في انتقامه .. واستقر بمحلة ادفونش ( الفونسو ) مخفور الذمة ، مزال الهمة ، ليس دونه باب ، ولا دون حرمة ستر ولا حجاب ، حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال وببده اضطراب يرصد فيه أى وقت يرحل وقد أطاف به النصرى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ، وهؤلاء يتعجبون من جهله ، (١٣٣) .

وفى الفونش بعهد القادر ومكنه من السيطرة على بلنسية ، وهو على أى الحالات لن يكون الا تابعا له ، وبذلك مد الفونش سيطرته على جزء من شرق الأندلس ودخل فى صراع مع السيد القمبيطور حسبها فصلنا حين الحديث عن بلنسية . أما طليطلة نفسها فقد عين لحكمها وادارتها وزيره المستعرب ششند Sisnando Davidis الذى كان يتبع سياسة اللين والتسامح وازهار العدل لأهلها ، « مما هون عليهم الرزية وحبه اليهم اعطاء الدنيا . حتى تنصر بعضهم سواء من العامة أم من ضعاف النفوس من الفقهاء أمثال الفقيه أبى القاسم بن الخياط (١٣٤) .

وكان من رأى ششند أن يلتزم سيده الفونش بالاعتدال فى معاملة المدينة المفتوحة ، والا يستثير أهلها لأنهم غالبية السكان ، والا يلج بالفزو على ملوك الجزيرة لأنه لن يجد عمالا أطوع منهم وحتى لا يضطرمهم الى التماس المساعدة من خارج الجزيرة . ويبدو أن الفونش قد غره الظفر ، وأعماه الطمع ، فشتمخ بأنفه ورفض لبس التاج الذى قدمه له

(١٣٢) ابن كردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ \*

(١٣٣) ابن بسام ، المصدر نفسه ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(١٣٤) ابن بسام ، الأخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣٦ ، ابن مسعود ، المغرب .

ج ٢ ، ص ٢٢ .

اتباعه قائلا انه لن يفعل ذلك الا بعد ان يستولى على قرطبة وعلى  
سائر دول المسلمين في الأندلس (١٣٥) .

وكان موقفه من تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة بعد شهرين من  
استرداد المدينة ، يدل على نقضه لاتفاقه مع اهلها في هذا الشأن . فقد  
تظاهر بعقاب الملكة والمطران برنارد اللذين قاما بهذا العمل اثناء غيابه  
في ليون ، لكنه لم يفعل شيئا بل انه اعد ناقوسا تأنق في ابداعه وتجاوز  
الحد في صناعته لوضعه في المسجد بعد تحويله الى كنيسة مما يدحض  
كل رواية بغير ذلك . وهذا ابن بسام وهو من ثقات المؤرخين الذين  
نقلوا عن شاهدها بالعيان أو استمعموا لهم ، يقول ان الفونش قد  
شرع لوقته — بعد سقوط طليطلة في يده — في تغيير المسجد الجامع  
بها ، (١٣٦) .

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى وخرجت من قبضة الاسلام  
الى الأبد ، وارتدت الى النصرانية بعد أن حكمها الاسلام أربعة قرون  
الا قليلا ، وأصبحت حاضرة لملكة قشتالة ، وغدا قصرها منزلا للبلاط  
القشتالي ، وجاء سقوطها على هذا النحو ضربة عنيفة للأندلس وسلامتها ،  
نظرا لموقعها المتوسط في شبه الجزيرة والذي تستطيع منه أن تهدد جميع  
دول الطوائف . وبذلك انقلب ميزان القوى وأصبح تفوق النصرانية امرا  
لا شك فيه ، وقد عبر عن ذلك شعراء المسلمين فقال أحدهم شعرا  
يفيض بالأسى والحزن على فقد طليطلة وضياع البلاد . (١٣٧) .

ومن جهة أخرى فقد كان لتلك النكبة انتى حلت بالاسلام والمسلمين  
عميق الأثر في الأندلس والعالم الاسلامي ، فقد ارتاع ملوك الطوائف جميعا  
وأدركوا بعد فوات الأوان انها نذير بالقضاء عليهم واحدا بعد الآخر ،  
ولاول مرة نبذوا خلافاتهم واتجهوا بأنظارهم جميعا الى ما وراء البحر

(١٣٥) ابن بسام ، الخيرة ، ص ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(١٣٦) ابن بسام ، الخيرة ، ق ٤ ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

برغنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٤٧ ، ١٤٨ .

(١٣٧) شكيب أرسلان . الحل السندسية ، ج ١ ، ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .



يلتمسون عون اخوانهم من المرابطين الذين كان لتدخلهم في سير الحوادث بالأندلس اعظم الآثار ، وكان رائدهم في دعوة المرابطين لاتخاذ الاسلام هو المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية (١٣٨) .

## ٨ — علاقة مملكة اشبيلية بالمالك النصرانية في اسبانيا :

انتهت الفتنة البربرية التي قامت في مطلع القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي بقيام الخلافة الحمودية العلوية في قرطبة عام ٤٠٧ هـ والتي بسطت سلطانها على الجنوب الأندلسي ، وظلت اشبيلية خاضعة لها حتى استقلت عنها عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م اثر الصراع الذي قام بين القاسم بن حمود وابن اخيه يحيى بن علي بن حمود على كرسى الخلافة في ذلك الوقت . وكان عماد استقلالها تلك الأسرة القوية من بني عباد اللخمين وعميدها القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عباد اللخمى الذي كان وحده يملك ثلث كورة اشبيلية (١٣٩) .

وفي عهد أبي القاسم بن عباد الذي استمر حتى عام ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ كان الصراع محتدما بين اشبيلية وبين جيرانها في الجنوب من بني زيري حكام غرناطة وبني حمود خلفاء مالقة ، لذلك كان السلام مخيما على العلاقات بين اشبيلية وبين ممالك الشمال النصرانية الأسبانية في هذه الفترة ، سوى ما سبق ان اشرنا اليه من قيام أبي القاسم بارسال ابنه اسماعيل على رأس حملة الى مملكة ليون النصرانية ، عبر اراضى بطليوس التي قام أميرها ابن الأنطس بضرب مؤخرة الجيش الاشبيلي ، فحاصر الجيش بين عدوين ، الليونيون من الشمال وجنود بطليوس من الجنوب ، وجرت مذبحة قتل فيها الكثير من جند اسماعيل بن عباد ، ولم ينج هو الا بأعجوبة ، وعاد مع من نجا من رجاله الى اشبيلية بصعوبة بالغة (١٤٠) .

(١٣٨) عثان ، المرجع نفسه ، ص ١١٥ ، ١١٦ ، أرسلان المرجع نفسه ، ج ١ Chapman, A history of spain, p. 72.

ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(١٣٩) رجب عبد العظيم ، دولة بني حمود في مالقة بالأندلس ، ص ١٠٥ - ١٠٧ .

Dozy, op. cit., pp. 600, 601.

(١٤٠)

انظر ، للفصل الاول من الباب الثالث ، ص

وفي عهد خلفه المعتضد بن عباد ( ٤٣٣ - ٤٦٤ هـ / ١٠٤٢ - ١٠٧٣ م ) تطورت العلاقات بين أشبيلية وبين نصارى الأسبان ، فقد كان فرديناند الأول ملك قشتالة يطمح في أن ييسط سيادته على أسبانيا كلها ، وتمكن من إخضاع بطليوس وسرقسطة وطليلة لسلطانه ودفعته له الجزية ، وجاء الدور على بنى عباد حكام أشبيلية ، ففى عام ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م قاد جيشه وهاجم أراضى أشبيلية وأحرق قراها فرأى المعتضد أنه من الحكمة أن يحذو حذو المأمون صاحب طليلة في إعطاء الجزية لفرديناند ، فمضى الى معسكره ، وقدم اليه الهدايا الثمينة وتم الاتفاق بينهما على دفع جزية سنوية لم تقدرها المراجع ، أو المصادر ، وعلى أن يقوم المعتضد بتسليم رفات القديسة « خوستا » التى استشهدت في عصر الاضطهاد الرومانى<sup>(١٤١)</sup> .

قام المعتضد بتنفيذ هذين الشرطين ، ويطنب دوزى في وصف ما أظهره المعتضد من أسى وحزن ازاء نقل رفات القديس ازيدور الذى ظهر في المنام لرسول فرديناند الأسقف « الفينوس » أسقف برغش ، ودله على قبره حينما فشل هذا الأسقف في العثور على جثمان القديسة خوستا . ولم يكن هذا الا دهاء ومكرا من المعتضد الذى حاول أن يستفيد من اثاره شفقة المسيحيين وعطفهم عليه ، مع أنه كان يسخر من ذلك اذا ما خلا الى نفسه . على أية حال فقد توفى فرديناند بعد ذلك بثلاث سنوات وخلفه ولده شانجه في حكم مملكة قشتالة ، وكان المعتضد يدفع له الجزية واستمر في تأديتها حتى وفاته عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م .<sup>(١٤٢)</sup>

وكان المعتضد قبيل وفاته قد استقبل غرسية ملك جليقية الذى هرب من طغيان أخيه شانجه ملك قشتالة ، أثناء الحرب الأهلية التى اندلعت بين أبناء فرديناند عقب وفاته عام ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م . ويبدو أن هذا كان من الأسباب التى أدت الى موت المعتضد مسموما عام ٤٦٤ هـ ، من قيات مسمومة أرسلها اليه أحد أبناء فرديناند الذين لهم مصلحة في ذلك ،

(١٤١) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٨ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ١٧١ .

(١٤٢) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٤٨ ، دوزى ، المرجع نفسه ، ص ١٧٢ ، ١٧٥ .

اذ لم تجدد لنا الروايات الاسلامية اسم هذا الملك ، واكتفت بقولها ملك الروم أو ملك الفرنج . ولعل هذا الملك هو شاتجة نفسه الذى لم يلبث أن مات مقتالا فى نفس العام على يد أخته اوراكة ، التى كانت تعمل الحساب أحيها الفونش الذى كان قد فر هو الآخر الى بلاط المأمون فى طليطلة<sup>(١٤٣)</sup> .

تولى حكم اشبيلية بعد المعتضد ابنه المعتمد ( ٤٦٤ - ٤٨٤ هـ / ١٠٧١ - ١٠٩١ م ) ، وفى نفس الوقت كان الفونش السادس الذى استطاع أن يوحد ممالك ليون وقشتالة وجليقية تحت سلطانه فى تلك الفترة ، قد عزم على اتباع سياسة أبيه فريدناند فى طرد المسلمين من بلاد الأندلس مستغفلا فى ذلك الخلافات المدمرة فيما بينهم . وكان الصراع قائما بين اشبيلية وغرناطة بعد أن استولى بنو عباد على جيان التابعة لغرناطة عام ٤٦٦ هـ ، وقد سبق الحديث عن الحلف الذى عقده غرناطة مع الفونش السادس ضد اشبيلية عام ٤٦٦ هـ

ثم قيام الفونش السادس بحملته على غرناطة واشبيلية فى العام التالى ( ٤٦٧ هـ ) للمطالبة بدفع الجزية ، وقيام ابن عمار وزير المعتمد بن عباد بعقد حلف مع الفونش لفتح غرناطة على أن تكون أموالها له والمدينة لابن عباد . ولم يأت هذا الحلف بنتيجة لأن الأمير عبد الله بن بلقين ملك غرناطة اتفق مع الفونش على دفع الجزية وعلى دفع ما كان قد امتنع عن دفعه منها فى السنوات الماضية ، ولأنه لو تركت غرناطة تسقط فى يد بنى عباد فسوف تتضخم دولتهم وربما يخلعون يد الطاعة ويتمردون ضد الفونش حسبما نصحه صاحب غرناطة نفسه<sup>(١٤٤)</sup> .

ولما فشل ابن عمار والمعتمد بن عباد صاحب اشبيلية فى تحريض الفونش ضد غرناطة ، اتجه نشاطهما الى السيطرة على إمارة مرسية

(١٤٣) للركتى ، المعجب ، ص ١٠١ ، ابن شلكر الكتبى ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ١٩٩

(١٤٤) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، أنظر ، الفصل نفسه ، ص

(لا تدمير) التي كانت تحت حكم آل طاهر القيسيين (أبو عبد الرحمن بن طاهر ٤٥٥ - ٤٧١ هـ ١٠٦٣ - ١٠٧٨ م) .

ورغم غنى أبي عبد الرحمن إلا أنه لم يكن كثير الخيل والجند مما جعل الاستيلاء على بلاده سهلاً ميسوراً . وقد لاحظ ابن عمار ذلك عندها ممر مرسية في طريقه لمقابلة الكونت ريمون بيرنجير الثاني ملك برشلونة ولم تكن مقابلة هذا الكونت إلا تغطية لأهداف ابن عمار الحقيقية في السيطرة على المدينة<sup>(١٤٥)</sup> .

وقد بدأ ابن عمار مشروعه أثناء إقامته فيها باتصاله ببعض الزعماء الناقمين على بني طاهر ، ثم خرج منها إلى برشلونة حيث عقد حلفاً مع ملكها الكونت رامون عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م ، على أساس أن يدفع له المعتمد مبلغ عشرة آلاف مثقال من الذهب ، نظير معاونته على فتح مرسية ، وأن يقدم كل من الطرفين إلى الآخر رهينة لضمان التنفيذ ، فقدم المعتمد ولده الرشيد ، وقدم ملك برشلونة ابن أخيه . ويقول دوزي أن المعتمد كان يجهل تفاصيل هذا الاتفاق ، لكن تسلسل الأحداث نفسها لا يدل على ذلك ولا يمكن لابن عمار أن يعتقد حلفاً أو يقوم بمشروع كبير كهذا دون رأى المعتمد أو علمه<sup>(١٤٦)</sup> .

ولتنفيذ هذا المشروع قام ابن عباد بإرسال جيش بقيادة ابن عمار تصحبه فرقة من جنود برشلونة وحاصروا المدينة ، ولكن المعتمد ترك الميعاد المتفق عليه لتسليم المبلغ المطلوب يمر دون دفعه ، فارتاب ملك برشلونة في الأمر وظن أنه قد غرر به ، فسحب قواته من مرسية وقبض على ابن عمار والرشيد . وقام المعتمد بالقاء ابن أخى ملك برشلونة هو الآخر في السجن ، وبعد مفاوضات ، دفع المعتمد المبلغ المطلوب ، وتم الانسحاب عن الرشيد وابن عمار ، وأفرج المعتمد بدوره عن الرهينة النصراني الذي سافر إلى بلاده<sup>(١٤٧)</sup> .

(١٤٥) بالنتيـا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٩١ ، ٩٢ هـ

(١٤٦) دوزي ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، دوزي ، المرجع نفسه ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

سحب المعتمد قواته من مرسية ، لكن وزيره ابن عمار أغراه مرة ثانية بغزوها ، فجهز المعتمد حملة أخرى بقيادة ابن عمار وعينه حاكما لمرسية . وقد عاونت ابن عمار قوات من قرطبة أمدته بها حاكمها الفتح بن المعتمد ، كما عاونته عبد الرحمن بن رشيق حاكم حصن بليج الذي أوكل إليه ابن عمار مهمة فتح مرسية ، فنجح في ذلك في عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وقبض على ابن طاهر ، ودخلها ابن عمار في موكب فخم ، وأخذ يظهر بمظهر الأمراء ويوقع بتوقعاتهم ، مما أثار عليه المعتمد بن عباد . ولما شعر ابن عمار بالخطر وأيقن بالهلاك ، لجأ إلى الفوننش ليحتمي به بعد أن أعلن ابن رشيق استقلاله بمرسية أثناء غيابيه في طليطلة لتحريضها ضد حاكمها لصالح الفوننش (١٤٨) .

ولما فشل ابن عمار في طليطلة لجأ إلى الفوننش ليحتمي به وليجد منه عوناً على فتح مرسية ، لكن ابن رشيق أرسل الأموال والهدايا للفوننش فأعرض عن ابن عمار وقال له « أنا لا أرى فيكم إلا أنكم جماعة من اللصوص ، فاللص الأول قد سرق ، وجاء الثاني فسرق من الأول ما سرقه ، وجاء الثالث فسلب من الثاني ما سرقه من الأول » . وعلى ذلك تحول ابن عمار إلى سرقسطة حيث خدم بنى هود ، وحيث انتهى به المطاف إلى القبض عليه وأرساله إلى المعتمد بن عباد ، فتولى قتله بنفسه (١٤٩) .

وفي العام التالي لفتح مرسية على يد ابن رشيق وابن عمار ، أى في عام ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م ، أرسل الفوننش ملك قشتالة الفارس القشتالي الشهير بالسيد القمبيطور ، لاستلام الجزية من المعتمد ملك أشبيلية . وصادف أثناء وصوله إلى بلاط المعتمد أن قوات الأمير عبد الله ملك غرناطة كانت تهاجم أراضي أشبيلية مع فرقة من الفرسان النصارى ، بموجب معاهدة الصداقة التى عقدها صاحب غرناطة مع الفوننش السادس عام ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م ، فطلب رسول ملك قشتالة من النصارى الكف عن مهاجمة أراضي ابن عباد ، تحقيقاً لمقتضيات الصداقة التى تربط الفوننش بملك أشبيلية أيضاً ، ولما رفض هؤلاء هذا النداء قام القمبيطور بمهاجمتهم وهزيمتهم وأسر

(١٤٧) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ ، صلاح خالص ، ابن عمار الأندلسى ، ص ١٢٠ - ١٢٣ .

(١٤٨) دوزى ، المرجع نفسه ، ص ٢٥٨ . ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ١٤٦ .

قائدهم الكونت غرسيه أوردينيز . فسر المعتمد وأعطاه عدا الجزية طائفة كبيرة من الهدايا والتخف (١٥٠) .

وهكذا حارب جنود قشتالة بعضها بعضا لحساب ملكي أشبيلية وغرناطة . وليس هذا بغريب إذا عرفنا أن الدولتين كانتا في حلف وصداقة مع قشتالة ، ويبدو أن جيش غرناطة كان يضم في ذلك الحين نسبة كبيرة من جند قشتالة ، ولعل ألفونش السادس قد وضعهم هناك رغبة منه في إقامة توازن بين الجيوش الإسلامية المتعادية في جنوب شبه الجزيرة ، وفي الحد من أطماع ملك أشبيلية الذي كان يرنو دائما الى توسيع رقعة مملكته على حساب جيرانه من ملوك الطوائف . وهذا لا يتماشى مع سياسة ألفونش التي تهدف الى اضعاف الجميع وضربهم ببعض وإطالة أمد الصراع فيما بينهم (١٥١) .

ولما كانت القوة القشتالية الموجودة في غرناطة على رأسها الكونت غرسيه أوردينيز ، خصم السيد القمبيطور وأحد منافسيه في بلاط قشتالة ، فقد تحركت الأحقاد الشخصية الدفينة في نفس كلا القائدين القشتاليين ، ووجداهما فرصة لتصفية الحساب . وتمكن القمبيطور من أسر خصمه ثم اطلاق سراحه ، فعاد الى برفش ذليلا مهانا مما كان له أثره في علاقة ألفونش بالقمبيطور فيما بعد ، اذ لم يلبث أن نفاه بعد ذلك بعامين ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م بعد أن أوغر صدره عليه من ناحية نبلاء ليون الذين كانوا يكرهون نبلاء برفش الذين ينتسب اليهم السيد القمبيطور (١٥٢) .

ويبدو أن المعتمد بعد أن سقطت في يده مرسية عام ٤٧١ هـ كما فصلناه من قبل ، أراد أن يؤكد عودته وصداقته وتبعيته لألفونش السادس خصوصا بعد أن امتدت مملكته ووصلت الى هذا المدى الشاسع من الاتساع ، حتى وصلت الى مرسية على ساحل البحر المتوسط في شرقي الأندلس فعتد حلفاء مع ألفونش السادس . ويقول الأستاذ عنان أن الرواية القشتالية تقدم الينا موضوع ذلك الحلف ولكنها لا تذكر تاريخه وتقول لنا أن الوزير ابن

(١٤٩) عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٢ ، ليفي برونفيسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ -

خليل ابراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٠١ .

(١٥٠) ليفي برونفيسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ -

(١٥١) ليفي برونفيسال ، المرجع نفسه ، ص ١٨١ -

لبن بول ، قصة العرب في اسبانيا ، ص ١٦٧ -

عمار ذهب الى ليون وتولى المفاوضة في عقده ، وخلصته ان يقوم ملك قشتالة بمعاونة المعتمد في جروبه ضد أعدائه من المسلمين ، على ان يقوم المعتمد بأداء الجزية ويغزو أراضي مملكة طليطلة الجنوبية وان يسلم منها الى ملك قشتالة الأراضي الواقعة شمال جبال سرامورنيا ( جبل الشارات حسب الرواية العربية ) (١٥٢) .

وتزيد الرواية القشتالية على ذلك بأن المعتمد قدم في هذه المناسبة إحدى بناته لتكون زوجة أو حظية لملك قشتالة ، وهي التي تعرفها الرواية القشتالية باسم « زائدة » وهذا بالطبع لا يمكن ان يحدث من ملك مسلم ، والصحيح انها كانت زوجة ابنه الفتح الذي قتله المرابطون أثناء استيلائهم على قرطبة من يده عام ٤٨٣ هـ ، فذهبت الزوجة مغضبة الى أعداء المرابطين على سبيل الانتقام ، حيث أصبحت ضمن حظايا الفونش السادس ، والتي أنجب منها ولده الوحيد شانجة الذي قتل في معركة اقليش عام ٥٠١ هـ / ١١٠٧ م (١٥٤) .

أما تاريخ الحلف المذكور بين الفونش وبين المعتمد والذي عقده ابن عمار في ليون فيبدو انه كان في عام ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م وبعد استيلاء ابن عمار على مرسية بقليل ، ذلك ان العلاقة ما لبثت أن توترت وسامت بين ابن عمار ومليكه المعتمد بن عباد ، بعد ان استولى ابن رشيق على مرسية ، ولجوء ابن عمار الى الفونش ثم هجرته الى القادر صاحب سرقسطة ، حيث عمل في خدمته وخدمة ابنه المؤتمن الذي تولى الحكم عام ٤٧٤ هـ ، مما يؤكد لنا ان حلف ابن عمار مع الفونش كان قبل هذا التاريخ بالتأكيد . وظل ابن عمار في سرقسطة حتى تم اعتقاله بواسطة أحد أصحاب الحصون الذين كان ابن عمار يروم خلعهم لمصلحة ابن هود ، ثم أرسل الى اشبيلية فقتله ابن عباد بيده عام ٤٧٧ هـ (١٥٥) .

ويربط البعض بين هروب ابن عمار وبين موقف المعتمد بن عباد الشجاع من سفارة ابن تاليب اليهودي التي أرسلها الفونش الى اشبيلية لاستلام

(١٥٢) غنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٣) الضبي ، بقية التتميم ، ص ٣٢ ، غنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٤) أنظر الفصل الأول ، الباب الثالث ، ص

الجزية (١٥٦) ، بينما يجعل الأستاذ عنان قصة هذه السفارة تالية للحلف الذي أشرنا إليه من قبل ويحدد لها تاريخا وهو عام ٤٧٥ هـ (١٠٧) . وهذا ليس بصحيح على الإطلاق وسوف نناقشه بعد أن نأتى على موضوع السفارة نفسه .

ذلك أن الفونش السادس وجه سفارته المعتادة الى المعتمد بطلب الجزية وعلى رأسها أحد قادته ، ووزيره اليهودى ابن شاليب ، الخبير فى معرفة الزائف من الصحيح من العملة . وعسكرت البعثة بجنودها الذين يبلغون الخمسمائة فارس خارج مدينة أشبيلية ، قوجه اليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة ، وفى مقدمتهم الوزير ابن زيدون ، فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك رفض تسليمها بقلطة بحجة أنها من عيار زائف ، وهدد بأنه اذا لم يقدم له المال من عيار حسن ، فسوف يحتل الفونش مدائن مملكة أشبيلية حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب (١٥٨) . وفى بعض الروايات أنه زاد على طلبه السماح لزوجة الفونش أن تلد فى الجانب الغربى من المسجد الأعظم بقرطبة حسبما أشار بذلك القسارسة ، لأنه كان جزءا من كنيسة كانت معظمة عندهم ، على أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربى مدينة قرطبة ، وزعم أن الأطباء قد أشاروا بذلك لاعتدال مناخها . وزاد فى اثارته للمعتمد فطلب منه التخلّى عن بعض الحصون التى كان الموت عنده أولى من إعطائها . ولما وقف المعتمد على كل ذلك بعث رجاله فقبضوا على ابن شاليب ومن معه من الفرسان القشتاليين ، وأمر باليهودى فصلب وألقى بالفرسان فى السجن (١٥٩) .

(١٥٥) خليل ابراهيم السامرائى ، علاقات المرابطين ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(١٥٦) محمد عبد الله عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ .

(١٥٧) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن الخطيب ، أعمال اعلام ،

ج ٢ ، ٢٤٤ ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ .

(١٥٨) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ٥٢ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه ،

ج ٤ ، ص ١١٩ .

ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ،

ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، ٣٦ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٤ .

ويتفق المصدران الأولان فى أن المعتمد قتل الرسول والبعثة كلها ، بينما تفكر المصادر الباقية أنه قتل الرسول اليهودى فقط وسجن باقى أفراد بعثته .



ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه اضطر أن يرد حصن المدور  
القريب من قرطبة الى المعتمد ثمنا لاطلاق سراحهم ، لكنه أقسم أن ينتقم منه  
أروغ انتقام ، وأن يخرب اراضى مملكته كلها حتى يصل الى نهاية الأندلس  
عند جزيرة طريف . وبادر ألفونش وقام على رأس جيوشه من الجلالقة  
والقشتاليين والبشكنس وعاث في أحواز باجة ولبله ، ثم وصل الى أرض  
أشبيلية وهو يحرق القرى وينسف الزروع ، ويسبى كل من وقع في يده من  
المسلمين ، وعسكر هناك على ضفة النهر الأعظم أو الوادى الكبير في مواجهة  
قصر المعتمد بن عباد (١٦٠) .

مكث ألفونش في مقامه هناك ثلاثة أيام أرسل فيها رسالة الى المعتمد  
ساخرا منه زاريا به مذلا له ، يقول فيها « كثر بطول مقامى في مجلسى الذباب  
( الذباب ) واشتد على الحر ، فالتقى من قصرك بمروحة أروح بها على  
نفسى ، وأطرد بها الذباب عنى » فكتب له ابن عياد في ظهر رسالته وبخط  
يده « قرأت كتابك ، وفهمت خيلاءك وأعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من  
الجلود اللطيفة فى أيدي الجيوش المرابطية ، تروح منك لا تروح عليك  
ان شاء الله » . واستمر ألفونش فى حملته حتى وصل الى جزيرة طريف  
على بحر الزقاق أو على مضيق جبل طارق (١٦١) .

وكان تهديد المعتمد لألفونش بالمرابطين قد انتشر فى الأندلس ، فاستبشر  
الناس وفتحت أمامهم أبواب الآمال ، وتم ارسال البعثة الأندلسية الى  
يوسف بن تاشفين تستصرخه لغوث الأندلس ونجدها من يد هذا الطاغية  
اللعين ألفونش السادس ، الذى شق الأندلس من أقصاها الى أدها ،  
وخاض بقوائم فرسه فى بحر الزقاق معلنا أن الأندلس كلها أصبحت طوع  
يهمنه وتحت سلطانه . وقد احتفظ لنا ابن الخطيب بالرسائل المتبادلة بين  
ألفونش السادس وبين ابن تاشفين حينما وصل الأول الى بحر الزقاق وأرسل  
رسالة لابن تاشفين يتحداه فيها بالعبور اليه أو يقوم هو بذلك ، وبالرسائل  
المتبادلة بين المعتمد بن عياد وابن تاشفين يستصرخه فيها بالاسراع فى العبور  
ونجدة الاسلام (١٦٢) .

(١٥٩) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ .

ابن الخطيب الحلل الموشية ، ص ٢٦ ، ابن خلدون ، المعبر ، ج ٦ ، ص ١٨٦ .

(١٦٠) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٦ .

(١٦١) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ،

ص ٢٢ ، ٢٢ .

ع ١١٠

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٤ .

هذه هي قصة رسالة ابن شاليب وما انتهت إليه . ومن الواضح أن تسلسل الأحداث لا يدل مطلقا على أنها كانت عام ٧٥٠ هـ كما يقول بذلك المقرئ ومن تابعه من المؤرخين المحدثين (١٦٣) ، ولا يمكن أن نأخذ بهذا التاريخ ونرجح أن السفارة تمت عقب سقوط طليطلة . أما رفضنا التاريخ المشار إليه فلأسباب الآتية :

**أولا :** لأنه لا يتناسب مطلقا مع الترتيب المنطقي للأحداث حسبما أشار المقرئ نفسه ، فقد سقطت طليطلة وابن عباد في تحالف مع الفونش السادس ، ولا يمكن أن تأتي سفارة ابن شاليب التي أفسدت العلاقات بينها بدرجة خطيرة ، وجعلت ابن عباد يستصرخ بالمرابطين رسميا قبل سقوط طليطلة .

**ثانيا :** لو كانت أحداث سفارة ابن شاليب حدثت عام ٧٥٠ هـ / ١٠٨٢ م لكان هناك متسع من الوقت لألفونش أن يفزو أشبيلية ذاتها ، ولسقطت في يده قبل طليطلة عام ٧٨٠ هـ . لكن كان هناك حلف بينه وبين أشبيلية عقده معها منذ عام ٧١٠ هـ ، وبموجبه أطلق المعتمد يد الفونش في طليطلة ، فاستمر على حصارها ومضايقتها حتى سقطت في يده .

**ثالثا :** لا يمكن للمعتمد بن عباد أن يقوم بقتل سفير الفونش عام ٧٥٠ هـ / ١٠٨٢ م وهو يعلم تماما أنه لا طاقة له بمواجهة الفونش بمفرده ، خصوصا وأن ابن تاشفين لم يكن قد استولى بعد على سبتة التي لا يمكن العبور إلى الأندلس دون السيطرة عليها ، ولم يتم ذلك إلا عام ٨٦٠ هـ أو عام ٧٧٠ هـ ولذلك لم يكن هناك أمل في مساعدة المرابطين قبل هذا التاريخ . ومن هنا لا يجرؤ المعتمد على تحدى الفونش بالشكل الذي أظهرته أحداث السفارة عام ٧٥٠ هـ (١٦٤) .

(١٦٢) انظر المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، السلاوى ، الاستقصاء .

ج ١ ، ص ١١٠ .

عنان ، المرجع نفسه ، ص ٧٣ ، دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٣٦٧ - ٣٧٠ .

خليل إبراهيم ، المرجع نفسه ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

Livermore, op. cit. pp. 122, 123.

(١٦٣) الضبي ، بغية المتعصب ، ص ٣١ .

السلاوى ، المصدر نفسه ، ج ١ ، ص ١١١ .

Livermore, op. cit. p. 123.

**رابعاً :** الحملة التي قام بها الفونش السادس حتى وصل الى جزيرة طريف لا يمكن أن يقوم بها عام ٤٧٥ هـ ، لأنه كان مشغولاً في أحداث طليطلة وثوراتها المتعاقبة ضد القادر والسيطرة القشتالية ، وكان الفونش يضع نصب عينيه في ذلك الوقت الاستيلاء على طليطلة ، وكان لا يمكن أن يقضب ابن عباد أو يدفعه للعداء معه حتى لا ينجد طليطلة ، بل انه على العكس من ذلك ، عقد معه حلفاً يقسمان بموجبه الغنيمة عند سقوط طليطلة ، ومن ثم تنتفى أحداث سفارة ابن شاليب بالصورة التي تمت بها كلية عام ٤٧٥ هـ .

**خامساً :** استند الأستاذ عنان ودوزي ومن تابعهم من المؤرخين المحدثين والمستشرقين على مصدرين متأخرين جداً ، فالمقرئ توفي عام ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م وهو ينقل عن ابن اللبانة الذي لا نجد له مكاناً بين المؤرخين أو الأدباء المشهورين الجديرين بالثقة ، فضلاً عن أنه غير معاصر للأحداث أو قريب منها . أما السلاوي فهو من مؤرخي القرن الرابع عشر الهجري ( ت ١٣١٥ هـ ) ، ولا يبين المصدر الذي نقل عنه ، زد على ذلك أن روايته مضطربة ويخطئ في ترتيب الأحداث التاريخية ويجعل أقدمها أحدثها كما أنه لم يذكر السفارة ذاتها وانما يذكر ما ترتب عليها من غزو الفونش وزحفه حتى جزيرة طريف في جنوب الأندلس ويجعل ذلك عام ٤٧٥ هـ (١٦٥) .

والصحيح كما أثرنّا أن سفارة ابن شاليب تمت عقب سقوط طليطلة بقليل عام ٤٧٨ هـ ( ١٠٨٥ م ) للأسباب الآتية :

**أولاً :** ان هذا التاريخ يتفق مع التسلسل التاريخي للأحداث فقد ازدادت بالطبع أطباع الفونش بعد سقوط طليطلة وأراد إسقاط جميع ملوك الطوائف كما صرح بذلك لسفير ابن عباد نفسه ، واشتط في طلباته ، حتى يدفع المعتمد الى الرض ، وهنا يجد الفونش نفسه في حل من حلفه معه ، وتتهيا له الفرصة لاقتراسه . ولما أدرك المعتمد ذلك ورأى هجوم الفونش حتى وصل طريف ، أدرك الحقيقة وأرسل الى المرابطين يستصرخهم ، رغم معارضة بعض ملوك الأندلس (١٦٦) .

(١٦٤) السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ١١٠ .

(١٦٥) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه

ج ٦ ، ص ١١٤ .

ابن أبي دينار ، المونس ، ص ٩٨ ، ٩٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ .

ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٩ .

**ثانيا : كان لا يمكن للفوننش أن يقوم بالغزو حتى جزيرة طريف اذ كانت قاعدة الغزو في مكان يبعد كثيرا ، فبرغش وليون تقعان في اقصى شمال شبه الجزيرة ، ولا يمكن أن تقوم من اى منهما حملة تستمر في الزحف حتى جزيرة طريف بهذه السرعة التى تمت بها حملة الفوننش . ولا يمكن أن تكون القاعدة الا طليطلة التى تقع وسط شبه الجزيرة ، ويمكن لمن يسيطر عليها أن يرسل جيوشه في اى اتجاه . ويذكر بعض المؤرخين صراحة انه عاد من غزوته تلك الى طليطلة ، وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه (١٦٧) .**

**ثالثا : صحيح أن الحميرى وهو ممن نستند اليهم في تدعيم رايئنا لم يذكر تاريخا محددا للسفارة ، لكنه جعلها سببا مباشرا للزلافة التى حدثت بعد سقوط طليطلة بعام ، وليس قبلها ، ويقول ان السفارة أفستت الصلح والحلف المنعقد بين الفوننش والمعتمد . وبالطبع فان هذا الصلح كان قبل سقوط طليطلة حسبما فصلنا ، وليس بعدها ، اذ اننا لم نسمع عن أحلاف عقدت بعد سقوط طليطلة ، ولكننا سمعنا عن تحركات ملوك الطوائف واتفاق كثير منهم وخاصة كبراءهم ، مثل ابن عباد وابن الأفطس وابن بلقين ، على استدعاء المرابطين الذى تم بعد سقوط طليطلة (١٦٨) .**

وهناك غير الحميرى من ذكروا بالنص وقالوا صراحة أن سفارة ابن شاليب حدثت بعد سقوط طليطلة . مثال ذلك ابن الاثير الذى قال « فلما ملك الأنفوننش ( الفونسو ) طليطلة أرسل الى المعتمد ... الخ » . ولسان الدين ابن الخطيب الذى يذكر هو الآخر صراحة أنها كانت بعد سقوط طليطلة ، وأن الفوننش « مال على جهة ابن عباد كبيرهم ، يحصل شوكته ويخطب مملكته ويطرق حماه متناھيا في الوعد ، متراميا الى المرمى البعيد ، ووصله رسوله اليهودى المعين لقبض الضرائب ... الخ » وأنه لما استولى على طليطلة أرسل ابن عباد يطلب منه تسليم أعماله الى رسله وعماله ، يؤيدهم في ذلك ابن خلدون الذى يقول ان الفوننش « أخذ طليطلة صلحا عام ٤٧٨ هـ ، ثم سار في بلاد الأندلس حتى وصل بفرقتة المجاز من طريف » (١٦٩) .

---

(١٦٦) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ١١٩ ، ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ٥٢ .

(١٦٧) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(١٦٨) ابن الأثير ، المصدر نفسه ، ج ١٠ ، ص ٥٢ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

للحلل الموشية ، ص ٢٢ ، ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ص ١٨٦ .

وغنّى عن البيان أن هذه المصادر — ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) وابن الخطيب (ت ٧٧٦ هـ) وابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) والحميرى (عاش في القرن التاسع الهجرى) ، أقرب الى الأحداث بكثير من المقرئ (ت ١٠٤١ هـ) والسلاوى (ت ١٣١٥ هـ) كما أنها أجدر بالثقة وأدعى للاطمئنان بدرجة كبيرة ، إذ أن ابن الخطيب ينقل عن مؤرخ معاصر هو ابن حيان ، بينما المقرئ ينقل عن مؤلف مغمور لا يعتد به ، فضلا عن أن المقرئ نفسه يتفق مع مصادرها في التسلسل التاريخى للأحداث ، ويجعلها تنتهى باستدعاء المرابطين ، ويتفق معنا السلاوى أيضا في أن الفونش بعد وصوله الى طريف ارتد وحاصر سرقسطة » وأراد أن يقدمها بالفتح على غيرها « وهذا بالطبع لم يحدث الا بعد سقوط طليطلة (١٧٠) .

على أية حال فقد كان سقوط طليطلة وما تبعها من حملة الفونش السادس التى اخترق بها الأندلس من شمالها الى أقصى جنوبها من الكوارث الخطيرة التى جعلت ملوك الطوائف يعيدون حساباتهم ، وعند الشعور بالخطر تقاربت أهواؤهم واتحدت مصلحتهم فى استدعاء المرابطين . صحيح أن بعضهم رفض ذلك بدعوى خوفهم على ملكهم من المرابطين ، لكن ابن عباد حسم الموقف بقوله لهم « رعى الجمال عند ابن تاشفين خير من رعى الخنازير فى قشتالة » . ولم تكن فكرة الاستعانة بالمرابطين وليدة ذلك اليوم ، بل كانت سابقة على ذلك بعدة أعوام ، لكنها لم تأخذ الطابع الرسمى الا عندما اتفق ملوك الأندلس وأرسلوا سفارتهم الى ابن تاشفين ، وعلى رأسها أبو بكر عبيد الله بن أدهم قاضى قرطبة ، وأبو اسحاق بن بقانة قاضى بطليوس وأبو جعفر القليعى قاضى غرناطة ، وأبو بكر بن زيدون وزير المعتد (١٧١) .

وما حدث بعد ذلك من عبور ابن تاشفين الى الأندلس فى ربيع الأول عام (٤٧٩ هـ يونية ١٠٨٦ م) ، ثم زحفه الى أشبيلية ، ثم تجمع القوات

(١٦٩) المقرئ ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٧٠ ، السلاوى ، المصدر نفسه ، ص ١١٠ .

(١٧٠) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٤ ، ابن الأثير ، المصدر نفسه ،

ج ١٠ ، ص ٥٦ .

ابن الأبار ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٩٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ،

ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٧٥ ، ٨٦ .

الأندلسية في الزلافة من أعمال بطليوس وملاقاتها لجيش الفونش الذي ضم كثيرا من الجند الفرنسيين وغيرهم بالإضافة إلى جنود قشتالة وليون ونبرة وبرشلونة ، ثم قيام المعركة في ١٢ رجب عام ٤٧٩ هـ / ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م وانتهائها بذلك الانتصار الساحق للقوات المتحدة من الأندلسيين والمرابطين ، وفرار الفونش إلى طليطلة مع حوالى خمسمائة من فرسانه . كل ذلك معروف وتذكر به كتب التاريخ وما يعنيها هنا هو مناقشة بعض القضايا التي تتعلق بهذه المعركة الفاصلة في تاريخ الصراع بين الاسلام والنصرانية في شبه الجزيرة (١٧٢) .

وأول هذه القضايا أن المعتمد وغيره من ملوك الطوائف لم يكونوا باستدعائهم للمرابطين يتبنون القضية الاسلامية ، أو يتبعون سياسة اسلامية ، وانما كانت تدفعهم مصالحهم الشخصية وخوفهم على عروشهم من الزوال ، بالرغم مما اثاره استدعاء المرابطين من فورة دينية على كلا الجانبين الاسلامي والمسيحي . فقد كان طابع الحرب صليبيا بالنسبة للمسيحيين وكانت حرب جهاد مقدس من جانب المسلمين ، واستغل ملوك الطوائف تلك الفورة الدينية لمصلحتهم فاستدعوا المرابطين ، ولما تناقض ذلك مع آمالهم وخططهم ، انقلبوا على المرابطين ووضعوا يدهم مرة أخرى في يد نصارى الشمال (١٧٣) .

فهذا هو الأمير عبد الله بن بلقين وصاحب غرناطة واحد المعاصرين والمشاركين في الأحداث نفسها ، يقول في مذكراته « وجرت بين المعتمد

- 
- (١٧١) من استدعاء المرابطين وغيرهم وموقعة الزلافة بتفاصيلها ، انظر ، ابن بلقين ، مذكرات الأمير عبد الله ، ص ١٠١ ، ١٠٦ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ص ٨٩ - ٩٥ .  
ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦ ، ٥٧ ، ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ٢ ، ص ٩٩ - ١٠١ .

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ١١٨ - ١٢٠ ، ج ٦ ، ص ١١٢ - ١٢١ .  
ابن الخطيب ، الحلل المؤشبة ، ص ٣٢ - ٤٦ ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ .  
الجميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٨٥ ، ٩٤ .  
المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٢٣ - ٥٣٢ .

Dozy, A History of the Moslems in Spain, pp. 694 - 608  
Murphy, Mohamedan Empire, pp. 125 - 139.

- (١٧٢) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ ، الجميري ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

والفونش ( الفونسو ) محالفات كثيرة ، وسأله أن يتخلّى له عن معاقل كان الموت عنده أولى به من إعطائها ، فوجست ( خافت ) نفسه منه بالجملة ، ورام كسره بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض . كانت هذه استراتيجية المعتمد بن عباد وهي أن يضرب المسلمين بالنصارى ويخوف هؤلاء بأولئك حتى يبقى له عرشه (١٧٤) .

وقد أعطى المعتمد لاستدعائه المرابطين صفة الغيرة على الدين وعلى المسلمين ، حينما أرسل للفونش رسالة يندم على التفریط في حق أخوانه من أهل طليطلة ومساعدته له في أخذ بلدهم ، لكن دخيلة نفسه تنكشف تماماً بعد أن عاد للتحالف مع الفونش عندما رأى أن المرابطين بدأوا في خلع ملوك الطوائف ، وبرر فعلته تلك بقوله « اضطررتى الضرورة الى ذلك للمدافعة ( عن نفسى وبلدى ) ولو يوما واحدا » (١٧٥) .

اذن فمى كان قوله « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » انها المصلحة الشخصية لا غير ، وتؤكد لنا بعض الروايات بأن رسوله الى ابن تاشفين مانع في اعطائه الجزيرة الخضراء لتكون قاعدة للجيش والمرابطين ، وحتى بعد أن وافق على اعطائها أمسك رسل ابن تاشفين عنده في أشبيلية مدة طويلة ، ثم اطلقهم وأرسل معهم رسالة يطلب فيها من ابن تاشفين الانهء بعدم الجواز الى الأندلس الا بعد مرور ثلاثين يوما حتى يتمكنوا من اخلاء الجزيرة الخضراء له ، لكن هذه الحيلة لم تفت على ابن تاشفين الذى فهم أن المعتمد يريد أن يلعب على الحبلين ، فيخبر الفونش بقدوم المرابطين ويرغبه باعطاء الجزية ومحالفته على عدم الاعتداء على مملكته ، واذا لم يتمكن من ذلك سمح للمرابطين بالجواز (١٧٦) .

ولذلك أسرع ابن تاشفين وأرسل بعضا من جنده في الحال اثر عودة رسل ابن عباد ، واحتلوا اجزاء من الجزيرة الخضراء لوضع ابن عباد امام الأمر الواقع . ذلك أن ملوك الطوائف كانوا يكرهون نزول المرابطين بجزيرتهم ، ولم يكن هناك اجماع على استدعائهم ، لكنهم كرهوا أن يكونوا بين عدوين ، النصارى من شمالهم والمرابطون من جنوبهم، ولما كان لاسم

(١٧٣) ابن بلقين ، مذكراته ، ج ١ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

(١٧٤) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٥ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٥ ، ٨٦ .

ابن بلقين ، المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .

(١٧٦) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

ابن تاشفين دوى يلتقى الرعب فى قلوب الأعداء فقد أراد ملوك الطوائف أن يهربوا ملوك النصرى بإظهار موالاتهم لملك المغرب يوسف بن تاشفين (١٧٧) .

ولما تأكد لهم أن ابن تاشفين ينوى نزول الجزيرة لدافعة النصرى استجابة للنداءات المتكررة من الفقهاء والادباء والوفود الاهلية المتكررة التى كانت تذهب اليه باكية مستصرخة ، اجتمعوا الى زعيمهم ابن عباد وفوضوه فى مكاتبة ابن تاشفين يسألونه الإبقاء عليهم ، على أن يكونوا تحت طاعته ، وقد احتفظ لنا ابن خلكان برسالة من المعتمد بهذا المعنى واحتفظ لنا أيضا برد ابن تاشفين ، وفيه طمأنهم بأنه حافظ لعروشهم ومبقيهم على بلادهم ، فأحبوه وعظموه وقرت أنفسهم وراوا الوقوف معه ضد الفونش (١٧٨) .

هنا لابد أن نذكر أيضا أن ابن تاشفين مع تقواه وتدينه وحبه للجهاد ودفاعه عن المسلمين ، لم يكن أيضا هو الآخر خاليا من الاطماع الشخصية فى ملك الأندلس ، وهناك موقفان يدلان على ذلك ، أما الموقف الأول فيحكيه لنا ابن الكردبوس الذى كان معاصرا للاحداث أو على الأقل سمع ممن عاصرها ، فيقول أنه أثناء المعركة اشتد القتل فى جيوش الأندلس واستبطأ المعتمد وصول قوات المرابطين وبدأ يتراجع هو بقواته ، وتبعهم الفونش قتلا وأسرا مسافة ثمانية عشر ميلا ، وكانت خطة المعركة مرسومة على أساس أن الجيش الأندلسى فى المقدمة وأن الجيش المرابطى يتبعه بمسافة قليلة على شكل كمائن متفرقة بحيث ينقض على العدو فى الوقت المناسب (١٧٩) .

ولما بدت هزيمة الجيش الأندلسى وأحيط ابن تاشفين بذلك قال : « اتركوهم قليلا للفناء ، فكلما الفريقين من الأعداء » . وهناك من الروايات ما تذكر أن ابن تاشفين كان يتمنى عدم لقاء العدو فى أرض لا يعرفها ،

(١٧٧) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٢ .

(١٧٨) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ١١٢ ، ١١٣ .

الحويرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٦ .

(١٧٩) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ابن الخطيب ، المال ، ص ٤١ .



ووسط أناس لا يعرف فيهم العدو من الصديق . ويبدو أنه كان محقاً في ذلك بعد أن رأى فرار ملوك الطوائف من المعركة وهي ما تزال في بدايتها، عدا ابن عباد الذي صمد والذي اختصه ابن تاشفين في رسائله بالمدح والثناء<sup>(١٨٠)</sup> .

هذا هو الموقف الأول ، أما الموقف الثاني فيبرز من خلال الخلاف الذي نشب بين المعتمد وابن تاشفين غداة احراز النصر على الفونش في الزلاقة ، فقد رأى المعتمد ضرورة مطاردة الأعداء وملاحقتهم حتى ينقطع دابرهم ، لكن ابن تاشفين رفض ذلك متعللاً بالخوف على الذين انهزموا من المسلمين في بداية المعركة ، فربما قام الفونش بالقضاء عليهم إذا رأى مطاردة الرابطين له ، وهو تعليل لا يحمل طابع الجدية ، وقد فنده المعتمد وقال له ان هؤلاء المنهزمين لن يعجزوا أمام الفونش الذي مر في شرذمة قليلة العدد ، لكن يوسف أصر على موقفه ، وساعده على ذلك وصول نبأ موت ابنه الأكبر الذي كان قد تركه في حكم المغرب أثناء غيابه ، فأعلن العودة الى بلاده فوراً<sup>(١٨١)</sup> .

وقد تحدث المعاصرون وفندوا هذا الخلاف الذي نشب بين القائدين : ابن تاشفين وابن عباد ، فقال أنصار ابن عباد أن يوسف كان يعرف أن ابن عباد كان على حق ، لكنه « خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه ، فيحدث الاستغناء عنه » ، وقال أنصار يوسف « أن ابن عباد أراد أن يقطع حبال يوسف من العودة الى جزيرة الأندلس » . وقال فريق ثالث أن الرجلين كانا غير مخلصين كل للآخر ، وان كان ابن عباد أحرى بالصواب » .<sup>(١٨٢)</sup>

وهذان الموقفان يوضحان تماماً أهداف ملوك الطوائف وأهداف الرابطين من تلك الحرب التي أضرموها مع نصارى أسبانيا وغيرهم من

---

(١٨٠) ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ ، ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٦٠٥ .

الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٩٢ .

(١٨١) الحميري ، المصدر نفسه ، ص ٩٣ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٥ .

(١٨٢) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٣ ، أشباح المرجع نفسه ، ص ٩٢ .

نصارى فرنسا والبابوية . وفي الحقيقة فإن يوسف بن تاشفين لم يفعل مثلاً  
مثلاً فعل طارق بن زياد وموسى بن نصير اللذان لم يكفيا عن القتال  
حتى أجهزا على قوة القوط ، بل إن طارق بن زياد بعد أن هزمهم في موقعة  
وادي لكّة ( شريش ) ، لم ينتظر وصول تعليمات من قائده الأعلى موسى  
ابن نصير ، فواصل الزحف حتى وقعت العاصمة طليطلة في قبضته معرضاً  
نفسه لعقاب موسى وتأنيبه .

وربما فعل ابن تاشفين مثلاً فعل شارل مارتل في موقعة بلاط الشهداء  
( ١١٤ هـ ) التي هزم فيها المسلمون بقيادة عبد الرحمن الغافقي . ورغم  
هزيمة المسلمين في هذه المعركة ومقتل قائدهم فيها ، إلا أن شارل لم  
يطاردتهم واكتفى بما أحرزه من نصر وبما أصابه من الغنائم والأسلاب .  
ويأتى الشبه بين بلاط الشهداء وبين الزلاقة من ناحية أخرى ، فقد اتبع كل  
من شارل ويوسف تقريباً أسلوباً أو خطة مشابهة عادت بالنصر على كليهما  
ذلك أن كلا منهما كان منهزماً في البداية ، وإن كانت الهزيمة في حالة  
يوسف تعود على الأندلسيين وليس المرابطين . لكن شارل ويوسف فاجأ  
العدو من الخلف بالاغارة على معسكره ومؤنه وذخائره ، وبالضرورة  
فلا بد أن يرتد الجيش المهاجم ويسارع بانقضاء معسكره ومؤنه وهنا يقع  
بين جيوش الأعداء من أمام ومن خلف ، فتصيبه الهزيمة لا محالة .

ولذلك فإن نتيجة المعركتين تكاد تكون متشابهة ، فلم يتمكن شارل  
وكذلك يوسف من القضاء على خصمه قضاء تاماً . إذ أن المسلمين ما لبثوا  
أن عادوا إلى الانتفاض على جنوب فرنسا ولم يكن قد مر عامان على  
هزيمتهم في بلاط الشهداء . وكذلك فعل الفونش السادس فلم يكد يمر  
عامان أيضاً حتى كان قد استرد أنفاسه ونظم جيوشه وبدأ  
يشن الغارات على المسلمين من جديد ، ويستلم منهم الجزية بل ويفرض  
عليهم وعلى المرابطين مجتمعين الانسحاب من أمام حصن صغير ، مقرين  
بالعجز والفشل أمامه ، وهو حصن لبيط عام ٤٨١ هـ .

وتأتى المشابهة بين المعركتين من ناحية أخرى ، ذلك أن المسلمين في  
بلاط الشهداء ، والنصارى في الزلاقة ، قد نقلوا المعركة إلى أرض الأعداء

وقد رأى الفونش السادس أن تكون المعركة بعيدة عن بلاده ، فإذا هزم لا تتعرض بلاده للتخريب والتدمير وإنما يكتفى أعداؤه بما ينالوه من أسلاب المعركة وغنائمها ، وإذا انتصر تكون الفرصة متاحة أمامه لتخريب بلادهم وفرض شروطه عليهم (١٨٣) .

وكان ذلك أيضا يناسب ظروف المرابطين الذين لا يعرفون الأرض التي يحاربون عليها ، ولا يدرون من أمر دروبها ومسالكها وأنهارها شيئا . ولذلك اطمأنوا إلى قربهم من بطليوس التي كانت حماية لظهرهم ، ويمكن أن يلجئوا إليها وإلى حصونها إذا ما نالتهم الهزيمة . وتقول بعض الروايات « بأن المعتمد كان يبيت عيونه بين الصحراويين ( المرابطين ) خوفا عليهم من مكائد الفونش ، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وكان يتولى ذلك بنفسه » . (١٨٤) .

وإذا كانت الخطة التي رسمها ابن تاشفين والمعتمد جلبت النصر ، فهناك شجاعة المعتمد وجنده ، وشجاعة المرابطين وصبرهم ، حتى أنهم كانوا يطلبون الموت والشهادة كما يقول بعض المؤرخين . وكان هناك ذكاء المعتمد وعدم انخداعه بحيلة الفونش ودهائه عندما اتفق على ميعاد محدد للمعركة ثم قام بالهجوم في غير وقته ، فكان المعتمد مستعدا للقائه ودافع دفاع الإبطال حتى أثخن بالجراح ، ولم يتقهقر إلا نتيجة للخطة التي رسمها يوسف ، وتقضى بجر الاعداء داخل بلاد المسلمين مسافة كافية فيتمكن من الأجهزة عليهم جميعا (١٨٥) .

وهناك السلاح الجديد الذي ظنه الفونش منجلا ، وهو عبارة عن خناجر مقوسة لم يعهدها الأسبان من قبل ، وقد تمكن أحد المرابطين من اللحاق بالفونش وضربه بهذا السلاح الذي كانوا يسمونه « الأطاس » ضربة جعلته يعرج باقى عمره . وكان هناك أيضا ذلك الطبل

(١٨٣) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٨٨ .

(١٨٤) الحميرى ، المصدر نفسه ، ٩٠ ، ابن الكردبوس ، المصدر نفسه ، ص ٩٤ .

ابن بلقيز ، مذكراته ، ص ١٠٥ .

(١٨٥) الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ٩٠ ، ٩١ .

المدوى الذى نجح الأسبان وفاجأهم من خلف ظهورهم ، وكان المرابطون قد صاحبوا معهم عددا وفيرا من الجمال التى لم يكن للجزيرة بها عهد من قبل ، فكانت الخيل تفر من رؤيتها ، هذا علاوة على الدروع اللطية وسيوف الهند ومزاريق الزان ، التى كانت فى أيدي المرابطين ، والتى كانت ذات شهرة واسعة كسلاح ذى قيمة كبيرة فى حروب ذلك الوقت<sup>(١٨٦)</sup> .

ويذكر لنا ابن بلقين المشارك فى المعركة سببا آخر للنصر ، وهو أن جنود الفونش بعد أن طاردوا الجيش الأندلسى فى بداية المعركة ، انشغلوا بالاستحواذ على الغنائم والأسلاب ، وظنوا أن ابن تاشفين من جملة المنهزمين ، وإذا بهم يسمعون طبول المرابطين تدوى بعنف من خلفهم ، فاستداروا للملاقاة ، وعاد ابن عباد ومن معه وهاجموهم من خلف ، فكثرت القتل فى النصارى ولم ينفذهم إلا حلول الظلام ، ووقعت عليهم الهزيمة رغم تفوقهم فى العدد على جيوش المسلمين<sup>(١٨٧)</sup> .

وهكذا كسب المسلمون الجولة فى هذه المعركة الفاصلة التى غيرت من مجرى التاريخ الأندلسى والنصرانى فى شبه الجزيرة لفترة طويلة وحققوا نصرا أعاد أمجاد عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبى عامر ، ويكفى أن تلك المعركة قد أعادت الثقة والأمل الذى كاد يخبو فى نفوس الشعب الأندلسى ، وأعادت إليه الحماس الدينى الذى كاد يقضى عليه ملوك الطوائف بسياستهم الخرقاء ، وأعفت هؤلاء الملوك من المذلة والخضوع لنصارى الشمال وعدم دفع الجزية لهم . كما أن تلك المعركة قد ردت سيل النصرانية الجارف أو أوقفته فى مكانه ، وكتبت الحياة للإسلام على أرض شبه الجزيرة لمدة أربعة قرون أخرى وتمخضت عن نتيجة هامة ، وهى التمهيد لضم الأندلس الى المغرب وتحقيق الوحدة بين الدولتين الاسلاميتين العظيمتين فى ظل دولة المرابطين الكبرى<sup>(١٨٨)</sup> .

---

(١٨٦) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٥ - ١١٧ ، ابن الخطيب ، المحلل

الموشية ، ص ٤٣ .

(١٨٧) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١١٧ .

(١٨٨) عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٣٢ .

استغل المعتمد الضعف الذي أصاب الفونش عقب الزلافة وزحف في  
قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة ، واستولى على ولاية طليطلة ،  
واستولى على عدة مدن ، من بينها أقليمش وقوتقة ونبرة وغيرها ثم قفز  
الى أرض مرسية حيث كان السيد القبيطور يهاجمها ، ومنى المعتمد بهزيمة  
ساحقة ، وتراجع الى لورقة واحتمى بقلعتها ، وغادرها الى قرطبة ثم الى  
أشبيلية تاركا مرسية لمصرها ، وكان حصن لبيب ( الديو ) الذي سبق  
الحديث عنه ، شوكة في جنب الامارات الاسلامية في الجنوب الشرقي من  
الأندلس وقد شحنه الفونش من قبل بالخيول والفرسان الذين كانوا  
لا يتوانون عن مهاجمة مرسية ولورقة ويابسة وأوريولة (١٨٩) .

وكان الفونش قد استطاع أن يلم شعث جيشه بسرعة كبيرة ،  
ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنومانيين الذين  
كانوا يدركون أبعاد المعركة الصليبية التي تجرى على الأرض ضد الاسلام ،  
ولم يمض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه ، وتؤكد  
الرواية النصرانية انه خرج لغزو المسلمين مرة أخرى عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م ،  
وأنه في غزوته وصل الى قرب أشبيلية ، بينما قامت قوات حصن لبيب  
بمؤازرة بعض الجنود القشتاليين وأغارت على المناطق المجاورة حتى المرية،  
التي فر جنودها الأربعمئة جينا أمام ثمانين فارسا نصرانيا (١٩٠) .

وعاد ملوك الطوائف الى التنافس والانقسام واضطروا للاستنجاد  
بالمرابطين مرة أخرى ، فعبر اليهم يوسف للمرة الثانية وحاصر معهم حصن  
ليبس لكنهم فشلوا في فتحه بسبب أحقادهم وتأثرهم ضد بعضهم البعض ،  
وخيانة بعضهم بامدادهم نصارى الحصن بالمؤمن ، مما أطال أمد الحصار،  
وأعطى الفرصة لألفونش لكي يقوم وينقذه ، ولما عرف أمير المسلمين  
ابن تاشفين بكل ذلك ولمسه بنفسه ، رفع الحصار عن الحصن وعاد الى  
بلادته ، وقد استقر في نفسه ضرورة خلع هؤلاء الملوك عن عروشهم (١٩١) .

(١٨٩) ابن خلكان ، قلائد العقبان ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(١٩٠) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ٩٣ ، انظر الفصل نفسه ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(١٩١) ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٣ ، السلاوي ، الاستقصا .

ج ١ ، ص ١١٩ .

ولما أحس منه ملوك الطوائف بذلك ألقوا بأيديهم الى الفونش وخالفوه ضد المرابطين فصمم ابن تاشفين على القضاء عليهم وعبرت الجيوش المرابطية اليهم للمرة الثالثة عام ٤٨٣ هـ / ١٠٩٠ م ، حيث أخذت في انزالهم عن عروشهم واحدا بعد الآخر ، وكانت نهاية دولة بنى عباد في رجب عام ٤٨٤ هـ ، حيث تم اعتقال المعتمد بن عباد آخر ملوكهم وارساله هو واسرته الى اغماث بالمغرب ، لكى يموت هناك في ذل وفاقه لم تجر على أحد غيره من ملوك الطوائف<sup>(١٩٢)</sup> .

ولكن لا يغيب عن الذهن أن ملوك الطوائف لم يقض عليهم المرابطون جميعا في ذلك العام وانما بقى بعضهم وخاصة في شرقى الأندلس ، ولم يتم القضاء عليهم جميعا الا قرب نهاية القرن الخامس الهجرى ، وقد تناولنا علاقاتهم مع نصارى الشمال حتى سقوطهم في يد المرابطين . ولم تكن حروب الأندلس والمرابطين ضد هؤلاء النصارى منذ الزلاقة وحتى نهاية القرن الخامس الهجرى ، الا اعادة للتوازن السياسى والعسكرى على أرض شبه الجزيرة ، ذلك التوازن الذى كان قد اختل بدرجة كبيرة منذ بداية ذلك القرن وحتى عام الزلاقة ( ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ) .

ذلك أن ايا من القوتين لم تستطع القضاء على الاخرى ، ولذلك فقد استمر الصراع بينهما بعد ذلك وطال حتى سقط الاسلام صريعا أمام ضربات النصرانية المتتالية الدائبة في صبر وثبات . تلك الضربات التى امتدت منذ موقعة كوفنا دونجا التى حقق فيها نصارى الاسبان أول نصر لهم على مسلمى الأندلس في عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م ، والتى استمرت حتى هزيمة المسلمين في آخر معركة لهم مع نصارى الاسبان في عام ٨٩٨ هـ / ١٤٩٣ ، واستطاع النصارى أن يحققوا هدفهم في استرداد بلادهم من أيدي المسلمين وأن يختتموا الحروب الصليبية الاسبانية بهذا النصر المبين ، رغم الكماح والعناء الذى كابدته المسلمون هناك طوال هذه القرون .

(١٩٢) الضبى ، المصدر نفسه ص ٣٢ ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٧٠ .

ابن أبى دينار ، المونس ص ١٠٥ ، ابن خلكان ، المصدر نفسه ، ج ٦ ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

## الباب الرابع

أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية  
وأسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف

— العوامل التي أدت الى التأثير الحضارى بين الأندلس الاسلامية  
وأسبانيا النصرانية

— قنوات وأساليب التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية  
وأسبانيا النصرانية •

— مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاجتماعية

— مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الثقافية •

— مظاهر التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاقتصادية •

## توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات

توضیحات



## الباب الرابع

### أهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الإسلامية وأسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية وملوك الطوائف

#### ١ - العوامل التي أدت الى التأثيرات الحضارية بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية :

لم يكد العرب يتمون فتح أسبانيا حتى بدأوا يقومون برسالتهم المعهودة في بناء مجتمع جديد ، واستطاعوا في أقل من قرن أن يقيموا دولة فتيحة ، وأن ينشئوا المدن والقرى ، وقيموا أفخم المباني ويوطدوا وثيق الصلات التجارية بالدول الأخرى ، ثم شرعوا يتنافسون في تحصيل العلوم والآداب ، وفي نقل كتب اليونان والرومان الى اللغة العربية ، وينشئون المدارس والجامعات التي كانت وحدها مصدر للثقافة في أوروبا كلها<sup>(١)</sup> .

كانت قرطبة في ذلك العهد تجلس على عرش الحضارة في أوربا كأكبر وأغنى مدينة ، كانت شوارعها الرئيسية مضاءة ومعبدة ، وكان فيها كثير من الحمامات العامة ، وكانت المياه تجلب إليها من الجبال خلال أنابيب الرصاص . أما منازلها فكانت جميلة ، ومساجدها كثيرة رائعة ، ولا يوجد في أوربا كلها مدينة تقارن بها الا القسطنطينية ذاتها . . . كانت قرطبة هي الملاذ للملك أسبانيا النصرانية ونبلاتها وأمرائها ، اذا ما عن لهم الاستشفاء من مرض خطير ، أو أرادوا اجراء عمليات جراحية صعبة<sup>(٢)</sup> .

(١) عوستان لوبون ، حضارة العرب ، ص ٢٩٦ ، ٢٩٣ .  
(٢) Crow, Spain, the root and the flower, p. 56.

(٢) حتى ، تاريخ العرب ( المجلد ) ، ج ١٢ ص ٦٢٧ ، ريتو ، تاريخ غزوات العرب .

وقد وفد إليها شانجة ملك ليون عام ٣٤٩ هـ / ٩٦٠ م طالباً الاستشفاء على يد أطبائها ، كما وفد إليها الراهب جلبرت الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى يطلب تعلم العلوم الطبيعية والرياضية ، فبلغ فيهما مبلغاً خيلاً لعامة رومة أن ذلك ضرب من السحر ، وعلى الجملة فكلموا احتاج أحد ملوك ليون أو نبيرة أو برشلونة جراحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطاً أو بناءً وجهوا طلبهم إلى قرطبة عاصمة الحضارة في شبه الجزيرة ، وهكذا وجه شانجه ( سانشو ) الكبير ملك نبيرة ( ٣٩١ — ٤٢٦ هـ ١٠٠٠ — ١٠٣٥ م ) رسلاً إلى قرطبة لجلب بعض علماء المسلمين لتعليم ابنه وولى عهده ، فأرسلت له قرطبة اثنين من علمائها قاما على تربيته وتهذيبه (٣).

كان هذا في الوقت الذى كانت تعيش فيه أسبانيا النصرانية ، بل أوربا كلها في جو قروى فقير ، غارقة في حياة الجهل وخشونة الحياة والأخلاق ، ولم يكن بها شيء من آثار المدنية إلا ما بقى من الإمبراطورية الرومانية من أطياف في القسطنطينية وبعض أجزاء إيطاليا (٤) .

كان نصارى الشمال الأسبانى جفاة غير مثقفين ، وقليل من أمرائهم من كان له حظ من العلم ، وكانوا من الفقير وعسر الحال بحيث أنهم كانوا أعجز من أن يتمتعوا بفنون الرفاهية التى يتمتع بها العرب . وفي الوقت الذى كان المسلمون يعتبرون فيه النظافة من الإيثار ، وشرطاً لازماً لأداء الصلوات والعبادات ، كان مسيحيو الأسبان في الشمال ينهون عن النظافة ويعدونّها من أعمال الوثنيين ، وكان الرهبان والراهبات يفخرون بقذارتهم حتى أن راهبة دونت في مذكراتها في صلف وتيه ، أنها إلى سن الستين لم يمس الماء منها إلا أناملها عندما كانت تغمسها في ماء الكنيسة المقدس ، وحينما عادت الأندلس إلى الحكم المسيحى ، كان أول ما فعله أحد ملوكها أن أصدر الأوامر بهدم كل الحمامات العامة لأنها من آثار المسلمين (٥) .

(٣) في فرنسا ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٤) لين بول ، قصة العرب في أسبانيا ، ص ١١٦ ، أمليو غرسية غومس ، الشعر الاندلسي ، ص ٣٦ .

(٥) لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٩٩ ، ١٢٠ ، ١٦٥ .

وبرغم هذا التأخر الحضارى الذى كان يعيشه نصارى شمال اسبانيا  
الا أنهم كانوا رجال حرب وجلاد ، لا يقل نزوعهم الى القتال عن نزوع  
اعدائهم المسلمين ، وقد يفوقونهم فى ذلك أحيانا ، وطالما دفعهم الفقر  
وحفرتهم الحاجة الى خدمة أى انسان من ملوك المسلمين ، وتاريخ  
القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى لاسبانيا ملئ بالوقائع  
التي حارب فيها جنود النصارى تحت راية المسلمين ، وأشهر مثال على  
ذلك هو السيد القمبيطور الذى كانت أولى معاركه فى صف المسلمين وضد  
بنى جلدته من نصارى الأسبان<sup>(٦)</sup> .

والأسبان كأمة مغلوبه لابد أن يتطلعوا الى الأمة الغالبة ويأخذوا منها ،  
وخاصة أن تلك الأمة الغالبة كانت أعلى حضارة وأرقى حياة وأكثر  
تسامحا من سبقها من الأمم التي عاشت على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ،  
لا سيما وأن الأسبان النصارى والمسلمين كانوا يعيشون فى الواقع على  
أرض واحدة ، ولا توجد بينهم حدود طبيعية عازلة أو فاصلة ، وكان  
الأفراد يتردد كل منهم على الآخر ويتعرف عليه<sup>(٧)</sup> .

وكانت الخصومة مع العباسيين والفاطميين تجعل الأندلس الاسلامية  
دائما اقرب الى التفاهم مع نصارى الشمال ، وقد رأينا فى عرضنا للعلاقات  
بينهم ما يؤكد أن المسلمين لم يكن هدفهم أبدا تدمير هؤلاء أو تحطيمهم ، وانما  
كان الهدف من غزواتهم لهم هو فرض السلام والهدور على الحدود حتى  
يعيش الجميع فى أمان وهدوء . وهكذا فإن موقع الأندلس وانفصالها عن  
العالم الاسلامى معظم عصر الأمويين وملوك الطوائف واتصالها بالشعوب  
المسيحية جعل مجال النقل الحضارى بينهما واسعا<sup>(٨)</sup> .

ولم تكن شبه الجزيرة الا قطرا اسلاميا نصرانيا يتحالف فيه أمراء  
مسلمون مع نصارى ، ضد مسلمين أو نصارى آخرين ، كما حدث فى عصر

(٦) لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٦٥ .

(٧) ابن خلدون ، مقدمته ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ ، ٤٥١ .

(٨) ليفى بروفنسال ، الشرق الاسلامى ، ص ٣٩ ، ٤٠ ، بالانثيا ، تاريخ الفكر الاندلسى

ملوك الطوائف ، وكانت المحالفات والمصاهرات والسفارات تتم جنباً الى جنب ، فتقوى الوشائج وتدوم المودة ويعم السلام . وحتى في اوقات الحرب ، لم يكن هناك ما يمنع الاتصال بين الشعبين ، بسبب التجاور والملاصقة والعيش على ارض واحدة ، وبسبب التداخل السياسى والعسكرى والبشرى فى شبه الجزيرة فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى بالذات . ورغم قلة ما أخذته الأندلس عن أسبانيا النصرانية ، الا أن جميع ما ذكرناه يؤيد قيام التأثير الحضارى بينهما (٩) .

وفى هذا المضمار لا بد أن نشير الى أن هناك مؤرخى الأسبان المحدثين ممن ينكرون دور المسلمين الحضارى فى أسبانيا ، بل يرجعون تأخر أسبانيا عن دول أوربا الأخرى فى الوقت الحاضر الى وجود هؤلاء المسلمين أنفسهم على ارض شبه الجزيرة . لكن هذا الزعم يخف تأثيره اذا ما عرفت أن غيرهم من مؤرخى الأسبان أيضا قلموا بالرد على هؤلاء وقالوا ان التعلق بالحياة الاسلامية كان هو الاتجاه الغالب يومئذ فى أسبانيا ، وأن ملوكها كانوا يتوخون العادات العربية ويلبسون الثياب العربية (١٠) .

ويبدو أن هذا التأخر يعود الى نظام المجتمع النصرانى نفسه ، الذى كان قائماً على سيطرة الاقطاعيين والتاج والكنيسة على الأراضى ، بينما كانت جماهير الشعب فى منزلة الخدم والعبيد . على أى حال كانت هذه الأوضاع من العوامل الداعية لحدوث ذلك التأثير الحضارى وانتقاله من الجنوب المسلم الى الشمال النصرانى ، لكن ما هى القنوات التى سلكها هذا التأثير ؟ هذا ما سوف نتناوله بالبحث الآن .

(٩) بروفيسال ، أ المرجع نفسه ، ص ٤٠ .

لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٦٤ .

شكيب ارسلان ، الحلل السندسية ، ج ١ ص ٢٦ .

حسين مؤنس ، تطور العمارة ، ص ٢١٨ - ٢٢٢ .

(١٠) بيدال ، أسبانيا حلقة اتصال بين المسيحية والإسلام ، ص ١٦ ، ١٧ ، ترند ،

أسبانيا والبرتغال ، ص ٣ ، ٤ .

## ٢ - قنوات التأثيرات الحضارية بين الأندلس وإسبانيا النصرانية :

اهم هذه القنوات هم اليهود والمستعربون والمذجنون والزواج المختلط والتجارة وأسواق الرقيق والحروب ذاتها وما ينتج عنها من الأسرى والرهائن والسبى ، ثم المحالفات السياسية والعسكرية ، ومعاهدات السلام ، واللجوء السياسى ، والمرزقة .

(١) أما اليهود فكان نشاطهم مؤثرا وعظيما في نقل التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية وإسبانيا النصرانية في جميع مجالات الحياة بنوء كانت اجتماعية أم ثقافية أم اقتصادية ، وذلك لأنهم كانوا يجيدون اللغتين العربية واللاتينية ، فكانوا لهذا السبب هم وسيلة من أهم وسائل الاتصال بين الدولتين الاسلامية والنصرانية في شبه الجزيرة •

كان اليهود تجارا ومترجمين وسفراء ووزراء وحرفيين ، ينقلون التجارة بين الدولتين وخاصة الرقيق ، ويترجمون الكتب الاسلامية العربية الى اللاتينية والعبرية ، وينشرونها في شمال إسبانيا وأوربا ، نبغ منهم الكثير في الطب والفلسفة والفلك والكيمياء ، أمثال حسداى بن شبروط طبيب عبد الرحمن الناصر ووزيره وسفيره الى الملكة طوطة ملكة نبرة (١١) .

وفي هذا المجال لا بد أن نشير الى الدور السياسى الذى لعبه اليهود بين الدولة الاسلامية والنصرانية في الأندلس ، فقد قاموا بدور السفراء والوزراء والمستشارين في كليهما . وقد سبق القول عن سفارة ابن شاليب اليهودى الذى أوفده الفونش السادس ملك قشتالة وليون الى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية لاستلام الجزيرة ، وما نتج عن وقاحته من قتله وقيام النزاع بين الملكين مما أدى الى استدعاء المرابطين وما نتج عن ذلك من آثار غيرت تاريخ شبه الجزيرة كلها (١٢) .

وكان اليهود يعملون في إسبانيا النصرانية وزراء وسفراء وكتبا وخداما للعسكر ، وفي جميع الحرف من نساجين وناسخين للكتب ، وصاغة ومجلدى كتب ، وخياطين الى غير ذلك من المهن يسبب ان القشتاليين وأهل

(١١) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص

(١٢) أنظر ، الفصل الثالث الباب الثالث ، ص

الشمال بصفة عامة كانوا يأنفون من الأعمال اليدوية ، ويسعون لأن يكونوا جندا أو حكاما فقط ، أما في الأندلس الإسلامية فقد كان حال اليهود أحسن ونفوذهم أوسع وثروتهم أكبر من ذلك بكثير (١٣) .

ذلك أنهم وصلوا الى منصب الوزارة والكتابة في كثير من دول الطوائف ، فقد كان وزير المعتمد صاحب المرية يهوديا ، وكذلك بنو هود أصحاب سرقسطة وبنو رزين أصحاب السهلة ( شتمرية الشرق ) يستعينون باليهود في مناصب الوزارة . أما في غرناطة فقد تمتع اليهود فيها بنفوذ كبير ، فقد كان رئيس الوزراء أو الحاجب هو اسماعيل بن نفزالة اليهودي الذي استمر في هذا المنصب طوال عهد دولة بنى زيرى في غرناطة تقريبا (١٤) .

وقد سبق القول عن الأسباب التي دعت حكام المسلمين للاستعانة بهذا العنصر ، وكانت الاستعانة بهم منذ الفتح ذاته اذ اتخذهم المسلمون حراسا للمدن التي يتم فتحها ، ووثقوا فيهم ثقة مطلقة لأنهم أعانواهم على الفتح وساعدوهم عليه ، بسبب ما تعرضوا له من اضطهاد على أيدي الدولة البائدة ( القوط ) . لكن عند ما انقلب ميزان القوى لصالح نصارى الشمال في القرن الخامس الهجرى ، نراهم ينحازون اليهم ضد المسلمين ويساعدونهم على استعادة البلاد . ولا ندرى لذلك سببا ، اللهم الا الخيانة التي تجرى في عروقهم ، والا جريا وراء المصالح التي راوا انها تتحقق مع المنتصرين الأقوياء من حكام شمال اسبانيا (١٥) .

كان اليهود يصاحبون جيوش نبرة وقشتالة وليون تجارا ، يبيعون ويشتررون فيما تصل اليه يد الجند من مغانم الحرب وأسلابها ، وما أكثرها في ذلك الحين ، خصوصا وأن الحرب كانت لا تكاد تنقطع بين المسلمين بعضهم وبعض ، وبينهم وبين النصارى منذ الفتح وحتى نهاية القرون الخامس الهجرى الا لفترات قليلة ، وكانت لهم مدن أو مراكز تجارية يتركزون فيها ،

(١٣) المراكشى . المعجب ، ص ١٣٤ .

Crow, op; cit, p. 111.

(١٤) آبن بلقين ، مذكراته ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ج ٢ ، ص ٤٤١ ، ٤٤٤ .

الضبي ، بغية اللئيمس ، ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ .

(١٥) حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٦ .

ففى الشرق وعلى ساحل البحر المتوسط كانت مدينة طركونة مدينة اليهود ، وفى الجنوب كانت مدينة غرناطة أيضا مدينة اليهود بسبب كثرتهم فيها ، وهناك مدينة اليسانة التى كان يشكل اليهود غالبية سكانها وكانوا من أغنى يهود شبه الجزيرة (١٦) .

وبسبب نفوذهم وكثرة ثروتهم وخيانتهم للمسلمين فى نفس الوقت ، قامت بعض الانتفاضات ضدهم فى أشبيلية ، لكن المعتمد بن عباد تمكن من إخمادها على الفور ، وفى غرناطة قامت مذبحه هلك فيها منهم الآلاف وتم قتل زعيمهم اسماعيل بن نغرالة اليهودى ، وفر ابنه يوسف الى افريقية ومن هناك أرسل شعرا لا يدل الا على العداء والكراهية المتأصلة فى نفوس اليهود ضد المسلمين والمسيحيين على السواء (١٧) .

ورغم ذلك فقد أدى اليهود دورهم فى نقل التأثيرات الحضارية بين مسلمى الأندلس ونصارى شمال أسبانيا ، وكانوا حلقة من حلقات الاتصال بين الجانبين ، اذ كانوا كثيرى التنقل بينهما بحجة الأعمال ، وكانوا كثيرا ما يتجاوزون شمال أسبانيا الى فرنسا ، حيث كان يجذبهم هناك وجود طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروفانس (١٨) .

(ب) ولقد لعب النصارى المعاهدون أو ما أطلق عليهم فيما بعد المستعربون (١٩) دورا مشابها لدور اليهود ، وان كان هذا الدور لم يظهر الا ابتداء من القرن الخامس الهجرى ، حيث نشطت حركة الاسترداد نشاطا كبيرا ، واستطاع ملوك قشتالة ونبرة وأرغونة وقطلونية أن يستردوا عددا كبيرا من الحصون والمدن الاسلامية ، مثل طلمنكة وطليلطة ومجريط ( مدريد ) ووشتقة ، وجميع مدن الثغر الأوسط مثل مدينة سالم ووادى الحجارة وسمورة وغيرها . وكانت هناك أقلية كبيرة العدد فى تلك المدن من النصارى

---

(١٦) ابن بلقين ، مذكراته ، ص ٣٢ ، الادريسي ، صفة المغرب ، ص ٢٩١ ، ص ٢٠٥ .

حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ٢٩٧ .

(١٧) ابن حيان برواية ابن بيسام ، الفخيرة ، ق ١ ، ج ١ ، ص ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، ابن

سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ١١٥ ، المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ .

(١٨) ليفى بروفنسال ، تراث الاندلس ، ص ٦٢٢ .

(١٩) المستعربون هم نصارى الاسبان الذين أقاموا فى دولة الاندلس الاسلامية وتعلموا

لغة العرب وقلدوهم فى أسلوب معيشتهم فاستعربوا لسانا وأسلوب حياة .

المعاهدين ( المستعربين ) ، فكانوا بذلك حلقة من حلقات الاتصال ووسيلة لنقل الحضارة الأندلسية الى دول شمال اسبانيا النصرانية .

وقد سبق الحديث عن المعاملة الطيبة التي لاقاها نصارى الأندلس من الحكام المسلمين ، لذلك أقبل مسيحيو البلاد على مناصرتهم والعيش معهم في هدوء ، واستعربوا لسانا وأسلوب حياة ، عدا ما قام به بعض متعصبينهم أحيانا من فتن دينية وطائفية ، كما حدث أيام عبد الرحمن الأوسط من فتنة يولوجيوس . وفي نفس الوقت حرص نصارى الأندلس أو المستعربون حرصا شديدا على استمرار علاقاتهم مع اخوانهم في الشمال ، وساعدوهم أثناء حكم ملوك الطوائف بدرجة متزايدة في حروب الاسترداد ، ولذلك كان ملوك الشمال يأخذونهم معهم عند ما يعودون من غزواتهم ، لا لأن بقاءهم في الأراضي الاسلامية كان يؤدي الى معاملتهم بطريقة فظة كما يقول ( تشابمان ) ، ولكن لأن ملوك الشمال كانوا في حاجة الى تعمير المدن المستردة بمزيد من النصارى ، سواء من اسبانيا النصرانية أم من الأندلس الاسلامية (٢٠) .

وقد سبقت الإشارة الى استعانة أمراء بنى أمية وخلفائهم ومن أتى بعدهم من ملوك الطوائف بنصارى المعاهدين ( المستعربين ) في المناصب الادارية والجيش ووظائف القصر والبلاط ، بل انهم استخدموهم كسفراء منذ عصر مبكر وعقب الفتح بحوالى عشرين عاما فقط ، وهناك رواية تقول بأن علقمة عند ما قام بغزو جليقية وأستريس ووصل الى كوفادونجا ، وهو الكهف الذى اتخذهُ الأشتوريون مأوى لهم بقيادة زعيمهم بلاى ، أرسل أحد القساوسة الى هذا الزعيم كى ينصحه بعدم جدوى المقاومة . كذلك كانت سفارة عبد الرحمن الثانى والثالث والحكم المستنصر الى شمال اسبانيا وبقيّة دول أوروبا تتكون من نصارى الأندلس المعاهدين (٢١) .

وأبرز مثال يمكن أن نضربه على ذلك هو المستعرب ششندو دافيدس Sinsando Davides الذى كان من وزراء المعتضد بن عباد صاحب أشبيلية ، وكان قد أسر حدثا فى غارة قام بها القاضى ابن عباد والد المعتضد فى منطقة قلمرية عام ٤٢٠ هـ ، ثم أخذه الى أشبيلية وربى مع فتیان القصر ، ولما برزت مواهبه نال ثقة المعتضد ، وجعله ضمن وزرائه أو معاونيه ،

Chapman, A History of Spain, pp. 84, 85.

(٢٠)

Crow, Spain, p. 49.

(٢١)



وقد اثار ذلك حقد بعض رجال البلاط ، فخشى ششندو على نفسه وفر الى بلاط فرناندو ملك قشتالة حيث رحب به واتخذة مستشارا له ، وكان له دور كبير فيما بعد في تكييف سياسة ابنه الملك الفونش السادس تجاه مسلمى الأندلس حسبها وضحنا من قبل (٢٢) .

كان هذا الرجل نصرانيا مستعربا تربى في بلاط حاكم مسلم ، ولا شك أنه نقل الكثير مما ألفه وراه الى بلاط الفونش السادس ، ويقول بعض المؤرخين أنه التزم سياسة المهادنة واللين والمودة تجاه مسلمى طليطلة ، ونصح مليكه بعدم التطرف في معاملتهم مما جعل المسلمين يطمئنون ، وادى ببعضهم الى الارتداد الى النصرانية (٢٣) .

ولم تكن الاستعانة بهؤلاء المستعربين الا لأنهم يعرفون لغة بنى جلدتهم ، وكانوا بذلك أقدر من غيرهم على التفاهم معهم ، كما أن الحدود كانت مفتوحة بين الثغور الاسلامية وبين نصارى الشمال ، ولم يكن هناك ما يمنع من انتقال السكان الى كلا الجانبين ، فكانت الفرصة متاحة للمستعربين للاتصال باخوانهم من نصارى الشمال ، فاذا عرفنا أن المستعربين كانوا يحملون في مظهرهم ولباسهم وعاداتهم ولسانهم وثقافتهم ما تعلموه في الأندلس الاسلامية ، لأدركنا على الفور عمق الصلة وقوة التأثير الذى وصل المدن النصرانية في ممالك الشمال النصراني على أيدي هؤلاء المستعربين .

وكنتيجة لحروب الاسترداد التى بدأت في وقت مبكر وعقب موقعة كونا دونجا عام ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م واستمرت حتى نهاية القرن الخامس الهجرى وما بعده ، وجدت طبقة أو فئة أخرى من فئات السكان على أرض المملكة الأسبانية النصرانية ، وهم المدجنون لكنهم لم يظهروا كعامل اجتماعى حضارى الا في القرن الخامس الهجرى اذ تزايدت أعدادهم نتيجة لسقوط عدد كبير من المدن الاسلامية في يد نصارى الشمال كما سبق القول (٢٤) .

(٢٢) عنان ، دول الطوائف ، ص ٥٨ .

(٢٣) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص .

(٢٤) بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٧٣ .

(ج) والمدجنون Mudejares هم المسلمون الذين دجنوا أى أقاموا في الأراضي المستردة نتيجة لحروب الاسترداد المستمرة . وقد عومل هؤلاء في البداية معاملة جيدة بصفة عامة حسب معاهدات الاستيلاء ، مراعاة للظروف السياسية والاقتصادية التي جعلت من الأفضل عمل حساب لهؤلاء المسلمين المدجنين بسبب الحاجة الى السكان وإلى العمال الزراعيين ، ولم يبدأ التضييق عليهم بشكل واضح إلا عقب موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م وبعد أن أصبح الصراع بين الأندلس الإسلامية وبين نصارى أسبانيا الشمالية صراع حياة أو موت وأصبحت الحرب حرب افناء (٢٥) .

فقد تدخل رجال الدين من كلا الجانبين وأصبحت الحرب حربا صليبية من الدرجة الأولى ، سابقة بذلك الحروب الصليبية في الشرق ، ووفد كثير من الرهبان والمتعصبين من شتى أنحاء أوروبا وأثاروها حربا صليبية ضد الاسلام لا هوادة فيها ، ويكفى أن تعرف أن تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة تم رغم معاهدة الاسترداد على يد نفر من هؤلاء المتعصبين بمساعدة كونستانس ملكة قشتالة الفرنسية الأصل . ومنذ ذلك الحين بدأ التضييق على المسلمين واضطهادهم والزامهم بلبس لباس مميز ، والعيش في أقسام معينة في المدينة ، والزامهم بدفع ضرائب ثقيلة جدا لمصلحة الكنيسة (٢٦) .

ورغم تلك المعاملة فقد بقى في تلك المدن المستردة آلاف من المسلمين المدجنين ، يدل على ذلك صكوك البيع والشراء التي وجدت في كندرائة وشقة وبرشلونة وسرقسطة وطليطلة وغيرها ، اذ أنها تدل على ذبوع استعمال اللغة العربية في الوثائق والعقود لا بين المدجنين بعضهم وبعض أو بينهم وبين النصارى فقط ، بل كان اليهود يستعملونها أيضا في وثائقهم ، وربما كتبوها بحروف عبرية ، كما أشار بذلك ( خثنتو بوسك بيل ) (٢٧) .

وتثبت هذه النصوص بقاء كثير من جماعات المسلمين المدجنين في طليطلة وغيرها من المدن المستردة الى وقت طويل جدا ، ثم أخذت في الاضمحلال شيئا فشيئا حتى تلاشت اما بالموت واما بالتناثر واما بالطرد من بلاد الأندلس . ولم يكن اضمحلالها كما قال الدكتور حسين مؤنس بسبب

Champan, op. cit, pp. 86 - 87.

(٢٥)

Chapman, op. cit, p. 87.

(٢٦)

Vila, Los Documentants arabes, pp, 24, 307.

(٢٧)

فتوى الونشريشى أو غيره ممن أفتوا بتكثير من استمر في الإقامة في المسدن المستردة من المسلمين ، خوفا من غلبة عادات النصارى ولغتهم ولباسهم عليهم ، كما حدث لأهل ابلة Avila (٢٨) وغيرهم ممن فقدوا اللسان العربى جملة ، بل ربما أعان هؤلاء المدجنون حكامهم النصارى في حروبهم ضد المسلمين ، كما حدث من مسلمى برشلونة بعد أن عادت الى بوريل الثانى بعد عام من غزو المنصور بن أبى عامر لها عام ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م (٢٩) .

لم تكن فتوى الونشريشى وحدها كافية في اضمحلال جماعات المدجنين ، بل ان السبب الرئيسى في ذلك كما أعتقد ، هو عدم وجود تنظيمات دينية اسلامية أو مؤسسات اسلامية على غرار المؤسسات الكنسية المسيحية ، فالاسلام لا يعرف الكهنوت أو رجال الاكليروس أو نظام الرهبنة والديرية . فقد التفت النصارى المعاهدون في الأندلس حول هذه المؤسسات التى صارت هى الملاذ الذى يحميهم ويدافع عنهم ، بل تبوا رئيسهم منصبا في الحكومة الاسلامية ، ثم وصل صوتهم الى أعلى سلطة في الدولة مما ساعدهم على البقاء وعدم الذوبان كلية في جسم الأمة الاسلامية الأندلسية كما حدث لجماعات المدجنين .

فاذا أضفنا الى عدم وجود مؤسسات اسلامية تدافع عن المدجنين وتحميهم من تلك المعاملة السيئة ، والاضطهاد الذى تعرضوا له خاصة بعد الزلافة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م ، أنهم لم يجدوا من يشد أزهرهم ، سواء من داخل الجزيرة أم من خارجها من الدول الاسلامية في الشرق والغرب ، بل ان فقهاء الأندلس لم يرحمواهم وأفتوا بتحريم اقامتهم في المدن المستردة ، لعرفنا العلة في اضمحلال جماعات المدجنين الذين لم يفعلوا فعل النصارى المستعربين الذين ضحى بعضهم بحياته فيما يعرف بحركة الاستشهاد ، دفعا للآخرين على الثبات والصمود .

على أى حال فقد كان هؤلاء المدجنون سواء طالت اقامتهم أم قصرت ، من قنوات الاتصال بين الحضارة الاسلامية الزاهرة في الأندلس وبين أسبانيا

---

(٢٨) مدينة ابلة فتحها المسلمون عام ١٤٥ هـ ثم انتزعها للفونش الثالث عام ٢٥٠ هـ ،

ثم عادت للإسلام بعد فترة قصيرة حتى استردها للفونش السادس عام ٤٨١ هـ ، ١٠٨٨ م انظر ، حسين مؤنس ، أسنى المتاجر للونشريشى ، ص ١٩٠ .

(٢٩) للونشريشى ، أسنى المتاجر ، ١٤٣ ، ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٩٠ .

النصرانية المتخلفة ، وكان لهم تأثير كبير في الحياة هناك منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، عندما استولى الفونش الثالث على المدن الإسلامية التي تقع شمال وادي دويرة مثل سمورة وشقوبية وسيمنقة وأبله وأوسمة واسترقة وغيرها ، واستمر بعض مسلمي تلك المدن في الإقامة بها ، وكانوا يؤلفون اليد العاملة فيها ، وازداد نشاطهم وضوحا في القرن الخامس الهجري ووفد على علمائهم وخاصة في طليطلة طلاب العلم من أنحاء أسبانيا وأوربا ، لينهلوا من الثقافة الإسلامية التي ترجمت الى اللاتينية وما تفرع عنها من اللهجات الأسبانية (٣٠) .

ويشير بعض المؤرخين المحدثين الى أن جماعات من المسلمين وخاصة من البربر قد بقيت في أقاصى جليقية وأشتريس عقب حركة الهجرة التي قاموا بها في عصر الولاة من تلك المناطق بسبب الحرب الأهلية العربية البربرية وبسبب القحط الذي أصاب شبه الجزيرة في ذلك الوقت . وقد تكاثرت تلك الجماعات وتركت أسماءها على بعض المواضع في تلك الجهات النائية ، وهذا يدل على أن تاريخ المدجنين لم يبدأ منذ سقوط طليطلة في يد النصارى عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وإنما بدأ منذ بداية حرب الاسترداد في عصر الولاة ( ٩٥ — ١٣٨ م ) (٣١) .

#### ( د ) الزواج المختلط :

أما القناة الثالثة من قنوات الاتصال بين نصارى الشمال ومسلمي الجنوب ، فهي الزواج المختلط ليس بين مسلمي الأندلس ونصاراها ولكن بين مسلمي الأندلس ونصارى الممالك النصرانية في شمال أسبانيا . وقد بدأ بذلك ملوك الأندلس وأمراؤهم ، وكان زواجهم بالأسبانيات والبرتغاليات أجل صلة لامتزاج الفاتحين بخصومهم ، والتحام القرابة بينهم على نحو لا تنفصم عراه ، وأصبح ذلك الوافد جديرا بأن يسمى بين عشية وضحاها صهرا ونسيبا (٣٢) .

Crow, op. cit, pp. 97 - 98.

(٣٠)

السيد عبد العزيز سالم ، مسجد المدجنين في طليطلة ، ص ٨٠ .

(٣١) مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٥٠ .

انيس زكريا النصولي ، الدولة الاموية في قرطبة ، ص ١٠٨ .

(٣٢) مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٦ ، محمد كرد علي ، غابر الاندلس

وحاضرها ، ص ٣٩ .

وكان أول ولاية الأندلس صهرا للبيت المالک السابق ، فقد تزوج عبد العزيز بن موسى بن نصير من ايلونا Egilona أرملة رديك ( لزريق ) ملك القوط عند الفتح ، وهى التى يسميها العرب « بأم عاصم » وكان نفوذها وتأثيرها على زوجها وتحايلها عليه بأن يتخذ التاج ، من الأسباب التى أدت الى مقتله عام ٩٧ هـ ( ٧١٦ م ). وكانت هناك أيضا لامبيجا Lampegie الفرنسية الحسنة ، ابنة الدوق ( أودو ) أمير أكويتين ، التى تزوجها عثمان ابن أبى نسة ، وأثرت عليه وجعلته يتحالف مع أبيها ، لكن عبد الرحمن الغافقى قاتله وقتله عام ١١٣ هـ ( ٣٢ ) .

أما أمراء بنى أمية وخلفاؤهم فلم يكن منهم من كانت أمه حرة أصلا ، اذ كانت أمهاتهم من نصارى الشمال الأسبانى أو من البربر أو من رقيق الصقلب . وقد سبقنا الإشارة الى طروب ، الجارية الصقلبية زوجة عبد الرحمن الثانى ( ٢٠٦ — ٢٢٨ هـ ) وما كان لها من سلطان وتأثير عليه ، كذلك كانت أم عبد الرحمن الثالث الناصر ( ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ ) نافارية تدعى ماريا وتسميها الرواية العربية ( مزنة ) وهناك رواية أخرى تقول ان اسمها أونيكيا Oneca وهى ابنة الكونت الثالث لبمبلونة المسمى فرتون بن غرسية والمعروف بالأنقر . وقد كان هذا الأمير أسيرا فى قرطبة لمدة طويلة ، ثم رحل الى بلاده فى أواخر عهد الأمير عبد الله جد الناصر ، ويبدو أنه اتفق معه على المحالفة والمصاهرة بأن تتزوج ابنته من ابنه محمد والد الناصر ( ٣٤ ) .

كذلك كانت زوجة ابنه وخليفته الحكم المستنصر ( ٣٥٠ — ٣٦٦ هـ ) أورا Aurora ، التى تسميها الرواية العربية باسم ( صبح ) نافارية الاصل أو بشكنسية ، وكانت ذات نفوذ وسلطان كبير فى عهد زوجها ثم بداية عهد ابنها هشام المؤيد ، حتى استبد المنصور بن أبى عامر بالسلطة دونها . وتزوج هذا الحاجب المنصور أيضا بفتاة نافارية كانت ابنة لشانجة الثانى

( ٣٢ ) الرازى برواية آبن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٣٠ ، ٣١ .

الرازى برواية المقرئ ، فتح الطيب ، ج ١ ، ص ١٢٢ .

غان ، تراجم اسلامية ، ص ١٧٢ ، حيدر يامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٤ .  
Levi-Prevencal, La Civisatoin Arabe en Espagne, p. 109.

( ٣٤ ) غان ، حولة الاسلام فى الاندلس ، العصر الاول ، ج ٢ ، ص ٧٠ .  
Livermore, A History of Spain, p. 84.

ملك نبرة ، وأنجب منها ابنه عبد الرحمن المأمون الذي كانت أمه تسميه  
شنجول نسبة الى جده الذي كان يشبهه تماما (٣٥) .

وقد كانت المصاهرات كثيرة بين أمراء الثغور الاسلامية مثل بنى قسى  
وبنى الطويل المولدين وحكام سرقسطة ، وبين ملوك اسبانيا النصرانية في  
مملكة نبرة وقشتالة ، حتى أن بعض ملوك نبرة كانوا اخوة لبعض أمراء  
بنى قسى المولدين من جهة الأمهات ، وبذلك كان هؤلاء الأصهار يقفون يدا  
واحدة ضد اعدائهم سواء كانوا من المسلمين أم من النصارى . وقد سار  
بعض ملوك الطوائف على هذا النمط وتزوجوا من أميرات الشمال النصرانيات ،  
فكانت زوجة مجاهد العامري صاحب دائية والجزائر الشرقية هي الأميرة  
( جود ) النصرانية الاسبانية ، وكانت لها خمس بنات تزوجن من ملوك  
الطوائف وكن جواسيس لأبيهن على أزواجهن (٣٦) .

ولم يقتصر الأمر على الزواج من أميرات الشمال النصرانيات ، فقد كان  
التسرى بفتيات الشمال الأسباني الواردات ضمن السبى أو الجزية عادة  
مألوفة في بيوت حكام الأندلس الاسلامية طوال الفترة محل البحث ، وكان  
كثير من الأمراء والخلفاء الأمويين يشترطون أن تحتوى الجزية على بعض  
فتيات الجاليجاز gallegas الفاليسيات الشقراوات وكان الطلب على  
هذا النوع من الفتيات عظيما ، وأدى ذلك الى وجود العيون الزرقاء والشعر  
الأحمر والبشرة البيضاء في بعض الخلفاء مثل عبد الرحمن الناصر . وكان  
في قصر أشبيلية رواق يدعى رواق الصبايا ، كان يستقبل الفتيات اللاتي  
كان على نصارى الشمال أن يقدموا مائة منهن كل عام الى بعض ملوك  
العرب (٣٧) .

---

Dozy, A History of the Moslems in Spain, p. 400 (٣٥)

Provencal, op. cit, p. 110.

Livemore, op. cit, p. 86.

(٣٦) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٦٨ ، البخارى ، نصوص عن الاندلس  
ص ٢٩ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ج ٢ ، ص ٢١٩ ، ٢٢١ .

(٣٧) غوستاف لوبيون ، حضارة العرب ، ص ٢٨٩ -  
Crow, op. cit, p. 61.

ولم ينفرد الأمراء والخلفاء والحكام بهذا الزواج المختلط ، بل فعل  
فعلهم كبار العرب وغيرهم من الميسرين ، لأن هؤلاء جميعا وفدوا الى  
الأندلس دون أن يصبحوا معهم نساءهم ، فقد دخلوها جيوشا منظمة ، ولم  
يدخلوها دخول البرابرة افواجا وقبائل بنسائهم وأطفالهم ، ومن ثم لم يكن  
هناك بد من اتخاذ النساء من أهل البلاد ، وأصبح الزواج المختلط أمرا  
لا مفر منه ، وادى ذلك الى أن الجيل الثانى من مسلمى الأندلس كان هجينا ،  
بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، حيث أن البيت الأموى نفسه كان بيتا مولدا ،  
وأنما كانوا عربا بالاحساس والاتجاه واللغة ، وأخذ الدم العربى الصريح  
يتلاشى فى هذا القطر شيئا فشيئا (٣٨) .

وكان لهذا الزواج المختلط أثر كبير عند الجانبين ، فقد كان الأطفال  
يتكلمون لغة أمهاتهم بجانب اللغة العربية ، ولا شك فقد نشر هؤلاء النسوة  
عاداتهن وتقاليدهن وأسلوب حياتهن داخل قصور الملوك والأمراء وغيرهم من  
الناس ، وادى ذلك الى انتشار لغة شعبية تسمى عجمية أهل الأندلس ،  
أو اللطينية ، وهى مزيج من اللاتينية والعربية والبربرية ، يتكلمها الناس  
فى حياتهم العادية . وقد تعجب ابن حزم من أهل دار ( بلى ) بشمال قرطبة  
لأن نساءهم ورجالهم لا يحسنون الكلام باللطينية لكن بالعربية فقط ،  
مما نفهم منه أن تلك اللغة كانت منتشرة بين أهل الأندلس ، بل هناك من  
يقول بأن اللهجة التى كانت تسمع فى القصور الملكية ، هى لهجة غاليسيا  
( جليقية ) (٣٩) .

وقد لعبت هؤلاء الزوجات والسراير من الجوارى المسيحيات  
الأسبانيات وغير الأسبانيات دورا خطيرا فى الحياة الاجتماعية والسياسية  
فى الأندلس ، فقد كن ينقلن أفكار نصارى الشمال الأسبانى ، ومن تعلمت  
العربية منهن كانت تنقل الأفكار والأقاصيص الأسبانية والأوربية الى اللغة  
العربية . وانقسمت البيوت العربية الى قسمين ، قسم من أولاد السراير ،  
وقسم من أولاد الحرائر ، والأولاد تبع لأمهاتهم ، ينقسمون بدورهم ويتعصبون

(٣٨) بالنسبة ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ص ١ ، حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ط ١

٣٧٦ ، ٥٠٢ .

(٣٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ ، مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٧٧ .

Crow, op. cit, p. 61.

Hole, Spain under the Moslems, p. 23.

لأمهاتهم ، وكثيرا ما دبرت المؤامرات بسبب ذلك ، ورغم ما كن يتظاهرن به من حب العروبة والاسلام إلا أن كثيرا منهن كن جاسوسات على حكام الأندلس ، اذ لم ينسين نصرانيتهن ولا أسبانيتهن (٤٠) .

وقد انتقل نظام الحريم هذا الى بلاط ملوك أسبانيا النصرانية ، فعلى عهد ملوك الطوائف كان هناك ثلاثة انواع من الزواج في الشمال الأسباني ، لولاها ، هو الزواج المعترف به من الكنيسة ويسمى Bendicion وكان زواجا مباركا تعقبه حفلة دينية ، والثاني يسمى Yuras وهو زواج يتم باتفاق بسيط بين طرفين ، وكانت لا تمنعه الكنيسة ، أما الثالث فهو مشابه للنوع الأخير لكنه غير معترف به كارتباط قانوني ، وكان يسمى Barraganía أى الترسى أو الزواج بالسراير ، وكلا الطرفين في هذا الزواج يعتبران غير مرتبطين . وقد يمتد هذا النوع من الزواج ليشمل الرجال المتزوجين زواجا شرعيا ، وإلى كثير من رجال الاكليروس بالرغم من منعهم لهذا النوع من الزواج . والنوعان الأخيران من هذا الزواج يمكن ان نعتبرهما تقليدا مسيحيا للتقاليد الاسلامية في اتخاذ السرايا والحظايا (٤١) .

وبذلك فان تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم وان تبرا منها النصراني كان لها تأثير في حياة أمراء الشمال النصراني ، فقد كان عدد من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسر من الحظايا ( الحريم ) . ومع أن هؤلاء الحظايا لم يبلغن من الكثرة يبلغهن عند أمراء المسلمين في الأندلس ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الارث الشرعى ، يرثون أحيانا بعض الأراضى (٤٢) .

وقد تعدى الأمر أن تزوج بعض ملوك قشتالة وليون من مسلمات ، مثال ذلك مورجات بن الفونس الأول ( مورقاط عند العرب ) ملك ليون ( ١٦٦ - ١٧١ هـ / ٧٨٤ - ٧٨٩ م ) والذي كانت أمه مسلمة ، وتحالف مع المسلمين ضد أعدائه من نبلاء النصراني . كما تزوج أشهر ملوك قشتالة وليون في القرن الخامس الهجرى وهو الفونس السادس من كنة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية وتسمى ( زائدة ) أو ( سيدة ) ، وذلك بعد أن قتل المرابطون زوجها المأمون بن المعتمد بن عباد ، ثم ساروا الى أشبيلية وأسروا

(٤٠) أحمد أمين ، ظهر الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٠ ، ٣١ ، ٣٠٣ .

Chapman, op. cit, p. 88.

(٤١)

(٤٢) يوسف اشباح . تاريخ الاندلس . ص ١٤٠ .



المعتمد نفسه ، فاهتلات نفسها حقدا على قاتلى زوجها وسجاني أبيه ، ولم تثبت أن رحلت باحثة عن ملاذ لها في مملكة الفونس السادس العدو اللدود للمرابطين ، وهناك أصبحت زوجة شرعية له بعد أن ارتدت الى النصرانية وانجبت له ابنه الوحيد شانجة (٤٣) .

ولا شك أن المدن المستردة قد تحول جانب من سكانها الى النصرانية ، ولا بد أن تكون المصاهرات قد عقدت بين هؤلاء النصارى الجدد وبين النصارى القدامى ، وغنى عن القول ما ينتج عن ذلك من نشر للحضارة الاسلامية ، بل أن بعض ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجرى كانوا يتوددون الى ملوك أسبانيا النصرانية ، بأن يجعلوا من بلادهم مكانا للاحتفال بمصاهرة ملوك النصارى الأسبان بعضهم من بعض .

فقد حدث أن وفد شانجة غرسية أمير قشتالة ( ٣٨٥ — ٤٠٧ هـ / ٩٩٥ — ١٠١٧ م ) وريموند صاحب برشلونة الى سرقسطة في عهد ملكها منذر بن يحيى ( ٤٠٠ — ٤١٤ هـ ) ، وتظاهر الأميران المسيحيان على يديه ، وكتب عقد النكاح بينهما بمدينة سرقسطة في حفل من أهل اللتين . ويخطيء ابن حيان في جعل هذا الزواج يتم في عهد المنذر ( الثاني ) ابن يحيى الذي تولى حكم سرقسطة عام ٤٢٠ هـ ، والصحيح أنه تم في عهد المنذر ( الأول ) ابن يحيى الذي استقل بسرقسطة في بداية عهد الفتنة البربرية واستمر في حكمها حتى عام ٤١٤ هـ ، لأنه هو الذي كان معاصرا لشانجة غرسية كونت قشتالة الذي توفي عام ٤٠٦ هـ (٤٤) .

وان دل هذا الزواج الذي تم في سرقسطة على شيء فانما يدل على التداخل بين الشعبين المسلم والمسيحي على أرض شبه الجزيرة ، فلم تكن حروب الاسترداد مستمرة ومتصلة ، ولم يكن الناس يقدرّون على ذلك كثيرا ، بل كانت هناك فترات أو سنوات ربما تطول أو تقصر حسب الأوضاع الداخلية لكل من البلدين ، تهدأ فيها الحروب ويسود السلام ، وتمثل أنصهارا في النواحي الثقافية والاجتماعية بين الجانبين المسيحي والاسلامي ، اللذان كانا يعيشان حياة الحرب والحب معا وفي وقت واحد ، رغم التناقض

(٤٣) الونشريش ، استى المتاجر ، ص ١٨٩ .

ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٥٩ ، ١٦٠ .

(٤٤) انظر ، الباب الثاني ، الفصل الثاني ، ص .

الموجود بينهما . فالحرب تمثلها تلك الغزوات والهجمات التي لا تنتهى بين الجانبين ، والحب يمثلها هذا الزواج المختلط ، وتلك القرابة والمصاهرة الذائبة ، والجوار والتلاحم الذي لا ينتهى أيضا (٤٥) .

حقيقة أن البيت الاسلامى كانت تديره سيدة نصرانية أسبانية أو فرنجية، ربما تعتنق الاسلام أو تبقى على دينها القديم ، وانك لو تخيلت ربة القصر من هذا النوع ، فماذا تتوقع ؟ لا بد أنه كان هناك خدم وحشم وجواري وعبيد من نفس النوع ، وخاصة من هؤلاء النسوة البيض الجميلات من الشمال النصرانى ، اللاتى كن يوصفن دائما بأنهن جليقيات ( غاليسيات ) ، ولا يأنفن من العمل فى قصور أمراء وخلفاء مسلمى الأندلس ، بهدف الحصول على الثروة والغنى وربما المركز السامى ، فقد وصلت بعضهن الى منصب الملكات كما سبق القول (٤٦) .

#### ( هـ ) سوق الرقيق :

ولذلك نشطت سوق الرقيق نشاطا كبيرا ، وكان تجار اليهود هم الذين يقومون بتلك التجارة الرباحة ويجلبون الى الأندلس أعدادا هائلة من الفتيان والفتيات الأسبانيات والفرنجيات . وتشير كثير من الروايات الى استخدام المسلمين للفتيان الخرس الذين لا يفصحون فى منازلهم ، وكان كثير منهم ذا كلف بالفتيات أو الفتيان من النصارى هؤلاء ، وربما وقعوا فى حبهن حتى قالوا فيهن الكثير من الشعر ، بل ان عبد الرحمن الناصر بنى مدينة وسماها على اسم حظيته المحبوبة الزهراء ، فكانت مدينة الزهراء الجميلة . وبذلك كانت سوق الرقيق سبيلا من سبل الاتصال الحضارى بين نصارى ومسلمى شبه الجزيرة (٤٧) .

Crow, op. cit, p. 80.

(٤٥)

(٤٦) ابن خلدون ، مقدماته ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ ، ٤٥٣ .

ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٤ . Hole, op. cit, p. 114.

(٤٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٤٠٣ ، ق ٤ .

ج ١ ص ٦٠ ، ابن حيان برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٦٢ .

ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٩٥ ، ٩٦ ، مطمح الانفس ، ص ٨٠ .

ابن غالب ، تعليق مفتقى من فرحة الانفس ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ .

ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ج ٢ ، ص ٢٩٢ .

ابن الخطيب ، الاطحة ، ج ٢ ، ص ٢٥١ ، ٢٥٢ .

## ( و ) الحرب المستمرة :

وكانت الحرب المستمرة بين الطرفين سبيلا من سبل التأثير الحضاري أيضا إذ كانت الممارك تسفر دائما عن أسرى وسبى كثير سواء من هذا الجانب أو ذاك . ينتقل هؤلاء الأسرى وذاك السبى الى الشمال أو الجنوب ، ويمارسون حياتهم وأساليبهم في الحياة ، وفي الغالب كانوا يتعلمون لغة البلد الذي أجبروا على العيش فيه ، وربما اعتنقوا ديانتهم ، وربما تحرر هؤلاء الأسرى وعادوا الى بلادهم ، فقد كانت هناك جمعيات في أسبانيا النصرانية والأندلس الإسلامية مهمتها العمل على تحريرهم (٤٨) .

ولما كان المسلمون هم الفائزون في معظم المعارك الحربية في عصرى الإمارة والخلافة ، فقد كان معظم الأسرى والسبى من أهل الشمال النصراني ، وقد سبقت الإشارة الى أنه في عهد الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ( ١٧٢ — ١٨٠ هـ ) بحثوا عن أسرى يمكن افتداؤهم بالمال فلم يجدوا أسيرا مسلما ، وهناك رواية تقول بأن الأمير الحكم الرضوى ( ١٨٠ — ٢٠٦ هـ ) ، وأن الحاجب المنصور بن أبى عامر ( ٣٦٦ — ٣٩٢ هـ ) قاما بحرب لأن كلا منهما سمع بأن نصارى الشمال احتجزوا عندهم امرأة مسلمة أسيرة دون أن يعيدوها الى ديار الاسلام حسب اتفاقيات الصلح (٤٩) .

لذلك فقد كثر الأسرى المسيحيون في عصرى الإمارة والخلافة ( ١٣٨ — ٤٢٢ هـ ) ، وكان كثير منهم يفك أسرهم ويعود الى وطنه ، سواء بواسطة أهله أو بواسطة اغنياء المسلمين أنفسهم الذين كانوا يحررونهم ويطلقون سراحهم شكرا لله على توفيقه لهم في شيء ما . وقد حدث عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م أن علم المنصور بن أبى عامر بانتصار جنوده في واقعة كبيرة في افريقية ، فأسرع بتحرير نحو ١٨٠٠ أسير مسيحي من ذكور وإناث تقربا الى الله وشكرا على نعمة النصر (٥٠) .

وإذا ما عاد هؤلاء الى أوطانهم وقد تعلموا العربية وعاشوا حياة المسلمين الأكثر حضارة ومدنية ، نشروا ما عرفوه من أساليب الحياة والمعيشة الإسلامية بين مواطنيهم ، وزاد على ذلك أثر الأسرى المسلمين

(٤٨) رينو ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٤٩) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الاول ، ص ٢٢٦ .

(٥٠) رينو ، المصدر نفسه ، ص ٢١٩ .

الذين كانوا يقعون في أيدي النصارى في أواخر عصر الإمارة وفي عصر دولة الطوائف ، وكان هؤلاء بالطبع يزيدون في عملية النقل الحضارى بين الأندلس الإسلامية وبين أسبانيا النصرانية .

وفي الأندلس كان أسرى نصارى الأسبان يتحولون الى موالى وعبيد اذا لم يجدوا من يحررهم أو اذا لم يعتنقوا الاسلام ، وكانوا يخدمون في القصور ، وكان منهم الحرس الخاص للخلفاء والملوك الذين كانوا يعولون عليهم في الحروب ، حتى أن عددا كبيرا من جنود المنصور كان من سبى الشمال . أما الرقيق من النساء فكن يشتغلن في قصور الأمراء والأغنياء ، ويتثقفن ويتعلمن الغناء ، ومن تنبغ منهن كانت تباع بثمن مرتفع ، أو يهدىها صاحبها الى الأمير ، أو يتزوجها تقتصر حرة وتسمى أم ولد . وكانت قصور قرطبة وبقية حواضر الأندلس ملأى بأمهات الأولاد (٥١) .

وكانت تساء معاملة الأسرى أحيانا ويكلفون بالأعمال الشاقة ، وقد سبقت الإشارة الى أسرى قطلونية ( برشلونة ) الذين كلفوا بنقل عدد معين من أحمال التراب الى قرطبة ، وهناك رواية تقول بأن المنصور بن أبى عامر كان يستخدمهم أيضا في بناء مدينة الزاهرة بدلا من البنائين المسلمين ، وهم مقيدون في الأصفاد ، اذلالا للشرك واطهارا لقوة الاسلام . وخلا هذين الحادثين لم نعثر على ما يدل على الاساءة الى أسرى النصارى في بلاد الأندلس ، وواضح أن ذلك تم في عهد المنصور بن أبى عامر الذى خرج عن سياسة الاعتدال في علاقته بنصارى الشمال حسبما تقدم (٥٢) .

أما الأسرى المسلمون الذين كانوا يقعون في يد نصارى أسبانيا النصرانية ، فلم يتمتعوا بما تمتع به أقرانهم النصارى في الأندلس الإسلامية ، اذ كانت تساء معاملتهم ولا يمشون الا في الأصفاد خوفا من هروبهم ، ولا يتحررون من العبودية الا اذا تنصروا ، وكانوا يكلفون بأعمال الزراعة والحراثة ، وحتى لو تنصروا وتحرروا فانهم يبقون في درجة اجتماعية أقل من سائر المواطنين . ولم يكن يحق لهم التزوج من المسيحيات ولو كن من

(٥١) ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٢٧٦ .

ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ، ص ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، المقرئ ، النفع ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ .

(٥٢) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

الخوادم ، ولم يكن يؤذن للعبد بالزواج من الأمة ولو كانا من ملة واحدة ،  
وانما يسمح لهما بالسكن في مكان واحد على أن يكون الأولاد ملكا لسيدهما (٥٣) .

وكان للحرب في ذاتها تأثيرات اجتماعية واقتصادية على نصارى اسبانيا النصرانية ، وخاصة المقيمين منهم في مناطق الحدود ، فقد أدت الى رفع مكانة العامة من الشعب النصراني نظرا لاحتياج الملوك اليهم في كفاحهم ضد مسلمى الأندلس ، وقد كانت ممالك اسبانيا النصرانية تعيش اجتماعيا وسياسيا عصر سيادة الاقطاع وينقسم الناس فيها الى طبقات ، وكانت طبقة النبلاء تستعبد بقية أفراد الشعب سواء كانوا زراعا في الحقول أم عمالا في المصانع الحرفية أم خدما في القصور . وقد صار هؤلاء الخدم والعبيد سادة أحرارا بفضل حروب الاسترداد التي هيأت لهم تلك الفرصة الذهبية ، وهكذا أصبحوا جنودا يمتطون الخيل ، وأصبحوا فرسانا ونبلاء صفارا أو رؤساء قرى صغيرة ، دون أن يكون عندهم أراضى واسعة أو ثروة كبيرة ، إذ كانت ثروتهم تكمن في قوة سواعدهم (٥٤) .

وفي بعض الفترات كانت تهدأ الحروب ويعم السلام وتتعقد معاهدات الصلح والسلام ، كما حدث عام ٢٧٠ هـ في عهد الأمير محمد ( ٢٣٨ — ٢٧٢ هـ ) ، وكما حدث في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٤٤ هـ ، وفي عهد ابنه وخلفه الحكم المستنصر عام ٣٥١ — ٣٥٥ هـ ، وقد سبقتنا الإشارة الى هذه المعاهدات في مكانها من الدراسة ، وما نود أن نقوله هو أن تلك المعاهدات كان يتبعها أخذ للرهائن من نصارى الشمال في عصر الخلافة ، تبادل الرهائن في عصر ملوك الطوائف . وبديهي أن هؤلاء الرهائن كانوا يتعلمون العربية ويعيشون حياة المسلمين ، فاذا عادوا نقلوا ونشروا ما تعلموه في بلاط ملوكهم وأهليهم وأضيفوا الى جملة الأسبان الذين يعرفون العربية ويعيشون حياة أهلها (٥٥) .

وكان أول زعيم من زعماء جليقية واشتريس وهو بلاي فيما تقول بعض الروايات رهينة في قرطبة ، ثم هرب منها وفر الى الشمال وبدأ حرب الدفاع

(٥٣) الضبي ، بقية اللتمس ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

Chapman, op. cit, p. 122.

(٥٤)

(٥٥) رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢٣٣ .

والمقاومة ضد مسلمى الأندلس منذ عام ٩٨ هـ ، تلك الحرب التى تحولت فيما بعد الى ما يسمى بحرب الاسترداد . وقد انتشر أسلوب تبادل الرهائن فى عصر ملوك الطوائف بالذات بسبب كثرة عدد الدول الاسلامية وتهافتها على محالفة ملوك اسبانيا النصرانية ، وقد سبقت الاشارة الى ما قام به ابن عمار نيابة عن مليكه المعتمد بن عباد من تبادل للرهائن مع أمير برشلونة حتى يتم تنفيذ المعاهدة التى عقدها معه بخصوص الاستيلاء على مرسية (٥٦) .

وغير الرهائن فقد كانت معاهدات السلام تتيح الفرصة لتبادل السفارات الدبلوماسية والتجارة والطلاب والأطباء ، وتمكن أصحاب المصالح من الانتقال بين طرفي شبه الجزيرة . وقد عرفنا أن يولوجيوس زعيم الفتنة الدينية فى قرطبة فى منتصف القرن الثالث الهجرى قد ذهب الى ببلونة عاصمة نيرة عدة مرات ، ثم عاد محملا بكتب الأدب اللاتينى ، علاوة على الكتب الدينية المسيحية وبعض الكتب التى تحتوى على خرافات كثيرة ملفقة تحط من شأن الدين الاسلامى . وسبقت الاشارة أيضا الى وفود كثير من الرهبان الى قرطبة للدراسة والعلم ، منهم من صار أحد بابوات روما (٥٧) .

كما سبقت الاشارة أيضا الى البعثات التى كان يوفدها ملوك اسبانيا النصرانية الى ملوك الطوائف لجمع رفات القديسين النصراني فى بلاد الأندلس أو لأخذ الجزية أو لتجديد معاهدة . وكانت السفارات الاسلامية تذهب الى ليون أو برغش أو ببلونة أو برشلونة تعقد معاهدات التحالف ضد ملوك الطوائف الآخرين ، أو لتحديد ما يلزم دفعه من الجزية أو لتجديد الصداقة والتحالف (٥٨) .

كل هذا النشاط الدبلوماسى ، لا بد انه كان عظيم الأثر فى دفع عملية المزج الحضارى والتقريب المادى والفكرى بين الأندلس الاسلامية المتحضرة وبين الشمال النصرانى المتخلف . ومما ساعد على ذلك أيضا عملية اللجوء السياسى . واستخدام الجند المرتزقة عند الجانبين .

---

(٥٦) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

(٥٧) انظر ، الفصل الاول ، الباب الاول ، ص

(٥٨) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

## ( ز ) اللجوء السياسى :

أما اللجوء السياسى فقد كان ذائعا ومنتشرا ، وسبقت الإشارة الى ما قام به أفراد من البيت المالك سواء فى الأندلس الاسلامية أم فى الممالك النصرانية فى شمال اسبانيا ، من اللجوء الى الجانب الآخر طلبا للمساعدة ضد الحاكم أو هربا من استبداده وظلمه . فقد اتصل اخوة هشام بن عبد الرحمن الداخل بشرلمان امبراطور الفرنجة ، طالبين منه العون ضد هشام ، ثم ضد ابنه الحكم فيها بعد . ولجأ ابن لعبد الرحمن الناصر الى ملك ليون ، ولجأ ابن للحاجب المنصور بن أبى عامر الى ملك قشتالة (٥٩) ، وكثر ذلك بين حكام الثغور الاسلامية سواء فى عصر الامارة أو الخلافة ، فقد لجأ ابن مروان الجليقى الى الفونش الثالث ، كما لجأ أفراد من أسرة بنى قس وبنى الطويل فى عهد الامارة الى ملوك نبرة وليون . ولجأ أفراد من بنى تجيب الى ملوك ليون وتحالفوا معهم ضد عبد الرحمن الناصر . كثر ذلك فى عهد ملوك الطوائف أيضا ، فقد لجأ أفراد من أسرة بنى ذى النون أصحاب طليطة ، ومن أسرة بنى هود أصحاب سرقسطة وكذلك بعض الوزراء مثل ابن عمار وغيره الى ملوك أسبانيا النصرانية . وكان هؤلاء فى الغالب يعيشون فى ممالك الشمال هم وأئصارهم آمادا طويلة ، وربما ماتوا هناك ، ولا شك أنه كان لهم تأثيرهم الحضارى (٦٠) .

وكان هناك أيضا اللاجئين من ممالك الشمال الأسباني الى الأندلس الاسلامية فقد لجأ شانجة (سانشو) ملك ليون الى حماية عبد الرحمن الناصر حينما استأثر أخوه أردون (أردونيو) بالحكم واتى أردونيو الى قرطبة يلتبس حمايتها وتأييدها ضد الفونسو فى عصر الحكم المستنصر ، ولجأ الفونسو السادس الى المأمون بن ذى النون صاحب طليطة ، فأكرمه ورعاه حتى عاد الى ليون عقب مقتل أخيه سانشو الثانى ، وتولى ملك ليون وقشتاله ورد الجميل للمسلمين فأستولى منهم على طليطة ذاتها ، وقضى على ملك بنى ذى النون أنفسهم .

(٥٩) الرازى برواية ابن عذارى ، المصدر نفسه ج ٢ ، ص ٩٢ - ٩٤ .

ابن الاثير ، ج ٦ ، ص ٢٤ ، ابن خلدون ، للعبر ، ج ٤ ، ص ١٢٤ .

انظر الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ١٠ ، ٢٢ ، ٤٥ ، ٥١ ، ابن عذارى ، المصدر

نفسه ، ج ٢ ، ص ١٠٨ ، ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ج ١ ص ٤٨ .

كذلك لجأ أخوه الى بلاط بنى عباد فى اشبيلية (٦١) ، ومما هو جدير بالملاحظة ما تقوله بعض الروايات من أن الفونسو السادس عند ما كان لاجئاً فى طليطلة سمع أمراءها يتجادلون فى كيفية الدفاع عن المدينة وعن كيفية استسلامها ، فادخر الفونسو هذا الحديث فى نفسه وانتفع به عند استيلائه على المدينة ، وما نود أن نقوله هو أن الفونسو لا بد أنه كان يعرف العربية حتى يفهم كلام الأمراء ، اذ تقول الرواية انه كان راقداً متظاهراً بالنوم وانه استرق السمع ، فلم يكن هناك مترجم ، ولم يكن هناك من يشرح له معنى الكلام ، أو ربما كان هؤلاء يتكلمون بالعجبية التى اشرنا إليها من قبل ، وهى قريبة من اللاتينية ، فاستطاع الفونسو أن يفهم ما فهم (٦٢) .

( ح ) أما الجنود المرتزقة من نصارى الشمال الأسباني وان كان بدا استخدامهم منذ عصر عبد الرحمن الداخلى ( ١٣٨ — ١٧٢ هـ ) ثم فى عهود من تلاه من أمراء وخلفاء بنى أمية ، الا انه كثر استخدامهما فى عصر دول الطوائف ، وابتداء من القرن الخامس الهجرى على يد خلفاء بنى أمية الاواخر كما سبقت دراسته فى الأبواب السابقة ، وكان هؤلاء الجنود لا شك يعيشون بين ظهرائى المسلمين ويقتبسون من أساليبهم فى الحياة ويعودون الى بلادهم وينشرون ما تعلموه أو عرفوه . وأبرز مثال على ذلك هو السيد القمبيطور وجنده المرتزقة الذين خدموا أمراء المسلمين أكثر ما خدموا أمراء النصارى . ولو لم يمت القمبيطور وهو فى خدمة الجانب النصرانى ، لما خفلت به الأساطير الأسبانية ورفعته الى مرتبة الأبطال القديسين (٦٣) .

وبالمثل كانت جنود الممالك الاسلامية تعمل أيضا متحالفة فى خدمة ملوك نبرة وقتشالة كى تعين هذا على ذاك ، أو تساعد أحدهم فى الهجوم على دولة اسلامية معادية . وقد سبقت دراسة ذلك فى الأبواب السابقة، مما يدل على أنه كان هناك تداخل سياسى وعسكرى واجتماعى بين ممالك

Dozy, op. cit, pp. 422 - 426

(٦١)

• انظر الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

• (٦٢) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص

• (٦٣) انظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص



اسبانيا النصرانية وبين حكام الأندلس الاسلامية ، مما اتاح الفرصة لنقل التأثيرات الحضارية بين الجانبين بطريقة طبيعية ومؤثرة .

هذا عن قنوات الاتصال بين نصارى شمال اسبانيا وبين مسلمى الأندلس . وهى قنوات كما رأينا متعددة ومؤثرة وفعالة ، ولا بد أنها نقلت الكثير والكثير من المؤثرات الحضارية سواء كانت اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية الى الممالك الأسبانية النصرانية . كما نقلت أيضا بعض التأثيرات الى الحياة الاسلامية فى الأندلس . وقد تعددت المجالات والميادين التى تم فيها هذا التأثير أو ذاك ، سواء فى ميدان الحياة الاجتماعية أم الثقافية أم الاقتصادية .

### ٣ - مظاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية :

وفى هذا الميدان ظهر التأثير فى نواح عديدة ، فى روح التسامح التى تحلى بها المسلمون تجاه اصحاب الأديان الأخرى فى شبه الجزيرة ، وفى الأخلاق والعادات والتقاليد ، وفى الموسيقى والحفلات والأعياد ، وفى اللبس والمأكول والمشرب والسكن ، أو فى ميدان العمارة وفن البناء .

أما روح التسامح فقد ظهرت عند مسلمى الأندلس بشكل واضح ، وقد وفينا الحديث عن هذا الموضوع أثناء الكلام عن الفتنة الدينية التى سميت بحركة الاستشهاد المسيحى التى حدثت فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وما نود أن نقوله هنا هو أن الكنائس كانت مفتحة الأبواب للمارة سواء من النصارى والمسلمين ، تفدق عليهم من كرمها واطياب طعامها وشرابها حتى أن بعض المسلمين كانوا يبيتون بها<sup>(٦٤)</sup> .

وقد بلغ التسامح الى حد أن كان المسلمون يزورون كنائس النصارى ويزور النصارى قبور اولياء المسلمين لنيل البركة ، كما أنهم

(٦٤) ابن بسام ، الفخرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ١٩٠ ، ١٩٢ .

ابن خاقان ، مطمح الانفس ، ص ٢١ .

الادويسى ، صفة المغرب ، ص ١٨٠ ، ١٨١ .

انظر الفصل الاول ، الباب الاول ، ص .

امتنعوا عن أكل لحم الخنزير وقاموا بختان أطفالهم تقليدا للمسلمين بل كانت أسماؤهم في غالبيتها أسماء عربية . كما تلقب بعض المسلمين بالقاب النصرى ، فهناك الأديب أبو جعفر بن عبد الله ، وكان يعرف بابن شانجة . ولا شك أن روح السباحة هذه قد انتقلت الى نصارى الشمال وأخذوها عن المسلمين<sup>(٦٥)</sup> .

فقد كان ملوك قشتالة وليون يحيطون أنفسهم بعلماء المسلمين ويستخدمون مهندسيهم ، ويستمعون الى موسيقيهم ، وينتفعون بخير ما في الثقافة الاسلامية دون أدنى لوم أو حرج ، ولم يتحول شعورهم الا عند ما اتخذت الحرب الصفة الدينية الصليبية في عصر ملوك الطوائف . ورغم تحقيق نصر حاسم على المسلمين بعد سقوط طليطلة في يد الفونسو عام ١٠٨٦م ، فقد قرر هذا الملك في البداية الا يتعرض لمقدسات المسلمين وأن يظلوا مشرفين على مسجدهم وأن يقيموا فيه شعائرتهم دون أن يتعرض لهم أحد<sup>(٦٦)</sup> .

لكن المتعصبين من رهبان الأديرة مع مطران طليطلة بمساعدة الملكة كونستانس — وكان هؤلاء جميعا من الفرنسيين — تمكنوا في غيبة الفونسو السادس في ليون من تحويل مسجد طليطلة الى كنيسة ، ولما عاد الفونسو وعرف بالامر غضب غضبا شديدا واعتزم عقاب هؤلاء المعتدين بالموت حرقا ، لكن مسلمي طليطلة تشفعوا لديه حتى لا ينفذ وعيده اعتقادا منهم بأن هذا غير مفيد ، وربما اثار عليهم المسيحيين الآخرين وأتى بنتيجة عكسية . وكان تدخل البابوية واتباعها من الرهبان الفرنسيين هو الذي ساعد في احداث موجات التعصب ، كما أدى الى اشتداد ساعد رجال الدين المسيحيين في اسبانيا ، بدرجة فاقت غيرها من البلاد

(٦٥) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .

ابن عذاري ، البيان ، ص ٢٣ ، ص ٢٣ .

ابن بشكوال ، الصلة ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ١٨٠ .

(٦٦) أنظر ، الفصل الثالث ، الباب الثالث ، ص ٣٣٣ .

الأوربية الأخرى حتى قيل « ان أسبانيا ضحت بحريتها وبمعظمها كشعب  
في سبيل الكاثوليكية » (٦٧) .

وقد أخذ نصارى الشمال الأسباني عن المسلمين الكرم وحسن  
الخلق وتخلصوا من همجيتهم بفضل اتصالهم بالمسلمين واقتباسهم منهم طباعهم  
النبيلة ، ومبادئ فروسياتهم التى منها مراعاة النساء والشيوخ والأطفال  
واحترام العهود والوفاء بالوعود ، ورقّة العواطف ولين الطباع ،  
حتى قال بعض مؤرخى النصارى ومتدينهم أنه « يشك في أن المسيحية كانت  
تستطيع وحدها أن تأتى بمثل ذلك التأثير مهما بولغ في كرمها وتأثيرها ،  
فلم يكن المسلم مدمرا أو مخربا ، وإنما كان مبدعا منشئا للمدن والقصور  
والبساتين ، ورغم أصله البدوى القاسى ، إلا أنه كان يحب اللين والترف  
ويستطرف الجمال في شتى صورهِ ويستطيب الحياة الناعمة (٦٨) .

ولذلك رأينا أن أشد المسلمين غزواً وإيفالا في بلاد النصرانية في  
شمال أسبانيا وهو المنصور بن أبى عامر وابنه عبد الملك المظفر ( ٣٦٦ —  
٣٩٩ هـ ) رأيناه ينصح بعدم إحراق الدور وعدم هدم المنازل ، بل أنه  
كان يصل بلاد الشمال ببلاده بالعمل على تعميرها وتوفير الاقوات والمدن  
لها ، حتى أنه ندم في أواخر أيامه على ذلك ، لأنه لم يخرب ويدمر من  
البلاد الأسبانية مسافة تجعل غزو النصارى لمسلمى الأندلس أمرا  
صعبا (٦٩) .

وكان مسلمو الأندلس أصحاب فضل في انتشار الغناء والموسيقى بين  
الشعب النصرانى في شمال أسبانيا . فقد كان البيت الأموى يرفع هذه  
الفنون رعاية عظيمة لدرجة أن بعضا من أمراء بنى أمية أنفسهم كانوا يعرفون  
الغناء ، فضلا عن أن معظمهم كانوا شعراء . وكانوا يستقدمون الفتيات

(٦٧) ترند ، أسبانيا والبرتغال ، ص ٨ ، ٩ .

(٦٨) غوستان لوبيون ، حضارة العرب ، ص ٥٩٧ .

حيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ٣١١ ، ٣١٢ .

حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤١٩ .

(٦٩) أنظر الفصل الثالث ، الباب الثانى ، ص .

والمغنين من بغداد والمدينة المنورة ، وقصة زرياب المغنى ووصوله الى الأندلس في عهد عبد الرحمن الثانى ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ ) وأثره الكبير فى رقى هذا الفن وفى الحياة الاجتماعية عامة ، تغنى عن البيان (٧٠) .

وتقول بعض الروايات انه قدم الى الأندلس ايضا فى عهد هذا الأمير ثلاث مغنيات هن ، فضل وعلم وقلم المدنيات . وكانت احداهن وهى ( قلم ) رومية نافارية الأصل ، أسرت وهى صغيرة ، وأرسلت الى المدينة ثم أتت مع فضل وعلم الى قرطبة بعد أن اشتراهن الأمير عبد الرحمن الثانى ، ويزيد ليفى بروفنسال بانه تزوجهن ورزق من كل واحدة منهن بولد واصبحن امهات اولاد . ولم تأت هؤلاء المغنيات الى الأندلس فى عهد عبد الرحمن الناصر كما قال بذلك الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي صاحب « حضارة العرب » فى الأندلس « اذ أن المقرئ يذكر أن ( فضل ) المدنية كانت أصلا لاحدى بنات هارون الرشيد ، ولم يكن الرشيد معاصرا لعبد الرحمن الناصر (٧١) .

ما يهمنا هنا هو أن بعض الفتيات من سبى نصارى شمال الأندلس كن يذهبن الى المشرق الاسلامى ، ويتعلمن الغناء والموسيقى ويبرعن فيه ، ثم يعدن الى الأندلس وربما عدن الى بلاط ملوك نصارى شمال اسبانيا ايضا ، وهو شئ معقول اذا عرفنا أن كثيرا من المغنين والموسيقين المسلمين كانوا يذهبون الى نبرة وقشتالة وليون وأرغون ابتداء من عصر دول الطوائف بعد أن تجزأت الدولة الأموية ، واصبحت بدل قرطبة عدة قرطبات ، وتهافت ملوكها على الشعراء والموسيقين والمغنين الذين كان يوجد من بينهم بعض النصارى والمستعربين ، أى أن التأثير كان متبادلا . ولدينا شواهد كثيرة تدل على ميل نصارى الشمال الى اغانى العرب وموسيقاهم (٧٢) .

(٧٠) ابن حزم . جمهرة انساب العرب ، ص ٩١ .

(٧١) المقرئ ، نضج الطيب ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

ليفى بروفنسال ، الشرق الاسلامى ، ص ٢٤ .

البرقوقي ، حضارة العرب فى الأندلس ، ص ٧٠ ، ٧١ .

ترند ، اسبانيا والبرتغال ، ص ٣١ .

معظم أسماء الآلات الموسيقية عند نصارى الأسبان مشتق من اسمه  
العربي هو الاسم العربي نفسه منطوقا في صورة إسبانية ، فالعود كانوا  
ينطقونه Laud والقيثارة Guitarrā والرباب Rabel  
والنغير Anafil والبندير Pandera والصنج Sonajas  
والبوق Elboque والطبل Atambal

ولازالت العادات التي ورثوها عن المسلمين كطريقة العزف المعروفة  
عند الموسيقيين باسم Zambra ( وبالعربية زمر ) ، وسلوك السامعين  
أثناء العزف ومقاطعتهم له بصياحهم Ole Ole ( الله .. الله )  
لازالت هذه باقية تدل على ما كان يحدث أيام المسلمين ، حتى أن كلمة  
يا ليل Leli Leli أخذها الأسبان عن مسلمي الأندلس<sup>(٧٣)</sup> .

وهناك أيضا ما يدل على تفهم نصارى شمال اسبانيا لموسيقى  
الأندلس وغنائها . فقد حدث حينما سقطت مدينة بريشتر الاسلامية في  
يد النصارى عام ٤٥٦ هـ واستولوا على ديارها بما فيها من متاع  
وخدم وعبيد وجواري ، ان جلس احدهم وطلب من احدى الجاريات  
العرييات ان تمسك عودها وتسمعه هو وضيغه اليهودى المستعرب بعض  
ما عندها . فقامت وعزفت وغنت ، ورغم أن اليهودى يقول أنه لم  
يفهم من أشعارها شيئا ، إلا أنه استغرب ما قام به ذلك النصرانى من  
حشه الشرب ، واطهاره الطرب لسماع تلك الأشعار وهذه الموسيقى<sup>(٧٤)</sup>

وربما لم يفهم ذلك النصرانى ما قالته الجارية ، لكنه بالطبع قد  
فهم اللحن الموسيقى ، فالموسيقى لغة عالمية ، زد على ذلك أنه كان هناك  
شعر أندلسى يسمى بالزجل ، قد انتشر في شبه الجزيرة في ذلك الوقت ،  
وكانت موسيقاه شعبية ، والزجل نفسه كان خليطا من العريشة  
والأسبانية مما ستناوله بالدراسة في الصفحات التالية ، وربما كان غناء  
الجارية من هذا النوع من الشعر ، ففهمه النصرانى وطرب منه .

(٧٣) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ .

حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٧١٣ .

(٧٤) ابن حيان برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ج ٢ ، ص ٥٧٥ .

وكان من الطبيعي وقد تفوق مسلمو الأندلس في أساليب الحياة والحضارة ان يأخذ عنهم الأسبان وغير الأسبان ، ليس في الموسيقى والفناء فقط بل في مجالات اللهو الأخرى ، مثال ذلك ، الشطرنج الذى أخذه نصارى شمال اسبانيا عن مسلمى الأندلس ، وجاء ذكره للمرة الأولى في وصيتين لفردين من أسرة نبلاء برشلونة ، يرجع عهدهما الى ما بين سنتى ٣٩٨ هـ ، ٤٠٧ هـ ( ١٠٠٨ م ، ١٠١٧ م ) يهبان فيهما ما لهما من شطرنج الى أشخاص معينين<sup>(٧٥)</sup> .

وكان لابن عمار وزير المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية مع الفونسو السادس قصة طريفة تتعلق بالشطرنج ، فقد جاء ذلك الملك مهتدا أشبيلية وعسكر بجيوشه خارج حدودها ، فأرسل المعتمد وزيره لمفاوضته ومنع هجومه على البلاد . واحتال ابن عمار على الفونسو واستغل إعجابه بما كان معه من شطرنج كان في غاية الجمال والابداع والانتقان ، ودس الى بعض نبلائه بعد أن رشاهم أن يقتنعوا الملك باللعب مع ابن عمار ، بشرط اذا فاز الملك كان له الشطرنج ، واذا فاز ابن عمار كان له ما يريد<sup>(٧٦)</sup> .

ولما فاز ابن عمار أظهر شرطه ، ولم يكن الا عودة الفونسو الى بلاده دون هجوم على أشبيلية ، فغضب الفونسو ، ولم يرجع الا بعد أن أخذ جزية عامين مقدما . وان كانت القصة فيها شيء من الخيال الا أننا لا نستبعد حدوثها خاصة وقد أجمع المؤرخون المعاصرون على أنه كان لابن عمار علاقة خاصة بالملك الفونسو السادس ، وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل ، لكن القصة تدل على تلك الروح الودية وعلى العلاقات الاجتماعية التى كانت تسود الحياة بين مسلمى شبه الجزيرة ونصاراهم رغم ما كان بينهما من حروب شبه دائمة<sup>(٧٧)</sup> .

---

(٧٥) توند ، المصدر نفسه ، ص ٦٢ - ٦٤ .

محمد كرد على ، الاسلام والحضارة العربية ، ج ١ ، ص ٢٣٧ .

(٧٦) الأراكنى ، المعجب ، ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٧٧) الأراكنى ، المصدر نفسه ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

دوزى ، ملوك الطوائف ، ص ٢٣٨ - ٢٤٢ .

أما الأعياد والاحتفال بها فقد كان معروفا عن مسلمى الأندلس أنهم كانوا يحتفلون بالأعياد غير الإسلامية ، خاصة وأنها تأتي في نفس الفصل من السنة ، لأنها تتبع التقويم الشمسى . ولذلك كانت أعياد ثابتة فأخذت صفة الشعبية لدرجة أن بعض الأمراء كان يتزوجون في هذه المناسبات الدينية المسيحية . فقد احتفل بزواج المنصور بن أبى عامر من أسماء بنت غالب الناصرى في أول أيام السنة الميلادية الجديدة ، وهو العيد السنوى الذى كان المسلمون يشاركون فيه وفي غيره على أية صورة (٧٨) .

وتذكر بعض الروايات أن بعض أكابر المسلمين واغنيائهم كانوا يصنعون ما يشبه ( التورته ) في عصرنا الحاضر ، في عيد الترويز ، اذ كانوا يصنون في مثل هذا اليوم « مدائن من العجين لها صور مستحسنة » صورها أحد الشعراء قتال (٧٩) :

مدينة مسورة	تجار فيها السحرة
لم تبناها الا يد	عذراء أو مخدرة
بدت عروسا تجتلى	من درمك (٨٠) مزعفرة
ومالها مفاتح	الا لبنان العشرة

كذلك كان التأثير متبادلا فيما يختص بالزى والملابس . أما المسلمون فقد كانوا في أوائل أيام الفتح يتقلدون السيوف ويتأبطون الرماح ويتكبون القسى ، وكانوا يلبسون العمائم ، وبمضى الوقت صاروا يتشبهون

(٧٨) جالنشيا ، تاريخ الفكر الاندلسى ، ص ٢١ .

Dozy, op. cit, p. 483.

Hole, op. cit, p. 141.

(٧٩) المقرئ ، نفع الطيب ، ج ٤ ، ص ٣٧٦ .

(٨٠) الدرهم ، نوع من انواع الدقيق ، يستعمل في صنع الخبز وخلافه . انظر ،

الطبيخ في المغرب والاندلس ، ص ٨٢ .

بالنصارى في أزيائهم وأسلحتهم ، يلبس الدروع ويغوصون في الزرد ، ويقتنون سيوف « بوردو » وقسي الامرنجة التي كانوا يتدربون عليها طوال الوقت . وتركوا العمائم وصاروا يلبسون الكمة الهندية . أما أمراء المسلمين وشيوخهم وقضاتهم فكانوا يلبسون القلانس ويتجنبون العمائم ، ولا يلبسها الا ما شذ منهم (٨١) .

وكان تأثير المسلمين على نصارى الشمال الأسباني كبيرا في هذا المجال ، ذلك أنه اعتبارا من القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة واشبيلية وطليلة وسرقسطة الاسلامية في دور أمراء المسيحيين في شمال البلاد ، وكانت سفارات ملوك نبرة وليون ومشتالة وبرشلونة تغد الى بلاط قرطبة أيام الناصر والمستنصر وابن ابي عامر وابنه عبد الملك ، وتعود محملة بأفخر الملابس والأزياء والهدايا والتحف التي كان نساء البلاط في ممالك الشمال يتلفن عليها وينظرن اليها على أنها « موضة » العصر ، وكن يكثرن من الأسئلة عن الأقمشة والألوان والأزياء ، وعن التحف من العجاج والكهرمان والزجاج الملون التي كان يعرضها الباعة والتجار في أسواق قرطبة (٨٢) .

ويحكى لنا ابن حيان عن شاهد عيان أن ملوك اسبانيا في القرن الخامس الهجرى كانوا يرتدون من ثياب المسلمين ويقلدونهم في اتخاذ الفرش المستخدمة للجلوس ، وقد حدث عندما فتح التابوت الذي كان يحتوى على رفات السيد القهبيطور بعد ذلك بمدة طويلة وفي أيام الامبراطور شارلكان ، وفي سنة ١٥٤١ م على وجه التحديد ، أن وجدت

(٨١) النباهي ، تاريخ قضاة الاندلس ، ص ١٣ ، ٢٥ .

ابن فضل الله العمري ، وصف افريقية والمغرب والاندلس ، ص ٤٢ .

ابن الخطيب ، الاحاطة ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

عنان ، نهاية الاندلس ، ص ٣٣٠ .

(٨٢) ليفي بروفنسال ، تراث الاندلس ، ص ٦٢١ .

Levi - Provencal, La civilisation Arabe en Espagne pp.

127-129



جثته ملفوفة في رداء عربي ومعها سيف ورمح ، وقد عاش القبيطور في القرن الخامس الهجري وكان يعيش مع المسلمين والنصارى ، فلا غرابة في اتخاذه الملابس العربية عندما كان حيا او تكفينه بها بعد وفاته(٨٣)

أما الطعام والشراب ، فقد تفنن مسلمو الأندلس في الاكثار من انواعه ، حتى ان النوع الواحد كان يطهى بطرق مختلفة . واشتهرت فئات السكان بأطعمة خاصة بها . فليهود لون خاص بهم يسمى « حجلة يهودية » ونوع آخر يسمى « لون من فروخ يهودى » ، وللصقالبة لون يسمى « صنعة مسلوقة الصقالبة » وانتقل الى الأندلس اكلات عديدة من مختلف البلدان ، من مصر وبغداد واليمن والمغرب وفارس ، ومن نصارى شمال اسبانيا ، فقد أخذوا من اسبانيا النصرانية أكلة « الحوت المروج » أو « صفة لون من الحوت الكبير الجرم » وكذلك ذر الفلفل المسحوق على الطعام(٨٤) .

وقد انتقل الى المطبخ المسيحى في شمال اسبانيا العديد من الأكلات عن المطبخ الأندلسى لا سيما في عصر ملوك الطوائف ، حيث زاد الاختلاط بين الجانبين ، وحيث كان التفوق الحضارى لمسلمى الأندلس في القمة في ذلك الوقت . وقد انتقلت عادة الشرب الى المسلمين والاستغراق فيها من مجاورتهم واختلاطهم سواء بنصارى المستعربين ام بنصارى الشمال الأسباني .

وقد تأثر الجانبان أيضا بما كان عند كل منهما من نظم البناء ومن العمارة . وهنا لابد ان نشير الى ان الأديرة والكنائس التى بناها الرهبان المستعربون الذين فروا من الأندلس الاسلامية ، أو كانوا يعيشون في المدن المستردة كانت مركزا يشع بالثقافة والحياة الاجتماعية التى عاشها

(٨٣) آبن حيان برواية ابن بسام ، فخرية ، ق ١ ، ج ١ ، ص ١٥٤ ، ١٥٥ .

عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٤٩ .

Levi, Provencal op. cit, pp. 130, 131.

(٨٤) مجهول ، الطبخ في المغرب والاندلس ، ص ٢٥ ، ٤٥ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٤ ، ٧٧ .

٨١ ، ١١٩ ، ١٢٣ ، ١٤٧ ، ١٧٦ .

أولئك الرهبان داخل المجتمع الاسلامى ، ومن ثم فقد كانت تلك الأديرة عاملا من عوامل التقرب بين الشعبين المسيحى والمسلم ، وعاملا من عوامل المزج بين الحضارتين الاسلامية والنصرانية على أرض شبه الجزيرة .

وقد نشأ فن العمارة الاسلامية فى الأندلس وتطور فى احضان الفن المسيحى الأسباني ، أخذ عنه صورته الأولى من أعمدة الكنائس وأتواسها وأحجارها المنحوتة ، ثم أفاض عليه الطابع الاسلامى شيئا فشيئا .  
ومر هذا الفن خلال العصور الاسلامية فى أدوار مختلفة ، لكل منها طابعه الأصيل وخصائصه المميزة ، وما يهمننا منها هو الدور الأول الذى يسمى بالطراز المستعرب ، والذى ساد فى عصر بنى أمية ، والدور الأندلسى الذى ساد فى عصر دول الطوائف والمرابطين والموحدين (٨٥) .

ولم يطلق اسم الطراز المستعرب على الدور الأول الا لأن الذين قاموا بالبناء والانشاء والزخرفة كانوا من الأسبان الذين اسلموا أو من النصارى المعاهدين ( المستعربين ) أو من غيرهم من نصارى ليون وقشتالة ونبرة وبرشلونة . ولذلك فان المؤثرات الاسبانية النصرانية تبرز فى العمارة الاسلامية فى الأندلس فى عصر بنى أمية ، خذ على ذلك ما يقوله الغسانى أن المنصور بن أبى عامر زاد فى المسجد الجامع فى قرطبة عام ٣٨١ هـ ، واستخدم فى البناء الأعلاج ( نصارى الشمال ) ووجوه فرسان الخلافة والفرنجة ( نصارى برشلونة ) ، وما يقوله ابن فضل الله العمري ثم نقله عنه الحميرى انه كان « على وجه المحراب سبع قصى قائمة على عمد ، طول كل قوس أزيد من قامة ، وكل هذه القصى مزججة بصبغة القوط ( أى بأسلوبهم فى الفن ) ، قد أعجزت المسلمين والروم بفريق أعمالها ودقيق تكوينها ورصفها » (٨٦) .

(٨٥) مؤنس ، تطور العمارة الاندلسية ، ص ١٨٦ .

(٨٦) الغسانى ، رحلة الوزير فى افتتاحك الاسير ، ص ٢٢ .

ابن فضل الله العمري ، مسالك الابصار ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

الحميرى ، صفة جزيرة الاندلس ، ص ١٥٤ .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على تأثير الفن القوطى فى الفن المعمارى الأندلسى ، نتيجة لاشتراك الفرنج والقوط من نصارى شمال اسبانيا فى أعمال البناء والزخرفة ، وكان من الطبيعى أن يتركوا بصماتهم على هذا اللون من أعمال الحضارة . يزيد ذلك وضوحا ما يقوله ابن الوردى من أن لهذا المسجد ثلاثة أعمدة حمراء اللون مكتوب على أحدها اسم محمد ، وعلى الآخر صورة عصا موسى وأهل الكهف ، وعلى الثالث صورة غراب نوح ، وهى إشارات صريحة الى استعانة المخرفين بالرسوم والصور مما يخالف التقليد الإسلامى الذى اقتصر على الزخرفة النباتية فقط ، مما يدل على أن ( النصارى ) الذين كانوا يعملون فى زخرفة المسجد أضاعوها جريا على عاداتهم فى زخرفة الكنائس النصرانية ، ولم يسمح لهم بإضافتها الا لأنها وردت فى القرآن الكريم (٨٧) .

ولم يلبث مسلمو الأندلس أن تحرروا من النفوذ البيزنطى فى فن العمارة أو من الأساليب القوطية واستبدلوا النقوش العربية المزوجة بالكتابة بالزخرفة الذهبية ، واكتروا من الأقواس الصغيرة البارزة التى يعلو بعضها بعضا ، واستخدموا العقود المستديرة على صورة نعل الفرس ( حدود الفرس ) والتى تربط الأعمدة بعضها ببعض بواسطة أقواس ، فيما سمي بالفن المستعرب الذى شاع فى الأندلس الإسلامية طوال عصر بنى أمية ، وخاصة فى عصر الخلافة (٨٨) .

انتقل الفن المستعرب الى أسبانيا النصرانية فى الشمال ، فى غاليسية ( جليقية ) على يد الرهبان المستعربين بدءا من القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى ، وفى أشتورية ( أشتريس ) وليون فى عهد الفونش الثالث ( ٢٥٠ - ٢٩٤ هـ / ٨٦٦ - ٩١٠ م ) وكانت أشتريس قد تخلصت من الوصاية الكارولنجية فى ذلك الوقت ، ولم تجد مناصا من التغذى بحركة المستعربين ، خصوصا وأن تيار الخلافة الثقافى كان يحدث تأثيره

(٨٧) ابن الوردى ، خريدة العجائب ص ٩١ ، مؤنس ، تطور العمارة ، ص ٢٠٣ .

(٨٨) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٣٠٠ ، جميل نخلة الخور ، حضارة الاسلام فى دار السلام ، ص ٣٦ .

القوى في منطقة جبال البرنات ( البرانس ) بحيث طفى على الفن الكارونجي ، وعقد حدوة الفرس رمز لهذه التفاعلات (٨٩) .

وكذلك تأثرت قطلونية ( برشلونة ) والتي كانت منطقة نفوذ فرنسية بالفن المستعرب في العمارة والبناء ، وأكثر الابنية من حيث الضخامة في قطلونية هو بازيليكسا سان ميجل دي كوشة San Miguel de Cuxa وهي ذات طابع مستعرب وعلى النحو القرطبي ، ذلك ان عقودها على شكل حدوة الفرس ، وتتداخل في بناء حنياتها مع امتداد يبلغ ثلاثة ارباع القطر على النحو القرطبي ايضا . وقد تم بناء هذه البازيليكسا عام ٤٢٧هـ / ١٠٣٥ على أيدي القس أوليفا Oliva (٩٠) .

وفي ليون وهي المركز الرئيسي لحركة الاسترداد نجد انفسنا في أكثر مناطق المستعربين ازدهارا ، حيث أقام الرهبان الأندلسيون منشآتهم في كنف الفونسو العظيم وأبنائه ، فمنها الطابع المستعرب المتكامل وضم روائع معمارية ، بحيث كان القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي يمثل ذروة التفوق الاسلامي النصراني الأسباني على العالم الغربي كافة(٩١) .

وفي قشتالة ، اصطبغ أسلوب عهد الخلافة بصبغة الطبيعة دون ان يفقد أصالته ، وشيد الكثير من الكنائس على يد قسس ورهبان قدموا من قرطبة وسائر أحواض الأندلس الاسلامية ، مثل كنيسة اسكالادا التي يرجع تشييدها في نقش تاريخي الى عام ٣٠٠ هـ / ٩١٣ م على يد القس الفونسو وأصحابه الذين قدموا من قرطبة ، وكذلك هناك نقش يتصل بدير سان مارتن دي كاستنيدا San Martin de Castaneda

(٨٩) مانويل جوميث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٤٢٤ .

(٩٠) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٢ .

(٩١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٣٩ .

يضمن أنه من انشاء القس خوان الذي جاء أيضا من قرطبة بتاريخ عام ٣٠٩ هـ / ٩٢١ م (٩٢) .

وفي عصر دول الطوائف ، أى الدور الأندلسي وهو الدور الذى اكتمل فيه نضج الطراز المستعرب فى الأندلس الاسلامى وبعض نواحي اسبانيا النصرانية ، كان طراز العمارة المعروف بالرومانى قد وجد طريقه الى امارات اسبانيا النصرانية الشمالية الشرقية ، ثم تسرب منها الى امارات الشمال الغربى فى ليون وقشتالة وجليقية ، ونشأت كنائس ازدانت بالتماثيل الرومانية البدائية بدلا من الزخارف المستعربة ذات العناصر النباتية او الهندسية ، مثل كنيسة شانت ياقب ، وكنيسة جاقنة (٩٣) .

ولم يلبث هذا الطراز الرومانى فى اسبانيا النصرانية أن تأثر بمؤثرات مستعربة اسلامية ، يتجلى ذلك فى الزخارف العربية الباقية على الجدران وعلى الصناديق التى تحفظ فيها بقايا القديسين ، بل ان بعض هذه الصناديق يحمل كتابات عربية كوفية ، كما نجد فى صندوق البقايا فى كنيسة ابيط « أوفيدو Oviedo » ، بل نراها فى العقود ، كما نرى فى دير سانتو دو منجو دى سيلوس Santo Domingo de Silos (٩٤)

ولما انتثر عقد الخلافة الأموية وتفرق الأندلسيين فى امارات الطوائف ، وكثر اختلاط المسلمين بالنصارى ، وتداخل بعضهم فى بعض على النحو الذى عرفناه طوال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، استعمل المسلمون طراز الفن الرومانى فى منشآتهم الى جانب الطراز المستعرب ومزجوا الطرازين مزجا كاملا . ويظهر هذا المزج بوضوح فى القصور الزاهرة التى أنشأها ملوك الطوائف فى أشبيلية وبطليوس وسرقسطة . وقد كشفت الحفائر عن أجزاء من عقد فى قصر الجعفرية الذى بناه

---

(٩٢) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٤٠ - ٤٤٢ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٣ .  
مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ .

(٩٣) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٩٤) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

المستعين بن هود ذات طراز مستعرب ، وأجزاء أخرى ذات طراز روماني ،  
أما الزخارف كلها فمستعربة<sup>(٩٥)</sup> .

كذلك كانت القصور التي بناها مئوك نصارى الشمال في قشتالة وليون  
تقوم على طراز تلك القصور العربية في دول الطوائف ومن أمثلة ذلك  
قصر شقوبية الذي أمر بانشائه الفونسو السادس على نمط قصر طليطلة  
العربي الذي كان قد عاش فيه لاجئا سياسيا حوالى تسعة أشهر من عام  
٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م . ومما يزيد في قيمة ذلك القصر امكان اعتباره مثالا للقصور  
العربية المحصنة التي أقيمت في بلاد أسبانيا النصرانية ثم عفا رسمها<sup>(٩٦)</sup> .

وكان لفن العمارة الأندلسي أثره أيضا في الأبنية الأخرى مثل الكبارى  
والجسور والقنوات المائية المعلقة والحمامات التي تقول بعض الروايات  
النصرانية انها لم تعد مقصورة على أسبانيا الإسلامية ، بل تعدتها  
الى المدن الأخرى في أسبانيا النصرانية ، مثل برغش ، وثيوداد ، وصورية  
وغیرها . وقد تلاشت هذه الحمامات مع اشتداد حروب الاسترداد وتعصب  
الكنيسة التي قامت بمحو كل أثر للمسلمين من البلاد<sup>(٩٧)</sup> .

على أن أعظم ما ابتكرته قرطبة وقدمته لفن العمارة هو طريقة عمل  
الأقبية التي تقوم على عقود متقاطعة وأضلاع متعارضة ظاهرة ، وهذه  
الطريقة تحل المعضلة الأساسية في فن العمارة ، ونعنى بذلك معضلة  
عمل الأسقف ، وذلك بنفس الطريقة التي اتبعت في العمارة القوطية التي  
ازدهرت بعد ذلك التاريخ بقرنين من الزمان<sup>(٩٨)</sup> .

وبرغم أن حركة الاسترداد في ذاتها كانت تمثل مظهرا لتعارض  
الثقافتين الإسلامية والنصرانية في شبه الجزيرة ، أكثر منها كفاحا دينيا

(٩٥) مؤنس ، المرجع نفسه ، ص ٢١٦ .

(٩٦) غوستان لوبون ، المرجع نفسه ، ص ٩٦ .

Levi Provencal, op. cit, p. 136.

(٩٧)

Balbas, Los edificios, pp. 110, 111.

(٩٨) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٤ .

اقليميا ، وأدت الى اتجاه البلاط الأشتورى أو القشتالى فى بعض الأحيان نحو أوربا باحثا عن حلفاء له غير المستعربين ، وبالتالى الى عدم الاستقرار فى الفن الأسباني ، فمرة يكون غريبا ومرة يكون عربيا ، الا أن قشتالة وأرغونة كانتا ميالتين للأساليب الفنية العربية لأسباب عدة ، أولاها الجنس ، فيكاد يكون سكان شبه الجزيرة الأيبيرية كلهم من جنس واحد ، وثانيهما ذلك الانسجام بين الشعبين نتيجة هجرة كثير من جماعات المستعربين اليهما ، الأمر الذى كان له اثره فى حياة كثير من الناس والشخصيات البارزة حتى الملوك ، وفى تطور العمارة وغيرها من أساليب الحضارة (٩٩) .





## ٤ - مظاهرات التأثيرات الحضارية

### في ميدان الحياة الثقافية

كان أهم ماتركه مسلمو الأندلس من اثر في شبه الجزيرة هو الأثر الثقافي ،  
فعمد عصر الخلافة الأموية امتدت شعلة النور التي أضاءت سماء الأندلس  
الإسلامية الى شمال البلاد في أسبانيا النصرانية ، ومنها الى بقية أنحاء  
أوروبا ، كانت الأندلس اذن هي الجسر او المعبر الذي عبرت عليه حضارة  
الإسلام الزاهرة الى شمال أسبانيا وأوروبا ، فعملت على ارساء أسس  
حضارتهم وتخليصهم من حالة السقوط الشنيع الذي أصابهم إبان القرن  
العاشر الميلادي ، وأعطتهم قوتونها الدانية في علوم الطب والفلسفة والفلك  
والكيمياء والرياضيات ، الى غير ذلك من العلوم التي لم تكن تعرفها أسبانيا  
النصرانية ولا أوروبا في ذلك الوقت الذي كان لا يعرف القراءة والكتابة فيه  
هناك الا قليل من الرهبان والقسس والنبلاء (١) .

ولقد كان لهذا السمو الثقافي للأندلس الإسلامية رد فعل عند رجال  
الدين المسيحيين سواء في قرطبة أم في شمال أسبانيا النصرانية ، وان  
اختلفت طبيعة رد الفعل هذا عند الجانبين . أما في قرطبة ، فقد دار الصراع  
الفكري بين رجال الدين المسلمين والمسيحيين واليهود ، وكانت حركة  
الاستشهاد المسيحي في قرطبة في منتصف القرن الثالث الهجري / رفضا  
للثقافة الإسلامية الزاحفة ، يتضح ذلك من شكوى الفارو وغيره من القسس  
من اقبال مسيحيي الأندلس على الأدب والثقافة العربية واهمالهم الثقافة والأدب  
اللاتيني ، حتى أن الواحد منهم لا يستطيع أن يكتب رسالة بتلك اللغة ، بينما  
كان يتبحر في دراسة العربية وآدابها (٢) .

(١) موريتو ، المرجع نفسه ، ص ٧ ، ٨ ، بالنشأ ، المرجع نفسه ، ص ١٠ ، ٩٥ ، حتى  
الرجع نفسه ، ص ٢ ، ٦٣١ ، رينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٣٥ .  
(٢) بالنشأ ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، جوزي ، ملوك الطوائف ،  
ص ٨ - ٩ .

كذلك كانت هناك أيضا شكوى من أدباء اليهود ، من انصراف أهل ملتهم عن اللغة العبرية فقد جأر ابن جبرول ( ٤١١ — ٤٦٢ هـ — ١٠٢١ م ) بالشكوى من ذلك ، وأخذ يتحسر على انصراف أخوانه في الدين من أهل سرقة عن لغتهم المقدسة ويسميه الجماعة العمياء ، إذ كان بعضهم يتكلم — على حد تعبيره — لغة أيديم ( Edom = عجمية أهل الأندلس ) ، وبعضهم الآخر يستعمل لغة كيدار ( Kedar = اللفة العربية ) . وقد حاول غيره من كتاب اليهود الذين أسخطهم تكلم اليهود بالعربية وتفضيلهم لها على العبرية ، أن يثبت أن هذه الأخيرة لا تقل عن العربية ثروة وجمالا ، فأقبل على مقامات الحريري وترجمها إلى العبرية (٣) .

وقام اليهود والنصارى بعمل دراسات تستهدف النيل من الاسلام والخط من شأنه فقام ابن حزم وغيره ، وهو من أعظم مفكرى الأندلس الاسلامية واثرهم واغناهم فكرا وتاليفا وخاصة في الأديان والمقارنة بينها ، وألف في ذلك كتابا مشهورا يسمى « الفصل في اختلاف الملل والأهواء والنحل » ، وقام هذا المفكر العظيم بخوض المعركة الفكرية الدائرة على أرض الأندلس مع اليهود والنصارى ، واستخدم معرفته للغة اللاتينية في التعمق في قراءة الانجيل والتوراة حتى أن خصومه انتقدوا عليه دراسته لهما ومناظرته لأصحابهما ، لكنه لم يعبأ بذلك وألف الكتب للرد على النصارى واليهود ، من أشهرها كتاب « الرد على ابن النفريلة اليهودى » كما ألف قصيدة طويلة يفند فيها دعاوى النصرانية (٤) .

هذا في الأندلس الاسلامية ، أما في أسبانيا النصرانية فقد أخذ أهلها من العرب واليهود — كما يقول كتاب النصارى المحدثين — الشعور الحساس بالديانة ، وأصبح الدين عاطفة وفنا ، يدل على ذلك تلك الطقوس الكنسية في أي مكان في أسبانيا ، والحماس الدينى لكثير من المفكرين الدينيين الأسبان . وأعطى المسلم واليهودى للأسبان أيضا فكرة الاهتمام بالدين كطريق للتقوية ، ولم يكن هناك رابط قبل ذلك بين الدين والقومية ، ومن

(٣) بالنسبة ، المرجع نفسه ، ص ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٠١ .

(٤) محمد ابراهيم الكنانى ، اثر ابن حزم في الفكر المسيحى ، ص ٧٠ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٠ .

ثم فان دول اسبانيا النصرانية جعلت من هيئة الصليب علامتها الحربية ودليلها القوي ، وخاضت حربا صليبية ناجحة ضد مسلمى الأندلس (٥) .

وفى الواقع فان البابوية والكنيسة الأسبانية ، لا المسلمين ، هما اللتان اعطتا هذا الشعور لنصارى الأسبان ، وهما اللتان دفعتهما دفعا لخوض غمار حرب صليبية ضد مسلمى الأندلس ، وحرمتا عليهم الاشتراك فى الحروب الصليبية بالشرق الاسلامى حتى ينتهوا من أمر مسلمى الأندلس ، لأن حربهم معهم لا تقل شأنًا عن الحروب الصليبية بالشرق . حدث هذه عقب موقعة الزلاقة مباشرة واثاء استعداد أوروبا للحروب الصليبية .

وقد ظهر تأثير الاسلام فيما يختص **بفكرة التوحيد** فى دول أسبانيا النصرانية بطريقة أخرى ، اذ قامت هناك بعض الحركات التجديدية فى تعاليم الدين المسيحى وطوقسه ، وقد اعتبرها البعض حركات الحادية فيها آثار اسلامية ، ففى القرن الثامن قامت حركة الحادية — حسب تعبيرهم — فى سبتمانية وبلاد الغالة القوطية تنكر فكرة الاعتراف المسيحية ، وتنادى بأن الاعتراف لا يكون الا لله وحده وليس للقس . ومن المعروف جيدا أن الاسلام ليست فيه هذه الفكرة ولم تكن المناداة بالغائها عند مسيحيى الشمال الا نتيجة للتأثر بالأفكار الاسلامية المنتشرة ، وقد اعتبر ذلك عداء للكاثوليكية التى تجعل الاعتراف أحد أركانها (٦) .

وبالاضافة لهذه الحركة الهامة قام **Migetus** وبث فكرًا ينكر التثليث ويقترب بذلك من الاسلام ، وأهم من ذلك هو الحركة الخاصة بالتبني والتى تقول بأن المسيح فيما يختص بناسوته انها هن ابن الله بالتبني . وكان الهدف من هذه النظرية هو الحط من شخصية المسيح لتمهيد الطريق للاتحاد بين المسيحيين والمسلمين بزعمهم . وربما تعود هذه الحركة الى آراء مطران طليطلة اليباندوس **Elipandus** وصديق فيلكس **Felix** أسقف مدينة أورجل **Urgel** التابعة لامارة قطلونية ، التى نادى بها

Crow, op. cit, pp. 14, 15.

(٥)

(٦) سون كريمير ، الحضارة الاسلامية ، ص ٢٨ .

عام ١٦٤ هـ / ٧٨٠ م وقال أن المسيح كان رجلا امتلا بالروح المقدسة ، وهكذا تبناه الله واختاره ، مما تسبب في حدوث انشقاق داخل الكنيسة الأسبانية ، بسبب مناقضة تلك الفكرة للعقيدة الكاثوليكية التي تؤمن بعقيدة الثالوث المقدس وبأن المسيح هو الله (٧) .

وقد ذهب تأثير الفكرة الإسلامية في التوحيد الى نواح بعيدة في أوربا ، فلم تكن حركة تحطيم الأصنام بما حوته من أخطاء النتائج — هكذا يقول أحد كتّاب المسيحية — على الإمبراطورية البيزنطية خالية كل الخلو من الأثر الإسلامي ويمكن أن نذكر بهذا الصدد أن كلوديوس الذي عين أسقفا لتورين عام ٢٢٠ هـ / ٨٢٨ م والذي قام بطمس وإحراق وإزالة جميع التماثيل والصلبان في أسقفيته قد ولد وتربى في أسبانيا الإسلامية (٨) .

ولم تتأثر العقيدة الإسلامية في جوهرها بالعقيدة المسيحية وإن كانت هناك بعض الأفكار التي تسربت الى المسلمين في الأندلس نتيجة مجاورتهم للمسيحيين وعيشتهم معا في مكان واحد وعلى أرض واحدة . فردد أحد كتّاب المسلمين فكرة « الخلاص » — وهي فكرة مسيحية — في كتاباته ، اذ يقول حينما يتحدث عن فساد الأديان ، ان حال الناس لا يصلحه الانبياء ، فان لم يكن زمن نبي ، فالحقاضى مسئول عن ذلك كله « فعليه أن يصرح بالحق ، ويجرى الى الصلاح والعدل والتخلص ، وينظر لنفسه فعسى يتخلص » مما يشير على الأرجح الى فكرة الخلاص المسيحية (٩) .

كما أثرت حركة الاستعراب في ذلك الصراع الذي قام بين النصارى المستعربين والنصارى غير المستعربين من قشتاليين وفرنجة بخصوص مسألة المصلوات في القرن الحادى عشر الميلادى . وكان الآخرون يريدون حمل الأولين على استعمال الطقوس الرومانية في الصلاة بدلا من المستعربة ذات

---

(٧) فون كريمر ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ .  
Livermore, op. cit, pp. 79, 80.

انظر ، الفصل الثانى ، الباب الأول ، ص

(٨) فون كريمر ، المرجع نفسه ، ص ٢٩ .

(٩) ابن عيون ، ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة ، ص ٦٠ .

الطابع القوطي ، ولجأوا الى التحكيم ، ورغم أن النتيجة كانت في صالح المذهب المستعرب ، إلا أن الملكة كونستانس زوجة الفونس السادس ملك قشتالة وليون ، وما يخطط بها من رهبان فرنسيو الأصل ، أضروا على استعمال الطقوس الرومانية ، انتصارا لارادة بابا رومة . وقام النصارى المستعربون مدافعين عن طقوسهم فيما يشبه الثورة ، ونادوا بعزل الفونسو السادس الذي لا يحمي طقوسهم ، فأبقى الفونسو على الطقسين معا ، وإن كانت هناك رواية أخرى تقول بأنه استجاب لطلب البابا وقرر العمل بالطقوس الرومانية فقط (١٠) .

وكان الفونسو السادس قد اتخذ طليطلة عاصمة لمملكة ليون وقشتالة بعد أن سقطت في يده عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . وكانت تلك المدينة الهامة وعاصمة القوط القدامى قد أصبحت شيئا فشيئا مركزا للثقافة الاسلامية في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، بعد أن ضرب البربر قرطبة في أوائل ذلك القرن ، وبقي لها هذا المقام بعد الغزو المسيحي لها عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، فكان بلاط الفونسو السادس مصطبغا بالثقافة الاسلامية ، بل إن الفونسو هذا أعلن نفسه « امبراطور الملتين » أو العقيدتين ، وأصبحت طليطلة محجة يفد اليها طلاب العلم من شمال اسبانيا ومن كل أنحاء أوروبا (١١) .

وكان كثير من اذكفاء الجلالة والقشستالين والليونيين والنافاريين يتعلمون العربية ويقصدون حكام الأندلس ليعملوا في الادارات المختلفة ويحتلّون بأشراف العرب ، وتجرى عليهم أحكام الاسلام ، ومن ظل منهم محتفظا بدينه نسي مبادئه وصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدى بأزيائهم وألسنّتهم وعاداتهم في مآدبهم ورفاهيتهم وأنسهم ولهوهم ، وقد نبغ نفر منهم ووصلوا الى منصب الوزارة (١٢) .

(١٠) روبرتسون ، آتحاف الملوك ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

شكيب أرسلان ، الحلل ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .

(١١) ابن صاعد ، طبقات الامم ، ص ١٧ ، ترند ، المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(١٢) محمد كرد علي ، المرجع نفسه ، ص ٣٩ .

٢ ولم يقتصر الأمر على قتل نصارى الشمال الأسباني الى قرطبة  
 لتلقى العلم أو للعمل فيها ، بل وفد اليها كثير من أبناء أوربا كما أشرنا من  
 قبل ، وكان من أوائل هؤلاء الوافدين جريوت ( البابا سلفستر الثاني )  
 عام ٣٨٩ هـ / ٩٩٩ م ، وقد ظل في قرطبة مدة ثلاث سنوات ( ٣٥٦ —  
 ٣٥٩ هـ / ٩٦٧ — ٩٧٠ م ) يستقى العلم والمعرفة ، ولما عاد الى أوربا  
 كأول سفير للعلم العربى أدهش الناس بما حمله اليهم من عجائب الفلك  
 والرياضيات والحساب وعدوا ذلك من أعمال السحر والشعوذة (١٣) .

وقد سبقت الإشارة الى استعراب السيد القبيطور ، وقيامه  
 بالاستيلاء على بلنسية العربية عام ٤٨٧ هـ . ومن المرجح جدا أن السيد  
 كان يتكلم العربية بطلاقة في حفلات القصر في بلنسية ، وأن السفراء  
 المسلمين والنصارى كانوا يتنافسون بين يديه — كل بلغته — في انشاد  
 أشعارهم . وهناك ملك آخر من ملوك الشمال الأسباني ، وهو بدور الأول  
 ابن الفونسو ملك أرغونة المتوفى عام ١١٠٤ م ، وكان هذا الملك من دعاة  
 العلوم العربية ، وكان لا يحسن الا العربية كتابة ولا يوقع رسائله  
 الا بها (١٤) .

وسبقت الإشارة أيضا الى طلب الفونسو بايقاد اثنين من علماء  
 قرطبة لتأديب ابنه وولى عهده شانجة ( سانشو ) ، وكان بلاط الملك يحتوى  
 على أدباء من المسلمين واليهود المستعربين يكتبون له خطابات الى ملوك  
 دول الطوائف ويتخذ منهم سفراء اليهم ، بل انه كان يصحب في جيشه عددا  
 منهم جريا على عادة الملوك فى الأندلس . وقد قام بعضهم بمدحه فى قصائد

---

(١٣) Pidal, Espanay la introduccion de la cincia arabe en Occidente, p. 13.

(١٤) Vellicrosa, El quebacer astronomico de la Espana Arabe, p. 312.

غويستان لوبون ، المرجع نفسه ، ص ٥٩٠ .  
 Pidal, op. cit, p. 14.

(١٤)

من الشعر . وإن دل هذا على شيء فأنما يدل على تفوق الثقافة الإسلامية وانتشارها في جميع أرجاء شبه الجزيرة (١٥) .

وكانت هناك حركة للترجمة نشأت في عدة مدن إسلامية ، ولكن أهم هذه المدن كانت طليطلة وخاصة بعد سقوطها في يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م . كانت هذه المدينة عامرة بالمكتبات العربية ، وكان يقطنها جماعات ثلاث : المسيحيون والعرب واليهود . وقد قام الأجيرون بدور الوساطة بين المسيحيين والعرب ، ثم بدأت حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ثم إلى الأسبانية ، وذلك بدءا من أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (١٦) .

وكان مسلمو الأندلس قد نشطوا قبل ذلك في ترجمة الكتب الإغريقية واللاتينية إلى العربية ، ومن أمثلة ذلك كتاب ديو ستوريدس في الطب الذي أرسله الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وقام نفر من عجم الأندلس بنقله إلى العربية ، كما قاموا أيضا بنقل كتاب هورشيوس Horasius الروماني في التاريخ إلى العربية في عهد الحكم المستنصر بن الناصر ( ٣٥٠ - ٣٣٦ هـ ) على يد أحد فقهاء قرطبة وأحد قساوستها المستعربين ، وبنى عليه أحمد بن محمد الرازي ما كتبه في الجغرافية التاريخية فيما بعد (١٧) .

ومما ساعد على رواج حركة الترجمة إلى العربية ومنها إلى اللغات الأخرى ، وجود عدد وافر من العلماء والأدباء المسلمين كانوا على معرفة باللغات الأجنبية ، وخاصة في القرن الخامس الهجري الذي ازدهرت فيه العلوم والآداب الإسلامية ازدهارا كبيرا . من هؤلاء عبد الدايم بن مروان ابن جبر اللغوي نزيل ألمرية ( ت ٤٢٦ هـ ) وعاصم بن أيوب الأديب ، من

(١٥) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١٠ ، ص ٥٦ ، المقري ، نفع الطيب ، ج ٢ ، ص ٣٠٤

— ٣٠٥ —

Pidal, op. cit, p. 14, Crow, op. cit, p. 96. (١٦)

Vallicrosa op. cit, 310. (١٧)

مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون في الأندلس ، ص ٢١٦ ، ٢٣٤ ، ٢٥١ .

أهل يطلبيوس (ت ٩٤ هـ) ومحمد بن موسى بن فتح الأنصاري من أهل يطلبيوس (ت ٦٠ هـ) ، هشام بن محمد بن هشام بن محمد القيسي المعروف بابن الصحنى ، من أهل قرطبة ، (ت ٤٤٠ هـ) ، ويوسف بن عيسى بن سليمان النحوى من أهل شنتمرية الغرب (ت ٤٧٦ هـ) (١٨) .

وليس بغريب أن يعرف أدباء قرطبة وغيرها من جواضر الأندلس الأخرى اللغة اللاتينية أو لهجاتها الأخرى التى عرفت بالقشتالية أو البرتغالية أو القطلونية ، والتى دخلت فيها آلاف وآلاف من الكلمات العربية ، فقد كانت بلاد الأندلس وطنا تتعايش على أرضه اللغة العربية واللاتينية ، وأصبح الناس هناك يتكلمون الى جانب العربية التى كانت لغة رسمية ، رطانة لاتينية دارجة يسميها ابن حزم اللطينية ، ويصنفها البعض بعجمية أهل الأندلس ، كانوا يستخدمونها فى شئونهم اليومية وأحاديثهم فيما بينهم ، بل انها كانت شائعة حتى فى بلاط الخلفاء (١٩) .

وكان بعض القضاة يعرفون تلك اللغة ويتكلمون بها ، كما تلقب كثير من الناس بألقاب أعجمية مثل البطرة شقه أو البطرشك ، وهى كلمة مأخوذة من Petra Sica ومعناها الحجر اليابس باللاتينية أو Piedra Seca بالأسبانية ، وهناك من تلقب بابن البانش أو البينش . وقال ابن الأبار أن معناها بالعربية الرجلان لكننا وجدنا أن الكلمة مأخوذة من لفظ Pensionario الأسبانية ومعناها الأديب ، يؤيد ذلك أن لفظ البانش كان لقبا لعلى بن أحمد بن خلف الأنصارى ، وكان نحويا أديبا ، مات بقرطبة ٥٢٨ هـ (٢٠) .

- 
- (١٨) ابن بشكوال ، الصلة ، ١ ، ص ٣٧٢ ، ٢ ، ص ٤٢٧ ، ٥١٣ ، ٦١٣ ، ٦٤٣ .  
 (١٩) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ ، بالثنيا ، المرجع نفسه ، ص ٥٩ .  
 مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٦ ، تردد ، المرجع نفسه ، ص ١٣ ، ١٤ .  
 (٢٠) ابن حزم المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٩٠ ، الخشنى ، قضاة قرطبة ، ص ٩٦ ، ١١٨ .  
 ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ١ ، ص ٢١٥ ، المعجم فى أصحاب أبى على الصيرفى ، ص ٢٧٤ ، ٢٢ ، ٣٤ ، ٦٢ ، ١٢٢ ، ١٢٨ ، ١٦٦ ، ٢٢٦ ، القرى ، المصدر نفسه ، ٢ ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

Diccionario Espanol Arabic, p. 352.



وقد بلغت معرفة الناس باللغة العجمية الأندلسية مبلغا جعلهم يستخدمونها في الاحتيال لكسب المال أو في الحرب ، فقد كان بعض تجار الرقيق الفشاشين يستخدمون بعض النسوة الأندلسيات اللاتي يجدن الكلام بالعجمية ويلبسوهن ملابس سبايا الروم ويبيعونهن على أنهم كذلك . كما حدث في أحد حروب المقتدر بن هود مع راميرو ملك أرغونة أن تعرض للهزيمة في إحدى المواقع لكن فتاه المسمى سعداره ، وكان رجلا شجاعا ، لبس زى الروم واستخدم مهارته اللغوية في الرومية والعجمية ، اذ كان يتكلم نفس لغتهم لجاورتهم وكثرة مخالطتهم واحتال حتى دخل بين جنود راميرو ، واقترب منه حتى تمكن من طعنه ، وصاح بالرومية : قتل السلطان يا معشر الروم . فتخاذل عسكره وولوا منهزمين ، وانتصر المقتدر بذلك الحيلة اللغوية (٢١) .

وكما اشتكى اليهود والنصارى من أهل ملتهم أنهم قد تركوا لغتهم وانكبوا على العربية ، كذلك كان لبعض كتاب المسلمين نفس الشكوى ، فقد رفع ابن شهيد ( ت ٤٢٦ هـ ) عقيرته لائما على المسلمين عيهم في الكلام بالعربية وأن لغتهم « ليس لسيبويه فيها عمل ، ولا للفراهيدي اليها طريق ، ولا للبيان عليها سمة ، انما هي لكنة أعجمية يؤديون بها المعانى تأدية المجوس والنبط ، وأنهم تحولوا الى العامية الصريحة وغلبت عليهم العجمة » (٢٢) .

ورغم أن علم النحو كان من العلوم الهامة في الأندلس الا أن كلام أهلها الشائع سواء عند العامة أو الخاصة ، كان كثير البعد عما يقتضيه الأسلوب العربي السليم ، حتى لو أن أحدا سمع كلام الثلوبيني الذي كان يشهد له بتفوقه في علم النحو في مشارق الأرض ومغاربها ، لضحك بملء فيه لما في كلامه من شدة التحريف . ولذلك اقتصر استعمال العربية النصحي على الأدب والمكاتبات الرسمية ، ولم يعد من الناس من يتكلمها الا استثقلوه

(٢١) الطرطوشي ، سراج الملوک ، ص ١٥٦ ، السقطي ، آداب الحسبة ، ص ٥٤ ، ٥٥ .

(٢٢) ابن شهيد برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ص ٢٢٩ ، ابن حيان برواية ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ص ٥٠ .

« واستبردوه ، ولم يكن ذلك الا بسبب مجاورتهم ومخالطتهم للفرنجة والأسبان الذين اثروا في لغتهم وفي طريقة ادائها ، فقد كانوا يكترون من الامة والترقيق والتفخيم ، ولا يعتقدون حرف القاف وانما ينطقونه « كافا » (٣٣) .

وقد أشار ابن حزم الى ذلك وقال عن اهل ( بلى ) شمال قرطبة انهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، وكان الكلام بها كان شيئا عاديا . كما قال عن اهل فحص البلوط ، وهم على بعد ليلة واحدة من قرطبة ان « من سمع لغتهم يقول انها لغة اخرى غير لغة اهل قرطبة » ويعمل ذلك قائلا : « وهكذا في كثير من البلاد ، فانه بمجاورة اهل تلك البلدة بأمة اخرى تتبدل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمله » مما يؤيد ما ذهبنا اليه من اثر الجوار والاختلاط في اللغة والأدب (٣٤) .

وقد ظهر تأثير عجمية اهل الأندلس او الأسبانية المحلية في فنين أدبيين عظيمين قاما على يد اهل الأندلس وأولهما وهو الموشحات التي ابتكرها مقدم بن معاذ القبري الضير ( ٢٢٥ - ٢٩٩ هـ / ٨٤٠ - ٨١٢ م ) ، وثانيهما الزجل الذي ظهر على يد ابن عبد ربه ( ت ٣٥٦ ) والرمادى ( ت ٤١٢ هـ ) ، لكه ذاع وانتشر على يد ابن قزمان ( ٤٦٠ - ٥٥٤ هـ / ١٠٦٨ - ١١٦٠ م ) . ورغم أن الموشحات كانت الفاظها عربية فصيحة الا انها تخلصت من القافية الموحدة للقصيدة ، وكان القبري « يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ويضع عليه الموشحة » (٣٥) .

واللرکز هذا كان يسمى الخرجة أو ( القفل ) وهى أهم جزء فى الموشح ، وواضح أن الخرجة كانت تكتب فى لغة عامية أو عجمية . ووجود الخرجات الأعجمية فى مخطوطات الموشحات الأندلسية دون شرح لمعانى الفاظها ، دليل على أن هذه اللغة الأعجمية كانت معروفة لدى قراء الموشحات ، وهى تساوى فى الدلالة الخرجات العامية ، مما دعا البعض الى القول بوجود أصل مشترك بنيت عليه الموشحات ، وهذا الأصل يعود

(٣٣) المرقى ، المصدر نفسه ، د ، ١ ، ص ١٠٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٣٤) ابن حزم ، الأحكام ، د ، ١ ، ص ٣١ ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٣٥) ابن بسام ، الفخيرة ، ق ١ ، د ٢ ، ص ٢٠١ .

إلى أغاني في العامية العربية وفي العامية الأعجمية ، لأن اللغتين عاشتا في البيئة الأندلسية جنبا إلى جنب ، وواضح أن تلك الخرجات أخذت من تلك الأغاني العجمية التي امتد تأثيرها إلى العامية العربية في أغانيها ، ثم إلى العربية الفصحى في موشحاتها (٢٦) .

أما الزجل فقد كان كله باللغة العامية المختلطة باللغة الأعجمية أو الأسبانية ، وكان تطورا نتج عن الموشحات التي شاع استعمالها في الأندلس في ذلك الوقت ، فقد نسج العامة على منوالها واستحدثوا فن الزجل الذي لم يلتزموا فيه بالقافية ، وإنما التزموا فيه بالنظم على مناحيهم وحسب لغتهم المستعجمة (٢٧) .

ومن المحقق — أخيرا — أن الزجل أسباني ، لأنه يتحدث عن أعياد ومواسم لا توجد إلا في التقويم اللاتيني ، ولاستعماله الفاظا وعبارات من عجمية الأندلس مختلطة بلغته العربية الدراجة ، إلى جانب أماله للموضوعات الأدبية العربية التقليدية كوصف الرحلات في القفار المهجورة وحياة البداوة وانتقل والارتحال والبكاء على الأطلال إلى غير ذلك ، واهتمامه بتصوير الحياة اليومية لمسلمي الأندلس والتي فيها ذكر كثير لعادات المستعربين وحياتهم (٢٨) .

وكما تأثر أدب الأندلس في لغته وزجله ومشحاته باللغة الأعجمية أو الرومانية أو الأسبانية وهي لغة مشتقة من اللاتينية كما سبق القول ، فقد أثر الأدب الأندلسي نفسه ولغته العربية في لغة الممالك النصرانية في شمال أسبانيا وآدابها أيضا .

ذلك أنه عقب ظهور الموشحات والأزجال في الأندلس ، ظهر شعر يشبهه عند الأسبان في الشمال وفي مقاطعة بروغانى في جنوب فرنسا ،

(٢٦) عبد العزيز الهماني ، الزجل في الأندلس ، ص ٦ ، ٧ ، ٤٧ ، ٥١ .

(٢٧) المقرئ ، نفح الطيب ، د ٤ ، ص ٢٠٠ ، أزهار الرياض ، د ٢ ، ص ٢١٦ .

(٢٨) بالنشيا ، المرجع نفسه ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ .

وسمى هذا الشعر عندهم باسم شعر التروبادور أو التروفير حسب اللهجات الفرنسية ، وباسم الجو جلاديس حسب لغة أهل قشتالة من الأسبان . ويمتاز هذا الشعر بأنه شعر عاطفى يوقع على الآلات الموسيقية مثل الزجل ، ويقصدون به البيوت الأرستقراطية والبلاط الملكى (٢٩) .

وقد اختلف المستشرقون والباحثون كثيرا فى منشأ هذا الشعر ، هل هم أخذوه عن مسلمى الأندلس ، أم أنه تطور طبيعى للشعر عندهم ؟ والأرجح عند كثير منهم أنه مأخوذ عن مسلمى الأندلس ، أو أن هناك قرابة بينهما على الأقل . ذلك أن هناك تشابه فى موضوعات هذا الشعر وشعر الزجل الأندلسى ، كما أن بعض أوزان هذا الشعر الأفرنجى قشتالى يساوى أوزان الموشحات والأزجال الأندلسية ، أضف الى ذلك ، التماثل فى ترتيب الأبيات وتعاقب القوافى ، مما يدل على التأثير الذى لا شك فيه بين هذين النوعين من الشعر (٣٠) .

وقد لعبت سرقسطة فى هذا المجال دورا كبيرا ، ذلك أنها كانت مهبطا لفرسان النصارى من كل جنس ، يجدون فى بنى هود وفى بلاطهم الباذخ ساحة رحبة ، فى الوقت الذى كانت فيه سرقسطة مركزا لأشعار الفروسية والشعر الغنائى الذى كان ينشر يومئذ فى أرجاء قلطونية وأرغونة ونيرة ، ومنها كانت تنتقل المقطوعات الغنائية الأندلسية الى المجتمعات النصرانية الجاورة ، فتؤثر فى الملاحم والانشيد القومية ، وقد انتقلت هذه المؤثرات فيما بعد بمضى الزمن عبر جبال البرنات الى جنوبى فرنسا ثم الى غيرها من المجتمعات النصرانية (٣١) .

كذلك يرجع ظهور فن شعر الحب العذرى فى اللغة الاسبانية منذ القرن الثاثنى الهجرى / القرن الثامن الميلادى الى تأثير الشعر العربى ، كما أن

(٢٩) ليفى بروفنسال ، أدب الاندلس وتاريخها ، ص ٢٤ ، ٤٥ ، الاسلام فى المغرب والاندلس ، ص ٢٨٣ .

Pidal, Espana coma Elebon entre el cristianismo el Islam, pp7-10

(٣٠) أحمد أمين ، ظهر الاسلام ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣١) غنان ، دول الطوائف ، ص ٢٩٦ ، لين بول ، قصة العرب فى اسبانيا ، ص ١٢٧ .

الشعر القصصى الأسباني الذي يتمثل في قصيدة السيد القمبيطور ذو أثر إسلامى واضح ، فمن المحتمل أن قائلها كان راهبا أسبانيا يعيش في مملكة سرقسطة الإسلامية أو مستعربا من بلدة مدينة سالم ، وقد فرغ منها عام ٥٣٥هـ / ١١٤٠م أى بعد وفاة القمبيطور بأربعين عاما . وهى تدور حول حياة ذلك الفارس المغامر الذى كان يتقلب بين ملوك أسبانيا النصرانية وملوك الأندلس الإسلامية وأصبحت بطولته ومغامراته مادة خصبة تثير خيال الشعراء والأدباء منذ ذلك الحين (٣٢) .

**أما في ميدان اللغة والمفردات اللغوية ،** فيقول بعض الباحثين المحدثين أن المفردات العربية التى دخلت الى الأسبانية تقدر بربيع محسويات القاموس الأسباني ، بينما دخلت الى البرتغالية حوالى ثلاثة آلاف كلمة عربية ، واللغة القطلانية أيضا فيها الكثير من الألفاظ العربية ، ولم يكن ذلك الا بسبب أن طوائف من المسلمين أنفسهم اتخذوها في لغتهم وأطلقوها على أشياء سموها بها ، وانتقلت هذه الأشياء بمسمياتها الى نصارى الشمال ودخلت في لغتهم (٣٣) .

وعلى سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، فان كلمة فندق هى Fonda وطاحونة Tahona وتعريف Tarifa والأرز El Erros والسكر El Azucar والساقية Acequia والخزانة Alacena والمخدة Almohada والدكان Adoquirin والكروى ( الإيجار ) Alquilier والقاضى Alcalde والقبعة Alcoba والبناء Albanil والقطران Alquitran وفلان Fulano . ومن الكلمات التى دخلت البرتغالية ولم تستعمل أصلا في الأسبانية الحديثة ، القطيفة A leatifa الفندق Alfandaga الخياط Alfaiate وصحراء Safara والرطل Arretel التى غير ذلك (٣٤)

(٣٢) حتى ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٦٨ ، بالنثيا ، المرجع نفسه ، ص ٥٣ .

(٣٣) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٩ ، محمد كرد على ، المرجع نفسه ج ١ .

ص ٢٣٤ ، الأسلان ، المرجع نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣٤) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ .

وبشكل عام فإن أسماء الجبال والتلال والجزر والشواطئ الرملية والأنهار والبحيرات والينابيع الحارة ، والسهول والحقول ، والغابات والحدائق والأزهار والأشجار ثم الكهوف والمناجم ، والألوان ومنشآت الإنسان كالزراع والقرى والمدن والأسواق والمساجد ، والطرق المرسوفة والقناطر والقلاع والحصون والمطاحن والأبراج ، كل هذه أصبحت أعلاما جغرافية مأخوذة عن العربية (٣٥) .

لفظة جبل تظهر في جبلكون Jabalcon وجبرالين Gibraltin وجبل الفارو Gibralfaro وكلمة الدور أصبحت اسما للمدينة المسماة Aimoda var del Rio وتظهر كلمة وادي في معظم أسماء الأودية مثل الوادي الكبير Guadalquivir ووادي الحجارة Guadalajara ووادي المدينة Guadmedina ووادي الرملة Guadarrama ، ومجموعة مصطلحات الري والهندسة المعمارية والحقلى كلها ذات أسماء عربية وعلى الجملة فقد أخذت الأسبانية من العربية الكثير ، وإذا كان التأثير الأسباني والرومانى على اللغة العربية عميقا فقد كان تأثير العربية على الأسبانية لا يقل عمقا بل كان أعمق منه بكثير (٣٦) .

وإذا كان المستعربون واليهود هم أداة الاتصال بين الثقافة الإسلامية والثقافة المسيحية الأسبانية ، أو بتعبير آخر كانوا هم الذين دفعوا حركة الاستعراب دفعا الى الشمال الأسباني ، فإن المدن التى سقطت فى يد نصارى الأسبان مثل طلمنكة وطليطلة وبرشلونة وغيرها بقيت مدنا تعيش فيها العربية التى كان يتكلمها المدجنون والمستعربون لعدة قرون بعد سقوط تلك المدن ، وكان هناك من علمائها وأدبائها المسلمين من فضلوا البقاء فيها ، ربما لمخمن قد يصيبونه من العلاقة الجديدة

(٣٥) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٤٧ ، ٥٠ .

(٣٦) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٤٧ ، ٥٠ ، محمد الفاسى ، الإعلام الجغرافية الاندلسية ،

ص ١٤ ، عبد العزيز بن عبد الله ، العربية لغة العلم والحضارة ، ص ٢٦١ .

التي يمكن أن تنشأ بينهم وبين الحكام الجدد ، أو حفاظا على أملاكهم  
وعقاراتهم وعدم التخلي عنها (٣٧) .

وقد التزمت كتب الطبقات بالصمت عن ذكر هؤلاء العلماء والأدباء  
الا في التليل النادر جدا ، لأن تلك المدن لم تعد ديار اسلام حسب تعبير  
أحد أصحاب الطبقات، ولم نعثر في طليطلة مثلا الا على ترجمة لاثنين  
من علمائها بعد سقوطها في يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م  
اولهما هو أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الأنصاري ، وله كتاب  
في تاريخ فقهاء طليطلة وقضاتها اخبر به الحاكم أبو الحسن بن بقى  
وغيره ، ونقل عنه ابن بشكوال في كتاب « الصلة » كل ما نسب اليه ،  
ويقول عنه انه كان ثقة فيما رواه ونقله ، وتوفي ابن مطاهر هذا  
في طليطلة عام ٤٨٩ هـ ، اي بعد سقوطها في يد النصارى باحدى عشرة  
سنة (٣٨) .

أما الثاني فهو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن جواهر الحجري ،  
من اهل طليطلة وكان من أهل العلم والفكر ، رحل الى الحج عام ٤٥٢ هـ  
وسمع العلم بمكة ومصر ثم عاد الى وطنه وبقي في طليطلة حتى توفي بها  
عام ٤٨٨ هـ أيام حكم النصارى لها . من هذا نفهم ، أنه لم يكن هناك  
مانع من عودة المسلمين الى البلاد التي استردها نصارى الشمال اذا ما  
خرجوا منها للحج أو خلافة ، وظل هؤلاء يعيشون بين ظهرائى النصارى  
وسموا بالمدجنين ، وكانوا عاملا أو رافدا أو قناة من قنوات الاتصال بين  
الثقافة الاسلامية المتفوقة وبين الثقافة المسيحية الاسبانية الناشئة (٣٩) .

لم يقتصر التأثير والتأثر على مجالات اللغة والأدب والأفكار والمعتقدات  
الدينية كما سبق القول ، بل كان هناك تأثير في مجال العلوم الأخرى  
مثل الطب والرياضيات والفلك . فالأسقف Recisnundo والذي

(٣٧) بالنشيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٨ .

(٣٨) ابن بشكوال ، الصلة ، د ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٣٩) ابن بشكوال ، الصلة . د ٢ ص ٥٣١ ، ٥٣٢ .

يسميه العرب بربيع بن زيد والذي كان في خدمة عبد الرحمن الناصر وكان سفيره الى الامبراطور أوتو امبراطور المانيا ، وضع كتابا في التقويم الفلكي نشره دوزي ، ووجد ان هذا التقويم الذي كتبه ربيع باللاتينية ما هو الا ترجمة لتقويم عريب بن سعد مع بعض الزيادات ، ولاشك ان هذا الكتاب الفلكي اللاتيني قد وجد طريقه الى اسبانيا النصرانية (٤٠)

وكانت الثقافة اللاتينية حتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، بعيدة عن ذلك النشاط العلمى ، ولم يكن لأصحابها علم واسع بالحساب أو الرياضة كالعرب ، وما كانوا يعرفونه في هذا المجال لا يعدو الا أن يكون جهودا أولية بجانب ما ظهر عند مسلمى الأندلس في ذلك الوقت . ولذلك فليس من الغريب أن يحمل مستعربو الأندلس هذا العلم الى ممالك أرغونة وليون وكوتية برشلونة(٤١) .

وقد عثر الأستاذ بيكروسا على مخطوط هو الآن أحد مخطوطات مكتبة ريبول في محافظة برشلونة ، ويحمل رقم ٢٢٥ ، وهو مجموع عظيم من المقالات في الفلك والرياضيات مترجمة من العربية الى اللاتينية والترجمة اللاتينية نفسها حافلة بالمصطلحات العربية واستنتج هذا الباحث من دراسة ذلك المخطوط ان الفلك والرياضيات كانت مزدهرة في الأندلس قبل أيام الحكم المستنصر ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ، وازداد هذا الازدهار بعد ذلك على يد مسلمة المجريطى ومدرسته التى ازدهرت على يدها تلك العلوم في القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، كما ظهر أيضا في ذلك الوقت في طليطلة الزرقالى الطليطلى والذي يعد أعظم فلكى عرفته أوربا قبل يوحنا كبلر(٤٢) .

أما الطب فقد نبغ فيه كثير من الأطباء النصارى واليهود فى الأندلس الاسلامية ، وكانوا فى البداية يعتمدون على بعض الكتب النصرانية المؤلفة

(٤٠) بالنشيا ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

Villicrosa, op. cit., p. 312

Villicrosa, op. cit., p. 312

(٤١)

Villicrosa, op. cit., pp. 312,313

(٤٢)



في غروع الطب وليس في أصوله ، الى ان ظهر بينهم من اعتمد على الأصول  
مثل كتب ابقراط وجالينوس وغيرهم . ومن أشهر الأطباء في الأندلس  
حسدای بن اسحاق ، الذي كان وزيرا وسفيرا لعبد الرحمن الناصر ،  
ولازلنا نذكر سفارته الى الملكة طوطة ملكة ( نبرة ) وعلاجه لحفيدها  
سائشو ملك ليون ، بعد أن عجز اطباء الشمال النصراني عن ذلك (٤٣)

وهناك مجال ظهر فيه مسلمو الأندلس الاسلامية وهو الفنون  
الزخرفية من نحت ورسم وتصوير وزخرفة على العاج والمعادن وقد  
تأثروا فيها بالفن النصراني ، فقد اقتبسوا من فنون القوط والفرنجة  
والبيزنطيين والبنادقة لكنهم كانوا مبتكرين منشئين لفن اسلامي زخرفي  
محض أثر في غيرهم سواء في دول اسبانيا النصرانية أم في غيرها من دول  
أوربا . وكان الاحتكاك مستمرا في هذا المجال بين الفنانين الأندلسيين  
وبين الفنانين البيزنطيين الذين أوفدهم أباطرة بيزنطة للاشتراك في تزيين  
ونقش المساجد والقصور والحمائم الأندلسية على عهد الخلافة ،  
ونتج عن ذلك أن بلغ الفن الاسلامي الأندلسي أوج ازدهاره في القرن  
الرابع الهجري (٤٤) \*

وكان عرب الأندلس أسبق الأمم الاسلامية في صنع التماثيل والصور ،  
وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث الهجري بالتماثيل والصور  
والنقوش التي تمثل الحيوان والنبات والطير ، أما التماثيل والصور البشرية  
فكانت تلقى نوعا من التحريم العام . لكنه في عصر عبد الرحمن  
الناصر ( ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) خطا الفن الأندلسي خطوة أخرى ، اذ  
صنعت التماثيل والصور البشرية ، فقد أمر الناصر برسم صورة جاريته  
وحظيته « الزهراء » على باب قصر المدينة التي سماها باسمها ، كما  
زينت أبهاء قصورها بتماثيل وصور بشرية فكانت ظاهرة فنية جديدة (٤٥) .

(٤٣) ابن صاعد ، طبقات الامم ، ص ٧٨ ، انظر الفصل الثالث ، الباب الثاني ص

(٤٤) عنان ، نهاية الاندلس ، العصر الرابع ، ص ٣٨٣ ، أحمد أمين ، ظهور الاسلام ،

ص ٣٢ .

(٤٥) عنان ، المرجع نفسه ، العصر الرابع ، ص ٣٧٨ ، أحمد أمين ، المرجع نفسه ،

ص ٣٠٠ .

وفي ميدان التصوير ، يمكن أن نميز بين ثلاثة أساليب ، الأول الأندلسي الطليطلى ذو الصفات الإسلامية الشرقية ، والثاني القطوني ، وهو صدى للاروبي والثالث القشتالي الليوني ، وهو مزيج من الاثنين مع احتفاظه ببعض خصائصه . والمقصود بالتصوير هنا هو « صور المخطوطات » وقد ظهر في هذا الفن أثر المستعربين بصورة قوية جدا على يد ماخيو الذي ترك اسمه مدونا في خاتمة تفسير الكتاب الأخير من العهد الجديد المعروف بكتاب الرؤيا الذي أتمه في عام ٣١٤هـ / ٩٢٦ م .

وقد أصاب هذا الفنان نجاحا عظيما حتى أن مصوري ليون وقشتالة ظلوا يسيرون على منواله حتى أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي<sup>(٤٦)</sup> .

وبتحليل فن ( ماخيو ) نلاحظ أن كل ما يتعلق بهمن أساليب فنية في العمارة والزخرفة قد ورد كاملا من الأندلس وهو مستعرب ، ولعله تعلم طريقة التلوين بالماء من هناك ، كما يستدل على ذلك من اشار تاريخية في الانجيل الاشبيلي ، ولم يأخذ شيئا من الزخارف الشمالية ، ولا من تلك التكوينات الموجودة في البوابات والأشكال ذات الأثر الأوربي ، وانما استوحى فنه من الفن المستعرب<sup>(٤٧)</sup> .

واذا كان ماخيو قد أحدث ثورة في تنسيق المخطوطات بأراضي ليون ، فان هناك راهبا آخر في قشتالة أضفى على الخط المستعرب رشاقة وجمالا يجعل من خطوطه المع خط في عصر الخلافة ذلك هو « فلورنثيو » الذي ولد عام ٣٠٦هـ / ٩١٨ م واخذت تظهر براعته منذ عام ٣٣١هـ / ٩٤٣م ، وكان فنه الزخرفي مشرب بالروح المستعربة خاصة في استخدام عقود حدوة الفرس والتوريقات والنقوش العربية الكوفية<sup>(٤٨)</sup> .

(٤٦) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٧٠ ، ٤٧٦ .

Aznar, Los constants del arte espanol, pp. 3-7.

(٤٧) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٣ .

(٤٨) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ .

وكان الخزف المزخرف في عصر الخلافة قد ازدهر ازدهارا كبيرا ، بحيث تجاوز في قيمته الفن المسيحي الأوربي بما في ذلك الفن البيزنطي . وقد أدى ذلك الى نشاط تجارة الصادرات من هذا النوع من الصناعات الفنية الى شمال اسبانيا والى دول حوض البحر المتوسط كما أدى الى ظهور مصانع للخزف في اسبانيا النصرانية في ترويل Teruel وقطلونية Paterna وكذلك في بروفانس بجنوب فرنسا<sup>(٤٩)</sup> .

وكانت هناك بعض التحف الفنية التي تصنع من العاج ، وتوجد منها اثنتان محفوظتان بسان ميان دي لاكوجيا San Millan de la cogolla تمثل تغلغل الطابع الأندلسي بشكل واسع وتتسم بتأثير من قرطبة ، ومن الممكن أرجاع صناعتها الى عام ٣٣٦ هـ / ٩٤٨ م وهو تاريخ تدشين هذه الكنيسة . والتحف الأولى عبارة عن صليب للاحتفالات الدينية ذي حجم كبير ، والثانية مذبح متقل عليه نقش بلغة مستعربة ورسوم حيوانات صغيرة الحجم بين توريقات مثلما كان موجودا في الآثار الماضية التي ترجع الى عصر الخلافة<sup>(٥٠)</sup> ولا يزال في الفن الروماني الاسباني ما يدل على صلته بالفن الأندلسي مثلا في المعادن الثمينة المزخرفة بالمينا السوداء ، والذي ظهر في بقايا نقش مضغوط لكتابات كوفية كما في الصندوق المقدس ، وثمة قطع أخرى مماثلة يصعب قراءة ما بها من نقوش مثل العلبة الصغيرة المنسوبة الى المطران اريانو Ariano ، وكلاهما محفوظ في أبيت Oviedo وترجمان الى حوالي سنة ١٠٧٥ م / ٤٦٩ هـ ، ومن الملاحظ أن الاتجاه العربي في تلك الفنون كان محببا ولم يثر نفور المسيحيين ، فقد هذب الذوق الفني في دول اسبانيا النصرانية في ذلك الوقت<sup>(٥١)</sup> .

(٤٩) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ .

(٥٠) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٥١) مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٧ .

## ٥ - التأثيرات الحضارية في ميدان الحياة الاقتصادية

### ١ - الزراعة :

بلغت الزراعة والصناعة والتجارة في الأندلس الإسلامية ، وخاصة في عصر الخلافة الأموية شأوا عظيما من التقدم والازدهار ، نظرا لعامل الاستقرار والأمان الذي حققه عبد الرحمن الناصر وخلفاؤه من بعده بعد أن أخضعوا نصارى الشمال وعقدوا معهم معاهدات السلام .

والأندلس بطبيعتها قطر يمكن أن يحقق الاكتفاء الذاتي لسكانه ، بسبب تنوع موارده وتباين أقاليمه المناخية واختلاف مواسم سقوط المطر في شرق الأندلس عن غربه ، لذلك تنوعت المحاصيل الزراعية واستمر ظهور الفاكهة على مدار العام ، وكثرت محاصيله وفاكهته حتى صدرت الى ممالك اسبانيا النصرانية وغيرها من دول العالم الأخرى .

وقد عبر عن هذه النظرية في الاكتفاء الذاتي الذي تتمتع به الأندلس الخليفة المنصور بالله العباسي عندما قال عن عبد الرحمن الداخل « ماذا يقال في رجل يركب من انتاجه ويلبس من ديباجه ، وينفق من خراجة (١) » .

وكان هذا الاكتفاء أمرا ضروريا لمن يقيم سياسته على الاستقلال بتلك البلاد ، وعلى جهاد أعدائها سواء من نصارى الشمال أم مسلمى المغرب وأفريقية من الفاطميين والعباسيين . ولهذا فقد عمل حكام الأندلس أقصى ما في وسعهم لاستغلال ثروات البلاد ، فاستصلحوا الأراضي وأقاموا المصانع وتبادلوا التجارة مع أقطار اسبانيا النصرانية ومع بلاد أوربا ودل حوض البحر المتوسط الأخرى ، حتى أن أحد كتاب

(١) الرازي برواية المقرئ ، نفح الطيب ، ١ ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، ابن الخطيب ، أعمال

Chapman, A history of spain, p. 3

الإعلام ، ٢ ، ص ٥٠ .

المغرب وهو أبو على بن الربيب القروي ، أرسل الى أحد وزراء الأندلس أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم رسالة يشير فيها الى رواج الحالة الاقتصادية بالأندلس ويقول « انها مقصد كل طرفة ومورد كل تحفة ، ان بارت تجارة أو صناعة فاليها تجلب ، وان كسدت بضاعة ففيها تنفق » (٢) .

وقد اقام مسلمو الأندلس زراعتهم لأراضيهم وضياعهم على أساس من القوانين الزراعية التي اختصت بها دون غيرها من البلاد ، وعلى أساس نظام جيد للرى ، من شق للترع والقنوات وبناء للنواير أو السواقي التي نقلها عنهم نصارى اسبانيا الشمالية ، يدل على ذلك أن اللفظ المستخدم في الأسبانية للتعبير عن هذه الآلة وهو Noria مأخوذ عن اللفظ العربى ( ناعورة ) و acequia من لفظ ( الساقية ) العربى ، و accadus هو القادوس الذى يستخدم لنقل الماء من جوف الأرض وصبه على سطحها (٣) .

وقد ادخل العرب أيضا الى الأندلس زراعة الأرز والقطن وقصب السكر والتوت والنخيل ، وأنواع الزهور التي انتشرت زراعتها أيضا في شمال اسبانيا النصرانية بل في أوربا كلها ، يدل على ذلك أسماء تلك الزهور وغيرها مما استعارته اللغة الأسبانية ، وكذلك الحال في الفاكهة ، فقد ادخل العرب أيضا كثيرا من الأشجار المثمرة الى البلاد ، مثل البرتقال والتفاح والبرقوق والمشمش ، وانتقلت زراعتها الى اسبانيا النصرانية وعرفت بها بأسمائها العربية فالبرقوق albaricoque والليمون limon وهكذا (٤) .

---

(٢) ابن بسام ، اللخيرة ، ق ٢ ، ١٤ ، ص ١١٢ ، ١١٣ . خيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) محمود على مكي ، مدريد العربية ، ص ٤٨ .

(٤) بياقوت ، معجم البلدان ، ١٤ ، ص ٤٥٤ ، حتى ، المرجع نفسه ، ٢٤ ، ص ٤٣٠ ، خيدر بامات ، مجالى الاسلام ، ص ١٠٧ . Livermore, op. cit, pp. 118, 119.

وفي الوقت الذي ازدهرت فيه الزراعة في الأندلس الإسلامية كانت أسبانيا النصرانية تعيش على ما تستورده منها من محاصيل ، أو على ما تستنبتة من زروعات ونباتات أخذت زراعتها عن الأندلس أيضا . ذلك أنها كانت بلاد تميل الى رعى الأغنام ، بسبب طبيعتها الجبلية ، وتربتها الفقيرة ، وجوها الشحيح بالأمطار الكافية للزراعة ، وبسبب نظامها الاقطاعي العتيق الذي يقوم على أساس استعباد الفلاحين والعمال ، اُضيف الى ذلك طبيعة الأسباني نفسه الذي كان يأفف من العمل اليدوى في الأرض ، واذا عمل فأنما يعمل في الرعى فقط ، وادى ذلك الى فقر البلاد والى اتجاهها دائما نحو الجنوب في الأندلس ، اما للاقتباس الحضارى سواء في مجال الزراعة أم في غيره من المجالات ، واما لشراء ما يلزمها من محاصيل بواسطة تجار اليهود ، أو للاغارة ونهب ما تصل اليه ايديهم من محاصيل ومؤن (٥) .

## ب - الصناعة :

أما الصناعة فقد بلغ مسلمو الأندلس فيها شأوا عظيما ، ويكفى أنهم عرفوا فكرة استخدام قوة سقوط الماء في ادارة الأرحية والطواحين وهى فكرة علمية حديثة تستخدم الآن لادارة التوربينات لتوليد الكهرباء ويصف الادريسي ذلك بقوله أنه « كان في مدينة المنكب في شرقى الأندلس بناء مربع مرتفع كالصنم أو المنار ، أسفله واسع وأعلاه ضيق ، وبه حفرتان على جانبيه متصلتان من أسفله الى أعلاه ، وبازائه من احدى جوانبه حوض كبير يصب فيه الماء بعد أن يكون قد أتى من بعيد الى أعلى المنار ، ثم يهبط الى الحوض فيدير رحي صغيرة» (٦) .

ويبدو أن هذه الرحي المائية قد اندثرت أيام الادريسي الذي ألف كتابه بعد سقوط هذه الناحية في أيدي النصارى ، وكان هؤلاء يدمرون كل أثر للمسلمين كما هو معروف . وهناك من يقول أيضا أن مسلمى الأندلس قد

Crow, op. cit, pp. 13, 111, 124, 125.

(٥)

(٦) الادريسي ، صفة المغرب ، ص ١٩٩ .

عرفوا فكرة رفع الماء من الآبار ، وانهم اخترعوا آلة لذلك ، ويبدو أنه يقصد « الشادوف » أو الساقية مما لم تعرفه الأندلس من قبل ، بل أنهم بنوا القنوات المعلقة واخترعوا أنابيب الرصاص لجلب الماء الى المدن من اعالي الجبال ، مما يدل على نهضة صناعية عظيمة توافرت للأندلس في عهد بنى أمية ، ودول الطوائف (٧) .

وقد توافرت المواد الخام وخاصة المعادن اللازمة لتلك الصناعة في معظم أنحاء شبه الجزيرة ، فمعدن الحديد يوجد في المرية في شمال شرقي قرطبة وفي مريبط قرب بلنسية ، والذهب في لاردة وساحل أشبونة ، والفضة والزئبق في قرطبة وتدمير وبجانة وفحص البلوط ، والنحاس في شمال الأندلس ، والملح الاندراى في سرقسطة ، والرخام في المرية ، والعنبر والكهرمان في بحر شذونة ، وحجر اللازورد والمغنطيس في تدمير ، والمرجان في ساحل بيرة من عمل المرية ، والتصدير في أشكونة وحجر التوتيا والكحل في البيرة وطرطوشة والزعفران في طليطلة (٨) .

ونظرا لتوافر هذه المواد الخام الكثيرة فقد قامت صناعات كثيرة في الأندلس الاسلامية ، منها صناعة آلات الحرب من التراس والرماح والدروع والسروج والألجم والمغافر في قرطبة وطلطيلة ومجريط ( مدريد ) وكان أهل الأندلس وكذلك نصارى الشمال يهتمون بهذه الصناعات اهتماما كبيرا نظرا لكثرة الحروب التى كانت تنشب بينهم . كما قامت صناعة السفن الحربية والتجارية في مدينة المرية ولقنت وطركونة على عهد عبد الرحمن الثانى والثالث ، وفي جزيرة يابسة شمال مبورقة (٩) .

وقد امتازت المرية بالاضافة الى صناعة السفن بأقوى صناعة نسيج في الأندلس ، فقد كان يوجد بها ٨٠٠ نول لصناعة الملابس الحريرية ،

(٧) المقرئ ، أزهار الرياض ، ٢ ، ص ٢٦٦ ، حيدر بامات ، أراجع نفسه ، ص ٢٩٦ .

(٨) الرازى برواية المقرئ ، النفع ١ ، ص ٧٠ ، ٩٣ ، مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون

في الاندلس ، ص ٢١٥ .

(٩) الادريسي ، المصدر نفسه ، ص ١٩٣ ، ابن سعيد برواية المقرئ النفع ١ ، ص ١ .

ص ٩٤ ، ياقوت ، المصدر نفسه ، ص ٨ ، ٤٩٠ ، المقرئ ، النفع ١ ، ص ٩٢ ، ٩٣ .

Levi - Provencal, Inscriptions, p. 83.

والف نول لصناعة الحل النفيسة والديباج الفاخر ، والف نول للاستقلاطون  
والف نول للثياب الجرجانية ، ومثلها للثياب الأصفهانية والعنابي والستور  
الملكثة . وقامت صناعة النسيج أيضا في قرطبة حيث كان بها ثلاثة  
عشر ألف حائك ، وفي غرناطة وبسطة ومالقة وصناعة الكاغد ( الورق )  
في شاطبة وبلنسية ، واستخراج الزئبق في حصن أبال شمال قرطبة ،  
وصناعة البسط في فنتالة بمرسية ، وصناعة الأدوات المنزلية مثل السكاكين  
والمقصات المذهبة من النحاس والحديد في مرسية ، والفخار العجيب  
والزجاج البللورى في مالقة وطليلة<sup>(١٠)</sup> .

هذا عن الصناعة وتقدمها في الأندلس الاسلامية أما في ممالك أسبانيا  
النصرانية ، فقد كان هناك أيضا الكثير من المعادن مثل الذهب في  
شنت ياقب ، والحديد والنحاس والمعادن الأخرى في جليقية واشتريس  
وليون وقشتالة . ولذلك نهضت بها صناعة الأسلحة وخاصة في برغش  
عاصمة مملكة قشتالة ، وكانت هناك صناعة أقمشة في مدن عديدة مثل  
سورة وإفيل ( آبله ) وشقوبية وصورية والقلعة ودريد وطليلة وككة ،  
لكنها لم تصل الى مستوى منسوجات الأندلس الاسلامية ، ولذا كانت نساء  
الطبقة الأرستقراطية هناك يستوردن ما يحتجنه من أقمشة حريرية وغيرها  
من قرطبة وغيرها وكن ينتظرن وصول تجار اليهود بفارغ الصبر<sup>(١١)</sup> .

وقد كانت صناعة الصوف والحرير مزدهرة في طليطلة ، ولم يكن  
ذلك إلا بفعل الصناع المسلمين الذين بقوا فيها عقب سقوطها عام ٤٧٨هـ /  
١٠٨٥م حتى بلغ عددهم عشرة آلاف صانع ، وكان قربها من جبل الشارات

(١٠) الأديبى ، المصدر نفسه ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ ، ١٩٧ ، المقري ، المصدر نفسه ،  
ص ١ ، ص ٧٤ ، ٧٨ ، محمد العروسى المطسوى ، الحروب الصليبية في الشرق والمغرب ،  
ص ١٧٤ ، مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون ، ص ٢١٥ ، ص ٢١٦ ، تردد ، المرجع نفسه ،  
ص ٢٨ ، لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٢٩ . Livermore, op. cit., p. 119.  
(١١) الرازى برواية المقري ، للنفع ، ص ١ ، ص ٧ ، ابن سعيد برواية المقري ، للنفع ،  
ص ٩٣ ، ٩٤ ، ابن سعيد ، بسط الارض ، ص ١١٤ .  
Crow, op. cit., p. 125.



الذى يمتاز بكثرة المراعى ووفرة الأغنام التى تربى عليها مما هيا موردا هاما من مادة الصوف الخام اللازم لتلك الصناعة . وبقيت في طليطلة ايضا صناعة الأسلحة وكثير من الصناعات الأخرى ، يدل على ذلك شوارعها وأزقتها التى ظلت تحمل أسماء تدل على الصناعات الموجودة بها مثل شارع النحاسين والدباغين والقزازين والصباغين والعطارين والجزارين الى غير ذلك من الصناعات الأخرى<sup>(١٢)</sup> .

وقد تأثرت صناعة النسيج في اسبانيا النصرانية بمثلتها في الأندلس الاسلامية ، يدل على ذلك قطع النسيج التى عثر عليها في الكنائس . فهناك البطانة الموجودة في صندوق العلاج الذى أهدها فرديناندو الأول لكنيسة سان ايسيدور لحفظ مخلفات سان خوان باتستا وسان بلامون سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م ، والنسيج قطعة به صور طيور وحوانات ذات أصل عربى ، وعليه كتابة عربية لعل قراءتها كالأتى : « النفع ذخرا لمن أراد العالم الآخر » مما يدل على أنها نسجت صراحة لغرض كنسى بأيدى خلفاء أولئك المستعربين من نسايج الملك الذين كان آواهم الفونسو الخامس عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٤ م<sup>(١٣)</sup> .

وقد ظهرت مصانع للخزف والقيشاني في قطلونية وبطرنة وترويل بتأثير من المصانع الاسلامية ، لأن الأسبان كانوا متأخرين في المصانع الدقيقة . وكذلك قامت في طليطلة صناعد الفخار الأسباني ذى البريق المعدنى الذى يعتبره الهواة بعد الخزف الصينى مباشرة في الجمال والقيمة الفنية ، وكان أول ورود لذكر هذه الصناعة في طليطلة عام ٤٥٩ هـ / ١٠٦٦ م أى أيام أن كانت في يد المسلمين وبقيت بها بعد سقوطها في يد النصارى . وكانت تنقش عليها نقوش أسبانية وترسم عليها الرنوك ، مما يدل على أن الفخار العربى كان يصنع للبابوات والكرادلة ايضا . وقد أشار أحدهم الى هؤلاء

(١٢) الادريسي ، المصدر نفسه ، ص ١٨٨ ، روبرتسون ، المرجع نفسه ، ص ٣٢٥ .

محمود على مكي ، المرجع نفسه ، ص ٨٤ .

(١٣) مورينو ، الفن الاسلامى في اسبانيا ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

الصناع العرب بقوله « انهم فقراء الى ما لدينا من ايمان ونحن فقراء الى ما لديهم من صناعة » (١٤) .

كذلك كانت صناعة علب الحلى المصنوعة من العاج فى كوناة وقشتالة ذات طابع اسلامى . ويظهر هذا الطابع ايضا فى صناعة المصوغات والاولانى الزجاجية والفخار والبسطة والكؤوس والصلبان والتيجان الملكية فى قشتالة ، وملابس القسيس التى كانت تحمل غالبا زخرفة اسلامية . وهكذا نرى أن الصناعة الاسلامية اثرت فى الصناعة النصرانية فى شمال اسبانيا ، ويعلل بعض كتاب النصرى ضعف الصناعة الأسبانية بسبب وجود المسلمين الذين حاصروها بصناعاتهم وتجاراتهم التى كانت حكرا عليهم وعلى اليهود ، كما أنهم فرضوا عليهم عملتهم العربية ، مما جعل نصرى الشمال لا يشعرون بميل الى النشاط الاقتصادى (١٥) .

ويبدو أن هذا القول مغالى فيه كثيرا ، لأن سبب تأخر الصناعة فى شمال اسبانيا لم يكن مرده الى المسلمين ، فقد كان هؤلاء مصدرا من مصادر النهضة الصناعية التى امتدت لتشمل الشمال الأسباني وجنوب فرنسا . وكان النظام الاقطاعى الذى كانت تعيشه دول اسبانيا النصرانية هو المسئول عن ذلك ، فقد كان التاج والكنيسة والنبلاء يملكون الأرض ويفرضون الضرائب الباهظة على السلع ، بسبب احتياجهم الشديد للأموال اللازمة للانفاق على حروبهم الكثيرة مع مسلمى الأندلس ، أضف الى ذلك احتكار بيع سلع معينة وقصر التجارة فيها على الرهبان ، فقد كان رهبان دير ساها جون مثلا يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقمشة والأسماك والأخشاب ، فلا ينافسهم فيها أحد والا تعرض للمصادرة والغرامة ، وهذا أدى الى تأخير النشاط التجارى الذى أدى بدوره الى ضعف النشاط الاقتصادى بوجه عام (١٦) .

(١٤) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، مورينو ، المرجع نفسه ، ص ٣٦٩ ، محمد

كرد على ، المرجع نفسه ، ص ١١ .

(١٥) ترند ، المرجع نفسه ، ص ٥ ، ٦ .

Levi-provençal, la civilisation en Espagne, pp. 136, 137.

(١٦) اشباح ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٩ . Crow, op. cit., p. 126.

## ج - التجارة :

ونتيجة لتأخر دول أسبانيا النصرانية في الصناعة والزراعة فقد قامت تجارة رائجة بينها وبين الأندلس الإسلامية وخاصة في أوقات السلم . ومن الغريب أن الحروب كان يعقبها نشاط تجارى عظيم . ذلك أن التجار من اليهود وغيرهم كانوا يصاحبون الجيوش ويمشون خلفها ، انتظارا لما يقع في أيديها من السبى والغنائم وما كان أكثره في تلك الأيام . وقد حدث ذلك أثناء الصراع الذى دار بين المرتضى الأموى وبين صنهاجة عام ٤٠٩ هـ / ١٠٢٠ م ، وحدث أيضا عقب سقوط مدينة بريشتر شمال سرقسطة في يد الحملة الصليبية الأوربية الأسبانية عام ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، وكانت هذه عادة تتمشى تماما مع طبيعة الحروب وما يتبعها من نهب وسلب لا بد أن يجد سوقا تستوعب ما زاد عن حاجة الجنود والغزاة (١٧) .

ولا بد أنه كان يصاحب السفارات أو البعثات الدبلوماسية التى كانت تأخذ الجزية من ملوك الطوائف ، والسفارات التى كانت تأتى قبل ذلك أيام الخلافة لطلب السلام ، نشاط تجارى واسع . فقد كانت العطايا والهبات من الملابس الفاخرة والأدوات والحلى والتحف الفنية التى كان يقدمها الخليفة لأمراد تلك السفارات ، لا بد أنها كانت تجذبهم الى شراء ما يلزمهم قبل الرحيل الى بلادهم ، وكانت تجعل نساء القصور فى ليون وقشتالة يحثون تجار اليهود على جلب المزيد منها من أسواق قرطبة وغيرها من المدن الأندلسية (١٨) .

وقد وردت اشارات عديدة على لسان المؤرخين والجغرافيين العرب الأندلسيين على أن هذه الصناعة أو تلك قد عمت جميع بلاد الأندلس أو بلاد الأندلس والكثير ، يقصدون بذلك جميع شبه جزيرة أيبيرية كلها ، خاصة

---

(١٧) ابن حيان برواية ابن بسام ، الخيرة ، ق ١ ، د ١ ، ص ٣٩٨ ، ابن حيان برواية القزى ، النفخ ، د ٢ ، ص ٥٧٥ ، رينو ، المرجع نفسه ، ص ٢١٧ .

(١٨) ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ص ٣٠٢ .  
Levi - Provencal, op. cit., pp. 127 - 129.

وأن الصناعة الأندلسية كانت متفوقة ، حتى أن نصارى قشتالة كانوا يفضلون سيوف أشبيلية على سيوف مدينة بوردو التى تسميها الرواية العربية برديل والسيوف البردليات . فقد جاء فى وصية أحد قادتهم « أوصى أيضا لابنى بسيفى القشتالى الذى صنع فى أشبيلية وصرع مقبضه بالذهب ونفيس الجواهر » وكانوا يفضلون أيضا الملابس العربية التى كانوا يستوردونها من الأندلس الاسلامية (١٩) .

### المراكز التجارية :

وازدهرت هذه التجارة عند مناطق الحدود مع الثغور الاسلامية وعند المدن الساحلية الاسلامية ، مثل المرية وطرطوشة وطركونة ، والمدن النصرانية مثل برشلونة وأشبونة وشنت ياقب . فقد كانت برشلونة بموقعها الجغرافى بين دول أسبانيا النصرانية والاسلامية سوقا رائجا للسلع الأندلسية والأسبانية ، فكان يأتيها من الأندلس الحرير والصوف والأقمشة والجلد وتصدرها الى نصارى الأسبان او الى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط الأخرى (٢٠) .

وكذلك كانت المرية « محطا لسفن النصارى ومجتمعاً لديوانهم » ومنها كانت تصدر سلعهم الى سائر بلاد الأندلس ، ومنها أيضا كانوا يشترون ما يحتاجونه من السلع الأندلسية ، فكانت هذه المدينة اذن تقوم بتجارة الصادر والوارد بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية ، أو بينها وبين سائر دول البحر المتوسط (٢١) .

وكانت ميورقة بموقعها كجزيرة تقع قرب السواحل الاسلامية والنصرانية ، مركزا من مراكز تبادل التجارة الأندلسية والأسبانية . ولما

---

(١٩) الرازى برواية المقرئ ، النسخ ، ١ ، ص ٧١ ، الحميرى ، المصدر نفسه ، ص ١٦٥ ، لين بول ، المرجع نفسه ، ص ١٣٠ ، مورينو ، الفن الاسلامى ، ص ٤١٥ .

(٢٠) أشباح ، المرجع نفسه ، ص ١٧٨ .

(٢١) المقرئ ، المصدر نفسه ، ٢ ، ص ١٥٤ .

سرقسطة فقد ضربت بسهم وافر في هذا الميدان ، نظرا لمجاورتها لجميع ممالك أسبانيا النصرانية ، واستغلت نهر أبره الذي كان يربطها بتلك الممالك في الوصول اليها بسهولة ، كما استغلت ميناءيها الكبيرين على البحر المتوسط ، وهما طركونة وطرطوشة لاستقبال تجارة الشرق وتصديرها الى قشتالة ونبرة وأرغونة ، وجنت من وراء ذلك ثروة طائلة جذبت اليها الفرسان والمرتقة النصارى الأسبان ، ومكنتها أيضا من دفع الاتاوات التي فرضها عليهم ملوك قشتالة ، فعاشت عصرا طويلا بمنجاة من غزواتهم المخربة التي ابتليت بها دول الطوائف الأخرى ، كما ساعد على رواج تجارتها أيضا تلك المصاهرات التي عقدها بنو قسى وبنو الطويل المولدون مع ملوك نبرة وقشتالة (٢٢) .

وكانت أعظم تجارة بين الأندلس وبين أسبانيا النصرانية هي تجارة الرقيق ، وقد تخصص فيها تجار اليهود الذين كانوا يقومون بجلب هذا النوع من التجارة من جليقية وسائر ممالك أسبانيا النصرانية ، ومن سبى الفرنجة الى قرطبة وغيرها من المدن الرئيسية ، فيأخذ الخلفاء والأمراء وأفراد الطبقة الأرستقراطية حاجتهم منه ، وما بقى يسير به تجار اليهود الى سائر بلاد العالم ، وربما وصلوا به الى خراسان وغيرها من أقاصى البلاد (٢٣) .

وكان افراد الطبقة الأرستقراطية من وزراء وقواد يهودون للخلفاء الكثير من هؤلاء العبيد الصقالبة على سبيل التقرب اليهم . فقد جاء ضمن هدية عبد الملك بن شهيد للخليفة الناصر عبد الرحمن عددا كبيرا من العبيد الصقالبة من الجنسين ، كذلك جاء في هدية الحاجب جعفر المصحفى للحكم المستنصر يوم ولايته للخلافة ، مائة مملوك من الفرنج على خيولهم كاملى العدة والسلاح ، وعددا كبيرا من أسلحة الفرنجة وحرابهم . ولا يمكن أن

---

(٢٢) ابن حوقل ، صرة الارض ، ص ١١٤ ، ١١٥ ، المقرئ ، المصدر نفسه ، ص ١٠ .

ص ٥٩٨ ، غان ، دول الطوائف ، ص ٢٩٦ .

(٢٣) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ١١٠ ، النباهي ، المصدر نفسه ، ص ٢٦ ،

ابن سعيد ، المصدر نفسه ، ص ١٠١ .

يتيسر اهداء هذا العدد الكبير من العبيد أو الرقيق ، الا بسبب رواج هذا النوع من التجارة<sup>(٢٤)</sup> .

وبخلاف تجارة الرقيق كان أمراء بنى أمية وخلفاؤهم يستوردون بعض المواد اللازمة لبناء المساجد والقصور من بلاد أسبانيا النصرانية وغيرها ، مثل الرخام والسواري والفسيفساء . اذ كان الناصر يستورد السواري وهى الجزء الاسطوانى من الأعمدة من افريقية وبلاد الفرنج واسبانيا النصرانية ، والفسيفساء من القسطنطينية ، كما كان يستقدم المهندسين والبنائين من كل قطر ، وكانت النهضة العظيمة والعمارة الوافرة التى اشتهر بها عصر بنى أمية ، تستدعى مثل هذا النشاط التجارى الواسع<sup>(٢٥)</sup> .

### الطرق التجارية :

اما الطرق التجارية التى كانت تسلكها التجارة بين الأندلس وبين ممالك أسبانيا النصرانية فقد كانت عديدة ، منها ما يتم عن طريق الأنهار الكثيرة المنتشرة فى شبه الجزيرة ، والتى تربط بين شرق الأندلس وغربها ، وبينها وبين شمال أسبانيا النصرانى . ذلك أن منابع نهر تاجة وروافد نهر شقر ووادى مرسية تتصل بروافد نهر الوادى الكبير ووادى آنه . وهذه الأنهار كلها منها ما يصب فى البحر المتوسط ومنها ما يصب فى المحيط الأطلسى، لكنها تنبع جميعا من جبال وسط الأندلس فتتقابل روافدها وتتصل ، ويمكن للمسافر أن يأخذ احداها فيتجه شرقا أو غربا حسبما يريد<sup>(٢٦)</sup> .

وكانت سفن الأندلس وسفن الفرنج ونصارى أسبانيا الشمالية تنفذ الى هذه الأنهار بالبضائع ، وتعود منها محملة ببضائع الأندلس ، يساعدها فى ذلك عملية المد والجزر التى تبلغ فى نهر الوادى الكبير اثنين وسبعين ميلا ، وفى نهر يانه ستين ميلا . ولذلك ليس من الغريب أن نسمع أن حيوان السمور ( حيوان صغير يشبه الأرنب ) الذى يوجد على ساحل جليقية وعلى الساحل

(٢٤) آبن حيان ، برواية آبن خلدون ، المعبر ، ٤ د ، من ١٤٤ .

(٢٥) ابن حيان ، برواية المقرئ ، المصدر نفسه ، ١ د ، ص ٢٦٦ ، ٢٧٠ .

(٢٦) انظر الخريطة رقم ٣ .

الغربي للأندلس ، ويصنع من وبره نراء جميل رفيع في مصانع سرقسطة في أقصى الشمال الشرقي للأندلس ، كان من السهل على التجار أن ينقلوه عبر نهر دوبره حتى مدينة ( لارا ) قرب برغش ، ثم يسرون به الى مدينة تطيلة على نهر أبره ، ثم ينزلون مع النهر حتى مدينة سرقسطة ، فيصنع هناك ثم يصدر الى الأندلس واسبانيا النصرانية (٢٧)

بالاضافة الى الطرق النهرية كانت هناك طرق برية كثيرة ، ونكتفى منها بما يربط قرطبة بممالك اسبانيا النصرانية في الشمال . وكانت هذه الطرق تقابل على وجه التقريب الطرق الرومانية التي كانت موجودة قبل الفتح الاسلامي للأندلس ، وأهمها طريق يبدأ من قرطبة الى طليطلة ، ثم يسير الى وادي الحجارة الى حوض نهر أبره ، ثم يتفرع الى طريقين ، أحدهما يسير بمحاذاة النهر مارا بقلهرة ونخرة حتى مبلونة عاصمة نبرة ، ثم يسير الى البة والقلاع ( قشتالة ) واشتريس . والفرع الثاني يسير جنوبا الى سرقسطة فلاردة حيث تنتهي اليه التجارة مع امارة برشلونة (٢٨).

والطريق الثاني يبدأ من قرطبة الى المعدن Maden الى قورية فسلمنقة وسمورة ، ثم يواصل سيره داخل جليقية ، ويتفرع من هذا الطريق فرع آخر يبدأ من عند قورية ويتجه شرقا الى جلبيرة فطليطلة ، ومنها الى سلمنقة حيث يتصل بالطريق الرئيسي مرة أخرى . وهناك طريق ثالث يبدأ من قرطبة وينزل جنوبا فيمر بفرناطة ثم يصعد شرقا بشمال ، فيمر بمرسية فبلنسية فطرطوشة فلاردة في أقصى شمال سرقسطة (٢٩) .

وهناك أيضا **الطرق البحرية** التي تربط ثغور الأندلس ومدنه الساحلية بثغور برشلونة في الشرق وجليقية في الغرب . فميناء المرية وقرطاجنة ولقنت

---

(٢٧) ابن سعيد ، بسط الارض ، ص ١٠٠ ، ١١٢ ، ١١٣ ، المقري ، المصدر نفسه ،

د ١ ، ص ٩٢ .

(٢٨) ابن حوقل ، صورة الارض ، ص ٤٦ ، مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ٣٤٦ ،

الجغرافية والجغرافيون ، ص ١٤ .

(٢٩) ابن حوقل ، المصدر نفسه ، ص ٤٦ ، مؤنس ، الجغرافيون والجغرافيون ،

ص ١٤ .

ودائية كانت تتصل بفغر برشلونة عاصمة إمارة قطلونية بخط بحرى ، وثغور اشبيلية ولبلة وشنترين تتصل بثغور مملكة جليقية ، مثل برتغال وبراجه وشانت ياقب أيضا بخط بحرى كانت تصعد فيه السفن التجارية وقت السلم ، والسفن الحربية أيام القتال (٣٠) .

### السكة :

وكان لا بد لهذا النشاط التجارى الواسع بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية من عملة يتم على أساسها التداول وعميلة البيع والشراء ، وقد تأثرت العملة التى صكها المسلمون الأوائل بالعملة المحلية التى وجدوها فى البلاد من حيث الشكل والنقوش ، ثم استقلت عنها شيئا فشيئا وصارت بعد ذلك أساس التعامل الاقتصادى على أرض شبه الجزيرة كلها ، كما هو الحال فى التعامل بالدولار أو الاسترلينى فى الوقت الحاضر .

ففى بداية عصر الولاة ، كان يكتب على العملة نصوص لاتينية اسلامية الطابع فى الفترة من عام ٩٦ الى ٩٧ هـ ، ثم تظهر اللغة اللاتينية مع العربية منذ عام ٩٨ هـ ، ثم اللغة العربية فقط منذ عام ١٠٢ هـ ، ويمكن أن نعزو ظهور اللغة العربية الى سبب سياسى ، وهو انه بعد عام ٩٨ هـ ، أى بعد اغتيال عبد العزيز بن موسى بن نصير وبعد نقل أيوب لمقر الحكم الى اشبيلية ، رأى ادخال اللغة العربية كرد فعل لسياسة التسامح التى كان يسير عليها عبد العزيز ، كما يمكن ارجاع اختفاء اللغة اللاتينية الى سبب سياسى أيضا ، الا وهو قيام حركة المعارضة التى قام بها أمير اشتريس وجليقية فى هذا الوقت كما سبق القول (٣١) .

وقد قام أمراء بنى أمية ( ١٢٨ — ٣١٦ هـ ) بضرب عملة ذهبية مشابهة لعملة أسلافهم فى بلاد الشام ، كما ضربوا أيضا الدراهم والفلوس ، وبذلك

(٣٠) انظر الخريطة رقم ٣ .

(٣١) Gullon, Los monayoges latino arabes, pp. 55-62

Trois Mannois, p. 60.



كان نشاط دار السكة عظيما في قرطبة . وقد عثر على نقود من هذا العصر في منطقة استيا Estella في مملكة نبرة ، مما يدل على قيام تبادل تجارى في ذلك الوقت مع هذه الدولة ، وبصفة عامة فقد كان اثر النقود الاسلامية على اسبانيا المسيحية في تلك الفترة كبيرا ، ولنا ان نؤكد ان الحياة الاقتصادية في الممالك النصرانية باسبانيا لا سيما الشرقية منها كانت تقوم على اساس هذه النقود ، ومن المحتمل انها كانت تصل الى الشمال وتستعمل هناك بعد فترة قصيرة من ضربها في عاصمة الأندلس الاسلامية (٣٢) .

اما في عهد الخلافة الأموية ( ٣١٦ — ٤٢٢ هـ ) ، فقد كان ذلك العهد هو عهد الاستقلال السياسى والدينى الكامل عن الشرق ، ولذلك قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بضرب عملة ذهبية كان لها تأثير كبير على اقتصاديات اسبانيا المسيحية ، حتى انه ورد ذكرها في بعض دساتير مملكة ليون تحت اسم Cathimi أو Kasimi نسبة الى الدراهم القاسمية الأندلسية (٣٣) ، مما يدل على رواجها في اسبانيا النصرانية في تلك الفترة . وقد وصلت النقود التى تضرب في دار سكة مدينة سبنة التابعة للأمويين في ذلك الوقت ، الى امارة قطلونية ( برشلونة ) ، وكان لها اثر كبير في الحياة الاقتصادية هناك ، مما تشهد به الوثائق القطلونية التى ترجع الى ذلك العصر (٣٤) .

وفي عصر ملوك الطوائف ( ٤٢٢ — ٤٨٤ هـ ) ، لم يكن النشاط النقدي في الأندلس الا امتدادا له في عصر الخلافة ، وبقي النقد موحدا باسم هشام المؤيد وان كان ملوك الطوائف قد اضافوا أسماءهم أيضا ، ورغم

---

Jaime Lluís, Observaciones sobre la amonedacion legal de los musulmanes.

د. عبد الرحمن فهمي : دراسة لبعض التحف الاسلامية ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ٢٢ ، العدد الاول ، عام ١٩٦٠ .

(٣٣) سميت الدراهم القاسمية بذلك نسبة الى اسم عامل دار ضربها . انظر ، ياقوت ،

معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢ .

(٣٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، ص ٥٩ .

Jaime Lluís, op. cit., pp. 95 - 60.

ازدياد قوة أسبانيا النصرانية السياسية والعسكرية في تلك الفترة ، الا أنها ظلت تتعامل بالنقود الاسلامية ، وساعد على انتشار تلك العملة في ممالك أسبانيا النصرانية المختلفة ، أن تلك الممالك كانت تأخذ الجزية من دول الطوائف بتلك العملة ، وظلت تتعامل بها لفترة طويلة بعد زوال ذلك العصر . ولما عزم ملوك الأسبان على سك عملة خاصة بهم تسربت اليهم بعض الكلمات العربية الخاصة بعملية السكة ، مثل كلمة Ceda المأخوذة من الكلمة العربية ( السكة ) ، كما مضى الفونسو السادس على غرار أسلافه ، فكتب بالعربية على النقود التي سكتها (٣٥) .

وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على أن الحضارة العربية في الأندلس قد فرضت نفسها على شبه الجزيرة كلها في عصر بني أمية وعصر دول الطوائف ، وما زالت آثار ذلك باقية حتى الآن ، سواء في الخرائب المعمارية أم في المدن التي لا زالت باقية أم في قطع النقود والتحف الفنية التي تملأ متاحف أسبانيا ، أم في تلك الآثار الثقافية من كتب ومخطوطات تحمل الكثير من علوم الأندلس وآدابها وفنونها ، مما لا يمكن للجاحدين من الأسبان أن ينكروه مهما حاولوا ، ولو نظروا الى لغتهم التي يتكلمون بها اليوم ، لرأوا أن حوالى ربع مفرداتها مأخوذة من اللغة العربية ، وهذا انصاع دليل وأقوى برهان على تفوق الحضارة العربية الاسلامية في الأندلس على حضارة ممالك أسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف .

Jaime Lluís, op. cit., pp. 65 - 69.

(٣٥)

حتى ، تاريخ العرب ( الطول ) ٢ ، ص ٦٤٦ ، ٦٤٧ .

# خاتمة

بعد هذه الدراسة التى تمنا بها عن العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية فى عصر بنى أمية وملوك الطوائف ، نستطيع أن نقول بادية ذى بدء أن مقاومة الأسبان للفاتحين لم تندحر بشكل نهائى ، بل أنها تقوّعت فى اقاصى الشمال الغربى للبلاد ، فى منطقة جليقية واشتريس ، حيث قامت أول مملكة نصرانية عقب الفتح ببضع سنوات ، ممثلة فى حركة النبيل القوطى بلاى ، وصمدت لهجمات المسلمين فى عصر الولاة حتى التقطت أنفاسها ، وانتهزت الفرقة والصراع القبلى فى ذلك العصر وتمكنت من طرد المسلمين من الركن الشمالى الغربى لشبه الجزيرة ، وخسر المسلمون ربع ما فتحوه ولم يكن قد مضى على الفتح أكثر من أربعين عاما .

ونستنتج من ذلك أن العرب لم يعوا الأسباب التى أدت الى سقوط إسبانيا فى أيديهم ، ونسوا أن ذلك لم يكن الا بسبب تنازع أمرائها وملوكها وانشقاقهم وتحالفهم مع أعداء بلادهم ضد بعضهم البعض . وبذلك دلّ الرب على قصر نظر سياسى واضح ، وانغمسوا فى الصراعات الحزبية والقبلية ، حتى مكّنوا للمقاومة النصرانية أن تنشئ دولا تقتسم معهم شبه الجزيرة ، وتعمل على استرداد الأندلس من يد المسلمين مرة أخرى .

وثارت الحروب والصراعات بين الطرفين أجيالا وقرونا ، لكن حكام الأندلس لم يكن هدفهم من حروبهم مع نصارى الأسبان ، هو القضاء عليهم ، وإنما كان هدفهم هو تأمين حدودهم وغرض السلام بالقوة أمام تلك المقاومة المسلحة لنصارى الشمال ، حتى تنهى الظروف البناء والعمران والتقدم الحضارى . ولم يكن يدفع نصارى الشمال على الهجوم على مسلمى الأندلس الا حالة الفقر التى كانوا يعيشونها ، فكان بعضهم يأتى الى الأندلس للعمل فى إدارتها والخدمة فى مشروعاتها وفى جيشها ، ومن لم يأت منهم ، كان يقوم بالاغارة على الحدود بهدف النهب والسلب . وكانت هذه هى الصفة البارزة لحروبهم أيام الامارة الأموية .

وفي عهد الخلافة الأموية ، حاول عبد الرحمن الناصر ومن أتى بعده من حكام القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، أن يردعوا الممالك النصرانية التي نشأت في الشمال الأسباني ، ونجح هؤلاء الحكام في ذل كل النجاح ، وصارت شبه الجزيرة الأسبانية تحت سيطرتهم وحققوا الوحدة بين دولها . ومع ذلك لم يتغير هدف الجهاد ضد نصارى الشمال الأسباني في فترة الخلافة عنه في فترة الامارة الا في أن الخلافة كانت حملاتها اقوى واعنف ، واشد تأثيرا وأوضح نتيجة من حملات الامارة .

وقد نبهت حملات الخلافة القوية المتتابعة على شمال اسبانيا نصارى اوربا الى خطورة هذه الدولة الاسلامية ، فحاولوا التصدي لها من جديد كما حدث أيام شارل مارتل وشرلمان ، وانتهزوا فرصة الحرب الأهلية التي بدأت عقب سقوط دولة بنى عامر عام ٣٩٩ هـ وجعلوا نصارى شمال اسبانيا رأس الحربة أو رأس جسر ، وتتابعت الغزوات الصليبية . وكان أولها ما قامت به البابوية وفرسان الفرنجة والأسبان من تصفية للسيطرة الاسلامية على جزيرة سردينية عام ٤٠٦ هـ ، ثم حملتهم البشعة المدمرة على بريشتر عام ٤٥٦ هـ ، ثم مساعدتهم لأذفنش ( الفونسو ) السادس في الاستيلاء على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، ثم مساعدتهم له بعد هزيمته في الزلاقة في العام التالي ، وتحريم الخروج لنصارى الأسبان للاشتراك في الحروب الصليبية في المشرق الا بعد الانتهاء من الحرب الصليبية في الأندلس .

ونستنتج من ذلك أن الحروب الصليبية انما نشأت أول ما نشأت على أرض شبه الجزيرة الأسبانية ، ابتداء من حملة سردينية ومرورا بحملة بريشتر ، وانتهاء بسقوط طليطلة في يد الفونسو السادس . وعلى هذا فان الحرب بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، انما أخذت الصفة الصليبية ابتداء من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وسبقت في ذلك الحروب الصليبية في المشرق الاسلامى بحوالى قرن كامل .

ورغم هذه الحروب المطردة ، كانت العلاقات السلمية بين مسلمى الأندلس ونصارى الأسبان ، تتدفق عبر قنوات الاتصال التي أشرنا اليها في الباب الرابع ، وكان هذا أمرا طبيعيا ، إذ لم تكن هناك حدود طبيعية

فاصلة وكانت الحدود في شد وجذب ، في ارتفاع وانخفاض . كان مسلمو اليوم يصيرون نصارى في الغد ، وكانت الأرض التي تتبع السيادة الاسلامية الآن ، تصير تحت سيادة نصارى الشمال غدا ، ويحدث العكس ، ويأخذ المسلمون أرضا من ممالك الشمال ، ويحدث الاختلاط والتداخل بين الشعبين ، حتى توحدت اساليب الحياة بينهما الى حد كبير ، وحتى رأينا أن ملوكهم يلبسون الملابس العربية ، ويطلبون مؤدبين مسلمين من قرطبة لأولادهم ، ويستعينون بالمهندسين والأطباء والعمال والحرفيين من مسلمى الأندلس . وكانت النتيجة أن انتشرت حضارة الاسلام في الممالك النصرانية في اسبانيا ، ثم عبرتها الى اوروبا حيث بددت ظلمات الجهالة التي كانت تعيش فيها تلك البلاد في ذلك الحين ، وساعدت على نشأة الحضارة الأوروبية في العصور الحديثة .

لم يكن مسلمو الأندلس مخربين مدمرين في حروبهم لنصارى الشمال الأسباني بالصورة البشعة التي صورهم بها بعض المستشرقين أو بعض المفرضين ، فلم يكن هدفهم هو التخریب ، وإنما القمع وإرغام سكان أسبانيا النصرانية على التزام حسن الجوار ، يؤيد ذلك أن أكثر حكام الأندلس غزوا ، وهو المنصور محمد بن أبى عامر ، قد اعترف في أخريات أيامه بخطئه في تعمير بلاد الشمال الأسباني وشحنها بالمؤن ، ووصلها ببلاد المسلمين ، وعدم تخريب مسافة كافية منها لتكون فاصلا بين الأعداء وبين بلاده ، حتى لا يفاجأ قومه من المسلمين بهجوم النصارى عليهم ذات يوم دون أن يأخذوا حذرهم ، بسبب ملاصقتهم لهم على النحو الذى أشار اليه المنصور .

وبذلك ينتفى كلام ابن خلدون الذى راعه ما فعله عرب الهلالية بتونس ، ووصف العرب بأنهم قوم مخربون ، لا يدخلون بلدا الا ويطمسون فيه معالم الحضارة بسبب طبيعتهم البدوية . فقد ترك العرب في الأندلس حضارة ما زالت آثارها تشهد لهم حتى اليوم ، ويكفى أن أوروبا لم تنهل من حضارة أكثر مما نهلت من الحضارة العربية في الأندلس .

ومما أثر في علاقات مسلمى الأندلس بأسبانيا النصرانية وأضعفت الجبهة الاسلامية ، خصومة العباسيين والفاطميين للأمويين في الأندلس .

فمنعها كانت تلك البلاد تابعة للخلافة الأموية في المشرق ، استطاع ولاتها أن يصلوا في فتوحاتهم حتى قرب باريس . أما في عهد بنى أمية الذين استقلوا بالأندلس عن الخلافة العباسية ثم أخذوا يتصارعون معها ومع الخلافة الفاطمية على أرض المغرب الأقصى ، فقد شغلهم هذا عن تأمين دولتهم الإسلامية الناشئة في تلك البلاد النائية ، أى في الأندلس ، ضد تلك الشوكة التي أصبحت ذات شعب وما تفرع عنها من دول في شمال إسبانيا أخذت تقف للمسلمين بالمرصاد .

ولو أمن العباسيون والفاطيون ظهور أمويي الأندلس ، لكان لصراع هؤلاء مع أعدائهم من الأسبان شأن آخر ، ولتغير مصير البلاد عما انتهى إليه بكل تأكيد . لكن الصراع بين الخلافتين الثلاث ، العباسية والفاطمية والأموية ، جاء بتلك النتيجة المحزنة ، وهى ضياع الأندلس في النهاية ، وانحسار المد الإسلامي وعودته مهزوما الى شمال إفريقيا من جديد .

كما ساهمت الصراعات المقيمة بين ملوك الطوائف في اضعاف البلاد ووقوعها لقمة سائفة في يد نصارى الشمال الأسباني . وقد كان بين هؤلاء النصارى ، صراعات وانقسامات لا تقل عنفا عما كان موجودا بين ملوك الطوائف ، لكنها اختلفت في طبيعتها ونتائجها وهدفها . إذ انها كانت صراعات اسرية تقوم بين أفراد الأسرة المالكة على السلطان ، وما أن يستقر أقواهم على العرش حتى تتوحد البلاد وتستقر الأمور ، ويقوم الجميع لاستئناف الكفاح ضد مسلمي الأندلس من جديد .

وكان هذا هو الهدف النهائي من الصراع الداخلي بين ملوك الأسبان في تلك الفترة . أما ملوك الطوائف ، فقد كان صراعهم من لون آخر ، إذ أن شهوة الحكم استولت عليهم جميعا ، وصار بعضهم يرتقى العرش على أسنة رماح الأسبان أو الفرنجة ولا يستمرون في حكمهم الا بتأييد من هؤلاء ، يدفعون لهم الجزية ويقررون لهم بالطاعة . وهكذا كانت بداية النهاية في ضياع البلاد . وكان أول ما ضاع في عهدهم هى مملكة طليطلة الإسلامية ، عاصمة القوط القدامى والعاصمة الدينية والسياسية لأسبانيا قبل الفتح الإسلامي لها ، وبذلك فقد المسلمون نصف شبه الجزيرة .

ومما وصلنا اليه أيضا من نتائج أن أهل الذمة في الأندلس سواء كانوا من النصارى أم اليهود ، لم يكونوا مخلصين للحكم الإسلامى لتلك البلاد ، رغم السماحة الدينية التى امتاز بها عصر بنى أمية ، ورغم الثروات الهائلة التى كونوها فى عهدهم ، ورغم النفوذ الهائل الذى وصل اليه كثير منهم ، حتى أنهم وصلوا الى مراتب الوزارة والكتابة وقيادة الجيوش والعمل فى القصور الخلافية ، والقيام بوظيفة الحرس الخاص للأمراء والخلفاء .

فقد زرع النصارى من أهل الذمة الحقد فى نفوس الأسبان المسلمين الذين يعرفون بالمولدين ، وكانوا عوناً لهم فى إثارة القلاقل والفتن والثورات المناهضة لحكم المسلمين للبلاد ، وقاموا بفتنة دينية طائفية فى قرطبة أيام أمراء بنى أمية ، تعرف بحركة الاستشهاد المسيحية ، لاثارة النصارى فى كل مكان ضد مسلمى الأندلس ، وكانوا دائمي الاتصال بممالك أسبانيا النصرانية وبالقرى النصرانية فى البلاد الأخرى ، لاستعدادها على مسلمى الأندلس ، وتسهيل الطريق أمامهم لاستعادة البلاد من أيديهم .

أما يهود الأندلس ، فرغم العلاقات الحسنة التى كانت تربطهم بالمسلمين هناك ، ورغم تمتعهم بأكثر مما تمتع به نصارى الأندلس من امتيازات ، إلا أنهم تأمروا على سادتهم من الحكام المسلمين ، وحاول بعضهم إقامة دولة منفصلة لهم فى جنوبى البلاد ، لولا بطش المسلمين بهم والقضاء على مشروعاتهم . ولما رأى اليهود بثاقب فكرهم أن ميزان القوى أصبح فى صالح نصارى الشمال الأسبانى فى عصر ملوك الطوائف خدموا عندهم وعملوا لهم سفراء ووزراء ، ودلوهم على عورات المسلمين وانقلبوا عليهم . وكان اليهود دائماً يمشون فى ركاب من غلب ، لتأمين مصالحهم وخدمة أهدافهم .

كذلك كانت العناصر الأجنبية التى استعان بها حكام الأندلس والتى تتمثل فى البربر والصقالبة ، من الأسباب الرئيسية فى إضعاف الحكم الإسلامى فى البلاد . ذلك أن هذين العنصرين كانا يعملان أيضاً لمصلحتهما الخاصة ، وظهر ذلك بشكل واضح أيام ضعف الأمراء والخلفاء من بنى أمية ، وفى عصر ملوك الطوائف بالذات ، وكانوا بذلك معول هدم فى غالب

الأيام . صحيح انهم ساعدوا الامارة والخلافة في تنفيذ مشروعاتها الحربية ضد نصارى الشمال الأسباني ، لكنهم لم يتمكنوا من القضاء على هؤلاء النصاري ولم يجتثوا الخطر من جذوره ، بل انهم تحالفوا معهم في بداية القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي لضرب الخلفاء الأواخر بعضهم ببعض ، حتى يقتسموا البلاد فيما بينهم ، وساعدوا بذلك على اضعاف البلاد وخضوعها لأسبانيا النصرانية .

وقد ادت الكراهية المترسبة بين العرب والبربر الصقالبة وبين العرب وبين مسلمي الأسبان المعروفين بالمولدين ، وبين المسلمين وبين النصاري من أهل الذمة ، الى أن القوى الاجتماعية التي كان يستند اليها الأمويون ، كانت مفككة وضعيفة ، بسبب الأحقاد التي تراكت جيلا بعد جيل بين فئات الشعب والجيش المختلفة ، والتي تنخر في جسد الدولة ، كما ينخر السوس في الحطب . وهذا هو السر في ذلك الانهيار السريع الذي أصاب دولة بني أمية وبشكل فجائي ، عقب عصر ازدهار وقوة لم تشهد له البلاد مثيلا من قبل . وبذلك فان انهيارها كان من الداخل ، ولم يكن بسبب عوامل خارجية كتهديد جيرانها أو غزوهم لها ، اذ أنها كانت أقوى منهم ، وكانت قد اخضعتهم لسلطانها ، سواء في الشمال الأسباني أم في الشمال الإفريقي .

وكان اسراف بني أمية وبنى عامر في مشروعاتهم الحربية والعمرانية من العوامل التي أثرت في علاقاتهم مع نصارى الأسبان وادت الى انهيار دولتهم في النهاية . وقد قام بعض الفقهاء بدق ناقوس الخطر للتحذير من هذا الاسراف ، لكن حكام ذلك العصر لم يلتفتوا الى ذلك ، وقاموا ببناء مدن وقصور ارضاء لحظية من الحظايا أو تخليدا لاسم محبوب ، كما استنفذت حروبهم العديدة المستمرة في اسبانيا وفي شمال افريقيا معظم دخل الدولة واجهدت قواها ، وترتب على ذلك نتيجة في منتهى الخطورة . ذلك أنه في عصر ملوك الطوائف ، كان لا يمكن لهؤلاء الملوك أن يحصلوا على مثل تلك الأموال الطائلة للقيام بمشروعات حربية ماثلة ضد نصارى الشمال الأسباني ، بسبب تفتت البلاد وتعدد الخزائن التي تجبى اليها الأموال ، بتعدد الملوك والحكام . ومن هنا أتى العجز الشامل الدائم والضعف المستمر أمام القوى النصرانية الناهضة في قشتالة وليون ونبرة وأرغونة وبرشلونة .



وهذا الضعف الاقتصادي والعجز المالى يفسر لنا سرا من أسرار سقوط  
طليطلة فى يد الفونسو السادس عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م .

وأخيرا فان دراسة العلاقات بين الأندلس الاسلامية وأسبانيا  
النصرانية كشفت لنا نواحي الضعف والقوة فى دول شبه الجزيرة ، ووضعت  
يدنا على هذه النتائج التى أشرنا إليها حتى الآن ، وكانت فى ذلك كالمرآة  
التي رأينا فيها مجتمع شبه الجزيرة سواء كان مسلما أم نصرانيا على  
حقيقته ، وكشفت لنا عن سر أفراحه وأتراحه ، وعن فترات سلمه وهنائه ،  
وفترات صراعه وآلامه . وكان السر فى ذلك كله ، هو وحدة الجبهة  
الداخلية ، فإذا تواجدت ، كان النجاح والتوفيق والقوة فى العلاقات مع دول  
أسبانيا النصرانية ، وإذا غابت ، كان الفشل والاحباط والذلة والمهانة  
القومية .

كانت الجبهة الداخلية موحدة فى عهد معظم أمراء بنى أمية وخلفائهم ،  
فكان النصر للمسلمين على أعدائهم من نصارى الأسبان . وكانت الجبهة  
الداخلية مفتتة فى عهد ملوك الطوائف ، فكانت الهزيمة والخسران للمسلمين ،  
وتحققت فيهم نبوءة أحد ملوك الفرنجة حينما أشار على مسيحي الشمال  
الأسباني بأن يترثوا فى مقاومة المسلمين ويتركوهم حتى « تمتلىء أيديهم  
بالغنائم ويتنافسوا فى الرياسة » ، حينئذ يتمكن المسيحيون منهم ، وهذا  
ما حدث بالضبط منذ بداية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ،  
حينما تنافس الحكام المسلمون على الرياسة والسلطان . وكان سقوط طليطلة  
فى يد القوى النصرانية عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، هو بداية النهاية للمسلمين  
فى الأندلس ، تلك النهاية التى تأخرت طويلا ، بسبب جهود المرابطين  
والموحدين ، لكنها أتت وعادت الأندلس الى النصرانية من جديد .



# ملاحق البحث

.....

## ملحق رقم ( ١ )

### وصف استقبال الحكم المستنصر لأحد ملوك ليون ( جليقية ) (١)

ورد هذا الوصف عند المقرئ وهو يبين الى أى مدى وصلت الخلافة الأموية ومدى الضعف الذى وصلت اليه ممالك أسبانيا النصرانية ، حتى أن ملوكها لجأوا الى الخلافة يستصرخونها ضد بعضهم البعض ، كما يبين أيضا المراسيم الدبلوماسية فى استقبال الملوك والأهراء والسفراء التى شاعت فى هذا العصر . واليك نص وصف استقبال الحكم المستنصر لأحد ملوك ليون كما ورد عند المقرئ :

فى آخر صفر سنة احدى وخمسين وثلاثمائة ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليه محمدا وزيادا ابنى افلح الناصرى ، فى كتيبة من الحشم والخدم ، لتلقى غالب الناصرى ، صاحب مدينة سالم ، المورد للطاغية أردون ابن ادفونس ( اردونيون بن الفونسو ) الخبيث فى الدولة ، المتكلم على طوائف من أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير ( سانشو بن راميرو ) وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر بالله من ذاته ، غير طالب اذن ، ولا مستظهر بعهد ، وذلك عند ما بلغه من اعترام المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه فى التأهب له .

فاحتال فى تأميل المستنصر بالله ، والانتماء اليه وخرج قبل امان يعقد له ، أو ذمة تعصمه ، فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكفلهم غالب الناصرى الذى خرج اليه ، فجاء بهم نحو مولاد الحكم ،

---

(١) المقرئ ، أزمار للرياقص ، ج ٢ ، ص ٢٨٨ = ٢٩٤ .

وتلقاهم ابنا افلح بالجيش المخور ، فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانی يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشام بن محمد بن عثمان المصحفى ، فى جيش عظيم كامل التعبیه ، وقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون الى ما بين السدة وباب الجنان ، سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير الى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ، فخلع قلنسوته وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه .

وأمر المستنصر با نزال أردون فى دار الناعورة ، وقد كان تقدم فرشها بأنواع الغطاء والوطاء وانتهى من ذلك الى الغاية ، ويوسع له فى الكرامة وأصحابه ، فأقام الخيس والجمعة ، فلما كان يوم السبت ، تقدم المستنصر بالله باستدعاء أردون ومن معه ، بعد اقامة الترتيب وتعبئة الجيوش والاحتفال فى ذلك من العدد والأسلحة والزينة ، وقعد المستنصر بالله على سرير الملك فى المجلس الشرقى من مجالس السطح ، وقعد الاخوة وبنوهم ، والوزراء ونظرأؤهم صفا فى المجلس ، فيهم القاضى منذر بن سعيد ، والحكام والفقهاء ، فأتى محمد بن القاسم بن طلمس بالملك أردون وأصحابه ، وعلى لبوسه ثوب ديباجى رومى أبيض ، ولبلىوال من جنسه وفى لونه ، وعلى رأسه قلنسوة رومية منظومة بجوهر ، وقد حفته جماعة من نصارى وجوه الذمة بالأندلس ، يؤنسونه ويبصرونه ، فيهم وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة وعبيد الله بن قاسم مطران طليطلة وغيرها .

فدخل بين صفى الترتيب ، يقلب الطرف فى نظم الصفوف ويحيل النظر فى كثرتها وتظاهر أسلحتها ، ورائق حليتها ، فراهم ما أبصروه ، وصلبوا على وجوههم ، وتأملوا ناكسى رؤوسهم ، غاضين من جفونهم ، قد سكرت ابصارهم ، حتى وصلوا الى باب الأتباء ، أول باب قصر الزهراء ، فترجل جميع من كان خرج الى لقائه ، وتقدم الملك أردون وخاصة قوامسه ( أى امرائه ) ، على دوابهم ، حتى انتهوا الى باب السدة ، فأمر القواميس بالترجل هناك ، والمشى على الأقدام ، فترجلوا ، ودخل الملك أردون وحده راكبا مع محمد بن طلمس ، فأنزل فى برطل (٢) البهو الأوسط من الأبهاء

(٢) برطل ، كلمة اسبانية ومعناها سقفة عند باب البيت ، أو فى إحدى جوارب

للغناء ، ولا تزال تستعمل فى المغرب ، راجع تكملة المعجم العربية لحوزى ، ص ٢٧٥ .

القبليّة ، التي بدار الجند على كرسى مرتفع مكسو الأوصال بالفضل ،  
وفي هذا المكان بعينه نزل قبله عدوه ومناوئه شانجة بن رادير الوائد على  
الناصر لدين الله رحمه الله تعالى .

فقعّد اردون على الكرسي ، وقعد أصحابه بين يديه ، وخرج الاذن  
لأردون الملك من المستنصر بالله ، بالدخول عليه ، فتقدم يمشى وأصحابه  
يتبعونه الى أن وصل الى السطح ، فلما قابل المجلس الشرقي الذي فيه  
المستنصر بالله ، وقف وكشف رأسه ، وخلع برنسه ، وبقي حاسرا اعظاما  
لما بان له من الدنو الى السرير ، واستنهض ، فمضى بين الصفيّين المرتبين  
في ساحة القصر الى أن قطع السطح وانتهى الى باب البهو ، فلما قابل  
السرير ، خر ساجدا سويعة ، ثم استوى قائما ثم نهض خطوات ، وعاد  
الى السجود ، ووالى ذلك مرارا ، الى أن قدم بين يدي الخليفة وأهوى  
الى يده فناوله اياها ، وكر راجعا متقهّرا على عقبه ، الى وساد ديباج  
ممثل بالذهب ، جعل له هناك ووضع على قدر عشرة أذرع من السرير ،  
فجلس عليه والبهرقد علاه .

وانهض خلفه من استدنى من قوامسه وأتباعه ، فدنوا ممثلين فعله  
في تكرير الخنوع ، وناولهم الخليفة يده ، فقبلوها وانصرفوا مهقرين ،  
فوقفوا على رأس ملكهم ، ووصل بوصولهم وليد بن حيزون قاضي النصارى  
بقرطبة ، فكان الترجمان عن الملك أردون ذلك اليوم وأطرق الخليفة الحكم  
عن تكليم الملك أردون اثر قعوده أمامه وقتا ريثما يفرغ روعه ، فلما رأى  
أن خفف عليه ، افتتح تكليمه ، فقال : « ليسرك اقبالك ويفبطك تأمليك  
فلدينا لك من حسن رأينا فوق ما قد طلبته » . « فلما ترجم له كلامه اياه ،  
تطلق وجه أردون وانحط عن رتبته فقبل البساط ، وقال « أنا عبد أمير  
المؤمنين مولاى ، المتورك على فضله ، القاصد الى مجده ، المحكم فى نفسه  
ورجاله ، فحيث وضعنى من فضله ، وعوضنى من خدمته ، روجت أن  
اتقدم فيه بنية صادقة ونصيحة خالصة » .

فقال له الخليفة « أنت عندنا بمحل من يستحقه حسن رأينا ويناالك  
من تقديمنا لك وتفضيلنا اياك على أهل ملتك ، ما يفبطك ، وتتعرف به

فضل جنوحك الينا ، واستظللك بظل سلطاننا » ، فعاد أردون الى السجود عند فهمه مقالة الخليفة وابتهل داعيا وقال « ان شائجة بن عمى تقدم الى الخليفة الماضى مستجيرا به منى ، فكان من اعزازه اياه ما يكون من مثله من اعظم الملوك ، واكارم الخلفاء ، لمن قصدهم واملهم ، وكان قصده قصد مضطر ، فقد شئاته رعيته ، وانكرت سيرته ، واختارتنى لمكانه ، من غير سعى منى — علم الله ذلك — ولا دعاء اليه ، فخلعته وأخرجته عن ملكه مضطرا مضطهدا ، فتطول عليه رحمه الله بأن صرفه الى ملكه وقوى سلطانه واعز نصره . ومع ذلك فلم يقم بفرض النعمة التى أسديت اليه ، وقصر فى أداء الفروض عليه وحقه وحق أمير المؤمنين مولاى من بعده . وأنا قد قصدت باب أمير المؤمنين لغير ضرورة ، من قرارة سلطانى وموضع احتكامى ، محكما له فى نفسى ورجالى ومعاقلى ومن تحويه من ريعتى ، فشتان ما بيننا من قوة الثقة ، ومطرح الهمة » .

فقال الخليفة « قد سمعنا قولك ، ومهمنا مغزاك ، وسوف يظهر من اقراضنا اياك على الخصوصية فوق شأنه ، وبتراذف من احساننا اليك به أضعاف ما كان من أبينا رضى الله عنه الى نذك ، وان كان له فضل التقدم بالجنوح الينا ، والقصد الى سلطاننا ، فليس ذلك مما يؤخرك عنه ، ولا ينقصك مما أئلناه وسنصرفك مغبوطا الى بلدك ، ونشد أوأخى ملكك ، ونملك جميع من انحاش اليك من أمتك ، ونعتقد لك بذلك كتابا يكون بيدك ، نقرر به حد ما بينك وبين ابن عمك ونقبضه عن كل ما يصرفه من البلاد الى يدك ، وسيرادف عليك من أفضالنا فوق ما احتسبته . والله على ما نقول وكيل » .

فكرر أردون الخضوع وأسهب فى الشكر وقام للانصراف مقهقرا ، لا يولى الخليفة ظهره ، وقد تكفه الحفدة من جلة الفتيان ، فأخرجه الى المجلس الغربى فى السطح وقد علاه البهر وأذهله الروع ، من هول ما باشره وجلالة ما عاينه ، من فخامة الخليفة وبهاء العزة . فلما دخل المجلس ووقعت عينه على مقعد أمير المؤمنين خاليا منه ، انحط ساجدا اعظما له ، ثم تقدم الفتيان به الى البهو الذى بجوفى هذا المجلس ، فأجلسوه هناك على وساد مثقل بالذهب وأقبل نحوه الحاجب جعفر ، فلما بصر به قام



اليه ، وخضع له وأوماً الى تقبيل يده ، فقبضها الحاجب عنه ، وانهى اليه فعانقه ، وجلس معه فغبطه ، ووعدته بانجاز عادات ( وعود ) الخليفة له بما ضاعف سروره ، ثم أمر الحاجب جعفر فصب عليه الخلع التى أمر بها الخليفة ، وكانت دراعة منسوجة بالذهب ، وبرنسا مثلها ، له لوزة مفرغة من خالص التبر ، مرصعة بالجواهر والياقوت ، ملأت عين العليج تجلة ، فخر ساجدا وأعلن بالدعاء .

ثم دعا الحاجب أصحابه رجلا رجلا فخلع عليهم على قدر استحقاقهم ، فكمل ذلك بحسب ما يصلح لهم وخر جميعهم خاضعين شاكرين ، ثم انطلق الملك أردون وأصحابه ، وقدم لركابه فى أول اليهو الأوسط فرس من عتاق خيل الركاب ، عليه سرج جلّى ، ولجام حلى مفرغ وانصرف مع ابن طملىس الى قصر الرصافة مكان تضييفه ، وقد أعد له فيه كل ما يصلح لمثله من الآلة والفرش والماعون ، واستقر الملك أردون وأصحابه فيما لا كفاء له من سعة التضييف وأرغاد المعاش ، واستشعر الناس من مسرة هذا اليوم وعزة الاسلام فيه ما أنفأوا فى التبجح به ، والتحدث عنه أياما .

وكانت للخطباء والشعراء بمجلس الخليفة فى هذا اليوم مقامات حسان ، وأنشادات لأشعار محكمة متان ، يطول القول فى اختيارها .

## ملحق رقم ( ٢ )

### الردوة للوحدة وعدم الاستعانة بالنصارى (١)

هذه رسالة من أحد ملوك الطوائف في بداية القرن الخامس الهجرى ، جاءت على لسان كاتبه أبى عبد الله البزليانى الى صاحبى شاطبة (٢) يدعوها فيها الى السلم وترك الخلاف والصراع مع المظفر أبى محمد ، ذلك الصراع الذى أدى بهما الى الاستعانة بنصارى الشمال الأسباني .. والرسالة تبين خطر هذا الاتجاه ، كما تصف حالة البلاد فى ذلك الوقت ، نهى رسالة هامة ، وهاك نصها :

« كتبت يا سيدي ، ومشارب الآمال قد تكدرت ، ووجود المحاسن قد تغيرت ، وأيدى التوازر (٣) قد قصرت ، وسبيل التناصر قد توعرت ، الا ان يتلافى الله الخلل بتسديد نظركما وينعش الأمل بحميد أثركما ، فينظم الشمل ويصل الحبل ، ويسد الثلم ويشد الحزم ويرفع المنخرق ، ويجمع المفترق ، ويضع الأصر ، ويرفع الوزر ، ويعيد الكلمة متفقة ، والأمة متسقة والأيدى متأيدة ، والنفوس متوددة والأهواء متعاضدة ، والأنحاء واحدة والدماء محقونة والعاقبة مأبونة ، والله تعالى يعين كلا على الصلاح ويفضى بنا الى النجاح بعزته .

واتصل بى ما وقع بينكما وبين المظفر أبى محمد من التنازع الذى أخاف أن يفضى بكم الى التقاطع ، وورد على كتابكما الكريم فى ذلك مما ترقيبت انعدام أجله وتنظرت (٤) انحسام علله ، حتى خشيت أن يتهدى بكم اللجاج ، ويتعاصى (٥) فى أموركم الصلاح ، واشفقت من اذلال الشيطان

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، ج ٢ ، ص ٤٥٤ - ٤٥٦ .

(٢) صاحبى شاطبة هما مبارك ومظفر العامريين .

(٣) للتوازر : التنازر .

(٤) تنظرت : انتظرت .

(٥) يتعاصى : يستعصى .

بمخاتله ، واطلال الخزلان بحبائله ، فيقرع الثكلان سنه من الندم ، وينطوى الجران على يده من الألم . وحالى يا سيدى فى الأخذ من أحوالكما بأوفر نصيب ، والنزع فى أموركما بأكبر ذنوب ، حال من أعدكما لحوادث الزمن وكوارث المحن ، واعتقد كمال العدة الكافية والعصمة الواقية فيما استتر وعان ، وظهر وبطن ، فلم أر نفسى فى سعة من اهمال التذكرة واغفال التبصرة ، والله يعيذ الكل من الشتات والشمات ويعيدكم الى المواساة والمواتاة .

ولم يخف عليكما ما فى صلاح ذات البين من الفوز بخير الدارين وأمن العباد وخصب البلاد واعزاز الدين واذلال القاسطين وتوهين المشركين ، وقوة العضد ووفور العدد ، ودعة الأجسام والدعة من الآثام وستر العورات وحفظ الحرمات والانتهاى الى حدود الله والازدجار بزجره والتأدب بأدبه والائتمار بأمره ، فانه يقول عز من قائل « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » (٦) . وقال « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » (٧) وقال صلى الله عليه وسلم « لا تقاطعوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله اخوانا وعلى طاعته أعوانا » .

وقد علمتم انه لم يهلك من هلك من الأمم الماضية والقرون الخالية الا بتقاطعهم وتحاسدهم وتدابيرهم وتخاذلهم ، وأن اللجاج مطية الجهل ، والهوى آفة العقل ، والحمية من أسباب الجاهلية والعصبية من العنجهية ، والحرب مشتقة المعنى من الحرب ، مع ظنك المتغلب وكأنه المنقلب . تقيم الأطفال وتلتهم الرجال ، سوق لا ينفق حاضرها غير النفوس والأرواح ، وشرب يتعاطون المناسيا بظبا السيوف وأطراف الرماح ، مصرعهم دائر وصارعهم خاسر ، وماضيهم نادم وباقيهم واهم .

والذى يحملون من أوزارهم وأوزار مع أوزارهم ، ويحتقبون من أعمارهم ، تسليط النصارى على المسلمين ، وعبثهم فى بلادهم يقتلون

(٦) سورة الأنفال ، آية رقم ١ .

(٧) سورة آل عمران ، آية ١٠٣ .

ويأسرون ، فالأموال مستهلكة ، والحرمان منتهكة والدماء مهراقة ، والنساء مستأقاة ، وعقد الدين مفسوخ ، وعهد الاسلام منسوخ ، والكفر عال على الايمان ، والسوء غالب على الاحسان ، فقد بلغنى ان مذهبكم الاستجاشة بالنصارى الى بلاد المسلمين ، يطئون ديارهم ويعفون آثارهم ويجتاحون أموالهم ، ويسفكون دماءهم ، ويستعبدون أبناءهم ويستخدمون نساءهم . وان نفذ هذا — واعوذ بالله — فهى حال مؤذن بالذهاب ، وجريرة تؤذن بالخراب ، ولم نأمن ان يظهر لهم من الخلل فى بلادنا والقتلة فى اعدائنا ، ما يجرئهم علينا ويجرهم الينا ، بما لا نقدر على مكائرتهم فيه ، ولا نقوى على مصابرتهم به ، فتلك الواقعة التى لا ينتعش عثورها والقارعة التى لا ينجبر كسرهما .

ولم أجد يا سيدى وعدتى دواء أنجع ولا سعيًا أنفع ، من صلة يدي بيد الفتى الكبير فلان ، فى توسطه هذه الأحوال بينكم ، والثانى لاصلاح ما فسد منها عليكم ، ولم نلف (٨) سببًا الى كشف هذه الغايات وفتح هذه المبهمات ، أقوى فى النجاح وأهدى الى الصلاح من بعث اعلام بلدنا ووجوه رجالنا .

(٨) لعلها : نلق .

### ملحق رقم ( ٣ )

#### رسالة الفونش السادس الى المعتمد بن عباد

قبل موقعة الزلاقة (١) عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م

هي رسالة هامة ارسلها الفونش السادس ملك قشتالة وليون وأقوى ملوك اسبانيا النصرانية الى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية . وأهمية هذه الرسالة تكمن في اشارتها الى خيانة المعتمد وتواطئه مع الفونش السادس في استيلائه على طليطلة عام ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م من يد بنى ذى النون . وهاك نص الرسالة :

من الأبيطور ذى الملتين ، الملك المفضل الأدفنش ابن شانجة الى المعتمد بالله ، سدد الله رأيه وبصره مقاصد الرشاد وسلام عليك من مشيد شرفه الغنى وثبت في المنى فاهتز اهتزاز الرمح بعامله والسيف بساعد حامله ، وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها ، وما صار بأهلها حين حاصرها بما صار في هذه السنين ، فأسلمتم اخوانكم وعطلتكم بالرعاية زمانكم ، والحذر من ايقظ الله قبل الوقوع في الحباله ، ولولا عهد سلف بيننا نحفظ زمامه ونسعى بنور الوفاء أماله لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورايده ، ووصل رسول العدو وارده ، لكن انذار يقطع الاعذار ، ولا يجعل الأمر خوف الفوت فيما يرومه ، او خشى العاقبة على من يسومه ، وقد حملنا الرسالة اليك القرط البرهانس وعنده من التجريد الذي يلقي به امثالك والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك ، فيها وجب استنابته فيما يدق ويجل ، وفيما يعلم لا فيما يحل ، وانت عندما تأتي به من ورائك والنظر بعد هذا من ورائك والسلام عليك يسعى بينك وبين يديك .

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموسية ص ٢٢ - ٢٣ .

## رد المعتد بن عباد على رسالة الفونش السادس (٢)

ولما وصلت رسالة الفونش السادس المشار إليها إلى المعتد بن عباد ، كتب الأخير الرد عليه بخطه فيما يلي :

« من الملك المنصور بفضل الله المعتد على الله محمد بن المعتد بالله  
أبى عمر بن عباد إلى الطاغية الباغية أدفونش بن شانجة الذى لقب نفسه  
بملك الملوك وسماها بذى اللتين ، قطع الله بدعواه سلام على من اتبع  
الهدى . ( أما بعد ) ، فانه أول ما نبداً به من دعواه أنه ذو اللتين  
والمسلمون أحق بهذا الاسم ، لأن الذى يملك من أمصار البلاد وعظيم  
الاستعداد ومحبى الملكة ، لا تبغله قدرتك ، ولا تعرفه ملتكم ، وانما كانت  
سنة أيقظ منها منادىكم ، وأغفل عن النظر السديد فركبنا مركبا عجز نسخه  
الكيس وعاطيناك دمة كؤوس قلت فى أثنائها ليس مباديك تعلم أنا فى العدد  
العديد والنظر السديد .

ولدينا من كمات الفرسان وحيل الانسان وحماة الشجعان يوم يلتقى  
الجمعان ، رجال تدرعوا الصبر وكرهوا الفقر ، تسيل نفوسهم على حد  
الشفار ، وتناهم السهام فى القفار ، يديرون رحى الفنون بحركة العزائم ،  
ويشفون عن خطب الجنون بخواتم العزائم ، ولما تستجبر (٢) أن تأمر بإسلام  
البلاد فى أرجالك ، وانا لنعجب من استعجالك برأى لم تحكم انجازه ،  
ولا حسن انتخابه ، واعجابك بصنع رافقتك فيه الأقدار ، واغتررت بنفسك  
أسوأ اغترار ، قد أعدوا لك ولقومك جلادا أزلية الاتفاق ، وشفارا حدادا  
شحدمه (٤) الاصفاق ، وقد يأتى المحبوب من المكروه ، والندم من  
الشهورة (٥) ، نبهت من غفلة طال زمانها ، وأيقظت من نومة عاد إيمانها .

(٢) ابن الخطيب ، الحل ، ص ٢٣ - ٢٥ .

(٣) تتجسراً .

(٤) لعلها : شديدة .

(٥) لعلها : التهور .



## ملحق رقم ( ٤ )

### رسالة المعتمد بن عباد الى يوسف بن تاشفين

#### يستصرخه فيها ضد الفونش السادس (١)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، الى حضرة الامام أمير المؤمنين (٢) وناصر الدين محيى دعوة الخليفة الامام أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بن تاشفين القائم بعظيم اكبارها ، الشاكر لاجلالها ، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها ، اللانذ بحرما المنقطع الى سمو مجدها من المستجير بالله محمد بن عباد ، سلام كريم يخص بالحضرة المعظمة السامية ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتب المنقطع الى كريم سلطانها من أشبيلية فى غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٩ هـ وانه أيد الله أمير المسلمين ونصر به الدين ، فاننا نحن العرب فى هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا ، وتغيرت انسابنا بقطع المادة عنا من صنيعتنا ، فصرنا فيها شعوبا لا قبائل ، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر ، فقل نصرنا وكثر شامتنا ، وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أدفونش ، واناخ بطليطة ووطنها بقدمه ، وأسر المسلمين ، وأخذ البلاد والقلاع والحصون .

ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصره داره ولا أخيه ، ولو شاعوا لفعلوا ، الا أن الهواء والماء منعهم عن ذلك ، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال ، وأنت أيدك الله سيد حمير وملكها الأكبر ، وأميرها وزعيمها ، نزعنا بهمتى اليك ، واستنصرت بالله ثم بك ، واستغثت بحرمك لتجوز لجهاد هذا العدو الكافر ، وتحيون شريعة الاسلام وتدينون على دين محمد عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم ، والأجر العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم » .

(١) ابن الخطيب ، الحلل الموشية ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) لم يتخذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المؤمنين وانما اتخذ لقب أمير المسلمين بحليل

ما يقوله بعد ذلك فى نفس الرسالة « انه أيد الله أمير المسلمين » الخ .



## رد ابن تاشفين على رسالة المعتمد السابقة (٣)

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، من أمير المؤمنين (٤) وناصر الدين ، معين دعوة أمير المؤمنين ، الى الأمير الأكرم المعتمد على الله أبى القاسم محمد بن عباد ، ادام الله كرامته بتقواه ، ووفقه لما يرضاه ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

( أما بعد ) فانه لما وصل خطابكم الكريم ، وقفت على ما تضمنه ، من استدعائنا لنصرتك وما ذكرته من كربتك ، وما كان من قلة حماية جيرانك ، فنحن يمين أئمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك ، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى ، وانه لا يمكننا الجواز الا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكى يكون جوازنا اليك على أيدينا متى شئنا ، فان رأيت ذلك ، فاشهد على نفسك بذلك وأبعث اليها بعقودها ونحن فى اثر خطابك ان شاء الله .

---

(٣) ابن الخطيب ، الحلل المؤشيه ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) سبقت الإشارة الى خطأ هذا اللقب والصحيح انه اتخذ لقب أمير المسلمين بجليل ما يقوله فى نفس العبارة « معين دعوة أمير المؤمنين » والمقصود بذلك هو الخليفة العباسى .

## ملحق رقم ( ٥ )

### خطاب النصر في موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م (١)

كتب المعتمد بن عباد ملك أشبيلية رسالة أرسلها بالحماس الى ولده الرشيد عقب الفراغ من وقعة الزلاقة قال فيها « يا ابنى أبقاه الله وسلمه ووقاه الأسواء وعصمه واسبغ عليه آلاءه وأنعمه . كتبته وقد أعز الله الدين ، وظهر المسلمون وفتح لهم على يدى الفتح المبين ، بما يسره الله تعالى وشاء ، وقدره سبحانه وقضاه ، من هزيمة أدفونش بن فرذلند ، لعنه الله وإصلا نكال الجحيم ، ولا أعدمه العيش الذميم ، كما قنعه الخزي العظيم . واتى القتل على أكثر رجاله ، واتصل النهب سائر اليوم والليل المتصلة به جميع محلاته وجمع من رؤوسهم بين يدى من مشهورى رجالهم ومذكورى أبطالهم ، ولم يختار منهم الا من شهر وجرب ، وامتلأت الأيدي مما سلب ونهب .

والذى لا مربة فيه أن الناجى منهم قليل ، والمفلت بسيوف الجزع والبعد قليل ، ولم يصبنى بفضل الله الا جرح أشوى ، وحسن الحال عفدا والله وزكا . ولا يشغل بذلك بال ، ولا يتوهم غير الحال التى أشرت اليها حال . والأدفونش بن فرذلند ان لم يصبح تحت السيوف فسيموت كهدا ، وان كان لم تعلقه أشراك الحمام اليوم ففدا ، فاذا ورد كتابى هذا فمر بجمع الخاص والعام من أهل أشبيلية وجيرانها الأقربين وأصفيائها المحبين ، فى المسجد الجامع أعزهم الله ، وليقرأ عليهم فيه ، ليأخذوا من المسرة نصيبهم ، ويضيفوا شكر الله الى صالح دعائهم والسلام .

(١) ابن الخطيب ، المحلل الموشية ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

## ملحق رقم ( ٦ )

### القس القرطبي ودوره في اثارة الفتنة الدينية في عهد اماره

بنى امية في الفترة ( ٢٣٤ - ٢٤٥ هـ / ٨٤٨ - ٨٥٨ م )

كان يولوجيوس Eulogious قسيس ينتهى الى اسرة قرطبية عريقة ومعروفة بولائها للمسيحية وكراهيتها للاسلام . درس في كنيسة القديس زيلوس — أحد شهداء المسيحية ربما أيام دقلديانوس — وتقوى حتى على اساقفته ، وتأثر كثيرا بأحدهم من المتعصبين ، وهو Abbet Spera - in De الذى ألف كتابا في تنفيذ العقيدة الاسلامية وفي أهمية موت الاستشهاد . وهذا الأستاذ الغيور المتعصب هو الذى أثر في نفس يولوجيوس كثيرا وعُده تقابل مع الفارو Alvaro . ذلك الشاب القرطبي الغنى النبيل والذى كان يشارك يولوجيوس مشاعره رغم أنه لم يكن قسيسا . وهكذا نشأت صداقة وطيدة بين الفارو ويولوجيوس الذى أصبح قسيسا لكنيسة القديس زيولوس . ثم زار ببلونة عاصمة مملكة نبرة ( نافار ) عام ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وعاد الى قرطبة ليشتعل فيها حريق التعصب والفتنة الدينية ، وشجع الفتيان والفتيات — حتى المسلمات بعد اغرائهن وتصرهن — على نسب الاسلام وصاحب الدعوة .

ولما اشتدت الفتنة وشعرت الحكومة بالحرص رأت أن تعالجها اول الامر بالحكمة فدعا الأمير عبد الرحمن الأوسط ( ٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٠ - ٨٥٢ م ) الى عقد مؤتمر كنسى لمعالجة هذا الأمر . فقام ريكافريد RReccafred مطران اشبيلية بالدعوة لعقد المجتمع الكنسى ، ومثل الأمير عبد الرحمن فى هذا المجمع القومس Gomez الذى أسلم فيما بعد وصار من كتاب الأمير محمد ( ٢٣٨ - ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٧ م ) .

ورغم اصدار المجمع قرارا بمنع أعمال الاستشهاد وبسجن من يحرض عليها من جديد ، الا أن يولوجيوس شهر بقرارات المجمع وأنها لم تدن أعمال

الاستشهاد ، واتهم أعضاء المجمع بالخوف والجبن والعمالة ، بل انه رمى المعارضين له من الأساقفة بأنهم كانوا يبتغون الاسلام ويظهرون المسيحية . هكذا بلغ تعصبه ، ولم يدر أن كثيرا من المسيحيين كانوا معتدلين ، ويعملون أعمال الاستشهاد بأن الشهداء قد أثارهم الكبرياء والعجب وحب البطولة ، لذلك وصف هؤلاء المعتدلون الاستشهاد بأنه عمل انتحارى وليس استشهادا دينيا ، لأنه ليس هناك ما يدعو اليه . فالأمراء الأمويون يسيرون على سياسة التسامح ، والقضاة أنفسهم لا يحكمون بالاعدام على الفور بل انهم كانوا يلتمسون مساعدة هؤلاء المتهمين ويحاولون اقناعهم بانكار ادعاءاتهم ضد الاسلام ، لكنهم كانوا يصرون على أقوالهم تحت تأثير يولوجيوس وأمثاله من المتعصبين . واعترف يولوجيوس نفسه بسماحة المسلمين بعد أن امتنع القاضي عن اصدار حكم عليه بالموت ، وأمر بارساله الى القصر ليرى الوزراء رأيهم فيه .

وهناك قابله أحد الضباط الذى كان يعرفه جيدا ونصحه ألا يستهويه عمل هؤلاء الجهلاء وهو الرجل المتعلم المستنير . هنا فقط شعر يولوجيوس بأن المسلمين أقل وحشية مما كان يعتقد . وكان هناك شعور بحب الحياة في نفسه ونفس غيره ، وعاد الى الاسلام كثير من النصارى بعد قرار المجمع الكنسى ٢٢٨ هـ / ٨٥٢ م وغير كثير من العلمانيين والأساقفة ممن كانوا يؤيدون أعمال الاستشهاد رأيهم . هنا نهض يولوجيوس للرد على هؤلاء وألف الكتب في ذلك مثل كتابه *Memorial of the Saints* ( ذكر القديسين ) وفيه رد على معارضيه ، وساق حججا من الانجيل تؤيد أعمال الاستشهاد .

وظل يولوجيوس يثير النصارى ويبث الكراهية في نفوسهم ويحرضهم حتى انتشرت الفتنة في طول البلاد وعرضها ، وسقط الكثير من القتلى بسبب هذه الأعمال الطائشة ، منهم على سبيل المثال أسقف قرمونة المسى Theodemir . وظلت الفتنة تستشري حتى سقط يولوجيوس نفسه في المصيدة بعد أن أخفى إحدى الفتيات واسمها ( ليوكرتيا ) واعترف أمام القاضي انه هو الذى لقنها تعاليم المسيحية . ولم يعد هناك مناص من أن يسير الى النهاية التى قاد زملاءه ومواطنيه اليها . ولذلك قدم نفسه للموت بطريقة الشهداء ، وأعدم في عام ٣٤٥ هـ / ١١ مارس ٨٥٩ م .

ورغم ما قام به هذا القس المتعصب من اثاره للفتنة الا انه كان السبب في احضار بعض كتب الأدب اللاتينية من بمبلونة الى قرطبة ، ولا بد انه أخذ الى بمبلونة كتب المسلمين الدينية ليقوموا هناك بتفنيدها ثم يرسلونها اليه . وقد أحضر هو نفسه كتباً من هذا القبيل مليئة بالأباطيل والخرافات ضد الاسلام وصاحب الدعوة ، وظل دائم الاتصال بأسقف بمبلونة المسمى وليسند Wiliesind عن طريق الرسائل المتبادلة . وربما ما قام به يولوجيوس في هذا المجال قد أثار جدلاً فكرياً فيما بعد ، ودفع ببعض الكتاب المسلمين مثل ابن حزم لأن يؤلف كتابه الشهير « الفصل في الملل والأهواء والنحل » كما ألف كتاباً آخر للرد على افتراءات اليهود ضد الاسلام وسماه « الرد على ابن النغريلة اليهودي » .

---

أنظر :

Dozy, A history of the moslems in Spain, pp.  
273 - 274 , 285 - 2923 , 206 - 307.

بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .



# جداول البحث





## جداول البحث

### جدول رقم (١١)

#### أمرء وخلفاء بني أمية

١- عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداود

(١٣٨-١٧٢ هـ / ٧٥٦-٧٨٨ م)

٢- هشام الأول

(١٧٢-١٨٠ هـ / ٧٨٨-٧٩٦ م)

٣- الحكم الأول

(١٨٠-٢٠٦ هـ / ٧٩٦-٨٢٤ م)

٤- عبد الرحمن الثاني

(٢٠٦-٢٣٨ هـ / ٨٢٤-٨٥٢ م)

٥- محمد الأول

(٢٣٨-٢٧٣ هـ / ٨٥٢-٨٨٦ م)

٧- عبد الله

(٢٧٥-٣٠٠ هـ / ٨٨٨-٩١٤ م)

محمد

٨- عبد الرحمن الثالث الناصر

(٣٠٠-٣٥٠ هـ / ٩١٤-٩٦١ م)

٦- المنذر

(٢٧٣-٢٧٥ هـ)

(٨٨٦-٨٨٨ م)

٩- الحكم الثاني المستنصر

(٣٥٠-٣٦٦ هـ / ٩٦١-٩٧٦ م)

عبد الله

عبد الرحمن

عبد الملك

محمد

سليمان

الحكم

عبد الجبار

هشام

١٠- هشام الثاني المؤيد

(٣٦٦-٣٩٩ هـ)

(٩٧٦-١٠١٩ م)

(٤٠٠-٤٠٣ هـ)

(١٠١٩-١٠١٣ م)

١٥- محمد المستنفي

(٤١٤-٤١٦ هـ)

(١٠٢٣-١٠٢٥ م)

١٢- سليمان المستعين

(٤٠٠-٤٠١ هـ / ١٠١٠ م)

(٤٠٣-٤٠٧ هـ)

(١٠١٠-١٠١٦ م)

١٦- هشام المعتبد

(٤١٨-٤٢٢ هـ)

(١٠٢٧-١٠٣١ م)

١٣- عبد الرحمن المرتضى

(٤٠٧-٤٠٨ هـ)

(١٠١٦-١٠١٧ م)

١٤- عبد الرحمن

المستنصر

(٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م)

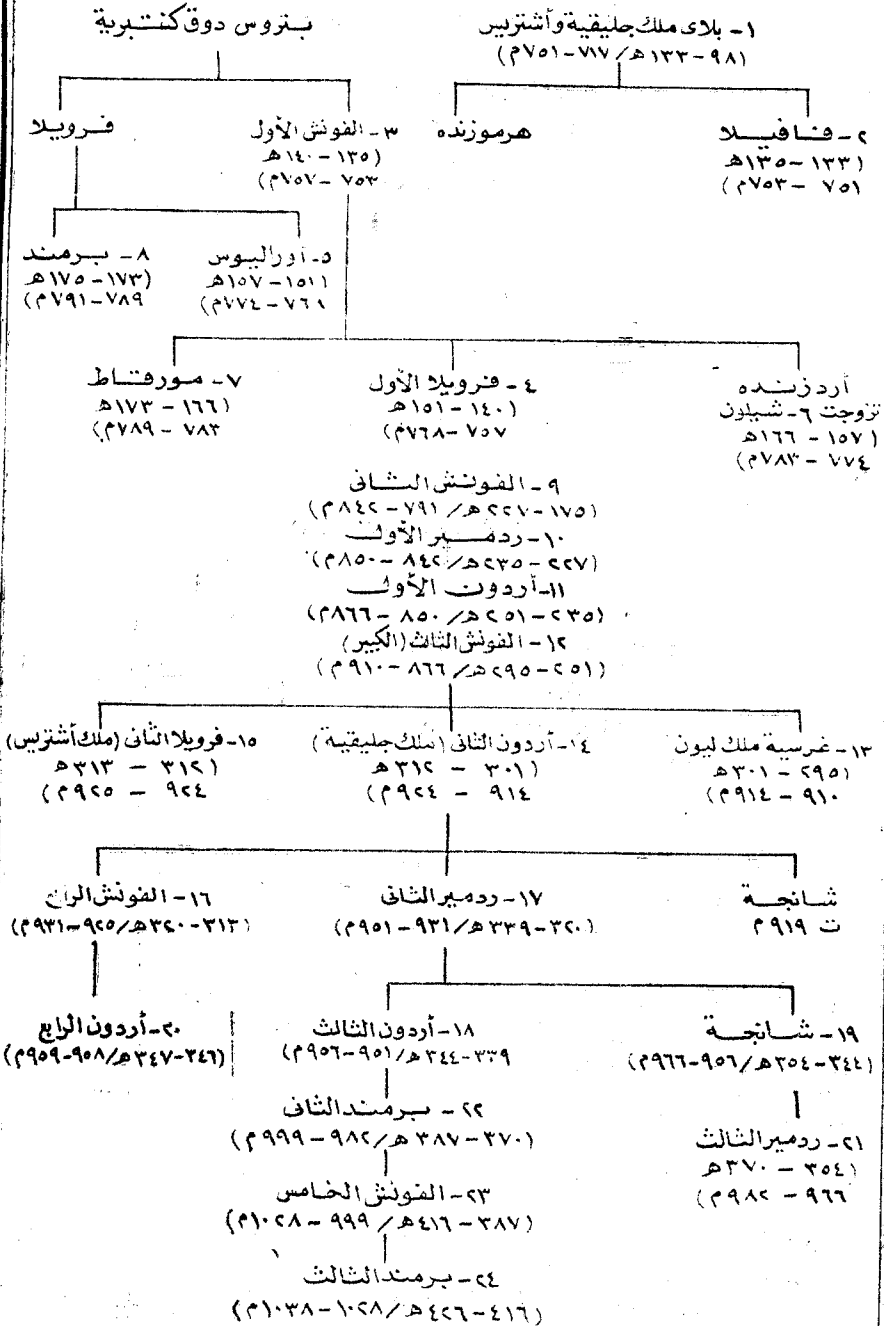
١١- محمد المهدي

(٣٩٩-٤٠٠ هـ)

(١٠٠٩ م)

## جدول رقم (٢)

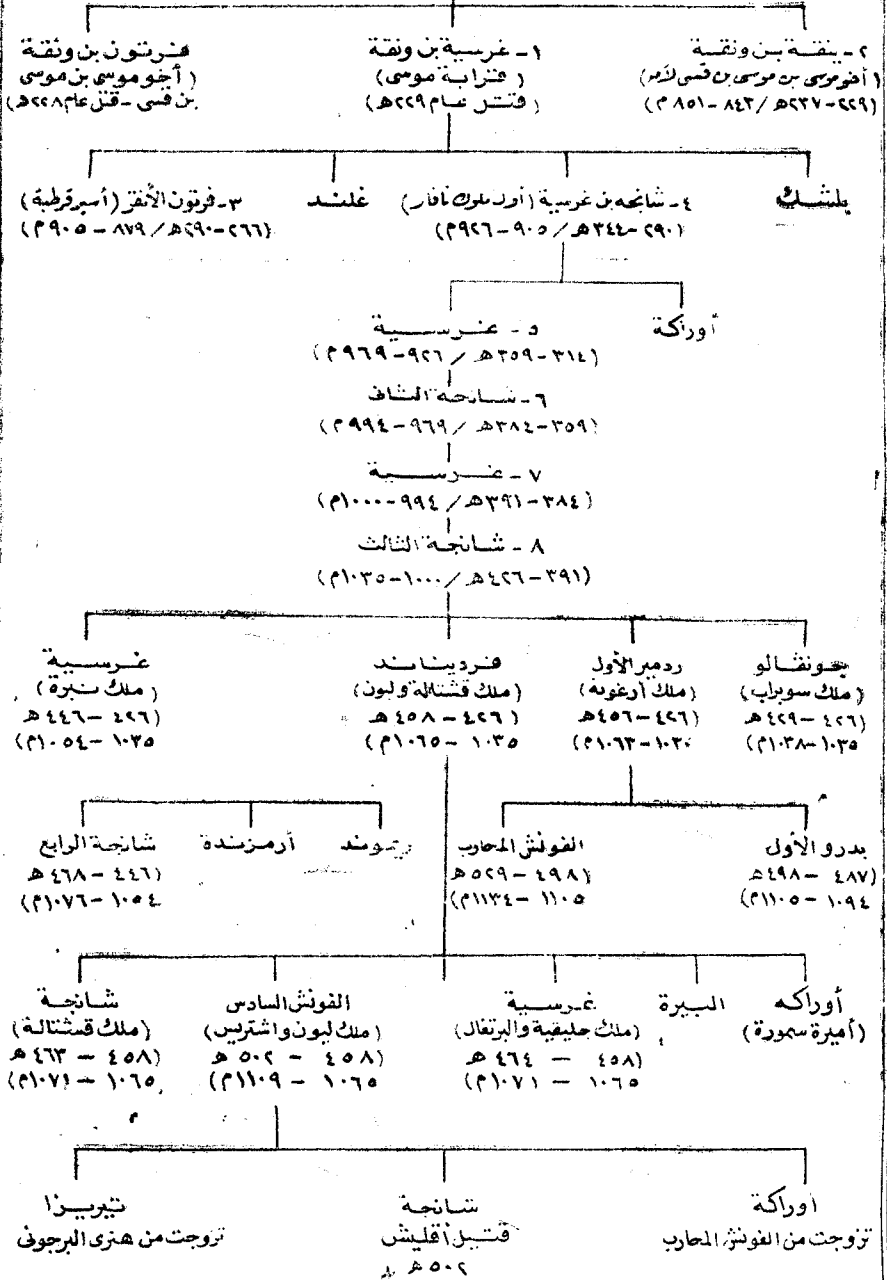
### ملوك ليون (جليقية وأشتريين)



## جدول رقم (٣)

### ملوك نبره (نافار)

#### ونقة بن شانحة (أبيجوارستا)



## جدول رقم (٤)

### أمراء قشتالة

١- فرديناند جونشالط

(٢١٩-٣٦٠ هـ / ٩٣١-١٢٩٠ م)

٢- غرسية

(٣٦٠-٣٨٥ هـ / ٩٧٠-١٠٩٥ م)

٣- شايحة

(٣٨٥-٤٠٧ هـ / ٩٩٥-١٠١٧ م)

السيرة  
(تزوجت شايحة الثالث  
ملك بيرة)

٤- غرسية  
(تزوج أخت برمند الثالث  
أغتيل - ليس له عقب  
فانتقل ملك قشتالة وليون  
إلى شايحة الثالث زوج البيرة)

طمرية  
(تزوجت برمند الثالث  
ملك ليون ومات دون عقب  
فانتقل ملكه إلى قشتالة)

## جدول رقم (٥)

### أمراء قطلونية (برشلونة)

١- ريموند برنجير الأول (رامون)

٢- برنجير رامون الأول

(٤٩١-٤٤٧ هـ / ١٠١٨-١١٣٥ م)

٣- رامون برنجير الأول

(٤٤٧-٤٦٩ هـ / ١٠٣٥-١٠٧٦ م)

برنجير الثاني

(٤٦٨-٤٨٩ هـ)

(١٠٧٦-١٠٩٤ م)

ثم رحل إلى المشرق للجهج  
والمشاركة في الحروب  
الصليبية هناك)

(حكم أسبانيا)

ريموند الثالث

(قتل عام ١٠٨٤ م)

ريموند الثالث

(تولى الحكم عام ٤٨٩ هـ / ١٠٩٤ م)

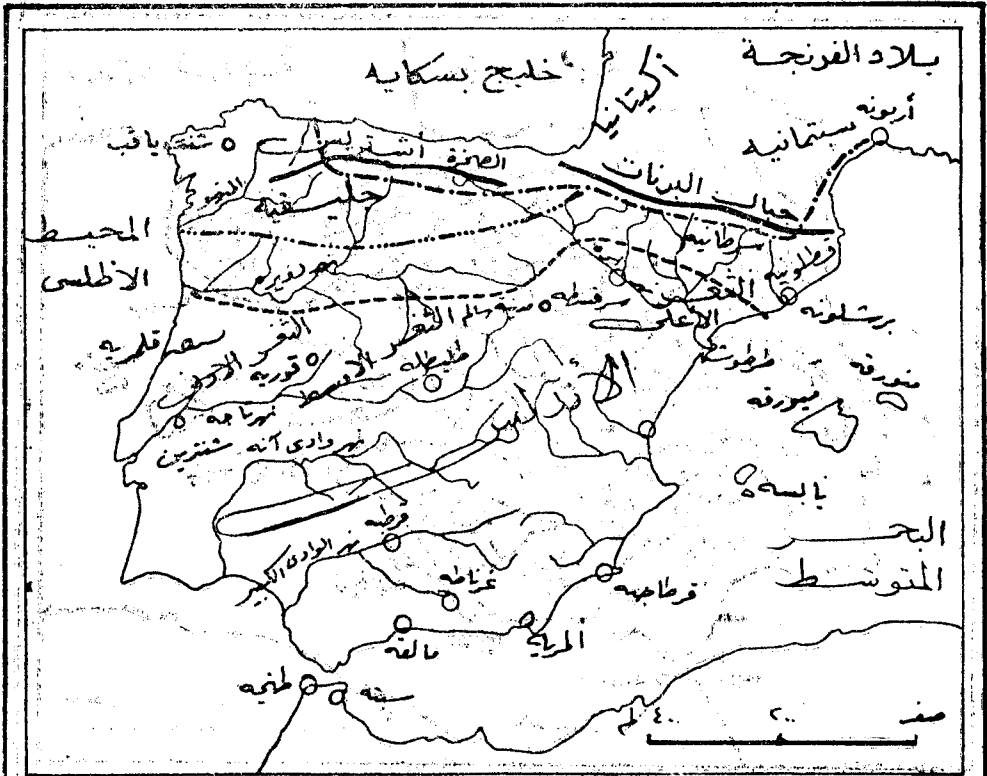
تحت حماية الفونس السادس

بعد رحيل عمه برنجير الثاني

إلى المشرق

وتزوج من أمة الهيدالغو

## خريطة ١٠



حدود الجمهورية العراقية

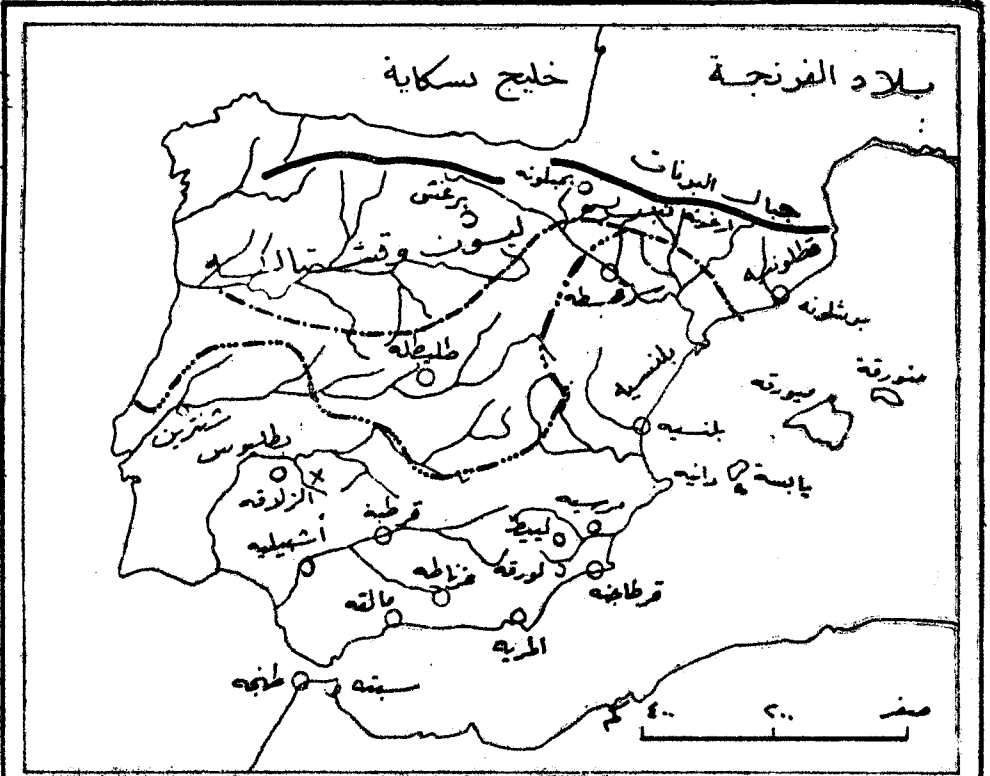
○ مدن هامة

----- الحدود الدولية الإسلامية عقب الفتح عام ٦٣٠ / ٦٩١

----- الحدود بين الزنلن الإسلامية وأسمانيا المصرية في بداية عصر الإدارة الأموية

----- الحدود بين الزنلن الإسلامية وأسمانيا المصرية في نهاية عصر الإدارة الأموية

## حُرْبَةُ رُقَم



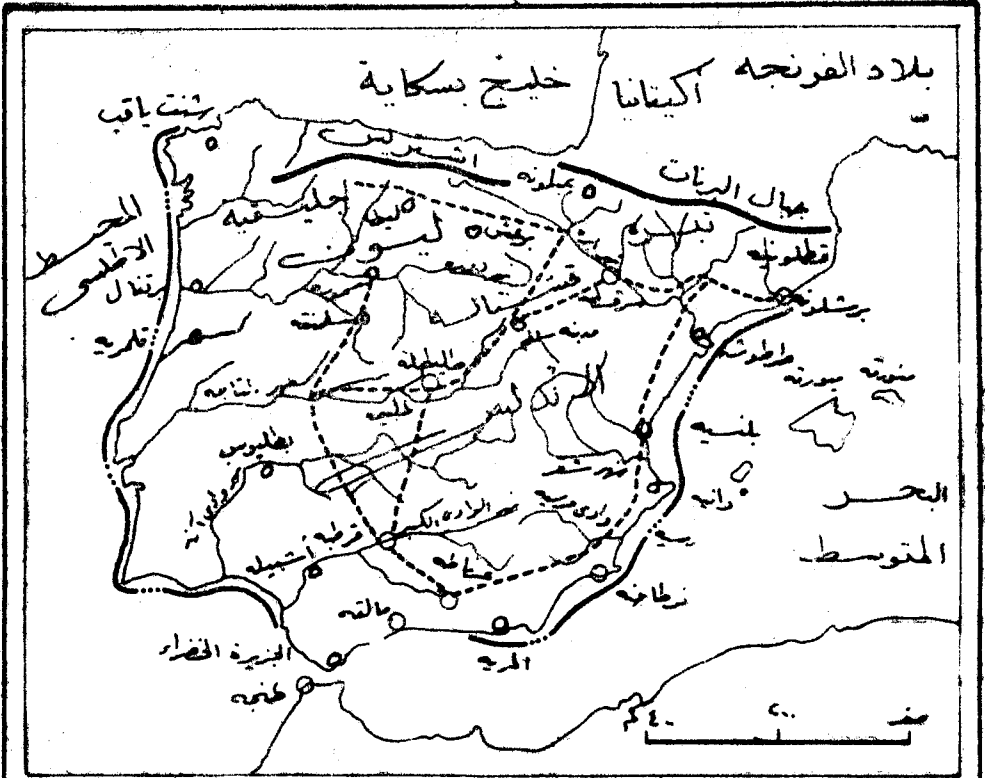
مسئلہ اول جہاں سے

○ مرن حمامة

..... المرد بين الأندلس الإسلامية وأسيايا الصخرية في خلية عصر الخلافة الأموية

... الحدود بين النزلتين الإسلامية وأراضي مصرانية في خلافة محمد بن عبد الملك الخوارج

خريطة رقم ٣



ساحل جبل

من

الطريق البرية بين قريّة وبين ماله أسبانيا النصارية

الطريق البحرية بين قريّة وبين ماله أسبانيا النصارية





## المصادر والمراجع

### أولا - المصادر العربية المخطوطة والمطبوعة

ابن الأبار ( ٥٩٥ - ٦٥٨ هـ / ١١١٩ - ١٢٦٠ م )

١ - الحلة السراء ، ج ١ ، ٢ ، تحقيق د. حسين مؤنس ، نشر الشركة العربية للطباعة والنشر ببصر ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٦٣ م .

٢ - المعجم في أصحاب القاضي الامام ابي علي الصدقي ، مدريد ١٨٨٥

ابن الأثير ( ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م )

٣ - الكامل في التاريخ ج ٤ - ٩ ، طبع القاهرة ، ١٢٩٠ هـ .

ابن ابي دينار ( ت ١١١٠ هـ )

٤ - المونس في اخبار افرقية وتونس ، الطبعة الأولى ، تونس ٢٣٨٦ هـ

ابن بسام الشنتريني ( ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٦ م )

٥ - الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، القسم الأول ، المجلد الأول والثاني .

٦ - الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، طبع القاهرة .

ابن بشكوال ( ٤٩٤ - ٥٧٨ هـ / ١١٠١ - ١١٨٢ م )

٧ - الصلة في تاريخ ائمة الأندلس ، ج ١ نشر السيد عزت العطار الحسيني ، طبع القاهرة ، ١٩٥٥ م

ابن بلقين ( ت ٤٨٩ هـ / ١٠٩٦ م )

٨ - مذكرات الأمير عبد الله ، تحقيق ليفي برونفيسال ، طبع دار المعارف بصر .

**ابن الجوزى ( ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م )**

- ٩ — مرآة الزمان فى تاريخ الأيمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥١ تاريخ .

**ابن حبيب ( ت ٢٣٨هـ / ٨٥٢م )**

- ١٠ — تاريخه ، جزء خاص بالأندلس نشره محمود على مكى بصحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدرید ، المجلد الخامس ١٩٥٧ م

**ابن حزم ( ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٦م )**

- ١١ — جمهرة انساب العرب ، تحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف بمصر ١٩٤٨م
- ١٢ — طوق الحمامة فى الألفة والألاف ، تحقيق حسن كامل الصيرفى طبع القاهرة .
- ١٣ — الرد على ابن النفريلة اليهودى ، تحقيق احسان عباس — طبع القاهرة ١٩٦٠
- ١٤ — نقط العروس فى تواريخ الخلفاء برواية الحميدى ، تحقيق شوقى ضيف ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٣ الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٥١ م
- ١٥ — رسائل ابن حزم الأندلسى ، المجموعة الأولى ، تحقيق احسان عباس ، القاهرة ١٩٥٥ م .
- ١٦ — الاحكام فى اصول الأحكام ، ج١ ، طبع القاهرة ١٩٦٣ م
- ١٧ — جوامع السيرة ، تحقيق احسان عباس ، دار المعارف بمصر .
- ١٨ — شذرات من كتاب السياسة لابن حزم ، نشر محمد إبراهيم الكنانى ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠ م .
- ١٩ — مداواة النفوس ، طبع مصر .

**ابن حوقل ( القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى )**

- ٢٠ — كتاب صورة الأرض ، ج١ ، طبع ليدن ١٩٦٧م

ابن حيان ( ت ٤٦٩ هـ / ١٠٧٩ م )

٢١ — المقتبس في تاريخ أهل الأندلس ، ج٣ نشر الأب طشور نطونية ،  
طبع باريس ١٩٣٧ م

ابن خلقان ( ت ٥٣٥ هـ / ١١٣٦ م )

٢٢ — قلائد العقيان ، طبع مصر ١٢٧٧ هـ  
٢٣ — مطمح الأئس ومسرح التانس في ملح أهل الأندلس ، طبع مصر

ابن الخطيب ( ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م )

٢٤ — أعمال الاعلام ، ج٢ تحقيق ليفي برونسسال ، طبع بيروت ١٩٥٦ م  
٢٥ — الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج١ ، تحقيق محمد عبد الله عنان ،  
دار المعارف بمصر ( سلسلة ذخائر العرب رقم ١٧ )  
٢٦ — الاحاطة في اخبار غرناطة ، ج٢ الطبعة الأولى ، مطبعة  
الموسمات بمصر ، عام ١٣١٩ هـ  
٢٧ — رقم الحلل في نظم الدول ، طبع تونس ١٣١٦ هـ  
٢٨ — الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، الطبعة الأولى ،  
تونس ١٩٢٩ م

٢٩ — معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، طبع فاس ، ١٣٢٥ هـ

ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م )

٣٠ — العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٤ ، ج٦ طبع بولاق ١٨٨٤ م  
٣١ — مقدمة ابن خلدون ، ج١ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥١ م  
٣٢ — مقدمة ابن خلدون ، ج٢ ، ج٣ ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٨ م

ابن خلكان ( ٦٠٨ — ٦٨١ هـ / ١٢١٠ — ١٢٨٤ م )

٣٣ — وفيات الاعيان ، ج١ — ٦ ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد  
نشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

ابن دحية ( ت ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م )

٣٤ — المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابيارى  
وآخرين ، طبع القاهرة ، ١٩٥٤م

ابن سعيد الغربى ( ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥م )

٣٥ — المغرب فى حلى المغرب ج ١ ، ٢ تحقيق شوقى ضيف ، الطبعة  
الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٥٥ م  
٣٦ — بسط الأرض فى الطول والعرض ، تحقيق خولان خونيس ،  
طبع تطوان بالمغرب ١٩٥٨م

ابن شاکر الکتبى ( ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٠م )

٣٧ — فوات الوفیات — ج ١ ، طبع بولاق ١٢٨٣هـ

ابن شهيد الأندلسى ( ت ٤١٩ هـ / ١٠٢٨م )

٣٨ — رسالة التوابع والزوابع ، طبع بيروت .

ابن عبد ربه الأندلسى ( ت ٣٣٦ هـ / ٩٤٨م )

٣٩ — العقد الفريد ، ج ٢ ، طبع مصر ١٢٩٣ هـ

ابن عبدون ( القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى )

٤٠ — ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، تحقيق  
ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ م

ابن عبد البر ( ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٥م )

٤١ — القصد والامم فى التعريف بأصول انساب العرب والعجم ، طبع  
القاهرة ١٣٥٠هـ

ابن عذارى ( القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى )

٤٢ — البيان المغرب ، ج ٢ ، تحقيق دوزى ، طبع بيروت .

٤٣ — البيان المغرب ، ج٣ ، تحقيق ليفى بروفنسال ، بيروت ، ١٩٦٩ م

٤٤ — البيان المغرب ، ج٤ ، الطبعة الرابعة ، تحقيق احسان عباس ، طبع بيروت ١٩٦٧ م

### ابن غالب الأندلسي ( القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي )

٤٥ — تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ج١ ، مايو ١٩٥٥ م

### ابن الفرضي ( ت ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م )

٤٦ — تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ، ج١ ، ٢ ، نشر السيد عزت العطار الحسيني ، طبع القاهرة ١٩٥٤ م

### ابن فضل الله العمري ( ت ٧٤٩ هـ / ١٣٣٦ م )

٤٧ — مسالك الابصار في ممالك الأمصار ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٥٩ معارف عامة قسم ١ ، ج١٦ ، قسم ٢ ، ج١٥ .

٤٩ — وصف افريقية والمغرب والأندلس ، مقتطف من كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، نشر حسن حسنى عبد الوهاب ، طبع تونس ١٩٢٣ م

### ابن قتيبة الدينوري ( ٢١٣ — ٢٧٦ هـ / ٨٢٧ — ٨٠٩ م )

٥٠ — الامامة والسياسة ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، طبع مصر ١٩٥٧ م

### ابن القوطية ( ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م )

٥١ — تاريخ افتتاح الأندلس ، الطبعة الأولى ، طبع مصر .

### ابن الكريديوس ( القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي )

٥٢ — الاكتفاء في اخبار الخلفاء ، نشر احمد مختار العبادي ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ١٣ عام ١٩٦٦/٦٥ م

## ابن هفيل :

٥٣ — تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٩ غروسية تيبور .

## ابن الوردى ( ت ٥٧٤٩ هـ / ١٢٣٦ م )

٥٤ — خريدة الجائب وفريدة الغرائب ، طبع القاهرة ١٢٧٦ هـ

## ابو الفدا ( ت ٥٧٣٢ هـ / ١٢٢٩ م )

٥٥ — تاريخه ، ج ١ ، ٢ ، طبع القسطنطينية ١٢٨٦ هـ

## الادريسي ( ت ٥٦٤٩ هـ / ١٢٥٣ م )

٥٦ — صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق ، طبع ليدن عام ٨٦٦ م .

## الاصطخرى ( ت ٥٣٥٠ هـ / ٩٦٢ م )

٥٧ — المسالك والممالك ، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسينى ، دار القلم بالقاهرة ١٩٦١ م .

## الانصارى ( ٨٠١ — ٨١٤ هـ / ١٣٩٩ — ١٤١١ م )

٥٨ — تفريج الكرب فى تدبير الحروب ، تحقيق جورج اسكاتون ، القاهرة ١٩٦١ م

## الباجى ( ت ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م )

٥٩ — وصية الشيخ أبى الوليد الباجى لولديه ، نشر جودة هلال ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمطريد ، المجلد الثالث ، ١٩٥٥ م

## البلانرى ( ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م )

٦٠ — فتوح البلدان ، الطبعة الأولى ، طبع مصر ١٩٠١ م .

## التطيلي ( ت ٥٢٥ هـ / ١١٢٩ م )

٦١ — ديوانه ، تحقيق احسان عباس ، طبع بيروت .

التمالبي ( ت ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م )

٦٢ — يتيمة الدهر ، جا تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ،  
الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ م .

٦٣ — يتيمة الدهر ، ج٢ ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٣٤ م .

الحجرى ( القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى )

٦٤ — ناصر الدين على القوم الكافرين ، مخطوط بدار الكتب المصرية  
برقم ١٦٣٤ ط

الحميدى ( ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م )

٦٥ — جذوة المقتبس فى ذكر ولاية الأندلس ، نشر مكتب الثقافة  
بالقاهرة .

الحميرى ( جمعه عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦٣ م )

٦٦ — صفة جزيرة الأندلس ، منتخب من كتاب الروض المعطار فى  
خبر الأقطار للحميرى ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧ م

الخشنى ( ت ٣٦١ هـ / ٩٧١ م )

٦٧ — قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، نشر السيد عطار الحسينى ،  
القاهرة ١٣٧٢ هـ .

الزبيدى ( ت ٣٧٩ هـ / ٩٩١ م )

٦٨ — طبقات النحويين واللفويين ، الطبعة الأولى ، تحقيق محمد  
أبو الفضل ابراهيم ، مصر ١٩٥٤ م .

السقطى ( القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى )

٦٩ — آداب الحسبة ، نشر ليفى بروفنسال وكولان ، المطبعة الدولية  
باريس ١٩٣١ م .

سـخـنـون :

٧٠ — المدونة الكبرى ، ج٤ .

السلوى ( ت ١٣١٥ هـ / ١٨٩٥ م )  
٧١ — الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج١ ، طبع مصر .

صاعد الأندلسي ( ت ١٢٦٢ هـ / ١٠٧٠ م )  
٧٢ — طبقات الأمم ، نشر الأب لويس شيخو ، نشر وطبع بيروت  
١٩١٢ م .

الضبي ( ت ٥٩٩ هـ / ١٢٠٣ م )  
٧٣ — بغية الملتبس في تاريخ رجال اهل الأندلس ، طبع مدريد ١٨٨٤م

الطرطوشي ( ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٤ م )  
٧٤ — سراج الملوك ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة  
١٣١٩ هـ .

المفرى ( ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م )  
٧٥ — نصوص عن الأندلس ، مأخوذ من كتاب ترصيع الأخبار  
وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك الى جميع  
الممالك ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مطبعة معهد الدراسات  
الاسلامية بمadrid ١٩٦٥ م .

العيني ( ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥٠ م )  
٧٦ — عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب  
المصرية برقم ١٥٨٤ تاريخ ، قسم ٢ ، ج٢ ، قسم ٣ ، ج٣ ،  
قسم ٤ ج١٩ .

الفرنطى ( ت ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م )  
٧٧ — تحفة الألباب ، نشر في Journal Asiatique, Sep. 1925.

الفسانى ( ت ١١١٩ هـ / ١٧٠٦ م )  
٧٨ — رحلة الوزير في افتكك الأسير ، طبع طنجة ١٩٤٠م .



### القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م)

- ٧٩ — صبح الأعشى ، ج٥ ، طبع القاهرة ١٩١٥ م .  
٨٠ — مآثر الانافة في معالم الخلافة ، ج٣ ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، طبع الكويت ١٩٦٤ م .

### المراكشي (ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م)

- ٨١ — المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نشر محمد سعيد العريان ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٤٩ م .

### المغربى : محمد الشطيبي

- ٨٢ — الجمان في أخبار الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٤١٦ تاريخ .

### المقرئ (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م)

- ٨٣ — نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج١ — ٤ ، الطبعة الأولى ، المطبعة الأزهرية بمصر ١٣٠٢ هـ .  
٨٤ — أزهار الرياض في أخبار القاضي غياض ، ج١ ، ٢ تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، طبع القاهرة ١٩٣٩ م .

### مجهول :

- ٨٥ — أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، طبع مدريد ١٨٦٧ م  
٨٦ — شرح حال الكنيسة ، طبع فالتة بمالطة ١٨٤١ م .  
٨٧ — الطببخ في المغرب والأندلس ، تحقيق امبروزيو أوينى ميراندا ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، مجلد ٩ — ١٠ عام ١٩٦٢/٦١  
٨٨ — مفاخر البربر ، نشر ليفى بروفنسال ، طبع الرباط ١٩٣٤ م

### النباهي (٧١٣ — ٧٧٦ هـ / ١٣٠٩ — ١٣٧٤ م)

- ٨٩ — تاريخ قضاة الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب المصرى بالقاهرة عام ١٩٤٨ م .

### التويرى (٧٣٢ هـ / ١٣٢٩ م)

- ٩٠ — نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج٢٢ ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٥٤٩ معارف عامة .

الهمداني :

٩١ — مختصر كتاب البلدان ، طبع ليدن ١٩٦٧ م .

الونشريشي ( ت ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م )

٩٢ — أسنى المتاجر في بيان من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، نشر د. حسين مؤنس ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمديرية المجلد الخامس ، عدد ١ ، ٢ عام ١٩٥٧ م .

ياقوت الحموي ( ت ٦٢٦ هـ / ١٢٣٠ م )

٩٣ — معجم البلدان ، ج ١ — ١٠ ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٠٦ م .

اليقوي ( ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م )

٩٤ — صفة المغرب ، مأخوذ من كتاب البلدان ، طبع ليدن ١٨٥٠ م

يوسا بيوس القيصري ( ٢٦٤ — ٣٤٠ م )

٩٥ — تاريخ الكنيسة ، ترجمة القس مرتص داود ، نشر دار الكرنك القاهرة ١٩٦٠ م .

## ثانيا - المراجع العربية والدوريات

أحمد أمين :

١ - ظهور الاسلام ، ج ٣ ، الطبعة الخامسة ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

أحمد زكي باشا :

٢ - السفر الى المؤتمر ، الطبعة الأولى ، بولاق ١٨٩٣م

٣ - أربعة عشر يوما سعيدا في خلافة عبد الرحمن الناصر ، طبع  
القاهرة ١٨٨٦م .

أحمد الششتاوي وآخرون :

٤ - دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثاني .

أحمد مختار العبادي :

٥ - صورة لحياة الحرب والجهاد في المغرب والأندلس ، مجلة  
البينة ، السنة الأولى ، العدد التاسع ، يناير ١٩٦٣ م

أميليو غرسيه غومس :

٦ - الشعر الأندلسي ، تعريب د. حسين مؤنس ، الطبعة الثانية ،  
مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ .

أنيس وزكريا التصولي :

٧ - الدولة الأموية في قرطبة ، ج ١ ، طبع بغداد ، ١٩٢٦م

آنخل جونثالث بالنتيا :

٨ - تاريخ الفكر الأندلسي ، تعريب د. حسين مؤنس ، الطبعة الأولى  
القاهرة ١٩٥٥م

بروكلمان :

٩ - تاريخ الشعوب الاسلامية ، ج ٢ ، تعريب نبيه أمين فارس ومغير  
البلعكي ، الطبعة الأولى ، دار العلم للملايين ، بيروت ،  
١٩٤٩م .

**بطرس البستاني :**

١٠ - معارك العرب في الأندلس ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٥٠م

**تسند :**

١١ - اسبانيا والبرتغال ، تعريب د. حسين مؤنس ، من كتاب  
The Legacy of Islam طبع القاهرة ١٩٣٦ م

**حسن أحمد محمود :**

١٢ - تاريخ الغرب الاسلامي ، دار النهضة المصرية ، القاهرة  
١٩٦٨ م .

**حسين مؤنس :**

١٣ - فجر الأندلس ، الطبعة الأولى ، الشركة العربية للطباعة  
والنشر ، القاهرة عام ١٩٥٩ م .

١٤ - الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات  
الاسلامية في مدريد ، مجلد ٧ ، ٨ لعام ١٩٦٠/٥٩ م ، مجلد  
١١ ، ١٢ لعام ١٩٦٤/٦٣ .

١٥ - سبع وثائق جديدة ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية  
بمدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤م .

١٦ - بلاى ميلاد اشتريش وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال  
اسبانيا ، مجلة كلية الآداب ، القاهرة ، المجلد ١١ ، ج١  
مايو ١٩٤٩م .

١٧ - الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب،  
جامعة القاهرة ، مجلد ١١ ، ج٢ ، ديسمبر ١٩٤٩ .

١٨ - تطور العبارة الاسلامية في الأندلس ، مجلة كلية الآداب ،  
جامعة عين شمس ، المجلد الأول ، ١٩٥١ م .

١٩ - السيد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين ، المجلة التاريخية  
المصرية ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، مايو ١٩٥٠ م .

٢٠ - أثر ظهور الاسلام في الأوضاع السياسية ، المجلة التاريخية  
المصرية ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، مايو ١٩٥١ م .

### حيدر بامات :

٢١ — مجالى الاسلام ، تعريب عادل زعيتير ، طبع القاهرة ١٩٥٦م

### خالد الصوفانى :

٢٢ — تاريخ العرب فى اسبانيا ، عصر المنصور ، دار الكتاب العربى .

### خليل ابراهيم السامرائى :

٢٣ — الثغر الأعلى الأندلسى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، بغداد ١٩٧٦م .

٢٤ — علاقات المرابطين بالممالك النصرانية وبالدول الاسلامية ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

### دوزى :

٢٥ — ملوك الطوائف ، تعريف كامل كيلانى ، الطبعة الأولى القاهرة ، عام ١٩٣٣ م .

٢٦ — تاريخ مسلمى اسبانيا ج١ ، تعريب حسن حبشى ، دار المعارف ، القاهرة ، من كتاب

Histoire Des Musulmans D'Espagne

### روبرتسون الانجليزى :

٢٧ — اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا ، تعريب خليفة محمود ، طبع بولاق ، مصر ١٣٥٨ هـ .

### رجب محمد عبد الحليم :

٢٨ — دولة بنى حمود فى مالقة بالأندلس . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٦ م

### رينو :

٢٩ — تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا ، تعريب شكيب أرسلان ، طبع مصر ١٩٣٢ م .

**ستاتلى لين بول :**

- ٣٠ — قصة العرب في اسبانيا ، تعريب على الجارم ، دار المعارف ،  
مصر ١٩٦٠ م .

**السيد عبد العزيز سالم :**

- ٣١ — تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، لبنان ١٩٦٣ م

**شكيب ارسلان :**

- ٣٢ — الحلال السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج ١ ، ٢ ،  
الطبعة الأولى ، مصر ، ١٩٣٦ م .

**صلاح خالص :**

- ٣٣ — ابن عمار الأندلسي ، طبع بغداد ، ١٩٥٧ م .

**عباس محمود وآخرون :**

- ٣٤ — دائرة المعارف الاسلامية ، المجلد الثالث .

**عبد الرحمن فهمي :**

- ٣٥ — دراسة لبعض التحف الاسلامية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة  
القاهرة ، مجلد ٢٢ العدد الأول عام ١٩٦٠ .

**عبد العزيز الأهواني :**

- ٣٦ — الزجل في الأندلس ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ١٩٥٧ م .

**عبد العزيز بن عبد الله :**

- ٣٧ — العربية لغة العلم والحضارة .

**عبد السلام أحمد الرفاعي :**

- ٣٨ — الحاجب المنصور ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٣٦ م .

**عيسى اسعد :**

- ٣٩ — الطرفة النقية من تاريخ الكنيسة المسيحية ، طبع سوريا  
١٩٢٢ م .

### غوستاف لوبون :

- ٤٠ — حضارة العرب ، تعريب محمد عادل زعيتر ، مصر ١٩٤٥ م .

### فون كريبز :

- ٤١ — الحضارة الاسلامية ومدى تأثيرها بالمؤثرات الأجنبية ، تعريب مصطفى بدر ، مصر ١٩٦٧ م .

### فيليب حتى :

- ٤٢ — تاريخ العرب ( المطول ) ، ج ١ ، ٢ ، الطبعة الرابعة ، مصر ١٩٦٥ م .

### كليسا سارنلي :

- ٤٣ — مجاهد العامري ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦١ م .

### كامل كيلاني :

- ٤٤ — نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٢٤ م .

### كيزو :

- ٤٥ — التحفة الأدبية في تاريخ تمدن الممالك الأوربية ، تعريب حنين نعمة الله الخوري ، الاسكندرية ١٨٧٧ م .

### ليفى فروفنسال :

- ٤٦ — الاسلام في المغرب والأندلس ، تعريب السيد عبد العزيز سالم وآخرون ، القاهرة .

- ٤٧ — أدب الأندلس وتاريخها ، تعريب حمد عبد الهادي شعيرة ، القاهرة ١٩٥١ م .

- ٤٨ — الشرق الاسلامي والحضارة العربية الأندلسية ، تطوان بالمغرب ، ١٩٥١ م .

- ٤٩ — تراث الأندلس ، مجلة الكاتب المصري ، يناير ١٩٤٧ م .

### محمد عبد الله عنان :

- ٥٠ — دولة الاسلام في الأندلس ، العصر الأول ، القسم الثاني ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٥٢ م .

٥١ — دولة الطوائف ، العصر الثاني ، القاهرة ١٩٦٩ م .

٥٢ — عصر المرابطين ، العصر الثالث ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٤ م .

٥٣ — نهاية الأندلس ، العصر الرابع ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٩ م .

٥٤ — تاريخ العرب في إسبانيا ، الطبعة الأولى ، مصر ، ١٩٢٤ م .

#### محمد الفاسي :

٥٥ — الأعلام الجغرافية الأندلسية ، مجلة البيئة ، مجلة السنة الأولى ، العدد الثالث ، يولية ١٩٦٢ م .

#### محمد كرد علي :

٥٦ — غابر الأندلس وحاضرها ، الطبعة الأولى ، مصر ١٩٢٣ م .

#### محمد العروسي المطوي :

٥٧ — الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، تونس ١٩٥٤ م .

#### محمود علي مكي :

٥٨ — مدريد العربية ، القاهرة .

#### مصطفى الزرابي :

٥٩ — قوة النفوس والعيون بسبر ما توسط من القرون ، مغرب عن الفرنسية ، طبع مصر ١٨٦٢ م .

#### ماتويل جوميث مورينو :

٦٠ — الفن الاسلامي في إسبانيا ، تعريب لطفي عبد البديع ، طبع القاهرة .

#### نيكل :

٦١ — مختارات من الشعر الأندلسي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٤٩ م .

#### هشام سليم أبو رميلة :

٦٢ — نظم الحكم في الأندلس في عصر الخلافة ، رسالة ماجستير غير منشورة ، القاهرة .

٦٣ — تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، تعريب محمد

عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٤٠ م .



### ثالثا - المراجع الأجنبية

#### **Americo Castro :**

1. The structure of spanish History, New Jersey 1954.

#### **Allen ( W. E. D ) :**

2. An attempt to reconstitute Al-Ghazal's embassy to the vikings, London 1960.

#### **Aznar ( Jase Cemon ) ,**

3. Las constantes de arte espanol, Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos de Madrid V. 3 1965.

#### **Balbas ( Leopoldo Tores ) ,**

4. Las edificios hispeno - Musulmanus, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V. I 1953.

#### **Cantar, ( Sanchez )**

5. Viajeros espanoles en Oriente, en Revista del instituto Egiptio de Madrid, V. 4 1956.

#### **Chapman ( charles, E. ),**

6. A history of spain, founded on The Historia de Espanay de la civiligacion Espanala of Altamira U.S.A. 1931.

#### **Codera ( Don Francisoo ),**

7. Numismatica, Madrid 1879.

#### **Conde,**

8. History of the Domination of the Arabs In spain, London.

**Crow ( John A. ) :**

9. Spain : The root and the flowers, New York 1963.

**Dozy :**

10. Recherches sur L'Histoire et la litterature De L'Espagne  
Leyde 1881.

11. A history of the Moslems in Spain London 1913.

**Guillon :**

12. Trois Monnaies Latines - Arabes, en Revista del Instituto  
Egipcio de Madrid, V., 1 1953.

13. Les monnayages latino-Arabes, en Revista del Instituto  
Egipcio de Madrid, V., 3, 1955.

**Hole ( Edwyn ),**

14. Spain under the Muslims, London 1958.

**Livermore ( Harold ),**

15. A history of Spain, London 1958.

**Lluis ( Jaime y Navas Brusi )**

16. Observaciones sobre la amonidacion, en Revista del

**Mones ( Hussain )**

17. De nuevo sobre los fuentes arabes de la historia del  
Egipto, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid V., 2,  
1954.

18. Abd Al - Rahman III, en Revista de Instituto Egipcio de  
Madrid, V., 9 - 10, 1961 - 1962.

**Murphy ( James Cavanah )**

19. The history of the Mohamed Empire in Spain, London  
1916.

**Pidal ( Ramon Menendez ) ,**

20. The Cid and his Spain, London 1934.
21. España como eslabón, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 1, 1953.
22. España y la introducción de la ciencia árabe, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 3, 1955.

**Prieto y Vives :**

23. Los Reyes de Taifas, Madrid, 1926.

**Provencal ( Levi ) ,**

24. Inscriptions Arabes D'Espagne, Leyde, 1931.

**Vila ( Jacinto Bosch ) ,**

25. Los Documentos Árabes, en Revista de Instituto Egipcio de Madrid, V., 5, 1957.

**Vallicrosa ( Jose Millas ) ,**

26. El quehacer astronómico de la España Árabe, en Revista del Instituto Egipcio de Madrid, V., 5, 1957.

Diccionario Español Árabe.

Diccionario Geográfico de España.



۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

## محتویات کتاب

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

## محتویات کتاب

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

۱۳۳۳/۱۳۳۳/۱۳۳۳

## فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	
٥	مقدمة
١٣	بحث في أهم المصادر والمراجع
٢٧	تمهيد تاريخي

### الباب الأول

#### العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر أمراء بني أمية

	<b>الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر بني أمية</b>
٤٧	أولا : ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها باسبانيا النصرانية
٤٨	١ — سمات عصر بني أمية بالنسبة للعلاقات مع ممالك اسبانيا النصرانية
٤٨	٢ — عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا النصرانية
٥٢	٣ — عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا النصرانية
٥٩	٤ — المقاومة النصرانية داخل الأندلس الإسلامية وارتباطها بمقاومة اسبانيا النصرانية ضد مسلمي الأندلس
٦٨	<b>ثانيا : ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة في علاقتها بالأندلس الإسلامية</b>
٨٩	١ — النظام السياسي في اسبانيا النصرانية وأثره في العلاقة مع مسلمي الأندلس
٩٣	٢ — الطبيعة الجغرافية والبشرية وأثرها في الصراع مع مسلمي الأندلس
٩٨	٣ — العامل الديني وأثره في الأوضاع الداخلية وفي الصراع مع مسلمي الأندلس
١٠٥	٤ — علاقة ممالك اسبانيا النصرانية بعضها ببعض وأثر ذلك في صراعها مع مسلمي الأندلس
١٠٧	

رقم الصفحة

## الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية

- واسبانيا النصرانية في عصر بنى أمية ... ١١١  
( أ ) طبيعة العلاقات بين بنى أمية وبين نصارى الشمال  
الاسباني : صراع سياسى وعسكرى ... ١١٢  
( ب ) الصراع بين أمراء بنى أمية وبين نصارى الشمال الاسباني ... ١٢٧  
١ — علاقة أمراء بنى أمية بمملكة جليقية وأشتريس ( ليون ) ... ١٢٩  
٢ — علاقة أمراء بنى أمية بمملكة نبرة (نافار أو اليشكتس) ... ١٤٩  
٣ — علاقة أمراء بنى أمية بامارة قطلونية ( برشلونة ) ... ١٤٩

## الباب الثانى

### العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بنى أمية

#### الفصل الأول : الظروف والعوامل التى أثرت في العلاقات بين

- الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بنى أمية ... ١٦٣  
أولا : ظروف الأندلس وأحوالها المؤثرة في علاقتها باسبانيا  
النصرانية ... ١٦٣  
١ — سمات عصر الخلافة فيما يتعلق بعلاقة مسلمى الأندلس  
بنصارى الشمال الاسباني ... ١٦٤  
٢ — عوامل القوة وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا  
النصرانية ... ١٦٦  
٣ — عوامل الضعف وأثرها في العلاقات مع ممالك اسبانيا  
النصرانية ... ١٧٨

#### ثانيا : ظروف اسبانيا النصرانية وأحوالها المؤثرة في علاقاتها

- بالأندلس الإسلامية ... ١٩٠  
١ — أحوال مملكة ليون وأثرها في العلاقة مع مسلمى الأندلس ... ١٩٣  
٢ — أحوال مملكة نبرة ( نافارا ) وأثرها في العلاقة مع  
مسلمى الأندلس ... ٢٠٠  
٣ — أحوال اماره قشتالة وأثرها في العلاقات مع مسلمى  
الأندلس ... ٢٠٣

رقم الصفحة

## الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية

واسبانيا النصرانية في عصر خلفاء بني أمية ... ..

- ١ — طبيعة العلاقات بين مسلمي الأندلس ونصارى الشمال  
وأهداف الصراع بينهما ... .. ٢١١
- ٢ — علاقات خلفاء بني أمية بنصارى الشمال الاسباني في  
عصر القوة ... .. ٢١٨
- ( أ ) علاقة خلفاء بني أمية بمملكة ليون ... .. ٢١٨
- ( ب ) علاقة خلفاء بني أمية بمملكة نبرة ( نافار ) ... ٢٤٠
- ( ج ) علاقة خلفاء بني أمية بامارة قشتالة ... ٢٥٠
- ( د ) علاقة خلفاء بني أمية بامارة قطلونية ( برشلونة ) ٢٥٦
- ٣ — علاقة خلفاء بني أمية بتصارى الشمال الاسباني في  
عصر ضعف الخلافة ... .. ٢٦٣

## الباب الثالث

### العلاقات السياسية بين الأندلس الإسلامية

واسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف

## الفصل الأول : الظروف والعوامل التي أثرت في العلاقات بين

الأندلس الإسلامية واسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف ... ٢٧٠

أولا : ظروف الأندلس الإسلامية وأحوالها المؤثرة في علاقتها

بأسبانيا النصرانية ... .. ٢٧١

( أ ) الفتنة البربرية وأثرها في قيام عصر ملوك الطوائف وفي

العلاقة مع ممالك أسبانيا النصرانية ... .. ٢٧١

( ب ) سمات عصر ملوك الطوائف ومظاهر الضعف فيه ... ٢٧٣

( ج ) عوامل الضعف وأثرها في علاقة ملوك الطوائف بأسبانيا

النصرانية ... .. ٢٨٢

١ — علاقة ملوك الطوائف بعضهم ببعض وصراهم

على السلطان ... .. ٢٨٢



## رقم الصفحة

- ٢ — الصراع الداخلي في كل مملكة على الحكم ... ٢٨٧  
 ٣ — فساد ملوك الطوائف ... ٢٩٢  
 ٤ — فساد طبقة الوزراء والموظفين ... ٢٩٧  
 ٥ — انتشار العيوب الخلقية والاجتماعية والاقتصادية ...  
 بين أفراد الشعب ... ٣٠٠

## ثانيا : ظروف اسبانيا النصرانية واحوالها المؤثرة في علاقتها بالأندلس الاسلامية :

- ( ١ ) أحوال ممالك اسبانيا النصرانية ... ٣٠٤  
 ١ — أحوال مملكة قشتالة وليون وتأثيرها في العلاقة بملوك الطوائف ... ٣٠٤  
 ٢ — أحوال مملكة نبرة ( نافار ) وتأثيرها في العلاقة بملوك الطوائف ... ٣١٠  
 ٣ — أحوال مملكة أرغونة وتأثيرها في العلاقة بملوك الطوائف ... ٣١٣  
 ٤ — أحوال إمارة قطلونية ( برشلونة ) وتأثيرها في العلاقة بملوك الطوائف ... ٣١٧

## ( ب ) عوامل القوة والضعف في ممالك اسبانيا النصرانية

- وأثرها على العلاقات مع ملوك الطوائف ... ٣١٩  
 ١ — ازدياد قوة الملكية ... ٣١٩  
 ٢ — ضعف طبقة النبلاء ... ٣٢٣  
 ٣ — دور الكنيسة والبابوية في اذكاء الحروب الصليبية بالأندلس ... ٣٢٥

## الفصل الثاني : مظاهر العلاقات السياسية بين الأندلس الاسلامية

- واسبانيا النصرانية في عصر ملوك الطوائف ... ٣٣٣  
 ١ — علاقات مملكة سرقسطة بالممالك النصرانية في اسبانيا ٣٣٦  
 ٢ — علاقات مملكة بلنسية بالممالك النصرانية في اسبانيا ٣٤٦  
 ٣ — علاقات مملكة دانية والجزائر الشرقية بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٥٤  
 ٤ — علاقات مملكة شنتمرية الشرق بالممالك النصرانية في اسبانيا ... ٣٥٨

- ٣٦٣ ٥ — علاقات مملكة غرناطة بالمالك النصرانية فى اسبانيا ...  
 ٣٦٨ ٦ — علاقات مملكة بطليوس بالمالك النصرانية فى اسبانيا ...  
 ٣٧٣ ٧ — علاقات مملكة طليطلة بالمالك النصرانية فى اسبانيا ...  
 ٣٨٣ ٨ — علاقات مملكة اشبيلية بالمالك النصرانية فى اسبانيا ...

## الباب الرابع

### اهم التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية واسبانيا النصرانية فى عصر بنى امية وملوك الطوائف

- ١ — العوامل التى أدت الى التأثير الحضارى بين الأندلس  
 ٤٠٥ الاسلامية واسبانيا النصرانية ... ..  
 ٢ — قنوات وأساليب التأثيرات الحضارية بين الأندلس الاسلامية  
 ٤١١ واسبانيا النصرانية ... ..  
 ٣ — مظاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاجتماعية ...  
 ٤٣١ ٤ — مظاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الثقافية ...  
 ٤٤٧ ٥ — مظاهر التأثيرات الحضارية فى ميدان الحياة الاقتصادية ...  
 ٤٦٦ الخاتمة ... ..  
 ٤٨١ الملاحق ... ..  
 ٤٨٩ الجداول والخرائط ... ..  
 ٥٠٩ المصادر والمراجع ... ..  
 ٥٢٩ الفهرس ... ..  
 ٥٣٩

٨٥/٤٤٦٥

رقم الايداع بدار الكتب المصرية

شركة دار الاشعاع للطباعة  
 ١٤ ش عبد الحميد السيدة زينب القاهرة

AL-ĀLĀQĀT BAIN AL-ANDALUS  
AL-ISLĀMIYA WA ISPĀNĪĀ AL-NASRĀNIYA  
FI ĀHD BANĪ Umayya  
WA MŪLUK AL-TAWĀ'IF

By

DR - R.M. ABD EL HALIM



PUBLISHERS

DAR AL-KUTOUB AL-ISLAMIYA

DAR AL-KITAB ALLUBNANI

BEIRUT

DAR AL-KITAB AL-MASRI

CAIRO